القاهرة تولوز

محمد الفقي

♦ رواية: القاهرة تولوز

♦ تأليف: محمد الفقي

ISBN : 978-139-315-085-5

ASIN : B08SCND9PV

m.a.elfeki@gmail.com

فهرس

الخروج

ودخلتُ مقصورة طائرة الإر فرانس، ومشيت في الممر بين صفوف المقاعد وأنا أحمل حقيبة الهاندباج السوداء في يد، وفي اليد الأخرى تذكرة الطائرة والكارت المكتوب عليه رقم مقعدي. كنت في منتهى السعادة وأنا لا أصدق بأنني قد نجحت أخيراً في السفر إلى تولوز، بعد أن كان الأمر مستحيلاً. كانت هناك نغمات خافتة مهدئة للأعصاب تنساب في مقصورة الركاب، وكان جو المقصورة نقي ومعقم ومنعش.

كانت الطائرة أحد طرز الإرباص الواسعة؛ في الوسط أربعة كراسي متلاصقة، تمنيت من أعماق قلبي ألا أجلس على أحدها، خصوصاً في كرسيي المنتصف، ثم، على يمين الممر كرسيان، وعلى اليسار مثلهما. وكان المسافرون معظمهم من المصريين، وهناك قليل من الأجانب. لكن الصعود إلى الطائرة، والجلوس، كان في ترتيب ونظام، بلا أية فوضى، وكان من حسن حظي أن العنصر المصري قد تنازل عن أحد خصائص شخصيته القومية العبقرية في المكان، وفي الزمان، وفي الفوضى. وتذكرت ما شهدته وأنا طفل صغير أثناء السفر مع أبي وأمي وأختي في رحلات الترانزيت من القاهرة إلى طرابلس، مروراً بأثينا أولاً، أو فالِتا، والفوضى التي كان الركاب المصريون يحدثونها عند ركوب الطائرة أو النزول منها، والهرج والمرج في ممرات الطائرة.

ومحب أيضاً، وهو كثير السفر وركوب الطائرات، طالما اشتكى من فوضى المصريين في الطائرات؛ خصوصاً تلك التي

تحدث عند العودة إلى مصر، لا عند السفر منها، وتبدأ تلك الفوضى من على أرض المطار الأجنبي الذي يغادر فيه المصريون إلى القاهرة، وتقوى وتشتد عندما تدخل الطائرة في الأجواء المصرية؛ من وقوف وتنزيل الهاندباجات أثناء هبوط الطائرة، وتصل حد التدافع بالأيدي عند النزول من الطائرة، وكأنهم لا يطيقون صبراً على استئناف الفوضى والتلوث والقبح، ربما نتيجة تسرب فيروس الفوضى القومي الحميم المعبأ في الأجواء المصرية الحميمية إلى الجميع، عندها يُشاهد المرء منظراً أجارك الله، وكأنه في أحد أتوبيسات الأقاليم!

لكن الحمدلله أنني كنت في مرحلة مغادرة الأراضي القومية، ولم يحدث أي تكالب، وراح كل من أمامي من رجال وسيدات ينظر كل منهم إلى رقم المقعد في يده مقارناً بينه وبين أرقام المقاعد التي يراها أثناء سيره، ثم يدخل إلى حيز الكرسي الخاص به، ويقف هناك وهو يضع الهاندباج أو الحقيبة الشخصية التي يحملها في المخازن العلوية للأمتعة اليدوية التي تعلو الرأس، ثم يغلقها بدفعها إلى أعلى، متيحاً الفرصة لمن ورائه بالمضي قدماً في البحث عن مقعده.

وجدت مقعدي قرب منتصف الطائرة، وكان يحمل رقم ثلاثة وسبعين، وكان إلى جوار الممر، بينما الكرسي الذي بجانب النافذة كان خالياً. وضعت حقيبتي السوداء في كابينة الأمتعة اليدوية أعلى رأسي، وأغلقتها، ثم جلست على الكرسي المريح المنجد بقماش أزرق جديد، وقد شعرت شعوراً جميلاً، وكأن

الدنيا قد بدأت أخيراً تضحك لي، وأنني على أعتاب تحقيق كل أحلامي. ضغطت على زر في المسند الأيسر للكرسي، فرجع قليلاً إلى الوراء، فأرحت رأسي على قمته. حمدت وشكرت في سري، ورحت أفكر بأن نجاحي في السفر هو فعلاً معجزة، معجزة حقيقية!

عندما أعلمتني اللجنة المنظمة بموعد السفر إلى ورشة تولوز، رحت فوراً وقدمت طلباً للحصول على تأشيرة شنجن للسفر إلى فرنسا. حجزت أولاً موعداً بالهاتف لتقديم الطلب بعد عشرة أيام، ثم ذهبت في الموعد وملئت الاستمارات اللازمة، وأرفقت المستندات المطلوبة، ثم جلست في الصالة المزدحمة للقنصلية الفرنسية بالقاهرة أكثر من ساعتين متواصلتين حتى جاء دوري في تقديم الملف، فتقدمت إلى شباك لكاونتر متعدد الشبابيك يجلس خلفها جميعاً موظفون مصريون، وطلب مني الموظف المسؤول عن إدارة الشباك ثلاثين يورو مصاريف تأشيرة، فأعطيته ثلاثين يورو مصاريف تأشيرة، ثم راجع أوراق الملف، وطلب مني جواز السفر، فأعطيته جواز السفر، فر أوراقه فوجدها خالية من أية تأشيرات لأي مكان لأنني استخرجته فقط منذ شهر ولم أسافر إلى أي مكان من قبل، فنظر لي بآلية وطلب مني المرور بعد أسبوعين عصراً، في ساعة معينة حددها، لمعرفة النتيجة.

ذهبت إلى القنصلية بعد أسبوعين عصراً، في الساعة التي حددها الموظف المصري، وكانت مزدحمة كالمرة الأولى،

وكانت معتمة لأنهم لم يضيئوا الأنوار. وشاهدت بعض الوجوه التي تذكرت أنها كانت معي في نفس الصالة أثناء تقديم الملف وجواز السفر، وراح شخص مصري واقف أمام الكاونتر، لا خلفه، ينادي على أسمائنا وهو يحمل عدداً ضخماً من جوازات السفر بين يديه ويعطي لكي واحد يذكر اسمه جوازه الخاص به، فيفتحه ذاك ليعرف النتيجة إن كانوا قد لصقوا تأشيرة شنجن في إحدى الصفحات، أم رفضوا، وكنت أنا من المرفوضين.

لا تستطيع في مصر أن تعرف سبب رفضك من قبل السيد شنجن، أو السيدة شنجن. لا أعرف إن كان الوضع كذلك في باقي أنحاء العالم أم لا. لكن الشيء المقرف أنهم يُصدِّرون لك موظفاً مصرياً، ابن بلدك، حتى يعاملك بتعال وتأفف، ويرفض الإجابة عن أي سؤال، وكأنك خادم عنده، أو كأنه رضوان حارس الجنة.

وهكذا، فلم أعرف سبب الرفض. وسألت محب عبر الإيميل. وبعد أن سألني بضعة أسئلة وجاوبت عليها عبر الإيميل، أفتى بأنه مئة في المئة السبب هو المهنة المكتوبة في بطاقتي القومية، التي انتقلت لتصبح على جواز سفري: حاصل على بكالوريوس معهد السينما. وقال إن شنجن يرفض أوتوماتيكياً كل من ليس له مهنة، مثل حضرتي، خوفاً من أن يروح هناك لأوروبا ويبلط في الخط عندهم فيزاحم أهل البلد الأوروبيين في أعمالهم وأرزاقهم وأكل عيشهم.

ولكنه قال في الإيميل: ملحوقة. وطلب مني أن أذهب إلى

المستشار الثقافي لسفارة فرنسا في القاهرة، وأن أطلب منه كتابة رسالة توصية، ثم أرفقها بملف الأوراق من جديد، وأقدمه إلى الموظف المصري في شباك قنصلية فرنسا من جديد.

ومن حسن الحظ أنني كنت أعرف الأخ ألبير لوزاراريان المستشار الثقافي لسفارة فرنسا، وتقابلنا أكثر من مرة أيام ما كانت ألكس هنا في القاهرة. ورغم أنني لم أكن استلطفه لأنه كان متعالياً بلا لزوم، وأظن أنه لم يكن يستلطفني هو أيضاً لأنني أحرجته مرة بخصوص معلوماته الخاطئة عن سيد درويش. ففي ذات ليلة من الليالي، كنت مع أصدقاء فرنسيين ومصريين على مقهى على الرصيف بلا اسم في أحد شوارع الزمالك، وكان ألبير لوزاراريان يبدي إعجابه بألحان الشيخ سيد، وقال ضاحكاً إن هذا كله من نتاج الشهرين أو الثلاث التي قضاها سيد درويش في إيطاليا، فما بالك لو كان قد أمضى وقتاً أطول. واندهشت ساعتها من المعلومة الخاطئة لسيادة المستشار الثقافي لفرنسا بجلالة قدرها على سن ورمح، فرنسا حاضنة الثقافة ومفرخة المثقفين وحاملة لواء الثقافات، البيه طلع بدنجان وبطيخ وأبيض في أبيض. صححت له المعلومة بنبرة جادة وفي غاية الصرامة أمام الأصدقاء المشتركين: سيد درويش عمره ما سافر إيطاليا يا ألبير بيه، وتحياتي لحضرتك!

ولكنني قدرت أن ألبير بيه سيرحب بمساعدتي من باب أن عقله كبير ودي كلها حاجات صغيرة وكلنا بيبقى عندنا ساعات معلومات غلط ومين فينا معصوم وبرضو إحنا في الآخر حبايب

وياما كلنا مع بعض عيش وملح وكاليماري وجمبري وورق عنب وكفتة وخلافه.

اتصلت بألبير لوزاراريان على الموبايل وشرحت له المسألة، ورسالة التوصية المطلوبة من حضرته، فرحب على الفور وأعطاني موعداً في مكتبه بالسفارة، ورحت وشربت عنده واحد فنجان قهوة يوناني مضبوط، وأعطاني رسالة التوصية في ظرف مقفول ومبرشم، ولهذا السبب لم أستطع الاطلاع على ما كتبه الصديق ألبير.

اتصلت بخدمة تحديد مواعيد تقديم طلبات شنجن في شركة فودافون لخدمات المحمول، لأن القنصليات الأوروبية في القاهرة فضلت أن تصدر لنا موظفين مصريين حتى في موضوع تحديد مواعيد للذهاب إلى قنصلياتهم. حددوا لي موعداً بعد عشرة أيام، بعد أن اطمئنت بنت فودافون أنها حصلت مني على مبلغ محترم بسبب مطها المتعمد للمكالمة حيث راحت ترغي وتزبد وتزيد وتعيد في الإجراءات المطلوبة والورق المطلوب.

ومن جديد، ذهبت إلى القنصلية الفرنسية في الموعد صباحاً، ووقفت في الطابور الطويل خارج القنصلية، وأدخلنا حارس أمن مصري، كالماشية، من خلال قضبان وملفات حديدية على باب المبنى. ثم استلمت الأبليكيشن المطلوب ملؤه، وملؤته بالفرنسية، التي تحسنت كثيراً بعد العامين اللذين قضيتهما مع ألكس في القاهرة، وأرفقت به المظروف المبرشم توصية المستشار الثقافي

الفرنسي بالقاهرة، وباقي الأوراق الخاصة بورشة العمل ومواعيدها، وتعهد برنامج ميديا في الاتحاد الأوربي بكافة نفقات السفر والإقامة وتذاكر الطائرات ذهاباً وإياباً إلى ومن تولوز.

انتظرت ساعتين في الصالة المزدحمة حتى أضاء الرقم الخاص بي بالضوء الأحمر فوق أحد شبابيك الكاونتر، فقمت وتوجهت إلى موظف آخر غير الموظف المصري الذي قابلني في المرة الأولى. أخذ مني الملف، وناولته، دون أن يطلب، ثلاثين يورو، وجواز السفر. فر جواز السفر ووجده خالياً من أية تأشيرات، فطلب مني أن أعود لمعرفة النتيجة بعد أسبوعين عصراً، في نفس الساعة المعينة التي حددها لي زميله في المرة السابقة، وكان موعدها قبل سفري إلى فرنسا بأربعين ساعة فقط.

ُرفض طلب التأشيرة للمرة الثانية! حتى مع وجود توصية من مستشار فرنسا الثقافي في القاهرة!

الغريب، والمثير للأعصاب، أنه تقريباً جميع الإخوة والأخوات العلمانيين والعلمانيات، أي أولئك الذين تشتم من ملابسهم وهيائتهم وطريقة كلامهم أنهم علمانيون، قد رفضت طلباتهم للحصول على التأشيرة. والذي يحرق أعصابك أن كل الإسلاميين، أي أولئك الذين تشتم من ملابسهم الباكستانية وهيائتهم وذقونهم وزبيباتهم ونبرتهم أنهم سلفيون، قد منحوا جميعاً التأشيرات!

وتذكرت وأنا واقف في صالة القنصلية الفرنسية المعتمة

عصراً قصة كنت قد قرأتها في إحدى روايات دوستويفسكي على ما أتذكر، ربما كانت (الشياطين)، وربما أتت على لسان كريلوف؛ أن سحابة مطيرة مرت على حقول يابسة جافة محترقة من الظمأ، فلم تمطر عليها، ثم راحت تهطل مطراً مدراراً فوق البحر.

كانت هناك شابة مصرية في أواخر العشرينيات واقفة تبكي بعد أن رفضوا منحها التأشيرة، وسمعتها تقول لرفيقة لها، من خلال بكائها، إن زوجها الطبيب المصري طالب الماجستير في باريس ينتظرها هناك**!** إديني عقلك**!** لماذا تفعل فرنسا هذا بنا، ولماذا تفعل أوروبا هذا بنا؟**!**

كان هناك من يبكون، وكان هناك من يستجدون، وشعرت بالحزن وشعرت بالقرف وشعرت بالمهانة. وأحسست إحساساً قوياً جارفاً بقيمة مصر والمصريين بين الأمم. لم تكن قنصلية فرنسا استثناءً، فقد سمعنا لسنوات وسنوات قصصاً مهينة عن معاملة القنصليات الأوروبية للمصريين. سفارة أمريكا أحط وأضل وألعن سبيلاً.

قد يقول قائل إن هناك أيد خفية في إدارة شنجن تشجع السلفيين والجماعات الإسلامية على السفر إلى فرنسا وأوروبا، وتحرم العلمانيين من أن تطأ أقدامهم هناك، ربما لأن هناك مصلحة لدى هؤلاء في إثارة اليمين القومي الشعبوي في فرنسا وفي باقي أوروبا حتى يقلب الطاولة ويصل إلى الحكم باكتساح

شعبي نتيجة خوف ونفور الأوروبيين من تلك الأشكال التي تملأ بلادهم.

طبعاً أنت تقول الآن في سرك إن هذه هي نظرية المؤامرة وإن نظريات المؤامرة هي أحد أسباب تخلفنا الفكري والمادي والمعنوي. ولكن اسمح لي أن أتساءل أنا أيضاً بحق عن الغاية التي تكمن وراء رفض سفر العلمانيين المحبين لفرنسا وللثقافة وللفن الفرنسي، ومنح التأشيرات لذوي الذقون والجلاليب الباكستانية؟**!** كنت، ومازلت، من الرافضين لتصديق نظريات المؤامرة، لكن المرء يجد نفسه في ظروف كهذه ميالاً إلى افتراض العكس.

رجعت على أعقابي إلى البيت، أجر أذيال الخيبة والفشل والعار، مملوء بفائض ثقيل الوطأة من الكآبة، كأني منبوذ أو مصاب بمرض معدٍ وخطير يستوجب النفي عن فرنسا المتحضرة، واسود العالم في وجهي، فدفنت أحزاني في زجاجة رأس العبد، ورحت أعب الكأس وراء الأخرى، بعد مزج رأس العبد بالسفن أب ومكعبات الثلج.

وقبل أن أسكر تماماً، أرسلت إيميلاً إلى محب أعلمه فيه على اللي جرى من فرنسا وعمايل فرنسا. وأرسلت أيضاً رسالة إلى ألكس أعلمها فيها بما جرى من وطنها تجاه راجي عفو ربه الفقير إلى الله. وفكرت أن أكتب إلى خافيير؛ مدير شركة بروجراما ميديا التابعة للاتحاد الأوروبي، لكي أعلمه بتعذر سفري بسبب

مشاكل في منحي تأشيرة شنجن، ولكنني لم أحب أن أرسل له إيميلاً بعد الظهر وبعد انتهاء ساعات العمل، فذلك لن يكون مهنياً بأي حال من الأحوال، وسيعطي انطباعاً غير مستحب بأنني أعمل في شركتي بعد مواعيد العمل الرسمية، وهو انطباع سيء لا يجب أن تسم نفسك به أمام أي أوروبي. كان برنامج ميديا في الاتحاد الأوروبي يعطي منحاً لدول حوض البحر الأبيض المتوسط، بعد إجراءات كثيرة ومعقدة، تتضمن لجان قراءة وتحكيم للمشروعات المقدمة من قبل خبراء أوروبيين، ولكنه لا يعطي منحاً إلا للشركات فقط، وليس لديه برنامجاً لإعطاء منح للأفراد. فأضطررت أن أكذب، شفهياً وورقياً، وادعيت أن عندي شركة إنتاج سينمائي ناشئة، وصممت ختماً للشركة الوهمية، وأعجبني التصميم للغاية، ووضعته على الأوراق اللازمة لسبك الموضوع، ومشى الحال، ولم تكتشف الكذبة البريئة، وأعطوني المنحة.

كذب؟! غش؟! نصب واحتيال؟!

في هذا العالم المملوءُ أخطاءً مطالبٌ وحدك ألا تخطئا.

مرة في الستينيات وقع حادث في السيرك المصري أثناء العرض. كان بهلوان يمشي على الحبل، واختل توازنه، فوقع ومات أمام الجمهور. ونشرت الصحف الخبر في اليوم التالي. وعلق بعضهم قائلاً إنه قد قام بحركة خاطئة وهو يمشي على الحبل. فكتب أحمد عبد المعطي حجازي قصيدته الرائعة (مرثية

لاعب سيرك):

في العالم المملوء أخطاءَ

مطالبٌ وحدك ألا تخطئا

لأن جسمك النحيل

لو مرة أسرع أو أبطأ َ

هوى، وغطى الأرض أشلاءَ

في أيِّ ليلةٍ ترى يقبع ذلك الخطأ

في هذه الليلة! أو في غيرها من الليالْ

حين يغيض في مصابيح المكان نورها وتنطفئ

ويسحب الناس صياحهم

على مقدمك المفروش أضواء

حين تلوح مثلَ فارس يجيل الطرف في مدينته

مودعاً، يطلب وجد الناس، في صمت نبيل

ثم تسير نحو أول الحبال

مستقيماً مؤمناً

وهم يدقون على إيقاع خطوك الطبول

ويملأون الملعب الواسع ضوضاء

ثم يقولون: ابتدئ

في أي ليلة ترى يقبع ذلك الخطأ

حين يصير الجسم نهب الخوف والمغامرة

وتصبح الأقدام والأذرع أحياء

تمتد وحدها

وتستعيد من قاع المنون نفسها

كأن حيّات تلوثْ

قططاً توحشت، سوداء بيضاء

تعاركت وافترقت على محيط الدائرة

وأنت تبدي فنك المرعب آلاء وآلاء

تستوقف الناس أمام اللحظة المدمرة

وأنت في منازل الموت تلج عابثاً مجترئا

وأنت تفلت الحبال للحيال

تركت ملجأ، وما أدركت بعد ملجأ

فيجمد الرعب على الوجوه لذة، وإشفاقاً وإصغاء

حتى تعود مستقراً هادئا

ترفع كفيك على رأس الملأ

في أي ليلة ترى يقبع ذلك الخطأ

ممدداً تحتك في الظلمة

يجتر انتظاره الثقيل

كأنه الوحش الخرافي الذي ما روضت كف بشر

فهو جميل

كأنه الطاووس

جذاب كأفعى

ورشيق كالنمر

وهو جليل

كالأسد الهادئ ساعة الخطر

وهو مختال، فيبدو نائما

بينا يعد نفسه لوثبة مستعرة

وهو خفيّ لا يرى

لكنه تحتك يعلك الحجر

منتظراً سقطتك المنتظرة

في لحظة تغفل فيها عن حساب الخطو

أو تفقد فيها حكمة المبادرة

إذ تعرض الذكرى

تغطي عريها المفاجئا

وحيدة معتذرة

أو يقف الزهو على رأسك طيراً

شارباً ممتلئا

منتشياً بالصمت، مذهولاً عن الأرجوحة المنحدرة

حين تدور الدائرة

تنبض تحتك الحبال مثلما أنبضَ رامي وتره

تنغرس الصرخة في الليل

كما طوح لص خنجره

حين تدور الدائرة

يرتبك الضوء على الجسم المهيض المرتطم

على الذراع المتهدل الكسير والقدم

وتبتسمْ

كأنما عرفت أشياء

وصدقت النبأ

ولم أفكر كثيراً ولم أتردد وحسمت أمري فوراً وقررت عدم إرسال رسالة الآن إلى خافيير أعلمه فيها بما حدث، بل في الصباح مثل كل المهنيين المحترمين أصحاب الشركات المحترمة.

كنت حزيناً وخائفاً. الاثنين معاً. حزين جداً، وخائف جداً.

والخوف مبعثه أن مبلغ العشرة آلاف يورو المنحة، والتي كنت أعول عليها لصنع فيلمي التسجيلي الأول، كانت مشروطة بأن أحضر ورشة العمل المقامة في تولوز والمخصصة لتطوير وتحسين ومساعدة الحاصلين على هذه المنحة في صنع أفلامهم بطريقة مهنية، بحيث يساعدنا الخبراء على تلافي العيوب التي في مشاريع كل منا، بالإضافة، وهو الأهم، إلى تكوين علاقات جيدة مع مفوضي ومندوبي القنوات التلفزيونية الأوروبية المسؤولين عن شراء الأفلام الوثائقية بعد أن تنتهي، وأعطاء القروض الخاصة باستكمال الفيلم حتي يكتمل صنعه على أن يخصم القرض في هذه الحالة من المبلغ النهائي الذي ستشتري به القناة التلفزيونية الفيلم.

عدم السفر إلى تولوز كان يعني التهديد بأن يتم إلغاء المنحة، وهي احتمالية كانت كبيرة جداً في نظري وقتها. مما يعني إجهاض مشروع فيلم القرافة من ناحية. ومن ناحية ثانية استمرار حالة الفقر التي كنت أعانيها، والتي كنت آمل أن جزءًا من العشرة آلاف يورو سوف يحلها لمدة عام كامل على أقل تقدير. هذا ما فكرت فيه وقتها.

أما سبب الحزن فكان لأنها المرة الأولى في حياتي التي سأسافر فيها إلى خارج مصر. وإلى أين؟! إلى أوروبا! وأيّ أوروبا؟ فرنسا حتة واحدة! إديني عقلك بقى أحزن ولا ماحزنش؟!

صحيح أنني سافرت كثيراً في الطفولة مع أبي وأمي وأختي،

لكنها كانت كلها سفريات من وإلى طرابلس في ليبيا. كانت وقتها أيام المقاطعة العربية لمصر بسبب انفرادها بتوقيع معاهدة السلام مع إسرائيل، وبالتالي نسف توازن القوى العربي-الإسرائيل، والذي لا يخفى على أحد أنه كان أصلاً مختلاً من الأساس. وكانت ليبيا على رأس الدول الداعية إلى مقاطعة مصر، وكان كل شيء مصري ممنوع في ليبيا منع التحريم، لا غناء ولا أفلام ولا مسرحيات ولا أي شيء. ومن باب أولى لا خطوط جوية مباشرة بين طرابلس والقاهرة. ولذلك كان مئات الآلاف من المصريين العاملين في ليبيا يلجئون إلى السفر عبر الترانزيت؛ والذي ينحصر إما عبر العاصمة اليونانية أثينا، أو العاصمة المالطية فالِتا. وحسب ما سمعت فإن كلا الاقتصادين اليوناني والمالطي كانا في أوج ازدهارهما على حس موضوع الترانزيت هذا، وشهدا نمواً وطفرة لما يسبق لهما مثيل، ولن يأتي مثلهما مثيل. القاهرة-أثينا-طرابلس. القاهرة-فالِتا-طرابلس. وبالعكس.

كان أبي وقتها يعمل في إحدى شركات استيراد وبيع مصنوعات الغزل والنسيج في طرابلس الغرب، تمييزاً لها عن طرابلس الشرق في لبنان الحبيبة. وبحكم خبرته –بوصفه عاملاً سابقاً في مصانع المحلة الكبرى- كان مسؤولاً عن تقييم جودة العينات التي ترسلها الشركات الأجنبية للنسيج إلى ليبيا. قضينا هناك ثلاثة أعوام في طرابلس. وسافرنا بالطائرات لتمضية الأجازات الصيفية في مصر، ذهاباً وعودة، عن طريق أثينا مرتين، ومرة واحدة عن طريق فالِتا.

ومنذ العودة النهائية لأبي من ليبيا والاستقرار في مصر، لم أسافر خارج هذا البلد ولو لمرة واحدة. فلك أن تتخيل مقدار حزني على ضياع فرصة مؤكدة للسفر لفرنسا، وبدون أن أدفع من جيبي جنيهاً واحداً لا في تذاكر الطيران ولا في الإقامة ولا في الوجبات، بل ولا حتى في المشروبات! وكل هذا يضيع بسبب منيكة إدارة شنجن.

حالتا الحزن والخوف أدتا إلى حالة ثالثة جديدة. ولا أقصد بالجديدة أنها جديدة بالنسبة لي لأنني قد اعتدت عليها في الفترة الأخيرة، ولكن أقصد أنها جديدة لأنها انبثقت كنتيجة عن المادتين الأوليتين: الحزن، والخوف. كانت الحالة الجديدة الوليدة هي الرغبة في الإفراط. والإفراط أنواع، بحسب الخبراء. هناك الإفراط في الطعام الذي أكرهه كره العمى لأنني أكره الشعور بالامتلاء. ويقول العارفون بأن الإنسان يظل يأكل ويأكل ويحشر جوفه ويحشر بالرغم من أنه في الحقيقة لا يكون جائعاً. ويفسرون ذلك بأن ما يشعر به الإنسان حينها يكون جوعاً عاطفياً، لا جوعاً مادياً. وأن ذلك الشخص البائس يشعر لا شعورياً وكأن جواه فراغ وعاوز يملاه، فيروح يملئه بالطعام. وهناك جوع شبقي للجنس، الجنس عموماً، وهناك نوع مخصوص متفرع منه وهو الجوع للعاهرات. وفي ذلك يمكنك أن ترجع إلى مؤلفات الدكتور فرويد لمزيد من الفهم. وإذا ما اشتريت كتب فرويد ورحت تقرأ فيها، فستقابل الكثير من الحالات المرضية؛ النفسية، والسريرية، من قبيل مثلاً ربط الدكتور فرويد بين علاقة الشبق الجنسي وبين علاقة المريض

بأمه في الطفولة المبكرة، وأشياء كثيرة غريبة وشاذة من هذا القبيل.

وهناك حمى الشراء والإفراط في الشراء، وفي ذلك يمكن أن ترجع لكتابات نقاد النيولبرالية ومجتمع السوق الاستهلاكي وكلهم من المفكرين والفلاسفة المحترمين بلا منازع. وهناك الكثير من أنواع وأشكال وأنماط الإفراط، خصوصاً في عصرنا الحالي، ويمكن تشبيه حالة الإفراط عموماً بشهية الجراد المفتوحة على نحو مخيف، لدرجة قد تدفعه حتى لالتهام ذاته. ولكن الإفراط الذي وقع في شباكه الفقير إلى الله كان هو الإفراط في الكحوليات. وليس هذا مجال الشرح والتفسير والتعليل عن سبب هذه الأزمة الكحولية الخاصة بي، لأن هناك دائماً ما يدفعك للإفراط في الشراب. هناك دائماً ما يدفعك إلى الإفراط عموماً، وهذا كل شيء. ولكن أحب أن أطمئن الجميع بأنني في سبيلي إلى التخلص من هذه العادة الكريهة، وها أنا أعترف منذ البداية بأنها كريهة حتى تتأكد بأنني مزمع على الشفاء منها، وقد شفيت منها إلى حد كبير والحمد لله وقت كتابة هذه المذكرات، فأصبحت أشرب باعتدال وقصد وتدبير، ولكن في ذلك الوقت، وفي تلك الليلة بالذات، عزمت على شرب كل ما كان موجوداً في البيت، ولآخر قطرة.

وقد ذكرت منذ قليل أنني قد فتحت زجاجة رأس العبد وبدأت أشرب كأساً وراء كأس. وهذا يعني ببساطة أنه كان عندي في البيت زجاجة روم رأس العبد. وكنت أفضلها على براندي 84. لا

لشيء معين خاص بأي من المشروبين، فكلاهما مشروب حقير. ولكن لسبب عملي هو أن روم رأس العبد كان بعشرين جنيهاً، في حين أن زجاجة 84 كانت بأربعة وعشرين. كان كلاهما في نفس الحجم حتى لا تتذاكى!

قد يقول قائل: وهل تستخسر في نفسك أربعة جنيهات؟! فأقول له: أولاً، قلنا إن كلا المشروبين سقط، فلا فرق بينهما يستلزم إنفاق جنيه واحد زيادة. ثانياً، خذها من سكير قديم مثلي، وأنا لست مثلي، بعد الكأس الثالثة تستوي كل المشروبات في العالم. ثالثاً، أن الجنيه يا عزيزي عام 2006 كان لا يزال محتفظاً ببعض احترامه. كنت تستطيع أن تشتري شيئاً بالجنيه. بل عدة أشياء في الحقيقة. خصوصاً إن كنتَ في حالة إفلاس مزمن، كما كنتُ أنا وقتها.

وتذكرت وأنا مع ثالث كأس من روم رأس العبد أن لدي زجاجة جن مصرية مغلقة بالسدادة الفلين لم أفتحها ولم أجربها بعد. وكنت أظن أنني قد تورطت في شرائها آخر مرة ذهبت فيها إلى البقال.

كنت قد أجرت شقة رخيصة سكنت فيها وحدي بالقرب من منزل أحمد فرحات في دير الملاك بحدائق القبة. وكان هو الذي عثر لي عليها عندما كنت أبحث عن شقة للإيجار في القاهرة بلا جدوى لارتفاع أسعار الإيجارات ارتفاعاً جنونياً. ثم عرّفني أحمد فرحات على بقالة بالجوار اسمها بقالة (على كيفك)، ولكننا كنا

نسميها فيما بيننا بقالة (المجتمع المدني)، لأنها كانت تبيع سر الحياة؛ أي البيرة والخمور المصرية. كان المحل واسعاً جداً عبارة عن صالة كبيرة مضاءة إضاءة قوية بسقف عال جداً. وهناك طبعاً كل أنواع البقالة التي يحتاجها أي بيت. بالإضافة إلى رفوف علوية عالية تصل للسقف، داير ما يدور حوالين المحل كله، مرصوص عليها كل أنواع الخمور المصرية والنبيذ المصري. أما زجاجات البيرة فكانت متراصة في صناديقها البلاستيكية الخضراء والبنية في الركن البعيد عن باب المحل.

آخر مرة ذهبت إلى هناك، كنت أريد شراء زجاجة روم رأس العبد. نظرت إلى رفوف الخمرة فوجدتها خاوية. قال لي البائع وهو يبتسم:

- عاوز مَيَّة؟

قلت:

- أيوه، عاوز قزازة راس العبد. أمال هيّ الحاجة راحت فين؟!

- نقلناها الدكان اللى ورا المحل.

- ليه كده؟!

- لا أبداً بس فيه زباين مابتحبش تشوف المَيَّة.

تحسرت على حالنا وحال البلد. كان هناك وقت، عاصرته بنفسي والله العظيم، كانت فيه محلات البقالة في مصر الجديدة وحدائق القبة والمنيل ووسط البلد والزمالك تبيع الخمور إلى جانب البقالة في نفس المحل. كان محل (على كيفك)، أي (المجتمع المدني)، في دير الملاك، هو آخر محل بقالة أراه في مصر يبيع خموراً. ثم لحق بالسائد والشائع والمنتشر في ما أصاب المحروسة من تزمت وتعصب وتشدد. سقى الله تلك الأيام!

المهم، لفيت ورحت الدكان اللى ورا. كان دكاناً صغيراً للغاية انتقلت إليه زجاجات الخمور والنبيذ وصناديق البيرة فملئته عن آخره، حتى أن المرء لا يستطيع الدخول بل يقف على الباب، بينما البائع يتحرك بالداخل بصعوبة ليأتيه بطلباته.

طلبت زجاجة رأس العبد. ثم لمحت على رف على يساري، وأنا يساري، زجاجة غريبة لم أرى مثلها من قبل. كانت قارورة زجاجية شفافة تماماً، مثل قوارير الزجاج المصنوع يدوياً؛ منفوخة من أسفل ومسحوبة إلى أعلى، وكان بداخلها سائل شفاف كالماء، ومسدودة بسدادة من الفلين. سألت البائع:

- إيه القزازة دي أنا أول مرة أشوفها؟!

- دي جن.

- دي جن! جن إيه ده؟!

- جن بولانكي.

وناولني الزجاجة. فقرأت ملصقاً صغيراً جداً عليها باسم: "جن بولانكي". وكان التكت أبيض حائل اللون والزجاجة نفسها متربة، فقدرت أنها كانت مركونة فوق في رف علوي في (المجتمع المدني)، فلم يشاهدها أحد، ولم يطلبها أحد، وبقيت هناك لأعوام في غالب الظن. وراهنت نفسي وقتها بأنها لابد وأن تكون معتقة، بالرغم من أن كل خبرتي بالخمور المصرية أنها خمور حقيرة جداً، باستثناء البيرة، التي لا يمكن أن تعدها، اللهم إلا إذا كنتَ متساهلاً وواسع الصدر، من الخمور. لكن الحق أن الزجاجة صعبت عليّ وقررت أن أجبر بخاطرها بعد كل هذه السنين من الإهمال. وقلت: وبعد ما أشربها أبقى أملاها مَيَّة واحطها في التلاجة. كان شكلها جميلاً.

تركت كوب رأس العبد على الكومودينو بجوار السرير، وقمت إلى المطبخ وأحضرت زجاجة الجن، ورجعت إلى حجرة النوم التي هي في نفس الوقت حجرة العمل والكتابة، ووضعت أحد السي ديهات المجمعة لأغاني فيروز في مشغل الاسطوانات، وصعدت مجدداً على السرير واضطجعت.

بدأت فيروز تغني:

على مهلك يا با على مهلك قدامك عيد

الليلة السهر بيندهلك والصبح بعيد

على مهلك ضحك وطل من سياجو الفل

يا قمر على علينا يهل وبتطالو الإيد

على مهلك صوب الدار اسرقلك مشوار

سمعني شو في أخبار وشو في مواعيد

تمنيت لها العافية والصحة والسعادة. لم يعد لنا الآن في الوطن العربي إلا هي وزياد رحباني. المصريون أفسدوا الغناء العربي. والفضل لحميد الشاعري ورفاقه. وشرحه باقي الفنون. وفي السينما ربنا يعطي الصحة والعافية لمحمد خان وداوود عبد السيد ويوسف شاهين. لكن الحالة العامة للفنون والآداب في مصر سقط السقط. في العالم كله يا زعيم. على رأي عماد فكري: ليلٌ أسود فيه كل الأبقار سوداء. عبارة هيجل التي يحب الاستشهاد بها كثيراً.

لا يمكن التمييز الآن بين منتجات الفن ومنتجات السلع الاستهلاكية. قيمة الفن الآن هو ما يجلبه فقط من مال. أثناء الحرب الأهلية الروسية كانت أوراق الطباعة شحيحة، فكان الناس يطبعون الأشعار العظيمة على أوراق البنكنوت. شوف قد إيه كان الفن له قيمة أعلى من قيمة النقود! لكن هذا كان زمان، وزمان عدى وفات وفي ديله سبع لفات. الخطاب الفني الواعي المستنير الآن يتلاشى في كل أنحاء العالم. فوكو عرَّف الخطاب في أحد كتبه، ولا أذكر أيها تحديداً، بأنه = المعرفة + اللغة. أي

كيف تعبِّر باللغة عن ما تعرفه. لم يعد هناك الآن إلا قلة من الأصوات السينمائية الأصيلة الواعية في أمريكا: أوليفر ستون، وديفيد لنش، وجيم جارموش، وبول توماس أندرسون، ومايكل مور، وكونتن تارانتينو طبعاً.

مازلت أذكر عبارة عبد الوهاب عن أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق. كان التعليق المرير رداً على سؤال عن اكتساح موجة الأغاني الشبابية لحميد الشاعري ورفاقه للسوق الغنائي المصري والعربي. كان ذلك في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي. كنت في بدايات فترة المراهقة وفي المدرسة الإعدادية. لكن إفساد الذوق الموسيقي العربي استمر تأثيره إلى اليوم. ومن المنتظر أن يستمر ويستمر ويستمر. قانون ميرفي الذي يحب محب أن يستشهد به كثيراً: إذا كان هناك احتمال لأن تسوء الأمور فإن الأمور سوف تسوء فعلاً، إذا كان هناك احتمال لأن تتدهور الأمور فإن الأمور سوف تتدهور فعلاً. قانون ميرفي يستخدم في ناسا، وفي العمليات الجراحية الخطيرة. اتخاذ كل الإجراءات والاحتياطات الممكنة حتى نمنع احتمالية أي خطأ يمكن حدوثه. لأنه لو كان هناك احتمالية لوقوع أي خطأ فإن الخطأ سوف يقع بالفعل.

عدد من المثقفين الشبان المصريين كتبوا من عدة أشهر مقالات تطالب بإعادة النظر في أفلام (اللمبي) وما شابهها بدعوى عدم التعالي على الذوق الشعبي في الأفلام والأغاني والمسرحيات وكل ذلك. قالوا يا مرحباً ويا أهلاً وسهلاً بفنون

الكِتش الشعبية مادامت تلقى إقبالاً من الجمهور ومادامت تحقق انتشاراً جماهيرياً وأرباحاً تجارية. فانظر إلى الجيل الجديد من مثقفينا وإلى أي هاوية يأخذون شعبهم. مصطلح الكِتش أصلاً هو مصطلح سيء السمعة في الثقافة الأوروبية وظهر أول ما ظهر في النقد الفني الألماني في منتصف القرن التاسع عشر، وبمعني سلبي لا إيجابي. كان يشير إلى المستنسخات الصناعية الكثيفة للبضاعة الرخيصة، وللأعمال الفنية الشعبية ذات الذوق الرديء الخالية من القيمة الفنية.

لا، أنا عندي معيار واحد ووحيد ومتوحد للأعمال الفنية والأدبية: العمل الفني أو الأدبي الجميل في الموسيقى أو الفيلم أو الرواية أو اللوحة لا يستحق تلك الصفة إلا إذا كان قابلاً لتكرار المشاهدة أو الاستماع أو القراءة. إنه ذلك العمل الذي تظل رغبتنا تتغذى منه على الدوام دون أن تشبع. إنه العمل الصامد أمام امتحان تغيير السياقات الاجتماعية والعصور الزمنية. إنه العمل القابل دائماً لإعادة القراءة في كل عصر جديد، ومع كل سياق جديد.

وهل يمكن أن يكون من قبيل الفن تلك الأشياء سريعة الزوال التي لا تتحمل إعادة مشاهدة أو قراءة أو استماع، كحال عموم الفن المصري والعربي والعالمي. إنني لا أفسح مكاناً للفن والأدب سوى لما يطبع بصمته على روح الإنسان. بصوت بول فاليري: إنني أتعرف على العمل الفني -والأدبي من عندي- من حقيقة أنه ما من فكرة يلهمنا إياها، ولا نمط سلوك يوحي لنا بأن

نتبناه يمكن أن يُستنفد، وما من ذكرى، ولا فكرة، ولا سلوك يمكن أن يمحو تأثيره أو يخلصنا من سيطرته، ومن حدد لنفسه مهمة خلق عمل فني عليه أن يستهدف هذا التأثير.

وكنت أثناء تأملاتي الفنية قد شعرت ببعض الارتياح والإشراق والانشراح بسبب الرَّاح وتأثيره المنعش وكل ذلك. وتحمست للقيام بمغامرة إفراطية صغيرة لطيفة وشيقة؛ بأن أتذوق الجن المصري، آخر زجاجة من نوعها في مصر، المعتقة لسنوات وسنوات، على أن أقوم بمزج المشروب بالسفن أب الذي يخفف من رداءة الخمور المصرية، والثلج اللازم في حر يوليو في القاهرة. ثم أقوم بعمل كوكتيلات بعد ذلك من الجن ورأس العبد والسفن أب والثلج وعلى مهلك يا با على مهلك قدامك عيد الليلة السهر بيندهلك والصبح بعيد. ليس هذا فقط يا كوتش، فأنا لم أشرح بعد كافة أبعاد المغامرة! كان عندي بانجو مانجاوي برائحة ونكهة المانجو من الإسماعيلية، ذلك الذي يزرعونه بجوار المانجو فيكتسب رائحته ونكهته، وربما كان أصحاب بساتين المانجو يربحون من البانجو أكثر مما يربحون من المانجو.

أنا لست صاحب كيف في المخدرات. كنت أدخن سجائر الحشيش أو البانجو إذا عزم عليّ أحدهم بسيجارة. لم أشتر مخدرات أبداً، ولا مرة واحدة. لكن محب نصحني بشراء بعض البانجو وأخذه معي إلى فرنسا لأنهم يحبونه هناك أكثر من الحشيش. قال إنني سوف أعمل به أحلى شغل. واقترح رجب أن أشتري من خلف صديقه الذي يتاجر في البانجو، وعنده ورشة

نجارة في السيدة زينب لزوم التمويه يحتفظ فيها بجوالات كثيرة متراصة ومليئة بنبات البانجو. هذا ما عرفته من رجب. قلت، كما نصحني محب، إنني سوف أشتري نصف ُثمن كيلو. يعني في حدود ستين أو خمسة وستين جراماً. قال رجب إنهم يقولون على الثمن كيلو متر بانجو. قلت إنني سأشتري نصف متر. بكم النصف متر يا رجب؟! قال: بتسعين، ولكنني سوف أضغط على خلف حتى يعطيه لنا بخمسة وسبعين. كان معي خمسمئة جنيه، وكل ما كنت أريد شراءه، من أشياء أخرى لزوم السفر، كان سيكلف أقل من مئتين بقليل. فعزمت على شراء البانجو.

في اليوم الذي سلمني فيه ألبير لوزاريان جواب التوصية، كلمت رجب وقلت له أن يتمم موضوع البانجو. كنت واثقاً مئة بالمئة من أنني مسافر إلى فرنسا مسافر إلى فرنسا، ولم يساور فكري أي شبهات. فقلت أجهز نفسي وأوضب حالي عشان ماننساش حاجة قبل السفر. كان هناك حوالي ثلاثة أسابيع على موعد السفر. وفي نفس الليلة جاء خلف إلى شقتي. كنت قد رأيته عدة مرات من قبل، لأن رجب كان يُعرفه بأصدقائنا الأجانب، وكلهم بلا استثناء يحبون تدخين البانجو والحشيش، وكان خلف هو المورد لهم، ورجب هو القومسيونجي. ولاحظت أن خلف لا يتعامل في الحشيش بالمرة، بانجو فقط. سمعت مرة أندرو الإنجليزي الذي يعمل في البريتش كاونسيل يطلب منه حشيشاً، لأن أندرو مدمن حشيش، وفي كل مرة أدخل بيته أجد قطع الحشيش الصغيرة مبعثرة على الطاولات هنا وهناك في أوراقها السلوفانية الملونة. رد عليه خلف باعتزاز:

- لأ، أنا مابشتغلش في الحشيش، الحشيش اللي في السوق اليومين دول كله مضروب، بيطحنوا أقراص الصليبة ويعجنوها بماكس وجوزة الطيب ومكسبات ريحة ولون!

قال أندرو:

- حتى البسكوت؟!

- ده خصوصاً البسكوت بالذات، بيعمل دماغ وحشة قوي!

عرفت ساعتها سبب سلوك أندرو المتيس والمتجهم. أما هو فلم يبد عليه أي اندهاش ولا حتى إحراج من أنه يتم استغفاله ويدخن أقراص صليبة معجونة بالماكستون فورت ومضاف إليها جوزة الطيب ومكسبات لون ونكهة.

- خد بانجو أحسن يا أستاذ أندرو، طبيعي. أعشاب طبيعية بتتزرع في الأرض.

المهم أننا انتظرنا خلف ليلتها في البيت. شقتي كانت في الطابق الثاني ولها بلكونة صغيرة على الشارع الجانبي الذي أسكن فيه. كان رجب يقف في البلكونة في انتظار خلف، الذي كان معه العنوان وسيصل بسيارته الأوبل الحمراء. وكنت أنا أرسل بعض رسائل الإيميل في حجرة النوم الكبيرة والتي أستخدمها كذلك للعمل. كان في الشقة حجرتان. الأخرى كانت تحوي أثاثاً وبعض الأشياء الخاصة بأصحاب الشقة، ومغلقة

بالمفتاح الذي يحتفظون به.

وكانت هناك صالة واسعة تفتح عليها الحجرتان، أو سمها ردهة واسعة إن شئت، الاسم اللى يعجب حضرتك ودي مسألة أذواق لغوية، بها أنتريه بكنبة وكرسيي فوتى من القطيفة الحمراء التي حالت ونسَّلت، وطاولة تتوسط طقم الأنتريه الذي يتوسط الصالة، أو الردهة، بشوقك، وسفرة صغيرة دائرية بمفرش بني سابغ عليها وحولها ثلاثة كراسي، ولا تقل ثلاثة كراسٍ، وتلفزيون تليمصر قديم موضوع على شوفونيرة خشبية لها درجان بهما بعض الأطباق وأدوات المائدة وبعض الرفائع: شاكوش، وبعض المسامير من مختلف الأحجام في علبة كرتونية والكثير منها صدئ ومعووج، وحبل أزرق قوي من النايلون ملفوف على بكرة، وبعض المفكات من قياسات متنوعة، وكماشة، وسلوك كهربائية متنوعة الثخانة، وأزرار ملابس، ومصفاة دش قديمة، ومواسير ووصلات صنابير، وبكرة شريط لاصق حمراء، وأخرى سوداء، وثالثة بيضاء، وسكين كبير لتقطيع اللحوم والدجاج بشفرة حادة، وشوك وملاعق، وشفاطات بلاستيكية للعصائر، وورق صنفرة، ودبابيس دباسة، ودبابيس مكتب، وفيش مقطوعة من أسلاكها، ومتر للقياس، وماوس كمبيوتر قديم، وشريط كاسيت مكتوب عليه: الرقية الشرعية، وشريط كاسيت آخر: فعل الخير للأستاذ عمرو خالد، وشريط كاسيت ثالث: سورة مريم للشيخ عبد الباسط عبد الصمد، وحوالي ثلاثة أمتار: أستيك حرير مبروم فاخر الإمبراطور، وعلبة بودرة جونسون بيبي باودر مئة ملي فارغة، ورباط طبي ضاغط،

وعلبة كريم تمارا صنع شركة أروماتكو بالقاهرة فارغة توقف صنعها وأفلست الشركة وتم إغلاق المصنع منذ زمن، وبعض كروت المحال والشركات بالعناوين وأرقام التليفونات: مطابخ وموبليات أشبيلية، الجاسر لإصلاح وصيانة الأجهزة الكهربائية، سنان الظاهر يوسف عبده لمستلزمات الكوافير وتصليح السشوار وماكينة الحلاقة أشرف يوسف عبده، صيدلية شريف، سكابينو للهدايا والأدوات المنزلية، وكوفر بلاستيكي يشبه كوفر السي ديهات لشريحة تليفون فودافون، ولبيسة أحذية، وقطاعة بيض مكسورة نصفين، وتمثال فيل صغير مشروخ، وعصارة ليمون مفكوكة، وملاحة مفتوحة، ومسَّاكة مطبخ قماشية مقطوعة، ومضرب بيض معووج، وسيخ كباب مصدي، وحوض مكعبات ثلج محروق، وفنجان مكسور، وآلة حاسبة خربانة، وكيس أبيض به ربع حجمه من القطن: شركة مصر للغزل والنسج المحلة الكبرى شركة أبي الله يرحمه قطن طبي ماص صنع في مصر 100 جرام صافي وإن كنتَ قد شاهدت فيلم خيري بشارة درة أفلامه العوامة 70 صناعة عام 1981 وعُرض عام 1982 وهو عن الفساد الذي يكتشفه العمال في مصانع حلج القطن ويروح أحد العمال ضحية لهذا الاكتشاف ويقتلوه فسوف تتذكر أن أحمد بدير وهو يعطي فكرة لأحمد زكي عن الخيرات التي تنتجها مصانع القطن قد قال له: كناسة العنبر بيطلع منها القطن الطبي! وأشياء أخرى من هذا القبيل.

طرق خلف باب الشقة وفتح له رجب. وخرجت إلى الصالة لأرحب به. كان يرتدي قميصاً وبنطلوناً كلاهما بنيان كأنهما

أسمال بالية بالرغم من كل المكاسب التي يكسبها من تجارة البانجو. كان هو نفسه بنياً غامقاً ربما من الشمس أو من الأصل أو من القذارة أو كل ذلك معاً. وحمل في إحدى يديه كيساً أسود ملفوفاً أخرج ما فيه على الفور ومد لي يده بالنصف متر بانجو قبل حتى أن يجلس بالرغم من أنني دعوته للجلوس بلساني ويدي. أخذت منه البانجو وتشممته وكانت رائحته جميلة ومنعشة ومانجاوية. ناولته لرجب الذي تشممه بدوره وابتسم ابتسامة عريضة قائلاً:

- يا سلام يا سلام نوع مفتخر!

أجلست خلف بيديّ على كنبة الصالة دافعاً كتفيه لأسفل ومصراً على أن يجلس، وقلت:

- أقعد يا راجل اقعد واقف ليه، تشرب إيه يا باشا؟

وكنت قد تعلمت من أحد برامج زياد رحباني الإذاعية القديمة التي كنت أحب تكرار الاستماع إليها على الكاسيت ولم أعد أتذكر إن كانت: (العقل زينة) أو (تابع لشي تابع شي) أم (نص الألف خمسمية)، أنه نصح المستمعين بأن ينادوا على أي شخص: يا أستاذ؛ لإن المُنادَى إن كان أستاذاً فعلاً فإن المنادي إذن لم يخطئ، أما إن كان المُنادَى حماراً فإنه سوف يفرح كثيراً لأنك ناديته: يا أستاذ.

وقد استبدلت: يا أستاذ، بـ: يا باشا. مقدراً أن منادة شخص

في مصر بـ: يا أستاذ، قد يفهمها خطأ على أنها نوع من السب والقذف، أو الاستهزاء على أقل تقدير، فالترجمة الحرفية في بعض الأحيان قد تجلب المتاعب ويكون من المستحسن الترجمة بتصرف، لاسيما بسبب الفروق الشاسعة التي يعرفها الجميع بين العقلية اللبنانية والعقلية المصرية، وهي فروق ليست في صالحنا للأسف الأسيف بسبب تخلف التعليم وتخلف الثقافة وتخلف الفنون وتخلف العادات وتخلف التقاليد ومنين ما تبص تلاقي تخلف، وأشياء من هذا القبيل.

وفرح خلف كثيراً بعد أن ناديته: يا باشا. وطلب شاياً حتى نحبس مع سيجارة بانجو. وأصر أن نجرب الصنف الحلو بأن نلف سيجارة عملي أمامه الآن حالاً فوراً. فذهبت إلى المطبخ لكي أعد الشاي لنا جميعاً. وتبعني رجب ورأيته ممسكاً بلفة البانجو بين يديه.

- ليه جايبوه معاك؟! ماسبتوش بره ليه، ما احنا هانطلع بره نلف؟

- لأ الأحسن مانسبوش بره مع خلف، مرة كان جايب متر لمعاذ السوري بتاع التاون هاوس، ودخلت مع معاذ المطبخ نعمل شاي، خرجنا لقينا الحاجة خست، وماحدش فينا يوميها حب يعمل مشكلة على حاجة بسيطة، بس من ساعتها قولنا نحرص بقى ونخوِّن!

- معقولة! فيه الخصلة دي؟!

- الحلو مايكملش، حرص بقى وخوِّن يا ريس!

وخرجنا ولففنا سيجارة بانجو مخلوطة ببعض دخان التبغ الأمبرليف. وأشاد بطريقتي السريعة والمحكمة في لف السيجارة وقال فيها شعراً. فقلت له:

- عشر سنين لف يا عم خلف كل يوم أربعين خمسين سيجارة، التكرار بقى يعلم الشطار.

كان الصنف رائعاً وشعرت باسترخاء وانتعاش. لكنهم يقولون إن الإكثار منه مضر أشد الضرر بالمخ. بالذات الذاكرة والتذكر وعمليات الاستدعاء. ربنا يستر، هيّ أصلاً مش ناقصة.

من المواقف الجميلة التي أنوي التندر عليها طويلاً، أن جرس الباب قد رن ونحن جالسون معاً، فقمت لأرى من الطارق، ولما فتحت الباب، رأيت بنتاً قمحية ترتدي فستاناً أزرق جميلاً لا يزيد عمرها عن تسع أو عشر سنوات. سألتني:

- بابا هنا؟

- بابا مين يا حبيبتي؟

- بابا خلف.

ونادى عليّ خلف من وراء ظهري:

- أيوه أيوه دي دعاء بنتي خليها تدخل لو سمحت أصلي

نسيتها بره!

نسى ابنته في الشارع، يا حلاوة! البيه ركن سيارته الأوبل الحمراء ونزل منها هو وابنته، ثم تركها بجوار السيارة، كما فهمنا، وصعد لوحده إلى شقتي. من هو الأب الذي يمكن أن ينسى ابنته في الشارع، ما ونوعيته؟! ويخلق ما لا تعلمون.

والخازوق أننا اكتشف بعد نزول خلف من عندنا هو وابنته، ضياع التمثال النحاسي للقط الفرعوني الذي كان على الشوفونيرة في الصالة، والذي كنت اشتريته من عدة أيام من عند بازار نبيل مع اللوحات الفرعونية المرسومة على أوراق البردي. سرقه كده عيني عينك واحنا الاتنين أنا ورجب قاعدين وياه زي الدهولات؟! أو يمكن لما كنا في المطبخ بنعمله زفت يطفحه.

كنت قد بدأت أحب ذلك التمثال. هو تمثال صغير؛ أصغر من حجم الكف بقليل، لقط فرعوني جالس ومنتصب على قائمتيه الأماميتين. وكان نبيل صاحب بازار التحرير، وصديقي أنا ورجب، قد أعطاه لي بسعر رائع: عشرة جنيهات فقط لأجل خاطري. وكنت يومها عنده بصحبة رجب، واشتريت ثلاث لوحات فرعونية مرسومة على أوراق البردي المصرية هاند ميد، لأنني كنت أعرف غرام الخواجات بمثل تلك اللوحات، فقلت آخذها معي إلى فرنسا، فربما أقابل هناك من يستحق، أو تستحق بمعنى أدق، برافو عليك إنك أخدت بالك لأ مصحصح يا باشا، أو برافو عليكي إنك أخدتي بالك مصحصح يا باشا برضو. كانت

الثلاث لوحات من المقاس الكبير: 25 × 16 سم، وكانت إحداها لوحة رائعة من المقابر الفرعونية لإيزيس تقود نفرتاري إلى الجنة. والثانية لتوت عنخ آمون على عجلته الحربية ذات الحصانين وهو يصطاد ثلاثة أسود في الصحراء. أما الثالثة فكانت لوحة بديعة من جداريات المقابر الفرعونية أيضاً لتوت عنخ آمون جالس على عرشه وأمامه زوجته الملكة آنخسن آمون. وقد أكرمني نبيل والحق يقال، فباع لي الثلاثة برديات بخمس وأربعين جنيهاً فقط، وهي في الحقيقة تساوي أكثر من ستين. ولكننا معتادان، أنا وهو، على أن يقدم أحدنا السبت، ولا يتأخر كثيراً حتى يجد الآخر وقد أحضر له الأحد قدامه وبين يديه ولغاية عنده. وكنت أستجدع نبيل جداً لأنه يطرد الزبائن الإسرائيليين من دكانه ويصيح فيهم: أخرجوا بره المحل يا سفاحين يا ولاد الكلب!

نهايته، كان لدي ليلتها روم وجن وبانجو. ليلة ليلاء. كانت عرانيس البانجو ما زالت ملفوفة في ورق الجرائد، الملفوف هو نفسه في الكيس النايلون الأسود الذي دس خلف فيه البضاعة. نزلت من على السرير واتجهت إلى شنطة السفر اللاطية في المسافة القصيرة بين حافة السرير والحائط. لم تكن سوستتها مغلقة لأنني كنت من حين لآخر أتذكر شيئاً فأرفع غطاء الحقيبة وألقيه فيها حتى لا أنساه. لم تكن مرتبة. كنت بالطبع لن آخذ كل الأشياء التي ألقيها فيها، وكنت أعرف أنه ستأتي الساعة التي أكون فيها مجبراً على الانتقاء والاختيار؛ الضرورات فقط، إحنا مش رايحين صحرا إحنا رايحين فرنسا الجميلة.

كانت لفة البانجو في الحقيبة، فرفعت غطاء الحقيبة وتناولت اللفة وفتحتها وفضضت ورقة الجريدة. كان البانجو عبارة عن أربعة عرانيس كبيرة، كل منها أطول قليلاً من السبابة. وقلت أتسلى وأنظفه كله ثم أخلطه بالتبغ ليكون جاهزاً للاستعمال الفوري. ورجعت إلى السرير واضطجعت عليه معطياً ظهري للمروحة حتى لا يتناثر التبغ وأوراق البانجو عندما أفرفطه وأنظفه. وكان عندي على الكومودينو الملاصق للسرير طبق بلاستك أحمر مسلطح أضع فيه عدة التدخين: باكت الأمبرليف، والفلاتر الكرتونية صناعة إيديا وحياة عينيا، والولاعة الزيبو الغازية. تناولت الطبق من على الكومودينو وأزحت جميع الأشياء التي عليه إلى السرير. وأخذت أفرفط عرانيس البانجو بحرص حتى لا تتطاير الزيوت التي في أوراقه؛ أي المادة الفعالة. ثم نظفته من البذور والأغصان، وألقيت بها في مطفأة السجائر. وأخذت نصف ما في باكت الأمبرليف من تبغ أشقر كهرماني، وفرفطهم على أوراق البانجو المفرفطة، ومزجت الجميع معاً. وهكذا صار لدي بانجو مانجاوي ممتاز مخلوط بالتبغ الأمبرليفي الممتاز وجاهز على اللف حضرتك. وأخيراً، فتحت درج الكومودينو، وتناولت منه باكت أمبرليف فارغ من الباكتات الفارغة التي كنت أحتفظ بها احتياطياً، فقد يتلف باكت أو يبتل فأضطر إلى نقل التبغ إلى باكت آخر سليم. ورحت أملء الباكت بالبانجو المخلوط بالتبغ، لأن كمية البانجو كانت حضرتك أكبر من كمية التبغ، ولو حضرتك كانت كمية التبغ أكبر من كمية البانجو لقلنا التبغ المخلوط بالبانجو، المهم يا ريس ما طولش على

حضرتك رحت أملء به الباكت الفارغ، دون أن أكبسه، حتى امتلئ إلى عينه تقريباً.

ولففت أول سيجارة.

متعة يا معلم!

وكانت الموسيقى التصويرية المصاحبة للحالة هي أحلى موسيقى وأحلى صوت للست فيروز:

بكتب اسمك يا حبيبي ع الحور العتيق

بتكتب اسمي يا حبيبي ع رمل الطريق

بكره بتشتي الدني ع القصص المجرحة

بيبقى اسمك يا حبيبي، واسمي بينمحى

بحكي عنك يا حبيبي لأهالي الحي

بتحكي عني يا حبيبي لنبعة المي

ولما بيدور السهر تحت قناديل المسا

بيحكوا عنك يا حبيبي، وانا بنتسى

وهديتني وردة، فرجيتا لصحابي

خبيتا بكتابي، زرعتا ع المخدة

هديتك مزهرية، لاكنت تداريها

ولا تعتني فيها، تا ضاعت الهدية

يا للجمال! الرحبانية عظماء في الشعر كما هما عظماء في الموسيقى. بل ربما أعظم!

وللمفاجأة، والمفاجأة دائماً غير متوقعة بحكم التعريف، كانت زجاجة الجن المصري المنسية تحفة، تحفة التحفة يا زعيم!

لم أصدق أن هناك جناً مصرياً بهذه الروعة! وآخر زجاجها من نوعها! تأمل الفكرة! وقلت لنفسي هذه الزجاجة رثاء للعظمة والجمال في مصر. كل شيء عظيم في مصر قد أخذ يتلاشى منذ زمن. ربما نكون نحن آخر جيل يشهد بقايا الأشياء الجميلة في هذا البلد. خسارة، وألف خسارة! ولم يهن عليّ أن أمزجها بالروم. صعب عليا الفن. ولم يهن عليّ أن أشرب منها أكثر من الكوب الذي شربته. فأغلقتها بالسدادة الفلينية، ووضعتها على الكومودينو ناوياً أن أوفرها لما بعد. أو حتى أن أتركها كما هي كأثر باق من الآثار البائدة للصنعة المصرية. وكل بنيان على الباني دليل. صنع إسماعيل جلت يده، كل بنيان على الباني دليل. كانت الزجاجة جميلة، والسائل بداخلها أجمل.

واكتفيت بما تبقى من زجاجة الروم وسجائر البانجو. في

الحقيقة لم أكن أحتاج إلى أكثر من هذا الإفراط.

ورحت أشرب من روم رأس العبد وأدخن البانجو. وخفت حدة الحزن قليلاً. وقررت أن أضربها صرمة. غير أني لم أملك إلا أن أقارن بين السهولة المفرطة التي يحصل بها الأمريكان والأوروبيون على التأشيرة المصرية وهم هنا على أرض مصر بعد أن تصل طائراتهم فيُعطونها وهم واقفون في الجوازات أوتوماتيك، وبين عذاب المصريين عذاب الشهداء حتى يحصلوا على تأشيرة لأوروبا أو لأمريكا.

قلت في نفسي: نحن وزن الريشة في ميزان الأمم! والحق ليس على الأمم التي تحتقرنا وتزدرينا وتعطينا على قفانا، ولكن الحق كل الحق على العصابة التي تحكمنا والتي أوصلت مصر إلى هذا الحال، حتى جعلتنا نكره البلد. من منا لم يكن يكره مصر في ذلك الوقت! وزاد كرهي أكثر وأكثر لعصابة المنسر التي نجحت في تحويل ولاء المصريين ووطنيتهم إلى سخط على البلد.

كانت مصر تحترق وقتها بنيران الغلاء، والفساد، والإهمال، وتحالف اللصوص مع البيروقراطية الحكومية والبيروقراطية الأمنية. كان النظام الحاكم في مصر يحاول الدخول في مؤخرة المصريين بدون فازلين ملين. وكان الجو العام في مصر كلها مليئاً بالسخام. والسخام لمعلومات حضرتك هو الجسيمات السوداء القذرة التي تنبعث من الحرائق. والطغيان عندي، ولا أعرف له تعريفاً آخر، وتفضل حضرتك لو كان عندك تعريف

آخر له، هو أن النظام الحاكم في أي بلد لا يكون مجبراً على تقديم أي حساب لأحد عن ما يفعله، واللى قبلينا قالوا إيش فرعنك يا جحا؟ قال: مالقتش حد يلمني. وحتى تتضح لك الحقيقة جلية أمام عينيك، تفضل وحاول أن تجيب عن السؤال التالي: هل النظام الحاكم في مصر أداة للسيطرة والهيمنة، أم مؤسسة للتمثيل الشعبي؟

لكنني شخصياً لم أكره مصر في تلك الأيام. كنت أشعر تجاهها بالحنو، مثل ابنة معاقة سيئة الحظ. وكنت أشعر بالحزن على ما آل إليه مصيرها. كثيرون من أبناء البلد وقتها كرهوها. لكنني كنت قادراً على التفرقة بين مصر التي أحبها، وبين عصابة مبارك لا فاش كي ري التي خربتها.

شربت في صحة مصر وأنا أقول في نفسي: بلد كبير يحكمه ناس صغار! نحن شعب عظيم، لكن طبقته السياسية حقيرة، ورجال أعماله قطاع طرق، ونخبته الثقافية عاهرات يبيعون أنفسهم لأي دافع.

ثم صحت وأنا أرفع الكأس:

- كأسك يا وطني!

وتذكرت واقعة حدثت مع علاء عطوان منذ عدة سنوات، حينما جاءته منحة وزارة الثقافة المصرية للإقامة سنة كاملة في فيللا بورجيزي بروما على نفقة الحكومة المصرية لكتابة رواية

ما، لم ُتكتب أبداً، ولن ُتكتب أبداً. وكنا جميعاً نعلم كيف حصل على تلك المنحة بعلاقته غير المشرفة بوكيل وزارة الثقافة المسؤول عن المنحة. المهم أن الولد راح يتبجح ويتعالى في كل مكان، ويزدري الجميع، ويتعامل بفظاظة وغطرسة، ويتصرف بحقارة واعية تجاه كل أصدقائه ومعارفه؛ يشتم هذا ويتشاجر مع ذاك.

قابلته أيامها في مقهى الندوة الثقافية، فقلت له: عليك أن تخجل من نفسك، أنت تتمنى لو تبصق على البلد وأنت على سلم الطائرة، لكن المشكلة أنك لست بعد على سلم الطائرة، وأنك مضطر إلى معاشرتنا لشهرين آخرين هنا في مصر حتى ينتهي كورس اللغة الإيطالية الذي تدرسه، فلو سمحت أجل مسألة البصاق على أصدقائك وعلى البلد إلى ذلك الحين.

وكان وقتها يقسم للجميع بإنه حالما يسافر لن يرجع مطلقاً إلى مصر، وإنه سوف يجد في إيطاليا أية وسيلة هناك للإقامة إلى الأبد، حتى ولو اضطر إلى التسول في شوارع روما.

مرة سأله أمير غبريال:

- يعني مصر مش هاتوحشك يا عم؟! وصحابك اللى هنا ما فيش حد فيهم ها يوحشك؟!

رد عليه:

- إنت يا أمير بعد ما بتقلع الجزمة اللى في رجلك، بتفكر فيها تاني!

أفقت من ذكرى علاء عطوان على صوت فيروز تشدو بأغنيتها الجميلة:

أديش كان في ناس ع المفرق تنطر ناس

وتشتي الدني، ويحملوا شمسية

وأنا بأيام الصحو ما حدا نطرني

صار لي شي مية سنى مجروحة بهالدكان

ضجرت مني الحيطان

ومن صبحية بقوم، وانا عيني ع الحلي

والحلي ع الطرقات، بغنيلو غنيات

وهو بحالو مشغول

نطرت مواعيد الأرض

وما حدا نطرني

سمعت رنة الرسائل على تليفوني المحمول، الذي كان مفتوحاً وموضوعاً على الكومودينو. وكنت معتاداً في ساعات

وأيام الاكتئاب على إغلاقه. لكن يبدو أن وطأة الحزن في تلك الليلة قد أنستني حكم العادة.

تناولت التليفون، وقرأت الرسالة. كانت من ألكس بالفرنسية:

"حبيبي. لا تحزن. سوف أحاول التحدث الليلة مع وكيل وزارة الخارجية الفرنسية. أنا متأكدة من أنه سوف يساعدنا. تشجع"

سعدت طبعاً باهتمام ألكس. في مثل هذه المواقف يكون الإنسان ضعيفاً وهشاً، وكلمتين حلوتين أو تشجيع بسيط من أحد الأصدقاء أو الأحباب قد يكون له مفعول السحر على حالته. لكن رغم الفرح بالمساندة المعنوية لألكس، كان من الواضح والمؤكد استحالة الموضوع استحالة تامة، كنت واثقاً مئة بالمئة من أن مسألة السفر إلى فرنسا قد انتهت، ولم يساور فكري أية شبهات حول هذا الموضوع.

نحن الآن ليلة الخميس، وتذاكر السفر محجوزة لرحلة الإر فرانس السبت في الثامنة صباحاً، وغداً الجمعة. ماذا يمكن أن يفعل وكيل وزارة الخارجية الفرنسية، حتى وإن رغب في المساعدة؟**!** أصلاً حجز موعد لتقديم الأوراق المطلوبة للقنصلية من جديد يستغرق عشرة أيام على الأقل**!**

لكن مع ذلك كان هناك شعور بالارتياح. ليس فقط لأن ألكس دعمتني في هذا الموقف. ولكن أيضاً لأنني تمنيت لو تحدث

فضيحة أو شبه فضيحة في الخارجية الفرنسية عندما يُثار الأمر، فيعرفون أنهم ظلموني ورفضوا فناناً ومثقفاً مصرياً محب لفرنسا وفنونها وثقافتها، ومرتين لا مرة واحدة، بالرغم من دعم وتوصية المستشار الفرنسي لسفارة فرنسا في القاهرة السيد ألبير لوزاراريان! وتمنيت أيضاً أن ينتج عن ذلك تحقيق داخلي في الخارجية الفرنسية، وأن يتم عقاب أحدهم عقاباً قاسياً. وياريت إعدام!

وطاف على بالي، أيضاً، بعض اللوم لألكس، لعدم تدخلها بجدية في الموضوع من أول الأمر، رغم علمها بالتفاصيل منذ البداية. لكنني استبعدت هذا الخاطر فوراً وقلت ربنا يعينها. الحقيقة أنني كنت أعلم أنها مشغولة جداً في عملها في وزارة الخارجية، التي التحقت بها منذ عام واحد فقط. وعلاوة على ذلك، فهي تعاني من أزمة نفسية وأخلاقية عويصة بسبب طبيعة عملها بالخارجية الفرنسية.

كانت ألكس تشغل أشرّ وظيفة يمكن أن يتخليها المرء!

كانت البنت قد حصلت على درجة جامعية في الآداب الشرقية من السوربون. وكان حلم حياتها أن تعمل في أحد المراكز الثقافية الفرنسية المنتشرة في العالم؛ خصوصاً القاهرة أو الإسكندرية أو كازابلانكا أو بيروت. ولهذا حضرت إلى القاهرة لتتعلم اللغة العربية وتتقنها. وفي فترة إقامتنا معاً في القاهرة، ولمدة عامين كاملين، ساعدتها، وكنت معلمها في اللغة العربية

الفصحي، وفي اللهجة العامية المصرية. وكانت هي معلمتي في اللغة الفرنسية.

ثم قدمت البنت في أحد الاختبارات الخاصة بالعمل في وزارة الخارجية الفرنسية، فقبلوها. وقالت لي إن لجنة الامتحان أعطتها درجة ممتازة بسبب إجادتها الممتازة للغة العربية. وبعد بضعة أسابيع عينوها في الوزارة. تخيل في أية وظيفة؟! عينوها في القسم المختص برفض طلبات اللجوء أو الإقامة التي يقدمها المهاجرين الأفارقة غير الشرعيين. كانت هي: مسؤولة رفض طلبات المهاجرين!

أثناء فترات إحباطها، والمستمرة على الدوام، كانت تتصل بي لتفضفض وتبكي على التليفون. ومن تلك المكالمات كونتُ صورة لطبيعة عملها.

الخارجية الفرنسية تمنح التوصية للجهات الأمنية والحكومية الفرنسية الأخرى لقبول الإقامة أو اللجو لبعض المهاجرين غير الشرعيين، بما لا تتجاوز نسبتهم العشرة بالمئة. هؤلاء العشرة بالمئة المحظوظون والمميزون هم من يوصي بهم كبار رجال الحكومة، أو أعضاء البرلمان الفرنسي، أو مسئولي الأجهزة الأمنية، أو حتى كبار رجال الأعمال الفرنسيين. وقرار منح الإقامة بالنسبة لهؤلاء لم يكن بيد ألكس على الإطلاق، بل كان القرار يأتيها فوقياً من أعلى، من أحد كبار الموظفين بالوزارة. أما مهمة المسكينة ألكس فكانت: رفض طلبات التسعين بالمئة

الآخرين من اللاجئين والمهاجرين!

وكان لديهم في القسم الذي تعمل به كتاب ضخم، يشبه دفتر التليفونات القديم عندنا، به كل الأسانيد والحيثيات والحجج القانونية اللازمة لاستعمالها لكي يرفضوا بها جميع أنواع ما يخطر على بالك وما لا يخطر على بالك من طلبات للجوء والإقامة، ولو كانت حتى مقدمة من نابوليون بونابرت ذات نفسه!

ولذلك كانت البنت المسكينة في سفر دائم ما بين بيتها في باريس وزوجها، الذي تزوجته حديثاً في نفس عام التحاقها بالخارجية، أي منذ عام تقريباً، وبين مارسيليا وباقي مدن الساحل الجنوبي لفرنسا حيث معسكرات اللاجئين والهجرة غير الشرعية من شمال إفريقيا. كانت ألكس تجري مع جميع المهاجرين لقاءات صورية لزوم تسديد الخانات، وتأخذ في ملء بيانات واستمارات ونماذج، وهي تعلم أن النتيجة النهائية التي هي مجبرة على اتخاذها هي الرفض، مهما كانت القصص والمآسي التي تسمعها من المهاجرين والتي يشيب لها الولدان حرفياً. فتخيل نفسية البنت المسكينة المجبرة على العمل في وظيفة حقيرة مثل هذه!

ومما زاد الطين بلة، أنه كان هناك بعض الجمعيات الفرنسية التي تدافع عن حقوق الإنسان وكرامته، تحاول جهدها رفع قضايا أمام المحاكم الفرنسية لصالح هؤلاء المهاجرين، والذين يكونون فعلاً في وضع خطر جداً وحياتهم مهددة إن رجعوا إلى بلادهم الأصلية. ومن معرفتي بألكس أؤكد لك أن الوضع الطبيعي

والتاريخي والفكري والعقائدي للبنت هو أن تكون إحدى المتطوعات ضمن جمعية من تلك الجمعيات التي تدافع عن حقوق المهاجرين غير الشرعيين، فإذا بها يا ولداه تكون في الصف المقابل، المهاجم لا المدافع، ولا المنصف، لأنها مكلفة من قبل وزارة الخارجية الفرنسية بأن تصطحب أحد المحامين معها ويذهبا إلى المحاكم، ويترافعا ضد جمعيات حقوق الإنسان، رافضين لطلبات اللجوء، وضاحدين لكل حجج ومرافعات محاميي تلك الجمعيات، مستخدمين في ذلك دفتر التليفونات ذاك.

كنت أشفق كثيراً على ألكس، وكانت حالتها النفسية والمعنوية والروحية صعبة للغاية وقتها. وكنت أهوِّن عليها بأن الاستمرار في هذه الشغلانة القذرة لن يطول، وأقول لها إنها مجرد بضعة أشهر من المعاناة، ثم سيتم نقلك إلى موقع آخر. ومعلش يا ألكس استحملي شوية وانتي ما فيش في إيدك حاجة تعمليها وانتي عبدة المأمور الله يلعنه ويلعن اللى خلفوه ويا ستي إبقي عوضي القذارة دي لما تمسكي منصب حلو في مصر أو لبنان أو المغرب أو غيره وابقي انصفي الغلابة وساعديهم.

وبدأت فيروز تغني:

ضاق خلقي يا صبي

من هالجو العصبي

ضاق خلقي ضاق خلقي

يا صبي الـ مابتفهم من نظرة ولا بحتى حكي

مانعني إفعل أو إئتي أيّا حركة

بتحكي وبتصير ما بتسمع

وإذا جاوبتك مرة بتفقع

مطوقني بحبك ومسيّج

من حولي الدنيا وع جنبي

ضاق خلقي يا صبي

شو ما بتفهم عربي

ضاق خلقي ضاق خلقي

يا صبي شكلك ما بينفع شو بينفع يا ترى

مين قالك تستسهل تكذب دايماً ع مرة

وبتوعد إنو بتتغير ما الهيئة والأمل زغير

مبارح ع الوصلة مفتشلي غراضي ومفتحلي علبي

ضاق خلقي يا صبي

لأ مش كله بسببي

ضاق خلقي ضاق خلقي

وأحسست برغبة لا تقاوم في النوم، فدعست عقب سيجارة البانجو في مطفأة السجائر، ورحت من توي في نوم عميق؛ كالقتيل.

وأيقظني صوت نغمة تليفوني المحمول. لم أكن أعرف كم الساعة. تناولت التليفون:

- أيوه!

- مسيو سامح شكري؟! قالها صوت المرأة بالفرنسية.

فأجبت بالفرنسية:

- نعم، تحت أمرك.

- أنا آديل دي فونتين رئيسة قسم التأشيرات بالقنصلية الفرنسية.

أفأقتني الصدمة، فاعتدل جسمي فوراً بحركة لا إرادية ونزلت قدماي من على الفراش، وجلست منتصب الظهر، كأني في حضرتها.

- أهلاً وسهلاً يا مدام آديل!

- من فضلك أرجو أن تحضر الآن إلى القنصلية، أنا في انتظارك.

- الآن! اليوم هو الجمعة!

- القنصلية مفتوحة الآن خصيصاً من أجل موضوعك، وأنا موجودة الآن في القنصلية، من فضلك تعالى بسرعة واحضر معك جواز السفر لأننا سوف نمنحك التأشيرة اليوم.

- حاضر، ربع ساعة وأكون عندك.

ارتديت ملابسي في غاية السرعة واللهوجة، ووضعت جواز السفر، ونسخة من أوراق المنحة، وبعض الصور الشخصية، في حقيبة يد صغيرة من الحقائب الجلدية الصغيرة التي في حجم كف اليد، لأنني قدرت أنني سأقوم بكتابة استمارة جديدة لطلب التأشيرة. وكنت أتحرك بسرعة في أرجاء الشقة، دون أن أفكر في الكيفية التي سيمنحوني بها التأشيرة في نفس هذا اليوم. وتذكرت قبل أن أفتح باب الشقة وأخرج، أن أشرب كأس الاصطباحة، لأنني أحسست بصداع وثقل في الرأس بسبب ما فعلته بنفسي ليلة أمس. وكان المفروض أن كأس الاصطباحة، وفقاً لتعاليم السكيرين، لازمة من أجل معالجة آثار السكر في الليلة السابقة، لكنني كنت متوتراً جداً، وبإمكانك أن تعذرني حين تعلم أنني فوق كأس الاصطباحة، شربت كأساً أخرى هي: كأس الشجاعة!

ولأن اليوم كان الجمعة، وكنا في الصباح في حوالي الساعة التاسعة، فقد وجدت سيارة تاكسي بسهولة. ولم يستغرق المشوار من دير الملاك حتى القنصلية الفرنسية في طلعت حرب، سوى عشر دقائق أو أقل.

حاسبت السائق عند حلواني العبد، ونزلت من سيارة التاكسي، ومشيت بضع خطوات في الشارع الخلفي لطلعت حرب، حتى وصلت إلى البوابة المغلقة للقنصلية. طرقت الباب بيدي، ففتح الحارس كوة في مستوى النظر، فقلت له إن مدام آديل دي فونتين في انتظاري. سألني:

- الأستاذ: سامح شكري.

قلت:

- أيوه مضبوط.

فتح البوابة، وأشار إلى سلم داخلي، وقال:

- مدام آديل في انتظار حضرتك في الدور التاني، تالت مكتب على اليمين، هو المكتب الوحيد اللى ها تلاقيه مفتوح.

شكرته، وتوجهت نحو الدرج. ولمحت على وجهه ابتسامة لا تخطأها العين، فخشيت أن تكون رائحة السكر تفوح مني.

وجدت باباً واحداً مفتوحاً وضوء المكتب مضاء، في ممر

الطابق الثاني الذي كان معتماً. اقتربت من الباب دون أن أرى أحداً بالداخل. ثم لمحت سيدة أربعينية تجلس إلى مكتب ملاصق للحائط على يسار عتبة الباب، بحيث تكون محتجبة عن أعين المارين في الممر. طرقت الباب بخفة بظهر إصبع الوسطى.

- مدام آديل؟

- تفضل مسيو سامح!

ونهضت وسلمت عليّ ببشاشة وود. كانت ممشوقة القوام، ترتدي فستاناً أزرق يصل إلى ما بعد ركبتيها بقليل. وكان لها أنف كبير، ووجه مدور أبيض، وشفتين واسعتين، وشعر بني قصير وكثيف مقصوص بشكل مائل بحدة على خديها، وكان وجهها بدون مكياج ما عدا كحل يرسم العينين ويوسعهما قليلاً، وكانت خبرتي مع الأوروبيات أن عيونهن في العادة ليست دائماً جميلة مثل عيون نساء العرب الرائعة الجمال، ولذلك يكون الكحل مهماً بالنسبة إليهن لأنه يوسّع قليلاً من العينين ويجملهما. ولاحظت أن مدام آديل تتميز بنظرة عين كمن ضبطت أحدهم في وضع مخل. ليس فقط عندما تنظر إليك، ولكن حتى عندما تنظر إلى الأشياء على المكتب، أو حتى الورقة التي أمامها. كانت نظرتها إلى كل شيء هي نظرة من ضبط أحدهم متلبساً بفعل مشين!

طلبت جواز السفر، فناولتها إياه. فأخذت تفر ورقه، ووجدت أنه جديد، لا توجد به أية تأشيرات لأية دولة.

قلت:

- أظن أنه يتوجب عليّ دفع ثلاثين يورو، أليس كذلك؟!

- لا لا، أنت دفعت فعلاً مرتين من قبل، ولن نسمح بأن تدفع مرة ثالثة!

وضعت جواز السفر، مفتوحاً على صفحة معينة، داخل جهاز يشبه برينتر الكمبيوتر العادي. اختفى جواز السفر داخل البرينتر، ثم خرج بعد ثوان. أخذته بيدها الكريمة وتأكدت من التأشيرة، ثم مهرت التأشيرة بتوقيعها الكريم. وناولتني الجواز.

- هذه تأشيرة مخصوصة لفرنسا لمدة شهر، يمكنك أن تذهب إلى أي مكان في أوروبا خلال هذه المدة، ولكن يجب عليك أن تعود إلى مصر من فرنسا، لا من مكان آخر.

- آه طبعاً مفهوم!

- وأنا آسفة لأنك قد تعرضت معنا لبعض المتاعب!

- لا لا أبداً العفو!

- في المرة القادمة إن أردت أن تسافر إلى فرنسا، أرجوك أن تمر عليّ أولاً قبل أية إجراءات رسمية، هذا هو الكارت الخاص بي وبه كل أرقام تليفوناتي.

- شكراً جزيلاً يا مدام آديل، الحقيقة أنكِ قد أنقذتني!

وقمت واقفاً، فنهضت هي أيضاً، ودارت من خلف المكتب، وسارت معي حتى عتبة الحجرة.

- أرجو أن تستمتع في فرنسا.

- أكيد، وأنا مدين لكِ كثيراً، شكراً جزيلاً!

مدت يدها لتصافحني، فانحنيت بأداء مسرحي أوفر، ولثمت قبلة على ظهر يدها. وحتى وأنا أفعل ذلك، كنت على وعي تام بأنها مبالغة بلا أدنى شك! ولكنني كنت ثملاً، وكنت فرحاً، بل أطير من الفرح، والإنسان يتصرف بكثير من النزق وهو فرحان. ولاحظت أنها لاحظت أني أعاني من خمار السكر من أول لحظة دخلت فيها حجرة المكتب. كنت على وعي بأن عيني تبدوان متعبتين وناعستين، لكنني كنت أحاول أن أبدو متماسكاً.

قالت:

- ميرسي!

فانحنيت محيياً برأسي:

- نهارك سعيد.

ومضيت.

خرجت من باب القنصلية. واتجهت إلى شارع طلعت حرب؛ أي سليمان باشا سابقاً. ومشيت والسعادة تغمرني. كنت ثملاً ولكن

متماسك. وكان كل شيء أراه أمامي رائع الجمال. حتى حر يوليو، وكتمة الجو الخانق في القاهرة، لاحا وكأنهما الجو المثالي الذي لا يوجد أروع منه.

كانت معظم المحلات مغلقة على صفي شارع سليمان باشا الذي تغير إلى طلعت حرب منذ زمن طويل قبل أن أولد أنا شخصياً، لأننا كنا في صباح يوم الجمعة، ومن عادة أصحاب المحلات في القاهرة أن يفتحوا دكاكينهم بعد الثانية عشرة. أما في الإسكندرية فإنهم يتأخرون حتى الواحدة ظهراً، أو حتى الثانية.

وكان هناك محل للموبايلات بزجاج فاميه بني، اقتربت منه ورأيت في صورتي المنعكسة على الزجاج المعتم ابتسامة عريضة متخشبة على وجهي لم أكن أعرف بأنها هناك. لكن ما أدهشني هو أن قسمات وجهي كانت مشدودة ولها تعبير حاد يعبر عن الجهامة والقتامة. وحرت في تفسير ذلك التناقض بين الإحساس الحقيقي والأصيل، الذي هو السعادة والفرح، وبين النقيض الذي يرتسم على تقاسيم وجهي المتصلب. قلت: قد يكون نتيجة المعاناة القاسية طيلة الشهرين وأكثر التي عانيتها لأحصل على الفيزا. وخفت أن تستغرق اختفاء هذه الجهامة والقتامة والغضب شهرين آخرين أو أكثر.

وواصلت المشي. وكان المارة قليلين. وقلت في نفسي وأنا أمشي: أنا أسعد هؤلاء التعساء.

ومررت على محل التسالي الكبير في الشارع، والذي يفتح

أبوابه 24 في السبعة. واستبعدت فوراً فكرة شراء فول سوداني مملح من عنده لأن أسعاره كانت أغلى من الجميع. وقررت أن أشتري من المقلى المجاور لبيتي في شارع مصر والسودان، فالبضاعة عنده طازجة وأرخص من هنا. وكنت أريد شراء كيلو فول سوداني أسواني خفيف التمليح لأني أعرف أن الخواجات يعشقونه. وكنت قد تخليت عن فكرة شراء ربع كيلو كاجو لغلو سعره برغم أنني كنت أعرف أن الخواجات يعشقونه. لم يكن معي الآن إلا ثلاثمئة جنيه وبعض الفكة. وقدرت أنه مبلغ كاف لأجرة تاكسي من البيت إلى المطار، وبالعكس عند العودة. ولم أكن أحتاج إلى نقود إضافية لأن المنحة تتكفل بكل مصاريفي أثناء السفر. لكنني كنت أتحسر على عدم وجود مال كاف معي لكي أشتري به بعض الأشياء من فرنسا، خصوصاً النبيذ والخمور، بالإضافة إلى حاجتي إلى كاميرا فوتوغرافية جيدة سواء ماركة نيكون أو كانون لاستخدامها في مشروع فيلم القرافة. لكن ما باليد حيلة، أنا مفلس كالعادة! ولم أحب أن أقترض من مريم أختي لأنني كنت قد اقترضت الخمسمئة جنيه الأخيرة منها. وكان حساب الاستدانة منها قد ثقل وتجاوز الثلاثة آلاف جنيه. وكانت هي مسكينة موظفة في هيئة البريد. وبالرغم من كونها مديرة إدراة، إلا أنها كانت في النهاية موظفة، والجميع يعرفون مرتبات الموظفين في مصر.

وعندما مررت بمول طلعت حرب، تذكرت فوراً كلمات عبد الهادي الوشاحي، عندما كنا معاً ومررنا مرة من أمامه، وكانوا قد انتهوا لتوهم من بنائه مكان جراج مفتوح للسيارات كان يحتل

ناصية من نواصي طلعت حرب. كان تصميم المول غريباً ومقلقاً ومستفزاً؛ جمع بين طرز متعددة ومتنوعة ومتنافرة: فرعونية، ويونانية، ورومانية، وحديثة، وبناء بالزجاج، وهلم جرا. لماذا كثرت المباني والمولات المبنيّة بالزجاج في مصر ونحن معظم أيام السنة حار جاف صيفاً؟! عمارة زجاجية في بلد حار!

يومها صوب الوشاحي نظره للمول ونحن نمشي على الرصيف المقابل، ثم نظر إلى امرأة كانت مقبلة نحونا على نفس الرصيف وترتدي فستاناً سابغاً بلون سماوي، وحجاب للرأس بلون أحمر، فوقه قبعة مكسيكية عريضة الحواف بلون بني، وتحمل على رمانة كتفها حقيبة خضراء من الخوص المجدول تشبه القفة، وتتدلى من رقبتها قلائد ضخمة أفريقية زاهية الألوان أخضر فاقع في أحمر فاقع في أزرق فاقع، أشار إليها الوشاحي بإصبعه، ثم أشار إلى مول طلعب حرب، صائحاً بأعلى صوته:

- آهو الخرا ده شبه الخرا ده!

اعتبرتنا السيدة مجنونين، وأكلمت طريقها وهي تمصمص شفتيها وتهز رأسها.

انحرفت يساراً في شارع معروف. انحرفت! هه هه ها حلوة! وظللت ماشياً باستقامة وشعوري بالانتعاش يزداد، حتى وصلت إلى شارع رمسيس، فوقفت بالقرب من محطة الإسعاف. وجاءت حافلة عامة ماركة مارسيدس، وكانت جديدة وحمراء، فقفزت فيها، وكانت تقريباً خالية من الركاب. قطعت تذكرة

بخمسين قرشاً كاملة، ربما لأن الحافلة جديدة، لأن سعر التذكرة العادية في الحافلات العامة المعفنة هو ربع جنيه فقط. وجلست على كرسي جلدي جديد، لم تسنح الفرصة بعد للشعب لممارسة هوايته الأثيرة بتمزيق تنجيده. الناس في مصر ليس لديها شعور بأن الحافلات العامة ملكها، بالرغم من أنها من حر مالهم لأنهم هم دافعو الضرائب التي تشتري بها الحكومة الحافلات العامة. الناس في بلادي لا تشعر بأن الفضاء العام ملكها، لذا يفسدونه ويخربونه ويوسخونه. فتحت نافذة الأوتوبيس عن آخرها، واستمتعت بتيار الهواء المنعش في قيظ يوليو القاهري.

نزلت في دير الملاك مهرولاً من الأتوبيس حتى لا أنكفئ على وجهي. فسائق الأتوبيس لم يتوقف تماماً عند المحطة بل هدئ فقط من سرعته قليلاً حتى أقفز. وإذا قفزت كالغشيم وقدميك ثابتتان على الأرض، أو قفزت عكس اتجاه الأتوبيس وهو يسير، فستشعر بالأرض تدور حرفياً من تحتك وتجد نفسك ملقى على قارعة الطريق. يجب عند القفز من الأتوبيس وهو يمشي أن يكون اتجاهك هو نفسه اتجاه الأتوبيس، وأن تقفز وأنت تجري في الهواء حتى تهبط على الأرض، ثم تفرمل تدريجياً بقدميك حتى تتوقف في سلام. وإذا ركبت قطار القاهرة-الإسكندرية، أو بالعكس، فستشاهد شباناً يقفزون من أبواب القطار إلى أرصفة المحطات النائية التي لا تتوقف فيها القطارات السريعة. فتخيل أن قطاراً سرعته مئة وخمسون كليو متراً في الساعة، أو حتى مئة فقط، ويقفز منه شاب إلى الرصيف، ويظل جسمه يجري بسرعة القطار على الرصيف حتى يفرمل تدريجياً ويتوقف. يا لها من

حرفية! ناهيك طبعاً عن الشباب الذي يسطحون فوق القطارات السريعة، بل ويتحركون عليها رائحين غادين، وترى ظلالهم من نافذة القطار منعكسة على الطريق. يا لها من حرفية!

كنت أشعر بالهفتان. لم أكن أشعر بالجوع، بل بالهفتان. أي بالضعف الجسدي أس اثنين. وخفت أن تكون قسمات وجهي الحادة والمتجهمة والغاضبة هي بوادر أنيميا لأنني لم أكن أتغذى بصورة جيدة. فقررت أن أشتري طبق كشري من محل الدكتور للكشري والبيتزا والفطائر الذي افتتح فرعاً جديداً في أول شارع مصر والسودان، بعد نجاح فرعيه في عين شمس والمطرية. وقلت أشتري أيضاً فطيرة بالقشطة والعسل. كان يصنع فطائر لذيدة جداً بالقشطة والعسل! وكانت أسعار الكشري عنده كالتالي: كشري العقيد= أربعة جنيهات، وكانت العلبة البلاستيكية لكشري العقيد صغيرة وعبارة عن مكرونة فقط، مع ملعقة أرز، وملعقة عدس. كشري العميد= ستة جنيهات. كشري اللواء= ثمانية جنيهات. كشري المشير= عشرة جنيهات. ولك أن تلاحظ غرام أصحاب المحل بالرتب العسكرية. وقررت أن أشتري طبق كشري اللواء، وهو عبارة عن طبق مستدير من الفويل، مليء بالأرز والعدس وطبقة فوقهما من المكرونة، بالإضافة إلى الحمص، والبصل التقلية الورد، ويعطونك أيضاً كيسين محترمين مع الطبق؛ أحدهما كيس صلصة طماطم لذيذة، والآخر كيس دقة بالخل والثوم تأكل أصابعك وراءها. كان طبق كشري اللواء هو نفسه الذي اعتدنا أكله في القاهرة، بنفس المكونات، وبنفس الحجم، بأربعة جنيهات منذ عامين أو ثلاثة فقط لا غير. لكن هذا

هو حال الأسعار في مصر الآن. أو في المدن المصرية الكبرى على الأقل. خمسون أو ستون أو حتى سبعون في المئة زيادة سنوية. والحكومة في سابع نومة في سبات عميق. بل إن رجالها هم أول المستفيدون من هذه الفوضى السعرية بسبب الرشاوى والعمولات والفساد الطافح في كل مؤسسة خدمية أو رقابية من مؤسسات الدولة.

وحالما وصلت إلى محل كشري الدكتور، لمحت أحمد فرحات على الرصيف المقابل، أمام بائعة الخضرة العجوز أم جرجس.

إن أردت أن تستخدم مغناطيساً للعثور على أحمد فرحات في أي وقت، فهذا المغناطيس هو بائعات الخضرة اللاتي يفترشن الأرصفة. الفجل، والجرجير، والكسبرة، والشبت، والبصل الأخضر، والخس. وبالطبع أيضاً الطماطم، والخيار، والليمون. قال لي عدة مرات بإنه في الخمس سنوات التي قضاها في موسكو للحصول على الماجستير والدكتوراه في الاقتصاد، كان محروماً من هذه الكنوز. كان وجود الطماطم أو الخيار أو الفجل أو الجرجير في أجواء صقيع موسكو ضرباً من المستحيلات ورفاهية ما بعدها رفاهية. قال إنه ظل طوال الخمس سنوات التي قضاها في موسكو يأكل الخضروات المتاحة فقط هناك وهي البطاطس واللفت، والكرنب في الخريف.

قال بإنه كان يحلم في نومه بأنه يقطع ثمرة طماطم حمراء

ناضجة على قطعة ربيلة من الجبن الأبيض البقري، ويهرس الجميع معاً، ويحشو شقة من العيش المصري البلدي، ويأكل! ويا سلام سلم لو فيه جرجير كمان والواحد حشى سندوتش الجبنة والقوطة بالجرجير الطازج، يا سيدي يا سيدي! وقال إن باله لم يهدأ حتى ظل يحتال ويعسعس ويوصي الأصدقاء والمعارف ومعارف المعارف، حتى أحضر له أحدهم ثمرتي طماطم من رحلة كان قد قام بها إلى بلغاريا في الأجازة الصيفية، وأحضر له آخر قطعة من الجبن الأبيض البقري من رحلة كان قد قام بها في الأجازة الصيفية إلى رومانيا، التي كان أهلها يصنعون الجبن الأبيض مثل المصريين. وقال إنها كانت أجمل ليلة في عمره حين راح يقطع الطماطم على الجبن الأبيض، ويعمل سندوتشات من الخبز الروسي الأسود. قال إنه تعلم الأدب في موسكو في تلك الفترة! ودائماً ما يقول بإن مصر مليئة بالخيرات، وإن المصريين لا يعرفون قيمة تلك الخيرات إلا في غربتهم أو عند سفرهم إلى الخارج.

هذا بالطبع إضافة إلى طبع أحمد فرحات في حبه للعمال، والفلاحين، والعاملين الشقيانين في مختلف المجالات، وكل الذين يكدحون من أجل لقمة عيشهم ويمنعهم كبرياؤهم من مد اليد والتسول. كان أحمد يشجع كل عمل شريف، وخصوصاً الفقراء والضعفاء والأكثر هشاشة في المجتمع. لذا كان شراء الخضرة من أم جرجس وأمثالها، حتى وإن لم يكن في حاجة إليها، هو نوع من الدعم الاجتماعي بالنسبة له.

- دكتور!

هتفت وأنا أقترب منه بعد عبور الشارع. التفت وأشرق وجهه ابتسامة عريضة.

سلمت. وحكيت له بسرعة ما حدث. استغرب جداً. وغرق في الضحك.

- فتحوا لك القنصلية يوم الجمعة مخصوص! ده انت باشا يا ابني!

- البركة في وكيل وزارة الخارجية الفرنساوي! أنا ياما سمعت عن الوسايط في أوروبا، بس الحقيقة عمري ما كنت أتخيل اللى حصل ده!

- هه هه ها، يا حبيبي الوسايط والمحسوبية في أوروبا زي عندنا بالضبط، أمال إنت يعني فاكر احنا جبنا الحاجات دي منين! منهم طبعاً! ومن أيام الاحتلال، ما هياش اختراع مصري ولا عربي يعني!

- يا ولاد الإيه! دول حطموا أعصابي والله العظيم!

- هه، مش انت اللى ها تبيض على أوروبا!

- لا والله يا احمد بس زي ما انت عارف عشان فلوس المنحة بس والله، إنما هما يغوروا في ستين داهية، ده انا كفرت

بأوروبا بعد اللي حصل لي ده والله العظيم!

وكنت قد حكيت له عن أصحاب اللحى والجلاليب الباكستانية الذي يحصلون على التأشيرات في كل مرة. بل الذين لا يحصل إلا هم على التأشيرات في كل مرة.

- المهم بقى يبقى ليا عندك قزازة تكيلا وانت راجع.

- من العين دي قبل العين دي، بس انت مش غريب يا احمد والله، أخوك الصغير مفلس تمااااماً! معايا يا دوب حق التاكسي رايح للمطار، وراجع من المطار!

- إزاي الكلام ده؟! ها تسافر وما معكش فلوس! طب إفرض لا قدر الله حاجة حصلت أو أي طواري أو أي حاجة؟!

- ربنا يستر!

سرح قليلاً وهو واقف. ثم راح يحاسب أم جرجس. اشترى فجلاً، وجرجيراً، وخساً؛ ربطة من كل نوع، وطماطم، وخياراً؛ نصف كيلو من كليهما، وليموناً؛ أربع خمس وحدات، وحزمة بصل أخضر. وكان الحساب ثلاثة جنيهات، فترك لها باقي الخمسة.

مشينا معاً باتجاه بيته.

- أنا عامل النهارده محشي فلفل وبدنجان للبنات عشان كان

نفسهم فيه، وها نحمر فرخة على الغدا، ها تيجي تاكل معانا.

- معلش خليها لما ارجع من السفر لإني لسه ما وضبتش الشنطة وعندي ورق كتير لمشروع الفيلم ولازم هافرزه عشان أعرف آخد معايا إيه.

- ها تيجي تتغدى يعني ها تيجي تتغدى، أنا مش باخد رأيك! ده إجباري مش اختياري.

- يا احمد انا مش غريب والله أنا صاحب بيت، وياما خبطت عليك من غير ميعاد وقلتك ها تعشيني إيه النهارده!

- إسكت ماتبقاش غلس! إختشي على دمك تعالى اتغدى مع البنات وسلم عليهم قبل ما تسافر.

كنت أحب ابنتيه جداً. الكبيرة في أولى طب القصر العيني اسمها سما. والصغيرة اسمها فريدة، سماها على اسم فريدة النقاش، في ثانية ثانوي.

لا يمكنني أن أرفض طلباً لأحمد فرحات. وعدته بالحضور في الواحدة ظهراً موعد الغداء عندهم في يوم الجمعة، واستأذنت منه للذهاب أولاً إلى بيتي من أجل استغلال بضع ساعات في توضيب حالي قبل السفر.

مررت على مقلى (نور الدين) القريب من الشارع الذي أسكن به، واشتريت كيلو فول سوداني أسواني قليل الملح. وكان

حظي السعيد أنهم كانوا قد حمصوه للتو وكان ما يزال ساخناً. تذوقت بضع حبات منه وأنا اشتريه. في منتهى اللذاذة! ذابت حبات الفول السوداني في فمي، وأرسلها اللعاب إلى مسام التذوق باللسان، ووصلت إلى مستقبلات التذوق بالفم، التي أرسلت معلومات مذاق الفول السوداني اللذيذ عبر الأعصاب إلى القشرة التذوقية في المخ، فشعرت بالجوع!

رجعت إلى البيت. غسلت وجهي. وخلعت القميص الرصاصي. ولاحظت الوساخة والقذارة البنية على حافة الياقة، بالرغم من أنها كانت أول لبسة له بعد الغسيل والكي. تلوث الهواء في القاهرة أصبح مفزعاً. وتخيل أننا في يوم الجمعة، وصباحاً، فما بالك لو كنا في وسط الأسبوع، وفي وقت الذروة الذي يرجع فيه الموظفون من أشغالهم؟! قال يعني بيشتغلوا!

طوحت بالقميص المتسخ فوق الغسالة الكهربائية نصف الأوتوماتيكية في الحمام. وعندها فقط خطر على بالي أن بين الآن وموعد الغداء عند أحمد فرحات ثلاث ساعات تقريباً، فازداد شعوري بالجوع. اتجهت إلى المطبخ، وفتحت باب الثلاجة، فلم أجد ما يصلح للأكل سوى برطمان عسل أسود ممتلئ لنصفه في الرف السفلي لباب الثلاجة. تناولته، ثم فتحت باب الفريزر فوجدت أنني نسيت أن أضع حوض قوالب مكعبات الثلج فيه بعد أن أخرجتها بالأمس. فأغلقت باب الثلاجة. وفتحت درج النملية في المطبخ وتناولت منه ملعقة طعام، وفتحت علبة العسل الأسود وتناولت ملعقة منها، فشعرت فوراً بالحيوية والانتعاش والفوقان.

وضعت علبة العسل الأسود وبداخلها الملعقة على صينية مدورة. ووضعت على الصينية طبقاً مسلطحاً صغيراً. واتجهت بها إلى الصالة حيث تركت كيس الفول السوداني. ففتحته وصببت منه في الطبق المسلطح حتى امتلئ. أغلقت كيس الفول السوداني حتى يحتفظ بطزاجته. وحملت الصينية واتجهت إلى غرفة النوم التي هي في نفس الوقت غرفة العمل والكتابة.

وضعت الصينية على أحد جانبي السرير بالقرب من مخدات النوم. وجهزت سيجارتي بانجو. ووضعتهما متصلاقين بجوار مطفأة السجائر الممتلئة. وكانت زجاجة الجن المصري ما زالت هناك على الكومودينو. ما زالت أي: لم تزل. حلوة اللغة العربية. بالرغم من أن فيها حاجات كتير بيضان!

وقرر وعي أن آخذ الزجاجة لأحمد فرحات، وقلت: سيفرح بها. فصببت آخر كأس لي منها، وأغلقتها بالسدادة الفلينية. وكان هناك بقايا سفن أب في قعر الزجاجة البلاستيكية اللتر. ساخن، ولكن ما باليد حيلة. صببت بواقي السفن أب على الجن، ووضعت الكأس على الكومودينو. وتناولت ملعقة عسل أسود. وبضع حبات فول سوداني مملح. ورشفتين من الجن. وأشعلت سيجارة بانجو. وبدأت في فرز ما سآخذه معي إلى تولوز.

كان مسموحاً لي بشنطة سفر في حدود عشرين كيلو جراماً تقريباً. وهاندباج أو حقيبة أوراق يدوية أو كلاهما. وقضيت ساعتين في حزم الحقيبتين. لم أكن على عجلة، كنت أتمهل كثيراً

قبل أن أقرر أن آخذ أي شيء معي إلى تولوز.

وبعد ساعتين، كانت الحقيبة الكبير قد احتوت على:

الثلاث لوحات الفرعونية المرسومة على أوراق البردي مفروشة في قاع الحقيبة حفاظاً عليها من الثني أو الكرمشة، وكانت البردية الأخيرة مكفية على وجهها والظهر هو الظاهر لمن يفتح الشنطة حفاظاً على الألوان والأشياء التي من هذا القبيل. ثلاث قمصان بيير كاردان صيفية بألوان فاتحة: أبيض، وسماوي، ورصاصي. خمسة تيشرتات سادة من القطن المصري بألوان فاتحة: أبيض، وأبيض سن الفيل، وسماوي، وبيج، ورصاصي، وأصفر صنسيت. بنطلون جينز ليفايز سماوي. بنطلون كتان خفيف بيج صناعة مصرية اشتريته من أمام مول طلعت حرب كان يُباع على الرصيف من قبل بائع جائل شاب صغير أخذته منه بعشرين جنيهاً للبنطلون وهو يساوي أكثر من أربعين في المحلات. وأخوه رمادي فاتح. مايوه بكيني أسود فنحن في يوليو ومسافرون إلى فرنسا وقد نجد فرصة هناك للبلبطة سواء داخلياً في حمام سباحة أو خارجياً في نهر من الأنهار أو ترعة من الترع التولوزية. عدد 2 ماكينة حلاقة بلاستك جيلت بلو تو متصلتين من الرأس بكرتونة واحدة. معجون حلاقة إنجرام أزرق جديد. معجون أسنان سجنال بلس جديد. فرشاة أسنان بشعر متوسط الصلابة جديدة. زجاجة عطر فهرنهايت كرستيان ديور مئة مل ممتلئة لأكثر قليلاً من نصفها كانت آخر هدية من هيذر الأمريكية قبل أن ترجع إلى أمريكا منذ

حوالي ستة أشهر وأنا من ساعتها بلا رفيقة فقد انشغلت في موضوع السفر والمنحة فلم أجد لا الوقت ولا الطاقة للبحث عن شريكة ولكنني بإذن الله حالما أرجع من تولوز سوف أذهب إلى بيت إيفيلين في تونس في الفيوم وسأحاول العثور على رفيقة جديدة من الثقافة الفرنكوفونية لأنني قد مللت وتعبت أعصابي من البنات الأنجلوساكسونيات وهناك عند إيفيلين في تونس هناك دائماً بنات من فرنسا وبلجيكا وسويسرا ولكسمبورج يذهبن ويقمن عندها لعدة أسابيع أو حتى لشهور لتعلم أساسيات فن صناعة الفخار. أربعة أزواج جوارب سوداء. حذاء كلاركس أسود. عشرة دفاتر بفرة أوتومان التي أحبها لأنني لن أجدها لا في السوق الحرة المصرية ولا في فرنسا وتكفيني لأسبوعين وفي حالات الضرورة يمكن استخدام بفرة رزلة أو سموكنج أو حتى زجزاج الفرنسية ولكنني أحب دائماً تدخين سجائري ببفرة أوتومان المصرية الخفيفة الخالية من الصمغ وما تصدقش دعاية زجزاج وسموكنج ورزلة بإن الصمغ طبيعي أو نباتي لإن في النهاية طعمه بيبقى ظاهر في السجارة ووحش. وثلاث حزم فلاتر كرتونية صنع إيديا وحياة عينيا كل حزمة حوالي ستين مربع كرتوني ثلاثة سم في اثنين سم وقلت لما تخلص أبقى أقص واعمل وانا هناك في تولوز. شريطا فياجرا الزرقاء خمسون مجم كل شريط أربعة أقراص وقد تقول هذه مبالغة يا كوتش فأنت ستقضي فقط ثمانية أيام هناك ولكن مهما تقل فالجاهزية شيء حلو برضو مافيش كلام ويعني هيّ الاقراص هاتخسّر في إيه ما هو اللى مش ها ستعمله ها بقى ارجعه معايا وهي أصلاً كانت

ستوك موجود عندي من الأول ما شترتش مخصوص يبقى العقل يقول آخدها معايا ولا اسيبها مركونة هنا بلا شغلة ولا مشغلة شفت إزاي بقى المخ النضيف نضيف برضو. شريط ريفو ثلاثمئة وعشرون مجم كل شريط به عشرة أقراص للصداع لأنني لا أستريح إلا للريفو ولم أقتنع يوماً بالبانادول وكان الوالد الله يرحمه يأخذ إما ريفو أو نوفالجين للصداع ولكن لما كنا قد سمعنا عن مضار النوفالجين وأن الدول الأوروبية قد منعت تداوله نتيجة لخطورته بينما تغرق به شركات أدويتها أسواق العالم الثالث ومنها السوق المصري فقد كففنا عن استعمال النوفالجين. قاموس إلياس للجيب فرنسي-عربي. شريط أقراص نصار المسهلة ثمانية أقراص. الكيس الورقي للفول السوداني الأسواني المملح ملحاً خفيفاً زنة كيلو-إلا لأنني كنت كما تعلم قد أكلت منه بعض الشيء. علبة أقراص فوارة ألكا سلتزر تصنيع باير الألمانية مضادة للحموضة ثلاثون قرصاً. علبة خلل أسنان. علبة َقطيلات للأذن. إسفنجة تلميع أحذية سيلفر شفافة. سائل فوري لتلميع الأحذية سيلفر أسود بالشمع. قصافة أظافر معدنية إنجليزية جولد بل. ثلاثة بوكسرات قطونيل متعددة الألوان واستبعدت أخذ فانلات داخلية لأنني لم أكن أرتدي فانلات داخلية في الصيف بالقاهرة ولن أغير العادة فأبدأ في ارتداء فانلات داخلية في فرنسا في الصيف خصوصاً وأن درجة حرارة تولوز هي نفسها تقريباً درجة حرارة الإسكندرية برطوبة أقل قليلاً من رطوبة الإسكندرية وأنا عندما أسافر إلى الإسكندرية في الصيف لا ارتدي مطلقاً فانلة داخلية. شريط كاتافلام مئة مجم عشرة

أقراص. علبة فانجيكان مئة وخمسون مجم بها شريطان كل شريط به قرص واحد ولم أكن أحتاج إلى أكثر من قرصين فانجيكان لأنه في حالة الإصابة بفطريات أو شيء من هذا القبيل في الجنس مع غريبة فإن القرص الواحد كفيل بالعمل لعدة أسابيع. ثلاث باكوات واقي ماي سويت هارت أحمر كل باكو ثلاث قطع لارج. علبة باكوات نسكافيه كلاسيك 25 ظرفاً كل ظرف 1,8 جرام قدرت أنني سوف أحتاجها لشرب القهوة مع تدخين السجائر في غرفتي في الفندق حيث كوب القهوة هناك لابد وأن يكون بالشيء الفلاني.

أما حقيبة الهاندباج السوداء التي كنت سأحملها معي في الطائرة فقد احتوت على:

العقد المبرم بيني وبين برنامج ميديا في الاتحاد الأوروبي بخصوص المنحة وكانوا قد وقعوا عليه هم أولاً هناك في إدارة البرنامج في إسبانيا ثم أرسلوا لي نسختين وقعتهما واحتفظت بواحدة وأرسلت لهم الأخرى في الدي إتش إل وكلفني وقتها ثمانين جنيهاً لأن الدي إتش إل لصوص ومعروف في كل العالم أن الدي إتش إل لصوص. وبرنامج ورشة العمل في السبعة أيام بالتفصيل في كل يوم وهكذا ترى كيف أن الناس في أوروبا يتميزون بالنظام الذي نفتقده بشدة والذي أوصلهم إلى ما هم عليه. وجواز السفر. وتذاكر الطيران ذهاباً وعودة وكانت عبارة عن تذكرة على طائرة للإر فرانس من مطار القاهرة إلى مطار شارل ديجول في باريس، ثم تذكرة على طائرة للإر فرانس من مطار

شارل ديجول إلى مطار تولوز، وفي العودة تذكرة على الإر فرانس من تولوز إلى مطار شارل ديجول، وتذكرة على مصر للطيران من مطار شارل ديجول إلى مطار القاهرة. وشاحن لتليفون نوكيا 3310. وقلمان حبر جل أزرق. وقلمان حبر جل أحمر. وقلمان حبر جل أسود. وكشكول مئة ورقة سلك بغلاف صلب أحمر بلاستيكي مقسم إلى خمسة أقسام كل قسم خمس وعشرون ورقة مفصولة بفاصل بلاستيكي بلون مختلف أصفر وأخضر وأحمر وأزرق وأعتقد أنه كاف لكل ما أحتاج إلى تدوينه هناك من ملاحظات أثناء ورشة العمل. وثلاث باكوات مناديل كارمن سقف نص سقفة وانا نط نطة بيضاء معطرة برائحة الليمون كل باكو عشرة مناديل ناعمة ثلاث طبقات. وثلاث باكوات هولز الأزرق ذو الحبات الأقوى المنعشة المعطرة للفم وكانت أول مرة أعرف فيها أن الأزرق هو الأقوى في مجموعة هولز هي عندما أرسلني الأستاذ كمال الطويل ونحن في ستوديو تسجيل الموسيقى لتسجيل أغاني فيلم (المصير) عليّ صوتك وجمر الهوى لشراء هولز لأنه كان يشعر بحموضة مزعجة بعد الغداء الذي اشتمل على مكرونة وكنت ساعتها تحت التمرين في تالتة معهد فخرجت من الاستوديو واشتريت له هولز أخضر ورجعت وجربه فلم يأتي بنتيجة فأعاد إرسالي مرة أخرى فأحضرت له هولز أحمر ظناً مني بأن اللون الأحمر هو الأقوى ورجعت وجربه الأستاذ كمال الطويل ولم يأتي بنتيحة فشخط فيا إنه مش نافع بقى إعمل حاجة يا إبني انت ما بتعرفش تتصرف أبداً فذهبت وسألت البائع فنصحني البائع بهولز ذي اللون الأزرق

وكانت نصيحة ثمينة وفي محلها لأن الأستاذ كمال الطويل استراح أخيراً على هولز الأزرق فعرفت يومها أمرين مهمين أولاً أن هولز الأزرق هو الأقوى بين أخوته والثانية إن اللي يسأل ما يتهوش وكان الواجب أن أسأل البائع أولاً قبل ما اعمل فيها أبو العريف. وعلبة كريم نيفيا الزرقاء الكلاسيك 50 مل. ومزيل عرق نيفيا دراي إمباكت الكحلي خمسون مل ممتلئة لآخرها تقريباً. والأجندة الخضراء التي تحتوي على كل أرقام تليفونات الأصدقاء والمعارف والشخصيات العامة والفنية والأدبية بل وحتى السياسية ورجال الأعمال والمؤسسات الصحفية ومنظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان وأرقام القنصليات والسفارات والإدارات المختلفة في وزارة الخارجية المصرية وشركات الإنتاج السينمائي في مصر وأرقام دور السينما والوكالات الصحفية والأحزاب ودور النشر والمكتبات والمراكز الثقافية الأجنبية والمحلات الكبرى في مصر التي تبيع مختلف السلع المعمرة واللامعمرة والإلكترونية والسلكية واللاسلكية وأرقام تليفونات تجار العملة والبنوك والفنادق ومحطات القطارات والجمعيات الأهلية وبعض الآباء والقساوسة والإدارة بكاتدرائية العباسية والمسؤولين عن شؤون الطائفة اليهودية بالقاهرة والتي انقرضت أساساً والوزارات وهيئاتها والقنوات التلفزيونية وبرامجها والجامعات وكلياتها وأكاديمية الفنون ومعاهدها وإلخ إلخ إلخ.

وأجلت وضع المخدرات المحشوة في باكت الإمبرليف، ونصف باكت الأمبرليف السادة لزوم التدخين السادة، والولاعة

الزيبو الغازية ذات الجلد البني في أسود، ومحفظة النقود التي تحتوي على: حوالي ثلاثمئة جنيه مصري، وبطاقة الرقم القومي، وبضع كروت شخصية بها اسم الشركة الوهمية الذي لن أذكره لحسي الأمني العالي واسمي ورقم تليفوني المحمول، وصورتين مطويتين من رقمي القومي، وصورتين شخصيتين صغيرتين، ودمغتين كل منهما بجنيه، وطابعي بريد كل منهما بجنيه ونصف، إلى آخر وقت وأنا نازل من البيت إلى المطار لأني سأحتاج تلك الأشياء في الساعات القادمة.

وكنت قد انهيت كأس الجن. وقاومت حتى لا أصب آخر. وأتيت على طبق الفول السوداني كله. وقاومت حتى لا آكل المزيد لأنني قد بدأت أشعر بالانتفاخ في معدتي. وعافت نفسي المزيد من العسل الأسود. فأخذت الصينية إلى المطبخ، وألقيت برطمان بواقي العسل الأسود في القمامة. وغسلت الطبق والكوب والصينية، ووضعت كل في مكانه، لأنني كانت أريد ترك الشقة نظيفة قبل السفر.

وقررت أن استحم قبل الذهاب إلى أحمد فرحات. وأنا من محبي النظافة عموماً، وخصوصاً. ومن أكثر ما أحبه في سيرجيو ليوني، أن الشخصيات الخيّرة والشخصيات الشريرة عنده يتم التمييز بينهما وفقاً لموقعهما على سلم النظافة الشخصية، وكأننا أمام الحضارات القديمة، والمجتمعات البائدة، التي كان يتحدد فيها النبل والشرف والخير بالنظافة، بينما تكون القذارة والوساخة هما دلائل الشر والوضاعة والحقارة.

وضعت سي دي لأم كلثوم في مشغل السي ديهات، وكان السي دي يبدأ بأغنية (أنا في انتظارك) التي أحبها كثيراً. وخلعت البنطلون والبوكسر، ودخلت تحت الدش. وأخذت وقتي تماماً في الاستحمام بالمياه الفاترة الجميلة وهي تنزل من مصفاة الدش على الجسد المرهق من الحر والرطوبة فترطبه وتنعشه. وكان صوت أم كلثوم يغمر الشقة وهي تغني:

أنا في انتظارك خليت

ناري في ضلوعي وحطيت

إيدي على خدي وعديت

بالثانية غيابك ولا جيت

يا ريت يا ريت، يا ريتني عمري ما حبيت

عايزة اعرف لا تكون غضبان

أو شاغل قلبك إنسان

خلتني من يأسي أقول

الغيبة دي تغيب على طول

واتفكر إيه اللي جنيت

من ذنب يسيئك ما لقيت

يا ريت يا ريت، يا ريتني عمري ما حبيت

أتقلب على جمر النار

واتشرد ويا الأفكار

النسمة أحسبها خطاك

والهمسة أحسبها لقاك

على كده أصبحت وأمسيت

وشافوني وقالوا اتجنيت

يا ريت يا ريت، يا ريتني عمري ما حبيت

توعدني بسنين ويام

وتجيني بحجج وكلام

وتسلم وتمر قوام

أو تخلف وتقول لي نسيت

يا ريت يا ريت، يا ريتني عمري ما حبيت

لم تكن المعاني التي تغنيها أم كلثوم دائماً من الدرجة الأولى، ولا كان خيال الصور الشعرية دائماً في عنفوان أشعار الرحبانية على سبيل المثال. هذا بالرغم من أن بيرم التونسي صاحب كلمات أنا في انتظارك كان شاعراً جميلاً. لكن عموماً تكمن قوة أم كلثوم في حرفية الغناء. في الصنعة. وفي الألحان بالطبع. قوة وقدرة الصوت الكلثومي في التنزه بمنتهى السهولة والأريحية بين المقامات. وتكراراتها اللانهائية التي يستحيل أن تشبه الواحدة فيها الأخرى. تكرار الإبداع والجدة والإضافة، لا تكرار العجز. وطائفة الملحنين العباقرة الذين لحنوا لها. خصوصاً رياض السنباطي. وزكريا أحمد صاحب (أنا في انتظارك). ومحمد القصبجي، خصوصاً في درة ألحانه (رق الحبيب). وداوود حسني، وبليغ حمدي، ومحمد الموجي. وبرضو محمد عبد الوهاب، ولو اني مش من هواة عبد الوهاب قوي مع ام كلثوم. تخيل أن لحناً واحداً، ويطلقون عليه الميلودي في الموسيقى الكلاسيكية، قد تقوم على أكتافه سيمفونية كاملة أو كونشرتو كامل، بينما الأغنية الواحدة في الموسيقى العربية عموماً، وفي أغاني أم كلثوم خصوصاً، سيل متدفق من الألحان؛ أي الميلوديز. كنز علي بابا بالنسبة لأي موسيقي أجنبي.

بوب ديلن قال مرة بإنه من عشاق أم كلثوم. محترم وبيفهم! شوف انت لما أعظم شاعر ومغني في عصرنا هذا يقول إنه بيحب يسمع الست ويستمتع بغناء الست رغم إن اللغة مختلفة وعصية طبعاً عليه!

طبعاً بوب ديلن أعظم شاعر غنائي في حقبتنا؛ حقبة الرأسمالية الفائقة. يكفي للتدليل على عظمته أغنيته العظيمة (عليك أن تخدم شخصاً ما):

قد تكون سفيراً في إنجلترا أو فرنسا

قد تحب المقامرة، وقد تحب الرقص

قد تكون بطل العالم في الوزن الثقيل

وربما تكون عضواً بارزاً في المجتمع بقلادة طويلة من اللؤلؤ

ولكن عليك أن تخدم شخصاً ما

قد يكون الشيطان أو قد يكون الرب

لكن عليك أن تخدم شخصاً ما

قد تكون من مدمني الروك آند رول وتتقافز على المسرح

قد تملك مخدرات تحت تصرفك، أو نساء محبوسات في قفص

قد تكون رجل أعمال أو لصاً من الدرجة العليا

قد ينادونك يا دكتور، أو قد ينادونك يا زعيم

لكن عليك أن تخدم شخصاً ما

قد يكون الشيطان أو قد يكون الرب

لكن عليك أن تخدم شخصاً ما

قد تكون شرطياً من راكبي الدراجات النارية، أو شاباً تركياً

قد تكون رئيساً لشبكة تلفزيون كبيرة

قد تكون غنياً أو فقيراً، قد تكون أعمى أو أعرج

قد تعيش في بلد آخر تحت اسم مزيف

ولكن عليك أن تخدم شخصاً ما

الشيطان أو الرب

عليك أن تخدم شخصاً ما

قد تكون عامل بناء يبني بيتاً لغيره

أو ثرياً تعيش في قصر، أو حتى في قبة

قد تمتلك أسلحة، وربما تمتلك دبابات

قد تكون صاحب أرض أو فندق، أو تملك حتى بنوكاً

ومع ذلك عليك أن تخدم شخصاً ما

الشيطان أو الرب

لكن عليك أن تخدم شخصاً ما

قد تكون واعظاً ذا كبرياء روحي

أو عضواً في مجلس المدينة تتلقى الرشاوى خفية

قد تكون حلاق في صالون حلاقة، ولا تعرف حتى كيف تقص الشعر

قد تكونين عشيقة لأحدهم، أو حتى وريثة لأحد الأثرياء

ولكن عليكِ أن تخدمي شخصاً ما

الشيطان أو الرب

عليكِ أن تخدمي شخصاً ما

قد تكون من محبي ارتداء القطن، أو من محبي ارتداء الحرير

قد تحب تناول الوسكي، وقد تحب شرب الحليب

قد تحب تناول الكافيار، وقد تحب أكل الخبز

قد تكون ممن ينامون على الأرض، أو تنام على سرير ملكي

ولكن عليك أن تخدم شخصاً ما

قد يكون الشيطان وقد يكون الرب

لكن عليك أن تخدم شخصاً ما

اتصل بـ تيري، أو اتصل بـ تيمي

اتصل بـ بوبي، أو اتصل بـ زيمي

اتصل بـ آر جي، أو اتصل بـ راي

اتصل بمن تريد، لكن مهما تفعل

سيكون عليك أن تخدم شخصاً ما

الشيطان أو الرب

عليك أن تخدم شخصاً ما

أو رائعته الأخرى (لا بأس يا ماما)، والمعروفة أيضاً باسم (أنا فقط أنزف):

العتمة في قلب الظهيرة

والملعقة الفضية الكابية

والشفرة المصنوعة يدوياً، وبالون الطفل

وخسوف الشمس والقمر

كلها لكي تفهم أنك تعرف ما لا يجب أن تعرفه بعد

من أنه لا فائدة من المحاولة

التهديدات الموجهة، وكونهم يخدعون بمنتهى الاحتقار

والرسائل الممزقة المتروكة قبل الانتحار

من لسان الحمق الذهبي

والقرن المجوف الذي يغني كلمات ضائعة

يثبت أن من لا يشغل نفسه بالبعث

ينشغل بالموت

صفحة الإغراء تطير عبر الباب

تتبعها، فتجد نفسك في خضم الحرب

لتشاهد شلالات الشفقة تزأر

تشعر برغبة في الأنين، كما لم يسبق لك الأنين من قبل

وتكتشف أنك لست إلا مجرد شخص آخر يبكي

لذلك لا تخافي إن سمعتِ صوتاً غريباً على أذنيكِ

لا تخافي يا ماما، فأنا فقط أتنهد

يخاف البعض من النصر، والبعض من الهزيمة

وآخرون من الدوافع الشخصية الكبيرة والصغيرة

التي يمكن رؤيتها في أعين أولئك الذين ينادون

بأنك لكي تحقق أي شيء عليك قتل كل من يزحف

بينما يقول البعض الآخر لا تكره أي شيء على الإطلاق

سوى الكراهية ذاتها

الكلمات التي تحرر من الوهم هي كصوت الرصاص

بينما الآلهة البشرية التي تسعى لتحقيق أمجادها

تصنع كل شيء من بنادق الأطفال التي تتألق

إلى تماثيل القديسين التي تتوهج ألوانها البشرية في الظلام

من السهل أن ترى دون مشقة

أنه لا يوجد الكثير من القداسة حقاً

وبينما المبشرون يعظون بمصير الشرور

ويُعلم المعلمون أن المعرفة المرتقبة

يمكن أن تؤدي إلى صفائح مملوءة بأوراق من فئة المئة دولار

يختبئ الخير وراء بواباته

وحتى رئيس الولايات المتحدة

يضطر أحياناً للوقوف عارياً

ورغم أن قواعد الطريق معروفة

فإن ما يجب عليك أن تحذر منه هو ألعاب البشر

لكن لا بأس يا ماما فأنا أستطيع العبور

لافتات الدعاية التي تخدعك

فتجعلك تتوهم بأنك أنت المنشود

الذي بإمكانه أن يفعل ما لم يفعله غيره

وأن ينتصر الانتصارات التي لم ينتصرها الآخرون

بينما تمضي الحياة في الخارج

من حولك

تخسر نفسك، وتعاود الظهور

فجأة يتضح أنه لم يكن هناك شيء لتخافه

هناك وأنت تقف وحيداً بلا أحد بالقرب منك

عندها يرتجف صوت بعيد، متعثر

كما لو أن أحدهم قد وجدك أخيراً

ويضيء السؤال في أوصالك

مع أنك تعلم أنه لا توجد ضمانة مؤكدة

بأنك لن تنسحب

لتذكرك حتى لا تنسى

بأنك لا تنتمي لا إلى الرجال ولا إلى النساء ولا إلى الجماد

وبالرغم من أن السادة هم من يضعون القواعد

للحكماء من الرجال وكذلك للحمقى

لا يوجد لديّ معايير يا ماما لكي أسير وفقاً لها

لأنه بالنسبة لأولئك الذين يجب عليهم طاعة سلطة

لا يحترمونها بأية درجة من الدرجات

الذين يحتقرون وظائفهم، ومصائرهم

يحسدون الذين هم أحرار فعلاً

ويستمرون في وظائفهم لمجرد أن لا يخسر أصحاب السلطة استثماراتهم

وبينما يُعمَّد البعض لكي يتبعوا مسؤولي الحزب الصارمين

وتغرق النوادي الاجتماعية في التنكر

بإمكان الغرباء الانتقاد بحرية

لكن لا تبح بشيء سوى من تعبده

ومن ثم قل: فليباركه الرب

بينما من يغني ولسانه على النار

ويغرغر في جوقة الفئران التي تتسابق

وتلويه وتشوهه زردية المجتمع

لا يهتم بأن يرتفع في عنان السماء

بقدر اهتمامه بأن ينزلك في الحفرة التي هو فيها

لكني لا أقصد أي ضرر

لأي شخص يعيش في قبو

لكن لا بأس يا ماما، إن لم استطع إسعاده

القاضيات العجائز يراقبن الناس أزواجاً

قدراتهن على الجنس محدودة، يمكن القول

فيرحن يروجن للأخلاق الزائفة، والإهانة، والتحديق في الناس

أما المال فلا يتكلم، لأنه يحلف ويقسم

الفحش، ومن يهتم أصلاً!

البروباجاندا، كل شيء زائف

وبينما هن اللاتي تدافعن عن ما لا يمكن رؤيته

بكبرياء القاتل، وبأمن وأمان

مما يدفع العقول لتنفجر بمرارة

بينما هن لا يؤمن بأن الموت سوف يطالهن

فليعشن في وحدة، فالحياة أحياناً تصبح وحيدة

تصطدم عيناي بالمقابر المتخمة عن آخرها

آلهة زائفة، وأنا أبلى

في التفاهات الخشنة التي لا تحتمل

أمشي بالأصفاد رأساً على عقب

وأركل ساقيّ لكي أحطمهما

قائلاً: حسنا، لقد سئمت

ماذا يُمكنكَ أن ُتريني أكثر مما رأيت؟!

إذا كان بإمكان أحد أن يرى أفكاري-أحلامي

لوضعوا رأسي على المقصلة

لكن لا بأس يا ماما، هذه الأشياء موجودة في الحياة،

في الحياة فقط.

خرجت من الحمام عارياً. جففت جسدي بالمنشفة. واتجهت إلى غرفة النوم والعمل، وكانت أم كلثوم في مقطع:

توعدني بسنين ويام

وتجيني بحجج وكلام

فابتسمت وأنا أقول في نفسي وأنا اتمدد على السرير بالعرض: أغنية سياسية بامتياز! تنطبق على الداخل، وتنطبق على الخارج، ولكنها تنطبق على الداخل أكثر. اسم الأغنية نفسه سياسي جداً: أنا في انتظارك!

وظللت على السرير فترة. وكنت أتوق إلى سيجارة بانجو. لم

أعد أذكر اسم الطبيب النفسي الذي قابلته مرة وقال لي إنهم يمنعون المتعافين من الإدمان على المخدرات من سماع أم كلثوم وجورج وسوف، لأن التجربة العملية والخبرة المشتركة أثبتتا أن أغاني أم كلثوم وجورج وسوف عامل مساعد قوي في إضعاف إرادة المتعافي، وبالتالي رجوعه لدائرة الإدمان مرة أخرى. لكني كرهت أن أقابل بنات أحمد فرحات بعد قليل وأنا مسطول، فصرفت نظر.

لكن مع ذلك كان هناك راحة بال وصفاء نفسي. هل هذا هو الخير الأسمى الذي نادى به إبيقورس؟! الرجل قال إن راحة البال هي الخير الأسمى. الفضيلة العليا.

ونظرت في ساعة الموبايل فوجدتها الثانية عشرة ونصف تقريباً، فقررت ارتداء ملابسي والذهاب إلى أحمد فرحات وبناته. ارتديت البنطلون الجينز الليفايز السماوي جداً أخو القابع في شنطة السفر لكن على أفتح قليلاً. وقميص فان هاوزن رمادي فاتح. ووضعت باقي قارورة الجن في كيس نايلون أسود، وخرجت. وفي الطريق توقفت أمام بائع متجول بعربة كارو مليئة بسباط الموز فسألته: بكم؟ أشار إلى الأصفر المتوهج وقال: بخمسة، وإلى ذي القشرة البنية المملوءة بالنقاط الداكنة وقال: بثلاثة. فأخذت من الأخير كيلوين.

وعندما وصلت إلى شقة أحمد فتحت لي فريدة الصغرى. وكانت ترتدي بنطلون منامة بناتي أبيض بزهور صغيرة رمادية،

وتيشرت بنصف كم بنفسجي فاتح مخطط بالعرض بالبنفسجي الغامق. كان شعرها بنياً يصل إلى نصف ظهرها، ومربوط بتوكة سوداء قبالة العنق، وفي رأسها بنس في مواضع متنوعة لإحكام تثبيت خصلات الشعر. كانت فريدة خمرية ذات وجه مستطيل نوعاً وتشبه أباها بعينيه البنيتين الواثقتين وأنفه الروماني النموذجي. قبلتها على وجنتيها، وسلمتها كيس الموز.

وكانت تفوح من الصالة رائحة الخير والكرم. إنها تلك الرائحة التي تذكرك فوراً بأيام الخير وبأيام صفاء البال وآمالنا الكبرى ونحن صغار بالمستقبل الزاهر وبتغيير العالم. رائحة طشة الملوخية. رائحة اللحم المسلوق. رائحة أرز المحشي المخلوط بالبصل والبقدونس والشبت. رائحة البامية المطبوخة. رائحة الباذنجان المقلي للتو وهو في انتظار صبّة طماطم التقلية: الطماطم المقطعة قطعاً صغيرة ومقلية في قليل من الزيت والثوم المفروم والخل والملح والكمون والكسبرة الجافة. رائحة صينية الرقاق في الفرن. رائحة صينية الدجاج بالبطاطس والبصل في الفرن. وكفاية الواحد أعصابه مش مستحملة!

وكانت رائحة صالة أحمد فرحات رائحة ثنائية مزدوجة من بخار المحشي وهو يسوى على نار هادئة على البوتاجاز، مختلطاً برائحة تحمير الدجاجة في السمن المقدوح تحميراً قوياً. وكان أحمد فرحات جالساً يقرأ من كتاب في الصالة، أو الردهة إن شئت. وكانت سما جالسة على الكنبة تتفرج على التلفزيون وتقلب في قنواته. سما تشبه أمها رحمة الله عليها. خمرية بوجه مستدير،

وعينين سوداوين ضاحكتين، ابتسامة فطرية دائمة. كانت تضع روجاً خفيفاً. وترتدي عباءة بيتية بيضاء بنصف كم ومقورة من الصدر، وتتدلي سلسلة ذهبية رفيعة على عنقها القصير لتختفي تحت العباءة، ولؤلؤتين كقرطين في أذنيها، وكان شعرها أسود طويلاً مثل أمها، وكانت تتركه حراً مثل أمها. وكان لديها أيضاً شحوب وجه أمها، وكان لذلك سحراً يذكرني بسحر شحوب وجوه النساء المصابات بالسل عند دوستويفسكي. بعيد الشر عن سما! صحيح أنها كانت مريضة على الدوام في طفولتها، وقد عاصرت أبيها وقلقه عليها حينذاك، وسعيه الدائم بين الأطباء ومعامل التحاليل. لكنها برأت منذ السادسة عشرة من داء الإسهال المزمن الذي صاحب طفولتها والذي لم يجدوا له دواءً، وصارت في كامل الصحة والعنفوان، وكأن السماء الرحيمة قد قررت تعويضها عن فترات السقم والعلل السابقة. نهضت واتجهت نحوي، فقبلتها على وجنتيها.

سأل أحمد فرحات، الذي دائماً ما تراه في بيته بالقميص والبنطلون، وكأنه على أهبة الاستعداد للنزول فوراً ومباشرة عمل ما مهم. ولاحظت دائماً نفس السمة في الصحفيين؛ الاستعداد الدائم للحركة، وكأن هناك خبطة صحفية في الشارع الخلفي سوف تفوته إن لم يكن مستعداً للنزول فوراً. كان أحمد فرحات يرتدي قميصاً سماوياً رائعاً، وبنطلوناً من القماش الرمادي الداكن.

- جايب إيه يا سامح؟!

ناولته الكيس النايلون الأسود.

- عايزك تجرب البتاع ده، للأسف دي آخر قزازة لقيتها في المجتمع المدني من كام يوم، جن، كانت مركونة عندهم، معتقة الظاهر بقالها سنين، دقتها ولقيتها تحفة، عايزك تجربها.

وجلست بجواره على فوتى مجاور للفوتى الذي يجلس عليه. قالت فريدة الممسكة بالكيس النايلون الأزرق للموز وهي تفتحه وتخرج منه عنقود موز من عدة حبات بنية:

- سامح جاب موز يا بابا، من البني اللى بيحبه!

وكانت البنات يحفظن عن ظهر قلب نظريتي في شراء الموز. وملخص الموضوع أنني قد قرأت من عدة سنوات بحثاً يابانياً استغرق من الباحثين اليابانيين حوالي عشرة أعوام حول الموز وفوائده. واستخلص الباحثون اليابانيون في نهاية العشرة سنوات البحثية أن الموز ذا القشرة البنية، والذي نسميه نحن الموز المستوي، والذي يباع أرخص من الموز الصلب الزاهي الصفار، هو للمفارقة أفيد كثيراً لأنه يحتوي على مضادات أكسدة أكثر من الموز الصلب الأصفر أو الأخضر، لدرجة أن البحث أوصى المستهلكين بأن يتركوا الموز عندما يشتروه لبضعة أيام حتى تسود قشرته فيصبح عندئذ أكثر فائدة.

علقتُ على تعليق فريدة:

- العلمُ نورٌ.

قال أحمد فرحات:

- ليه بس يا بني تاعب نفسك كده!

- تعب إيه بس يا دكتور، أنا داخل على 3 فلاسفة كبار يبقى لازم أدخل على الفلاسفة بفاكهة الفلاسفة!

فضحكوا.

وأثناء تقليب سما للقنوات المصرية في التلفزيون، رأينا الحصة الأسبوعية المقررة للشيخ الشعراوي في القناة الأولى المصرية في هذا الوقت من يوم الجمعة، فصاحت سما:

- أف الله يلعنك!

كنا نحن الأربعة نكره الشيخ الشعرواي، ونعده مسؤولاً عن تخلف جيلين، على الأقل، من المصريين، حتى الآن، ممن شاهدوا أسبوعياً تخلفه وتعصبه وعنصريته في التلفزيون المصري. وكنا نتعجب كيف يمكن لدولة تدعي أنها تحارب التطرف والإرهاب أن تذيع مثل هذا التخلف في قنواتها التلفزيونية الرسمية، ونحن لم نفق بعد من العمليات الإرهابية التي ضربت الحياة في مصر منذ أقل من عشر سنوات. كنا نقول إن هذا النظام بالتأكيد ليس جاداً في محاربة الإرهاب والتطرف.

قلبت سما قليلاً في القنوات التلفزيونية، ووقفت أخيراً على إحدى القنوات الخليجية التي تذيع مسرحية (العيال كبرت).

سألتُ فريدة التي أخرجت الموز من الكيس ووضعته في طبق بلاستيكي كبير شفاف في منتصف المائدة التي كانت في الركن البعيد للصالة الواسعة، تماماً كموضع المائدة التي عندي في الشقة، لكن مائدتي كانت بثلاثة كراسي ومائدة أحمد فرحات كانت بستة، وكانت مستطيلة عكس مائدتي المستديرة الصغيرة، وكانت مفروشة بمفرش دانتيل بيج مخرم، وفي وسطها فازة حاف بلا أزهار من شغل الواحات الخارجة ترجع إلى الستينيات من القرن الماضي كما عرفت من أحمد فرحات، لونها تدريجات من الرماديات المتداخلة مع البنيات:

- عاملة إيه في المدرسة يا فوفا، بيعلموكي أي حاجة!

- إحنا ما بنتعلمش أي حاجة مفيدة في المدرسة. بيعلمونا بس إزاي نجاوب في الامتحان!

وكنا قد تناقشنا نحن الأربعة طويلاً، من قبل، في طريقة وزارة التعليم المصرية التي تطرح كتاباً نموذجياً مع المناهج الدراسية يتضمن الإجابات النموذجية على الأسئلة. لا يمكن أبداً لأي نظام تعليم محترم، أو لدولة تراهن على التعليم في عملية النهضة القومية الشاملة، أن تعلم الأولاد في المدارس وفقاً لإجابات نموذجية يتعين عليهم حفظها والإجابة وفقاً لها. فكرة الإجابة النموذجية، أصلاً ومن الأساس، فكرة في منتهى

الخطورة. الخطورة بمعناها السلبي لا الإيجابي. ماذا تركنا إذن للمتطرفين والمتزمتين الذين يدعون امتلاك الحقيقة الكاملة والمطلقة؟! وماذا تركنا لمنهج السمع والطاعة؟! إنهم ينشئون جيلاً يعتقد في وجود إجابة نموذجية، أي حقيقة كاملة مطلقة، موجودة في كتاب الوزارة اليوم، وغداً عند الشيخ في الجامع أو في الكنيسة. إنهم يخربون التعليم من حيث هم يريدون إصلاحه. هذا إن أخذت بحسن النية وافترضت أن هناك مسؤولون في البلد قلبهم على التعليم فعلاً! وكان سلطان السكري أي سعيد صالح يتساءل في المسرحية مستغرباً:

- أذاكر وانجح، الاتنين؟!

ضحكت البنات، وصاحت فريدة مشيرة لجهاز التلفزيون:

- آهو مش كنت لسه بقولك!

أشرت بإصبعي أنا الآخر إلى التلفزيون وقلت لأحمد فرحات المندمج في الكتاب حتى بدا كمن نسي موعد الغداء، وأحمد فرحات عنده القدرة على التركيز في القراءة في وجود زلزال بدرجة سبعة رختر على مقياس الزلازل:

- ده نفس المنطق بتاع الحكومة عندنا في الإصلاح الاقتصادي! أصلح وانجح، الاتنين؟!

أنزل أحمد فرحات الكتاب على ركبتيه وضحك. كان برغم

قدرته على التركيز في القراءة في أي مكان وفي أي ضوضاء، قادر أيضاً على متابعة ما يجري من حوله، وهي قدرة طالما أدهشتني. قال وهو يضحك:

- أنا اركب دقن!

وضحكنا جميعاً.

وقال عاطف السكري أي يونس شلبي في المسرحية بجزم وتأكيد الجاهل الذي في الشقاوة ينعمُ:

- أنا اشتغل أي شغلانة شريفة، المهم إني في الآخر ماتمسكش!

صاحت سما وهي تضحك:

- نفس منطق رجال الأعمال بتوعنا!

علق أحمد فرحات بأسى:

- دول مش رجال أعمال، دول لصوص، إقطاعيين، الأعيان للأسف رجعت مصر تاني، الأعيان الجدد، ومصر رجعت إقطاعية من تاني!

قلت جملته التي سمعته يكررها كثيراً، مع تحوير يناسب المقام؛ من اللصوص إلى الأعيان الجدد:

- تحالف الأعيان الجدد مع البيروقراطية الأمنية والبيروقراطية الحكومية!

نهضت سما واتجهت للمطبخ. كانت قد يئست في ما يبدو من مبادرة أحمد فرحات باقتراح تناول الغداء لشروده مع الكتاب أولاً، ثم انغماسه في المناقشة. وكان من عادته أن يتبع المناقشات أو القراءات بالتأملات. يعني مافيش غدا في ساعتها! فالبنت قامت من تلقاء نفسها، وانضمت إليها فريدة، وراحت البنتان تنقلان صواني الطعام إلى المائدة، وتفتحان أدراج النيش وتخرجان منه الأطباق الفارغة وأدوات المائدة.

وفي هذه الأثناء، أمسك أحمد فرحات بالكتاب، وقال لي:

- إسمع القصيدة دي، دي أشعار من أفريقيا ترجمها صديقنا سمير عوض، القصيدة دي قصيدة ألقاها ملك قبائل الزولو في حفل تنصيب نلسون مانديلا كأول رئيس دولة أسود في جنوب أفريقيا، وكان حلف اليمين في البرلمان، وحضر ممثلين عن كل طوائف المجتمع، ومنهم ملك قبائل الزولو بزيه المميز؛ الجونلة الريش، والتاج الريش، والسلاسل، والعصاية، والحاجات اللى شبه كده، ملك قبائل الزولو ده أحكم رجل في قبائل الزولو، همَّا عادة في قبائل الزولو بيختاروا أحكم واحد فيهم عشان يبقى الملك، فملك قبائل الزولو ده وقف في قاعة البرلمان، وبص لمانديلاً اللى قاعد فوق على المنصة، وقاله:

أيها الرئيس

حين كنتَ في السجن

كنتَ ترتدي قميصاً ممزقاً

تذكر

أن ملايين الناس قد تعروا ليوفرا لك هذا القميص

أيها الرئيس

حين كنتَ في السجن

كنتَ تأكلُ كسرة خبز جافة

تذكر

أن ملايين الناس قد جاعوا ليوفروا لك هذه الكسرة

أيها الرئيس

حين كنتَ في السجن

كنتَ تتنفسُ هواءً

تذكر

أن ملايين الناس قد ُأخمدت أنفاسهم ليوفروا لك هذا الهواء.

صحت:

- الله الله الله الله!

وصفقت لاشعورياً، وقلت:

- عاشت أفريقيا، وعاشت الحكمة الأفريقية!

- عندي كذا نسخة من الكتاب هابقى اديلك واحدة.

كان الشيوعيون، واليساريون، ومعظم الكتاب والمثقفين المحترمين، يطبعون الكتب على نفقتهم الشخصية. كل الكل في مصر تقريباً يطبع الكتب على نفقته الشخصية ويضطر لأن يدفع لدار النشر حتى تنشر كتابه. ثم يقوم في النهاية بتوزيع الكتاب على الأصدقاء والمعارف، وبالمجان في أغلب الأحوال. كانت مصر هو الدولة الوحيدة التي أعرفها في ذلك الوقت التي يدفع فيها الكاتب من جيبه حتى ينشر كتبه، دون أن يتلقى شيئاً من دار النشر، ولا حتى مليماً واحداً! بمعنى أنه يجب أن تكون غنياً حتى تنشر كتابك، أو على الأقل أن تجوع لمدة سنة أو أكثر لكي تدخر ما يكفي لنشر الكتاب!

صاحت سما:

- الأكل جاهز يا جماعة يللا لحسن أنا جعانة قوي!

جلس أحمد فرحات على رأس المائدة مواجهاً للتلفزيون.

وجلستُ على يساره. وجلست سما على يمينه. وفريدة على يمينها. وكانت المائدة عامرة. طبق محشي ورق عنب. طبق محشي فلفل رومي. طبق محشي باذنجان أسود. طبق محشي باذنجان أبيض. طبق كبير للسلطة الخضراء مكون من قطع من الطماطم والخيار والبقدونس والفجل والجرجير والخس وعصير الليمون. وخبز بلدي طازج لأنه كان من عادة أحمد فرحات أن يأكل رغيفاً من الخبز البلدي على الأكل أياً كانت الوجبة حتى ولو كان أرزاً أو مكرونة لازم ياكل معاها عيش وكان يقول إنه اعتاد منذ الطفولة أن يأكل خبزاً مع الأكل وإنه إن لم يفعل ذلك لا يشعر بالشبع أبداً حتى في أيام موسكو كان لابد وأن يأكل شرائح من الخبز الأسمر الموسكوفي مع الأكل. وقد انتقلت عادة أحمد فرحات هذه إلى البنات فصرن بدورهن لا يأكلن أية وجبة إلا بمصاحبة رغيف من الخبز البلدي الطازج. وانتقلت هذه العادة إليّ أنا أيضاً من طول العشرة ولكنها كانت محدودة بأوقات تناول الوجبات مع أحمد فرحات حيث أن كسلي في شراء الخبز البلدي الطازج يومياً كان يمنعني من ممارسة هذه العادة الجميلة حين أكون بمفردي وهذا دليل على ما يُروَّج بخصوص حكم العادة الذي لا يُقهر فها أنا ذا أقهره في أحيان كثيرة فلا تصدق قصة الفيل في السيرك الذي ربطوه وهو صغير بحبل مثبت في الأرض فلما كبر كان يكفي ربط خيط رفيع في قدمه حتى يحجم الفيل عن الهروب وهذه قصة متداولة بكثرة عن قوة حكم العادة وتستخدم أحياناً في المحاججات السياسية للدلالة على أسباب عدم ثورة الجماهير على الظلم والاستغلال والطغيان بالإضافة إلى

استعمالها أيضاً في المجال الاجتماعي والمجال النفسي السيكولوجي والسيكولوجيا كما تعلم سلاح ذو حدين يحتمل الشيء ونقيضه يوم معاك ويوم عليك كما قال المحامي فيتوكوفتش في مرافعته في نهاية الإخوة كارامازوف لدوستويفسكي. وطبق مخلل مشكل كبير؛ بصل مخلل صغير، وشرائح خيار، وجزر، ولفت، وكرمب، وقرنبيط، وليمون معصفر، وزيتون أسود، وزيتون أخضر. وطبق كبير من أرز المحشي لأن البنات يحبونه جداً ويحبون أكله حتى بدون حشوه في أية حشوة محشية. وصينية رقاق لم أشم رائحتها في الصالة عندما وصلت ولابد وأنهم قد خبزوها في الفرن في الصباح الباكر أو في الليلة الفائتة حتى لا تسخن الشقة مزيداً من السخونة من نار الفرن في ظهيرة يوليو القاهري ثم سخنوها قبل الأكل مباشرة والحق الحق أقول لكم إن الرقاق البائت هو أحلى مئة مرة من الرقاق الطازج والسر كل السر هو في عامل الزمن الذي يتيح للمكونات الامتزاج معاً وهو نفس سر الزمن في تتبيل اللحوم ونفس سر الزمن في البامية البائتة والملوخية البائتة وهلم جرا وكثيرون يقولون بسبب احترامهم للزمن وجبروته المكان خادم في بلاط الزمان ولكن أنا ممن يقولون الزمان خادم في بلاط المكان وكلما تمعنت في صور الفضاء الخارجي ولانهائيته التي تنشرها وكالة الفضاء الأمريكية ناسا من حين لآخر أقول بالفم المليان يا عم انت وهوّ الزمان خادم في بلاط المكان بدون أي شك وإن أحببت أن تهين الزمان سمه الوقت وهذا تعبير أخذته من عماد فكري. وطبق مخلل باذنجان أسود بالخل والثوم والليمون والكمون. وطبعاً كنت على

وشك نسيان ملك الأطباق طبق الدجاج المحمر الذي نتفق أنا وأحمد فرحات وسما وفريدة على تفضيله مُحمراً بإفراط إلى درجة الحرق.

ملئت طبقي من تشكيلة المحاشي، وربع الفرخة الخاص بي، ومعروف ومتفق عليه بيننا حين أكون معهم بأنه ورك. وكانت سما مثلي تحب الورك. وأحمد فرحات وفريدة يحبان الصدور. ورحت آكل بشهية لا أتذكر أنني أكلت بها منذ مدة طويلة. وأخذت أقطع لقيمات من العيش البلدي الطازج وألفه على صباع محشي ورق عنب أو على صباع محشي باذنجان وآكل. وفي العادة وأنا آكل لا أكون منتبهاً إلى ما يُقال أو ما يُفعل على السفرة. أو الأصح القول: وفي العادة عندما أكون مقتولاً من الجوع والأكل شهي جداً لا أكون منتبهاً إلى ما يُقال أو ما يُفعل على السفرة. لكن أنا لسه قايل ما تصدقش أسطورة العادة التي لا تقهر، لسه قايل ولا لأ! ولذلك سمعت سما وهي تعلق على رواية كتبها روائي مصري أظن اسمه ممدوح عطوان أو عطوة حمدان أو شيء من هذا القبيل. وقالت سما إن الرواية ذات أسلوب متكلف في اللغة العربية وفيها تصنع وتقعر، مما وضع حاجزاً بينها وبين استيعاب ما يريد الكاتب قوله، وشعرتْ كما لو أن الكاتب ضليع في اللغة العربية ويستعرض عليها عضلاته اللغوية من أجل استعراض العضلات ليس إلا.

قلت وأنا ألوك بشهية نسيلة كبيرة من الفراخ في فمي:

- ساعات النقاد الانجليز بيقولوا على الكتابة دي الكتابة البنفسجي أو النثر البنفسجي، اللى هوّ الكتابة اللي بتبقى مليانة طنطنة وبهرجة واستعراض وكأنه زي ما انتي قولتي بالضبط عرض كمال أجسام للغة، أنور العماوي بتاع اللغة!

وضحكنا.

وأكملت:

- بتبقى حاجة مملة ومنفرة زي بالضبط لما تشوفي الخياطة باينة في الهدوم، الكاتب الشاطر يخفي الصنعة زي الترزي الشاطر ما بيخفي الخياطة فما تبنش في الهدوم، مش حلو إن الخياطة تبقى باينة في الهدوم!

وفجأة شعرت برغبة لا تقاوم في النوم. هجمة أخرى من هجمات النوم الجارفة. فأزحت الطبق الذي أمامي بظهر يدي بسرعة، وصلبت ذراعيّ على المائدة وأسقطت رأسي على مخدة ساعديّ وأنا أقول بصوت آفل:

- معلش يا جماعة أنا آسف محتاج أنام شوية!

ورحت من فوري في سبات عميق.

رأيت حلماً حياً شديد الوضوح. رأيتني أمام الموظف المصري بالقنصلية الفرنسية في القاهرة؛ الموظف الأول. كنت أستجديه بمهانة شديدة. وكان يقف إلى جواره موظف آخر توأم

طبق الأصل منه. مد الموظف الأول لي يده كي أقبلها، فانحنيت وقبلتها، وظللت أقبلها بشفتيّ وبصوت عال ومسموع قبلات تطعطع على ظهر يده. ومد يده الأخرى وأمسك بشعري ودفعني إلى أسفل. فانحنيت وسجدت عند قدميه ورحت ألحس حذاءه. وشممت رائحة ثوم قوية في جلد حذاءه البني. وكان رجب السيد يقف في ركن معتم ويضحك بشماتة وسخرية على موقفي. واضطررت إلى فتح عينيّ إلى آخرهما ودفع الحدقة إلى أقصى العين حتى أراه من موقعي وأنا ساجد. ثم راحت سما التي كانت تقف بجواره في الصياح عليّ وتأنيبي وهي تزعق: إللي يتنطط عليك تتنطط عليه! وكانت تشير بيدها اليمنى الممدودة بكفها وكأنها تحفزني على الفعل. فقمت بشد قدميّ الموظف بكل قوتي فوقع على الأرض على ظهره وارتطمت رأسه من الخلف ببلاط صالة القنصلية فتهشمت كالبيض، وسمعت صوتها وكان ممتعاً. وكان الموظف الثاني توأمه واقفاً بلا مبالاة ولا تصدر عنه أية ردة فعل. لكن سما نبهتني إلى أنه مجرد فخ وسيقبضون عليّ. فشرعت أجري بأقصى ما يمكن خارج القنصلية. واستمريت في الجري في شوارع وسط البلد، حتى وصلت إلى ميدان التحرير. وكان هناك رتل من العدائين الذي يجرون أمامي في مسابقة لاختراق الضاحية، فزدت من سرعتي حتى تجاوزتهم. ونظرت ورائي فرأيت أني أبتعد عنهم بسرعة فائقة حتى تلاشوا. وصعدت إلى كوبري أكتوبر. وظللت أسابق السيارات وأسبقها. ولم أكن أشعر بالتعب. حتى وصلت إلى البيت، ففتحت باب الشقة ودخلت بهدوء. عندها فقط شعرت بتعب رهيب وبرغبة هائلة لا

تقاوم في النوم. فاتجهت إلى غرفة النوم واستلقيت على السرير وقدماي تلمسان الأرض. واستيقظت بسرعة بعد أن شعرت بماء قذر ومقرف يبل قدماي. ونظرت فوجدت أن أرضية الشقة تمتلئ بماء قذر أسود يرتفع مستواه بسرعة. رفعت قدميّ إلى السرير ورحت أنظفهما من القذارة العالقة بمياه الصرف الصحي. وقلت لنفسي إني أحتاج إلى شجاعة رهيبة لكي أقفز قفزة واحدة على أن تكون قفزة في المكان الصحيح لأن الماء مليء بجرذان الصرف الصحي التي تتنفس تحت الماء القذر وتتحين الفرصة للانقضاض على العضو التناسلي ونهشه ولكن إذا استطعت أن أصل إلى النقطة الصحيحة المثالية فإن هناك سدادة في الأرضية إذا ما نجحت في شدها فسوف ُتصرَّف كل هذا الماء القذر وكل هذه الخطورة. ووقفت على السرير وأنا أشد من عزيمتي لكي أقفز في المكان الصحيح وأقول أين هي سما حتى تشير لي بيدها الممدودة وتحمسني على الفعل!

لا أظن أن أحداً على مائدة الطعام قد انزعج مما حدث. فأحمد فرحات والبنات يعلمون منذ سنين طويلة بأنني مصاب بداء الناركولبسي، أو النوم القهري إن شئت. وهو مرض ليس خطيراً إلى حد ما. ولا يُعرف سببه حتى الآن. وليس له علاج حتى اليوم. بالرغم من أنني سمعت أن هناك من يدعي وجود عقاقير تعالجه. لكن على الأقل لم أجد شيئاً من هذا القبيل في مصر رغم بحثي لعدة سنوات. والناركولبسي عبارة عن اضطراب يطرأ على حالة اليقظة للإنسان، فيتعرض لهجمات من النوم الذي لا يمكن مقاومته. ويُقال إن واحداً من كل عشرة آلاف

نسمة يصاب بهذا الداء. ويمكن لهجمات النوم هذه أن تحدث وتتكرر عدة مرات في اليوم الواحد. وبالنسبة لي أنا شخصياً نادراً ما كانت تتكرر أكثر من مرة في اليوم الواحد. وفي بعض الأحيان كان يمر عدة أيام دون أن أصاب بنوبة النوم. ويُقال إن النوبة الواحدة تستغرق في العادة حوالي خمس عشرة دقيقة. وكانت هذه هي تقريباً نفس المدة التي أنامها في كل مرة. وكانت الأعراض التي تسبق هذه النوبات تقريباً واحدة في كل العالم، على الأقل كما سمعت، وهي تتلخص في شعور عام بالضعف المفاجئ في العضلات، خصوصاً في الركبتين، بحيث لو كنتَ واقفاً فستضطر إلى الجلوس فوراً، وإلا ستخر مغشياً عليكَ على الأرض. وكان يحدث لي في كل نوبة نوم أن أحلم أثناءها بحلم حي شديد الوضوح. وكان يحدث أيضاً أن استيقظ من نوبة النوم شاعراً بشبه شلل في جميع أطرافي، ثم يتحول تدريجياً إلى شعور بمنتهى الراحة والانتعاش والنشاط والانسجام. وكنت دائماً أشبّه هذا الشعور بالحجامة عند العرب. ويمكن لنوبات النوم المفاجئ القهري أن تصيبني في أية لحظة وأية ساعة من ساعات اليوم، حتى ولو كنت مستيقظاً لتوي من النوم. وفي بعض الأحيان، بل في كثير من الأحيان، كانت تقع في أحرج اللحظات وأسوأها: أوقات تناول الوجبات، والجلوس على المقاهي، والتسكع في الشوارع، بل وحتى أثناء الجماع يا رفيق، تخيل! بعض العارفين والعلماء يقولون إن هذه النوبات النوميّة المفاجئة تستثيرها الانفعالات القوية كالغضب أو الحزن أو الضحك القوي أو الإثارة الجنسية. ويقولون أيضاً إن هذا الداء لا يقتصر على بني الإنسان

لأنه قد رُصد في بعض سلالات الكلاب كذلك.

وكما يحدث دائماً عند استيقاظي من نوبات الناركولبسي، أحسست بشيء يصعد لجوفي وأنا نائم، ففتحت عينيّ، وسعلت. وللحظة كان الوعي غائباً بالمكان والزمان، فلا مكان ولا زمان. ثم اعتدلت على كرسي السفرة، وأقمت ظهري بصعوبة، وأنا أشعر بجسدي مشلولاً عاجزاً عن الحركة. ووعيت بأنني في شقة أحمد فرحات. وتذكرت تدريجياً كل شيء حتى لحظة النوم. ولم أكن أعلم كم مضى على نومي، ولا كم هي الساعة الآن. وكنت أتوقع أنني نمت ربع ساعة مثلاً كما هي العادة. فسألت أحمد فرحات عن الساعة، وكان جالساً في كرسيه أمام التلفزيون يشاهد حلقة من أحد المسلسلات العربية:

- هي الساعة كام يا احمد، أنا نمت قد إيه؟!

- الساعة تلاتة وربع، إنت نمت أكتر من ساعة، شكلك كنت تعبان، كنت محتاج التعسيلة دي!

يااه، أول مرة تحصل! لم أنم أبداً أكثر من ربع ساعة في نوبات النوم القهري. بالتأكيد كان الجسد متعباً من القلق والتوتر والانفعالات خلال الثمانية والأربعين ساعة الماضية. تعب معنوي، وتعب مادي أيضاً.

بدأت أستعيد إحساسي بجسدي وأتحكم في عضلاتي. وراح يغمرني شيئاً فشيئاً إحساس بالانسجام مع أحمد فرحات ومع سما

ومع فريدة ومع كل العالم. أخذت نفساً عميقاً من أنفي. قال أحمد فرحات:

- إحنا عارفين إنك بعد نوبة النوم بتصحى جعان فسبنالك منابك على السفرة عندك، لسه دافي، بس لو حبيت تسخنه سخنه في المطبخ.

قمت وأنا أنوي غسل وجهي أولاً، وتوجهت إلى الحمام.

- لأ مش محتاج تسخين ولا حاجة، الدنيا حر!

وعبرت من بين التلفزيون والكنبة التي كانت سما وفريدة تجلسان عليها تتابعان ما تنبهت إلى أنه إعادة لحلقة من حلقات مسلسل (الوسيّة). لم أكن أشاهد التلفزيون عموماً. كنت أكرهه، وأعده مسؤولاً عن تخلف الإنسانية. لكن المسلسل كان قد حقق شعبية كبيرة عند عرضه لأول مرة، في أوائل التسعينيات على ما أتذكر، وكنت أراه في تلفزيونات المقاهي الشعبية التي أجلس إليها، وأحياناً في بيوت الأصدقاء.

غسلت وجهي بالماء والصابون، فانتعشت مزيداً من الانتعاش. وجعت مزيداً من الجوع أيضاً! جففت وجهي ويديّ في المنشفة المعلقة على الفواطة المجاورة لحوض الغسيل، أو المشجب إن أردت. وخرجت وأنا أسمع أغنية تتر النهاية للمسلسل الذي انتهت حلقته، والذي كنت أعرف أن كلماته لسيد حجاب، وألحانه لياسر عبد الرحمن:

بدأت حنان ماضي الغناء أولاً، وهي في ما أعلم زوجة الملحن ياسر عبد الرحمن، وتجيد عزف الكمان الكلاسيك والشرقي كلاهما على ما أظن، وكان صوتها عميقاً ورقيقاً في نفس الوقت:

وتستمر الحياة

بين ابتسامة وآه

فيها اللى تاه في دجاه

واللي ضميره هداه.

ثم يدخل العظيم صوتاً، الجميل العذب، الحريّف الكبير في الارتجال على الأصول، المتواضع اختياراً لطريقه، الظالم لنفسه بنفسه، محمد الحلو:

وكل ضيقة بعدها وسعة

واهي دي الحقيقة بس منسيّة

وكلنا ولاد تسعة وبنسعى

ودي مش وسيّة، الناس سواسيّة

لملم جروحك يا حزين وامشي

خطوة كمان وتخف آلامك

واحلم بعين صاحية ولا تنامشي

غير لم تقطف زهر أحلامك.

قلت وأنا أخاطب البنات:

- ده صح جداً على فكرة، اللى قاله عمنا سيد حجاب صح جداً على فكرة!

ثم شرحت، مستدعياً موقفاً كان قد حدث لي أثناء إحدى سنوات الدراسة بمعهد السينما. كان لنا زميل من الغاوين لكمال الأجسام ورفع الأثقال وكل تلك الأشياء، التي، وللغرابة، تجد الكثيرين من الفنانين المعروفين برقة ورفاهية المشاعر يهوونها! وحدث أن تفوق زميلي هذا في موضوع كمال الأجسام هذا، فاختاروه في منتخب مصر لكمال الأجسام. كنا على ما أتذكر في السنة الثانية بالمعهد. وطلبت منه، مرة، أن أحضر تمريناً له مع المنتخب. كنا نحاول وقتها أن نعرف كل شيء، وأن نرى كل شيء، وأن نخبر كل شيء، محاولين أن نراكم الخبرة فوق الخبرة، ففي النهاية من يحدد هدفاً لنفسه بأن يكون سينمائياً، عليه أولاً أن ينهل من الخبرة في الحياة، حتى يعرف ماذا يريد أن يقول للناس بدقة، قبل أن يفتح فمه أو كاميرته.

نهايته، ذهبت مع صديقي، وحضرت تدريب المنتخب. كان

هناك ممن أتذكرهم جيداً الشحات مبروك بطل العالم عدة مرات في وزنه. وأنور العماوي بطل طنطا ومصر والعالم عدة مرات في وزنه. ورأيت كبار أبطال مصر والعالم يتمرنون والحديد في أيديهم تقولش حلاوة شعر! وشيئاً فشيئاً بدأ الأبطال يتعبون من التمرين. الشيء الغريب والعجيب والمدهش، أن أنور العماوي في تلك الأثناء كان يزيد من حمل التدريب، ويزيد من وضع اسطوانات الحديد في البار. كان شيئاً مدهشاً ومعجزاً يحدث أمام عينيك! كبار أبطال العالم يتساقطون من الأعياء، بينما هو يزيد أكثر وأكثر من حمل التمرين رغم ضآلة جسمه بالمقارنة بهم، فلو لم تخني الذاكرة، كان يلعب في وزن الستين أو الخمسة وستين كليوجرام.

بعد انتهاء التدريب، قررت أن أتشجع وأسأله. فذهبت إليه فعلاً وسألته عن السر. وكان كريماً فقال لي ما لن أنساه مطلقاً ما حييت، واستغربت وقتها من أن تخرج مثل تلك الحكمة منه. قال:

- فيه درجة على سلم الألم، لو عرفت تخطيها، مش ها تحس بعدها بحاجة أبداً!

اتجهت إلى مكاني على السفرة، وعلق أحمد فرحات من مكانه وهو جالس أمام التلفزيون:

- لسه بيتمرن وبيلعب على فكرة، رغم انه معدي الخمسة واربعين سنة، بس لسه فورمة وبيشارك في البطولات العالمية.

- عظيم أحمد العماوي!

وجلست على السفرة، ورحت أزيح الأغطية التي غطوا بها الأطباق وأنا نائم. وكانوا قد ملئوا طبقي من جديد بالكثير من المحاشي. وكانت بقايا ربع الورك في الطبق. وطبق به مربع كبير من الرقاق. وكان هناك بواقي مخللات، وسلاطة، وأرغفة من الخبز. وأكلت بشهية كبيرة. وكان الطعام في درجة دفئ مثالية. وكنت من شدة جوعي لا أمضغ الطعام جيداً بل ألهطه لهطاً، فأبلعه أحياناً بلا مضغ، وفمي محشو عن آخره بالمحاشي.

وطلب أحمد فرحات من سما أن يشاهد قناة الجزيرة الإخبارية. وكانت تعرض تقريراً من أمريكا، من ولاية نيويورك، عن عملية نصب واحتيال وسرقة ضخمة تقوم بها شركة لإقراض النقود. ولانهماك جوعي مع لذة الطعم، لم تكن أذنيّ مع التفاصيل جيداً، ولكن وعي ألم بعمومية الموضوع. وكان يتلخص في أن شخصاً أمريكياً اسمه لورانس أو شيء من هذا القبيل، قد أنشأ شركة لإقراض المال لمن يحتاجه بفائدة مرتفعة نسبياً. لم تكن المشكلة تكمن في الفائدة المرتفعة، فالمقترضون قد وافقوا عليها، وكانت كلها مبالغ صغير لا تتعدى الخمسمئة دولار، يقترضها العمال، أو أصحاب الدخول المنخفضة، في منتصف الشهر عادة، من أجل دفع التزاماتهم الشهرية وفواتيرهم الدورية، على أن يسددوا المبلغ البسيط على دفعات من مرتباتهم. فمن يقترض مثلاً خمسمئة دولار لتسديد احتياجات طارئة لمدارس أولاده، أو لمرضهم، أو لدفع فواتير

الكهرباء والماء وخلافه، تقوم شركة القروض بخصم خمسين دولاراً من مرتبه الشهري مباشرة من حسابه البنكي، أي من المنبع، حتى يتم تسديد المبلغ كله، وهو بالمناسبة ستمئة وخمسون دولاراً، بعد إضافة الفوائد، لأن الشركة تقرض بفائدة مقدراها 30%. المهم، يتوقع أي إنسان بسيط ذهب إلى المدرسة الابتدائية، أن يتم خصم مبلغ الستمئة وخمسين دولاراً، في نهاية ثلاثة عشر شهراً لا غير، بواقع خمسين دولاراً كل شهر. ولكن الخدعة كانت تكمن هنا يا ولد!

كانت الخمسون دولاراً التي تخصمها شركة القروض من المرتب الشهري للمقترض، ليست إلا ما يسمونه: مصاريف تجديد القرض! بمعنى أنها ليست قسطاً يتم تسديده والانتهاء منه، بل هي مصاريف إدارية ُتخصم من مرتب المقترض لأنه لم يدفع كامل مبلغ القرض، مضافاً إليه الفوائد، في موعده بعد شهر؛ والتي هي ستمئة وخمسون دولاراً!

ولم تكن السرقة النهارية عيني عينك تقف عند هذا الحد وياليتها وقفت عند هذا الحد! بل كانت شركة القروض تحسب فائدة الثلاثين بالمئة في نهاية كل شهر، مادام المقترض لم يُسدد كامل مبلغ الدين. أي أنه في نهاية الشهر الأول من الاقتراض، كان يتوجب على المقترض أن يسدد للشركة مبلغ 650 دولاراً. وحيث أنه لم يسددها لأنه لم يعرف أي شيء بخصوص هذا النصب، ففي الشهر الذي بعده يتوجب عليه أن يدفع 650 + 195 دولاراً والتي هي الثلاثين في المئة للستمئة وخمسون =

845 دولاراً. وهكذا، ففي حين يتوقع العامل أو المدرس أو رجل المطافئ الأمريكي البسيط أنه في نهاية الثلاثة عشر شهراً سوف يكون قد سدد المبلغ الذي اقترضه بفوائده، يفاجئ بالشركة تطالبه بستة أو سبعة آلاف دولار، نتيجة تراكم الفوائد المركبة، ومركبة المركبة!

اشتكى الناس للشرطة، ولم تفعل شيئاً. واشتكوا للمدعي العام لمدينة نيويورك، ولم يفعل شيئاً. وحاولوا الاتصال بوكالة المباحث الفيدرالية الأمريكية، ولم تفعل شيئاً. وكان الناس المنصوب عليهم في التقرير يبكون، وكلهم من الأمريكيين متواضعي الحال، لأنهم في موقف الدفع أو الحبس. والمبالغ كبيرة جداً عليهم. وهم بالفعل قد سددوا ما عليهم بالخصومات الشهرية التي كانت شركة القروض تحصل عليها شهرياً من مرتباتهم من البنك. لكن كان لدى السيد لورانس جيش من المحامين من أولئك الذين يُدفع لهم بالساعة. وكان أحدهم في التقرير الذي تعرضه الجزيرة يقول بإن هناك عشرات شركات الإقراض في عموم الولايات المتحدة الأمريكية، وإنها جميعاً تفعل نفس الشيء، لإن العقد الذي تبرمه مع المقترض هو عقد قياسي نموذجي موجود في كل شركات الإقراض بلا أي تغيير في فقراته. وكان أحد المحامين من ذوي الضمير، وكان موكلاً من قبل المنصوب عليهم للدفاع عن حقوقهم في المحكمة حتى لا يتم حبسهم، يقول إنه قرأ العقد الذي وقع عليه المقترضون مع الشركة، وإنه، وهو المحامي المتخصص في شؤون العقود المالية، لم يستطع أن يفهم منه شيئاً، بل ولم يستطع أن يقرأه من

الأساس إلا باستخدام عدسة مكبرة، لأن البنط المكتوبة به الفقرات كان شديد الصغر، عن عمد، وقال أيضاً إن أي محامي يريد أن يفهم تلك الخدعة والنصب الذي تقوم به الشركة، عليه أولاً أن يعيد ترتيب الفقرات المكتوبة في العقد ترتيباً مختلفاً عن ترتيبها الأساسي، لأنه من المستحيل أن تفهم شيئاً إذا قرأت العقد بالعدسة المكبرة وفقاً للترتيب المكتوب به الفقرات.

صاح أحمد فرحات بالعبارة التي كان صديقنا المشترك محب كثيراً ما يرددها:

- وكله بالقانون، والقانون نغمه بياتي يا نبوية!

ضحكتْ البنات، وضحكت أنا أيضاً، وأنا أحاول جهدي أن لا يسقط الطعام من فمي المملوء، وكدت أن أختنق وأنا أبلع الطعام، فصببت ماءً من الإبريق الزجاجي بسرعة في كوب، وبَلَّعت الطعام وهو واقف في زوري.

قالت سما وهي تضحك:

- إحنا ناس لما نغلط الغلط بتاعنا يبقى قانون!

كانت جملة من فيلم (طيور الظلام). كان الوزير جميل راتب قد زاغت عينه على يسرا، فقال له المحامي عادل إمام إنه يُقدِّر مدى تعب الأعصاب الذي يعيش فيه الوزير بسبب الانتخابات والصراعات داخل الحزب والحكومة، وإن من حقه أن يريح

أعصابه ويستجم، ولكن نحن أناسٌ إذا غلطنا يكون غلطنا بالقانون، أو نحن أناس إذا غلطنا يكون غلطنا هو القانون، شيء من هذا القبيل. المهم أن عادل إمام كان يقصد أن يكتب الوزير ورقة عرفي مع يسرا.

- بالمناسبة يا سامح، هوّ مش اللى كتب الحوار بتاع فيلم (اللص والكلاب) سيناريست اسمه صبري عزت؟ راح فين ده؟!

- آه مضبوط، إنت عارف إنه شارك كمان في كتابة (شيء من الخوف)؟

- آه أنا فاكر حاجة زي كده، راح فين ده؟!

- أبداً، زي بقية الناس، أكل العيش! أنا أسمع إنه كان صنايعي شاطر في السيناريو، وكان موهوب جداً في كتابة الحوار، إنما بقى أكل العيش بيدفن أي عبقرية في مصر! وبعد خمس ست سنين تلاقيه بيكتب فيلم اسمه (الحساب يا مدمازيل)، أو (ابنتي والذئب)، وحاجات كتير بالشكل ده!

- خسارة!

- طب انت عارف مسلسل (ليالي الحلمية) اللى انت بتعشقه، التتر بتاعه اللى ملحنه ملحن عبقري اسمه جورج ميشيل، آهو جورج ميشيل ده برغم عبقريته، لكن الموسيقى العربية للأسف ما استفادتش منه، لإنه مسكين راح ياكل عيش في الكويت ويعلم

مزيكا هناك، ومعظم الناس ما تعرفلوش غير تتر ليالي الحلمية! طب فين صاحبك اللى انت بتحبه أحمد اسماعيل، آهو ده كمان ملحن عبقري من اللى أكل العيش دفن عبقريتهم! وكتير غيرهم يا دكتور، مناخ يخلي الأديب الموهوب يضطر يطبع روايته أو ديوان شعره على حسابه، ومع ذلك ما يبعش النسخ اللى طبعها علشان الناس ما عهاش فلوس تشتري كتب! وعايزني أكسبها على رأي يوسف شاهين! أي إنجاز فردي يطلع في هذه البلد في ظل هذا المناخ يبقى انتصار! انتصار وليد الصدفة، وصدفة كونية كمان مش صدفة عادية!

- خسارة! مصر دي فيها كمية مواهب ما شفتهاش في روسيا لما كنت قاعد هناك! رغم إننا في روسيا كنا مجتمع كوزموبوليتاني، لإن الطلبة هناك كانت من الشرق والغرب والشمال والجنوب، لكن أظل أحلف بالجينات العبقرية اللى في هذا الشعب، خسارة يا مصر!

كانت كلمة خسارة يا مصر من أحمد فرحات تعني أنه على وشك الدخول في مرحلة اكتئاب، قد تستمر لدقائق، أو لأيام كاملة، انت وحظك بختك يا ابو بخيت! أحمد فرحات من النوع الذي يتأثر بالأحداث العامة في البلد أكثر من الأحداث الخاصة التي تحصل له هو شخصياً. وكثيراً ما رأيت معاناته النفسية عقب أي حادث مأساوي لقطار، أو حافلة، أو حالة تسمم جماعي لتلاميذ مدرسة تناولوا وجبة حكومية فاسدة، أو أي شيء من هذا القبيل، وكأن المصيبة قد وقعت على أهل بيته شخصياً!

الحس القومي، والحس الاجتماعي، والإحساس بالآخرين كان في دم أحمد فرحات منذ الطفولة. وربما وجب عليّ قول كلمتين بهذا الخصوص.

أحمد يتيم الأبوين. ربته في الصغر جدته، التي كانت فقيرة، بل معدمة. وقد حكى لي أحمد بعض الحكايات عن تلك الفترة، أكاد أن لا أصدقها من فرط غرابتها، لولا أني من المستحيل أن ُأكذب أحمد فرحات. منها مثلاً أن جدته كانت تعلمه كيف يأخذ دجاجة نافقة ويروح بها لعند دكان الفرارجي ويقف على مبعدة ويهدده صائحاً: ها تجيب فرخة ولا ارمي دي على الفراخ! قال لي إن عمره وقتها كان لا يتجاوز الخمس سنوات.

وحكى لي مرة أخرى أن نساء الحارة في كرموز، حيث كان يسكن هو وجدته، كن يدفعن لجدته مالاً للانتقام من أية امرأة في الحي، فتروح جدة أحمد فرحات إلى دار الضحية، وتمسك بها، وتكتفها من الخلف، وتجلس بها على الأرض محتضنة إياها على هذا الوضع، وتفتح بساقيها الطويلتين ساقي السيدة، وتعري فخذيها، وتمزق لها لباسها، ثم تستأنف تكتيفها، وتصيح في أحمد فرحات، الذي لم يكد يتجاوز الخامسة أو السادسة، والذي كان يمسك في يده بكيش شطة سوداني أن يدلق الشطة في فرج المرأة!

وبعد موت جدة أحمد فرحات، تبناه تاجر حشيش كبير في المنشية. لا يعلم إلا الله لماذا! لكن أحمد فرحات قال لي مرة إن

عم السيد كان عقيماً. ويبدو أن الرجل قد شعر ببنوة ما تجاه الولد الصغير. وغالباً هذه النوعية من الأشخاص، أي تجار المخدرات والأشقياء، لديهم فراسة ونظرة صائبة في معدن الإنسان. وغالباً استجدعه. ومن يومها وأحمد فرحات يعيش في منزل عم السيد تاجر الحشيش، ويعمل معه. وكان عم السيد متزوجاً من امرأة بارعة الجمال. الجمال على الطريقة البلدي كما وصفها مرة أحمد فرحات. وكانت الست منيرة بمثابة أم له وقتها. وأسرَّ لي مرة وهو مخمور، بأنه عشقها، وظل يعشقها، وظل يبحث في كل امرأة يحبها، بمن فيهن زوجته المرحومة سهام، عن المثال الكامل للأنوثة في نظره: الست منيرة، زوجة عم السيد تاجر الحشيش العقيم.

في أحد الأيام، سمع أحمد فرحات، وكان شقياً بلطجياً يهابه الجميع لأن قلبه ميت ولا يتورع عن غز المطواة في بطن أي تخين، سمع على المقهى بأن كمسارياً بأحد التورمايات قد شتم امرأة فقيرة لم يكن معها ثمن التذكرة، وطردها بعنف من عربة الترام، حتى أنها وقعت على وجهها على رصيف المحطة.

فما كان من أحمد فرحات إلا أن سحب كرسياً من المقهى، ومشى به حتى خط الترام، ووضع الكرسي بين قضبان السكة، وجلس عليه في انتظار عودة الترام. ولما وصل السائق إلى المكان وشاهد أحمد فرحات جالساً على الكرسي على قضبان السكة الحديد، أوقف الترام مذهولاً. فقام أحمد فرحات من على الكرسي، وصعد عربة الترام، وسحب الكمساري من قفاه إلى

خارج العربة، وضربه يومها علقة موت. ولم يتركه إلا بعد أن أرسل من يحضر المرأة التي شتمها وأهانها، وأجبره على تقبيل قدميها وهو ساجد على زلط السكة الحديد. وعلمت الإسكندرية كلها في ذلك اليوم بما حدث، لأن حركة الترام قد توقفت فيها ذهاباً وعودة لأكثر من ساعة كاملة.

وكان حسين عبد الرازق، الزعيم الشيوعي العظيم، يُصيّف وقتها في الإسكندرية. فسمع بالقصة. وطلب أن يرى هذا الشاب الغريب ديلر الحشيش الذي لديه حس إنساني وروح عدالة اجتماعية ونصرة للمظلوم. وتعرفا على بعضهما البعض. وتوسم فيه حسين عبد الرازق خيراً من أول نظرة. عرف معدنه النفيس! وكما تبناه عم السيد تاجر الحشيش في المنشية، تبناه حسين عبد الرازق تقريباً. وبدأ معه باستكمال تعليمه الذي انقطع بعد الابتدائية. ثم ساعده لكي يسافر إلى موسكو في بعثة دراسية بتوصية من حزب التجمع، وبمنحة كاملة وشاملة من الاتحاد السوفييتي. فحصل على الماجستير، ثم الدكتوراه، في وقت قياسي. وأصبح الآن واحداً من قادة حزب التجمع التقدمي الوحدوي، وخبيراً مرموقاً في اقتصاديات مصر والعالم الثالث، وواحداً من أهم نقاد النيولبرالية في العالم. لكن يا خسارة يا مصر، لا يُكرم فيكِ نبيٌ يا بلد! واللى قبلينا قالوا: المنايك ركبوا الفلايك والزبّيرة أخدوها عوم!

وفي محاولة سريعة لطرد أي حالة حزن قومي أحمدي فرحاتي على مصر، وقصرالأمر فقط على مسحة الشجن التي

غلفت نبرة صوته وهو يتحسر على حالة المواهب في البلد، سألته معلقاً على تقرير قناة الجزيرة:

- تفتكر حد من جهابذة رجال الأعمال اللى عندنا من بتوع أشتغل أي حاجة المهم إني ماتمسكش، ممكن يشوف التقرير ده في التلفزيون فيقوم مستورد الفكرة؟!

- هه هه ها، مش بعيد طبعاً، دول ولاد كلب رمم! إنت فاكر القصة بتاعة شركات توظيف الأموال؟ كنت لسه صغير مش كده؟!

- آه كنت في أولى أو تانية إعدادي تقريباً، لأ بس فاكرها كويس، وفاكر إن كل الناس اللى نعرفها حطوا فلوسهم وشقى عمرهم في الشركات دي، وكانوا بيقولوا وقتها بتدي تلاتين في المية فوايد، واتضح انهم بياخدوا الفلوس من الناس ويدوهم الفوايد من أصل المبلغ، فاكر كويس قوي إن أمي الله يرحمها كانت رافضة رفضاً باتاً الموضوع ده وبتقول عليهم نصابين، إزاي يعني فيه حاجة اسمها فايدة تلاتين في المية؟! ليه؟! بيشتغلوا في إيه؟! مخدرات!

- أمك الله يرحمها كانت من القلائل في البلد اللى فكروا بعقلهم ساعتها، بقية الناس للأسف رقم التلاتين فيه المية لحس نافوخهم، واللى ساعد على كده أكتر الشيوخ اللى كانوا بيروجوا لشركات توظيف الأموال وعلى رأسهم زفت الطين الشعراوي! تخيل الشيوخ دول وبعض المسؤولين في الدولة والبيروقراطية

الأمنية جيش وشرطة كانوا بياخدوا من الشركات دي مية في المية فوايد على فلوسهم! دول الناس اللى كان واجبهم يحموا المودعين، كانوا غرقانين يا سيدي في الفساد وفي الرشوة لشوشتهم، وكانوا في جيب شركات توظيف الأموال الإسلامية، تخيل! وترتب على ذلك ضياع مدخرات الطبقة الوسطى المصرية، ومن ساعتها وهي مش عارفة تقف على رجليها تاني! المهم بقى اللى كنت عاوز أقولهولك قبل ما نسى، إن فكرة النصب بتاعة شركات توظيف الأموال الإسلامية دي، بدأت أولاً في أمريكا مش في مصر، يعني ما هياش اختراع مصري ولا حاجة! ده كان واحد نصاب أمريكاني اسمه تشارلز بونزي اتولد سنة 1882 ومات سنة 1949، وده بيُعتبر أكبر النصابين في التاريخ الأمريكي، وفي أدبيات الاقتصاد بنقول على اللي عمله: (خطة بونزي)، إيه يا سيدي بقى خطة بونزي دي؟ خطة بونزي دي يعني النصاب من دول يغطي عمليات النصب بتاعته بأعمال خيرية واسعة النطاق، وتبرعات، وهبات للجمعيات الخيرية والكنائس وما إلى ذلك، وبعد عم بونزي ده جه تلميذ نجيب تاني في مدرسة البونزية، اسمه برنارد مادوف، اتولد سنة 1938، ولسه عايش لغاية النهارده، ده بقى يا جماعة سرق حرفياً المليارات من الشعب الأمريكي البسيط، اللى معظمهم مدرسين وعمال بُنا وجرسونات في مطاعم وعاملات وعمال شقيانين وطافحين الكوتة، وفي نفس الوقت كان كل يوم يتبرع لجمعية خيرية أو لكنيسة، وكأنه الواهب الخيِّر لأعمال الخير في أمريكا، وجم بعد كده بقى عندنا العيال اللى كانت بتشتغل في تجارة العملة

في السبعينيات، أحمد توفيق الريان، وأشرف السعد، وطبقوا نفس خطة بونزي الأمريكاني عندنا هنا في مصر.

قلت، وأنا أقوم من على السفرة، وقد شبعت:

- الدين لله والنصب للجميع!

وقشرت إصبعي موز من طبق الموز الذي على المائدة والتهمتهما بسرعة. ثم رحت أغطي الأطباق على ما فيها من بقايا طعام، وأضعهم في الثلاجة التي كانت بجواري في نهاية الصالة. ونهضت فريدة وراحت تساعدني. ولملمتُ الأطباق الفارغة ودورق المياه والكوب فوق بعضهم البعض واتجهت بهم إلى المطبخ. وأرادت فريدة مساعدتي في غسيل المواعين، ولكنني صممت على غسل صحوني بنفسي، وأصريت على أن تخرج وتجلس مع سما وأبيها في الصالة. وكان صوت التلفزيون يأتيني واضحاً جلياً. وكانت الجزيرة الإخبارية قد بدأت تذيع تقريراً عن أحد المطاعم في تايلاند الذي يقدم لزبائنه سندويتش برجر عملاق، وزنه 8 كيلوجرامات، وسعراته الحرارية عشرة آلاف سعر حراري، وسعره 150 دولاراً أمريكياً. وسمعت صوت سما تصيح:

- يا مجانين يا ولاد الذينَ!

فقلت بصوت عالٍ:

- سبحان الذي يُحي بالسمُ ويُميتُ بالغذاء!

فسمعتهم يضحكون. وجففت يديّ في منشفة المطبخ، وخرجت وجلست معهم، على الفوتي عن يمين أحمد فرحات، ويسار الكنبة التي كانت تجلس عليها فريدة إلى ناحيتي، وسما في الطرف الآخر. ورحنا نتفرج على الزبائن الذي يلتهمون سندويتش البرجر الثمانية كليوجرامات ذو العشرة آلاف سعر حراري وأبو مئة وخمسين دولاراً أمريكياً ونحن نضحك. وقال لي أحمد فرحات إنه يريدني أن أذهب معه إلى الحزب.

- إنت رايح النهارده؟! النهارده الجمعة!

- آه أنا عايز أروح، فيه مشوار مهم، ها تيجي معايا.

أوامر أحمد فرحات هي أوامر أحمد فرحات.

- ماشي يا ريس. دلوقتي؟!

- لأ، نشربوا قهوة الأول ونفوقوا وبعدين ننزل.

وهب واقفاً واتجه نحو المطبخ، وتوقف ما بين فريدة وسما، ومرجح سبابته ما بينهما سائلاً:

- ها عمل قهوة يوناني، حد عايز حاجة تانية؟!

فطقطقنا حنكنا نحن الثلاثة. أو بعضنا طقطق حنكه، والبعض الآخر هز رأسه نفياً. واعتبرت أن سؤال أحمد فرحات للبنتين

واعتبار أن إجابتي أمراً مسلماً به هو من باب تأكده وتيقنه وتوثقه بأني في حاجة ماسة إلى فنجان قهوة يوناني. وأكمل أحمد فرحات سيره واختفى في المطبخ.

وكنت قد نجحت في نشر دعوتي في بيت أحمد فرحات، فأصبحوا يطلقون على القهوة التركي: قهوة يوناني. وذلك بعدما ظللت أكرر لهم وأكرر الحقيقة التي كنت أؤمن بها، والتي أكدها لي عدة يونانين قابلتهم في القاهرة، فأنا لم أكن قد زرت اليونان منذ الطفولة المبكرة من أيام الترانزيت، ولا أذكر شيئاً عنها سوى إضراب الطيارين والمضيفين وأطقم المراقبة الجوية الذي وقع هناك في سنة من السنين، وكانت عائلتي وقتها قد وصلت إلى أثينا، كترانزيت ما بين طرابلس والقاهرة، لأن الطيران المباشر بين العاصمتين كان ممنوعاً أيام المقاطعة العربية لمصر بعد توقيعها المنفرد لاتفاقية السلام مع العدو الإسرائيلي، المهم أننا وصلنا إلى أثينا من هنا، وعلمنا بعد ساعة أو شيء من هذا القبيل بموضوع إضراب الطيارين وأطقم المراقبة الجوية عن العمل من أجل زيادة أجورهم وتحسين ظروف العمل، فاضطررنا للبقاء في أثينا على ما أذكر ثلاثة أيام كاملة، في فندق صغير، تكلفت بمصاريفه شركة طيران الأولمبك اليونانية، وكان كلنا من المصريين في ذلك الفندق، الذي كان أشبه بفيللا، ومن طابقين فقط، وكانت له حديقة كبيرة وجميلة، وكانت مالكته سيدة جميلة متزوجة من مصري شاب، وكانت فيه الوجبات الثلاث في غاية الطعامة واللذاذة، وكان الغداء كل يوم دجاجاً مقلياً وتفاحاً أحمر، وهذه هي تقريباً كل ذكرياتي عن أثينا واليونان.

آه، أتذكر أيضاً أن أبي رحمة الله عليه كان سعيداً جداً وفي غاية البهجة والسرور لقيام الطيارين اليونانيين بالإضراب، بالرغم من أن هذا الإضراب قد أضر به وبعائلته، وعطلنا عن الوصول في موعدنا إلى مصر. وكان أبي في تلك الأيام الأثينية الثلاثة يشرح لي ما لم أعد أتذكره، لأنني كنت صغير السن جداً، ومبهوراً بكل شيء جديد تراه عيناي في الفندق، فكان التركيز ضعيفاً، لكن المهم أنني مازلت أذكر حماسة أبي الشديدة وهو يسوق الحجج، التي نسيتها كلها، دفاعاً عن مطالب الطيارين المضربين عن العمل، طبعاً فهمت فيما بعد سر هذه الحماسة، المضادة للطبيعة البشرية التي تكره الضرر الشخصي، بوصفها طبيعة أرقى من الطبيعة البشرية العادية، كانت موجودة لدى عدد كبير من المصريين الشيوعيين، وكانت موجودة في أبي بوصفه ناشطاً نقابياً مدافعاً عن حقوق زملائه العمال في مصانع الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى، وهو الأمر الذي كلفه عمله، وبيته، ووطنه، حتى اضطر للسفر إلى ليبيا للعمل هناك، بعد أن كان نظام السادات يلاحق النشطاء النقابيين، والشيوعيين، ويفصلهم من أعمالهم، ويقصف في أعمارهم.

أما في ما يتعلق بمعلومة القهوة اليوناني فقد عرفتها من كثير من اليونانين الذين قابلتهم في القاهرة، والذين أكدوا لي بأن هذا النوع من القهوة، الذي نشربه والذي نطلق عليه اسم القهوة التركية، هو أصلاً اختراع وابتكار يوناني، وأن الأتراك قد سرقوه من اليونانيين. ومن ذلك الحين وأنا أنتصر للتاريخ اليوناني المغدور على حساب التاريخ التركي الحرامي، فأقول

دائماً: قهوة يوناني، كما أخذت على عاتقي نشر الدعوة بين الأصدقاء والأقرباء والمعارف.

لكن ما كان يحز في نفسي، حقيقة، ويخجلني، هو عدم قدرتي، لضيق ذات اليد، عن سؤال البنتين:

- تحبوا أجيبلكوا إيه من فرنسا؟!

قلت للبنتين، وأنا أكذب:

- أنا بعملكوا حالياً عقدين حلوين قوي، بس للأسف محتاج لسه مشوار للصاغة عشان فيه في دماغي تصميم معين ومحتاج أشتري أحجار أفريقي وهندي من هناك، أول لما أرجع إن شاء الله ها كمل شغل فيهم.

شكرتني البنتان. وكنت معتاداً على صنع قلائد لهما، مرتين، وأحياناً ثلاث مرات كل عام. وكنت أحب صنع القلائد الحريمي، لأنها سهلة، ومسلية، ومفيدة جداً لأن البنات يحببنها للغاية. والحقيقة أن رجب هو من علمني كيفية صنعها عندما كنا نذهب إلى الفيوم عند إيفيلين في تونس. وكان هو متخصصاً في تصميم الأحجار وصنعها من الفخار بنفسه، وتجفيفها وحرقها في الفرن الذي تملكه إيفيلين في مدرسة الفخار هناك. ثم يصنع قلائد من الأحجار الفخارية، بلضمها في الخيط المستخدم في صنانير صيد السمك، لأنه خيط قوي جداً ويتحمل، ويضيف للقلادة في نهاية طرفيها قفل من الفضة القديمة، ليس غالياً كثيراً، كان يشتريه من

محل مجوهرات معين في الصاغة، عرفني عليه، وعلى أصحابه الودودين اللطفاء. لكنني بعد أن صنعت أول عقد من الأحجار الفخارية التي أعطانيها رجب، لأنني لم أحب مسألة عملها بنفسي، لم أستلطف العقد، لأنه كان قاتماً، وذا لون واحد هو الرصاصي الغامق الأقرب إلى الأسود، ولا يفيد معه كثيراً من الناحية الجمالية إضافة أية أحجار زاهية اللون لأنه يظل مع ذلك قاتماً قتامة لم أحبها. كما وجدت أن العقد المصنوع من الأحجار الفخارية ثقيل جداً على رقبتي أنا شخصياً ، فما بالك بعنق امرأة أو فتاة رقيقة. لذلك طرأت على بالي فكرة جميلة جداً، وهي أن أشتري من محل المجوهرات في الصاغة أحجاراً متنوعة، وأصنع منها قلائد كما أشاء. وكنت قد رأيت عندهم في الدكان قففاً مليئة بكل أنواع الأحجار التي تتخليها من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وكنتَ تجلسُ هناك على كرسي منخفض يشبه كراسي الحمام الخشبية المنخفضة تقدمه لك ابنة صاحب المحل سارة، وتروح تقلب في القفف، وتنقي منها ما تريد من أحجار بكل الأشكال والألوان والأحجام. ولم تكن تكلفُ كثيراً، لأن الأحجار لم تكن غالية لهذه الدرجة، فأنت تختار ما تريدهُ وتضعه على صفيحة فضية، توزن على ميزان إلكتروني بالجرام. وعلى سبيل المثال، يمكن أن تكلف قلادة رائعة الجمال من الأحجار الإفريقية أو الآسيوية ثلاثون جنيهاً، أو أكثر قليلاً إذا أضفت ثمن قفل الفضة الذي تشتريه من عندهم أيضاً. وكان عندهم في المحل أيضاً، قفة كبيرة من أشكال كثيرة جداً من الفضة القديمة التي هي أرخص من الفضة الجديدة. ولكنها كانت تكلف أغلى بعض

الشيء من الأحجار، لكنني أنا شخصياً كنت أحب الأحجار أكثر من الفضة القديمة. قلت بعد أن شكرتني سما وفريدة:

- لأ العفو، أنا عارف ذوقك يا سما بتحبي الحاجات الخضرا، العقد الل شغال عليه فعلاً فيه اللون الأخضر هوّ اللى غالب، وعارف ذوقك يا فوفا بتحبي الأحمر! أنا مش عارف بس يا اخواتي إزاي أنا مصاحب واحدة أهلاوية!

كنا نحن الثلاثة زملكاوية، وفريدة هي الأقلية الأهلاوية وسطنا.

- ماشي ماشي، ماشي، ماشي يا بتوع نادي الفساد!

- يا بنتي الفساد في كل حتة في البلد! الفساد في كل حتة في المجتمع، والنوادي الرياضية جزء من المجتمع، فها تلاقي فيها كلها فساد، الزمالك فيه فساد، والأهلي وحياتك فيه فسادين مش فساد واحد! بس الفساد يا بنتي ممكن يجليه يوم ويلاقي واحد نضيف يطهره، أو يحصل إن القانون يتطبق، أو أي حاجة من دي، إنما الإخوان المسلمين اللى مسيطرين على الأهلي دول إن شاء الله ها تنضفي النادي منهم إزاي! الأهلي بالنسبالي من حيث الوطنية بعد صالح سليم مات واندفن، مات واندفن!

- طب استنى بس لغاية الانتخابات اللى جاية وها تشوف!

- قصدك إيه يعني، طاهر أبو زيد؟! متهيألك، طيب ماشي،

ها فرض معاكي إن مجلس الإدارة اتغير وجه مجلس مستنير مع طاهر أبو زيد، ها تعملي إيه في الأعضاء اللى الإخوان بوظوهم؟! بلاش، ها تعملي إيه في الأعضاء اللى هما نفسهم إخوان واللى هما بعشرات الآلاف جوه النادي؟! يا بنتي الفساد ممكن يكون ليه حل، إنما الإخوان دول أول ما يدخلوا مكان بيبقوا عاملين زي السرطان، والسرطان اللى مالوش علاج كمان.، ها تنضفي النادي منهم إزاي إن شاء الله؟! يا بنتي الإخوان والأهلي حالياً أقوى من اتحاد المَيَّة بالأسمنت!

خرج أحمد فرحات من المطبخ وهو يحمل بين يديه صينية كبيرة عليها فناجين القهوة اليونانية، وراح يحكي حكاية وهو يقدم القهوة إلى سما، وإلى فريدة، وإليّ، ثم يجلس على الفوتى الخاص به، ويرشف من قهوته:

- عارفين سيد عبد ربه؟! سيد عبد ربه المحرر الرياضي في الأهالي عندنا! حكالنا في الجرنال حكاية غريبة قوي من كام يوم! هوّ ولد شاطر قوي، ودؤوب في شغله، وطول النهار تلاقيه سارح في الأندية، وبيشوف على الطبيعة بعينيه مش زي الصحفيين اللى بيتكلوا إن المعلومة تجيلهم بالتليفون، المهم، سيد راح حضر اختبارات الكورة في النادي الأهلى من كام يوم، وقال إن إكرامي المسؤول المرة دي عن اللجنة المشرفة على الاختبارات كان بيستبعد كل الأسامي المسيحية للأطفال اللى حاضرين، كده بالعند! سيد كان حاضر وشاف بعنيه إنهم ما خدوش ولا ولد مسيحي، رغم إنه بيأكد إن شاف أطفال أقباط

موهوبين جداً، وسمع بودنه إكرامي لما بيعرف من اسم ولد من الولاد إنه مسيحي بيقوم قايل له: شايف بوابة النادي دي، تطلع منها بره!

ضحكت.

- إكرامي! إكرامي بتاع أبوك اتجوز على أمك يا زيكو في فيلم (رجل فقد عقله)! آه، أمال، طبعاً، ما هو كان بيحضّر أصوات الميتين في الفيلم! شايفة يا ست هانم، إكرامي! قلت لفريدة ضاحكاً.

قالت سما:

- شوف دقنه بقت قد إيه دلوقتي! شفته مرة في التلفزيون دقنه دي شبرين! تخيلوا إن الدوري الممتاز كله بجميع فرقه ما فيهوش لاعب قبطي واحدا!

- مأساة! دي مأساة حقيقية! أسلمة كرة القدم! بل أسلمة الرياضة كلها! وللأسف اللى بدأها النادي الأهلي، ووراه بقية الأندية قامت مقلداه! خسارة يا مصر! علق أحمد فرحات بحسرة.

- ماشي، استنوا بس لغاية الانتخابات اللى جاية!

قالت فريدة بتصميم. فقلت:

- وحياتك ها يكسبوا برضو! دول حريفة انتخابات يا بنتي،

إسألي بابا هوّ سيد العارفين! وها يعششوا جوّه الأهلي أكتر ما هم معششين! ورجال الأعمال بتوعهم هايعملوا أحلى بيزنس على حس الأهلي وعلى حس التوريدات اللى محتاجها النادي! ده رجال الأعمال الإخوان أكتر رجال أعمال فساداً ولصوصية في مصر!

- كل ده ها يتغير بعد الانتخابات اللى جاية، بكرة تشوف!

- المَيَّة تكدب الغطاس، وبعدين ده محبب على قلبي يا فوفا، هوّ يعني خسارة الإخوان في أي مكان في العالم مش مكسب لينا! أنا شخصياً نفسي والله الأهلي ينضف منهم!

وقام أحمد فرحات وقال هيا بنا إلى الحزب. فسلمت على البنات وقبلتهن، وتمنين لي سفراً سعيداً وعودة سالمة. وخرجنا وأنا أشعر بالفقد لمغادرتهن، ولكن هذا هو حال الدنيا، الساعة الحلوة لا تدوم!

وفي سيارة التاكسي، شرح لي أحمد فرحات سر مشوار الحزب المفاجىء، وسر إصراره على أن أصحبه في هذا المشوار. واتضح أنه، وبعد أن قابلني في الشارع وهو يشتري الخضرة من عند أم جرجس، رجع إلى البيت وراح يتصل برفاقه وأصدقائه في الحزب ويسألهم: من معه نقود اليوم؟! واكتشف أن الوحيد الذي معه نقود اليوم ومتريش هو بهاء الحسيني، لأنه كان يعمل محاسباً في شركة محاسبة كبرى، وكان قد قبض مكافأة معتبرة، ولم يصرف منها شيئاً بعد. فاتصل به أحمد فرحات

وطلب منه ألف ومئتي جنيه، أي ما يوازي مئتي دولار أمريكي، لكي يعطيهم لي قبل السفر، حتى لا أسافر وأنا مفلس، إذ ربما حدث شيء ما طارئ وأنا في الغربة واحتجت لنقود، فماذا سأفعل عندئذ! أشحذ! قال له بهاء الحسيني أن يقابله في الحزب، لأن عنده مشوار في وسط البلد، وهكذا كان الأمر.

نزلنا من سيارة التاكسي على ناصية شارع كريم الدولة. وكانت الساعة في حدود الرابعة والضوء رائع في القاهرة في هذه الساعة ومثالي للتصوير السينمائي وخصوصاً في التصوير الخارجي. ومشينا بضع خطوات في الشارع نحو مقر حزب التجمع. وقابلنا الدكتور رفعت السعيد بقميص وبنطلون بنيين وهو يحمل في يده كيس نايلون أزرق لم أتبين ما بداخله لأن ما بداخله كان ملفوفاً وأظنه شيئاً من البقالة أو ما يشبهها. وسلمنا على الدكتور رفعت السعيد، ووقف يتكلم قليلاً مع أحمد فرحات، ثم سلم ومشى. ومضينا نحن فدخلنا من باب الحزب. وصوبت نظري على اليمين ورأيت اللافتة التي تحمل اسم جمال عبد الناصر فوق أكبر قاعة في الحزب، القاعة الرئيسية للاجتماعات في حزب التجمع. وأصابتني بنفس الدهشة التي تصيبني كلما رأيتها في كل مرة، وتساءلت نفس السؤال الذي يحيرني في كل مرة: كيف للشيوعيين الذين عذبهم عبد الناصر في المعتقلات في الخمسينيات والستينيات، بل ومات بعضهم من التعذيب، كيف لهم أن يطلقوا على أكبر قاعة في حزبهم اسم عبد الناصر؟! تصورت أنه من المنطقي أن يسموا القاعة الرئيسية في الحزب هنري كورِل، مثلاً، بعد دعمه للحركة الوطنية المصرية، وللثورة في

الجزائر من منفاه في فرنسا، حتى اغتاله الأمن الفرنسي لهذا السبب. لكن جمال عبد الناصر! إن هذا لغز بالنسبة لي حتى الآن، بالرغم من أنني سمعت أجوبة كثيرة من الشيوعيين على سؤالي هذا، وفهمت في النهاية أن الشيوعيين المصريين يحبون عبد الناصر، بالرغم من أنه سجنهم وعذبهم ونكل بهم، ودائماً ما كانوا يرسلون له من السجن والمعتقلات رسائل تأييد لكل قرار اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي يتخذه، وإذا ما حدث وأساء له أحد الأغرار الصغار الجدد في الشيوعية بعد حفلة تعذيب في المعتقل شرّمه فيها ضباط السجن وعساكره، نهره كبارهم وقالوا له: يا عبيط، عبد الناصر ده يبقى عمود الخيمة! اختلاف تكتيكي واتفاق استراتيجي، أو شيء من هذا القبيل. لكن يظل حتى اليوم هذا لغز محير من ألغاز النفس البشرية الشيوعية المصرية. إنت لو أبوك ضربك بالقلم على وشك مش ها تسمحه، فما بلك بالأهوال التي تعرض لها شيوعيو مصر! لا يقتصر الأمر على المعتقلات والتعذيب والقتل فقط. هناك أولاً وقبل كل هذا وبعده قطع الأرزاق والطرد مع العمل. ومعظمهم كانوا أرباب أسر ويعولون. ويسمون القاعة الرئيسية في الحزب باسم عبد الناصر! سبحان الله يا جدع.

صعدنا السلم للطابق الثاني، وكان معتماً غير مضاء، لأن اليوم هو الجمعة من ناحية، وللتوفير في فاتورة الكهرباء لأن الحزب مفلس كحال العبد لله تماماً، من ناحية أخرى. ومشينا في الممر الأيسر بين المكاتب المفتوحة. وراح أحمد فرحات ينظر في كل مكتب يمر به فلا يجد أحداً بالداخل، وأنا في أعقابه. حتى

مررنا بمكتب على يميننا كان يجلس فيه البدري فرغلي وحيداً يكتب شيئاً ما على ورق أمامه على المكتب، وكان يومها نائباً في مجلس الشعب عن حزب التجمع على مقعد العمال بمحافظة بورسعيد. سلم أحمد فرحات ودخل، فنهض البدري فرغلي الذي كان يرتدي نظارة بنية قاتمة تختفي خلفها عينيه، فصافح أحمد، الذي قبله على وجنتيه اللتان كان الشعر نابتاً فيهما من أثر عدم الحلاقة ليوم أو أكثر، وسلم عليّ وسأل عن أحوالي، لأنه كان يعرفني جيداً، فقد سبق أن جمعتنا مناقشات طويلة حول صديقه ورفيقه شحاتة هارون.

كنت أرغب منذ سنتين في صنع فيلم تسجيلي عن حياة وكفاح الشيوعي المصري الوطني اليهودي شحاتة هارون. الذي توفي منذ خمس سنوات تقريباً. في 2001. وشحاتة هارون هذا هو الذي قاد، أيام السادات، المظاهرات الشعبية في مصر المناهضة لاتفاقية السلام مع إسرائيل. رئيس المنظمة المصرية لمكافحة الصهيونية. الذي كان يفخر أشد الفخر بيهوديته، ولكنه يمقت أشد المقت الصهيونية، وما تفعله إسرائيل، ليس فقط كاحتلال عنصري بشع مقيت للأراضي الفلسطينية، بل وتأثيرها المدمر على الشخصية اليهودية كما كان يعرفها ويحبها. وكان يذكرني كثيراً باليهود السامريين، الذين يحبهم ويحترمهم الفلسطينيون، ويعيشون بينهم إلى اليوم، ولهم عضو أو اثنان في المجلس الوطني الفلسطيني، ويعتبرون أن من يذهب من أبنائهم إلى اسرائيل هو ضال شارد مفقود.

في أعقاب الهزيمة المهينة في سبعة وستين مباشرة، أرسل شحاتة هارون رسالة عاطفية مؤثرة إلى جمال عبد الناصر يطلب منه فيها أن يسمح له بالانخراط في الجيش المصري للدفاع عن وطنه ضد الأعداء في هذه اللحظة التاريخية الحاسمة، لأنه ممنوع من التطوع في الجيش بسبب كونه يهودي الديانة. وكان الرد على رسالته تلك أن تم إلقاء القبض عليه ورميه في المعتقل.

ولما فاتحت أحمد فرحات في موضوع الفيلم، رشح لي بعضاً من رفاقه في الحزب، من أصدقاء ورفاق شحاته هارون الذين عايشوه داخل المعتقلات وخارجها، وكان من ضمنهم البدري فرغلي. ولما كانت السينما للأسف الأسيف هي أغلى أنواع الفنون وأشدها تكلفة، فقد تأجل المشروع إلى حين العثور على تمويل ما من أي جهة كانت. لكنني استطعت إنجاز الجزء المتعلق بالبحث والمقابلات، والذي لا يتطلب إنفاق مال كثير، اللهم إلا أجر المواصلات، وتكاليف الجلوس في الكافيهات، وما إلى ذلك. وتبقى الآن الجزء الخاص بالتصوير، والذي لا أملك من تكاليفه شيئاً. وكنت آمل أن أستطيع توفير شيء ما من ميزانية فيلم القرافة، لكي أصور ثلاثة أو أربعة أيام من فيلم شحاتة هارون، ثم انتظر الفرصة التي يتوافر فيها مبلغ آخر من المال، فأصور يومين آخرين أو ثلاثة، وهكذا، وليُصنع الفيلم في خمسة أو ستة أعوام، لا مشكلة عندي، المهم أن يُصنع، وربك هو المسهل.

لذلك كان هناك تاريخاً مشتركاً بين البدري فرغلي وبيني،

على إثر مجموعة من المقابلات الطويلة بخصوص شحاتة هارون، والتي كنت أجريها معه في الأيام التي يكون موجوداً فيها في القاهرة لحضور جلسات مجلس الشعب.

صاح البدري فرغلي مخاطباً الفراغ المحصور في كمر باب الغرفة بصوته الجهوري العميق، والحاد في نفس الوقت:

- هوّ مافيش حد هنا يجبلنا قهوة ولا إيه؟!

فطلت رأس صلعاء لشخص لا أعرفه، وقال:

- مافيش حد هنا يا ريس النهارده الجمعة، بس أنا ممكن أعمل لحضرتك قهوة، قهوتك إيه؟

- لا ماتتعبش نفسك يا حبيبي!

- العفو يا ريس تعبك راحة، قهوة حضرتك إيه؟

- مضبوطة إن أمكن يبقى كتر ألف خيرك.

- أعملكوا قهوة؟ أنا كده كده ها عمل!

شكرته أنا، وشكره أحمد فرحات وقال إننا قد تناولنا قهوة لتونا، فقال ذو الرأس الصلعاء له:

- الأستاذ بهاء كان سايب لحضرتك أمانة يا دكتور، تسمح حضرتك دقيقة واحدة.

فنهض أحمد فرحات ورافق الرجل. وبقيت أنا في الحجرة وحدي مع البدري فرغلي. فجأة، رفع رأسه عن الورق والملاحظات التي كان يدونها، وخاطبني بصوته الجهوري الحاد، وهو في غاية الانفعال، حتى أنه كان يصرخ كما كان يصرخ تحت قبة البرلمان في مجلس الشعب عندما يشير إلى واقعة أو حادثة تفوح منها رائحة الفساد الحكومي الذي يزكم الأنوف:

- تصور يا سامح دلوقتي هنا من شوية كان عندي عامل بيقدم لي شكوى، وكنت مشغول زي ما انت شايف كده في مراجعة تقرير الجهاز المركزي للمحاسبات عشان الجلسة اللى جاية في المجلس، فمديت إيدي وأخدت منه الشكوى، بصيت فيها بسرعة، وحطيتها على المكتب قدامي لحد ما أخلص ملاحظة مهمة كنت بكتبها وانتبه له، بس يا سيدي وبعدين ناولته الورقة وقلت له يصورها نسختين من ماكنة التصوير اللى تحت في الدور الأرضي، وانا من لخمتي في التقرير مش مركز قوي معاه، فناولته ورقة بيضا فاضية بدل ما اناوله الشكوى بتاعته، فيقوم البيه يروح مصور لي الورقة البيضا نسختين!

انفجرت من الضحك. فزاده ضحكي انفعالاً.

- آدي يا سيدي اللى ماركس كان مراهن عليهم! آدي يا سيدي الوعي العمالي! آدي اللى احنا مضيعين عمرنا علشانهم! البيه بيصور لي ورقة فاضية! لأ وإيه نسختين!

وبصعوبة، نجحت في أن أمسك عن الضحك، فالرجل كان

يروي مأساة حقيقية، وأفلحت في تحويل نوبة الضحك التي اجتاحتني إلى ابتسامة رثاء، ولكن ابتسامة واسعة للغاية، مدعومة بتضييق العينين، ورفع الحاجبين.

- ما فيش فايدة، بننفخ في قربة مقطوعة! أستغفر الله العظيم يا رب!

ولم يكن من الغريب أن تسمع البدري فرغلي، أو أي رفيق آخر يذكر الله في أروقة الحزب. كان الأمر سيبدو غريباً طبعاً لو كنا في أروقة أي حزب شيوعي في أوروبا مثلاً. لكنني أظن أنه لا يوجد شرقي ملحد أبداً، لا شيوعي، ولا غير شيوعي. فمن يولد في الشرق لابد وأن يكون مؤمناً بشكل أو بآخر. إيمان مختلف يمكن، ولكني ما زلت أعتقد إلى الآن أنه لا يوجد شرقي ملحد. وزعيم الحزب العظيم خالد محي الدين هو من أسرة صوفية عريقة في الصوفية، وكان جده لأمه هو شيخ الطريقة النقشبندية، على ما علمت. بل كان هو نفسه مرشحاً ليخلف جده، لولا أن دخوله الجيش ثم العمل الوطني العام قد شغلاه عن الطريقة. وهكذا فأنت ترى أن الشيوعيين في مصر مؤمنون، وأن هذا لا ينفي ذاك.

- حضرتك أنا مسافر بكرة لفرنسا، ما يلزمش أي خدمة، حضرتك تؤمر!

قلت بثقة من سيصبح في جيبه قريباً مئتا دولار.

- لا يا حبيبي ألف شكر، مسافر تعمل إيه في فرنسا؟!

- جات لي منحة من الاتحاد الأوروبي لفيلم تسجيلي بعمله عن سكان القرافة في القاهرة، وجزء من المنحة هو حضور ورشة عمل في فرنسا، ها يعلمونا هناك حاجات فنية في صنع الأفلام التسجيلية، وها يورونا إزاي نقدر نجيب تمويل من قنوات التلفزيون في أوروبا على الأفلام، وحاجات تانية مهمة ما ينفعش الواحد يعرفها لوحده، لازم يكون فيه حد عنده الخبرة علشان ينقلهالنا.

- عظيم يا ابني، ده حاجة كويسة خالص. طب يبقى بقى لما ترجع لازم تعمل هنا في الحزب ورشة عمل برضو تعلم فيها اخواتك السينمائيين العلم اللى انت اتعلمته هناك، مش كده ولا إيه؟!

- لازم طبعاً ، وعد والله أول ما ارجع ها عمل كده فوراً، ده يشرفني ويسعدني جداً!

- وها تقعد قد إيه هناك؟

- ها اقعد أسبوع في مدينة تولوز.

ورويت له قصة التعقيدات التي صاحبت حصولي على تأشيرة السفر، وكيف قدمت مرتين، ورفض طلبي، وكيف أن الطلب الثاني كان مشفوعاً بتوصية من المستشار الثقافي الفرنسي

في القاهرة، ومع ذلك رفضوا منحي التأشيرة. وكيف حُلَّ الموضوع ببساطة شديدة وفي غضون ساعات قليلة بواسطة من وكيل وزارة الخارجية الفرنسية، وكيف فتحوا لي القنصلية، خصيصاً، في نهار الجمعة، منذ ساعات قليلة، لكي يمنحوني التأشيرة المخصوصة التيُ تطبع على برينتر خاص داخل القنصلية في ثوان!

- الوسايط دي إحنا اتعلمناها في مصر من الاحتلال، من أيام الاحتلال، هوّ اللى زرع في المصريين مسألة الواسطة، من ضمن سلبيات اجتماعية كتيرة زرعها الاحتلال في الشخصية المصرية! إحنا لغاية النهارده في بورسعيد بنحرق عروسة اللمبي في شم النسيم، من كتر القرف اللى شفناه من الاحتلال!

- صحيح، أفتكر قريت مرة حاجة ليونان لبيب رزق، مش فاكر اسم الكتاب حالياً، لكن كان بيقول إن ظاهرة الوسايط شاعت جداً في المحروسة من أيام اللورد كتشنر ما كان المعتمد البريطاني في مصر، أظن من سنة 1911 لسنة 1914.

دخل الرجل الأصلع بصينية عليها فنجان قهوة وكوب ماء للبدري فرغلي. وضعها أمامه على المكتب. شكره البدري فرغلي. وكرر الرجل سؤالي عما إن كنت في حاجة إلى شيء أشربه.

- لا ألف شكر كتر خير حضرتك، أنا والله لسه كنت شارب قهوة مع الدكتور أحمد من شوية قبل ما يختفي!

خرج الرجل، ولم يفهم تلميحي عندما ذكرت اسم أحمد، من أنني أريد أن أعرف أين ذهب أحمد فرحات؟

- إبقى افتكر اسم الكتاب بتاع يونان لبيب رزق وقولي عليه لإني مهتم بالموضوع ده، إنت عارف إن كتشنر ده كان لما يزور عيلة من عائلات الأعيان أو الأغنيا في مصر، يوقفوا الخدامين بتوع العيلة حرس على بيبان الأوض بتاعة العيال والبنات، لإن كتشنر كان بيقوم بالليل زي المجنون ويعتدي على أي طفل يقابله سواءً ولد أو بنت! يا ما مصر شافت من القذارة دي!

ولما رأى البدري فرغلي الاستغراب على ملامحي، سرح لثوان ونظر لخارج باب الحجرة في الفراغ، ثم نظر إليّ وقال:

- لما ترجع لتاريخ الفترة دي في حياة مصر، تكتشف إن كتشنر ده هو اللى بدأ موضوع الإسلام السياسي، عارف إزاي؟ كان فيه منافسة بينه وبين نائب الملك في الهند، وكان الاتنين بيغيروا من بعض قوي، وانت عارف طبعاً إن مساحة الهند أكبر بكتير من مساحة مصر، فطرأ على باله إنه لو جمع كل الدول العربية مع بعض وعمل بيهم خلافة إسلامية، ها تبقى مساحة الخلافة دي أكبر من مساحة الهند، وها يضطر ملك إنجلترا إنه يعينه نائب للملك على المنطقة العربية أو على الخلافة الإسلامية، وتبقى كده راسه بقت براس مين؟! نائب الملك في الهند! ومن هنا بدأ بأساليبه الخبيثة يشجع الشيوخ في مصر وفي غير مصر لوضع الأساس النظري لمشروع الخلافة الإسلامية! راح كتشنر

وغار في ستين داهية، لكن المادة اللى اشتغل عليها الشيوخ فضلت هي الزاد اللى بياكل منه الإسلام السياسي عيش لغاية النهارده!

- يااااه!

وجاء أحمد فرحات، فقمت، وسلمنا على البدري فرغلي، وتركناه مع التقرير السنوي للجهاز المركزي للمحاسبات. وحالما مشينا خطوتين في الممر الذي صار أكثر إعتاماً الآن، توقف أحمد فرحات، وناولني ورقتين، كل ورقة بمئة دولار:

- أنا اتأخرت عليك شوية لإني رحت غيرت الفلوس من الكشك اللى جنب الجريون.

- أمال بهاء فين كنت عاوز أشكره واسلم عليه؟

- لأ بهاء مقدرش يستنى عشان عنده ميعاد في النادي اليوناني، فساب الفلوس مع حسن.

شكرته شكراً جزيلاً. كان إنقاذاً في آخر لحظة. فمهما حاولت المحاجة بأن المنحة كانت تغطي كل شيء من تذاكر الطيران إلى الإقامة والوجبات وخلافه، إلا أن سفر المرء لدولة لا يعرف فيها أحداً بدون أن يكون معه أية نقود هو شيء خطر وفي منتهى الخطورة.

- إيه رأيك تيجي نشرب قزازتين بيرة في ستللا!

وكان بار ستللا قريباً من الحزب. وكانت العصاري في يوليو في القاهرة تغري بشرب البيرة الباردة، وكنت في حاجة للمشي قليلاً، فرحبت فوراً بالفكرة.

وكنت أحب بار ستيللا جداً لأنه بار حميمي ولطيف والأسعار فيه معقولة، ودائماً ما أجد أنني أعرف جميع من يجلسون هناك، وكنت عموماً ضعيفاً دائماً تجاه أي بار خشبي، أو أي بار قديم.

وحالما دخلنا، وجدنا كل الطاولات مشغولة، برغم أن الساعة لم تصل للخامسة عصراً بعد. ورحنا أنا وأحمد فرحات نحي من نعرفهم من الجالسين برفع أيدينا في الهواء. وقررنا الجلوس على منصة البار، لأننا لم نكن في مزاج للاختلاط بالآخرين، خصوصاً وأن الجميع كانوا صاخبين. وجلست أنا أقرب إلى الكنيف الصغير المجاور لباب المدخل، والذي لا تتجاوز مساحته نصف حجرة القياس في محلات الملابس، والذي لم تكن البنات والسيدات ينقطعن عن الدخول إليه والخروج منه. وطلب أحمد فرحات زجاجتي ستللا. فوضع مصطفى على الفور زجاجتين باردتين، وكوبين طويلين، وأخرج من تحت النضد عنده طبقين صغيرين؛ أحدهما به فول نابت مسلوق بالكمون وعصير الليمون، والطبق الآخر به جبنة بيضاء وشرائح رفيعة من الخيار. ورغم أننا لم نكن قد هضمنا الغداء بعد، إلا أن منظر الطبقين الصغيرين الرشيقين قد فتح شهيتنا مجدداً، وأكدت الشهية نفسها بصراحة وسفور عندما شرعنا في شرب البيرة. وكان

هناك بائع متجول عجوز اعتدنا أن نراه في بار ستللا، ولم أكن أراه في أي مكان آخر في القاهرة، بالرغم من أنني أعد نفسي من المتسكعين الكبار في القاهرة، وكان يحمل جوالاً في يده مليء بخبز غريب لم أره في أي مكان آخر؛ عبارة عن خبز أبيض محمص، صغير في حجم كف اليد، ومنفوخ، أشبه بالعيش السن المحمص، ولكنه هش للغاية، ولذيذ جداً وألذ حتى من البسكويت. سلمت عليه مبتسماً وقلت له: إزيك! تلاتة بس. وناولته جنيهاً، وكان الواحد بربع جنيه، فوضع أمامي ثلاثة أرغفة، وقال: متشكر حضرتك!

وضعت رغيفاً أمام أحمد فرحات، وناولت مصطفى الرغيف الثالث. فقال: شكراً يا أستاذ سامح! وخبطه من فوره خبطة رقيقة على سيفه؛ أي على الحد الرقيق الفاصل بين وجه الرغيف وظهره، فانفصل إلى شقين متساويين من توه، دون أن تنتج عن العملية أية فتافيت. فعلت مثله. أما أحمد فرحات فدس إبهامه في منتصف وجه الرغيف، فحدثت حفرة، راح يوسعها بكسرات من الرغيف يغمس بها الجبنة.

كنا في كل مرة ندخل فيها لبار ستللا، نشعر بأنه من المحتمل أن تكون المرة الأخيرة. كان لدينا إحساس قوي بأن البار سيُغلق أبوابه في أية لحظة. مصطفى هو صاحب البار الآن. مات أخوه الأكبر منذ عدة أشهر إثر حادث أليم. ويبدو أنه تأثر كثيراً من فقدان أخيه بهذه الطريقة. فصار من يومها أكثر تديناً، وبات يتحدث كثيراً في الحلال والحرام. وكنا نشعر بأنه في خضم

صراع نفسي عنيف بسبب التناقض ما بين طبيعة عمله وبين قناعاته الدينية الجديدة، وبالتالي فكنا نتوقع أنه قد يقدم على إغلاق البار في أية لحظة من اللحظات الإيمانية المشرقة. أو قد يُحوِّل النشاط، فيقلبه إلى بقالة أو شيء من هذا القبيل. أو حتى يعرضه للبيع. وفي هذه الحالة، ستسحب الحكومة الترخيص ببيع المشروبات الكحولية منه، لإن ما سمعناه يتردد في القاهرة في تلك الأيام، أن الحكومة صارت تتشدد جداً في مسألة تجديد تراخيص البارات القديمة في مصر، حتى أنها تشترط لكي تجدد الترخيص أن يكون باسم المالك الأصلي للبار، وترفض منح الترخيص لو قام المالك ببيع البار لشخص آخر.

في تلك الأيام كانت حكومتنا تزايد بالإيمان على الإسلاميين. في تلك السنة مثلاً، وفي السنة التي قبلها أيضاً، اشتكت كل الطرق الصوفية في مصر من محاولات البيروقراطية الحكومية والأمنية للتضييق على إقامة الموالد، ومنع السرادقات، وخيام الخدمة التي تنتشر في أي مولد. ولو كان النظام عندنا لديه أية ذرة عقل أو رشد، أو جاد فعلاً في محاربة التطرف الإسلامي، لأطلق الحرية الكاملة للطرق الصوفية، لأن كل عاقل يعلم أنهم أكثر من لديهم القدرة على تفنيد كل إدعاءات الإسلاميين، وأن أي إسلامي لا يستطيع الصمود في أية مناقشة دينية أمام أي درويش أو صوفي على قارعة الطريق أو أمام أي مسجد من مساجد مصر القديمة. لكنه الهبل يا عزيزي، أو عدم الجدية، أو المزايدة على الإسلاميين، أو كل ذلك مجتمعاً في نظامنا الحاكم.

ليس ذلك وحسب، بل والأكثر من ذلك أن رجال البوليس راحوا يوقفون الناس والسيارات في الشوارع في نهار رمضان، ممن معهم زجاجة مياه، أو سيجارة في يده، أو سندوتش، ويحررون لهم مخالفات، أو على الأقل يضايقونهم ويتنمرون عليهم! حتى أن مقاهي وسط البلد أغلقت أبوابها في نهار رمضان الفائت. بل ومقهى وادي النيل نفسه، بجلالة قدره، كان يوارب الباب، لكي يدخلك منه أحد صبيان المقهى سرقة وهو يتلفت خائفاً، وتجلس هناك في الظلام الدامس في عز الظهر، لكي تشرب كوب شاي، أو تدخن معسل. يعني الإسلاميين يفجروه مرة، ويُضيّق الأمن عليه طول العمر!

وكنت أعرف أن الأحوال المالية لأحمد فرحات ليست في أفضل حالاتها، خصوصاً بعد ما سافر محب إلى إنجلترا منذ عدة سنوات. كان محب، بوصفه كبير الباحثين في مركز ابن رشد للتنمية، يحرص على تكليف أحمد فرحات بكتابة بعض التقارير البحثية وخلافه، مما يعود بعائد مادي لا بأس به، يساعده في مصاريف البنتين. هذا بالرغم من التناقض الفكري الحاد والأزلي بين الاثنين؛ فأحمد فرحات شيوعي، ومحب ذكي نيولبرالي من أنصار اقتصاد السوق، أو قل اقتصاد السوء، كما يحب أحمد فرحات دائماً أن يكتبها في مقالاته. وهذه ميزة إنسانية تحسب لمحب وأحبها فيه. أما الآن، ومحب في لندن، فإن مركز ابن رشد للتنمية قد كف تماماً عن طلب أية أبحاث من أحمد فرحات، لأن الدكتور شرف الدين إسماعيل مدير مركز ابن رشد يكره أحمد فرحات بسبب شيوعيته، لأنه يكره كل الشيوعيين، لكنه كان يقبل

تكليفات محب لأحمد فرحات على مضض، لقوة تأثير محب عليه.

سألته عن الأحوال، فقال:

- الحمدلله آهي ماشية، إحنا برضو أحسن من غيرنا بياما!

مسكين! كتابه الأخير الرائع الذي نشره في سلسلة كتاب الأهالي، ولم يتقاضى عنه مليماً واحداً؛ كتاب اسمه: (البشر أولاً). وهو كتاب عظيم في فلسفة الاقتصاد. ويقول فيه إنه في ظل الاقتصاد النيولبرالي الذي تعيش فيه معظم دول العالم الآن، ونحن في مصر من ضمنها، يكون الواقع المالي دائماً في تناقض تام مع الواقع الاجتماعي. بمعنى أن المؤشرات المالية تكون في تناقض مع المؤشرات الاجتماعية. بمعنى أن أرقام موازنة الحكومة وإحصائياتها المالية المختلفة قد ترسم صورة جيدة أو مزدهرة، أو حتى على الأقل مستقرة، لواقع رأس المال، بينما تكون المؤشرات الاجتماعية خربة وفاسدة وفي تدهور مستمر. وهو نفس الأمر الذي نلحظه مثلاً في واقع الأفراد والمشاريع الخاصة. فقد يحقق مصنعاً ما أرباحاً صافية في نهاية السنة المالية، بينما تكون أحوال العمال في تدهور مستمر، ويكون بعضهم قد تم تسريحه، والآلات نفسها في حاجة إلى صيانة ملحة. ويؤكد أحمد فرحات في الكتاب على أن ما تخرج به أية حكومة من إحصائيات أو مؤشرات إيجابية يجب أن يدفعنا للتشكك في الواقع الاجتماعي؛ أي في الطريقة التي استطاع بها

رأس المال تحقيق مؤشراته الإيجابية تلك، فعلينا أن نسأل: على حساب من؟! وبأية تكلفة اجتماعية؟! ومن المستفيد؟!

فتخيل أن كتاباً بهذه الأهمية والاستنارة، ثم لا يكسب منه مؤلفه شيئاً، فكيف له أن يعيش، وأن يعيل بناته، وأن نطالبه بأن يستمر في التفكير في الشأن العام، والانحياز لصف المظلومين!

وجاءت سيرة محب، ولا أذكر كيف. وكنت أعرف رأي أحمد فرحات في إصرار محب على استكمال مشواره الأكاديمي في إنجلترا.

- طيب هوّ دلوقتي بيعمل إيه هناك؟! هل ده اللى احنا منتظرينه منه؟! هل ده الدين اللى عليه تجاه المجتمع؟! فين الإحساس بالمسؤولية إن البلد مش ها تقف على رجليها إلا بولادها المثقفين والنخبة العلمية؟!

كان لدى أحمد فرحات هذه النظرية، التي ربما هي لجرامشي أو لشخص من هذا القبيل، عن المثقف العضوي؛ أي المثقف الذي يكون في انشغال دائم بالشأن العام، فتتحد لديه الهموم الشخصية مع الهموم العامة في وحدة واحدة تشغل كل وقته وحياته، أو شيئاً كهذا. وكان يتحسر على جيوش الموهوبين والعلماء الذين يهاجرون إلى أوروبا وأمريكا وكندا، أو حتى إلى أستراليا، ويحرمون البلد من مواهبهم، ويقدمونها على طبق من ذهب للخواجات.

- إنت فاكر لما كان آخر مرة هنا مش حكى إنه كان بيعمل بحث علشان وظيفة التدريس اللى نفسه فيها في كلية لندن للاقتصاد! مش كان بيعمل بحث عن غزة على ما أظن! وقال لنا إنه سافر على حسابه هناك، وكان البحث زي ما فهمت عن المسار اللى بتمشي فيه المعونات الدولية في غزة، وهل هيّ بتتصرف في الأوجه المحددة لمساعدة الفلسطينيين، ولا بتتحول في اتجاهات تانية لخدمة أغراض سياسية أو خلافه؟! ده اللى انا فهمته، آهو حاجة مفيدة آهو، ولا انت إيه رأيك؟!

رد بسخرية:

- إنت فاكر إن أوروبا ولا المانحين مش عارفين المعونات بتروح فين! بص يا سامح، الأمن والمخابرات عندنا هنا طول الوقت بتقولك إحنا عارفين كل حاجة وعارفين دبة النملة، وهما في الحقيقة مش عارفين أي حاجة في أي حاجة، والدليل المصايب والكوارث الداخلية والخارجية اللى بتحصل لمصر واللى لو الأجهزة الأمنية فعلاً شايفة شغلها ماكانتش ها تحصل! لكن الموضوع مختلف تماماً في أوروبا وأمريكا، مختلف أربعة وعشرين قيراط! الأجهزة الأمنية والاستخباراتية عندهم عارفين كل حاجة فعلاً، وأوعى تصدق إن صناع القرار في أوروبا أو أمريكا ما عندهمش الصورة كاملة عن المنطقة العربية، وإنهم مستنين محب لما يكتشف لهم المعونات الدولية لقطاع غزة بتروح فين!

وجاء جمال خطاب ليطلب بيرة ومزّة من مصطفى، فوقف بيني وبين أحمد فرحات، ووضع يده على كتفي في حميمية، وراح يحكي لأحمد فرحات عن صفوت عبد العال، أو الدكتور صفوت عبد العال، إن شئت. بالرغم من أنه ليس دكتوراً ولايحزنون! وكنت قد عرفت من أحمد فرحات، وآخرين، أن أحد شيوعيّ الحزب المخلصين في المنيا قد جند صفوت عبد العال وهو صغير، خوفاً من انضمامه للجماعة الإسلامية في المنيا، وكانت وقتها على أشدها في الصعيد، وكان صفوت عبد العال، نفسه، قريباً من القيادات فيها بحكم الزمالة في المدرسة والجيرة، حتى أن أحمد عبد السلام فرج نفسه كان أقرب رفاق طفولته إليه، لذا فهو كان قاب قوسين أو أدنى من الانضمام إليهم، لولا أن سبقهم الرفيق الشيوعي المنياوي المخلص، فأحضروا صفوت عبد العال إلى القاهرة، وجعلوه مراسلاً للحزب في وزارة الداخلية، وفي قول آخر سمعته كثيراً: مراسل وزارة الداخلية في الحزب، ثم راح ينشر مقالات عن الجماعة الإسلامية في المنيا، وعن أعضائها. ثم جمَّع المقالات ونشرها في كتاب، كتب على غلافه: الدكتور صفوت عبد العال، ومشى الحال هكذا منذ ذلك الوقت!

كان جمال خطاب يحكي أن صفوت عبد العال قد ربي ذقنه شبرين هذه الأيام، وأنه يمشي الآن في معية أبو العلا ماضي، ويرافقه كظله في كل مكان، وقد انضم إلى حزب الوسط تحت التأسيس. وقال جمال خطاب إن ميول صفوت عبد العال كانت واضحة منذ الصغر وهو في المنيا، وإنهم، كشيوعيين، قد أخطئوا

في تجنيده منذ البداية، وكان غيره من الشباب المخلص أولى بالرعاية والفرص التي منحها له الحزب، فها هي النتيجة في النهاية: انضم أخيراً إلى الإسلاميين! علق أحمد فرحات متأففاً:

- عمري ما اقتنعت بيه ولا بكونه شيوعي!

وناول مصطفى زجاجات البيرة لجمال خطاب، وقال له إنه سيأتي وراءه بأطباق المزّة.

قال لي أحمد فرحات:

- إنت سمعت قصة طرد الأخ ده من الحزب ولا لأ؟!

نفيت أنني أعلم من الأساس أنهم قد طردوه من الحزب، فقال أحمد فرحات:

- طيب ها احكيلك علشان بعد كده ما تحسبوش علينا!

قال أحمد فرحات إن رفيقاً لهم قد توفي بعد رحلة نضال نقابي عمالي حافلة، وخلف وراءه مبلغاً ضئيلاً من المال، هو كل تحويشة العمر، ومكافأة نهاية الخدمة وكل تلك الأشياء. ويبدو أن صفوت عبد العال قد طمع في المبلغ، فراح وأقنع أرملة المتوفى بأنه قادر، بحكم معارفه في الحكومة، على تخصيص شقة لها في مساكن وزارة الإسكان، والتي لا ُتمنح إلا للمحاسيب فقط، وقال لها إن هذه الشقة ستكون استثمار عظيم جداً لمستقبل الأولاد، وسوف يتضاعف ثمنها في خلال بضعة سنين وكل ذلك، فوافقت

الست الأرملة وأعطته تحويشة عمر رفيقه المناضل. وراح بعد ذلك صفوت عبد العال يُسوّف ويماطل ويتهرب، حتى طالبته السيدة صراحة إما بالوفاء بوعده بشقة في مساكن وزارة الإسكان، أو أن يعيد لها مال الأولاد اليتامى! فما كان من الأخ صفوت عبد العال إلا أن قال لها صراحة وبالمكشوف وعلى بلاطة:

- لو عايزة الفلوس، أنام معاكي الأول!

فراحت السيدة لرفعت السعيد في الحزب باكية وشاكية:

- بقى يا مناضلين تعملوا كده في ولاد رفيقكم المناضل!

قال أحمد فرحات إن رفعت السعيد بعث من يأتي له بصفوت عبد العال من قفاه، ولم يتركه إلا وقد استرجع منه كامل المبلغ بالمليم، ثم أخرج من درج مكتبه استقالة من الحزب، جاهزة على الإمضاء، وأمره قائلاً:

- تمضي على الاستمارة دي، وما شوفش خلقتك تاني، لا في الحزب، ولا في الجرنال!

أبديت استغرابي من أن يصدر سلوكاً من هذا القبيل ممن يدعي أنه شيوعي! قال أحمد فرحات:

- الشيوعي إن فسد يبقى أسوأ الفاسدين تماً!

ضحكت، وسألته إن كان قد شاهد فيلم (واحد، اثنان، ثلاثة) لبيلي وايلدر.

- بيلي وايلدر، المخرج بتاع (البعض يفضلونها ساخنة)!

- لأ ماشفتوش، بس انا بحب شغله جداً!

- آه ما انا عارف، هوّ للأسف الفيلم ما تعرضش في التلفزيون خالص، بس أول ما رجع من السفر ها نتفرج عليه سوا، هوّ عن واحد شيوعي بيفسد، فبيبقى أشطر من الرأسماليين في الفساد!

وضحكنا. قلت له إن الفيلم يدور أثناء الحرب الباردة. جيمس كاجني هو مدير شركة كوكا كولا في برلين الغربية. ويحدث أن تأتي ابنة أحد كبار مالكي أسهم شركة كوكا كولا، وأحد كبار المديرين المتنفذين فيها، إلى برلين الغربية للفسحة، ويكون على جيمس كاجني أن يتولى رعايتها في تلك الفترة. وبعد فترة، يكتشفون أن البنت الطائشة قد تزوجت من ولد شيوعي متطرف في الشيوعية من برلين الشرقية، وأنهما يخططان للسفر والإقامة في موسكو. فيطيش لب جيمس كاجني، خاصة بعد أن يعلم أن والد البنت آت لبرلين الغربية في اليوم التالي، وهو لا يعلم شيئاً بالطبع عن زواج ابنته من شيوعي. فيرتب جيمس كاجني مؤامرة للإيقاع بالولد وإجباره على تطليق البنت، فيقبض عليه البوليس الألماني الشرقي، بتهمة التجسس لصالح الأمريكان، ويخضعونه للتعذيب، حتى يعترف الولد كذباً على نفسه بأنه فعلاً جاسوس

أمريكي!

ثم يعلم جيمس كاجني مفاجأة أخرى من الفتاة الطائشة ابنة الملونير؛ وهي أنها حامل من الولد الشيوعي! فيرتب مؤامرة أخرى مضادة للمؤامرة الأولى، باستخدام علاقاته ببعض المسؤولين الروس ممن يحاول إقناعهم بفتح فرع لكوكا كولا عندهم في الاتحاد السوفييتي. ويتم فعلاً الإفراج عن الشاب من سجون ألمانيا الشرقية، ويأتون به إلى مقر شركة كوكا كولا ببرلين الغربية. ثم، وعلى طريقة بيلي وايلدر المفضلة والمحببة والدائمة في التخفي والتنكر والكذب، يقومون بعملية تنكر للولد الشاب الألماني الشرقي الشيوعي القح في الشيوعية، بإلباسه وتعلميه وتدريبه، كي يبدو أرستقراطياً ثرياً أوروبياً في عيني الأب الذي على وشك الوصول إلى برلين الغربية. ويصل الأب فعلاً، ويقابل الولد المتنكر في زي وجلد الرأسماليين والأرستقراطيين، فينبهر به الأب، ويبارك زواجه بابنته.

وعلى طريقة بيلي وايلدر أيضاً، وبفلسفته الأثيرة والمستمرة والدائمة في كل أفلامه، يتحول الكذب إلى حقيقة. أو يخلق الكذب الحقيقة. فيتحول الشيوعي المتحمس الثائر، بعد إلباسه قناع التنكر الأرستقراطي، إلى رأسمالي حقيقي، ويتولى وظيفة مدير شركة كوكا كولا في عموم دول القارة الأوروبية. ويساهم في تحقيق طفرة في أرباح شركة كوكا كولا عالمياً، بسبب اقتراحاته المستمرة لأساليب زيادة الأرباح؛ ومنها زيادة عدد الزجاجات في العبوة الواحدة من 6 إلى 12، لإجبار الزبائن على شراء المزيد،

مما ضاعف أرباح الشركة بين يوم وليلة!

- وهكذا يا دكتور تتحقق مقولة حضرتك إن الشيوعي إذا فسد يصبح أسوأ الفاسدين تماً!

كان أحمد فرحات يضحك وأنا أروي له ملخصاً للفيلم.

- ده لازم يتشاف ضروري الفيلم ده! ولازم كمان تعملنا عرض لكل شغل بيلي وايلدر اللى موجود عندك، نفسي أشوف كل شغل الراجل ده!

- إن شاء الله أول ما ارجع نعمل ده على يومين أو تلاتة، والبنات برضو تتفرج معانا، ونعمل بقى الطقس المعتاد بتاعنا، نطبخ وناكل ونتفرج على سينما، ونتناقش!

- وحشتني الأيام دي والله، بقالنا فترة ما عملنهاش!

- للأسف! بس أول لما أرجع نستأنف النشاط تاني يا ريس.

ثم تذكرت حكاية أخرى حكاها لي أحمد فرحات منذ مدة عن مرتضى عزمي الصحفي.

- فاكر يا احمد لما حكيت لي إن رفعت السعيد برضو كان طرد مرتضى عزمي من الحزب!

- آهو ده برضو وسخ من الأوساخ اللى بتتحسب على اليسار! شفت صورته من كام يوم وهو بيبوس إيد جمال مبارك؟!

تفوه!

- مصر كلها شافتها! تفوهين مش تفوه واحدة!

حكى لي أحمد فرحات أن الإداريين في مكتب حزب التجمع في قنا، كانوا قد اشتكوا من عدة سنوات لرفعت السعيد من أنهم لم يقبضوا مرتباتهم منذ أكثر من ثلاثة أشهر. استغرب رفعت السعيد، لأنه يعلم أن مرتباتهم قد أرسلت في مواعيدها في كل شهر. فأجرى تحقيقاً داخلياً في الحزب. ليكتشف أن مرتضى عزمي، مدير مكتب الحزب في قنا وقتها، قد سرق مرتبات العاملين في المكتب، وادعى بأن الحزب يمر بأزمة مالية كبيرة، وطالبهم بالصبر. فما كان من رفعت السعيد إلا أن أرسل في طلب مرتضى عزمي. ولما حضر إلى مكتبه، أخرج رفعت السعيد استقالة من درج مكتبه، وأمره بتوقيعها، وقال له، كما قال لاحقاً لصفوت عبد العال:

- تمضي الاستمارة دي، وما شوفش خلقتك تاني في الحزب!

وقد سمعت من عدة أشخاص ثقة على مقاهي وسط البلد، أن الجريدة التي أنشأها مرتضى عزمي، بعد طرده من حزب التجمع، تبتز رجال الأعمال، وتهددهم بنشر تحقيقات صحفية عن ما يمارسونه من فساد ورشوة وسرقة للمال العام والخاص، بل وحتى فضائحهم الجنسية، إلا إذا قاموا بدفع مبالغ مالية كبيرة؛ في صورة حملات إعلانية باهظة على صفحات الجريدة! وطبعاً رجال الأعمال يدفعون له، لأنهم جميعاً على رأس كل منهم بطحة

في حجم البطيخة، بل بطحات والحق يقال! وهكذا فأنت ترى أن هذه هي الأحوال في بلدنا، وهذه هي السكك، وهذه هي سبل الوصول، شيلني واشيلك، وعَرّص تعيش تاكل قراقيش!

طلب أحمد فرحات زجاجتي ستيللا أخرتين. وجلسنا هناك على البار الخشبي في حالة استرخاء وطفو لذيذين. وقال أحمد فرحات إنه سيذهب للجريون لكي يلتقي ببعض الأصدقاء، ثم يتوجهون جميعاً إلى بيت فوزية صمويل في مصر الجديدة للاحتفال بعيد ميلادها هناك. ودعاني للذهاب معهم. لكنني اعتذرت، وقلت إن عندي بعض المراسلات ولابد من القيام بها قبل السفر، وإنني أزمع الذهاب للفراش مبكراً لأنه يتوجب عليّ أن أستيقظ في الثالثة صباحاً للاستعداد للذهاب للمطار. وشعرت برغبة شديدة في التبول. فتوجهت إلى الكنيف. وتبعني أحمد فرحات ودخل الكنيف هو الآخر بعد خروجي منه. وأكملنا شرب زجاجتينا. ثم حاسب أحمد فرحات على المشاريب. وخرجنا من البار.

كان الظلام قد خيم بالفعل على جو القاهرة، وكانت الساعة قد تجاوزت السابعة، على ما أظن. وسرنا قليلاً في اتجاه شارع محمود بسيوني. ولما وصلنا إلى ممر الجريون، وقفنا، وسلمنا على بعضنا البعض، واحتضنت أحمد فرحات وشكرته على النقود.

- بجد يا احمد ما يلزمكش أي حاجة من فرنسا، غير

التكيلا؟!

- لأ، تروح وترجع بالسلامة وخلي بالك من نفسك، وماتجبش لا تكيلا ولا غيره، أنا مش عايز حاجة.

- ألف شكر ياريس على الفلوس، إنت أنقذتني والله العظيم!

- بطل المجاملات الشرقية بقى!

وافترقنا هناك تحت الأشجار الكثيفة على رصيف الجريون. واتجهت إلى ميدان التحرير. وصوبت نظري إلى عمارة كنت أسكن في شقة فيها مع ميشِل الأمريكية، الله يمسيها بالخير، على نفس الرصيف، بعد الجريون بعدة بنايات. وتابعت المشي. وفجأة أحسست بكآبة وسوداوية. فوقفت، وأشرت لأول سيارة تاكسي.

وعندما وصلت إلى البيت، خلعت ملابسي، وارتديت شورتاً فقط. ودخلت المطبخ وأعددت كوباً من الشاي بسكر زيادة. وتوجهت إلى غرفة النوم والعمل. فلفتت سيجارة بانجو. وفتحت الكمبيوتر. وشرعت أدخن.

بعثت رسالة إلى ألكس أخبرها بآخر التطورات، وبأن مساعيها الحميدة قد أثمرت وحصلت على التأشيرة الفرنسية في آخر لحظة، بل في اللحظة بعد الأخيرة، لأن القنصلية فتحت لي أبوابها يوم عطلتها. وأرسلت رسالة أيضاً لمحب بالأخبار السعيدة.

ثم اتجهت إلى الحقيبة التي كانت على السرير، ففتحت الغطاء. وشرعت أستعرض بنظري محتوياتها، وأحاول تذكر ما أكون قد نسيته، ولم يخطر شيء معين على بالي. وجلست على حافة السرير. وشربت الشاي. وأكملت تدخين سيجارة البانجو. وقمت لأغسل الكوب الفارغ في حوض المطبخ. ورجعت وأنا أسمع صوت عبد الباسط حمودة آتياً من الشارع، مما يبدو أنه كاسيت سيارة تركن تحت العمارة:

أنا مش عارفني، أنا تهت مني، أنا مش أنا

لا دي ملامحي، ولا شكلي شكلي، ولا ده أنا

أبص لروحي فجأة، لقيتني كبرت فجأة

تعبت من المفاجأة، ونزلت دمعتي

قوليلي إيه يا مرايتي، قوليلي إيه حكايتي

تكونش دي نهايتي وآخر قصتي!

يا دنيا طفيتي شمعي

يا ناس كترتوا دمعي، والعمر راح هدر

كتبت الـ آه بقلمي

كسرتوا سن قلمي، وبرضو بقول قدر

حزين من صغر سني، ومين ع الآه يعيني

ووخداني الخطاوي لسكة تايهة مني

يا ليل الجرح يا للي

معايا زي ضلي، مآنس وحدتي

سرقت المر كله، خلاص ما بقاش فاضلي

غير جرحي ودمعتي

جريح وده مش بيدي، ما خدتش بس بدي

زرعت يا ناس ورودي، جنيت الشوك لوحدي

أبص لروحي فجأة، لقيتني كبرت فجأة

تعبت من المفاجأة، ونزلت دمعتي

قوليلي إيه يا مرايتي، قوليلي إيه حكايتي

تكونش دي نهايتي وآخر قصتي

أنا مش عارفني أنا تهت مني أنا مش أنا

لا دي ملامحي، ولا شكلي شكلي

وتذكرت فجأة أن شاباً فرنسياً، اسمه على ما أتذكر ماتيو، كنت قد قابلته عدة مرات في فيديو مصر، أيام كنت أعمل هناك. وكان هو يصوّر معهم فيلماً وثائقياً عن الحياة الاجتماعية لسكان أحياء مصر القديمة الذين يعيشون وسط الجوامع والسُبل والآثار الفاطمية، وحصل به على الجائزة البرونزية في مهرجان مارسيليا للفيلم التسجيلي فيما بعد. كان ماتيو يحب عبد الباسط حمودة، ويحب هذه الأغنية بالذات، ورافقته مرة لشارع طلعت حرب لشراء شرائط كاسيت كل أغاني عبد الباسط حمودة. وكان قد قال لي مرة بإنه من تولوز.

فأسرعت إلى الحقيبة الهاندباج السوداء التي كنت سأحملها على كتفي في السفر. كانت سوستتها مفتوحة، فمددت يدي وأخرجت منها الأجندة الخضراء التي تحتوي على أرقام تليفونات الأصدقاء والمعارف وغيرهم. وفتحت الأجندة على حرف الميم. فوجدت عنوان ماتيو ديجريمو، بالحبر الأحمر، وبخطه هو لا خطي أنا، في تولوز مع أرقام هاتفيه الأرضي والمحمول. ففكرت أن أتصل به حالما أصل إلى هناك، لأنه كان لطيفاً هنا في القاهرة. وكنت قد خدمته كثيراً في فترة عملي في فيديو مصر.

كان محب هو من رشحني لمحمد دهب؛ صاحب فيديو مصر، للعمل هناك، بعد أن كنتُ عاطلاً لفترة طويلة، إثر تركي العمل في شركة أفلام أوديون نهائياً. محب علاقاته واسعة.

واسعة وعميقة في نفس الوقت. يعرف طوب الأرض. وعندما ذهبت للعمل في فيديو مصر، أحبني محمد دهب، وترقيت هناك في العمل بسرعة. كنت أحب جداً جو العمل هناك، والكفاءات النادرة التي تعمل في الشركة. وأتذكر أن شيطان الكاميرا؛ محمد مرسي، كان يصور أجمل كادرات رأيتها في حياتي كلها! بالرغم من أن كل شغل فيديو مصر هو شغل أخبار وتقارير وأفلام تسجيلية. وكان محمد مرسي شيطان الكاميرا يصنع الشاريو بقدميه أثناء التصوير وهو يحمل الكاميرا بين ذراعيه، وكان من المستحيل أن تصدق أن هذه حركة كاميرا محمولة على اليد وليست حركة عربة الكاميرا التي تسير على عجلات السكة. وفي مرة، كنا في الإسكندرية لتصوير تقرير عن من تبقى من يهود عجائز في المدينة. وفي أعقاب استراحة ما بين فترتي تصوير، جلسنا على مقهى مواجه لكورنيش البحر في جليم، وطلبنا قهوة وماء، وشرعنا نشرب مشاريبنا، وإذ فجأة، أجد محمد مرسي يقفز من على كرسيه، ويفتح شنطة الكاميرا ويخرجها من حقيبتها بسرعة البرق، ويفتحها ويضبط الكادر، وكل ذلك في ثانية واحدة، ويأخذ لقطة لسيارة مسرعة تدهس امرأة عجوزاً تعبر الشارع! ولا أعرف كيف تنبأ بأن السيارة سوف تدهس المرأة، فتصرف بهذه السرعة اللابشرية! كانت لقطة أقل ما يقال عنها أنها مذهلة، مرعبة، إعجازية! كانت هذه النوعية من الكفاءات هي التي تعمل في فيديو مصر. وأتذكر أن الخواجات من كل أوروبا كانوا يحضرون إلى القاهرة أولاً لأخذ طاقم تصوير من فيديو مصر، قبل التوجه إلى العراق أو الجزائر أو أية دولة

أفريقية للتصوير. تعلمت الكثير هناك، والحق يقال. وعلموني كيف أستغنى عن المونتاج نهائياً، وكيف أصيغ ما أصوره في شكل قصة منسقة متكاملة لها بداية ووسط ونهاية، عن طريق ترتيب اللقطات أثناء التصوير الفعلي في الشارع، فأستغنى تقريباً عن الجلسات الطويلة للمونتاج. كانت مكاتب فيديو مصر، بالنسبة لي في تلك الفترة، هي المثال الحي الذي يؤكد في كل ثانية تقضيها هناك عبقرية المصريين، ومهنيتهم، وحرفيتهم العالية، إن أرادوا.

وكان فيديو مصر هو وكالة الأنباء المصرية الخاصة الوحيدة التي تسمح لها الحكومة بالعمل رسمياً، لأنها كانت حاصلة على تصريح خاص من السادات شخصياً قبل اغتياله. فمحمد دهب من أوائل المصريين الذي سافروا للعمل في ستديوهات القنوات الإخبارية في أمريكا، ثم عاد في أواخر السبعينيات لينشأ فيديو مصر. وطلب منه السادات وقتها أن يصوره 24 ساعة في اليوم، لأن السادات كان مغرماً جداً بالتصوير، وكان يريد أن يوثق حياته اليومية في أدق تفاصيلها. فرافقه محمد دهب لعدة أشهر، يصوره في كل يوم 24 ساعة، حتى والسادات نائم.

ثم غضب مني محمد دهب لسبب تافه. أنا أظنه مجرد أمر تافه جداً في الحقيقة! كان يحبني حقاً، وكان يثق فيّ مهنياً، فطلب مني ذات يوم أن أذهب إلى فيللا جيهان السادات، وأن أسمع كلامها وأنفذ ما تريده، لأن هناك مهمة تريد جيهان السادات أن

تكلفني بها، وهو قد رشحني وزكاني لديها. فأخذت العنوان منه.

ذهبت إلى فيللا السادات بالعجوزة. ووجدت أن الخدم لديهم علم بحضوري. وجاءت جيهان السادات، ورحبت بي. ثم اقتادتني إلى قبو كبير تحت الفيللا، بمساحة الفيللا كلها تقريباً. وأخبرتني بأن كل ما تم تصويره من فيديو للرئيس الراحل أنور السادات موجود هنا في هذا القبو، ومن ضمن ذلك، المادة الضخمة التي صورها محمد دهب بنفسه في السبعينيات للسادات. قالت إنها تريد مني أن أفرز هذه الشرائط كلها، وأصنفها، وأرتبها بناء على تصنيف سنوي، يتفرع منه تصنيف داخلي-خارجي بناء على الأحداث التي حدثت داخل أو خارج مصر، وتحت كل منها تصنيف آخر جزئي عن طبيعة الأحداث نفسها، وأشياء أخرى من هذا القبيل.

كانت مهمة عظيمة ولا شك. عظيمة بالنسبة لها، لكن أنا مالي؟! مالي أنا ومال تصنيف شرائط بيتاكام متربة من الأحجام الضخمة التي لم تعد تستخدم من أساسه ولا حتى في أرشيفات التلفزيون؟! آه صحيح، أشارت بيدها إلى مكان عليه جهاز ضخم جداً، قالت إنه آلة العرض القديمة الخاصة بشرائط البيتاكام ذات المقاس الكبير، وكان علي أن أشاهد آلاف الشرائط في البدروم على هذا الجهاز، لكي أعرف ما فيها، وأصنفها، ثم أكتب قوائم ببيانات تفريغ لمحتويات كل منها! مالي أنا ومال الكلام ده؟! أنا راجل بتاع سينما، مش شغلتي الأرشفة أنا!

أمرت لي جيهان السادات بقهوة، ثم استأذنت في الانصراف، وكانت الست في غاية الدماثة والحق يقال. لكن بعد أن شربت القهوة، صُعب عليّا الفن، وغلت الدماء في عروقي، وتعصبت وغضبت من توريط محمد دهب لي في هذه المسألة الكابوسية الكافكاوية، فغادرت الفيللاً، وقلت للخدم إني لن أعود. وعدت للبيت، شربت كأسين، ودخنت، ثم دخلت للسرير ونمت.

غضب مني محمد دهب! وتهكم على برودي وعلى لامبالاتي. كيف تأتيك فرصة أن تؤدي خدمة لسيدة مصر الأولى، ثم تتعالى وترفض وتترك الفيللا وتمشي! أنت بالتأكيد مجنون! قلت له قد تكون هي فعلاً سيدة مصر الأولى، سابقاً، ولكنها سيدة مصر الأولى سابقاً على نفسها مش عليّا! وأنا عموماً لا أحب السادات، ولن أقوم بعمل لشخص أكرهه وُأحمله مسؤولية الخراب الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي والفكري والقيمي الذي نحن فيه الآن! ولتجد روح السادات الحائرة الهائمة المتلهفة على من يخلد ذكراها شخصاً آخر غيري ليفرز له ويصنف آلاف الشرائط التي كان يقضي آلاف الساعات وهو يتموضع أمام الكاميرات لتصوره، ولو كان السادات قد أولى البلد ومشاكل البلد نصف أو ربع أو ثمن الوقت والاهتمام اللذين أنفقهما في اتخاذ الاوضاع أمام الكاميرات التي كانت تصوره، لكنا بالتأكيد في حال أفضل كثيراً من حالنا اليوم، وأشياء أخرى من هذا القبيل، مما اعتبرها محمد دهب تأكيداً لظنونه بأن لوثة قد أصابت عقلي فعلاً، فطردني تقريباً من مكتبه! وتركت فيديو مصر يومها وقد صعب عليّا الفن، ولم آخذ حسابي، وضربتها

صرمة.

وتلقيت رسالة إلكترونية من محب، ويبدو أنه كان أونلاين، يهنئني فيها على الحصول على التأشيرة، ويقول: مش قولتلك يا ابني الوسايط في أوروبا أكتر من مصر، دول ولاد وسخة! وعرض عليّ أن أذهب إلى عنده في لندن وأقضي معه أسبوعاً، أو أكثر إن شئت، بعد أن تنتهي ورشة العمل. فأرسلت له إيميلاً أشكره، وأصارحه بأنني مسافر وأنا على الحديدة، ولن يكون بإمكاني دفع نفقات السفر من تولوز في أقاصى جنوب فرنسا، إلى لندن، أو كما يحب محب أن يطلق عليها: لندنستان! لكثرة ما بها من جماعات إسلامية من كل حدب وصوب، فضلاً عن امتلائها بالفارين من مصر، ومن غيرها من الدول النامية، هرباً من محاكمات قانونية في قضايا فساد وسرقة ونصب.

وأطفأت الكمبيوتر. ولففت سيجارتيّ بانجو. ولأول مرة أخذت بالي من أني لم أدخن منذ ليلة أمس سوى بانجو. لكني كنت أشعر بالخفة والسعادة، وحالة طفيفة غير مزعجة كثيراً من ثقل الرأس. وأطفأت النور. وتمددت على السرير في الظلام الذي لم يكن ظلاماً. وشرعت أدخن وأتأمل. وبدأت السيمفونيات الليلية في القاهرة: شجارات بين الأزواج بأعلى الحس. شجارات بين أطفالهم. شجارات بين الآباء وأطفالهم. شجارات بين المراهقين في الشارع تحت البيت. كاسيتات سيارات مفتوحة على أعلى مستوى للصوت. وسمعت سيارة تمرق بسرعة من الشارع وصوت إطاراتها يحتك بقوة بالأسفلت، ويتصاعد منها نهيق

شخص اسمه أحمد الخضري، ويا ليت كان له من اسمه نصيب لكان أفضل لنا وله، وهو يُجعّر بأغنيته العظيمة ذات المعاني الخالدة، والتي لا يقدر على كتابة معانيها البليغة إلا الشعراء اللى بيجيبوا من الشمخ الجواني:

لو انت نار أنا ميَّة

لو انت قسوة انا حنية

لو انت غنوة أنا موال

لو انت رحلة أنا رحال

لو انت جرح أنا مداوي

طب بالذمة إحنا الغلابة المستمعين على أمرنا، إيه ذنبنا نسمع الخرا ده؟! آهو الخرا ده شبه الخرا اللى بيحصل في البلد، وعلى كل المستويات، وعلى رأي الوشاحي آهو الخرا ده شبه الخرا ده!

وضحكت، وقلت: آهي هيّ دي بقى حتة الخرا اللى بتفوَّق!

بتفوَّق يعني من السعادة التي كنت أشعر بها لحصولي على التأشيرة، والسفر بعد ساعات قليلة إلى فرنسا، وما شابه ذلك. وإن لم تكن قد سمعت النكتة من قبل فها هي: ذهب صاحب مصنع عطور إلى شقة صديقته، بعد أن غادر زوجها المنزل،

وحين دخلا إلى حجرة النوم، سمعا صوت الزوج عائداً من جديد إلى البيت، فخبأت الزوجة عشيقها تحت السرير. أخذ الزوج بعض الأوراق التي كان قد نسيها، ونزل بسرعة من البيت. فعادت الزوجة إلى حجرة النوم، لتجد العشيق وقد أغمى عليه تحت السرير، فنادت على الخادمة: إلحقيني قوام بقزازة الكولونيا يا بت! فصاح العشيق المغمى عليه: لأ لأ ، كولونيا لأ، إلحقيني بحتة خرا!

ثم بدأت أصوات بائعي الفاكهة الصيفية الذين يمرون في الشارع تهل تباعاً وتخترق أذنيّ. ينادون على البطيخ، والكانتالوب، والتفاح، والعنب، والخوخ، والمشمش، والبرقوق، والموز، والمانجة. كنا بعد الثامنة ليلاً، وكان عدد كبير من بائعي الفاكهة في القاهرة يفضلون العمل بعد مغيب الشمس، خصوصاً في أحياء الطبقة الوسطى، أو ما تبقى من الطبقة الوسطى؛ حدائق القبة، والمنيل، والروضة، والجزء القديم من مصر الجديدة. في فيلم روائي طويل للمخرج الروماني ناي كارانفيل، اسمه (المؤسسة الخيرية)، أو (فيلانتروبيكا) إن شئت، وشاهدته في مهرجان القاهرة منذ ثلاث أو أربع سنوات، تبدأ افتتاحية الفيلم باللوحة الاستهلالية التالية:

"في رومانيا الآن هناك طبقة صغيرة من فاحشي الثراء، وطبقة صغيرة من المعدمين، وبينهما عدد كبير جداً من الشحاذين الذين كان يطلق عليهم في ما مضى: الطبقة الوسطى."

من اللافت أن محمد خان يصنع فيلماً سابقاً على هذا الفيلم بعشر سنوات تقريباً، هو (فارس المدينة)، وفيه إشارات واضحة للخراب الذي لحق بالطبقة الوسطى المصرية، وأستاذ التاريخ عبد العظيم في الفيلم حسن حسني، هو شحاذ ينصب ويحتال على الأغنياء، تماماً مثل بطل فيلم المؤسسة الخيرية؛ والذي هو أيضاً مدرس ثانوي ينصب ويحتال على الأغنياء ليوفر لقمة عيشه.

بل إن الوعي بسمات العصر النيولبرالي لدى محمد خان، وشريكه في كتابة السيناريو عاصم توفيق، نجده في أنقى صوره في فيلم (عودة مواطن)، وهو من الأفلام الأولى في تاريخ السينما العالمية التي ترصد بوعي عميق التحولات الضخمة في المجتمعات الاشتراكية التي انتقلت إلى اقتصاد السوق. اقتصاد السوء! وأثر تلك التحولات على حال الطبقة الوسطى، وينتبه إلى تلك التحولات قبل كل السينما العالمية تماً. تلك التحولات الصادمة التي سترصدها السينما في أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية، وهي الدول التي خضعت لشروط صندوق النقد الدولي مثل مصر، بعد محمد خان بعقد كامل من الزمن.

في (عودة مواطن)، يتحول مصنع مستحضرات التجميل إلى ملهى ليلي. مع إشارات إلى بقاء عمال وموظفي المصنع السابقين في العمل بالملهى الجديد. وفي المقابل، فإن المصنع الحقيقي في الفيلم؛ مصنع الحديد والصلب الذي يعمل به الخال عبد المنعم إبراهيم، يظهر على نحو تبدو فيه أحوال العمل في تدهور وانحدار، بل ونرى أحد العمال وقد أدمن تعاطي المخدرات. إن

مشاهد المصنع، على نحو خاص، مدعومة بوعي إخراجي عال من محمد خان، قل أن يوجد بين السينمائيين، فهو يُفوِّت فرصة تصوير مصنع الحديد والصلب على نحو مبهر بصرياً، بكل إمكانيات الثراء البصري والتشكيلي لكادرات مصنع من هذا القبيل، لصالح دعم المعنى الأكثر عمقاً، فيصوره كخرابة صدئة في كادرات ضيقة ومغلقة؛ أي متقشفة بصرياً، وليست فقيرة.

أحمد فرحات قال في كتابه (البشر أولاً) إن إحدى السمات المميزة للاقتصادات التي تحولت فجأة إلى النيولبرالية هي التحول من الاقتصاد المادي الذي ينتج سلعاً صناعية وزراعية؛ أي سلعاً مادية حقيقية يمكن أن تمسكها في يدك، إلى أشكال العمل القائم على الانفعال والعاطفة وخدمات الترفيه والتسلية، والأنشطة الطفيلية، ومضاربات البورصة، والتسويق العقاري، والإسكان الفاخر، والاستثمار السياحي، وخدمات الاتصالات والمعلومات وكل تلك الأشياء المشابهة؛ المائعة، السائلة، المراوغة، التي هي من أبناء عمومة القمار. عظيم محمد خان، وعاصم توفيق!

إبراهيم يسري المتخرج من كلية التجارة يفضل العمل في وظيفة بارمان في فندق على العمل في تخصصه في (عودة مواطن). وماجدة زكي تفضل العمل كنادلة في نفس الفندق. بينما تفتتح أختها الكبرى فوزية مخبزاً للجاتوهات. وصاحب مصنع مستحضرات التجميل يفضل العمل مديراً للكباريه. مع إشارات واضحة في الفيلم لتفشي روح الطفيلية والفساد والغش كقيم جديدة حاكمة في مجتمع الانفتاح النيولبرالي. هناك صاحب عمارة في

الفيلم يبيع شققها الخمسين إلى خمسمئة مشتر. وهناك إشارات شديدة الوضوح إلى تفكك الأسرة المنتمية إلى الطبقة الوسطى. لم تعد الأسرة هي الرابطة، بل السوق. إن اسم النكرة نفسه في عنوان الفيلم؛ عودة مواطن، هو للتعميم. سافر شاكر إلى قطر كمواطن، وعاد ليجد نفسه مستهلكاً في مجتمع السوق. مجتمع السوء! لم تعد الرابطة أيضاً هي الوطن، بل السوق. لقد عاد شاكر إلى أطلال الطبقة الوسطى. ويحرص محمد خان على تصوير بيت العائلة ليؤكد هذا المعنى. وحين تفوته الطائرة العائدة إلى قطر، يجلس في المطار تحت لافتة بنك القاهرة. لقد قرر السفر لقطر مرة أخرى، كمستهلك هذه المرة لا كمواطن.

وستتضح هذه الحقيقة على نحو أعمق في فيلم (سوبرماركت)؛ الذي تقرر فيه الشخصيات انحيازها بناء على القيم الجديدة للسوق. إن الطفلة مريم مخيون تنحاز إلى أبيها الذي هجرها وهي صغيرة، لأنه أغنى من الأم. والأم أميرة نفسها تنحاز إلى الدكتور عزمي لأنه من الأثرياء الجدد. حتى أن الفنان رمزي نراه خادماً في بلاط رأس المال؛ يحمل الحقيبة للدكتور عزمي، ويعزف للأثرياء مقطوعات على البيانو في كازينوهات الفنادق وفي حفلات عشائهم. وزوجته الباليرينا عايدة رياض توافق على العمل في فرقة رقص شعبي، لأنها رغبة رأس المال الذي يسعى إلى إدخال الفن في مجال السوق بوصفه سلعة قابلة للربح، وفن الباليه الرفيع لم يعد له سوق في السوبرماركت، هذا ما يقوله رمزي عازف البيانو نفسه. إن المعنى الأكبر والمسيطر على فيلم سوبرماركت هو: إن ما يُباع ويُشترى هم الناس، لا

السلع، وينتقل الإنسان من يد إلى يد، تماماً كما تنتقل السلعة من يد إلى يد. إن مجتمع السوبرماركت، مجتمع اقتصاد السوء، يحول الإنسان ليس فقط من مواطن إلى مستهلك، ولكنه يحوله إلى بضاعة في نفس الوقت. إن حقيبة المال في الفيلم تنتقل من يد إلى يد، ويظل المال كما هو، دون أن يحل أية مشكلة، بينما يُباع الناس ويُشترون. عظيم محمد خان، وعظيم عاصم توفيق!

أطفئت عقب السيجارة الثانية. وقمت لأعد كوباً آخر من الشاي بسكر زيادة، وأخذت معي باكت الأمبرليف الذي به البانجو المخلوط بالتبغ، وعدة اللف، وباكت الأمبرليف السادة الذي كان ممتلئاً لنصفه بتبغ شعر كهرماني. أعددت كوباً من الشاي. ثم لففت سجارتين، وقررت أن يكونا آخر ما أدخنه هذه الليلة قبل أن أنام. وكبست البانجو المخلوط بالتبغ في كيسه. وأضفت إليه بواقي الأمبرليف السادة، حتى غطاه تماماً من أعلى، وامتلئ الباكت كأنه جديد. في حال إن فتح أحدٌ في الجمارك الباكت، فلن يشك، إلا إذا نبش التبغ عاليه سافله، وهو احتمال غير محتمل على الإطلاق. وكان محب قد طمأنني بألا أخاف، لكنه أكد عليّ أن أرمي البانجو في أية سلة قمامة في المطار، أو أدخل الحمام واتخلص منه، إن رأيت كلاباً بوليسية مع أمن المطار، سواء هنا في مطار القاهرة، أو في فرنسا. تأكدت من غلق صنبور الغاز الطبيعي المتصل بالبوتاجاز. وأطفأت النور. وعدت إلى حجرة النوم والعمل.

اتصلت برجب لكي أخبره بآخر التطورات، وبأنني مسافر

فجر الغد إلى فرنسا، فسعد كثيراً بالخبر، ولم يصدق أن الواسطة في فرنسا تفعل كل ذلك. وأوصيته بأن لا يخبر أحداً من سكان القرافة، وخصوصاً أصدقاءنا في السيدة نفيسة بأنني مسافر إلى فرنسا، لأن الجميع سوف يتوقع هدايا من هناك، وأنا كما تعلم يا رجب مفلس! وقلت له بأن يخبر الجميع هناك بأنني مشغول قليلاً في العمل بأحد الأفلام في السوق لزوم أكل العيش. كما أوصيته بأن لا يغالي في طلب مشاريب على مقهى محمد نصر في ميدان السيدة نفيسة عندما يذهب إلى هناك. وكنا قد اتفقنا على أن يكتب قائمة بكل المصاريف التي ينفقها على المقاهي في القرافة، ومصاريف المواصلات، عندما أرسله إلى هناك ليقوم بعمل ما بوصفه مساعدي في الفيلم، ثم أقوم بدفع كل مصاريفه تلك في أول مرة نتقابل فيها. وكنت قد لاحظت أنه يفرط في طلب مشاريب غالية عندما يجلس على المقاهي على حسابي، بل ووجدت في بيانات المصروفات التي كان يقدمها لي حساب عدة قطع من الجاتوه طلبها وهو على مقهى محمد نصر، بالرغم من أنه يعلم الحالة المالية السيئة للغاية التي أمر بها، لكن يبدو أنه لم يكن يهتم، أو هذا ما لمسته من تصرفاته في تلك الفترة. وظهر من نبرته على التليفون أنه تضايق من تذكيره مجدداً بأن يلم يده في المصروفات. ولم يكن يعنيني ذلك. كنت قادراً على أن أكون فظاً في الشغل، خصوصاً عندما أعمل في السينما، لأن الديمقراطية في السينما تعني السقوط والفشل والخسران، تودي في ستين داهية! ولابد من الشدة والحزم والانضباط وإلا غرقت السفينة. ثم إنه كان عليه هو شخصياً أن يكون أول الحريصين

على ما معنا من مال، وهو أقل القليل، ولا يروح يبذره في سحالب وزباديات وفخفخينات وجاتوهات! لماذا يتوجب عليّ دفع ثمن جاتوه أكله الأستاذ رجب وهو جالس وواضع ساقاً على أخرى في مقهى محمد نصر في القرافة، بينما أنا أصلاً مفلس وفي أمس الحاجة إلى كل جنيه!

وقبل أن أنهي المكالمة مع رجب، ومن باب تحسين الأجواء وحفظ ماء وجه الولد، سألته عن أخباره مع الدكتور أحمد لطيف الشرنوبي، لأنه كان يشتكي منه كثيراً، ويقول إن أحمد لطيف الشرنوبي مطلع دين أهله في سيناريو التخرج! بالرغم من أن أحمد لطيف الشرنوبي كان في المعهد دائماً ما يعطيني الدرجات النهائية، وبالرغم من أن رجب هو الوحيد الذي أعرفه على الإطلاق الذي يشتكي من أحمد لطيف الشرنوبي، لأن أحمد لطيف الشرنوبي معروف ومشهور باللطف، بل وباللطف الزائد عن اللزوم في الحقيقة، حتى أننا كنا نسميه في المعهد: أحمد لطيف جداً الشرنوبي! إلا أن رجب، مع ذلك، كان دائم الشكوى منه، وكان يخشى أن يمنحه أحمد لطيف جداً الشرنوبي درجة متدنية في سيناريو التخرج. المهم أنني طالبت رجب بالصبر وبالكياسة وبالعقلانية، وأن اللى تغلب به العب به، حتى تمر سنته النهائية في المعهد بسلام ويصل المركب إلى بر الأمان ويتخرج ويحصل على البكالوريوس، وبعد ذلك فليذهب أحمد لطيف جداً الشرنوبي إلى جهنم الحمراء، أو إلى غيرها من الأماكن التي يفضلها! هذا بالرغم من أنني كنت متأكداً من أن أحمد لطيف جداً الشرنوبي من المستحيل أن يتصيد لطالب عنده، أو أن يتعمد إحباطه أو

الحظ من شأنه. ولما كنت أعرف إمكانيات الولد رجب المهنية، فقد كنت آسفاً عليه بحق، لأن طموحه يتجاوز إمكانياته. ولكن ليس للمرء يد في هذه الأمور كما تعلم.

وأنهينا المكالمة. وأشعلت أول سيجارة. ورشفت رشفة عميقة من كوب الشاي. وتمنيت أن يسير كل شيء على ما يرام، فيحولوا لي العشرة آلاف يورو بعد أن أعود من فرنسا بأسرع ما يمكن، وأن أتمكن من صنع فيلم جيد عن سكان المقابر في القاهرة، وأن أتوفق في بيعه لقناة أو أكثر من قنوات التلفزيون الأوروبية، وبسعر جيد يمكنني من صنع فيلم آخر أو أكثر عن مظهر من مظاهر التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الحادثة في مصر، وأن أبيع هذه الأفلام لقنوات أوروبية وأكسب منها، فأصنع أفلاماً تسجيلية أخرى بمساعدة زملائي السينمائيين والباحثين الموهوبين المجدين، وما أكثرهم في مصر، ثم أنشئ شركة أفلام تسجيلية عظيمة، تصنع أفلاماً تسجيلية عظيمة توثق التاريخ الاجتماعي للمصريين، وأن يمتد نشاط هذه الشركة إلى الدول العربية، بل وإلى دول العالم الثالث أجمع، ويصبح لها فرعاً في كل دولة، وأن تتمتع تلك الفروع بإدارة ذاتية حرة مستقلة، برغم ارتباطها بالمركز الرئيسي في القاهرة، وقلت في نفسي إن ذلك يستلزم أن نكتب مانيفستو للشركة، شيء مشابه لمانيفستو أفلام الدوجما، بالرغم من عدم حبي لتلك الأفلام، بحيث يلتزم الجميع التزاماً أخلاقياً باتباع المانيفستو، وفي نفس الوقت نمنحهم الحرية الكاملة في الحركة وفي صنع الأفلام التي يرون أنها مهمة في مجتمع كل منهم، واسميت الشركة في خيالي:

(البراكسيس)، وهو اسم كنت قد قرأت أن سارتر قد نحته من التوفيق بين فكرتي هيجل وماركس عن إعادة إنتاج الإنسان لنفسه، فكما تعلم، أو قد لا تعلم، قال هيجل إن الإنسان يعيد خلق نفسه بالفكر، في حين قال ماركس إن الإنسان يعيد إنتاج نفسه بالعمل، وهكذا فأنت ترى أن أساس النزعة الإنسانية في اليسار، أو رومانسية اليسار إن شئت، ليست في فكرة التسامح، أو حب الإنسانية، أو العدالة الاجتماعية، أو المساواة بين البشر، وكل تلك القيم العظيمة والخالدة، بقدر ما تكمن أساساً في صلب فكرة أن الإنسان قادر على إعادة خلق نفسه؛ بالفكر عند هيجل، وبالعمل عند ماركس.

وفيما بعد حاول سارتر التوفيق بين الفكرتين، فقال إن الإنسان يعيد إنتاج نفسه بالفكر، ولكن ليس بفكر التنابل الكسالى، وإنما بالفكر الفعال المقترن بالعمل والذي ينضح عرقاً وشقاءً. وهي فكرة تذكركُ بقول بول فاليري أو بودلير، لا أذكر الآن أي منهما هو الذي قال بالضبط، وربما الاثنان، بصيغتين مختلفتين، لأن تفكيرهما وقيمهما وتفضيلاتهما القيمية كانت متقاربة، قال أحدهما أو كلاهما، في معرض التهكم على الفنانين الكسالى أصحاب نظرية الكسل الطبيعي للمُلهَّمين: إنكم لا تعرفون أبداً كم يُكلف من الكدح الشاق جعل عمل فني ينبثق من حلم يقظة!

وشعرت وأنا أسترسل في خيالاتي، أنني أشبه تاجر القوارير بطل القصة في (ألف ليلة وليلة)، الذي راح يراكم المكاسب المتخيلة من بيع قواريره الزجاجية، حتى أهاجته الثروة المتخيلة،

وهاجت أعصابه من الفرح، فمد ساقيه لا شعورياً وهو يجلس، فحطمت قدماه القوارير الزجاجية رأس ماله. فابتسمت راضياً من تداعي المعاني، وفيها لذة لو تعلمون!

وتذكرت، فتناولت الموبايل، وكانت ساعته تشير إلى حوالي التاسعة مساءً، فظبطت منبه التليفون على الساعة الثالثة صباحاً، ورفعت درجة صوت المنبه على آخرها، تقديراً مني إلى أنني قد أصاب بنوبة نوم مفاجئ وأنا نائم مما يصعب معه سماع صوت المنبه إلا لو كان صوته على أقصى ما يمكن. وبدأت في السيجارة الأخيرة. وشربت باقي الشاي. وبدأت أشعر بالنعاس. ربما من التعب المتراكم منذ أمس. التعب النفسي، والتعب المادي الفسيولوجي.

واتصلت ألكس من فرنسا وهي فرحانة وصوتها يجلجل. وتحدثنا بالعربية. وشكرتها كثيراً، للمرة الثانية، على جهودها في مساعدتي للحصول على التأشيرة. وقلت إني أتمنى رؤيتها. فقالت إن لديها شغلاً ما بين باريس ومارسيليا في الأسبوعين القادمين، لكنها ستحاول أن تكون في باريس في آخر يوم لي في فرنسا، حتى نقضيه سوياً، وحتى تعرفني على زوجها. لكنها عادت وشككت في إمكانية نجاحها في ذلك، بسبب كثرة أعداد اللاجئين من شمال أفريقيا الذين يتوجب عليها أن تقابلهم في معسكرات اللاجئين في مرسيليا وغيرها. لكنها عادت مرة أخرى وتركت الباب مفتوحاً في نهاية المكالمة، وقالت إنها ستحاول قدر إمكانها أن تجد الفرصة لتراني. وسألتها إن كانت تحتاج إلى أي شيء

من مصر، وكل تلك المجاملات التي تعرفها، لكنها شكرتني ولم تطلب شيئاً.

وأسعدتني مكالمة ألكس جداً، فابتسمت ابتسامة بسعة وجهي كله من أقصاه لأقصاه. ورحت أفكر في اللاشيء. وهو تكنيك في اليوجا، صعب وسهل في نفس الوقت. وفكرته الأساسية هي أن ُتشغل مخك بقوة، وأنت تفكر في لا شيء، أو لا تفكر في شيء، أيهما أصح. تفكر في الفراغ! ممكن برضو والله! جربْ هذا التكنيك وستجد أنه مريح جداً للدماغ، خصوصاً بعد الإرهاق والتعب والتوتر. شيء ما أشبه بضبط التليفون المحمول على تهيئة المصنع. أو عمرة لموتور السيارة. أو إدارة الغسالة الأوتوماتك وهي فارغة مرة كل شهر. أو الحجامة. أو الحقنة الشرجيّة المنظفة للأمعاء!

ومع تداعي المعاني هذا، الذي انتهى بالحقنة الشرجيّة المنظفة للأمعاء، رحت في سبات عميق. ولم أفق إلا على صوت الموبايل وهو يصرخ بأنه قد حان الآن موعد الاستيقاظ في الساعة الثالثة من فجر يوم السبت.

أقمت ظهري فوراً، مستاءً ناعساً، شاعراً بثقل رهيب في رأسي. وكنت غارقاً في عرق لزج من رطوبة ليلة البارحة، ورغبة جارفة لا تقاوم في العودة للنوم ولتذهب السفرية والطائرة وفرنسا في ستين داهية! لكنني كنت أعلم أن الدقائق الخمس الأولى بعد الاستيقاظ فوراً هي أصعب وأقسى مرحلة في عملية

النهوض من النوم، فغالبت نفسي، وقمت، ممنياً النفس بجزرة القهوة الصباحية، وملوحاً بعصا الحرمان من العشرة آلاف يورو.

اتجهت إلى المطبخ. أضئت النور. فتحت صنبور الغاز. وشرعت في إعداد قهوة يونانية. وسخنت مياه في كوز الماء الستانلس ستيل لإعداد مج من النسكافيه أيضاً، للمساعدة في الاستيقاظ الخشن من النوم. ثم اتجهت للحمام، وفتحت الدش. وخلعت الشورت. ووقفت تحت مصفاة الدش، متلقياً رشاشات المياه المنعشة، حتى أفقت تقريباً. فجففت جسدي. وارتديت الشورت من جديد. ورجعت إلى المطبخ. وشربت القهوة اليونانية على رشفتين. وأخذت مج النسكافيه، وذهبت لغرفة النوم والعمل. فأضئت نور الحجرة. واستعرضت في ذهني ما ينبغي عمله الآن، فلم يحضرني شيء. فقلت لنفسي إنني قد رتبت كل شيء، وليس هناك ما يتوجب فعله أكثر من ذلك، كفَ عن القلق وابدأ الاستمتاع برحلتك إلى فرنسا!

ارتشفت من النسكافيه. وألقيت نظرة سريعة على حقيبة السفر، التي كنت قد وضعتها على الأرض، في الزاوية بين السرير وبين الحائط. ثم أغلقت السوستة. وألقيت نظرة على حقيبة الهاندباج، فلم أتذكر أنني قد نسيت أي شيء. فأغلقت السوستة. وجلست على حافة السرير، ووضعت ساقاً على الأخرى. ورحت أشرب النسكافيه الساخن. وكرهت فكرة تدخين سيجارة بانجو على الريق في الفجر. وسمعت أذان الفجر في عدة ميكروفونات لجوامع كثيرة قريبة من البناية. وقمت واتجهت إلى

المطبخ. وغسلت الفنجان والمج. ثم أغلقت سكينة الغاز. وأطفئت النور.

دخلت الحمام. وتناولت شنطة الحلاقة القماشية البيج في أحمر. وأخرجت منها معجون الحلاقة إنجرام الأزرق، وماكينة حلاقة جيلت بلو تو، وفرشاة الحلاقة الإنجليزية التي قاربت عندي على عيد ميلادها العاشر وما زال شعرها هو هو لم ينقص شعرة. وضغطت على بطن أنبوبة إنجرام فزرق معجون أبيض بطول حبتي فول سوداني في طاس الحلاقة. وفتحت ماء الصنبور، ورحت أبل شعر فرشاة الحلاقة وأمخض بها المعجون بلف شعر الفرشاة في طاس الحلاقة، حتى أزبد المعجون وأخرج رغوته اللزجة. فصبونت ذقني. ورحت أحلق أول وش. ثم ثاني وش. ثم ثالث وش. وانتهيت، فجففت ذقني ووجهي. وجففت فرشاة الحلاقة جيداً. وأطفئت نور الحمام. ورجعت إلى حجرة النوم والعمل، ومعي فرشاة الحلاقة الإنجليزية. وفتحت سوستة حقيبة السفر قليلاً، ودسستها بأصابعي بعشوائية بين الملابس. وحمدت وشكرت لأني كنت على وشك أن أنساها. فالحقيبة كان بها كل عدة الحلاقة جديد في جديد، ماعدا الفرشاة، التي لا أستغنى عنها. وكنت من النوع العشري مع الأدوات، بمعنى أنه مادام الشيء أو الأداة أو السلعة معمرة معي وتعمل وشغالة، يبقى كتر ألف خيرها، ولا أغيرها ولا أستبدلها ما دامت بهذه الجدعنة!

وأقفلت سوستة الحقيبة. واعتدلت واقفاً. وتأملت أظافري. فلاحظت أن ظفري الإبهام والسبابة في اليد اليمنى قد طالا قليلاً.

ففتحت درج الكومودينو، وأخرجت منه قصافة الأظافر. وقلمت الزيادات الطويلة في الظفرين. وأرجعت القلامة مكانها. وفردت أصابعي العشرة وتأملتها لأتأكد من تساوي الأظافر ونظافتها. وعدت وفتحت درج الكومودينو، وتناولت منه قلامة الأظافر، وانحنيت على الحقيبة الكبيرة وفتحت سوستتها ودسست فيها القصافة، أو القلامة، أيهما شئت، وأغلقت السوستة مجدداً. وفتحت دولاب الملابس الخشبي ذا الدرفتين، وأخرجت قميصاً رصاصياً فاتحاً بنصف كم نظيفاً ومكوياً. والبنطلون الجينز الليفايز الرمادي المغسول والمكوي. وحزام الخصر الأسود. والشراب الأسود. وبوكسر رمادي في أسود قطونيل. من عدة أشهر، أشتريت ثلاثة بوكسرات قطونيل من مول طلعت حرب، وكان المحل، والماركة نفسها، جديدتان في السوق المصري. كانت كل ثلاثة بوكسرات متنوعة الألوان وكل منها مكوَّر بالتتابع في عبوة أسطوانية بلاسيتكية شفافة. احترت قليلاً في الألوان، ويبدو أنه ظهر عليّ التردد بخصوص أي ثلاثة ألوان للبوكسرات أنتقي؟! فقال الولد البائع:

- ما تاخد أي حاجة وخلاص، يعني هوّ حد ها يشوفه؟!

قلت:

- إنت فاهم غلط، ده أكتر حاجة بتتشاف عندنا!

مات الولد من الضحك.

ارتديت ملابسي. وتذكرت العطر. ففتحت سوستة الحقيبة الكبيرة على آخرها، وأزحت الغطاء إلى الخلف، ثم وصلت يدي بسهولة إلى زجاجة فهرنهايت هدية هيذر الأمريكية تحت البنطلون الجينز الليفايز. فعطرت صدري، والبنطلون، وأغلقت أزرار القميص، ورششت عليه من بعيد حتى لا يُبقع. وأعدت الفهرنهايت إلى مكانها تحت الليفايز، وغطيت الحقيبة، وأغلقت سوستتها.

ونظرت في ساعة الموبايل ووجدتها قد قاربت على الثالثة والنصف. وقررت أن أنزل مبكراً من البيت وأقضي الوقت الزائد هناك في المطار بدلاً من القلق الذي راح يستحوذ عليّ. فاتجهت إلى المطبخ، وأضئت نوره، وتأكدت من إغلاق الغاز والبوتاجاز. وتذكرت سلة النفايات. فأخرجت كيس النفايات منها، وربطت عنقه جيداً. وأغلقت النور. واتجهت إلى باب الشقة، فوضعت كيس النفايات بجوارها. ودخلت إلى غرفة النوم والعمل، فأطفئت المروحة التي كانت دائرة على الدوام طالما أنا في الشقة، سواء داخل الغرفة أو خارجها، وسحبت الفيشة من مقبس الكهرباء ورميتها على الأرض. وحملت الحقيبة الكبيرة. واتجهت إلى باب الشقة ووضعتها هناك. ورجعت إلى الغرفة، وأخذت حقيبة الهاندباج السوداء. وتناولت الموبايل من على الكومودينو، ووضعته فيها. وتناولت سلسلة مفاتيحي، ووضعتها في جيب البنطلون الأمامي الأيمن. وتناولت محفظة نقودي، ودسستها في الجيب الخلفي للبنطلون. وتناولت باكت الأمبرليف المخلوط بالبانجو، ودسسته في حقيبة الهاندباج. وتذكرت أنه يجب عليّ في

حالة الشك أن أرميه في أقرب سلة مهملات، أو أن أتخلص منه في الحمام. وكان محب قد طمأنني بأنه لا داع للخوف على الإطلاق. فقلت: إذا ما شفناش كلاب في المطار يبقى كله تمام! لأن محب قال لي: إذا رأيت كلاباً بوليسية في مطار القاهرة أو مطارات فرنسا عليك أن تتخلص من البضاعة فوراً، وذلك لأنها تشم راحة المخدرات وترشد عنها! وتأكدت من وجود جواز السفر وتذاكر الطيران بداخل الهاندباج، ثم أغلقت سوستتها. وأطفئت نور الغرفة. واتجهت إلى باب الشقة، وركنت الهاندباج بجوار حقيبة السفر. وفتحت الباب، ووضعت كيس الزبالة بجوار باب الشقة حتى يلتقطه صالح الزبال. وأغلقت باب الشقة ورائي. وقلت:

- توكلنا على الله يا فتاح يا كريم يا رب!

ونزلت السلالم.

خرجت من باب العمارة. وتصرفت على نحو صحيح، بعدم الانعطاف إلى شارع مصر والسودان، فقد كنت أسكن في شارع جانبي اسمه محمد عبادة، ولا أعرف من هو محمد عبادة هذا، ولا حاولت أن أعرف، لأنك حين تكون في مكاني، وحالك تشبه حالي، يكون من الأفضل أن لا ترتبط عاطفياً بمسكن أو بشارع أو بحي، لأنك معرض في كل يوم لأن ترحل إلى مكان آخر، وكما قال روبرت دينيرو في أحد أفلامه وأظنه فيلم (هيت) أول بطولة له بالمشاركة مع آل باتشينو وكان تمثيل دينيرو أكثر

نضجاً من آل باتشينو في الفيلم، قال: حين تشعر بالحرارة في أي مكان، عليك أن تتخلى فوراً عن أي شيء تملكه، وتهرب، رفيقة، أو بيت، أو ثروة، أو أصدقاء! وهي حالة تشبه كثيراً حالة البطل المجرم في أفلام جان بيير ملفيل، القادر على التخلي عن كل شيء في أية لحظة دون أدنى ندم أو رثاء، وفي أحد أفلامه قال يوسف شاهين على لسان بطله إن الحب الأقل هو الحب الأفضل، أو شيئاً من هذا القبيل على ما أتذكر في فيلم (وداعاً بونابرت).

لم أنعطف يساراً في شارع مصر والسودان لأني قدرت أنني لن أجد سيارة أجرة بسهولة في الثالثة والنصف صباحاً، فانعطفت إلى اليمين في شارع لطفي السيد. وبعد لحظات أشرت لسيارة تاكسي بيجو. توقفت، فأخبرت سائقها أنني ذاهب للمطار، فطلب ستين جنيهاً في المشوار. كنت في موقف لا أستطيع فيه المساواة، فقبلت. وركبت معه، وقدته إلى العمارة، ونزلت ودخلت العمارة.

وصعدت السلالم. وكان صالح الزبال هابطاً من الدور الأعلى، فصبّح عليّ، وناولني شوكة طعام ستانلس ستيل، وقال إنه وجدها في كيس الزبالة الخاص بي بالأمس وهو يفزر القمامة، فشكرته، وأخذت منه الشوكة، وفتحت باب الشقة، ووضعتها على الشوفونيرة، وانشرح قلبي لأمانته، واستغربت من أنه، وبعد أن يُنهي عمله في جمع أكياس القمامة من بيوت الحي كله، يعود ظهراً إلى حي الزبالين في المقطم لكي يفرز القمامة، فيعرف شوكة من هذه، وملعقة من تلك! كيف يتذكر صالح أن هذا الكيس من تلك الشقة؟! سبحان الله! هناك شيء مماثل في فيلم

(آخر الرجال المحترمين) على ما أظن، حين يعين أحد الزبالين المباحث أو البطل في العثور على الطفلة المفقودة، لأنه وجد شيئاً لا أتذكره من متعلقاتها في كيس زبالة شقة من الشقق أو شيئاً من هذا القبيل. لو المباحث عندنا مهتمة حقاً بعملها وبالبحث الجنائي بطريقة علمية معملية بحتة لكانت استعانت بالزبالين في مصر في حل الجرائم الغامضة. كيس زبالة أي شقة هو كنز من المعلومات الثمينة عن أصحاب الشقة وسلوكياتهم وعاداتهم وأفعالهم. هناك شيء مماثل في سينما جان بيير ملفيل أيضاً بخصوص رجل المباحث الذي يقتفي آثار المجرمين وما يخلفونه من قمامة: فوارغ الطلقات، والجثث، والرفيقات المنبوذات، والأصدقاء الخونة، وأيضاً أكياس القمامة حرفياً، ثم يعود بكل هذه الغنيمة من النفايات إلى مكتبه ليضاهيها ويقارنها ويستخرج منها الأدلة المفيدة والبراهين الدامغة.

ولم يكن هناك وقت لغسيل اليد، فأخرجت حقيبة السفر، والهاندباج، وأطفئت نور الشقة، وأغلقت الباب بالمفتاح. وحملت الهاندباج على كتفي، وأمسكت الحقيبة في يدي، ونزلت على السلالم. وخرجت من باب العمارة. فنزل السائق وفتح شنطة السيارة، ووضعنا الحقيبة بها، وأنزلت الهاندباج ووضعتها بجوارها، وأغلق السائق الشنطة. وركبنا السيارة ، وتحركنا نحو مطار القاهرة.

أدار السائق الراديو على إذاعة القرآن الكريم، وكانت سورة يوسف بتلاوة الشيخ مصطفى إسماعيل، وكنت من عشاقه**!**

"وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون."

وقالها من مقام النهاوند. والنهاوند، أو الدو مينير، هو مقام شجي جداً، وعاطفي، يحرك القلب فوراً ويملكه، وكثيراً ما جوَّد به المقرؤون الكبار. ومن أمثلته، من باب الاستطعام فقط لا غير: (أعطني الناي) لفيروز، و(ليالي الأنس في فيينا) لأسمهان، و(أيظن) لنجاة، و(البنت الشلبية) لفيروز أيضاً، و(بكتب اسمك) لفيروز برضو، و(زهرة المدائن) لفيروز كذلك، و(حبيتك بالصيف) لفيروز يا سيدي، و(أحن إلى خبز أمي) لمارسيل خليفة، و(بفكر في اللى ناسيني) لعبد الوهاب، وأشهر موشح في تاريخ الموسيقى العربية (لما بدا يتثنى) والذي لا يعرف أحد على وجه اليقين من هو مؤلفه أو ملحنه فالبعض ينسبه إلى الشاعر الأندلسي لسان الدين بن الخطيب والبعض إلى الشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب شعراً ولحناً والبعض الآخر ينسب اللحن إلى سليم المصري على الرغم من أن الجميع يُجمع على نفس الكلمات واللحن والإيقاع والذي هو السماعي الثقيل دوم إس إس تك، إس دوم دوم تك، إس إس دوم إس إس تك، إس دوم دوم تك، إس إس.

صحت وجداً بتلاوة الشيخ مصطفى إسماعيل، وكدت أصفق**!** لكنني أمسكت نفسي في آخر لحظة عن التصفيق، وقدرت أن

السائق بهيم وسيُصدم إن صفقت لتلاوة قرآنية. الغريب يا أخي أنك تجد أن كل سائقي الأجرة في مصر، وهم حرامية بامتياز يسرقونك في وضح النهار وفي الليل البهيم أيضاً، يشغلون القرآن الكريم في عرباتهم، ورأيت الكثيرين منهم يحرصون على إيقاف سياراتهم قرب أقرب زاوية ليصلوا فيها الصلاة حاضرة، ومع ذلك فهم شيوخ منصر وبلطجية لا يتورعون عن شتمك بل وضربك إن لم تعطهم الأجرة التي يغالون فيها، وهذا لا ينفي ذاك، بل يتعايش كل من النقيضين في وئام واطمئنان وانسجام، وفي حالة فصاميّة سلميّة نزيهة خالية من أي الصراع!

وكان الطريق مفتوحاً في تلك الساعة. وكان الطقس رائعاً. فوصلنا إلى المطار في أقل من ربع ساعة. أنزلنا حقائبي من شنطة السيارة. وحاسبت السائق، ومضى. وكان هناك عدة عربات لحمل الحقائب أمام صالة المطار. فوضعت حقيبتي على إحداها، واتجهت إلى بوابة الصالة. سألني أمين الشرطة الواقف على البوابة عن وجهة السفر. فقلت: فرنسا. سأل عن شركة الطيران. فقلت: الإر فرانس. قال إن الإر فرانس ليست هنا، وإنما في الصالة الجديدة بالمطار. سألته: متأكد؟! فأكد بإشارة متأففة من يده الممدودة في الفراغ مشيراً إلى اتجاه الصالة الجديدة.

كنت دائماً ما أستقبل أصدقاء أو معارف وصلوا إلى مطار القاهرة، وكنت أعرف أن المسافة بين الصالة القديمة والصالة الجديدة ليست بالطويلة، ولا بالقصيرة أيضاً وأنا أجر حقيبتين! فقررت أن أستقل سيارة تاكسي. فشاورت لواحدة، وقلت للسائق:

الصالة الجديدة. قال إنه سيأخذ خمسة عشر جنيهاً! كانت سرقة بالإكراه لإنني لم يكن لدي الخيار، ففي مشوار كهذا لا يدفع البني آدم أكثر من جنيهين أو ثلاثة لو كان كريماً كرم العبيط، لكنه الاستغلال، وكان ابن الكلب يشغل سورة الرحمن من كاسيت السيارة بلكنة سلفية، فاسود مزاجي أكثر وأكثر.

ونزلت عند الصالة الجديدة. وأنزلنا حقائبي من شنطة السيارة. وأعطيته الخمسة عشر زفتاً. ووضعت حقيبتي على عربة حقائب، ودخلت الصالة. وجلست في الركن الذي يتجمع فيه ركاب الإر فرانس. وكان كلهم تقريباً من المصريين والمصريات. سألت جاري على المقعد المجاور، وكان في أواخر الثلاثينيات أو أوائل الأربعينيات، ومعه زوجته في أوائل الثلاثينيات أو أواسط الثلاثينيات، وابنتهما المراهقة التي كان شعرها أسود طويلاً وجميلاً، وأدركت بأنه خبير عريق في السفر لفرنسا على الإر فرانس، كما بدا لي من نبرته الواثقة، وفهمت منه بأن كاونتر الإر فرانس، أو منصة الإر فرانس إن شئت، ستفتح باب التشك إن، أو البوردينج، أو التسجيل واستلام الحقائب وإجراءات الصعود للطائرة إن شئت، وشوف إزاي كلمة إنجليزي واحدة تغني عن الجملة الطويلة السابقة دي كلها، بعد ساعة ونصف تقريباً. ففكرت في ما يمكن أن أفعله في تلك المدة. قلت أشتري جريدة تسليني. ثم تذكرت فجأة أنه عليّ أن أشتري زجاجة مياه معدنية، أو طبيعية إن أردت الدقة، سعة لتر ونصف حتى أستخدمها في فرنسا بديلاً عن الشطافة. وكنت أعرف يقيناً أنني لن أجد شطافة في فرنسا. وقال لي معظم المصريين الذين

يسافرون إلى أوروبا إنهم يستخدمون زجاجات المياه كبديل للشطافة. فقلت أشتري واحدة من مصر، أشرب منها طوال السكة، ولما أصل إلى هناك، أستعملها شطافة.

والشطافة أداة مهمة للغاية في حياة المصريين اليومية. وهي ببساطة عبارة عن أنبوب معدني رفيع، أو خرطوم معدني رفيع، يتم تعليقه في منتصف المرحاض، تحت إستك مباشرة، إلى الخلف قليلاً، متصلاً بصمام المياه المجاور للمرحاض، ويكون له صنبوره الخاص، بحيث تفتح منه المياه وتغلقها، فيندفع منه سرسوب من الماء إلى الإست المتسخ، فتأخذ في تنظيف إستك بأطراف أصابعك بمعاونة المياه المندفعة. وهناك البعض الذين يغالون فيضيفون محبساً آخر للمياه الساخنة للشطافة لزوم الاستخدام في برد الشتاء.

والشطافة ليست مهمة فقط في حياة المصريين، بل ربما كانت أكثر أهمية في حياة باقي العرب بصفة عامة وشاملة وكاملة. وأتذكر أن بيتنا في طرابلس وأنا طفل صغير كانت به شطافة ممتازة ومستقلة بذاتها حتى عن المرحاض نفسه. فأنت تدخل وتقضي حاجتك في المرحاض المعروف لنا جميعاً، ثم تنتقل إلى مرحاض آخر مجاور له هو عبارة عن شطافة فقط لا غير، بضغط مياه قوية جميلة ومنعشة، تجلس عليه وتفتح المياه وتعيش النظافة يا زعيم! ولم أكن أفهم، ولازلت لا أفهم، الثقافة الأوروبية في مسح المؤخرة بمنديل ورقي بعد قضاء الحاجة! ومرة قرأت أن عضواً في مجلس الشيوخ الأمريكي عن الحزب

الجمهوري يفاخر بأنه لم يغسل يديه بعد قضاء الحاجة أبداً منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً! شوف الوساخة يا أخي! لأ وشوف كمان نقل أمراض لكام ألف واحد في الخمسة وعشرين سنة اللي كان بيشخ فيها وما بيغسلش إيده؟! شيء قذر حقيقة!

وقد حاولت أن أعلم رفيقاتي الأمريكيات والأوروبيات أهمية الشطافة في الحياة المادية والمعنوية للإنسان. نجحت أحياناً، وفشلت أحايين. أما وقد كنت الآن مسافراً إلى عقر دار القوم الذي يمسحون ولا يشطفون، فقد قلت لنفسي: يا سلام لو تخترع الصين للعرب محبي الشطافة، شطافة محمولة، نحملها في السفر، ونتشطف بها على راحتنا، والله لكسبوا ذهباً!

قمت واتجهت أولاً إلى صيدلية كانت صناديق زجاجات المياه متراصة عند مدخلها، وسمعت القرآن من راديو أو كاسيت بداخل الصيدلية، لكني لم أعرف لا السورة ولا المقرئ في الحقيقة. اشتريت من عندهم زجاجة مياه لتر ونصف بخمسة جنيهات، وكنت مضطراً لدفع المبلغ، ولكني لعنتهم في سري، بل وتمتمت بشتيمة قبيحة للغاية وأنا أدير ظهري وابتعد عن الصيدلية! كانت مثيلتها في أي كشك حاجة ساقعة في القاهرة بجنيه وربع فقط! كنت أعرف أن إيجار المحلات داخل مطار القاهرة باهظ، لكن هذا ليس مبرراً لكل هذه المغالاة والطمع والسرقة، كان يكفي مضاعفة ثمن الزجاجة لتغطية إيجار المحل، يعني باثنين ونصف، وليس أكثر.

ثم قطعت كل صالة المطار بالطول، حتى أصل إلى كشك الجرائد والمجلات الكبير المواجه للصيدلية في أقصى الطرف الآخر، واشتريت الجريدة الجديدة التي ظهرت في مصر منذ عامين تقريباً؛ المصري اليوم، بثلاثة جنيهات، وكان مكتوباً في صدر صفحتها الأولى الثمن جنيه واحد، ولم أستطع أن أفتح فمي، فقد كنت مضطراً. وكان ضابط شرطة بكرش كبير، ونسر ونجمة على كتفيه، يرتدي الحلة الشرطيّة الصيفية البيضاء، ويتمشى الهوينا في صالة المطار، ممسكاً بجهاز لاسلكي أسود ضخم جداً عفا عليه الزمن ويرغي فيه مع شخص آخر ويضحكان كأنهما يتكلمان في تليفون أرضى ساعة العصاري. وشعرت بنفور شديد.

عدت لمكاني، وجلست على مقعدي، ووضعت ساقاً على أخرى، وبسطت الجرنال، ورحت أقرأ:

* مبارك: الدولة عاشت أزمات عديدة في العهود السابقة ونتحمل اليوم مشكلات لا حصر لها بسبب ذلك. الرئيس: المشروعات الجديدة تقدم خدمات تليق بالمواطنين، والإجراءات الصعبة هدفها المصلحة العامة.

* إطلاق موقع رئاسة الوزراء الرقمي: معلومات عن مصر الحاضر والمستقبل.

* مصرع 7 مرضى في حريق مستشفى بالإسكندرية: المعاينة تكشف حدوث ماس كهربائي في وحدة الرعاية المركزة

بمستشفى بدراوي الخاص بشارع محمد نجيب في حي المنتزه. صور للمطافئ والإسعاف أمام المستشفي.

* بدء تصحيح العينة العشوائية للغة الإنجليزية بالثانوية العامة، واستمرار حالات الإغماء بين الطالبات في اللجان وأمام مقار الامتحانات. ونائب وزير التربية والتعليم لشؤون المعلمين يصرح: رفع درجات الرأفة لطلاب الثانوية العامة.

* وفاة معلم منتدب لأعمال مراقبة الامتحانات بالثانوية العامة بعد سقوطه أسفل عجلات القطار المتجه من ديروط إلى ملوي.

* وزير التنمية المحلية يطالب المتعدين على أراضي وأملاك الدولة بسرعة التقدم بطلبات للتصالح، والحكومة تحدد مبالغ التصالح في مخالفات البناء: 50 ألف جنيه للبناء بدون ترخيص في عواصم المحافظات والمدن الجديدة، و8 آلف جنيه للقرى.

* قائد الجيش الثالث الميداني يستقبل وفد المستثمرين العرب والأجانب.

* وزير النقل يبحث توطين صناعة الوحدات المتحركة للسكك الحديدية.

* الآن في مصر، النسخة الجديدة من الفئة الرابعة لبي إم دبليو، بمحرك اقتصادي وفخامة تنبض بالحيوية: سمات الصوت

المحيطي فائق الجودة، سمات تليق بالشخصية العظيمة، وسائل الأمان بين يديك، تقنيات مبتكرة، سعر تنافسي. أقوى خصومات من منصور على سيارات أوبل وشيفروليه الملاكي.

* اتفاق بين وزارة الشؤون الاجتماعية والجمعيات الأهلية لتوفير فرص عمل للشباب.

* سودوكو.

* الأبراج.

* كلمات متقاطعة.

* اتحاد المقاولين يطالب بسرعة صرف مستحقاته لدى الحكومة.

* استمرار تظاهرات عمال المحلة، ودعوات من العمال للإضراب العام: نطالب بزيادة الرواتب لتتناسب مع الغلاء، وتحسين وسائل المواصلات، وتحسين الخدمات الصحية، وتوفير الدواء، ومحاربة الفساد والرشاوى.

* الطقس اليوم.

* مواقيت الصلاة.

* متوسط أسعار العملات.

* انهيار فندق سكني في مكة يسفر عن مقتل 76 معتمراً وجرح 64 آخرين.

* مقتل 130 عراقي و7 جنود أمريكيين في سلسلة تفجيرات في مختلف أنحاء العراق.

* أهالي ضحايا العبارة السلام 98 (عَبَّارة الموت) يتجمهرون أمام مقر النيابة مطالبين بسرعة القبض على المسؤولين عن الكارثة.

* نواب في مجلس الشعب: البطالة وصلت إلى أكثر من 11 مليون عاطل، والحكومة ترد: مليون ونصف فقط هو حجم البطالة في مصر.

* أحمد حسن: وقعت تحت ضغط عصبي رهيب بعد إهداري ضربة الجزاء وسجدت في الملعب ودعوت الله أن نفوز بكأس أفريقيا من أجل الجماهير الغفيرة التي ساندتنا، واستجاب الله لدعائي والحمد لله.

* استمرار قصف الطائرات الإسرائيلية للبنان لليوم الثاني والثلاثين على التوالي، وسقوط عدد من صواريخ حزب الله داخل إسرائيل دون وقوع إصابات.

* مظاهرات لطلبة الإخوان المسلمين في جامعة الأزهر احتجاجاً على القبض على 6 أساتذة بالأزهر ينتمون للجماعة

على إثر تنظيمهم لانتخابات اتحادات طلابية موازية للاتحادات الطلابية الجامعية.

* الإفراج عن القياديين السابقين بالجماعة الإسلامية: فؤاد الدواليبي، وعصام دربالة.

* النرويج تستعد لإرسال 200 جندي إلى السودان.

* واشنطن تدعو سوريا إلى التعاون الكامل مع لجنة التحقيق الدولية. فرنسا تطالب بتمديد مهلة اللجنة الدولية للتحقيق في اغتيال رفيق الحريري، وتوسيع نطاقها.

* تسريبات لتقرير ميليس رئيس لجنة التحقيق الدولية يتهم مسؤولين سوريين بالضلوع في اغتيال الحريري.

* مظاهرات في هونج كونج ضد اجتماعات منظمة التجارة العالمية.

* الرئيس بوش يتوقع استمرار العنف لبعض الوقت في العراق، ويقول: لا خروج من العراق قبل الانتصار الكامل.

* قمة لدول الخليج مطلع الأسبوع القادم لبحث تأثيرات التسلح النووي الإيراني.

* الكونجرس يعارض للمرة الثانية سحب القوات الأمريكية من العراق.

* بوش يعترف بمذابح العراق، ويندد بتعذيب السنة في السجون العراقية.

* الواشنطن بوست عن مسؤول عراقي: التعذيب يشمل الصدمات الكهربائية وتكسير العظام.

* المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية: على استعداد لإجراء اتصالات مباشرة مع جماعة الإخوان المسلمين، وهذا لا يمثل أي انتهاك للقوانين المصرية التي ترفض تشكيل حزب للإخوان لأننا سنتحدث إلى الإخوان كنواب مستقلين انتخبوا من الشعب. ومحمد سعد الكتاتني زعيم نواب الجماعة في مجلس الشعب يرحب بالدعوة الأمريكية.

* رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان ينتقد سياسة الحرب على الإرهاب.

* الجبهة الوطنية للمهنيين في مصر: الإخوان يمارسون الشمولية والديكتاتورية في النقابات التي استولوا عليها منذ 15 عاماً، لم يفتحوا خلالها أبواب الترشح حتى الآن، علماً بأنه يتحتم تغيير مجالس هذه الإدارات كل 4 سنوات، ونناشد الزملاء بعدم التعاون مع الإخوان في الانتخابات لأنهم لم يراعوا حقوق المهنيين في مصر.

* وزير السياحة: لجان الفحص والتفتيش مستمرة في متابعة المنشآت السياحية.

* وزير الزراعة: تنفيذ 284 مشروعاً خلال 6 سنوات بتكلفة 6 مليار جنيه.

* إغلاق 326 مزرعة دواجن وبط ورومي لتفشي فيروس أنفلونزا الطيور.

* تسمم 251 مواطناً في مدن الدلتا من مياه الشرب الملوثة.

* حملة من الفنانين للتبرع لأسر ضحايا حريق مسرح قصر ثقافة بني سويف الذي راح ضحيته 32 فناناً.

* خليل الدليمي محامي صدام في تصريحات خاصة: برزان إبراهيم التكريتي، الأخ غير الشقيق لصدام حسين، قال لي: الإمريكيون عرضوا عليّ منصباً سياسياً رفيعاً في مقابل الشهادة ضد الرئيس فرفضت بالمطلق، وقلت إن برزان التكريتي لن يخون أخاه الأكبر صدام حسين ليس لكونه أخي فقط بل لكونه رئيسي أيضاً، وبعد أن رفضت عرضهم مارس الأمريكان عليّ التعذيب الجسدي الشديد.

* اعترافات الزوجة القاتلة وعشيقها في المحكمة: صلينا ركعتين شكر لله بعدما قمنا بذبح الزوج.

* بطل مصر في كمال الأجسام متهم بسرقة حقائب سيدات بالطريق العام، ويبرر: كنت في حاجة للمال للإنفاق على معسكر المنتخب القومي.

* إحالة كشوف الناجحين في امتحانات أئمة المساجد للنيابة العامة بعد اكتشاف أن بعض الناجحين قدموا رشوة للمسؤولين في وزارة الأوقاف.

* مصر تحقق المركز الأول عالمياً في حوادث الطرق: 20 ألف قتيل، و100 ألف جريح سنوياً.

* سباك وعامل يغتصبان طفلة ويقتلانها ويضعان الجثة في البوتاس.

* أب بلا قلب: يعذب طفلته بإطفاء السجائر في جسدها.

* عامل يقتل شقيقه في القناطر الخيرية للخلاف على تربية كلب.

* النيابة تطعن على براءة المتهمين باغتصاب الطفل المصاب بالتوحد.

* إصابة 13 واحتراق 4 سيارات وثلاث منازل بحريق في الدقهلية.

* إيرادات دور العرض تخيب آمال صناع السينما: 35 ألف جنيه فقط حققها أعلى الأفلام إيراداً في أسبوع.

اكتئبت وانغممت وشعرت بضيق في صدري، فقلت أقوم وأمشي ساقيّ بعد طول جلوس، وأيضاً لأدخن سيجارة خارج

الصالة في الهواء الطلق. استأذنت من جاري رب الأسرة الصغيرة الخبير في السفر لفرنسا بأن يراعي حقيبة سفري اللاطية بجوار الكرسي. وقمت وحملت الهاندباج على ظهري. وناولته وأنا واقف المصري اليوم المطوية، ففرد أصابع كفيه كلاهما في وجهي رافضاً بإيماءة الخبير العارف بما سيلاقيه من قراءة صحيفة مصرية، قائلاً:

- لا لا لا لا لا لا لا لا!

فضحكت حتى اهتز جسدي من الضحك، واستأذنته، وخرجت من صالة المطار وأنا أدس الصحيفة داخل الهاندباج.

نزلت من على الرصيف، ووقفت بجواره، ولم أبتعد عن بوابة الصالة كثيراً. وأمسكت الهاندباج التي كانت خفيفة، وفتحت السوستة، وأخرجت باكت الأمبرليف المخلوط بالبانجو، وعدة اللف؛ أي البفرة والفلاتر الكرتونية والولاعة الزيبو. وأرجعت الهاندباج إلى كتفي. ولففت سيجارة وأنا واقف. وأخذت من الباكت من تحت؛ حيث البانجو المخلوط بالتبغ. وأشعلت السيجارة. وأخذت نفس. أحلى نفس أول نفس! خصوصاً أنني لم أدخن منذ ليلة أمس. ورأيت شاباً في تيشرت وبنطلون جينز غامقين كان واقفاً في وداع بعض معارفه أو أقاربه أمام باب الصالة، يتجه إليّ، ويتوقف أمامي:

- ممكن ولعة؟!

وأخرج سيجارة من علبة ميريت أصفر، فناولته سيجارة البانجو المشتعلة. استغرب، لكنه التقطها.

- جوينت!

قلت:

- اتفضل!

وقرب الجوينت من سيجارته التي في فمه، ولحمهما ببعض، وراح يسحب الهواء، وهو يقول:

- بتديني جوينت أولع بيه!

ثم ناولني الجوينت بنظرة لائمة من مدخن مخدرات إلى آخر، وكأن لسان حاله يقول: مش كده على الملأ، أمال فين الكود الخاص بتدخين الجوينتات!

تناولت منه الجوينت وأنا أبتسم. وابتعد واتجه إلى سيارة لانسر زيتية، استقلها، وغادر ساحة انتظار السيارات.

أكملت تدخين السيجارة. وقلت ألف واحدة أخرى، لأن الله وحده يعلم متى سوف أدخن مرة أخرى اليوم. فلففت واحدة أخرى. ووقفت أدخنها. وأنزلت الهاندباج عن كتفي، وأخرجت منها زجاجة المياه، وفتحتها، وشربت لأنني شعرت بالعطش فجأة. وكان هناك راكب أربعيني طويل ونحيف يتشاجر مع سائق

تاكسي بعد أن أنزل حقائبه من شنطة السيارة البيجو السبعة راكب ومن على الشبكة أعلى السيارة. ورأيت معه زوجته الطويلة النحيفة، وولدين كلاهما طويل ونحيف. وأصر السائق بقلة أدب وانعدام ذوق أن يأخذ أكثر من حقه. فرمى له المسافر النحيف النقود في وجهه، فوقعت على الأرض، وراح السائق يلملمها في منتهى البرود. وأخذت الزوجة الطويلة النحيفة تدعي عليه بأدعية الموت والهلاك والمصائب وبأن يصرف النقود على العلاج. والذي، بالمناسبة، كان يكلف كثيراً في مصر في تلك الأيام. ثم راحت تساعد زوجها، هي والولدان الطويلان، في وضع الحقائب على عربتين، دفع هو واحدة منهما أمامه، ودفع الصبيان النحيفان الأخرى معاً. بينما سارت الأم في الخلف. ولما اقتربوا مني، نظر إليّ الأب النحيل وخاطبني ليشهدني على ما حصل من سائق التاكسي الجشع، فقال أصوب حكمة تلخص الوضع الحالي في مصر:

- البلد دي بقى كل واحد فيها حاطط إيده في جيب التاني!

فصحت من فوري وقد أعجبتني العبارة كثيراً:

- وبصورة مباشرة وغير مباشرة!

فتركت يداه العربة، وارتفعتا إلى أعلى رأسه مشوحة إلى الخلف، وكأنه يزيح البلد كلها إلى الوارء قبل سفره. وذكرتني هذه الحركة بحركة تشارلي تشابلن وهو يرفس الماضي والخيبات الماضوية والفشل والإحباط إلى الخلف بحركة قدمه الشهيرة التي

دائماً ما ترفس إلى الخلف في مشهد النهاية ولا مرة واحدة رفست إلى الأمام ويكمل بعدها طريقه إلى الأفق الممتد حيث الرجاء والأمل.

أكملت تدخين السيجارة. ورميت العقب، ودعسته بقدمي. واتجهت إلى باب الصالة، ودخلت. وشكرت جاري المصري لأنه أخذ باله من حقيبتي. وجلست في انتظار فتح كاونتر شركة إر فرانس. وُفتح كاونتر إر فرانس. واندفع الركاب ناحية الكاونتر. وكان جاري وعائلته من المندفعين بمجرد رؤية موظفي الشركة يتجهون للوقوف خلف الكاونتر. واصطف طابور طويل أمام منصة الشركة الفرنسية. ووقفت تقريباً في آخر الطابور. واستغرق الطابور وقتاً طويلاً نسبياً لكثرة أعداد الحقائب مع المسافرين، ولجدالهم كثيراً بخصوص الوزن الزائد للحقائب. ووصلت أخيراً إلى الكاونتر. فسلمت الموظف الذي أمامي جواز السفر وتذاكر الطيران. راجعهم بسرعة، وأعادهم لي ثانية. وأعطاني تذكرة برقم الكرسي الخاص بي على الطائرة. ثم أشار لي بأن أضع حقيبة السفر على الميزان، وهو ينظر إلى حقيبة الهاندباج الخاصة بي، ويومئ إليها برأسه، فناولته إياها، فوضعها على الكاونتر أمامه. وزن أولاً حقيبة السفر على الميزان، فكانت أقل من الحد الأقصى للوزن المسموح به بخمسة كيلو جرامات تقريباً. فلصق رمز الشركة على الحقيبة، ولصق نفس الملصق على سير الهاندباج، وناولها لي، فحملتها على كتفي مجدداً. ثم أنزل حقيبة السفر من على الميزان، ووضعها على سير ناقل الحقائب إلى الداخل، الذي تختفي الحقيبة من عليه بمجرد أن تعبر

من كمر تغطيه شرائط غليظة من الجلد.

وتبعت باقي الركاب في نفس الاتجاه الذي مشوا فيه. ووقفت أمام شباك الجوازات. وسلمت جواز سفري وتذاكر الطائرة إلى ضابط شاب بثلاث نجوم. ففتح جواز السفر، وتأكد أولاً من التأشيرة الفرنسية، ثم راجع المعلومات الشخصية بجواز السفر على شاشة أمامه، ليتأكد من أنني غير مطلوب جنائياً، أو ممنوع من السفر، بالرغم من أن الصحف طالما كتبت عن المطلوبين جنائياً والممنوعين من السفر والهاربين من قضايا فساد ونصب على البنوك المصرية وسرقة أموال المودعين الذين خرجوا جهاراً نهاراً من مطار القاهرة والكل شاف والكل دري والجميع يعلم أنك لن تقابل أي مشاكل في مصر من هذا النوع إذا كنت سخياً وتدفع المعلوم وذكياً وتعرف لمن تدفع المعلوم وعندئذ سيخرجونك من صالة كبار الزوار وشرفك لا من الصالة العادية التي هي لأمثالنا الغلابة الذين ينطبق عليهم القانون والغلابة في هذا البلد هم فقط من ينطبق عليهم القانون وبحذافيره وبدون أية رأفة أو شفقة أو تطبيق لروح بسلامته. وأرجع لي جواز السفر وتذاكر الطيران، وكان يجلس في كشك زجاجي ضيق ومضيء، وقال لي: توصل بالسلامة. فقلت له: ألف شكر يا باشا الله يسلمك.

ومشيت وراء المسافرين مجدداً. وصعدنا إلى الدور العلوي بسلم كهربائي كان معطلاً، فصعدنا على أقدامنا مانيوال. وفوق، كانت صالة المغادرة، وهي صالة واسعة رحبة تشرح القلب، ربما بسبب وضعها ومكانتها الرمزية والشعورية واللاشعورية

بأنها عتبة المغادرة من مصر إلى العالم المتحضر المتقدم. وللعتبة دائماً سحرها. كان هناك عدد من الكراسي في الصالة لم أحصها بدقة ولا اهتممت بذلك، لأنها كانت مزدحمة بما فوق طاقتها والناس واقفون حولها. وكان جزءًا من طائرة الإر فرانس يظهر عبر زجاج الصالة، وكانت بالفعل متصلة بممر تحميل الركاب.

وفي منتصف الصالة تقريباً كان هناك مقهى أو كافيتيريا أو شيئاً من هذا القبيل، عبارة عن مساحة مفتوحة بلا جدران، وقلت لابد وأنهم حرامية والمشروب عندهم بأضعاف ثمنه، وكان يفوح منها رائحة قهوة قوية سيئة، فقلت في نفسي ربما تعمدوا إحراق القليل من البن حتى تفوح رائحته على هذا النحو، لأنها كانت أشبه برائحة مسحوق بن يحترق، مما ذكرني في التو واللحظة بما يمارسه أصحاب دكاكين شواء اللحوم في مصر من حرق قطعة من الدهن أو الليّة على الفحم حتى تتصاعد الرائحة وتجذب الزبون الغفل.

تمشيت قليلاً مستكشفاً المكان. كان هناك بعض الحوانيت الصغيرة للتحف والعاديات من خان الخليلي. وكان هناك الكثير من لوحات البردي، مثل تلك التي اشتريتها من عند نبيل، وصوبت نظري إلى السعر المكتوب على الكبيرة: 25 × 16 سم، فوجدته عشرة دولارات للوحة الواحدة**!** يا نصابين يا حرامية**!** يعني حوالي ستين جنيهاً مصرياً، وأنا أصلاً شاريها من عند نبيل بخمسة عشر للواحدة، والراجل كسبان فيها برضو والله العظيم**!**

كان شيئاً يحرق دمك والحق يقال. فابتعدت عن محلات خان الخليلي. ولم أجد محلات أخرى تذكر، اللهم إلا محل إلكترونيات وحيد، لفتت نظري في فترينته كاميرا كانون إوس من التي كنت أتمنى شراءها، لكنه كان يعرضها بمئتين وخمسين دولاراً، وهي لا تزيد في أي مكان في أوروبا عن مئة وعشرين أو مئة وثلاثين بالكثير.

أكملت السير، ووصلت إلى مصاطب زجاجية مرصوصة على هيئة فترينات للعطور الحريمي والرجالي. كانت مساحة كبيرة وتخص شركة الأسواق الحرة بمصر للطيران. وقال محب لي إن أسعار الأسواق الحرة لمصر للطيران أقل من مثيلاتها في أوروبا، لأنهم يستوردون من جزيرة ما في الكاريبي لا أذكر اسمها، منخفضة أو منعدمة الضرائب لا أذكر أيهما. وسألت البنت الواقفة عن عطر فهرنهايت المئة ملي، فقالت: موجود. بكم؟ قالت: بستين دولار. فتحسرت أن ليس معي مبلغاً محترماً من الدولارات، والله لكنت اشتريته! كان سعراً ممتازاً، لأني قد سألت عليه أحد العائدين من السعودية منذ وقت قريب، فقال لي إنه يُباع في مطار جدة بسبعين دولار. في النهاية، كان كل ما معي هو مئتي دولار فقط، وهي فلوس ناس، ولا يجب فرتكتها، والفرتكة في اللغة لمعلومات سيادتك هي التقطيع مثل الذر.

تركت ركن العطور، واتجهت إلى جنة كل مسافر؛ السوق الحرة للسجائر والكحوليات، وكان مكانها مموهاً من الخارج، ومظلماً، ولكن حالما تدخل من البوابة المقوسة المفتوحة بلا

أبواب، تفاجئك المساحة الواسعة من الداخل، وحسن تنظيم المعروضات أيضاً، وسهولة المشي والتجول في الممرات الداخلية كذلك. وجدت كل شيء يمكنك أن تتخيله أو لا تتخيله من السجائر والتبغ والمشروبات. وكنت قد عزمت على شراء علبة تبغ أمبرليف، والعلبة فيها خمس باكتات، من السوق الحرة بالمطار، لأنها غالية في فرنسا، حتى قبل أن يعطيني أحمد فرحات المئتي دولار، فأنت من حقك، قانوناً، أن تقوم بتغيير ما قيمته مئتي دولار، بسعر البنك المركزي المصري، من أحد فروع البنوك القومية التي لها مكاتب صغيرة داخل المطار، وكنت أزمع أن أبدل ولو مئة جنيه مصري إلى دولارات، أي حوالي ستة عشرة دولاراً، أشتري بها تبغ من المطار.

ووجدت تبغ الأمبرليف الأصفر. كانت العبوة الخمس باكتات بإثنى عشر دولاراً، وهو سعر عظيم! فتناولت واحدة. وطمعت في زجاجة أي شيء، أنا المحروم منذ عدة أشهر من الخمرة النظيفة، والمقتصر في شربي على رأس العبد، والـ 84 في حالة عدم وجود رأس العبد. كانت هناك كل الزجاجات التي يتمناها شرّيب مثلي، وأنا لست مثلي. كل أنواع الويسكي السكوتش وغير السكوتش، والجن، والروم، والكونياك الفاخر وغير الفاخر، والفودكا، والمارتيني، والبكاردي، والنبيذ الفرنسي وغير الفرنسي. كانت هناك زجاجات نبيذ راقدة من نبيذ تشيلي الأحمر، الذي سمعت الكثيرون يمدحون فيه، ويقولون إن بعض أنواعه تنافس جمال مذاق الشاتوهات الفرنسية، وبثمن أرخص كثيراً من الشاتوهات الفرنسية! وفعلاً، كانت هناك زجاجات نبيذ تشيلي

بثلاثة دولارات وأربعة دولارات وانت طالع.

أخترت فودكا دانزكا الدنماركية المنكهة بالليمون ذات التكت الأصفر، وكانت بستة عشر دولاراً ونصف. في حين كانت ذات التكت الأحمر الغير مخلوطة بالليمون بخمسة عشر دولاراً فقط. حسب تأكيدات ألكس، فإن ورش العمل في فرنسا، خصوصاً تلك التي تشمل الإقامة والوجبات للضيوف، يكون فيها دائماً على مائدة كل وجبة، باستثناء الإفطار، نبيذ فرنسي محلي يكفي جميع من على المائدة ويزيد. ولذلك، فلم أكن أحمل هم الشرب في تولوز. ولكنك وأنت هناك تقف في جنة الخمور تلك، وبتلك الأسعار الممتازة، سيجتاحك الشعور بأنه من المؤسف حقاً أن تخرج من المحل خالي الوفاض! قلت من باب تشجيع النفس على الإقدام على الشراء: حتى نصل إلى هناك، ونتعرف على الوضع وما إلى ذلك، زجاجة فودكا معي في الغرفة ستكون مسألة عظيمة! فأخذت زجاجة دانزكا ذات التكت الأصفر. وهي في الحقيقة ليست زجاجة زجاجية، وإنما زجاجة معدنية من الألومنيوم، تشبه حاويات الكيماويات في المعامل الكيمائية. وقد ندمت كثيراً طيلة الرحلة على اختياري لدانزكا الدنماركية، لأن قارورة الألومنيوم كان تدفع كل حاجر تفتيش أمني إلى أن يطلق صفارته الإلكترونية اللعينة، فأضطر إلى فتح سوستة الهاندباج، وإخراج الفودكا لرجل الأمن، حتى يتأكد من أنه لا شيء آخر معدني هناك في الهاندباج، قبل أن يسمح لي بالمرور. وهي مسألة خطيرة بالنظر إلى أن باكت الإمبرليف المخلوط بالمخدرات، كما تعلم، كان يقبع في قعر الهاندباج، فلك أن تتخيل

شعوري!

وحاسبت عند الكاشيير المصري، الذي كان يقف على قدميه ويشبه كوافير حريمي، ولا توجد أمامه أية ماكينة حسابية، بل يأخذ في عد وجمع مشترياتك مانيوال على أصابعه، ثم يأخذ منك النقود ويدسها في درج خشبي أعلاه مكتظ بزجاجات الويسكي. طلب أولاً جواز سفري، ودوَّن بالقلم الحبر الجاف أرقاماً لم أفهمها على آخر صفحة بالجواز. ثم طلب ثمانية وعشرين دولاراً ونصف، وهو يضع الزجاجة المعدنية وكرتونة الأمبرليف في كيس نايلون. ناولته مئة. فأرجع لي سبعين دولاراً، وقال: مافيش فكة معلش! فابتسمت، مضطراً والله! ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟! دولار ونصف، يعني حوالي تسعة جنيهات مصرية شفطهم في كرشه! ولو هو واقف ست أو سبع ساعات في الوردية، ودخل عنده كام ألف مصري وخواجه مسافرين، وأخذ من كل واحد دولاراً ونصف، أي تسعة جنيهات مصرية، شوف انت بقى وقفته دي تكسبه كام في اليوم الواحد!

خرجت. ووضعت الكيس في الهاندباج. وأعدت حملها على كتفي. ومع ذلك لم أشعر بأنها ثقيلة. ومشيت حتى مكان الكراسي. وجلست على مصطبة رخامية أسفل عمود رخامي حامل لسقف الصالة ومزروعة حوله بعض نباتات الظل، كانت كلها شوفليرة، وأنا أحب شجرة الشوفليرة كثيراًً لأنها عيَّاشة وتتحمل أية ظروف معيشة. وكان هناك أيضاً تراسينة. وطبعاً بوتس. وأظن أنه كان من نوع بوتس أمازون الذي أفضله.

ونادى أحدهم للوقوف صفاً للاستعداد لركوب الطائرة. فوقفنا في طابور أمام كاونتر صغير وقف خلفه مندوب عن الإر فرانس، ولواء شرطة مصري بلا كاب وأصلع وبكرش كبير، وراح يفحص جوازات سفر الركاب. وجاء دوري فأعطيته جواز سفري، وبدا عليه الاهتمام لأنه لم يكن به أية تأشيرات من أي نوع، وكان تاريخ الإصدار حديثاً أيضاً، فأخذ يتفحص الصورة الفوتوغرافية التي في الجواز، وينظر إليّ ملياً، بينما أنا مبتسم في بلاهة. وكانت تفوح منه رائحة عطر زاعق خانق مُقبض يشبه العطور التي يضعها أصحاب محلات الجزارة في القاهرة. ثم قرر أخيراً إعطائي جواز السفر، وأشار بيده بغطرسة وتعال أن أمر. فمررت. وأطلق جهاز الإنذار صفارته. فاستوقفني أمين الشرطة الواقف خلف الجهاز. وأنزلت حقيبة الهاندباج، وفتحتها، فراح يفتشها، وأخرج منها كيس السوق الحرة، وأخرج منه قارورة الدانزكا المعدنية، ورفعها عالياً ليراها اللواء أبو كرش وجميع الركاب. ونظر لي اللواء أبو كرش نظرة احتقار. وأمرني أمين الشرطة أن أرجع بضع خطوات وأنا ممسك بالهاندباج المفتوحة، وأن أمر مجدداً من تحت جهاز كشف المعادن. ففعلت. ولم يصفر هذه المرة. فوضع قارورة الدانزكا في كيسها، وناولني الكيس بإصبعين بقرف شديد كأنه كيس سمك زفر، وأشار لي بالمرور. فالتفتُ إلى سيادة اللواء أبو كرش ليأكد لي الإشارة لأنني لم أقتنع بإشارة أمين الشرطة وحدها، فوجدته قد تجاهلني تماماً، ربما لأنني فزت باحتقاره لأنني شارب خمرة أو شيء من هذا القبيل، وانهمك مع ركاب آخرين، فقنعت عندئذ، مضطراً،

بإشارة أمين الشرطة وحدها، ومشيت.

ودخلت إلى ممر الركاب، وهو نفق طويل نسبياً، ومضاء إضاءة جيدة، يصل ما بين صالة الركاب في المطار وباب الطائرة. وهو بديل عن الباصات التابعة للمطار التي أتذكر أننا كنا نستقلها وأنا صغير في مطارات القاهرة وأثينا وفالِتا وطرابلس، وتحملنا من صالة السفر، إلى سلم نصعده على أقدامنا من تحت الطائرة.

ودخلت من باب الطائرة، وكان الكابتن الطيار في استقبالنا، وبعض المضيفات الفرنسيات الحلوات الممشوقات القوام، اللاتي كن يرتدين بلوزات سماوية، وجيبات كحلية قصيرة نوعاً ُتظهر ركبهن الرائعة، ومنديل بشعار الشركة حول الرقبة، وكانت رائحتهن جميلة، وكان كل شيء رائعاً. وفعلت مثل ما فعله المسافر الذي قبلي، فناولت إحدى المضيفات تذكرة الكرسي الخاص بي، فأشارت إلى ممر من الممرين داخل مقصورة الركاب.

وفي بداية الممر الذي أشارت إليه المضيفة، كان هناك ستاند كبير عليه عدة جرائد فرنسية، التقطت منها اللموند، وسرت بين صفوف المقاعد وأنا أحمل حقيبة الهاندباج السوداء في يد، وفي اليد الأخرى تذكرة الطائرة والتذكرة المكتوب عليها رقم مقعدي. كنت في منتهى السعادة وأنا غير مصدق بأنني نجحت فعلاً في الذهاب إلى تولوز، بعد أن كان الأمر مستحيلاً. وكانت هناك

نغمات خافتة مهدئة للأعصاب تنساب في مقصورة الركاب، وكانت رائحة الجو نقية ومعقمة ومنعشة.

وكانت الطائرة أحد طرز الإرباص الواسعة؛ في الوسط أربعة كراسي متلاصقة، تمنيت من أعماق قلبي ألا أجلس على أحدها، خصوصاً في كرسيي المنتصف، ثم، على يمين الممر كرسيان، وعلى اليسار مثلهما. ولاحظت أن الركاب، ومعظمهم من المصريين، قد دخلوا إلى الطائرة، وجلسوا، كل في ترتيب ونظام، بلا أية فوضى، وكان من حسن حظي أن العنصر المصري قد تنازل عن أحد خصائص شخصيته القومية العبقرية في المكان، وفي الزمان، وفي الفوضى. وتذكرت ما شهدته وأنا طفل صغير أثناء السفر مع أبي وأمي وأختي في رحلات الترانزيت من القاهرة إلى طرابلس، مروراً بأثينا أولاً، أو فالِتا، والفوضى التي كان الركاب المصريون يحدثونها عند ركوب الطائرة أو النزول منها، والهرج والمرج في ممرات مقصورة الركاب.

وتذكرت أيضاً أن محب، وهو كثير السفر وركوب الطائرات، طالما اشتكى من فوضى المصريين في الطائرات؛ وخصوصاً تلك التي تحدث عند العودة إلى مصر، لا عند السفر منها، وتبدأ تلك الفوضى من على أرض المطار الأجنبي الذي يغادر فيه المصريون إلى القاهرة، وتقوى وتشتد عندما تدخل الطائرة في الأجواء المصرية؛ من وقوف وتنزيل الهاندباجات أثناء هبوط الطائرة، وتصل حد التدافع بالأيدي عند النزول من

الطائرة، وكأنهم لا يطيقون صبراً على استئناف الفوضى والتلوث والقبح، وكل ذلك نتيجة تسرب فيروس الفوضى القومي الحميم المعبأ في الأجواء المصرية الحميمية إلى الجميع، عندها يُشاهد المرء منظراً أجارك الله، وكأنه في أحد أتوبيسات الأقاليم!

ووجدت مقعدي قرب منتصف الطائرة، وكان يحمل رقم ثلاثة وسبعين، وكان إلى جوار الممر، بينما الكرسي الذي بجانب النافذة كان خالياً. وضعت حقيبتي السوداء في كابينة الأمتعة اليدوية أعلى رأسي، وأغلقت درج الكابينة، ثم جلست على الكرسي المريح المنجد بقماش أزرق جديد، ووضعت الجريدة في الشبكة الحاملة المخرمة في ظهر الكرسي الذي أمامي، وشعرت شعوراً جميلاً، وكأن الدنيا قد بدأت أخيراً تضحك لي، وأنني على أعتاب تحقيق كل الأحلام. ضغطت على زر في المسند الأيسر للكرسي، فرجع قليلاً إلى الخلف، فأرحت رأسي على قمته. وحمدت وشكرت في سري، ورحت أفكر بأن نجاحي في السفر هو معجزة، معجزة بكل المقاييس!

الرحلة

صوبت نظري من شباك الطائرة، وشعرت بدهشة كبيرة من منظر مصر من السماء. كانت صحراء جرداء صفراء صفاراً ترابياً رصاصياً منفراً مقبضاً مزعجاً! مع شريط أزرق ضيق للغاية من مياه النيل، لا يبعث على الراحة، بقدر ما يؤكد على حقيقة صحراوية وجفاف مصر! وقلت في نفسي: صدق هيرودوت، بالرغم من أنه لم تكن هناك طائرات في زمنه ليرى هذا المشهد، فمصر فعلاً هبة النيل، ولولاه لما كانت.

وبدأت بعض المضيفات في شرح إجراءات السلامة والطوارئ، وكيفية استخدام كمامات الأكسجين التي ستهبط من فوق رؤوسنا من سقف الطائرة في حالة الطوارئ، ومكان الأبواب التي سنقفز منها إن وقعت الطائرة في البحر، وكيفية استخدام سلم الطوارئ المطاطي المنفوخ للنزول في قوارب النجاة، وكل تلك الأشياء، بحركات البانتومايم، أو لغة الإشارة إن أردت، وهن يقفن في ممرات مقصورة الركاب الطويلة. ولاحظت أن المضيفات اللاتي يقمن بحركات الإشارة الشارحة لإجراءات السلامة تلك، قد أخذت معظمهن الجلالة، فرحن يتراقصن، أو هكذا بدون لي على الأقل. وكنت ألاحظ في مترجمي لغة الإشارة للصم والبكم نفس الميل للتراقص عند الترجمة، خصوصاً عندما تشتد وتحتدم عملية الترجمة، وكأن في لغة الإشارة إغواء لا يقاوم للرقص والتمايل والمبالغات الإيمائية. وكنت أتذكر تلك الحركات والإشارات، والشرح البانتومايمي لإجراءات السلامة من أيام الطفولة التي كنت أركب فيها الطائرات مع أبي وأمي وأختى. وكنت أحبها كثيراً وأسر

لرؤيتها، فحالما تراها تقول لنفسك: ها قد بدأت للتو رحلتنا على الطائرة! واستعدت تلك المشاعر الجميلة من أيام الطفولة حين كنا نعد السفر بالطائرة أعظم مغامرة في الدينا.

وكان الطيار ما يزال يقوم بمناوراته للصعود بالطائرة إلى أعلى الطبقات في السماء، تلك المناورات التي أتذكرها هي أيضاً منذ أيام الطفولة وطائرات طرابلس-أثينا، أو فالِتا-القاهرة. وهي مناورات يقوم فيها الطيار برفع أحد جوانب الطائرة إلى أعلى، حتى تميل ميلاً شديداً وتشعر بأن رأسك في زاوية متوازية مع الأرض من تحتك. ثم يقوم برفع الجانب الآخر، فتميل الطائرة في الاتجاه المضاد، وهكذا يتم رفع جسم الطائرة إلى أعلى حتى يستقر في المسار المقرر الذي ستتخده الرحلة. وكان شعور الانقباض والانزعاج يزداد كلما مال جسم الطائرة إلى الأراضي المصرية الصحراوية تحت هناك في الأسفل، لأنك حينئذ تكون أقرب ما يمكن إلى ذلك المنظر المنفر، وتمتلئ نافذة الطائرة بذلك اللون الترابي المقبض، ولولا حب الاستطلاع وإثارة مغامرة السفر والاكتشاف، لأغمضت عينيّ كلما مالت الطائرة وقربتني أكثر من الصحاري المصرية. ولك طبعاً أن تتوقع العكس، ويكون توقعك صائباً، فعندما تميل الطائرة إلى الجهة المعاكسة، فتمتلئ نافذتها بمنظر السماء الزرقاء والسحاب الأبيض الذي تخترقه الطائرة، لابد وأن يشعر المرء بشعور منعش ومرطب ومريح، أجمل حتى من إحساسك وأنت تحت الدش بعد ظهيرة قائظة.

وهكذا فأنت ترى أن أغانينا الوطنية تبالغ كثيراً حين تروح تتغنى بجمال مصر والطبيعة والريف المصري وكل تلك الأشياء التي تكذبها الوقائع العينية والبصرية المؤكدة. على قلة تلك الأغاني، والحق يقال، فالأغراض السائدة في أغانينا، ومنذ وقت طويل جداً، هي الحب والوصال والهجر والغيرة، ومؤخراً الانتقام، خصوصاً الانتقام النسوي من الرجال الغادرين، وكل ذلك. حتى أن أغاني مثل (شمس الأصيل) لأم كلثوم، أو (فنجان شاي مع سيجارتين ما بين العصر) والمغرب للموجي، أو معظم أغاني الرحبانية، تقف متفردة متميزة متعالية على جل تراث أغانينا العربية.

وبينما كان اللون الترابي الرصاصي الهبابي يملء عينيّ من نافذة الطائرة كلما مالت على سيفها، أو على جانبها إن شئت، استوقفتني مرة أخرى مفارقة الاسمين: القاهرة تولوز! والتي فطنت لها منذ عدة أيام بالصدفة في إحدى لحظات التأمل وأنا أراجع تذاكر السفر التي بين يدي. فكلمة: تولوز بالإنجليزية هي فعل الخسارة والضياع؛ تولوز = يخسر، ويضيع. فالقاهرة تولوز؛ إذن، تعني: القاهرة تخسر، والقاهرة تضيع. وفي حالة العودة من تولوز إلى القاهرة تصبح: تولوز القاهرة؛ أي أن تخسر أنت القاهرة، أو أو تضيعها. يا له من تركيب لغوي، ويا لها من مفارقة صائبة! رمية من غير رام، كما يحب عماد فكري دائماً أن يقول. ورغم أن القاهرة تولوز جداً، وهذه حقيقة شارقة كالشمس، إلا أننا مع ذلك لا نحب أبداً أن تولوز القاهرة، فهي بلدنا ونحن نحبها مهما حصل وكل تلك الأشياء.

وقمت بحركة، أرجو أن لا تثير اعتراضك، وأرجو أن لا تكون من أولئك الذين تستدعي فيهم مثل تلك الحركات إحساسهم المرهف بالقانون والعدالة والنظام والأشياء التي من هذا القبيل. فقد قمت يا رفيق من مكاني من على الكرسي المجاور للممر، وانتقلت إلى الكرسي المجاور للشباك. من رقم 73 إلى رقم 72. معذرة، ولكن الكرسي كان شاغراً. وشاغر يعني فارغ وليس به أحد. فنحن لسنا في قطار القاهرة-الإسكندرية حتى يتوقع المرء أن الكرسي الشاغر هو لراكب سوف يصعد من بنها أو طنطا أو دمنهور. فالشاغر في الطائرة يعني شاغر إلى الأبد. أي أبد زمن الرحلة. فالطائرة لن تتوقف في السكة لكي تحمِّل ركاباً وواحد مطار شارل ديجول يا افندية واحد مطار شارل ديجول يا حضرات! وهكذا فأنت ترى أن مفهومي لاتباع القانون والنظام وكل تلك الأشياء هو أنها في بعض الأحيان تكون علامة غباء منقطع النظير، وعلامة ضعف أيضاً، لا قوة. بمعنى أنك قد تخاف من لوم المضيفة وإحراجها إياك لكي تعود وتجلس في الكرسي المخصص لك. ولكن يا عزيزي المضيفات لسن بهذا الغباء، فهن ببساطة يعلمن أنك ستكون أسعد حالاً في الرحلة وأنت في الكرسي المجاور للشباك، خصوصاً وأن أحداً لن يضار؛ هذا كرسي شاغر إلى نهاية الرحلة!

وانتهت الأراضي المصرية سريعاً. ودخلنا في مجال البحر الأبيض المتوسط. وكان الجو الصحو بالخارج يسمح برؤية ممتازة لسطح البحر. ولأول مرة أرى البحر بهذا الصفاء والوضوح من هذا العلو. كان منظراً بديعاً! ولا أظنني أتذكر أنني

قد رأيت البحر من نوافذ الطائرات وأنا صغير. ربما لأننا كنا نسافر ليلاً، أو لأن الجو كان دائماً ملبداً بالغيوم ولا يسمح بالرؤية، أو لانشغالي وانبهاري بركوب الطائرة ومقصورتها واستعراض الركاب ومراقبتهم، ففاتتني رؤية الأشياء من شبابيك الطائرات.

ولفت نظري جداً منظر الأمواج البيضاء الكثيرة في البحر الأبيض المتوسط. هل لهذا السبب يسمونه: الأبيض؟! لا أدري. ولكن، ومن هذا العلو الشاهق في السماء، كانت الأمواج، برغم أنها كانت ولا شك تتحرك بسرعة كبيرة في الأسفل، تبدو ثابتة ثباتاً مطلقاً وكأنها صورة فوتوغرافية، بلا أدنى حركة. غريب فعلاً!

مددت يدي وفتحت الجراب القماشي المشبوك بظهر الكرسي الذي أمامي، والذي وضعت به اللموند، ووجدت هناك كتيباً صغيراً ملوناً ومصوراً، يشرح بالتفصيل كيفية التصرف في حالات الطوارئ والحوادث التي يمكن أن تقع للطائرة، ومكان وكيفية استخدام كيس القيء في حالة الشعور بالرغبة في التقيوء، وأشياء أخرى من هذه القبيل. وكنت وأنا طفل أرى نفس هذا الكتيب، في نفس المكان، وبنفس الرسومات الإيضاحية، بل وإن كان لدى أحد ما أرشيفاً لمثل هذه الكتيبات، فأنا متأكد، من أنه سيجد أن الرسومات هي هي، وبنفس الألوان، وأن العبارات الإيضاحية هي بنفس الأسلوب والترتيب.

وقربت الكتيب الصغير من أنفي وهو مفتوح على منتصفه وشممته، فملئت أنفي ورئتاي على الفور رائحة الحبر المميزة والورق المصقول للمجلات المصورة الفاخرة، تلك التي كنت أتشممها في الطفولة من مجلات الأطفال فاخرة الطباعة التي كان يأتينا بها أبي في طرابلس وهو عائد من عمله. مجلة (ماجد)، ومجلة (الصقر). ومجلة ليبية للأطفال ما زلت أذكر اسمها: (الأمل)، وكنا نرسل إليها صورنا، فتنشرها في باب أصدقاء للتعارف، مع عناويننا البريدية، وأشياء من هذا القبيل.

كما وجدت أيضاً في جراب الحمل بظهر الكرسي الذي أمامي لفافة من النايلون الأزرق الملكي عليها شعار الإر فرانس، ففتحتها، ووجدت بها: سماعة برتقالية للأذنين، وقلم حبر جاف أزرق ملكي على بطنه وطربوشه شعار الإر فرانس، وغمامة قماشية زرقاء توضع على العينين في حالة الرغبة في النوم، وسدادتان للأذنين من مادة تشبه الإسفنج برتقالية اللون، وهناك تعليمات بكيفية استخدامها؛ بأن تضغط الواحدة بين أصابعك حتى تنكمش تماماً، ثم تحشرها في تجويف الأذن، وتتركها لثوان وهي سوف تتمدد من تلقاء نفسها لتأخذ شكل تجويف الأذن من الداخل فتغلقه تماماً. وجربتها ووجدتها عظيمة فعلاً، وتمنع وصول أقرب الأصوات على نحو سحري، وكان الغلاف الموضوعة فيه السدادتان مكتوب عليه أنها قابلة للاستعمال لمرات عديدة، وحاصلة على براءة اختراع، وإنتاج شركة اسمها (نورث سيفتي)، مقرها الرئيسي في كندا، ولها مقر آخر في الولايات المتحدة الأمريكية، والجميل في الأمر، إنه كانت هناك ورقة

داخل كيس الإر فرانس، تخبرك بصراحة بأن كل تلك الأشياء هي ملكك، وتستطيع الاحتفاظ بها بعد انتهاء الرحلة إن أردت.

ومن المهم أن تعلم أن شركات الطيران تضيف على سعر تذكرتك وأنت تشتريها، لا ثمن الطعام الذي تقدمه لك فقط، وإنما أيضاً أدوات المائدة التي تستعملها سيادتك، وأيضاً سماعات الأذن التي تستخدمها في المقصورة للاستماع إلى الأغاني والموسيقى، بل وأي شيء آخر تستعمله داخل الطائرة. وبالتالي يكون قانوناً وعدلاً وإنصافاً أن تأخذ معك وأنت مغادر للطائرة أدوات المائدة، والأكواب البلاستيكية، والسماعات، وكل شيء آخر تستعمله داخلها، بما في ذلك قطعة الصابون في التواليت، إن أردت، ما دمت سيادتك قد دفعت ثمنها بالفعل.

وأذكر مرة وأنا طفل، وكان هناك مشكلة ما لم أعد أتذكر كنهها بالضبط منعتنا من السفر من أثينا أو فالِتا، لا أذكر من أيهما، إلى طرابلس، ربما لإضراب الطيارين أو لمشاكل لوجستية أخرى، المهم أننا اضطررنا أخيراً إلى العودة على متن رحلة الخطوط الجزائرية، والتي كانت آتية لا أدري من أين، وحطت في أثينا أو فالِتا، كترانزيت أول، وكانت ستحط في طرابلس كترانزيت ثان، قبل أن تتجه أخيراً إلى الجزائر العاصمة في النهاية. كانت أغرب طائرة يمكن لك أن تستقلها في حياتك! حرفياً يا زعيم! كانت، أولاً، ضيقة للغاية. وثانياً، حين دخلنا إلى مقصورة الطائرة وجدناها محملة بالركاب بالفعل وكانوا يشغلون معظم الكراسي، فاضطررنا للوقوف في ممر الطائرة! أنا لا

أمزج، صدقني، كنا نقف حرفياً في ممر مقصورة الركاب، مثل أي أتوبيس نقل عام في مصر! ومن يومها وأنا لدي انطباع سيء جداً عن الخطوط الجوية الجزائرية. لكن ما هوَّن المسألة بعض الشيء، وصحح الانطباع قليلاً، هو دماثة المضيفات الجزائريات وأدبهن العالي. تصور أن طاقم الضيافة، لما رأى أنه من الصعب توزيع الوجبات على الركاب في ظل هذا الزحام، والبعض جالس، والبعض الآخر واقف، مما تتنافى معه عدالة الموقف تماماً؛ فكيف سيتناول الواقفون طعامهم؟! عندها امتنعت المضيفات عن توزيع الوجبات، حتى ظننا أنهم بخلاء أيضاً في شركة الخطوط الجزائرية! ولكن المفاجأة أن المضيفات وقفن على باب الطائرة ونحن ننزل منها في مطار طرابلس، ورحن يوزعن على كل منا؛ الصغار قبل الكبار، وجباتنا في الصواني البلاستيكية المعروفة لشركات الطيران، والمغلفة بالبلاستك الشفاف، مع كامل أدوات المائدة، حتى نتناولها براحتنا وقتما نريد، فانظر إلى الشياكة!

وأتذكر أننا كنا نحب كثيراً الاحتفاظ ببعض أدوات المائدة من شركات الطيران التي نستقل طائراتها. وأختي ما يزال لديها في بيتها بعض أدوات المائدة تلك من أيام الطفولة؛ من شركات الأولمبك، وإر مالطا، والخطوط الجوية العربية الليبية، ومصر للطيران. أطباق ميلامين صغيرة ورشيقة من صنع اليابان وإنجلترا، وملاعق، وشوك، وسكاكين ستانل ستيل عليها شعارات شركات الطيران، أيام ما كانت أدوات المائدة في الطائرات من الستانلس ستيل، قبل 9/11، واقتصار أدوات المائدة في الطائرات

من أيامها على البلاستك، بل والنوع الرقيق منه، الغير قابل للاستخدام كسلاح على أي نحو.

إذن، الإر فرانس قد ريحت بالها واشترت دماغها، وتوصلت أخيراً إلى أنه ما دام الركاب يحبون الاحتفاظ بأشياء من الطائرات معهم، وهذا شيء متأصل في طبيعة وغريزة المسافر بالطائرات، خصوصاً وإن هذه الأشياء ملكهم، ودفعوا ثمنها بالفعل، فلنجعل إذن الأمر رسمياً، ولنقل للركاب إن السماعات وغمامات العين وسدادات الأذن هي من حقكم إن أردتم الاحتفاظ بها، وآهي تبقى بجميلة!

وبدأت شاشات التلفزيون المعلقة في سقف الطائرة تعرض فيلماً فرنسياً حديثاً، فسارعت بوضع طرف سماعات الأذن في المقبس المدمج في مسند المقعد، ووضعت السماعتين في أذني، ورحت أضغط على زر القنوات في مسند المقعد، حتى جاءت القناة الصوتية للفيلم.

كان فيلماً تجارياً لم أره من قبل. عرفت من التترات أن اسمه (الشارب). بطولة ممثلين لا أعرفهم. ومن إخراج مخرج تجاري لا أعرفه. ولم أكن أحب كثيراً الأفلام الفرنسية، باستثناءات قليلة لبعض المخرجين الكبار؛ كجان بيير ملفيل، وجان رينوار، وروبير بريسون، وجودار، وبعض شغل مارسيل كارنيه. آه، وطبعاً جاك تاتي، أنا آسف يا ريس!

وبقدر ما أتذكر، لم تكن السينما الفرنسية في تلك الأعوام قد

صنعت أي شيء مهم. اللهم إلا شغل الأخوين داردن؛ جان بيير ولوك. وبالرغم من كونهما بلجيكيان، إلا أنه يمكننا أن نحسبهما على السينما الفرنسية تجاوزاً ومن باب الصدر الرحب. وكان الأخوان داردن قد صنعا في العام الماضي فيلماً اسمه (الطفل)، وحصلا به على السعفة الذهبية لكان. لا بأس به على الإطلاق. رأيته على سي دي منذ عدة أشهر. شاب في العشرين متزوج من فتاة في الثامنة عشرة، ويروح ويبيع طفلهما الرضيع، دون علم زوجته، لإحدى العصابات التي تتاجر في الأطفال في السوق السوداء للتبني، وعندما تكتشف زوجته الأمر يقول لها بإنهما يستطيعان إنجاب طفل آخر، لكنها تتعارك معه، فيحاول استرداد الرضيع من العصابة في النهاية وأشياء من هذا القبيل.

ومن السينما الفرانكوفونية الحديثة أيضاً، كنت أحب الفيلم البلجيكي الذي صُنع منذ عدة سنوات (الإنسان يعض الكلب). والذي كان يستوحي أسلوب الفيلم التسجيلي؛ وكأن مجموعة من صانعي السينما الوثائقية يحاولون توثيق الحياة اليومية لأحد القتلة المتسلسلين المهووسين بالقتل. وكان هذا القاتل المتسلسل المهووس قد سمح لفريق الفيلم بتصوير عمله وهو يقتل ضحاياه ويتخلص من جثثهم.

تابعت الفيلم قليلاً، من باب حب الاستطلاع، وفقدت اهتمامي بعد عشر دقائق أو شيء من هذا القبيل. إن كنتَ سينمائياً محترفاً مثلي، فيكفي عشر دقائق لتعرف أصل الفيلم وفصله، وإلى أين هو ذاهب وكل تلك الأشياء. كانت الحبكة تدور حول رجل في

منتصف العمر، ذو شارب، وهو ذو شارب منذ أيام مراهقته، ويقرر فجأة أن يحلق شاربه، فتقول له زوجته إنها لن تتعرفه إن حلق شاربه، لإنها لم تره من قبل بدون شارب، ولا تتخيل أن ترى شكله بلا شارب، وتترجاه أن لا يحلق شاربه. لكنه يحلق شاربه فعلاً. وتكون المفاجأة أن الزوجة لا تلاحظ أي شيء غريب على الإطلاق. ثم يذهبان لتناول العشاء عند بعض الأصدقاء، الذين لا يلاحظون أي تغيير على الرجل الذي حلق شاربه. حتى أن زملاءه في العمل أيضاً لا يلاحظون أي تغيير في هيئته. وحين يقول للناس بإنه قد حلق شاربه، يفاجئ بأن الجميع يُكذبونه، ويؤكدون له بأنه لم يكن لديه أي شارب في يوم من الأيام على الإطلاق، وما شابه ذلك.

ولهذا فقدت اهتمامي بالفيلم سريعاً. وكان لدي انطباع سيء عن السينما التجارية الفرنسية عموماً. لأن الفيلم الفرنسي الشعبي قد يبدأ بفكرة مهمة، ثم يروح صانعوه يمرغونها في الوحل، حتى يصلوا في النهاية إلى حلول توافقية أو إنسانية أو سلمية أو تصالحية وكل ذلك. ليس لدى صانع الفيلم الفرنسي الشعبي نزاهة وحدة وجرأة صانع الفيلم الشعبي الأمريكي الذي يبدأ بفكرة تافهة ثم يروح يتمرغ في التفاهة ويتمرغ في التفاهة ويزايد على تمرغه في التفاهة أكثر وأكثر، ويفرط مزيداً من الإفراط في التمرغ في التفاهة. لا، إن الفيلم الشعبي الفرنسي يحاول مسك العصى من المنتصف، ولذلك يبدو أكثر انتهازية من الفيلم الشعبي الأمريكي. إن انتهازيته تكمن في تهافته على الفوز بتقدير النقاد من ناحية، وبإيرادات الشباك من ناحية أخرى.

وكانت لدي، وما زلت، تلك النظرية عن الأفلام الشعبية الأمريكية. بل عن الأفلام الشعبية بصفة عامة، أمريكية أو مصرية أو غيرهما. وهي أنك لا يمكن أن تتعرف على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والقيمية وكل تلك الأشياء من أفلام الدرجة الأولى، لأنها تكون أفلام فنية عالية المستوى مرتبطة بالهموم والهواجس الشخصية للفنان صانعها، وبالتالي فهي أفلام ذاتية، قلما تعكس الحال في المجتمع. فأنت مثلاً لا يمكن أن تتعرف على سمات المجتمع الإنجليزي، وفيما بعد المجتمع الأمريكي، في فترات الأربعينيات والخمسينيات في أفلام هتشكوك على سبيل المثال. ولا المجتمع الإيطالي في أفلام أنطونيوني. وبالتأكيد ولا أي سمة من سمات المجتمع في أفلام ستانلي كوبريك. بالرغم من أن تلك الأفلام العظيمة تعكس الروح الإنسانية وهمومها على وجه العموم والشمول في كل زمان ومكان. ولكنني أقصد أن تشاهد فيلماً لأوزو، أو ملفيل، أو لنش، فتفهم منه المجتمع الذي خرج منه هذا الفيلم، هذا غير ممكن!

على العكس، الأفلام الشعبية التي نصفها بالتافهة، هي التي تفعل ذلك. يمكنك أن تشاهد أي فيلم تافه من الأفلام المصرية أو الأمريكية، فتتعرف فوراً على السمات الاقتصادية والسياسية والثقافية والقيمية للمجتمع. خذ مثلاً الأفلام المصرية عندنا في أعقاب الانفتاح. صورة الانفتاح الساداتي السداحي مداحي فيها هي صورة سلبية دائماً وأبداً، حتى في أكثر تلك الأفلام هبوطاً وانحداراً فنياً؛ أي في سينما المقاولات التي سادت في فترة الثمانينيات من القرن الماضي.

وربما يعود ذلك في جزء منه إلى أن الأفلام الشعبية التجارية، بحكم تكوينها، تتأسس في بنيتها التحتية على الخبرة الجماعية لنفس فئات الجماهير التي تستهدفها تلك الأفلام. فتتبنى، مجبرة لا مخيرة، رأيها العملي في الحياة وفيما يحدث من حولها. إنه الشرط الضروري لكي يصل الفيلم الشعبي إلى الجمهور وينال رضاه. وتلك الخبرة الجماعية هي شيء أكبر وأقوى من خبرة أي فرد من صناع الفيلم بمفرده؛ سواء أكان ممثلاً أو منتجاً أو مخرجاً. ولا يستطيع أي عائق ولا حاجز أن يقف في وجه التسرب الحتمي لتلك الخبرة الجماعية إلى الفيلم الشعبي.

الأكثر من ذلك، أن أفلام الدرجة الثانية الشعبية، ربما تكون قادرة حتى على التنبؤ بأحداث مجتمعية جسيمة. من قبيل، مثلاً، تنبؤ بعض الأفلام الأمريكية بهجوم 9/11 على الولايات المتحدة. في فيلم (الأحد الأسود، أو الأحد الدامي، 1977)، تحاول الإرهابية العربية داليا تلغيم منطاد كبير، والطيران به فوق ملعب كرة قدم في مدينة ميامي، ليصطدم بالمدرجات المكتظة بالمتفرجين، مستهدفة قتل 80 ألف متفرج يحضرون المبارة النهائية في دوري كرة القدم الأمريكية. في 11 سبتمبر 2001، سيتكرر نفس السيناريو على أرض الواقع الأمريكي، ولكن التسعة عشر إرهابياً الحقيقيين سيلجئون إلى استعمال طائرات مدنية بدلاً من المنطاد المدني. أجب عن السؤال التالي: هل كان الفيلم نبؤة بأحداث 9/11 قبل وقوعها بأكثر من 24 عاماً؟

وفي فيلم (دلتا فورس، 1986)، يقوم إرهابيون عرب

باختطاف طائرة ركاب مدنية أمريكية وتعذيب كل من فيها، خصوصاً من يحملون منهم أسماء يهودية. وفي فيلم (الموت ولا العار، 1987)، يقوم زعيم الإرهابيين العرب بإصدار أوامر لأتباعه الجهاديين بتفجير مبنى السفارة الأمريكية، عن طريق اقتحامها بسيارات ملغومة بالمتفجرات. عُرض الفيلم الأخير في أمريكا، وفي العالم أجمع، قبل 11 سنة كاملة من وقوع تفجيرات سفارتي أمريكا في كينيا وتنزانيا عام 1998. أجب عن السؤال التالي: هل كانت تلك أيضاً نبوءة من نبوءات هوليود؟ هل كانت نفحة من نفحات الحدس الهوليودية؟

من يسترجع أفلام هوليود في تلك الفترة، أي بعد انتصار العرب في حرب اكتوبر، وإلى ما قبل أحداث 11 سبتمبر 2001، يلاحظ أنها تتضمن الكثير مما يمكن اعتباره نبوءات بما سيحدث فيما بعد من قبل جماعات الإرهاب الإسلامية. ويصبح من قبيل المعتاد في أفلام هوليود الشعبية، أن يقف زعيم الإرهابيين الإسلاميين مرتدياً العقال العربي التقليدي، وبعد أن اشترى أسلحة من السوق السوداء الأمريكية لاستعمالها في أعماله الإرهابية، ويخطب في أتباعه قائلاً، في فيلم (إرنست في الجيش، 1988): هذا الصاروخ الذي يحمل قذيفة من البلوتون، سنتمكن به من إخضاع الكفار، وسنحكم به العالم العربي!

وقد تناقشنا طويلاً، محب وأنا، حول هذه الفكرة. وانتهت مناقشاتنا إلى قلب فكرة التنبؤ الهوليودي رأساً على عقب. وقد استعان محب في المناقشات بمفهوم مستقر في العلوم الاجتماعية

ألا وهو مفهوم: التنبؤ المحقق لذاته. وهو يعني أن يطلق شخصاً أو مؤسسة ما توقعاً، وبالرغم من استحالة حدوثه في ظل استمرار الشروط الطبيعية، إلا أنه يتحقق فعلاً على أرض الواقع، لا لشيء، إلا بسبب أن التنبؤ قد تم إطلاقه من الأساس! تخيل معي مثلاً أن أحد مقدمي التوك شو الشهيرة في مصر، قد خرج علينا ذات ليلة، وتنبأ بحصول أزمة تموينية كبيرة في السكر مثلاً، وذلك على الرغم من توافر السكر بمخزونات كبيرة وكافية بل وفائضة في البلد وعلى نحو يستحيل معه حدوث أزمة في الأسواق من نقصه. تخيل إلى ماذا يمكن أن يؤدي إطلاق هذا التنبؤ؟! سيؤدي إلى تكالب المواطنين على شراء كميات ضخمة من السكر لا يحتاجونها، بهدف التخزين، خوفاً من نقصه في المستقبل القريب، أو حتى للمتاجرة به في السوق السوداء حال شحه. وهذا التكالب على شراء كميات كبيرة من السكر سيؤدي إلى نفاد السكر من الأسواق، وبالتالي حدوث أزمة نقص كبيرة في السكر، فيتحقق التنبؤ الذي أطلقه المذيع التلفزيوني الشهير، بالرغم من كذبه في البداية. هذا ببساطة سر تنبؤات هوليود بما حدث في 9/11، وما قبلها وما بعدها من أحداث إرهابية إسلامية، والتي أطلقتها في البداية على نحوكاذب ثم تحققت!

فقوة السينما معروفة في الإيحاء بأفعال وبردود أفعال، هذا أمر طال الحديث عنه وبات معروفاً ومستقراً، وهناك الكثير من الأمثلة التاريخية عن أفراد ومجموعات قاموا باقتباس سيناريوهات سرقة أو نصب أو اعتداء أو قتل من أفلام سبق أن شاهدوها، فوسيلة التسلية الشعبية في عالمنا اليوم قد تصبح

مهرجاناً للتماهي والانعتاق من الواقع المرفوض للبعض، وفي هذه الحالة، يتلقف الإرهابي الإسلامي الفكرة من الفيلم الهوليودي، ويمضي بها قدماً في مشروعه التدميري، خصوصاً مع عجزه عن التفكير والابتكار المستقل، فتصبح أفلام الإرهاب الأمريكية جزءًا من إطاره المرجعي، وتفتح أمامه عرضاً مجيداً لأوهام البطولة، فيتماهى مع هالتها، آملاً أن ترفعه إلى مستوى أبطال هوليود. فالبنسبة لنفسية مريضة، وشبه أيديولوجية مشوهة، وعقل مشوش يفتقد للتمييز السليم، تصبح أفلام هوليود عن الإرهاب الإسلامي أو العربي شكلاً بالغ الإيحاء ومغرياً بالمحاكاة، فيكرر الواقع السينما، بنفس الطريقة التي يكرر بها التاريخ نفسه، أي في صورة مأساة أكثر دموية، وهنا نصبح أمام مفارقة غريبة هي أنه ربما قامت هوليود وهي ترفع فزاعة الإرهاب العربي بعد انتصارنا في حرب أكتوبر، بولادة العدو الذي كانت تبشر به كذباً، وكأنها خانت نفسها بنفسها، واخترعت عدوها بنفسها، فمشهد الإرهاب قد أدى في النهاية إلى إرهاب المشهد، وأعاد الإرهاب في الصورة السينمائية تغذية الإرهاب في الواقع. كانت النتيجة التي توصلنا إليها، أنا ومحب، بعد نقاشات طويلة حول هذا الموضوع، أنه لا يمكن قراءة أفعال الإرهاب الإسلامي الآن بمعزل عن الصورة التي ألحت هوليود طويلاً على زرعها في وعي المشاهدين في كل أنحاء العالم عن الإرهابي الإسلامي.

يحاكي إذن الإرهابي الفيلم الهوليودي، ويجد لذته في دفع الأمور إلى أقصاها، وبدلاً من النهاية السعيدة في الفيلم الأمريكي،

يغيظ الإرهابي العالم، ويصر على أن يتجاوز الواقع الخيال، فيمنح العنف الهوليودي علاوة إضافية، ويقوم بإيقاع الكارثة الحقيقية، لتأتي المأساة الإرهابية الواقعية أشد هولاً من المأساة الفيلمية الأمريكية!

ولما زهدت في استكمال مشاهدة فيلم (الشارب)، قلت لاستمع إلى بعض الموسيقى من إذاعة الطائرة، فرحت أضغط على القنوات الصوتية في مسند الكرسي، حتى بدأت أستمع إلى موسيقى كلاسيكية، بضع لحظات، وتبينت فيها مقطوعة (حياة القيصر) لجلينكا. ولم أعد أتذكر في أي مجلة أو صحيفة أمريكية أو بريطانية كنت قد قرأت مقالاً عن اتهام جلينكا بمعاداة السامية. وهو ما دفعني إلى الحصول على كل ما أستطيع سماعه من موسيقاه على سي ديهات، لأنني كنت مقصراً في حقه. وهذا سبب تعرفي السريع على مقطوعة حياة القيصر، لأنني استمعت إليها كثيراً، وأعجبتني، والحق يقال، كما أعجبني معظم شغله، ولم أعثر فيه على أية معاداة لأية سامية.

وقد باتت دعوات واتهامات المعاداة للسامية لبعض الفنانين والكتاب والمفكرين والفلاسفة تثير اشمئزازي، والحق يقال. طيب ماذا تقول عن أوصاف اليهود السلبية تماماً في أعمال دوستويفسكي؟! طيب ماذا تقول عن كتابات نيتشه وهجومه على اليهود؟! نيتشه كان يُحمِّل اليهود مسؤولية التدهور الأخلاقي الذي وصلت إليه البشرية.

فعند نيتشه أن الرومانيين قد بلغوا مبلغاً من القوة والنبالة لم يصل إليه أحد على وجه الأرض، ولو حتى في الحلم. أما اليهود، فبالعكس، كانوا هم الشعب الكهنوتي الحقود الذي يملك في مجال الأخلاق الشعبية، أخلاق الدهماء والضعفاء، عبقرية لا مثيل لها. وكان الصراع بين الاثنين صراعاً وجودياً؛ روما ضد ياهودا، وياهودا ضد روما. بل إن تاريخ البشرية كلها لم يحبل حتى الآن بأهم من هذا الصراع. كانت روما تشعر أن في اليهودي شيئاً من قبيل الطبيعة المضادة لطبيعتها؛ كائناً تستبد به الكراهية للجنس البشري. وكان نيتشه يرى أنه، وللأسف، عندما سقطت الإمبراطورية الرومانية، سارع اليهود بقلب كل القيم الرومانية الأرستقراطية النبيلة: القوة، والغنى، والصحة، إلى عكسها، نكاية وانتقاماً من روما!

ولكي أضرب لك مثالاً على فكرة نيتشه بأن اليهود قد قلبوا كل القيم الرومانية رأساً على عقب؛ تخيل أن علماء الأنثروبولوجيا؛ وهو علم الإنسان حضرتك، يقولون إن الزواج، في البداية، كان يمثل إساءة في حق الجماعة، لأنه يحرم الجماعة من امرأة، ويحرم المرأة من باقي الرجال، فكان على الرجل أن يدفع للجماعة غرامة إن هو تجرأ وقرر اتخاذ امرأة بعينها له وحده دون غيره وحرم الجماعة منها، وحرمها هي شخصياً من باقي الرجال، ومن هنا فكرة المهر والبائنة. ثم يأتي اليهود ويقلبون هذا كله رأساً على عقب، فيصير القبيح حسناً، والخطيئة هي الفضيلة. هل فهمت؟!

إذن، حدث قلب للقيم رأساً على عقب، وأصبح الضعيف، والفقير، والمريض هم المثل العليا، وصارت الأولوية هي للعدد الأكبر؛ أي للديمقراطية التي يكرهها نيتشه كره العمى، لأنه يرى أن خلاص البشرية ومستقبلها مرهون بعودة وهيمنة القيم الأرستقراطية الرومانية: الصحة، والقوة، والجمال، والغنى، وأرستقراطية العدد الأقل الأكثر نبالة، وإلخ إلخ إلخ. ومن هذا المنطلق يمكن فهم العبارة الأشهر لنيتشه: الضعيف يهزم القوي. ومناداته بأن نقف في صف الأقوياء في مواجهة الضعفاء. وإذا ما قرأت، مثلاً: (ما وراء الخير والشر) للعم نيتشه، فأنا على يقين بأنك سوف تستمتع غاية الاستمتاع، لا بالأفكار الثاقبة التي تميز فكر نيتشه فقط، بل وأيضاً بالصياغات والأسلوب الأدبي الرفيع الذي حجز، عن جدارة، مكانه المرموق في مصاف الأعمال الأدبية الخالدة في تاريخ البشرية.

ونيتشه لم يكن يكره اليهود فقط، بل كان يكره أيضاً الألمان، أولاً وقبل أي أحد آخر، والإنجليز كذلك، وكان يعد الصينيين أمة من درجة متدنية في سلم البشرية، وأمم أخرى كثيرة، بل يمكنك القول إن نيتشه كان يكره معظم الأمم والأعراق التي كانت في عصره. وعمنا الكبير دوستويفسكي، هو أيضاً، كان سلافياً يكره البولنديين والألمان، بل وحتى الإنجليز، والسويسريين، والفرنسيين، وستجد هؤلاء في رواياته شخصيات منفرة أو شريرة أو مضحكة. مضحكة بالمعنى السلبي لا الإيجابي.

وأنا شخصياً لا أحب الصينيين كثيراً، إن سألتني عن رأيي.

وأعتقد أنه لو تحققت نبؤة الكثير من المحللين والخبراء في الشؤون الدولية، فحلت الصين محل الولايات المتحدة في زعامة العالم، سنكتشف أن العنصر الصيني أسوأ من الأمريكاني مئات المرات! أنظر إليهم اليوم، ألا تراهم مسؤولون عن تدهور البيئة والنظام الإيكولوجي في كل مكان على وجه الأرض؟! يستنزفون موارد أمنا الأرض، ويغرقون العالم بمنتجات رديئة سيئة الصنع. صحيح أن الجشع الياباني هو أيضاً مشهور، لكن من المستحيل أن تجد منتجاً صناعياً يابانياً سيء الصنع أو رديء الجودة، لأن اليابانيين قوم يحترمون أنفسهم وعندهم كرامة. أما الصينيون فأجارك الله! وانظر إلى ماذا يأكلون؟! الحيوانات البرية المحرم صيدها، والحشرات، والصراصير، والكلاب! الكلاب ليست للأكل يا أولاد الوسخة! مؤخراً قرأت مقالاً في الإندبندت عن أن الأفيال، ووحيد القرن؛ الذي هو الخرتيت، أو الكركدن إن شئت، أو سيد قشطة كما نسميه عندنا في مصر، على وشك الإنقراض من أفريقيا! والسبب هو الصيد الجائر لهذه الحيوانات العظيمة بسبب الطلب الصيني المتزايد على أنيابها وعاجها! حرام ده ولا حلال يا خلق يا هو! آدي العنصر الصيني يا سيدي!

كما أنني أيضاً لست مغرماً كثيراً بالسود، خصوصاً السود الذين يتباكون من العنصرية والتمييز وكل تلك الأشياء التي يستعملونها كمخرج سهل لتبرير مشاكلهم الهيكلية المتأصلة بإلقاء اللوم على الظروف والبيئة والتاريخ! وأظن أن السود أكثر عنصرية من البيض! ولديهم نفس الخطاب غير النبيه للتفوق العنصري، ونفس التعالي، ونفس مقولات الأفضلية والسبق

والأشياء التي من هذا القبيل، التي ربما هي راجعة لإحساسهم بضخامة حجم الأعضاء الذكورية لدى ذكورهم، وسخونة وضيق الأعضاء التناسلية لدى إناثهم. وأتذكر وصفاً، ربما كان لحنة أرنت، فذاكرتي تخونني كثيراً في الفترة الأخيرة، قالت فيه، لو هي حنة أرنت فعلاً: عنصرية مقلوبة! وكانت تقصد أن لدى السود، خصوصاً في أمريكا، عنصرية تجاه البيض، بأشد من عنصرية البيض تجاه السود! وعموماً العنصرية في أمريكا بلت إن. جوهر متأصل. رذيلة هيكلية. أمريكا أساساً بنيت على العنصرية، ليس فقط تجاه السود، بل أولاً وقبل أي أحد، العنصرية تجاه الهنود الحمر، السكان الأصليون. وها أنا مثلاً أحب الهنود الحمر كثيراً، وهذا دليل إن شئت على عدم عنصريتي المطلقة. إن الأمر بالنسبة لي مماثل لمسألة أن يحب المرء بعض الفاكهة والخضروات، أو الحيوانات، أو الملابس، أو الموسيقى، أو الأفلام، وهلم جرا، ويكره البعض الآخر. وعدم الاعتراف بأنك تحب بعض القوميات والأجناس والأعراق، وتكره البعض الآخر، هو عندي طفولية، وترديد ببغاوي لإكليشيهات مبتذلة بالية، ونفاق، ورياء، رياء أي نفاق أس ثلاثة! وادعاء، وجبن، وتفاهة، وعجز، واصطناع يزكم الأنوف، وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل.

وأسعدني الاستماع مجدداً إلى مقطوعات جلينكا المتتالية في إذاعة الطائرة، رغم أنني كنت قد عزفت عن الاستماع إليها مؤخراً، إلا أن السعادة بسماعها من جديد كانت تشبه سعادتك حين تعثر على أي شيء مألوف تعرفه وأنت تمر بظروف غير

مألوفة ولا تعرف على أي نحو سوف ينتهي الأمر. وكانت المقطوعات عبارة عن بعض الفالسات التي تذكرتها. وبعض المقطوعات الحالمة؛ وهو قالب موسيقي معروف في الموسيقى الكلاسيكية ويُعزف أساساً على البيانو، ويسمونه:َنكتيرن. وسبحان الله شوف كلمة انجليزي واحدة تغني عن العبارة الطويلة العريضة اللى فاتت دي إزاي! والفانتازيات؛ وهو قالب آخر موسيقى معروف في الموسيقى الكلاسيكية يقولون إن أهم ما يميزه هو التحرر من قيود الشكل والقوالب التقليدية؛ أي الحرية سيادتك. وشوف برضو كلمة إنجليزي واحدة تغني عن الشرح الطويل العريض اللى فات ده إزاي!

ولا تظن أن تلك التأملات السابقة، أو حتى السيد جلينكا وموسيقاه، قد صرفا انتباهي عن ملاحظة مضيفات الطائرة. فقد لفتت انتباهي، على وجه الخصوص، مضيفة عشرينية، كما قدرت، لأنك إن رأيتها لن تعطيها أكثر من سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً على أقصى تقدير. نحيفة، ممشوقة القوام، بجسد صبياني غلامي، وشعر أشقر داكن قليلاً ومربوط بضفيرة من الوراء على شكل حدوة حصان أكسبها مظهراً أنثوياً بالرغم من جسدها الغلامي. وزاد من أنثويتها خصلة رقيقة من شعرها تدلت من وراء أذنها اليسرى. وكانت، مثل باقي المضيفات، فوق المئة وسبعين وتحت المئة وثمانين سم طولاً. وكانت بيضاء البشرة، بوجه محمر، وكأنها شربت ثلاث أو أربع كؤوس فودكا.

ولما كانت نافذة الطائرة قد صارت الآن بيضاء تماماً من

هيمنة الغيوم على المشهد بالخارج، لأن الطائرة كانت قد أكملت صعودها، واستقرت في مسارها المقرر في السماء هناك بين الغيوم الكثيفة فوق سطح البحر الأبيض المتوسط الذي اختفى تماماً، وهو منظر جميل، ولاشك، منظر الغيوم البيضاء ذاك، والتي تشبه كثيراً كومات القطن الطبي الذي كان يصنع من كناسة العنابر في مصانع حلج القطن في المحلة الكبرى، وهي المصانع التي أمضى فيها أبي زهرة شبابه، ولكنك، بالتأكيد، سوف تمل هذا المنظر حالما تألفه، وأنت تألفه بعد بضع دقائق لا أكثر.

لذلك، انتقلت إلى الكرسي المجاور للممر، حتى ألاحظ المضيفة الغلامية الجميلة جيداً، وحتى تكون في مرمى البصر. فقد كنت أجلس ليس بعيداً تماماً عن ركن المضيفات في منتصف مقصورة الركاب، ربما على بعد ثمانية أو عشرة أمتار. وكان موقعي الآن يتيح لي مراقبة المضيفة الجميلة عن كثب. ولاحظت أنها تلبي طلبات بعض الركاب. وكانت رقيقة للغاية، وحنونة. وتضع كفها على كتف من تتحدث معه من الركاب بحميمية، وعطف. ومرت من أمامي مرة أو مرتين. فتمعنت في قوامها. وكان جسدها مثالياً بالنسبة لمعايير الجمال الخاصة بي. كانت أردافها عريضة قليلاً. وكانت ضهياء؛ أي بالكاد نبت ثدياها. شبه صدر. صدر صبياني. صدر بشاير. وراهنت نفسي، أنها تحب الإتيان من الخلف. نادراً ما خسرت رهاناً بهذا الشكل. لي نظرة في الغاويات!

وكانت ملامح وجه البنت وإيماءاتها توحي بأنها على وشك

أن تحتضنك وتقبلك بشفتيها الصغيرتين الحمراوين الجميلتين في أية لحظة، هكذا فجأة! من فرط حنانها ورقتها وعطفها. وفاجئني في حركاتها ما لاحظته من رشاقة وخفة ويسر. حتى في أيسر حركة أو التفاتة أو إشارة لها مع زملائها أو مع الركاب. وبدت لي وكأنها قد أدركت السر الخفي وراء يسر الحركة وسهولتها ورشاقتها؛ ألا وهو أن تقوم كل حركة بتحضير نفسها للحركة التي تليها. كان جسد البنت يتحرك كله، أو حتى الأجزاء منه، في منحنيات لا في خطوط حادة منكسرة، وجمال ورشاقة الخط المنحني هو في أنه، وهو يغير من وجهته، يشير إلى الوجهة الجديدة التي سيسلكها، وبالتالي، فإن الإحساس بالرشاقة هنا ينبع من لذة توقع الحركة التالية، أي من دمج المستقبل في الحاضر، أو إن شئت: من لذة إيقاف الزمن؛ من لذة التخلص المؤقت من وسواس الزمن. إحساسك بأنك في الحاضر الأبدي. بالمناسبة، كانت شخصية تشارلي تتحرك بنفس الطريقة في أفلامه، ويبدو أن تشارلي تشابلن، قد أدرك السر الخفي وراء رشاقة الحركة هو أيضاً، كما أدركته فطرياً هذه المضيفة الجميلة الغلامية العشرينية. وتمنيت، للحظة عابرة، أنا الرافض للزواج والارتباطات الرسمية بكل أشكالها وتنويعاتها، لو يسعدني الحظ بالارتباط مدى الحياة بهذه الفتاة بالتحديد؛ زوجة ورفيقة وحبيبة وصديقة.

وقلت أسلي نفسي قليلاً بقراءة اللموند، فتناولت الجريدة من الجراب القماشي المشبوك بظهر الكرسي الذي أمامي، وفردتها، وشرعت أقرأ:

* استمرار مظاهرات وإضرابات العمال ضد "عقد العمل الأول"؛ الذي يحول العمال الشباب إلى عبيد، يمكن تشغيلهم وطردهم حسب رغبة المشغل، طالما لم يبلغوا 26 عاماً بعد.

* 3 ملايين عامل في الشوارع. 700 ألف متظاهر في باريس، و 250 ألف في مرسيليا. أكبر حركة عمالية وشعبية تشهدها البلاد منذ 1968. وضواحي المدن تشهد أكبر كثافة للمتظاهرين.

* 74 جمعية ونقابة وتجمع يقدمون عريضة رفض لقانون الطوارئ إلى المجلس الدستوري، والموقعون يشيرون إلى تقاعس ممثلي الشعب في البرلمان، وخاصة الاشتراكيين، عن المطالبة بوقف العمل بالقانون.

* 97 أستاذاً جامعياً يتقدمون بطلب إلى المجلس الأعلى للدولة معترضين على القانون الاستثائي المقيد للحريات العامة ومعتبرين أنه ليس بالإمكان التحقق من ما إذا كانت الشرطة في ظل قانون الطوارئ سوف تلتزم بالحدود التي رسمها القانون. المعترضون: الحكومة تريد تعويد الرأي العام على العيش في ظل نظام استثنائي.

* وزير الداخلية ساركوزي: الوزارة متمسكة بقانون الطوارئ، لأن أعمال العنف لم تتوقف نهائياً، وما زالت تحرق ما بين 40 و60 سيارة في الضواحي كل ليلة. وهناك علاقة متداخلة بين الجريمة المنظمة والإرهاب، ونقوم كل يوم بتفكيك خلايا

نائمة، ولدينا أكثر من 5000 حالة توقيف، وحوالي 800 حكم بالسجن لشباب مشاركين في أعمال عنف من الضواحي، ونخشى أن تمتد أعمال الحرق والتكسير من الضواحي إلى قلب العاصمة وأن تتسع.

* الأحزاب اليسارية وجمعيات حقوق الإنسان تدين تصريحات ساركوزي الرابطة بين الوضع المتردي في الضواحي وبين تعدد الزوجات في أوساط المهاجرين.

* وزارة الداخلية تعمل على تعديل القانون 1905، أو "قانون العلمانية"، القاضي بفصل الدين عن الدولة، حتى يصبح بإمكان الحكومة تمويل مراكز عبادة المسلمين الذين يتلقون مساعدات من بلدانهم الأصلية لبناء المساجد. والوزير ساركوزي: نأمل أن نقطع الطريق بهذه الخطوة على الدول النافذة في أوساط المسلمين الفرنسيين، وبالتالي التحكم بما يجري وما يقال داخل تلك المساجد، وعلى الأخص مراقبة خطب الأئمة التي أشرنا مراراً إلى دورها التعبوي.

* الرئيس جاك شيراك، ورئيس الوزراء دوفيلبان، يعربان عن تخوفهما من أن يؤدي مسعى ساركوزي إلى فتح الباب على مصراعيه لكل الشرور، وبأن تستغل باقي الجماعات الدينية في فرنسا ما يريده وزير الداخلية لضبط المسلمين، لفتح كنائسها ومراكزها التبشيرية للجماعات الإنجيلية الصاعدة في الولايات المتحدة.

* في سياق السجال الناتج عن حملة بوتفليقة الانتخابية التي هاجم فيها الماضي الاستعماري لفرنسا، ليون لوركا نائب إقليم الألب: إذا كان بوتفليقة مستاءً إلى هذا الحد من "خدمات الاستعمار"، فقد كان عليه أن يمتنع عن المجيء إلى فرنسا للعلاج.

* الرئيس شيراك ينتقد سلوك النائب وبعض النواب الآخرين، ويصفهم بالهائجين الذين يسيئون إلى صورة فرنسا في الخارج. ورئيس الحكومة دوفيلبان: هذا يعطي صورة عنصرية عن الأغلبية الحاكمة في البرلمان والحكومة الفرنسية!

* استطلاع جديد للرأي يظهر تقلص عدد الفرنسيين الذين يعتبرون أفكار الجبهة الوطنية "مرفوضة": من 54% عام 2004 إلى 37% هذا العام. والفرنسيون الذين يعتبرون أن الجبهة الوطنية وزعيمها جان ماري لوبان يشكلان خطراً على الديمقراطية: من 70% عام 2004 إلى 58% في يوليو الحالي.

ووجدت مقالاً لأندرو سولومن في إحدى صفحات الشؤون الداخلية. واستغربت لأني لم أعهده كاتباً في الشؤون المحلية والداخلية، فأنا معتاد على قراءة مقالاته في الشؤون العالمية والعلاقات الدولية. وقررت تأجيل قراءة مقاله إلى الآخر، حتى أتفرغ له فأقرؤه بإمعان وتركيز. وتابعت قراءة باقي الأخبار في اللموند:

* لأول مرة في التاريخ: العثور على حوت في نهر التيمز،

والحوت، الذي أطلق عليه أهالي لندن اسم "ديانا"، تلقى حتفها أثناء محاولة فريق الإنقاذ انتشالها من النهر.

* مسلسل العنف في العراق: تفجير ضريح الإمامين في سامراء شمال بغداد يشعل أعمال عنف بين السنة والشيعة، وسقوط 540 قتيلاً.

* مجلة "تايم" تكشف عن مجزرة متعمدة في العراق، قتل فيها مشاة البحرية الأمريكية 24 مدنياً قرب مدينة "حديثة"، شمال غرب بغداد، في 19 نوفمبر 2005، رداً على مقتل أحد رفاقهم في هجوم للمارينز على قرية عراقية.

* خطف أربعة موظفين يعملون في السفارة الروسية في العراق، ومجلس شورى المجاهدين، فرع تنظيم القاعدة في العراق، يعلن قتلهم. والرئيس فلاديمير بوتين يطلب "تصفية" قتلة الروس. منذ بدء عمليات الخطف في العراق في أبريل 2004، تم خطف وقتل أكثر من ستين أجنبياً، وما زال خمسون آخرون محتجزون أو مفقودون.

* الادعاء العراقي في محاكمة صدام حسين يطالب بإعدامه.

* ضحايا التفجيرات الإرهابية لقطار مومباي حتى الآن 309 قتيلاً.

* استمرار الهجوم الإسرائيلي على لبنان للأسبوع الخامس

على التوالي بمنطقة الجنوب، حيث معقل حزب الله.

* عجز الحكومة الفلسطينية عن دفع رواتب الموظفين بعد تعليق أوروبا والولايات المتحدة المساعدات المباشرة للحكومة الفلسطينية.

* الولايات المتحدة والحكومة الأفغانية يوقعان اتفاقية الشراكة لمدة خمس سنوات، لبدء عمليات التنمية، والحكومة الأمريكية تتعهد بدفع 6 مليار دولار كدفعة أولى لإقامة المشاريع التنموية في أفغانستان.

* الأمم المتحدة وكابول يعلنان استراتيجية مشتركة لمكافحة إنتاج الأفيون الذي بلغ 8200 طناً، بزيادة نسبتها 50% عن العام الماضي.

* تركيا وكرواتيا تدخلان المرحلة العملية لمفاوضات الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.

* بولندا تنجح أخيراً، بعد سبعة أشهر من الاضطرابات السياسية، في تشكيل حكومة أغلبية من الشعبويين والقوميين الكاثوليك المتشددين والمحافظين الذين فازوا في انتخابات خريف 2005.

* رئيس الحكومة الإسبانية خوسيه لوي رودريجيث ثاباتيرو يعلن بدء "حوار" مع منظمة "إيتا"، بعد إعلانها التاريخي لـ

"وقف إطلاق النار" في مارس الماضي.

* الجارديان: غالبية البريطانيين يقولون إن العنصرية ما زالت منتشرة في بريطانيا.

* قانون جديد في الكويت يثير مخاوف العمالة الأجنبية، القانون يهدف إلى الاستغناء عن 60% من العمالة الآسيوية.

* الاشتراكية ميشيل باشليه تصبح أول امرأة تتولى رئاسة تشيلي، والسادسة في أمريكا اللاتينية.

* منظمة العمال الليليين في بوليفيا تقدم للحكومة دليلاً من 30 صفحة يحتوي إرشادات لعاملات الجنس حول كيفية الحفاظ على سلامتهن أثناء العمل. ممثلة اتحاد العاملات في مجال الجنس: إنه وقت صعب على الجميع، ولكن العمل بلا قيود سيعرض النساء لخطر أكبر.

وقلت لنفسي: إذا كانت العاهرات الآن يسمونهن: "عاملات جنس"، إذن تكون أدوات الإنتاج في هذه الحالة هي الفروج والمؤخرات! وكل إنسان يولد بأدوات إنتاجه مدمجة فيه بلت إن من الأساس، وهو بالضرورة يحتكرها لنفسه احتكاراً برجوازياً لأنه هو من يملكها لأنها أدوات إنتاجه هو التي ولد بها، وهذه حقيقة شارقة كالشمس! وابتسمت، وتابعت القراءة:

* أنباء من منظمة بوذية غير حكومية في سول عن سقوط

أكثر من 1000 قتيل في تصادم قطاريين عسكريين في كوريا الشمالية، وتقول بأن السلطات في كوريا الشمالية تفرض تعتيماً على الخبر.

* عصابات الجريمة المنظمة في ساو باولو تشن هجوماً على الشرطة يستمر ليومين، ويتزامن مع حركة عصيان في السجون تسفر عن سقوط 187 قتيلاً بينهم 73 شرطياً.

* المجموعة الروسية العملاقة "غازبروم"، تعلن عن قطع إمدادات الغاز لأوكرانيا، بعد خلاف على كلفته، وبوادر "حرب غاز" روسية في الأفق تهدد الإمدادات الأوروبية.

* أسهم مجموعة الصناعات الدفاعية الأوروبية، الشركة الأم لمجموعة إر باص، تتراجع بنسبه 26%، بعد إعلان تأخير جديد في تسليم طائرات "إيه 380" العملاقة.

* من مدمن لألعاب الفيديو إلى صاحب شركة تحقق ملايين الدولارات.

* فريق طبي أمريكي ينجح في فصل التوأمتين السياميتين: كندرا، وماليا (أربعة أعوام)، الملتصقتين من المعدة إلى القدمين، في مستشفى سولت ليك سيتي في ولاية أوتا، في عملية جراحية استغرقت 21 ساعة.

* السيدة مانويلا ميدنوار، التي خضعت لأول عملية زرع

وجه في العالم، تظهر لأول مرة أمام وسائل الإعلام، بعد أن استعادت: فماً، وأنفاً، وذقناً.

* الاتحاد الفلكي الدولي يقرر تعديل تصنيف بلوتو من كوكب إلى كوكب قزم.

* فتاة نمساوية تنجح في الهرب من منزل كانت محتجزة فيه لمدة 8 سنوات، نتاشا كامبوش: 18 سنة، تنجح أخيراً في الهرب من مختطفها: بريكلوبيل، الذي ينتحر قبل أن تقبض عليه الشرطة.

* تقرير لجامعة ساوث كارولينا بالولايات المتحدة: عدد حالات الاغتصاب في أمريكا عام 2004 بلغ 12 مليون حالة اغتصاب.

* جوجل تشتري يوتيوب بمبلغ: 1,65 مليار دولار.

* أنفلونزا الطيور تسجل إصابات جديدة في أوروبا، ومنظمة الصحة العالمية تؤكد خبر انتقال الفيروس من سيدة أندونيسية إلى أقربائها في أول تأكيد لانتقال فيروس "إتش5إن1" بين البشر.

* تطورات جديدة في نطحة زيدان: صحف الصن، والتايمز، والديلي ستار البريطانية تستأجر قراء شفاه لترجمة ما قاله ماركو ماتيراتزي لزيدان في الفيديو، وتقول بأن ماتيراتزي قال لزيدان: يا ابن الإرهابية العاهرة!

* ماتيراتزي ينفي، ويهدد بمقاضاة الصحف الثلاث، ويقول: زيدان قال لي قبل الواقعة مباشرة، وعقب تدخل دفاعي مني: إذا كنتَ تريد قميصي فاصبر وسوف أعطيه لك بعد المباراة، فرددت عليه قائلاً: أفضل أن آخذ أختك! كنت أمزح، ولم أكن أعلم أن لديه أختاً بالفعل، أنا لم أسب والدته على الإطلاق، لأنني أنا نفسي قد فقدت والدتي عندما كنت في الخامسة عشرة، وأتعاطف حتى الآن مع كل من فقد والدته.

* الرئيس شيراك يشيد بزيدان، ويقول: لكن ما فعله غير مقبول، بالرغم من أنني أتفهم الاستفزاز الذي تعرض له في أرض الملعب.

* تحقيقات الفيفا في الحادثة تنتهي إلى أن الحكم فعلَ الصواب بقراره طرد زيدان، وتقرر غرامة على ماتيراتزي 5000 فرنك سويسري، وتوقيف مباراتين، وغرامة على زيدان 7500 فرنك سويسري، وتوقيف 3 مباريات، وفي حالة مضيه في قرار اعتزاله، عليه أن يخدم المجتمع من خلال الفيفا شهراً عوضاً عن التوقيف.

* ويلي سانيول، الظهير الأيمن لمنتخب فرنسا، يكشف معلومات جديدة عن واقعة طرد زيدان من نهائي كأس العالم أمام إيطاليا: لولا زميلنا في الفريق سيلفان ويلتورد، لما قام الحكم بطرد زيدان. عندما قام زيدان بنطح ماتيراتزي في صدره ووقع، لم يكن حكم المباراة الأرجنتيني أليزوندو قد رأى ما حصل، لكن

سيلفان ويلتورد أشار للحكم بأن لاعباً من فريق إيطاليا واقع على الأرض ويجب عليه أن يوقف المباراة، فأوقف الحكم المباراة، وذهب إلى ماتيراتزي للتحقق من الأمر، ثم استشار الحكم الرابع، وبعد ذلك أشهر البطاقة الحمراء في وجه زيدان، ولو أن سيلفان ويلتورد لم يلفت نظر الحكم، لما طرد زيدان.

وبدأت أسمع في سماعات إذاعة الطائرة بدايات الكونشرتو الأول للبيانو لبيتهوفن. وكنت أعشق هذا الكونشرتو، فالاستماع إليه لابد وأن يذكرك فوراً بالسمفونية التاسعة لبيتهوفن، والتي هي من مقام الدي مينير، الذي هو نفسه الرى مينير، أي النهاوند المُصَّور على الرى، أو المُصَّور على الدوكاه إن شئت، لأن الرى في الموسيقى العربية نسميها الدوكاه، ومُصَّور سيادتك يعنى أنك تعزف النهاوند بأبعاده المعروفة، ولكن ابتداءً من الرى، وليس من الدو. والمتخصصون يقولون إن هناك الكثير من التشابهات بين الكونشرتو الأول للبيانو وبين السمفونية التاسعة لبيتهوفن. وكنت دائم الاستماع إلى الكونشرتو الأول للبيانو، وبالذات كلما أردت أن استرسل في كتابة شيء ما، أو أي عمل ذهني آخر. وكنت أحتفظ دائماً بالكونشرتو الأول للبيانو، والكونشرتو الثالث للبيانو لبيتهوفن أيضاً، على اسطوانة مستقلة، وأستمع إليهما الاثنين على التوالي، وكان لهما تأثير السحر عليّ. فإن كان المزاج أو الحالة النفسية لا تسمح بالكتابة أو العمل الإبداعي، وشغلت الكونشرتو الأول والثالث للبيانو ، فلابد وأن تشرع من توك في التحمس والتيقظ والانتباه، وهذا شيء مجرب ومضمون. وأذكر أنه في الفترة التي عملت فيها مساعداً للإخراج

في شركة أفلام أوديون، وكنت أسهر في المكتب وأعمل حتى الصباح دون نوم، كان الكونشرتو الأول والثالث للبيانو هما رفيقيّ الدائمين في ليل أوديون وأنا وحيد أعمل كالحمار في المكتب، أو قل كالثور في الساقية، ويا ليته تمر فيهم، واللى قبلينا قالوا: إن أنتَ أكرمت اللئيمَ!

وحمسني الكونشرتو الأول للبيانو، وكنت أتمنى أن يلحقوا به الثالث أيضاً كما يفعل أي مستمع أو متذوق أو منسق موسيقي محترم، لأن الكونشرتو الأول في السي ماجير، والثالث في السي مينير. وبعبارة أخرى: الكونشرتو الأول للبيانو من مقام دو الكبير، والثالث للبيانو من مقام دو الصغير. أي سيادتك العجم والنهاوند، على التوالي، وفقاً للمقامات العربية إن أحببت القول. وراهنت نفسي أنهم لابد فاعلون؛ أي أنهم لابد وأن يلحقوا الكونشرتو الثالث بالأول، وقلت: سنرى. القصد، حمسني الكونشرتو الأول للشروع في قراءة مقال أندرو سولومن بانتباه وجدية وتركيز.

وكنت أعرف أندرو سولومن معرفة شخصية، فقد قابلته مرة في القاهرة منذ ستة أو سبعة أعوام. عذراً، فلم أعد أتذكر متى تحديداً. وقد تعارفنا صدفة على مقهى الفيشاوي بالحسين. وذكر لي يومها بأنه يعمل في قسم الشؤون الخارجية باللموند الفرنسية. وقال إن أباه وأمه كانا مهاجرين أوروبيين فارين من النازي، وتقابلا في الإسكندرية أيام الحرب العالمية الثانية، أيام كانت الإسكندرية ملجئاً آمناً ليهود أوروبا الفارين من النازية والفاشية

والشعبوية الأوروبية. وأحب اليهوديان الشابان بعضهما، وتزوجا، وعاشا في القاهرة بعد ذلك. وأذكر أيضاً أنه قال إنه لم يشعر في طفولته أبداً بالتمييز، حتى جاء يوم من أيام ترحيل اليهود عن مصر، بعد العدوان الثلاثي في 1956، حين انتحى به جانباً مدرس مصري شاب مقبل على الزواج، كان يدرس له الرياضيات في مدرسة ليسيه باب اللوق، وسأله:

- إنتوا ماشيين إمتى من مصر يا أندرو؟!

كانت عينا المدرس الشاب على الشقة يومها، وربما على العفش أيضاً، لأني سمعت من مصادر متنوعة بأن اليهود قد تركوا عفشهم وراءهم، أو باعوه برخص التراب مضطرين. المدرس الشاب كانت عيناه على الشقة، كما كانت أعين ضباط الجيش وقتها على شقق اليهود هم أيضاً، فشققهم في وسط البلد، أحلى حتة فيكي يا قاهرة، استولى عليها هؤلاء مجاناً تقريباً. وآهو جحا أولى بلحم ثوره!

وأذكر أنني سألته يومها:

- لماذ ذهبتهم إلى فرنسا ولم تذهبوا إلى إسرائيل؟!

- لم يذهب من يهود مصر إلى إسرائيل إلا شديدي التطرف والتزمت، والفقراء المعدمين الذين لا مهنة ولا حرفة لهم، أما باقي العائلات العادية فهاجروا إلى أوروبا أو أمريكا أو كندا أو استراليا.

ولا أتذكر يومها أنني لمست في نبرة صوته لوم أو غضب أو حقد، أو حتى حزن أو أسى، لما وقع له ولأهله في مصر، كان يتحدث عن الأمر بعقلانية شديدة وكأنه يقرأ صفحة من أحد كتب التاريخ بحيادية. بل ولم ألمس في حديثه لوم لعبد الناصر، بالرغم من أن الحديث عن أوضاع البلد، والمقارنة بين عهد مبارك لا فاش كي ري، وعهد عبد الناصر، كان جزءًا من النقاش.

والحق، أنك إن قرأت كتب التاريخ المعاصر، فستكتشف أن عبد الناصر لم يكن هو من اخترع مسألة ترحيل اليهود المصريين عن مصر، بالرغم من أنه غالى وتشدد وتوسع في المسألة. فالسلطات في مصر كانت قد بدأت في التضييق على اليهود بعد الهزيمة المهينة للجيش المصري في 1948. بل إنني قرأت مرة وثيقة سرية مسربة من الجامعة العربية، تحث فيها الأمانة العامة للجامعة في تلك الفترة الحكومات العربية على طرد اليهود من الدول العربية، أيام كان عبد الرحمن باشا عزام هو الأمين العام للجامعة العربية. وقد قال لي محب مرة بأن عبد الرحمن عزام كان من الإخوان المسلمين، بل إنه في الهيراركية، أو سلم الأهمية إن شئت، كان أهم من حسن البنا ذاته، الذي كان فسلاً إلى جانبه! ولما سألته: كيف، وحسن البنا هو من أسس التنظيم؟! قال محب إن تنظيم الإخوان المسلمين كله من أوله إلى آخره ليس سوى فرع من فروع الماسونية العالمية، وإن حسن البنا كان ضابط الاتصال بين الخارج والداخل ليس إلا!

ثم تابعت مقالات أندرو سولومن من حين لآخر، كلما وقعت

نسخة من اللموند في يدي. والحق أنني كنت أعجب بمقالاته. كانت رائحة اليسار والاشتراكية والتقدمية تنضح منها.

استرجعت الصفحة التي بها المقال من الجريدة، وشرعت أقرأ مقال أندرو سولومن، المعنون: "بضع ملاحظات على اضطرابات الضواحي"، وكان مقالاً حلواً.

قال أندرو في المقال إن تظاهرات الشبان الغاضبين في الضواحي، هي تظاهرات صفرية، لأنه عنف لا يطالب بشيء، وهي عكس الأعمال الإرهابية، بالرغم من أن وزير الداخلية ساركوزي يحب دائماً أن يشبهها بالأعمال الإرهابية. ومكمن التناقض بينها وبين الأعمال الإرهابية، أنه في حين أن الإرهابي ينفذ عنفه وفقاً للمعنى المطلق الذي يقدمه له التفسير المغلوط والمشوش للدين؛ أي إفراط المعنى، فإن شبان الضواحي ينفذون عنفهم الخالي تماماً من المعنى. فنقطة الضعف المميتة في تظاهرات شبان الضواحي هي أنها تعبر عن غضب يظل غير قادر على تحويل نفسه إلى برنامج إيجابي محدد للتغيير الاجتماعي والسياسي، إنه تعبير عن روح ثورية، ولكن بدون ثورة، كرنفال استهلاكي للهدم. والمشكلة في أعمال الشغب ليست في كونها عنيفة، لأن معظم الثورات الناجحة كانت عنيفة، ولكن في كونها مرتكسة، أي مجرد رد فعل وليست فعلاً أصيلاً؛ فعل غضب يائس وعاجز وحاقد يلبس قناع زائف للقوة. حسد وضغينة مقنعة في شكل كرنفالي متعالٍ. فهي مجرد معارضة للنظام الحاكم، وللأجهزة الأمنية والبوليسية، دون أن تفصح عن

نفسها في شكل بديل واقعي أو مشروع متماسك للتغيير، ولذلك فهي تأخذ شكل الاضطراب الخالي من المعنى. وهو مؤشر خطير لواقع فرنسا الحالي؛ فيبدو أن حرية الاختيار الآن في فرنسا هي إما اللعب وفقاً للقواعد، أو العنف الهدام.

ودعى المقال إلى سرعة تفكير مراكز البحث والثقافة الفرنسية في أشكال مبتكرة لاستيعاب هؤلاء الشبان الخارجون عن الفضاء الاجتماعي، والممنوعون من المشاركة في الإنتاج الاجتماعي والثقافي الفرنسي، والقادرون على التعبير عن حنقهم، فقط، في شكل اضطرابات لا عقلانية للعنف الهدام. وقال إن الخطر العظيم الذي يواجهه شبان الضواحي هو خطر الوقوع في غرام أنفسهم؛ خطر الوقوع في غرام مرح العنف الذي يمارسونه في "المناطق المحتلة" من الضواحي: ليس لدينا برنامج ونحن هنا من أجل أن نقضي فقط وقتاً ممتعاً! فالاختبار الحقيقي لكرنفالات العنف يظهر في اليوم التالي: كيف أدت إلى تغيير حياتنا اليومية إلى الأفضل، وهذا ما يتطلب عملاً صعباً وصبوراً، تكون في التظاهرات هي البداية وليست النهاية.

وفجأة سمعنا بكاء طفل صغير في الطائرة. لكن الحمد لله أن ماما قد أسكتته سريعاً فلم يسترسل في بكائه المزعج. شاطرة يا ماما، ربنا يبارك لك يا رب!

وعدت إلى القراءة. وكان أندرو سولومن يحذر في المقال من التداخل بين عنف شباب الضواحي وبين عنف الإرهاب.

وقال إنه بالرغم من معارضته التامة لكل مقولات وأفكار السيد ساركوزي، فإن هناك ظاهرة لا يمكننا تجاهلها، وهي أن اللامعنى وانعدام الخريطة الإدراكية؛ أي انعدام الأيديولوجيا، عند شباب الضواحي، ووفقاً للدراسات الاجتماعية الميدانية الحديثة، ميال، وبشدة، إلى الانجذاب نحو إفراط المعنى، والمعنى المطلق، والتفسير المشوش للدين الذي لدى الإرهابي. بمعنى أن اللاأيديولوجيا ميالة إلى الانجذاب نحو أشباه الأيديولوجيات المشوشة والمشوهة. وحذر سولومن من التحام العنف الهدام مع الأصولية الدينية.

وطالب أندرو المجتمع الفرنسي كله بأن يجد، وبأقصى سرعة، الأسباب الحقيقية وراء اضطرابات الشباب في الضواحي، والوصول إلى أسباب الغضب والتناحر. ورفض الوقوع في فخ إلقاء اللوم على عرق أو ديانة هؤلاء الشباب، لأن ذلك لن يكون سوى تنصل من مسؤولية إيجاد الأسباب الحقيقية للتناحر الاجتماعي الظاهر الآن في المجتمع الفرنسي، بإلقاء اللوم على أي عنصر أجنبي دخيل. فأولاد المهاجرين صار يُنظر إليهم الآن وكأنهم يهود اليوم، أو المكافئ البنيوي للدخيل الأجنبي الذي يهدد السلام بين فئات المجتمع. وأن المشكلة الأساسية في فرنسا الآن هي المشكلة الاقتصادية، ولا ينبغي التشويش عليها بالإحالة إلى خطوط انقسام عرقية أو دينية، وأن هذا هو منطق الأصولية الشعبوية التي تستغل الاختلافات العرقية والدينية من أجل إخضاع وإبادة الآخر، وأن علينا أن نفعل العكس، بأن نعمل وفقاً لمنطق تذويب التناحرات الطبقية والاختلافات العرقية والدينية

من أجل الإدراك الكامل للآخر، ودمج جميع الهويات الثانوية المختلفة وضمان مشاركتها الحقيقية.

وقال إن الأزمة الاقتصادية والمالية في فرنسا الآن أزمة معقدة وشائكة، وليس من السهل كثيراً على رجل الشارع العادي أن يفهم أسبابها وتداعياتها، ولذلك فإن اليمين الشعبوي يحاول أن يبسط الأمر تبسيطاً زائفاً بأن يحيل كل مشاكل رجل الشارع العادي إلى المهاجرين أو أبناء المهاجرين، وفجأة يصبح كل شيء واضحاً في الخريطة الإدراكية البسيطة لعقل الفرنسي العادي، بعد أن كان كل شيء معقداً ومبهماً، فهؤلاء هم سبب كل المشاكل. وقال إن هذا هو سبب المد المتصاعد والمشاعر المعادية للمهاجرين ولسكان الضواحي. وقال إن التمسك بالشعبوية وبالمقولات العرقية ولوم المهاجرين الذي ينتهجه اليمين الشعبوي لن يصلح درعاً حمائياً ضد صدمات ودوامات الأزمات الاقتصادية والمالية التي تعيشها البلاد، والأولى هو لوم السياسات الاقتصادية التي اتبعتها حكومتنا، بدلاً من التركيز على مجموعة عرقية محددة واتهامها بإفساد النظام.

وانتهى المقال إلى مقولة غريبة، وشجاعة، وفي منتهى الجرأة. قال أندرو إن الشكل المعاصر من الديمقراطية الآن غير قادر على التعامل مع إفراط الرأسمالية المعاصرة، وإن الديمقراطية يجب أن يُعاد ابتكارها، لأنها فشلت في مواجهة النتائج الهدامة للحياة الاقتصادية الرأسمالية، وإن المؤسسات الديمقراطية الوطنية الآن تقف فاشلة وعاجزة أمام ميكانزمات

العمليات الاقتصادية للنظام الرأسمالي العالمي العابر للقارات؛ مما يخلق الاضطرابات والخسارات الداخلية، وإن المشكلة الآن هي في النظام الرأسمالي نفسه، لا في الشكل الفاسد منه.

وضعت الجريدة على حجري، وشرعت أتأمل قليلاً، وأجتر ما قرأته. ثم عاودت قراءة بعض الفقرات. ثم وضعت اللموند مجدداً على ركبتي. كانت مقالات أندرو سولومن في الشؤون الخارجية والسياسات العالمية والعلاقات الدولية كثيراً ما تعجبني، خصوصاً إذا كانت عن أمريكا. ولكم استفدت من مقالاته عن أمريكا، وعن النظام العالمي الحالي، والعولمة، في فهم ما يحدث في عالمنا المعاصر. وما زلت أتذكر آخر مقال قرأته له، وكان يتحدث فيه عن أن أمريكا أصبحت إمبراطورية في حالة انهيار، لأن ميزانها التجاري السلبي يزداد، وتتكشف كل يوم عن مفترس غير منتج. وأعجبتني تلك العبارة كثيراً: "مفترس غير منتج". وأن عليها أن تمتص كل يوم تدفقات مالية بأكثر من مليار دولار من المنتجات المادية الحقيقية الصناعية التي يتم إنتاجها في الصين وألمانيا والبرازيل والهند وغيرهم. وأن الأمر بات يشبه العشور والضرائب التي كانت تدفعها الأمم تحت الاحتلال للإمبراطورية الرومانية في العصور القديمة. فالعجوزات في الاقتصاد الأمريكي تزداد كل يوم، نتيجة أنها تحولت من الاقتصاد المادي الذي ينتج سلعاً مادية حقيقية، إلى اقتصاد ذهني وعاطفي قائم على المضاربات والتسويق العقاري والبورصة وأعمال الترفيه واللهو وشركات الإنترنت والاتصالات وهلم جرا. وأن العالم الآن هو الذي يدفع ثمن العجز في الميزان

التجاري الأمريكي؛ فالاقتصادات الفائضة في العالم؛ مثل ألمانيا، واليابان، والصين، تظل تنتج، بينما تشفطها أمريكا كمكنسة كهربائية. فالأرباح التي تجنيها هذه الدول، يتم تحويلها إلى أمريكا في صورة تدفقات رأسمالية إلى وول ستريت والبنوك الأمريكية التي تحولها بدورها إلى استثمارات مباشرة وأسهم وقروض وإلخ إلخ إلخ. وأن أمريكا تستغل كونها مركزاً آمناً ومستقراً للاستثمار، وأعظم قوة عسكرية على وجه الأرض، أي أعظم قوة قادرة على الدفاع عن التدفقات المالية التي ترسلها الدول التي لديها فوائض حقيقية إلى أمريكا، للاستثمار هناك، أو شراء سندات حكومية، وما شابه ذلك. وهذا هو أساس الميكانزم العالمي الآن. فالتحويلات من دول الفائض إلى أمريكا، تتم بسبب الثقة في قدرة أمريكا على حماية تلك الأموال، وهي ثقة أساسها نفسي وأيديولوجي وذهني، وليس اقتصادياً. فأمريكا هي القوة العسكرية الأولى في العالم، وهي تسوق نفسها بوصفها حامية العالم، والمدافعة عن الاستقرار العالمي وعن الفوائض العالمية المستثمرة في أراضيها. ومن هنا يمكنك أن تفهم حاجة أمريكا الدائمة إلى العدو. أو حتى خلق عدو إن لم يوجد عدو حقيقي. الحرب على الدول المارقة، أو الشاذة وما إلى ذلك كما تعلم. وعلى هذه الخلفية البانورامية السوداء الكبيرة يمكنك القول بإنه بالمقارنة مع أيام الحرب العالمية الثانية، فإن العالم اليوم لا يحتاج إلى أمريكا، وإنما أمريكا هي التي تحتاج إلى العالم.

لكن إن كانت مقالات أندرو سولومن عن أمريكا، وعن العولمة والنظام العالمي، تعجبني كثيراً وأتعلم منها الكثير، إلا

أنني عندما قرأت مقاله عن الوضع الداخلي في فرنسا بخصوص أعمال العنف التي يمارسها شبان الضواحي في باريس وفي غيرها من المدن، ثم أعدت قراءة بعض الفقرات مرة ثانية، غيرت رأيي لأني شعرت بأنني لم أهضم الكثير من الأفكار، بل ووجدته مقالاً غير نبيه في النهاية، إن أردت الحقيقة.

فقد كنت من المتابعين لما يحدث من اضطرابات شبابية في فرنسا من أجيال أولاد المهاجرين، الذين ولدوا وتربوا ودخلوا المدارس الفرنسية، ثم لم يجدوا لهم مكاناً لائقاً للعمل أو للتحقق في المجتمع الفرنسي. وكنت أعتقد أن هشاشة وضعهم الاقتصادي، يناظر هشاشة وضعهم السياسي. وبالتالي، كان من الظلم مطالبتهم بأن يترافق مع احتجاجاتهم، أو عنفهم إن شئت، برنامج عمل سياسي-اجتماعي عقلاني، كما كان يلوم عليهم أندرو سولومن في مقاله. كان عنفهم عنفاً له ذرائع انتقامية من النظام، ممثلاً في البوليس الفرنسي، وذا طابع محدود، بمعنى أن المحتجين ليس لديهم أية تطلعات إضافية للتغيير في بنية أو علاقات المجتمع أو طبقاته أو شيء من هذا القبيل. فهو ليس إعلاناً بولادة شيء جديد في فرنسا، بقدر ما هو تعبير عن الرمق الأخير لإمكانية الفعل.

وكنت أعتقد أيضاً أن الأمر سيصب في النهاية لصالح النظام الحاكم في فرنسا، لا العكس. وتناقشت مرة مع أحمد فرحات في هذا الأمر، بينما كنا نتابع عنف شبان الضواحي على الهواء مباشرة في قناة الجزيرة. وإليك ما انتهينا إليه في تلك المناقشة:

إذا نظرنا للأمر في شكله الظاهري، فإن الاحتجاجات العنيفة هي ضد الشرطة الفرنسية، بوصفها الممثل على الأرض للنظام الحاكم في فرنسا. لكن الحقيقة، أن هذه الاحتجاجات تؤدي إلى إعطاء السلطة قوة جديدة وصلابة متجددة، بل وإلى رفع وإزالة الحواجز القانونية والمجتمعية التي كانت، ولفترة طويلة، تحول دون نموها، مثل فرض قوانين الطوارئ مثلاً، وباقي القوانين الاستثنائية، وكل الأشياء التي من هذا القبيل.

فتماماً كما يحدث في ملكوت الحياة العضوية، لا يكون أمام أي كائن حي سوى أحد خيارين: إما أن يواصل النمو، وإما أن ينهار ويموت. والسلطة في فرنسا ظلت لفترة طويلة، وربما من أيام 1968، غير قادرة على التوسع ولا على النمو. وأي شيء يتوقف عن النمو، يبدأ بالتحلل. ولذلك فربما كانت احتجاجات وعنف شبان الضواحي هو طوق النجاة للسلطة في فرنسا من أجل التوسع في حالات الطوارئ والاستثناء وزيادة السلطات وتغولها، تحت دعوى مكافحة العنف والشغب والإرهاب، وهو طوق نجاة ألقي إليها حتى لا تتفتت وتتحلل مزيداً من التفتت والتحلل.

القصد، كان الأمر، في رأيي، سيصب في النهاية في مصلحة النظام الحاكم في فرنسا، وأن الشعبوية واليمين المتطرف سوف يكسبان المزيد من الأراضي في الشارع الفرنسي، لا كما ينادي أندرو سولومن بإعادة ابتكار الديمقراطية التي فشلت، أو الحوار الأكاديمي والثقافي للوقوف على أسباب التناحر المجتمعي

وغضب الطبقات الفقيرة والمهمشة ومحاولة إدماجها في المجتمع، وكل تلك اليوتوبيات التصالحية الوهمية الساذجة التي تكذبها دائماً الملاحظة التاريخية. وكما كان السؤال بالنسبة لجمهورية مصر العربية، ها هو السؤال الآن للجمهورية الفرنسية، أجب عن السؤال التالي: هل النظام الحاكم في فرنسا أداة للهيمنة والسيطرة، أم هو مؤسسة تمثيل شعبية؟

ثم حدث أمر غريب، لم أشهده أيام كنت أركب الطائرات في الطفولة، ولا أخبرني به أي من أصدقائنا الذين يسافرون بالطائرات؛ حيث بدأت المضيفات في توزيع أوراق على الركاب، وحين أعطتني إحداهن، وللأسف لم يكن الغلام الجميل، الورقة، تبينت فيها قائمة للاختيارات بين: اللحم البقري، أو الدجاج، أو الأسماك؛ والتي عليك أن تختار ما تريده منها على الغداء. استبيان للغداء! دي الضيافة الجوية تقدمت جداً من أيام ما كنا بنسافر مع الوالد الله يرحمه! أول مرة أشوف حد يوزع استبيان للغداء! غداء اختياري وليس إجبارياً. كما تحب وتهوى!

وكانت المفاجأة أن هناك أيضاً اختيارات للشرب، وعليك أن تضع علامة على إحداها. كانت هناك ثلاثة أصناف من المشروبات لتختار من بينها: عصير برتقال، أو عصير تفاح، أو نبيذ أحمر. يوزعون نبيذاً على الطائرات! كانت هذه جديدة تماماً بالنسبة لي!

وقلت لنفسي بصوت هامس: دي كده بدأت تندع واحنا لسه

في الجو، فما بالك بقى لما ننزل فرنسا يا باشا!

وأنا متأكد من أنك قد خمنت اختياري المشروبي فوراً، بعد ما عرفته عني وعن طبيعتي وعن ذوقي حتى الآن. وتناولت قلم الإر فرانس، وعلمت يا ريس، أولاً وقبل أي شيء، على النبيذ الأحمر، ولولا الملامة لعلمت علامتين وثلاثة وأربعة بل وأكثر! ثم علمت على الدجاج؛ لأنه من خبرتي أن اللحوم الحمراء غير مضمونة إن لم تشتريها طازجة بنفسك. كما أن هناك احتمالية كبيرة لأن تكون قطعة اللحم من نوعية أو قطعية رديئة، فتروح تلوك قطعة قاسية صلبة من لحم ذبيحة حيوان عجوز وتعاني الأمرين بدلاً من أن تستمتع. كما أن الأسماك أضل سبيلاً إن لم تكن قد اشتريتها طازجة بنفسك وأشرفت على تنظيف بطنها جيداً جداً وإخراج كل الأحشاء وكل تلك القذارة، ثم شيها أو قليها بنفسك، أو تحت إشرافك على الأقل. إذن المضمون طبعاً هو لحم الدجاج، ومن الصعب جداً أن يُفسد أي شيف مهما كانت درجة حماقته أو استهتاره أو رعونته قطعة من لحم الدجاج!

كانت هذه الخبرة قد اكتسبتها، لا من الحياة بمفردي كعازب في القاهرة فقط، ولكن من ملاحظة السرقة والنهب والخم في شراء وجبات البريك، أو وجبات فترة الاستراحة إن شئت، والتي نستريح فيها من عناء العمل أثناء أيام التصوير السينمائي. وكانت عادة عبارة عن ساعة، أو أقل قليلاً، نأخذها بعد ست ساعات عمل متواصل من التصوير الخارجي أو الداخلي، ويعقبها ست ساعات عمل متواصل إن لم يكن أكثر. نعم يا سيدي، فيوم العمل

في السينما هو اثنتي عشرة ساعة عمل متواصلة، أو هذا على الأقل هو المعمول به في سينمتنا المصرية الحبيبة.

وكان المسؤول عن شراء الوجباب لطاقم التصوير والفنانين والعمال والكومبارس والسائقين وغيرهم، وهم لا يقلون في أي يوم من الأيام عن مئة أو مئة وعشرين فرداً، هو أحد مساعدي الإنتاج، بالتنسيق طبعاً مع مدير الإنتاج نفسه. وعندنا في السينما كل مدير إنتاج، أو مساعد إنتاج، مشهور بالسرقة والنهب والاحتيال في مجال معين من المجالات. فهناك المتخصص في السرقة من بند تأجير السيارات. وهناك المتخصص في السرقة من ميزانية أجور الكومبارسات. وهناك المتخصص في السرقة من بند تأجير معدات التصوير والإضاءة، وإلخ إلخ إلخ. وهناك طبعاً، وهو الذي يهمنا في هذا المقام، المتخصص في السرقة من ميزانية شراء وجبات البريك. وهؤلاء يا عزيزي، وبعد فترة قصيرة من العمل، يستقلون بأنفسهم ويفتتحون شركات إنتاج سينمائي خاصة بهم من أموال سرقة وجبات البريك أو غيرها مما سبق شرحه، فلا تستهن بالأمر ولا بمقدار المبالغ المسروقة. المهم والقصد والغاية، أنني قد تعلمت من تلك الأيام التي كنت أعمل فيها مساعداً للإخراج، أن أحرص حرصاً شديداً فيما يختص بتناول وجبات اللحوم الحمراء والأسماك، مهما كان منظرها شهياً أو رائحتها لا تقاوم. وأقسم لك غير حانث، أنه في مرة من المرات قال لي السائق الذي يرسلونه لكي يأتي لنا بوجبات البريك من المطعم الذي اتفقوا معه مسبقاً على إمدادنا بتلك الوجبات:

- بلاش تاكل كفتة يا أستاذ سامح، كل من الفراخ أحسن!

- بس أنا نفسي في الكفتة يا عم حسن!

- إسمع اللى بقولك عليه، كل فراخ بلاش كفتة، إسمع الكلام!

ثم شرح لي فيما بعد، أنه، وفي أثناء انتظاره لكي يجهزوا له مئة وعشرين وجبة، دخل إلى مطبخ المطعم، من باب الفضول والتسلية وتزجية الوقت، وهاله شكل اللحم ورائحته الفاسدة، والأوعية المليئة بالعفن التي يحفظون فيها اللحم ويجهزونه، بل وبالدود أيضاً الذي رآه بأم عينيه يسرح في اللحم المعفن! وهناك حادثة أخرى لتسمم زملاء من وجبة بريك لأسماك وزعت علينا في يوم من الأيام، وستر ربنا أن معدتي كانت يومها مضطربة فطلبت من عم حسن وهو يحضر الوجبات إلى لوكيشن التصوير أن يشتري لي في طريقه عيش سن وجبنة قريش بنفس مبلغ الوجبة المخصص لي، فأحضر لي، بارك الله فيه، كمية مهولة من العيش السن والجبنة القريش والخيار المغسول والزيتون الأسود، أكلت منها بشهية كبيرة، ووزعت على الزميلات والزملاء.

ومن يومها أقسمت ألا آكل لحوماً حمراء ولا أسماك، إلا ما أشتريه وأشرف على إعداده بنفسي. أما الدجاج، فإنه إن لم يكن فاسداً من الأساس ومنتهي الصلاحية، وهي مسائل من الممكن ملاحظتها بالخبرة؛ من المذاق أو الرائحة أو غير ذلك، فإنه أضمن من اللحوم ومن الأسماك، ولا أقول لك إنه مضمون تماماً،

ولكنه أهون الشرور مع ذلك، وربك الستار!

وانتهى الكونشرتو الأول للبيانو لبيتهوفن. وللمفاجأة، لم يتبعه الكونشرتو الثالث للبيانو، فخسرت الرهان مع نفسي،وتبعته السمفونية الأربعين لموتسارت. وكانت السمفونية الأربعين لموتسارت هي من ضمن أعماله التي أتشائم من سماعها؛ والتي كان على رأسها سوناتاته للبيانو، والتي لم أستمع إلى إحداها يوماً إلا وحدث ما لا أحب ولا أهوى. مؤمن؟! طبعاً يا عزيزي، لا يوجد شرقي ملحد يا صديقي، كلنا مؤمنون بشكل أو بآخر، وكل شيخ وله طريقة، حتى الأستاذ خالد محي الدين نفسه زعيم حزب التجمع الشيوعي مؤمن وله طريقة.

فنزعت من فوري سماعات الأذن، فلم أكن في حاجة على الإطلاق لأي فأل سيء. وجاءت المضيفات ولملمن أوراق الاستبيان الغدائي، وكان الصبي الغلامي يلم الأوراق هناك في الممر الآخر، وتمنيت أن يمر عليّ فأعطيه ورقتي، لكن الحظ لم يوات.

وبدأت أشعر بالملل. لا تسئ فهمي. فأنا كنت في منتهى السعادة، صحيح، لكنك تمل من السعادة بعد قليل. وربما كان الملل من علامات السعادة ومؤشراتها. فأنت، وإلى حين أن تفقد سعادتك أو تنزع منك نزعاً فتشتهيها وتتمناها مجدداً، فإنك لا تقدر سعادتك حق قدرها لشعورك بالملل المصاحب والملازم لها. وأرجو أن لا يستغرقك تداعي المعاني للفكرة السابقة فتروح تفكر

في الجنة والسعادة التي في الجنة وتظن أنها ستكون مصحوبة بملل أو شيء كهذا. وأنا في الحقيقة لا أستطيع أن أفيدك بصورة موضوعية في هذا الصدد، فأنا لا أعلم إن كانت السعادة في الجنة سوف يصاحبها ملل أم لا، لكن ما أنا متأكد منه أن الجنة بها متع وتسالي وأنواع كثيرة ومتعددة من الإثارات، ولا أظن أن هذه الأشياء يترافق معها بصورة موضوعية الشعور بالملل.

واشتهيت سيجارة؛ ببانجو أو بدون، اشتهيت التدخين عموماً. وتذكرت فجأة أن أبي كان يدخن في الطائرات عندما كنا نسافر وأنا صغير. وأتذكر جيداً أن طاقم الضيافة في الطائرات كان معتاداً على بيع خراطيش السجائر وعلب العطور على متن الطائرة. فهم يجرون ترولي أو فاترينة كبيرة من رفين كبيرين في الممر بين الركاب، وعليها، وفي داخلها، كل أنواع السجائر والعطور المشهورة عالمياً. ومرة أتذكر أن أبي قد اشترى من على متن طائرة الأولمبك سجائر يونانية من التي كان يحب تدخينها كثيراً. وكان عادة يدخن، وهو في ليبيا، سجائر (المنار) و(الرياضي) الليبيتين، وعندما نعود إلى مصر، يدخن (كليوباترا) سوبر الطويلة الثقيلة ذات العلبة الذهبية. وكانت الرياضي والمنار، سيجارتان ثقيلتان للغاية، ربما أثقل من الكليوباترا السوبر، لأنني جربت كل شيء وأنا طفل صغير من باب اللهو والشقاوة وحب الاستطلاع، وهكذا فأنت ترى أن النشطاء النقابيين المصريين من أمثال أبي الذين أجبروا على حياة المنافي الاختيارية، كانوا يفضلون السجائر الثقيلة. سجائر البحارة. سجائر الرجال. الرجال العترة.

ولا أتذكر اسم تلك السجائر اليونانية، لكن أذكر أنها كانت تأتي في علب بيج مبططة. وأتذكر أنه فتح الخرطوشة، ثم فتح علبة، وسحب سيجارة منها، وراح يدخن ونحن على متن الأولمبك، ولا كان فيه أي مشكلة! ولهذا السبب يا عزيزي كانوا، وما زالوا، يضعون مطفأة السجائر في ذراع مسند الكرسي الذي تجلس عليه في الطائرة. راحت السجائر، وراح التدخين، وظلت المطفأة شاهدة على الزمن الغابر المغدور.

ثم أكدت الذاكرة المعلومة، باستعراض سريع لبعض الأفلام الأمريكية حتى بدايات الثمانينيات، حين كنت أرى الأبطال فيها يدخنون في مقصورة الطائرة، عادي جداً. ولم أكن متبحراً في تاريخ التدخين على متن الطائرات، ولكن بدا لي وقتها أن مسألة منع التدخين قد بدأت في التسعينيات، وقد لا أكون دقيقاً تماماً، أما إذا صح توقعي، فيكون منع التدخين في الطائرات، قد ترافق مع تغيير كود أخلاقيات هوليود، ليتشدد في منع التدخين ومسائل الصحة، وليس في الأيديولوجي والجنسي ككود هيز في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات.

وقد يكون للأمر يا رفيق علاقة بالتوفير في نفقات الطيران. فمن المؤكد أنه في حالة السماح بالتدخين على متن الطائرات، ستحتاج مقصورة الركاب إلى فلاتر لتصفية الهواء بشكل دائم عبر معدات خاصة، لا شك أنها مكلفة، لأن الدخان سوف يتلفها بسرعة، وبالتالي تكون شركات الطيران مستفيدة من منع التدخين لأنها توفر مصاريف الصيانة وإحلال الفلاتر وتبديلها كل آن

وآخر. وهكذا فأنت ترى أن كل شيء على هذا الكوكب منبعه وسببه هو الاقتصاد، ولو كان ماركس في زمن سابق على زمنه لعد نبياً بحق! ودوستويفسكي أيضاً! هذا عندي بلا أدنى شك.

ولما لم يكن هناك ما يُرى من الشباك، لأن الغيوم البيضاء كانت تملئ كل شيء. ولما كان عدد كبير من الركاب قد آثر النوم، خصوصاً وأنهم قد استيقظوا مبكراً، وبالتأكيد لم ينالوا قسطاً كافياً من النوم في الليلة الماضية. ولما كان الباقي الذي لم ينم لا يستحق الملاحظة، على الأقل من مكاني، حيث لم يلفت انتباهي أي راكب معين ولا راكبة معينة. ولما كنت لا أشعر برغبة في النوم، لا أدري لماذا، فقلت أقوم وأتمشى قليلاً في الممر، حتى أصل إلى التوالت، فأدخل هناك واتفقده من باب الفضول والتسالي وحب الاستطلاع.

ومررت من جوار ركن المضيفات، الذي كان يسبق كنيف التوالت. ولم تكن الحلوة هناك، ولا أدري أين ذهبت. ربما في قمرة الكابتن ومساعده، فجحا أولى بلحم ثوره. وكانت هناك علامة على الباب خضراء تشير إلى أن المرحاض شاغر. فأدرت المقبض، ودخلت.

كانت مساحة الكنيف ضيقة جداً، بالضبط كما كنت أتذكرها في طائرات الطفولة. وكان كل شيء جديداً ولامعاً وفضياً ومعدنياً. نظرت إلى وجهي في المرآة الصغيرة المعلقة فوق حوض الغسيل، ورأيت عوارض إرهاق حول الجفنين والخدين،

وكانت عيناي تبدوان متعبتين، ووجهي كله متوتراً ومنقبضاً، وكان بوزي شبرين في المرآة. وقلت: لا بأس، قليل من الراحة، وسينتعش الوجه من جديد. ويقال يا زعيم إن ملكات الجمال، والفتيات الصغيرات اللاتي تعدهن أمهاتهن لخوض مسابقات ملكات الجمال، ينمن ستة عشر ساعة في اليوم للحفاظ على جمال بشرتهن. وهكذا فأنت ترى أهمية النوم والراحة والاسترخاء وتأثيره على البشرة. ولا تتسائل كثيراً عن الباقي من اليوم، أي الثماني ساعات التي تكون ملكة الجمال خلالهن مستيقظة، وهل هي تكفي للأكل، والاستحمام، والخروج، والدخول، ومتابعة الدراسة، والفرجة على التلفزيون، وقراءة أي شيء له قيمة، أم لا تكفي؟! فربما تكون هذه أشياء ثانوية في حسابات من تمتهن هذه المهنة.

ولم أكن أشعر بأية رغبة في عمل حمام. لكني فتحت سوستة البنطلون، وأخرجته. ووقفت أمام المرحاض، فنزل سرسوب خفيف من المياه الداكنة الإصفرار. وقلت هذه علامة على نقص في شرب المياه، ولا شك، وعليّ أن أشرب بعض الماء حالما أخرج من الكنيف. وضغطت على زر كبير بدا أنه لطرد الماء القذر كان أعلى المرحاض وإلى يساري قليلاً، فاندفع تيار من المياه القوية من مختلف الاتجاهات من داخل المرحاض طارداً ما فيه. ورأيت طاقة نور بيضاء وساطعة تنفتح في قعر المرحاض، وكأنها هاوية صغيرة لطيفة. حفرة بلا قاع! مثل المال، والشهوات، والرأسمالية يا كوتش! وكنت أعرف أن الطائرات تتخلص من فضلات المسافرين بنزحها في أعالي السماء.

وأعجبتني فكرة أن من في الأعالي يشخون على من في الأسافل. أليس هذا بعينه هو مجمل تاريخ البشرية يا صديقي؟! ومرة قرأت في إحدى الصحف الإنجليزية خبراً عن وفاة مزارع إنجليزي سقطت عليه قطعة متجمدة من الخراء من أعلى السماء، وذكرت الصحيفة يومها أنها سقطت، ولابد، من طائرة ركاب مدنية كانت تمر في سماء المنطقة، ثم تجمدت في درجات الحرارة الباردة في طبقات الجو العليا، وسقطت حجراً صلباً على رأس المسكين. وها أنت ترى أن إنساناً له تاريخ طويل وعريض وعائلة وأبناء وأقرباء وأحباء وأبقار وغنم وكل تلك الأشياء يمكن أن يفقد حياته لسبب تافه كتبرز مسافر دخل كنيف الطائرة ليعمل حماماً ويتخلص من فضلاته!

وألقيت نظرة أخيرة على وجهي في المرآة. وحاولت أن أفرد سحنتي قليلاً. ولم أحب أن أبلل يديّ لا بالماء، ولا بالصابون السائل. وأدرت مقبض الباب، وخرجت.

وعندما عدت إلى مقعدي، تخليت سريعاً، وأنا بعد واقف، عن فكرة إنزال زجاجة المياه المعدنية أو الطبيعية من حقيبة الهاندباج التي كانت في كابينة الأمتعة العلوية فوق رأسي. كسلاً من ناحية، وكراهة لأن أقوم بحركة تقلق الركاب؛ الذين كان معظمهم يغط في النوم من حولي، وقد أنزل كل منهم ساتر النافذة التي بجواره، حتى صار الجو داخل مقصورة الركاب كابياً، كأننا ليل لا نهاراً. ثم إنني في النهاية لم أكن أشعر بالعطش من الأساس، وقلت لنفسي: سوف أشرب بعض النبيذ بعد قليل، فلا

ضرورة لشرب الماء.

وعندما جلست على الكرسي المجاور للممر، وضعت سماعات الأذن، وسمعت موسيقى لا أعرفها، ولم أحبها على الإطلاق. كانت لطبول وآلات إيقاعية أخرى، مع صرخات من الكمان، والتشيلو، والبيكولو؛ وهو الفلوت الصغير الحاد الصوت سيادتك، وكانت، عموماً، موسيقى مما يمكنك أن تطلق عليها: موسيقى ما بعد حداثية، أي باختصار: هراء، بل وخراء أيضاً! هراء وخراء، حلوة! المهم، أنني نزعت بسرعة السماعات، وألقيت بها على الكرسي المجاور.

وبعد قليل شرعوا في توزيع طعام الغداء. وكانت الصبية الحلوة الغلامية تخدم هناك في الممر الآخر الموازي للممر الذي أجلس فيه. خسارة، الحلو ما يكملش! واقتربت مني المضيفة التي تدفع دولاب صواني الطعام المعدني، وكانت هي التي تقوم على خدمة الركاب في ممرنا منذ إقلاع الطائرة. كانت طويلة، في طولي تقريباً، وعليك أن تعلم أنني طويل جداً بالنسبة إلى الأطوال العادية للمصريين والعرب سيادتك. وكانت ذات شعر كستنائي كثيف وطويل وناعم، ينسدل حراً طليقاً على كتفيها. وكانت ذات جسد قوي ورياضي، بل ذات جسد أولمبي في الحقيقة، ووجه عضلي تبرز عضلاته على نحو ظاهر، وأنف كبير نسبياً، وكانت، عموماً، تشبه العداءات الأوروبيات في سباقات المسافات الطويلة. وربما لهذا لم تثر اهتمامي.

نصبتُ مائدة الطعام الصغيرة المثبتة في ظهر الكرسي الذي أمامي. ووضعت المضيفة الرياضية العضلية صينية الطعام عليها، وكوب النبيذ البلاستيكي أيضاً، وقالت بالفرنسية:

- شهية طيبة يا سيدي!

- ميرسي مدام.

وفجأة، ارتطمت ركبتها بحافة بارزة في دولاب الطعام المعدني المتحرك، فتأوهت بصوت عال. ولم أدر بنفسي إلا وقد أمسكت بصينية الطعام بسرعة ووضعتها على الكرسي المجاور، ورفعت درج الطعام من أمامي وثبته بسرعة في ظهر الكرسي الذي أمامي، ثم انحنيت على الأرض وأمسكت بكلتا يدي ركبتها المصابة ورحت أدلكها! لا أدري لماذا فعلت ذلك، ولا من أين واتتني الجرأة على فعل ذلك! لكن هذا هو ما حصل. رحت أدلك لها ركبتها. ولم تكن المضيفات يلبسن شراباً. فكنت أدلك لحمها فعلاً. وأمسكت بساقها وظللت أثنيها وأفردها، كأنني أجدع طبيب عظام أو مدلك طبيعي أو متخصص في إصابات الملاعب أو شيء كهذا. وربما تكون الثقة المطلقة التي تصرفت بها، هي التي جعلت السيدة تطمئن، ولم تثر شبهات الركاب من حولنا. وكنت مستمتعاً للغاية بلعب هذا الدور، لكنني لم أكن أشعر بأية إثارة في الحقيقة. وفي اللحظة التي بدأت أشعر فيها ببدايات الإثارة من دعك سمانتها وتدليك ركبتها الرائعة، سحبت المضيفة ساقها بعيداً وهي تشكرني. ولم تكن ركبتها قد أصيبت بأية أضرار،

والحمدلله، ولا حتى بأي خدش بسيط. كانت مجرد خبطة مفاجئة في الركبة أعقبها ألم، وهذا كل شيء. ورفعت عيناي ورأيت في عينيها ذلك الارتباك الذي يحدثه الخجل والعرفان بالجميل. فهمست بالفرنسية وأنا أقف، قبل أن أعود إلى مقعدي، ودون أن يسمعنا أحد من الركاب:

- توخي الحذر من فضلك فأنت كائن ثمين جداً!

ولا أدري لماذا قلت ذلك! بالرغم من أنني، باستثناء بوادر الشعور بالإثارة بعد تدليكي لساقها لفترة لا بأس بها، لم أكن أشتهيها، ولا رغبت في تطوير أية علاقة معها. كنت، في الحقيقة، أشتهي الصبي الغلامي الذي يخدم هناك في الممر الآخر. لكنك أحياناً تقول أشياء لا تعنيها لمن لا تهتم بأمرهم، عوضاً عن فعل أشياء تتمناها مع من تهتم بأمرهم. وهذه، طبعاً، تصرفات غير عقلانية تتفاجئ أنت نفسك بأنك تقوم بها، فتقبض على نفسك متلبساً بتصريح من التصريحات المشابهة لما قلته للمضيفة الأولمبية، في حين أنك تشتهي زميلتها. قد يكون من باب الإحباط، أو التنفيس بطريقة خاطئة عن طاقة مختزنة، أو محاولة لإعادة تثبيت الثقة بالنفس، أو أي شيء آخر من هذا القبيل، فالنفس البشرية، في النهاية، أغوار سحيقة، وأنا في مجال العلاقات النسائية معتاد على التصرف بالفطرة، ولست من هواة قراءة كتب علم النفس وما إلى ذلك في هذا الشأن.

وزاد ارتباك البنت. وشكرتني مرة أخرى وعيناها تخجلان

من ملاقاة عيني. واستأنفت توزيع الطعام على باقي الركاب.

وفضضت صينية الطعام التي كانت مغلفة بنايلون شفاف. وانهمكت في الأكل والشرب. ونسيت الدنيا بضع دقائق ذهبية. ألماسية. كان بالصينية، بالإضافة إلى أدوات المائدة البلاستيكية الملفوفة في كيس نايلون شفاف؛ الشوكة، والملعقة، والسكين، والمنديل الورقي الكبير، والمنديل المعطر المغلف، كان هناك أيضاً: قطعة من صدر الدجاج المدخن التي لم يكن لها أي طعم في الحقيقة، بل وكان لحمها قاسياً بعض الشيء. وطبق بلاستيكي صغير به بضع حبات بازلاء، وفاصولياء خضراء، وجزر، وبطاطس، وذرة، والكل مسلوق في مسلوق، وكان الطبق بشعاً، لكنني أكلته مع ذلك. وطبق بلاستيكي أكبر قليلاً به سلاطة خضراء رائعة، ميزت فيها طعم عصير الليمون، وخل التفاح، وأكلتها كلها بشهية كبيرة.

ثم كان هناك علبة صغيرة في حجم علبة الزبادي الصغيرة بها جبن كاموامبير. ولم أكن قد تذوقته في حياتي من قبل. وكان هناك بعض قطع الخبز المحمص. فتحت علبة الكاموامبير، ورحت آخذ بالسكين من الجبن الزبدي القشدي الطري وأفرده على قطع الخبز المحمص وآكل. وكان، بلا أية مجاملات، أشهى جبن تذوقته في حياتي! وأظن أنه من حليب الأبقار، لا من حليب الماعز، كما هو المعتاد في معظم الأجبان الأوروبية. وكان على سطحه قشرة بيضاء رقيقة لها رائحة نفاذة، أحببتها كثيراً، وربما تكون من بكتيريا ما مثل تلك الموجودة في الأجبان الزرقاء، أو

الروكفور كما نعرفها في مصر. وكنت قد قرأت مرة في إحدى الصحف الأمريكية، أو قد تكون مجلة أمريكية، فلم أعد أتذكر جيداً، أن جبن الكامومبير والروكفور ممنوعان من التداول في أمريكا من هيئة الأغذية والزراعة الأمريكية بسبب مستوى البكتيريا العالي في كليهما. وقد يكون مستوى البكتيريا فعلاً عال في الروكفور والكامومبير، ولكن أن تمنع الروكفور والكامومبير بسبب ذلك! فهذا يا عزيزي إن دل على شيء فإنما هو دليل آخر على غباء الأمريكان وذوقهم الرديء المتدني السوقي! ولم تسعفني كثيراً السكين، لأن الجبن كان طرياً جداً وسائلاً، فاستخدمت الملعقة في الأخذ من العلبة والفرد على قطع الخبز المحمص.

وكنت آخذ رشفات متتالية من كوب النبيذ الأحمر بين اللقمة والأخرى، ولم يكن له أي طعم في الحقيقة. وقلت في نفسي: هذا نبيذ خال من الدسم، خال من الكحول! أي أنه، وباستثناء السلاطة والكامومبير، كان باقي الطعام أشبه بأكل المستشفيات والمرضى؛ لا طعم، ولا رائحة، ولا مذاق، أكل والسلام، ومحسوب على حضرتك إنه وجبة!

وعندما فكرت في ذلك، وأقول لك الحق، غلت الدماء في عروقي بعض الشيء، وأقسمت أن آخذ حقي، وإلا فسأصبح صغيراً في نظر نفسي. وكله إلا هذا، فعند دوستويفسكي، في رواية (الإخوة كارامازوف)، وعلى لسان الشيخ زوسيما، يقول: أصل الشرور، والبلاء كل البلاء، ينبع من احتقار الإنسان لنفسه،

أو شيئاً كهذا.

فممدت إصبعي الأوسط وضغطت على زر استدعاء المضيفة الموجود أعلى رأسي. لحظات، وأتى الباشا الرياضي الأولمبي ابتسامة مشرقة. فزال في لحظتها كل غضب، بل وشعرت بالخجل يعتريني من تفاهتي، في الحقيقة. لكن الفأس قد وقعت في الرأس واستدعيت البنت بالفعل، وها هي أمامي، وعلي أن أحسن التصرف حتى نخرج من هذا الإحراج بأقل الخسائر، ولعن الله النزق والانفعالات الهوجاء!

انحنت عليّ واضعة كفيها على ركبتيها، فهمست قائلاً إنني ما زلت جائعاً، بالرغم من أنني أنهيت طعامي. فنظرت إلى صينية الأكل وأنا أكلمها، فقلت بطريقة تعمدت أن تكون ساذجة بعض الشيء:

- أكلت كل الخبز وما زلت جائعاً بعض الشيء، فإذا سمحتي ببعض الخبز لكي أنهي باقي الجبن الذي في العلبة سأكون شاكراً، آه، وأيضاً إذا سمحتي بكوب آخر من النبيذ سأكون شاكراً جداً!

ابتسمت في حنان، وهزت رأسها، وأسرعت عائدة إلى ركن المضيفات، حيث الوجبات والشرب واللوجستيات كلها يا معلم!

وعادت بعد لحظات، ووضعت صينية جديدة أمامي، وسحبت أولاً الصينية القديمة، بعد أن أعادت وضع باقي علبة الكاممبير،

وأدوات المائدة، بسرعة احترافية على الصينية الجديدة. وقالت وهي تنسحب بسرعة:

- شهية طيبة يا سيدي، وإن احتجت لشيء آخر أنا في خدمتك!

وكانت الصينية الجديدة عليها علبة كامومبير جديدة، وطبق سلاطة جديد، وطبق مغلف فيه ضعف عدد الخبز المحمص الذي أكلته في أول مرة، بالإضافة إلى كوب بلاستيكي مترع بالنبيذ الأحمر. شوف الذوق بتاع البنت! طيب بنت بالذوق ده كله الواحد يعمل معاها إيه بس يا رب! بس لو ما كنتش ذوق وحنين! وتمنيت، للحظة عابرة، أنا الرافض للزواج والارتباطات الرسمية بكل أشكالها وتنويعاتها، لو يسعدني الحظ بالارتباط مدى الحياة بهذه الفتاة الجميلة المهذبة؛ زوجة ورفيقة وحبيبة وصديقة للأبد. بل، والحق يقال، شعرت بإثارة شديدة من حركة الذوق هذه. هل الكرم مثير؟! عليك أن تجرب بنفسك، فمثل هذه المشاعر والانفعالات قد تختلف من شخص لآخر، فالنفس البشرية أغوار سحيقة، ولكن فيما يتعلق بي، كرم البنت كان شديد الإثارة بالنسبة لي، واشتهيت لحظتها أن تكون تحتي بأقوى ما يكون الاشتهاء.

ثم انظر كذلك إلى ذكاء البنت وحسن تصرفها! هي تعرف أن أفضل ما في طعام الغداء كله هو هذين الصنفين: الجبن، والسلاطة. ولذلك، نحت كل التفاهات والحماقات والرداءات جانباً، وأتت لي بأفضل ما هو موجود فعلاً. بالإضافة، طبعاً، إلى

تكرمها بإحضار كوب ثان من النبيذ. وشياكة إحضار كمية كبيرة من الخبز المحمص. والدماثة والأخلاق العالية. الواحد بس يقول إيه ولا إيه! ربنا يكرمك يا بنتي!

ورحت آكل بشهية كبيرة، ولكن على مهل، إحنا ورانا إيه! وقلت أسمع ماذا يذيعون الآن في قناة الموسيقى الكلاسيكية. فوضعت سماعات الأذن. وسمعت موسيقى أوركسترالية لشيء ما لم أسمعه من قبل. وخمنت بعد قليل أنها من تأليف أحد الموسيقيين اليابانيين، لأني سمعت آلة الشاكوهاشي واضحة ومسيطرة على الأجواء العامة للقطعة الموسيقية. والشاكوهاشي يا سيدي هو الناي الياباني حضرتك. ولا تقلق كثيراً من صعوبة الاسم، أو تجزع أو تفزع، فسوف تتعرفه فوراً حالما تستمع إليه، وسينقلك فوراً إلى الأجواء اليابانية. وأنا، وبرغم أنني لست من المتخصصين، إلا أنني أعتقد أن لآلة الشاكوهاشي علاقة ما بالسلم الخماسي، لأن إحساسي كثيراً ما يربط بينها وبين الموسيقى النوبية خماسية السلم. والسلم الخماسي هو أن نلحن من الأصوات الخمسة التالية: دو، ری، مي، صول، لا. في حين أن السلم السباعي، أي السلم الموسيقى العادي بتاع ربنا، هو أن نلحن القطعة الموسيقية من الأصوات السبعة التالية: دو، ری، مي، فا، صول، لا، سي. ولا تشغل بالك كثيراً بالفروق الأكاديمية والتقنية والحرفية بين السلمين الخماسي والسباعي، فالمهم هو أنك عندما تستمع إلى أغنية نوبية أو سودانية من الفولكلور ستجدها مميزة ومختلفة عن باقي الموسيقى العربية، ولها مذاق فريد وطعم خاص، هذا يا أستاذي الفاضل فيما يختص بالسلم الخماسي، وفي

هذا من الإسهاب بخصوص السلم الخماسي ما يكفي ويزيد، والحق إنه لم يكن له مقام في هذا الموضع، ولكنه قد كتب، ومادام قد كتب، فها أنا ذا أتركه لحاله.

وقررت ترك السماعات في أذنيّ، فأنا أحب الشاكوهاشي، والموسيقى اليابانية، والثقافة اليابانية، والسينما اليابانية، والأدب الياباني. وشعرت شعوراً جازماً بأن النبيذ هذه المرة أفضل من المرة السابقة، أو الأدق أن نقل، شعرت حلمات التذوق بلساني وسقف حلقي بأن النبيذ هذه المرة أفضل من المرة السابقة، أفضل بكثير جداً، في الحقيقة. فقلت هذه بركات الولد الأولمبي الظريف. لابد وأن عندهم ستوك نبيذ جيد للناس المخصوصة وللمناسبات المخصوصة. أو للطيارين ولطاقم الضيافة شخصياً، من يدري؟! يا عمي هؤلاء أناس فتحوا لي القنصلية يوم الجمعة في الأجازة مخصوص وطبعوا لي فيزا من برنتر الفيزات وأنا واقف، قصدي وأنا قاعد حاطط رجل على رجل، فالوسايط والمحسوبيات والكوسات والباذنجانات هذه مسائل مفروغ منها وشارقة كالشمس عند الفرنساويين، والفرنساويات برضو عشان تبقى عارف يعني، إسأل أخوك! المهم برضو كتر ألف خيرالبنية، متوصية بيا، وبدون سابق معرفة الحقيقة. استلطاف؟! جايز جداً. ياريت!

وأنهيت طعامي. ولموا الصواني. وبعد برهة، شرعوا في توزيع الشاي والقهوة، الذي أتذكر جيداً أنهم كانوا يوزعونه بعد الغداء أيضاً في الطائرات عندما كنت طفلاً. وكان مضيف في

أوائل الثلاثينيات أو منتصفها، يساعد المضيفة الأولمبية في دفع عربة المشاريب. وكانت المضيفة تسأل كل مسافر عما إذا كان يحب أن يشرب شاياً أم قهوة؟ وتصب له ما يريده من ترموس معدني كبير في كوب بلاستيكي كبير أيضاً. وعندما وصلت العربة الترولّلي بالقرب مني، نزعت سماعتي الأذن، وشببت برأسي عالياً، علامة أنني أريد أن أهمس لها بشيء خصوصي بعض الشيء، فدفعت العربة، بدلاً من زميلها المضيف، إلى الأمام قليلاً حتى تفسح مكاناً لنفسها لتنحني عليّ، وناولتني أذنها، فقلت:

- من فضلك، أنا أشعر ببعض الدوار، ربما يكون من إرهاق السفر، ولست معتاداً على تناول أدوية الصداع لأنها تتعب معدتي، فإذا كان من الممكن أن تسمحي لي بكوب آخر من النبيذ سأكون شاكراً جداً لكِ يا سيدتي!

- أنت تناولت بالفعل كوبين ولوائح الطيران تمنع تناول المزيد!

- آه، فعلاً! خسارة! لا بأس، شكراً على لطفكِ على أية حال.. لا لا، شكراً، لست في حاجة لا لشاي ولا لقهوة، شكراً جزيلاً يا سيدتي!

دفعت المضيفة عربة المشروبات، وساعدها زميلها الذي كان يصب الشاي والقهوة لبعض الركاب هناك في الناحية الأخرى. ثم فجأة، رجعت بظهرها بسرعة، ووضعت كوباً بلاستيكياً مغلقاً

بغطاء على المائدة أمامي. ونظرت لي نظرة جانبية لائمة ومتواطئة في نفس الوقت، كنظرة شخص يخرق النظام من أجل عزيز لديه. فرفعت كفيّ الملتصقين، بسرعة بديهة لا تتوافر لديّ كثيراً في الأوقات الطبيعية، وحييتها بالتحية الهندية.

وذكرتني نظرة اللوم والتواطؤ للمضيفة الكريمة، فوراً، بنفس نظرة أبلة منيرة؛ مدرستي الليبية في سنتي الثالثة بالمدرسة الابتدائية الصغيرة في طرابلس، حين عجزت عن الإجابة مرة في أحد الامتحانات، فغششتني وهي واقفة بالقرب مني، ونظرت لي نظرة لوم وعتاب، لأنني كنت متفوقاً، والأول على الفصل، بل وعلى المدرسة كلها. وكنت أعشق أبلة منيرة عشقاً! وكنت على استعداد، في تلك السن الصغيرة، لأن أفعل أي شيء، أي شيء، لكي ترضى عني أبلة منيرة، ولكي تواصل حبها لي. لأنها، في الحقيقة، كانت تحبني، وكانت مبهورة بتفوقي وذكائي، ودائماً ما تقبلني في كل مناسبة، وبغير مناسبة، لا في الفصل أمام التلاميذ والتلميذات، لأن هذا كان سيكون محرجاً جداً بالنسبة لي، ولكن في كل مكان آخر بالمدرسة؛ وخصوصاً في الردهات المظلمة، وفي حجرة المدرسات الفارغة، وفي الطابق الأرضي الشاغر للإدارة، وفي الأماكن الأخرى التي من هذه الشاكلة.

وربما كان عشقي للنحيفات، وذوات القوام الصبياني الغلامي، وممسوحات الصدر، هو نتيجة لحبي لأبلة منيرة الليبية وأنا في تلك السن الصغيرة. بل مرة فكرت إنه ربما كانت هي التي وراء عشقي لشعر إبط النساء، وشعر النساء عموماً في

الأماكن الأخرى التي تعرفها، لأن شعر إبطها كان كثيفاً جداً، وكنت أراه دائماً في الصيف وهي ترفع ذراعها وتشرح على السبورة، أو في الردهات المظلمة حين تميل علي لتقبلني.

وعندما انتقلت إلى السنة الرابعة الابتدائية ولم أجد أبلة منيرة الليبية في الفصل، بل سيدة أخرى بدينة؛ هي أبلة نسرين الفلسطينية، ظللت أبكي لأمي وأبي في البيت لأسابيع متواصلة من أجل أن ينقلوني إلى فصل أبلة منيرة، ولم أقتنع بسهولة أن أبلة منيرة تدرس فقط للسنة الثالثة الابتدائية، وإنني الآن في السنة الرابعة، وأن أبلة نسرين الفلسطينية هي المدرسة للسنة الرابعة الابتدائية.

وربما كان كرهي للبدينات، اللهم إلا البدينات لسبب مرضي أو شيء من هذا القبيل لا يد لهن فيه، أما بخلاف ذلك، أي إن كانت البدانة واللهط والشفط والشره لدى إحداهن قراراً واعياً، فأنا أكره هذه الكائنات التي تأخذ أكثر من حقها من الحياة، وتروح تراكم الشحوم فوق الشحوم، كالرأسمالي القذر الذي يروح يراكم النقود فوق النقود؛ أقول إنه ربما كان كرهي للبدينات قد بدأ منذ الطفولة بسبب أبلة نسرين، لأنها كانت قاسية، ولم تحبني كثيراً على ما أتذكر، ولم تقبلني مطلقاً في يوم من الأيام. وربما كان هذا أيضاً سبب كرهي للسيدات الكبار في السن، لأنها كانت كبيرة في السن إلى حد ما، ومترهلة، لا شابة لطيفة رشيقة في مقتبل العمر وعنفوان الصحة مثل أبلة منيرة الليبية. وأبلة نسرين الفلسطينية كانت تعطيني درجات متوسطة، ولم تعطني أبداً

الدرجة النهائية، مثلما كانت تفعل أبلة منيرة الليبية. وهذا ما أدى إلى أن يتراجع تفوقي على مستوى المدرسة، بالرغم من أنني كنت ما أزال الأول على الفصل، لأن أبلة نسرين كانت تعطي باقي زميلاتي وزملائي في الفصل درجات أسوأ بكثير من درجاتي، ولا أعرف سبب هذا البخل الدرجاتي لأبلة نسرين الفلسطينية، أقول إن درجاتي على مستوى المدرسة قد تراجع، وتقدم عليّ المنافس الليبي في الفصل المجاور لفصلي، وأصبح هو الأول على المدرسة، ولا أنكر أنه كان عبقرياً ذا ذاكرة جبارة طالما أبهرتني ونحن نستعرض معلوماتنا في الفسحة المدرسية، أو الاستراحة بالتعبيرات المدرسية الليبية لو لم تخني الذاكرة. لكن مع ذلك، لولا درجات أبلة نسرين المتدنية، لما أصبح ذلك الولد الليبي، الذي للأسف لم أعد أذكر اسمه منذ زمن طويل، هو الأول على المدرسة في تلك السنة!

هذا على الرغم من أن أبلة نسرين كانت صديقة لأمي. حرفياً، كانت صديقة لأمي. وكانت تسكن بجوارنا في نفس الشارع وعلى بعد عدة منازل، أو أحواش بالتعبير الليبي الذي ما زلت أتذكره. والحوش يا عزيزي هو تقريباً فيللا من طابق واحد، أو بيوت تشبه بيوت النوبيين القديمة الجميلة لو كنت قد شاهدتها في الصور الفوتوغرافية أو شيء من هذا القبيل. والحوش الواحد تسكنه عائلة واحدة فقط لا غير، وهو متسع جداً، وهناك بالداخل: غرف عديدة، ومطبخ كبير، وحمام كبير، وصحن كبير في وسط الدار يطل على السماء المفتوحة، وهناك أيضاً السطوح؛ وهو بمساحة البيت كله، أو الحوش كله، وكان بعض الجيران يقيمون

فيه بعض الهياكل الخشبية ويزرعون فيه عريشة عنب، وكنا نسرق منها ونحن صغار في موسم العنب، وكان طعمه مراً وحامضاً، ولكن فعل السرقة كان يضفي عليه حلاوة المغامرة وإثارتها. أما سطوحنا نحن، فكنت ألعب فيه كرة القدم، أو البسكليت، وكانت أختى تنط فيه الحبل، وتلك الألعاب الأخرى البناتي التي يرسمون فيها علامات ومربعات على الأرض ثم يضعون حجراً في مربع ويكون على البنت أن تحجل بقدم واحدة والأخرى مثنية للوراء وتدفع بقدمها الحجر من مربع إلى آخر ولا أدري ما هو وجه المتعة في شيء سخيف مثل هذا ولكن عموماً كانت الفتيات الصغيرات في ليبيا يلعبن مثل تلك الألعاب وإن كن جماعة يلعبن فتحي يا وردة سكري يا وردة وهي لعبة تمسك فيها الفتيات بأيدي بعضهن البعض ليشكلن دائرة ويرحن يغنين فتحي يا وردة ويتحركن حتى تتمدد الدائرة وتنفتح ثم يرددن سكري يا وردة ويتحركن حتى تنكمش الدائرة وتنغلق وسكري بالليبي يعني أغلقي وليس كما تعني في اللهجة المصرية أي ضعي مزيداً من السكر.

وكنا كثيراً ما نتزاور، نحن وأبلة نسرين وأولادها، لأن البيت كان بجوار البيت، كما سبق وقلت. وكنا حين نزورهم تقدم لنا أبلة نسرين البيتزا الفلسطينية بالزعتر، والقراقيش والمناقيش الفلسطينية بالزعتر، وخبزاً آخر محمصاً بالزعتر، وشاياً بالمراميّة، وأشياء فلسطينية أخرى من هذا القبيل. وكانت ابنتها، وقد نسيت اسمها منذ زمن طويل، زميلتي في نفس الفصل عند أمها، لكنني كنت متفوقاً عليها جداً، وكانت نوعاً ما بليدة في

الدراسة، بالرغم من جمالها الباهر. وكانت البنت لا تطيقني، لا أدري لماذا، ولا أذكر أنه طوال عشرتي لها في الفصل، أو خلال زيارات الأهل، قد تبادلت معي أية كلمة على الإطلاق، ولا خصتني بأي اهتمام من أي نوع، بل كان التجاهل التام هو سمة العلاقة بيننا، أقصد من جهتها هي، فمن جهتي أنا، كنت أتمنى ولو كلمة واحدة منها، أو حتى نظرة اهتمام. وعلى العكس، كان أخوها، الذي كان يكبرها بعام أو اثنين على ما أتذكر، ولم يكن تلميذاً في مدرستنا، بل في مدرسة أخرى قريبة من مدرستنا، وقد نسيت اسمه هو الآخر منذ زمن طويل، أقول كان أخوها اجتماعياً وعشرياً ومتكلماً فصيحاً وذا نشاط زائد ودائم الحركة لا يهدأ في مكان ولا يستقر على حال. وكنا نقوم بمغامرات في الشارع، أتذكرها على نحو غامض ضبابي، وكلها كانت تحدث في الليل، وهناك شيء ما ضبابي في الذاكرة يشبه السطو أو سرقة أشياء ما، وقد تكون السطو على عنب الجيران، في الحقيقة لم أعد أذكر إلا أننا كنا نقوم، برفقة بعض أبناء الشارع من جيراننا الليبيين، ببعض المغامرات الليلية المتهورة في الشارع. لكن ما أذكره جيداً أن ابن أبلة نسرين كان نهماً جداً حين يتعلق الأمر بالفزدق. هذا، بالرغم من أن الولد كان نحيفاً، بل شديد النحافة فيما أتذكر، واخته أيضاً كانت نحيفة، ولا أتذكر الأب على الإطلاق، وسبحان الله يخلق من أبلة نسرين ولداً وبنتاً شديدي النحافة!

المهم أن أخينا هذا قد أكل مرة حوالي كيلو فزدق كامل من صينية كانت لدى أمي في البيت تقدم منها للضيوف. فقد كنا نلعب مرة في الشارع، ثم تسحب هو ودخل لبيتنا والتهم كل صينية

الفزدق الموضوعة على مائدة الطعام أو مكان ما بالنيش هناك، لأنني لا أتذكر بالضبط خريطة الأثاث الذي كان عندنا في حوشنا في طرابلس. وحينما دخلنا ورأينا كمية قشر الفزدق الرهيبة المكومة هناك على مائدة الطعام، وأعني بالرهيبة: الرهيبة بكل ما في الكلمة من معنى، سمعناه يقول: حلبي حلبي فزدق حلبي! وهو يمضغ حبات الفزدق ويلوكها في فمه المليء بها عن آخره! وما يزال صدى الكلمة يرن في أذنيّ كلما رأيت فزدقاً مملحاً في مقلى من مقالي مصر، حينها تقفز فوراً إلى ذهني صيحات ابن أبلة نسرين: حلبي حلبي فزدق حلبي!

واستاءت أمي يومها من فعلته تلك. وأرجوك ألا تتسرع في الحكم على أمي بالبخل أو بشيء من هذا القبيل، فقد كانت، رحمة الله عليها، سيدة كريمة بحق. لكن ما أثار استياءها كان السلوك والآداب والتصرفات والتربية، لا كيلو الفزدق الذي كانت تدخره للضيوف، ففي النهاية، مطرح ما يسري يمري وبألف هنا وشفا يا ابن أبلة نسرين وأخو الصغيرة رائعة الجمال المتعالية!

نزعت الغطاء عن كوب النبيذ البلاستيكي، ورشفت منه رشفة مترعة. وكان، كما توقعت، من النبيذ السيء الذي شربته أول مرة. فيبدو أن النبيذ الجيد المخصص للطيارين وطاقم الضيافة كان هناك في الركن الخاص بالمضيفات، والذي به دولايب الطعام والمشروبات، والمضيفة حين أحبت أن ترضيني بكوب من النبيذ خارج لوائح الطيران المدني، لم تجد الفرصة للرجوع إلى هناك، فأحضرت لي بسرعة كوباً من نبيذ الركاب

من ترولللي عربة المشروبات.

قلت لا بأس، ونبيذ سيء أفضل من لا نبيذ على الإطلاق. وصدقني إنه بعد الكوب الثالث لن تشعر بأية فروق بين المشروبات الكحولية على الإطلاق. صحيح، عندك حق، مصحصح أكتر مني يا معلم، كان هذا فعلاً هو الكوب الثالث، ولذا فلابد وأن تشعر بالفرق. معلش، برضو نبيت وحش أحسن من ما فيش ياريس وكتر خير البنية ألف مرة!

وأنهيت كأسي. وثقلت رأسي. وعملت الخمرة مفعولها أخيراً. فوضعت كوب النبيذ الفارغ في شبكة ظهر الكرسي الذي أمامي، ورفعت مائدة الطعام وأعدتها لمكانها وثبتها بالمزلاج. وأرحت رأسي على مسند مقعدي. وأرجعته درجة إضافية إلى الخلف، من زر الإرجاع في مسند اليد. ووضعت الغمامة الزرقاء على عينيّ. وأغلقت عينيّ. ورحت في سبات عميق.

وصحوت على تغيير في الضغط الجوي، على إثر هبوط حاد بعض الشيء في مسار للطائرة. ولن يفلح وصف هذا الشعور إن لم تكن قد جربت بنفسك التغيير في الضغط الجوي بداخل مقصورة ركاب طائرة تطير في الجو. ورفعت الغمامة عن عينيّ، وحانت مني التفاتة إلى شباك الطائرة، فوجدت أن الغيوم البيضاء قد بدأت بالتلاشي، وأن الأرض قد بدأت بالظهور في الأسفل. فانتقلت إلى كرسي النافذة.

واستغرقتني المناظر. ونسيت نفسي. ونسيت الزمن.

وصدقني إن قلت لك بإن المناظر التي رأيتها من نافذة الطائرة كانت أجمل مناظر خلوية وطبيعية شاهدتها في حياتي! خدعوك فقالوا: الريف المصري. لقد ُخدعنا يا رفيق عندما أقنعونا بجمال الريف المصري وروعة الريف المصري ومحلاها عيشة الفلاح ويا للي زرعتوا البرتقان وكل تلك الأشياء. إن أردت أن ترى ريفاً بحق، فتمتع بالريف الفرنسي، وخصوصاً في الجنوب! تولون، ومارسيليا، وتولوز، وكلير مورفران، وبوردو، وكل تلك المدن الجميلة. وكنت أعلم أن أمامنا رحلة طويلة حتى باريس في الشمال. فبالرغم من أنني كنت نازلاً في تولوز، لأن ورشة العمل في تولوز، إلا أن حجز تذاكر الطيران كان: القاهرة-باريس، ثم باريس-تولوز. ودنك منين يا جحا!

لكن الحق يقال كنت سعيداً للغاية بهذه الرحلة الإضافية من المتعة. من فينا تتاح له فرصة مشاهدة الريف الفرنسي الجميل من الطائرة، والاستمتاع لساعة أو شيء من هذا القبيل، ثم يفوت الفرصة لأنه مستعجل قوي وعاوز ينزل بسرعة تولوز البلد!

وزاد من متعة المَشاهد أن الطائرة كانت قد اتخذت مساراً منخفضاً بعض الشيء، حتى تكاد في بعض الأحيان أن ترى حركة الأفراد في المزارع والأنهار والشوارع وعلى أسطح الأبنية. وكانت تدرجات ألوان المزروعات مبهرة، بل شديدة الإبهار، والحق يقال! ولأول مرة في حياتي أرى نباتات وزراعات بهذه الألوان: أحمر قاني، وبنفسجي، وذهبي، وأصفر كناري بلون فانلة منتخب البرازيل، وأزرق ملكي، وأزرق داكن،

وبرتقالي، وبني، وكل درجات الأخضر من الفاتح الزرعي حتى الداكن الأقرب إلى الأزرق أو الأسود وكل تلك الألوان الأخرى المتعددة في درجات الطيف وقوس قزح والأشياء المشابهة. وقلت في نفسي: لابد وأن التربة هنا خصبة جداً حتى تنتج كل هذه الروعة من الألوان والأنواع والأشكال النباتية المبهرة!

والأجمل والأروع والأمتع، أن تلك التلال والحقول والبساتين كانت في أشكال هندسية محسوبة بدقة بالمسطرة، فلا تجد عشوائية في المساحات أو تداخل غير محسوب في الألوان. كانت هناك يد خبيرة وذكية وصارمة وراء تخطيط المساحات اللونية للزراعات والأجمة والأشجار، بحيث يحدث تتابع للألوان يأخذ أنفاسك أخذاً.

ولم يكن هذا التنسيق مقتصراً على الحياة النباتية والمساحات الزراعية فقط، بل كان ظاهراً وواضحاً بأشد الظهور وأعمق الوضوح في الأنشطة العقارية والمباني السكنية والقلاع والكنائس والكاتدرائيات والأشياء التي من هذا القبيل.

في بعض الأحيان، خصوصاً في الحقول الزراعية الكثيفة، ووسط البساتين الملونة البهيجة، كانت تتناثر بعض البيوت، لأصحاب هذه المزارع ولا شك، في طرز قوطية قديمة، كأنها صور من كتاب التاريخ. فكنت ترى بيوتاً بيضاء، بأسطح من القرميد الأصفر أو البني الفاتح، وحولها أجمة من الشجيرات، أو بساتين من فواكه غير واضحة من هذه المسافة. ويمكنك أن ترى

بوضوح أيضاً أسوار كنيسة أو كاتدرائية قديمة من الحجر البني في كل قرية من تلك القرى أو تجمع من تلك التجمعات. وفي كثير من الأحيان، ترى أيضاً قلعة قديمة بأسوارها الدفاعية المميزة.

وفي أحيان أخرى، كنا نمر على تلة كبيرة من البيوت المتراصة جنباً إلى جنب. أو مدينة صغيرة ذات هندسة بديعة في توزيع مبانيها وشوارعها. وأحياناً، كنت ترى لوناً واحداً لكل البيوت في التلة، أو في المدينة الصغيرة؛ أبيض مثلاً، أو رمادي، أو بني. وفي مواضع أخرى، كنت ترى بالتة رائعة من الألوان المتناسقة للبيوت المتلاصقة؛ أصفر، وبرتقالي، وأحمر، وأبيض، ورمادي داكن، ورمادي فاتح، وأزرق. وكلها بسقوف مائلة ومنحدرة من القرميد الأحمر، وأحياناً، من القرميد المدهون باللون الأسود أو الرمادي الغامق، وهي أسطح الأبنية اللازمة للأجواء الشتائية والباردة في أوروبا للحماية من الأمطار.

ومررنا على مدن، ومررنا على أنهار، ومررنا على مدن على أنهار. ولاحظت شيئاً ملفتاً جداً في المدن التي على أنهار. لم تكن المباني فيها عالية كثيراً، بل ستة أو سبعة طوابق على الأكثر. ولم تكن كلها مبنية في مستوى واحد، بل متدرجة، وكأنها مبنية على تل، بحيث أن المبنى الذي يقع على مبعدة من النهر، بإمكان الواقف في شرفته أن يرى مياه النهر، فلا تحجبه المباني التي أمامه.

وسرحت في تتابعات هذه المناظر الجميلة، فلم أحسب الوقت، ولا حتى شعرت بمرره. لكن مناظر جميلة من هذا القبيل لابد وأن تدفعك، دفعاً، للتساؤل عن السلطة التي تخلق كل هذا الجمال وتقف وراءه؟! ما هي السلطة التي تخلق المدينة؟! ما هي السلطة التي تخلق كل الجمال والطمأنينة والراحة لساكني مدن من هذا النوع؟! إذا كان لي أن أخمن في هذا المقام ومن هذه الأجواء الفرنسية الجميلة، فهي عندي، بالتأكيد، سلطة المعماري، أو سلطة الفنان التشكيلي. قد يتخذ رأس المال، أو سلطة الحي، أو المجلس المحلي، أو رئيس المدينة، أو غيرهم، القرار ببناء بناية أو مرفق ما، لكنه بالتأكيد، المعماري، أو التشكيلي، هو الذي يقرر شكل البناء، ويضع تصوراً لمحيطه الخارجي. هذا هو التفسير الوحيد لكل هذا الجمال المعماري الفرنسي الذي أراه من نافذة الطائرة.

ولا شك أن هذا يجر المرء إلى التحسر على حالنا، بوصفنا في مصر أول حضارة إنسانية وأقدمها، وأكثر من اهتم من الجنس البشري على مر العصور بمسألة البناء، والجمال في البناء. ولك أن تعرف مثلاً، يا عزيزي، أن أسس الفن المصري الفرعوني في العمارة وفي النحت وفي التصوير ظلت ثابتة لأكثر من ثلاثة آلاف عام. وكان الفنان المصري القديم حين يختار تصوير أو نحت موضوع ما، يحافظ على أسلوب واحد متميز لا يتغير؛ ألا وهو تصوير موضوعه وهو في ريعان الصحة والقوة والجمال. وقد كان النحات، مثلاً، يعتقد أن تمثال الشخص هو مسكن دائم لروحه، وعلى صورة ذلك التمثال إنما يُبعث بعد

الموت. ولذلك حرص على نحت وتصوير الإنسان على الصورة التي يرغب في تخليد نفسه فيها؛ أي وهو في ريعان الصحة والقوة والجمال، وبالنسب القياسية لجمال الشكل الإنساني؛ فيظهر الرجال بصدور عريضة وقوية، وتظهر السيدات نحيفات وذوات سيقان طويلة؛ وتمثال نفرتيتي هو النموذج للمثالية في نسب الجسد الإنساني. ومن النادر أن نعثر في الفن الفرعوني على رسم أو منحوت يصور التقدم في العمر، أو البدانة، أو الضعف الإنساني، أو الانحراف عن المثالية في الجمال؛ لدرجة أننا نتعرف على الفرق بين زوجة صاحب المقبرة وأمه من التعليقات الهيروغليفية المصاحبة للرسم، لا من الرسم نفسه. فانظر اليوم إلى حال أحفاد الفراعنة، وإلى كل هذه الفوضى والقبح والتلوث العمراني الذي نحيا فيه في المحروسة! من أين أتت كل هذه الفوضى، وما هي السلطة التي تقف وراءها بالضبط؟! ما هي السلطة التي تخلق المدن عندنا في مصر؟! أو بتعبير أدق، ما هي السلطة التي تخلق كل هذا القبح والتلوث والأخطاء العمرانية عندنا في مصر؟!

واستمرت المناظر العلوية الجميلة، حتى وصلنا إلى باريس، وحطت الطائرة أخيراً في مطار شارل ديجول. وأخذ الطيار وقتاً طويلاً نسبياً حتى توقف أمام ممر إنزال الركاب. وكنت أسمع أن مطار شارل ديجول كبير جداً، وحركة الطائرات به كثيفة للغاية، إقلاعاً وهبوطاً، من وإلى كل أنحاء العالم. فطبيعي أن يأخذ الطيار وقته حتى يجد مكانه المخصص لكي يركن الطائرة بسلام. وحالما توقفت الطائرة، وقف المسافرون متأهبين للنزول. وأنزلت

أنا الآخر حقيبة الهاندباج من كابينة الأمتعة فوق رأسي، وحملتها على كتفي، وانتظرت بين الكراسي حتى أجد مساحة لأقف فيها بين صف الركاب الذين ازدحم بهم الممر. ومشيت مع الركاب حتى باب الطائرة. وكانوا قد فتحوا الباب القريب من ركن المضيفات ودواليب الأكل. واصطف طاقم الضيافة، ومعهم الطيار ومساعده، ليحيونا ونحن نغادر الطائرة. وحالما اقتربت من المضيفة الرياضية الكريمة، سيطرت عليّ فكرة معينة سيطرة رهيبة؛ ألا وهي أن أرتمي على قدميها وأن أقبلهما بشفتيّ! قد يكون بسبب شعوري بالامتنان تجاه كرمها معي، أو نكاية في رفيقتها الغلامية الصبية التي كانت تقف إلى جوارها، والتي تجاهلتني تماماً طوال الرحلة، بالرغم من النظرات الملحة التي كنت أرشقها بها طيلة الوقت، وهذا ما لم أقله لك من قبل، ولكن ها أنا ذا أصرح به الآن، نعم فعلت، والبنت لم تعبِّرني! بل أكثر من ذلك، إن أردت الصراحة الكاملة، فقد مر الغلام المتعالي من الممر المجاور لي عدة مرات، رائحة غائدة، ولم تنظر لي حتى نظرة واحدة، بالرغم من أنني قد انتقلت خصيصاً إلى كرسي الممر من أجلها، وليس لأي سبب آخر قد ذكرته لك من قبل، أو قد يكون بسبب السببين كلاهما، أو شيء من هذا القبيل.

ومن الجائز أنك تعرف أن فكرة الارتماء على قدمي آنسة أو سيدة وتقبيلهما هي فكرة من الأفكار الروائية التي كثيراً ما تسيطر على شخصيات دوستويفسكي المجنونة الهائجة، التي تصاب بانفعال عارم جامح لا يمكن كبحه فتروح تسجد وتقبل قدمي سونيا، أو صوفيا، أو فرفارا، أو آنا، أو ناستازيا، أو ليزا،

أو كاترين، أو جورشنكا، أو آجلايا، أو ألكسندرا، أو آديلائيد، أو إليزابث، أو ناديا، أو ماريا، أو مافرا، أو ليديا، أو باربرا، أو دونيا، أو آليونا، أو لينيا، أو باولين، أو تانيا، أو نينا، أو فاريا، أو فيرا، أو مارتا، أو غيرهن.

وإن كنت تعرفني، فستعرف بأنني في لحظات الهياج العصبي العابرة، وحالات السيطرة المؤقتة للفكرة الواحدة التي من هذا القبيل قادر على الإتيان بمثل تلك الأفعال، بل وبأكثر، وفي عقر داري يا رفيق، أي في القاهرة، فما بالك ونحن في الغربة، وأنا لا أعرف أحداً لكي أخجل منه، ولا أحد يعرفني ليلومني أو ليمسكها عليّ ذلة! كما لا يأخذك الظن بأن العبد لله راجي عفو ربه سليف، أي مازوخي، أي من الذين يتلذذون بالتعذيب والمذلة التي تنزلها به رفيقته الجنسية، فأنا في الحقيقة أبعد ما أكون عن ذلك إلى حد ما، باستثناء تلك المواقف العادية التي تعرفها والتي تستلزمها الإثارة في السرير. كما أنني لست سادياً أيضاً إلى حد كبير، باستثناء تلك المواقف التي تعرفها والتي تستلزمها الإثارة في السرير إن جاز لي القول. لكن، في الحقيقة، كل ما كان في الأمر هو أنه حالما واتتني فكرة السجود وتقبيل قدمي البنت امتناناً وعرفاناً وشكوراً، وجدت فيها جمالاً فنياً وأدبياً دوستويفسكياً شعرت معه بإغراء لا يقاوم لتنفيذ الفكرة!

لكنني أمسكت نفسي بمعجزة من تلك المعجزات في ضبط النفس التي من النادر أن أنجح في القيام بها. ولم يكن ذلك بسبب خجل أو شيء من هذا القبيل. لكنني قدرت أن البنت سوف تُحرج

إن قمت بهذه الحركة أمام زملائها وزميلاتها وباقي المسافرين، فلم أحب أن أسبب لها أي إحراج من هذا النوع. واكتفيت بأن أمسكت بيدها بكلتا يدي وأنا أشكرها بحرارة.

وقد أكون بالغت في شكري، أو في الشد على يديها، لأن البنت ضحكت بالرغم عنها. وربما اعتبرت أنني قد سكرت بعض الشيء. وفي هذا لا ألومها، في الحقيقة، لأن تصرفاتي ربما شابها بعض المبالغة.

ومشينا في ممر الركاب الذي يصل الطائرة بمطار شارل ديجول من الداخل. وسرنا فترة طويلة في ممرات التفافية، ذكرتني بالطرق الالتفافية التي كنا نقرأ عنها في الصحف والتي تجبر فيها إسرائيل الفلسطينين على قطع مسافات التفافية طويلة حتى يصلوا من مكان قريب إلى مكان قريب، ودنك منين يا جحا، غلاً ونكاية وتشف وفجوراً!

وبعد انتهاء الممر الطويل للركاب، نزلنا عبر سلم كهربائي إلى صالة مطار شارل ديجول الداخلية. وأحب أن ألفت نظرك إلى أن السلم الكهربائي في شارل ديجول كان يعمل فعلاً، وليس مثل السلم الكهربائي المعطل في مطار القاهرة؛ والذي هو عطلان إما لإنه عطلان فعلاً بسبب فساد في التعاقد مع الشركة التي قامت بتركيبه منذ البداية، أو لأنهم يوفرون في مصاريف الكهرباء والتشغيل والصيانة فقاموا بإيقافه عن العمل، وفي كل الأحوال، هذه هي طبيعة الإدارة في مصر هذه الأيام كما تعلم.

وصدمت صدمة شديدة، والحق يقال، لما نزلت إلى صالة شارل ديجول؛ وخلتني في وسط سوق الجمعة عندنا في القاهرة! وسوق الجمعة، أو سوق الإمام إنت شئت يا معلم، هو المثال الذي نضربه، نحن القاهريون، للدلالة على الازدحام والتكدس والفوضى العارمة. وهو سوق يقع بين مقابر القاهرة؛ أي نعم مقابر القاهرة ووسط شواهد القبور يا كوتش، وهكذا فأنت ترى أن المصريين يحبون المزج ما بين الموت والحياة ولديهم حس دعابة عال في هذا الخصوص. ومن اسمه تستطيع التخمين بسهولة أنه يقام في يوم الجمعة فقط، وعقب صلاة الجمعة طبعاً، أو على الأقل هكذا كانت مواعيده قديماً، أما الآن، وبسبب الحالة الاقتصادية المتدهورة يوماً بعد يوم، والبطالة المتفشية في كل مكان، فهو موجود في كل أيام الأسبوع، ولكنه يصير أكثر ازدحاماً يوم الجمعة لأن الناس قد اعتادت على حضوره يوم الجمعة عقب الصلاة.

وبإمكانك أن تجد أي شيء في سوق الجمعة إن كان هذا الشيء قابلاً للبيع والشراء. وفي كثير من الأحيان تجد أيضاً أشياء تباع هناك لم يكن يخطر على بالك في يوم من الأيام أنها قد تباع أو تشترى. ومنذ شهر تقريباً، وأثناء تجوالي هناك، لأن عملي في فيلم المقابر يوجب عليّ زيارة هذه الأماكن بانتظام، عرض عليّ أحد بائعي الأنتيكات هناك ملفات وظيفية كاملة بالتاريخ الوظيفي الكامل لبعض موظفي مصر في القرن التاسع عشر! بالمستندات الكاملة لحركة الترقيات، والتنقلات، والتظلمات، والعلاوات، والتحسينات، ولفت النظر، وهلم جرا.

وهكذا فأنت تجد هناك الإبرة وتجد هناك الصاروخ، وتجد هناك ما بينهما. وإن كنتَ بصدد فرش وتأثيث شقة صغيرة أو فيللا كبيرة، فستجد كل ما تحتاجه هناك من: أطقم حمامات جديدة ومستعملة، ودواليب وسرائر جديدة ومستعملة، وأقمشة تنجيد وستائر جديدة ومستعملة، وملابس وأحذية جديدة ومستعملة، وأدوات مائدة جديدة ومستعملة ومشروعة ومسروقة، ونجف وفوانيس وأباليك، وأدوات كهربائية جديدة ومستعملة، وأسماك زينة، وطيور للأكل وطيور للزينة، وقطط وكلاب أليفة، وزواحف برية، ومواشي وأغنام، وصابون ومستحضرات تجميل ومستحضرات تنظيف، وأنتيكات بمختلف أنواعها وطرزها وأعمارها، ومحتويات شقق قديمة معظمها مسروق والقليل منها مشروع، وتلال من خردة أجهزة الكمبيوتر المكسورة والخربانة بمختلف أنواعها وسنوات صنعها، ومش وجبنة قديمة، وملوحة وسردين ورنجة وفسيخ، وسجائر مهربة من الجمارك، ودراجات هوائية، ودراجات نارية مشروعة ومسروقة، وبراويز ومرايات، وعدد شاي وقهوة ولوازم مقاهي وكافيهات مستعملة وجديدة، وأصص نباتات ظل وزينة متنوعة، وصبار بمختلف أنواعه وأحجامه، وطواويس ملونة، وسياط سودانية من ذيول الثيران، وغيرها الكثير والكثير والكثير.

وأؤكد لك إنه لن يكفيني أربعين مجلداً لكتابة فهرس، ليس إلا، لأنواع وأشكال الأشياء التي تباع هناك في سوق الجمعة، وهو نفس عدد مجلدات الفهارس الخاصة بمحتويات وثائق الجينيزا التي حصلت عليها جامعة أكسفورد من مصر، بطريقة

غير مشروعة بالطبع، فتخيل إن كانت الفهارس، وحدها، أربعين مجلداً، فما هو حجم وثائق الجينيزا التي سرقتها أكسفورد من مصر؟!

ووثائق الجينيزا يا رفيق هي كل وثيقة، سواء أكانت رسمية أم غير رسمية، دينية أم مدنية، ُذكر فيها اسم الله، ووردت في أية ورقة تداولها اليهود في مصر. وكانوا يحتفظون بها، ولا يرمونها ولا يحرقونها، في حجرة سرية خاصة في كل معبد يهودي، ولا يعرف مكان تلك الغرفة السرية ولا مدخلها المموه جيداً إلا الحاخام فقط، أو الراباي إن شئت، وربما بضع من كبار أفراد الجالية اليهودية الموثوق بهم أيضاً.

ولك أن تتخيل السجل الاجتماعي لمصر، أو حتى لأية دولة بها معبد يهودي به جينيزا، الذي تحتويه هذه الأوراق! ففي حجرات الجينيزا السرية كانت تتراكم أطنان الأوراق على مر مئات السنين لأشياء من قبيل: حجج ملكية الأراضي، وحجج ملكية البيوت، ودعوات الزواج بأسماء العائلات وأقاربهم، ودعوات التهاني بالمواليد، والعزاء للمتوفين، والمباركات لمن حصل على ترقية أو وظيفة مرموقة أو شيء من هذا القبيل، والدعوات لاجتماعات رسمية، أو مناسبات اجتماعية، ودعوات للحفلات الموسيقية والفنية، وقصاصات الجرائد التي ورد فيها اسم الله، والمراسلات بين الشركات التي ورد فيها اسم الله، والمراسلات بين المدارس والأهالي التي ورد فيها اسم الله، والمراسلات بين الأفراد وبعضهم البعض التي ورد فيها اسم الله،

وإلخ إلخ إلخ.

وتخيل كم معبداً يهودياً عندنا في كل أنحاء مصر، لتعرف كم حجرة جينيزا كانت لدينا، وحجم الوثائق التي كانت فيها! وفي الفوضى التي صاحبت السبعينيات والأخ أنور السادات وانفتاحه السداحي مداحي وكل تلك المهاترات، جاء بعض المغامرين واللصوص إلى مصر، واستعانوا ببعض الموظفين من هيئة الآثار الذين يعملون في قسم الآثار اليهودية ويعرفون الأمكان السرية لغرف الجينيزا في المعابد اليهودية المصرية، وقام هؤلاء بقبض المعلوم، الذي نتمنى على الأقل أن يكون مبلغاً محترماً وإلا لكانوا حميراً وبهائم بالإضافة إلى كونهم خونة وفاسدين، ثم فتحوا حجرات الجينيزا للصوص الإنجليز، الذين نهبوها، وأخرجوها من المطار علانية، والبركة في الأعين الساهرة الساهمة المسبلة لشرطتنا الغراء في مطارات المحروسة، ونرجو أيضاً أن يكونوا قد حصلوا على مبالغ محترمة وإلا لكانوا، بالإضافة إلى كونهم حميراً وبهائم كما هو معلوم للكافة، مغفلين أيضاً في النهاية.

واشترت جامعة أكسفورد الوثائق الثمينة من اللصوص الإنجليز، وأعدوا فهرساً يصنف محتوياتها في أربعين مجلداً يا ريس مجلداً ينطح مجلداً، فانظر إلى مصر كيف تنهب، وكيف يستشرى فيها الفساد حتى لتكاد المسكينة أن تختنق من رائحته النتنة، وحتى صار من قبيل الطبيعي والعادي والمألوف في مصر أن: حاميها حراميها!

والذي يغيظك ويحرق دمك أنها هي نفسها نفسها الشرطة المصحصحة الواعية المتذاكية التي تنشق عنها الأرض فجأة، لا تعلم من أين أتوا، ليلقوا القبض عليك إن كنت ممسكاً بكاميرا هاندي كام صغيرة تصور أي شيء في شوارع القاهرة، ويروحون يستجوبونك في قسم البوليس: وأين التصريح الخاص بالتصوير؟ ولماذا تصور؟ ولأي جهة تتبع؟ وسمعة مصر وزفت مصر! الله يخرب بيوتكم خليتونا نغلط يا اولا د القحبة!

الخلاصة أن هذه هي شرطتنا يا معلم، كما أنت واع، لا تتشطر إلا على المتواطنين الغلابة، أما في حقيقتهم ومعدنهم، فهم فاسدون وبلطجية، وتنابلة فوق ذلك لا يقومون بعملهم ويتركون اللصوص والقتلة والمغتصبين يسرحون ويمرحون في كل مكان بالمحروسة.

ونرجع مرجعونا. كنت أقول لك إن مطار شارل ديجول ذكرني فوراً بسوق الجمعة. كانت صالات المطار مزدحمة ازدحاماً مفرطاً. ولا أحد هناك لتسأله عن أي شيء أو ليقدم لك المساعدة. بل لم يكن هناك أي أحد بزي مميز لموظفي أو عمال المطار، وكأن السلطة هنا غائبة. كانت هناك فقط لافتات وعلامات إرشادية، ومع ذلك تعاني كثيراً حتى يمكنك أن تصل إلى مرادك. وأنت هناك تكتشف بعد فترة، وبمجهودك الذاتي، لأنه لا أحد هناك ليرشدك، أن ألوان الكلام في العلامات الإرشادية مرتبط بنفس ألوان الخطوط التي تراها على الأرض. فمثلاً، لو كانت كلمة صالة 6 مكتوبة باللون البرتقالي، فيجب

عليك أن تعثر على الخط البرتقالي المرسوم على الأرض، والمدعوم بسهام توضح اتجاه السير، وتمشي وراءه حتى تصل إلى صالة 6! كانت متاهة، لكنها في الحقيقة لم تكن متاهة شائقة. لم تعجبني ألبتة صالة المطار هذه بتاتاً. وتذكرت متاهة كوبريك في فيلم (السطوع)، أو شاينج إن فضلت؛ المتاهة الباردة، والجنون العقلي الذي يصيب الكاتب جاك وهو يحدق فيها. وإن حدقت في المتاهة يا كوتش فسوف تحدق فيك المتاهة!

وهكذا رحت أقرأ اللافتات المعلقة التي تشير إلى أماكن صالات السفر الداخلية بين الأقاليم والمدن الفرنسية، ثم أتبع الخطوط الملونة وأمشي وراء اللون المحدد المشابه للون الكتابة على اللافتة، حتى صعدت إلى الدور الثاني، بسلم كهربائي، يعمل يا عزيزي والله يعمل، حيث صالة طويلة طولاً رهيباً، لكنها ضيقة منقبضة محصورة، وفهمت لما اختفى أفقها على طول النظر، أنها دائرة بدوران مبنى المطار كله داير ما يدور. ورحت أبحث في اللوحات الإلكترونية التي تعلن عن مواعيد الرحلات المختلفة إلى المدن الفرنسية، ووجدت أخيراً رحلتي إلى تولوز في أحد الأركان بالصالة الطويلة الضيقة، فوقفت هناك والهاندباج على كتفي أشم نفسي وأريح أعصابي قليلاً.

وتنبهت إلى أنني لم أر أية كلاب بوليسية حتى الآن! بل إن أي شخص لم يستوقفني ليسألني عن أي شيء، لا رايح فين ولا جاي منين، وكأنها وكالة بدون بواب! طيب إفرض مثلاً مثلاً يعني أن بحوزتي قنبلة أو شيئاً من هذا القبيل، وأنني قد نجحت

في إخراجها من مطار القاهرة، وأنت تعلم ما مطار القاهرة وما مدى سهولة إخراج أي شيء منه، ومدى كفاءة شرطتنا الواعية الباسلة وإخلاصها ودأبها في العمل، فضلاً طبعاً عن شرفها الذي هو أمر مفروغ منه ويعلمه القاصي قبل الداني، لأنهم جميعاً، كما هو معلوم للكافة، أصحاب ضمائر حية، وكروشهم الضخمة هي أكبر دليل على أن هناك شيء ما بالداخل؛ هو الضمير غالباً، الذي يحيا ويكبر وينمو بداخل كل منهم، فيبدو كالكرش المتهدل من الخارج، لكنه في الحقيقة هو الضمير الحي وليس شيء آخر!

وأطنان الجينيزا يا عزيزي ليست استثناء من ما يتمتع به مطار القاهرة من سهولة وبساطة ويسر معروف ومشهور بها في إخراج الأمور بأحسن إخراج ممكن، وربما تكون قد قرأت عن الخبر الذي نشرته منذ فترة قريبة كل صحف العالم عن ضبط شرطة مطار الكويت لمومياء، أي نعم والله مومياء، مومياء كاملة بلفافاتها وكتانها وإكسسواراتها وحالها ومحتالها، مخبئة داخل كنبة مشحونة من مطار القاهرة إلى مطار الكويت! ومن أين إذن تظن أن آلاف، بل عشرات الآلاف، من القطع الأثرية الفرعونية المنهوبة من مصر قد خرجت! من مطارات كوالالمبور يعني! وتستكثر على العبد لله أن يُخرج قنبلة! طيب بلاش قنبلة، كمية محترمة من المخدرات؛ الهيروبين أو الكوكايين أو الحشيش أو حتى البانجو. ولن يكون عليّ أن أخرجها من مطار شارل ديجول بنفسي، فإذا ما شرعت في القيام بعمل من هذا القبيل، فلسوف أتعرف أولاً على عصابة فرنسية محلية هنا، وأترك لهم اللفافة في كنيف أحد الحمامات العمومية في المطار، والباقي عليهم، ويا

دار ما دخلك شر. شوف الحكاية بسيطة إزاي! يا راجل ده أنا لغاية دلوقتي ما لمحتش أي كلب بوليسي واحد على مرمى البصر، بالرغم من أنني تجولت جولة حلوة في المطار تحت وفوق!

وها أنت ترى الآن أن السينمائي إن قرر أن يفسد لأصبح أسوأ الفاسدين تماً! وهذا لا ينفي صحة مقولة أحمد فرحات أيضاً وأن الشيوعي إن فسد فهو أفسد الفاسدين تماً. فما بالك يا رفيق إن كان السينمائي شيوعياً، ثم فسد! يصبح أفسد الفاسدين تماً أس اثنين، شوف انت بقى!

وأنزلت حقيبة الهاندباج عن كتفي. وأخرجت زجاجة المياه المصرية، وشربت القليل منها. وتناولت الموبايل، وأعدت ضبط الساعة على التوقيت الفرنسي الصيفي الذي كان يظهر أمامي على الشاشة الإلكترونية لرحلات المطار؛ والتي كانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف تقريباً، بفارق ساعة تأخير عن توقيت القاهرة. وأعدت الموبايل إلى الحقيبة، وأغلقتها وأعدتها إلى كتفي. وفكرت أن أتمشى قليلاً في الصالة الطويلة الضيقة، التي كانت كاونترات شركة الإر فرانس للرحلات الداخلية تحتل يمينها، لو كنت واقفاً مكاني وفي نفس وضعي واتجاهي، وخلف تلك الكاونترات كانت مداخل ممرات الركاب التي تصل إلى الطائرات، وكانت هناك في الخلف طائرة تظهر من زجاج المطار الشفاف وتقوم بالتحميل بالفعل، وكان المسافرون يدخلون إلى كهف خلف أحد الكاونترات ويختفون هناك في ممر الركاب.

وعلى اليسار، أي يساري أنا، وأنا فعلاً يساري يا باشا، هذا إن لم تكن قد لاحظت بعد كل هذه الصفحات، كانت هناك محلات صغيرة متراصة ومتلاصقة لبيع أشياء مختلفة: كروت بوستال، وجرائد ومجلات وكتب، وولاعات وأقلام وأفلام لكاميرات التصوير، وكاميرات تصوير رقمية وجدت سعرها غالياً بعض الشيء وقد سبق وحذروني من الأسعار في فرنسا لأنها من أغلى الأسعار في أوروبا وخصوصاً في الكاميرات والتلفزيونات والأجهزة التقنية والسجائر، وأوشحة نسائية، وكوفيات وربطات عنق رجالية، ونظارات، وشنط وأحذية، ونماذج لتماثيل برج إيفل، ومقرمشات ومحمصات ومملحات، وحلويات ملونة للأطفال، وعلب جبن من مختلف الأنواع والأحجام والأسعار، وشوكولاتات وبسكويتات، وسجائر وتبغ، وخمور ونبيذ، وأشياء من هذا القبيل مما تعج به أية سوق حرة في أي مطار دولي كبير ومحترم.

وصدمتني أسعار الخمور في دكاكين السوق الحرة هنا. فبرغم أنني لست خبيراً على نحو جيد بأسعار الخمرة هنا وهناك، لأنني لم أسافر خارج مصر منذ الطفولة، ومعلوماتي في هذا الشأن هي من قبيل الثقافة السمعية فقط، إلا أن الأسعار المغالى فيها لا تحتاج إلى خبير، فالأسعار المرتفعة هي الأسعار المرتفعة، تفضح نفسها من تلقاء نفسها بلا أية معونة من الخبرة. كنت أشتهي أي نوع من روم البكاردي، بالرغم من أنه كان من المستحيل أن أنفق مليماً واحداً في شراء أية خمور من هنا، لكنني وجدت سعر البكاردي السوبرير، مثلاً، 30 دولاراً. في حين أنني

رأيته بأم عينيّ في مطار القاهرة منذ ساعات قليلة بـ 18 دولاراً فقط! ولم أعثر على فودكا دانزكا بأي من محلات الخمور هنا، لكنني وجدت فودكا أبسلوت متوفرة في كل الدكاكين، وبسعر 25 دولاراً، في حين أنني رأيتها بأم عينيّ في مطار القاهرة منذ ساعات قليلة بـ 17 دولاراً فقط! وتلك عينة فقط يا عزيزي، لأن كل شيء في محلات خمور شارل ديجول كان باهظاً على نحو يدعو للاستغراب!

وفكرت أن أدخل حمام الرجال وأغسل وجهي ببعض الماء لأجدد انتعاشي، لكنني لم ألمح أيقونة الحمام على أي باب في أي مكان، فصرفت نظر. ورجعت إلى ركن التحميل للمسافرين المتجهين إلى تولوز. وسمعت صوت مذيعة داخلية تعلن عن تأخر إقلاع طائرة تولوز لنصف ساعة أخرى. أي أن أمامنا ساعة على الأقل حتى تبدأ إجراءات الصعود للطائرة. ورأيت صالة الركاب وقد غصت بالمسافرين فجأة؛ وكأن تأخيراً لكل الطائرات الداخلية قد حدث في نفس الوقت. وشرع العديد من المسافرين في افتراش الأرض، لأن الكراسي كانت قليلة العدد، فكما قلت لك، كانت الصالة طويلة صحيح، لكنها كانت ضيقة ومحصورة في نفس الوقت، مما كان يعيق وضع كراسي كافية في هذه المساحة الضيقة المحصورة. فقلت لنفسي إن أفضل تسلية قد تكون متاحة الآن هي مراقبة الطائرات الغادية والرائحة من الجدار الزجاجي الشفاف للصالة. فرحت ووقفت أمامه مباشرة، وشرعت في مراقبة الطائرات، التي كانت، لسوء الحظ، كلها من الإر فرانس، لأننا في منطقة الرحلات الداخلية، كما سبق وأن قلنا

عدة مرات. وكانت المقارنة الوحيدة الممكنة بينها هي في أحجام الطائرات؛ كبيرة وصغيرة، وفي أطوالها؛ طويلة وقصيرة، وفي جدتها؛ جديدة وقديمة.

وفجأة شعرت برغبة جارفة لا تقاوم في النوم، وأدركت تواً أنها هجمة من هجمات النوم، وبينما أنا أجلس على الأرض، راح شعور عام بالضعف الشامل يسري في كل عضلاتي، وخصوصاً ركبتيّ، ولولا أنني سارعت بالجلوس على الأرض لخررت مغشياً عليّ، وتمنيت وأنا أستند إلى الحائط الذي ورائي أن تكون نوبة عادية من التي لا تدوم إلا ربع ساعة أو شيئاً من هذا القبيل، وإلا فستفوتني طائرة تولوز، وسأقع في مشكلة كبيرة! ورحت من توي في سبات عميق.

ورأيت حلماً حياً شديد الوضوح. رأيتني داخل مصعد، وبابه نصف مفتوح، وهو يصعد إلى أعلى بسرعة شديدة، وأنا ممسك في يدي بريموت كنترول المصعد ومستمر في الضغط على زر التوقف دون جدوى، وهو مستمر في الصعود على نحو مخيف، وكنت متأكداً من أنه سيرتطم بسقف البناية ثم سيسقط في القاع وأهلك معه. وهداني تفكري إلى أن أنزع فيشة الكهرباء التي كانت في مقبس بجوار قدمي، فنزعت الفيشة ذات السلك الطويل الممتد إلى خارج المصعد، وسمعت صوت انفصال الطاقة عن المصعد، وظل يصعد قليلاً، ولكن على نحو بطيء بالقصور الذاتي، حتى توقف في النهاية قبيل السطح بقليل، وظللت هناك لا أعلم ماذا أفعل! ورأيت مارادونا في لقاء تلفزيوني من أرض

الملعب وهو يقول: ’أُخذت إلى قمة جبل الأولمب ولم يقل لي أحد أبداً ماذا عليّ أن أفعل هناك! ثم صحوت داخل الحلم، وفتشت في ظلام الغرفة الدامس عن الورقة والقلم اللذين أضعهما عادة بجوار السرير حتى أدون أحلامي وأفكاري قبل أن تشرد وأنساها، ورحت أكتب في الظلام الدامس حلم المصعد وأنا أتمنى من أعماق قلبي أن يكون الخط جيداً ومقروءًا عندما أصحو. ثم استأنفت نومي داخل حلمي من جديد، وكنت أقرأ مانشيت في الواشنطن بوست: ابنة الرئيس الأمريكي نامت مع فلسطينيين وإسرائيليين في نفس الوقت!

وأحسست بشيء يصعد لجوفي وأنا نائم، ففتحت عينيّ، وسعلت. وللحظة أو لحظتين، لم أكن واعياً لا بالمكان ولا بالزمان. ثم رحت أتذكر، شيئاً فشيئاً، بأنني في مطار باريس. واعتدلت وأقمت ظهري بصعوبة وركنته على الحائط الزجاجي ورائي وأنا أشعر بأن جسدي كله مشلول عاجز عن الحركة. ورحت أتذكر كل شيء حتى اللحظة التي هاجمني فيها النوم. ولم أكن أعلم كم مضى على نومي، وخشيت أن تكون الطائرة قد فاتتني، فأخرجت الموبايل من الهاندباج بسرعة ونظرت في ساعته، وأدركت أنني نمت أقل من ربع ساعة، فحمدت وشكرت من قلبي بإخلاص عدة مرات.

واستمر إحساس الشلل بجميع أطرافي. ولم يكن يزعجني، فقد اعتدت عليه منذ زمن طويل، وكنت أعرف أنها حالة مؤقتة بعد نوبة النوم القهري ولن تستمر إلا لبضع لحظات. ورحت

أتأمل الوضع الذي سقطت فيه على الأرض، أو إن شئت؛ أسقطت نفسي فيه على الأرض بمنتهى الحرفية قبيل إغماءة النوم بثوان معدودات. فوجدته وضعاً أنيقاً رشيقاً لائقاً لا تشوبه أية شائبة.

كنت قد جلست على الأرض وفخذي الأيمن تحتي وساقي اليسرى عمودية ومنتصبة، وقد شبكت أصابعي حول ركبتي اليسرى القائمة، وغالباً ما أسندت جبهتي عليها وأنا نائم. وهو وضع رائع ويدعو للإعجاب والفخر بأن جسدك قد قام، تلقائياً، بالانطفاء ذاتياً على نفسه على هذا النحو الفاخر الراقي. وهو ما يذكرك بالوضع الذي قرر فيه الإنسان الآلي الموت في نهاية فيلم (متسابق الشفرة)، إن كانت قد أتيحت لك فرصة مشاهدته.

وكما أنا معتاد في نوبات النوم المفاجئة، رحت أستعيد بسرعة إحساسي بكل عضلات جسدي، وبالتمكن التام من التحكم فيها، وحل محل الشعور بالشلل التام، شعور رائع بالراحة وبمنتهى الانتعاش وبكامل النشاط والانسجام، وتمنيت أن أقوم وأركض في صالة المطار، لولا أنها كانت مزدحمة بالمسافرين، بل ولاحظت أنها قد ازدحمت أكثر وأكثر بالركاب بعد صحياني من النوم، بالإضافة طبعاً إلى أنهم كانوا سيعدونني مجنوناً إن قمت وركضت في صالة السفر أو شيء كهذا.

وكان هناك صبي فرنسي صغير ودقيق الجسم، وله شعر بني، لا يتجاوز الخامسة أو السادسة، يقف في مواجهتي، على

بعد أمتار قليلة، ويصدر صوت شخير من فمه وأنفه وهو ينظر ويشير إليّ، وراح يطبق راحتيه ويضع رأسه عليهما؛ قال يعني علامة النوم! ثم يضحك ويشير إليّ ثانية ويشخر. وأخيراً نهرته ماما؛ التي كانت في منتصف الثلاثينيات أو أوائلها. خمرية، ذات شعر أسود قصير تجمعه في ذيل حصان صغير، وترتدي تاييراً أبيض مزركشاً بخطوط رمادية وحمراء، من قطعتين: جاكت وجونلة، وتضع وشاحاً أحمر حول رقبتها. كانت تعطيك الإحساس فوراً بأنها جادة، وتشغل وظيفة مهمة، وأنها قد تلقت تربية صارمة في طفولتها. بالرغم من أنها لم تفلح في تمرير آداب وتعاليم تلك التربية الصارمة إلى ابنها. حرصتُ، طبعاً، على ابتسامة للصبي ابتسامة كبيرة ودودة، وابتسمت لماما أيضاً ابتسامة كبيرة ودودة، بل أكبر وأود، في الحقيقة، حتى لا تأخذ انطباعاً بأنني قد غضبت من تصرف الولد، ولا بأنني ضيق الأفق، أو قفل، أو بقف، وكل تلك الأشياء التي من هذا القبيل، وحتى تتأكد من أنني من الذين يتقبلون المداعبات البريئة للأطفال الأشقياء، وعندي حس سخرية عال، بغض النظر عن كوني مصري، أو إن فضلت القول، لأنني مصري.

وتمنيت ساعتها أن يكون لدي في الهاندباج بعض الشوكولاتة أو الحلويات الفاخرة للصبي الصغير. كانت ستكون حجة عظيمة للتقرب من ماما. التي خمنت أنها ولا شك ذاهبة إلى تولوز هي أيضاً، ما دامت تقف بالقرب من هنا. ورحت أفكر في طريقة أخرى مبتكرة للتعرف على الست. لكنها لم تمهلني، في الحقيقة، وسحبت الولد من يده بعنف إلى حد ما، وابتعدا عن ناظريّ.

واشتهيت سيجارة. أية سيجارة؛ بانجو أو سادة، اشتهيت التدخين عموماً. وعزيت نفسي بأنها ساعتان أو ثلاث أخرى وسوف أدخن ما بدا لي من سجائر وأعوض ما فاتني. وتناولت زجاجة المياه المصرية من الهاندباج، وأمسكتها بين يديّ، ورحت أشرب منها رشفات قليلة جداً، من باب التسالي لا من باب العطش، وأنا أتأمل وجوه بعض الركاب الجالسين أو الواقفين في مجال بصري أو ممن يمرون من أمامي.

من السهل للغاية ملاحظة الوجوه المنتعشة، الرائقة، المشرقة، الممتلئة بالحيوية والإقبال على الحياة، الموفورة بعلامات الصحة والتغذية السليمة. وفوراً، خطر على بالي المقارنة بين هذه الوجوه، وبين تلك التي تلقاها في شوارع القاهرة، ليلاً أو نهاراً، لا فرق: الوجوه المتجهمة، الذاهلة، العابسة، المتقبضة، التي تنضح بأعراض الأنيميا وسوء التغذية. وبالطبع لا أستثني وجهي أنا شخصياً منها، فآخر مرة ضبطت فيها وجهي متلبساً بذلك التجهم والانقباض والعبوس كان في حمام طائرة الإر فرانس منذ ثلاث أو أربع ساعات ليس إلا!

هناك من يربط بين الحالة الاقتصادية الخانقة وبين سلوك الناس وأخلاقهم المتدنية. وربما يكون الربط شائعاً في العلوم الاجتماعية وقد لا يكون. لكنني قرأته أول ما قرأته عند نجيب محفوظ. أظن في (خان الخليلي). أو ربما في (القاهرة الجديدة). أو شيء آخر من فترته الواقعية. أو ربما في (أهل القمة). ومجموعة (الحب فوق هضبة الهرم) عموماً، شبيهة جداً، في

رأيي، بالفترة الواقعية في أدب نجيب محفوظ في الأربعينيات، لأن مصر في عصر الانفتاح الساداتي السداحي مداحي كانت تشبه مصر بعد الحرب العالمية الثانية. وقد تناقشنا أنا ونصار الكاشف كثيراً في هذا الموضوع. وكنت قد رشحت له، ضمن ما رشحت له من قراءات أدبية وفلسفية وفنية، قراءة شغل نجيب محفوظ في الفترة الواقعية الأربعينية: (القاهرة الجديدة)، و(خان الخليلي)، و(زقاق المدق)، و(السراب)، و(بداية ونهاية)، ثم طبعاً الثلاثية: (بين القصرين)، و(قصر الشوق)، و(السكريّة). ذلك أن المسكين لم يكن قد قرأ لنجيب محفوظ سوى (أولاد حارتنا)، التي تم ذكرها في بيان جائزة نوبل، فقط، مع بعض المجموعات التي صدرت في أواخر الثمانينيات، مثل: (صباح الورد)، و(الفجر الكاذب).

فللأسف نصار الفلسطيني هو من عينة المثقفين الذين يقرأون عن الأعمال الأدبية، لا الأعمال الأدبية نفسها، وهؤلاء القوم يواظبون على قراءة المختصرات والملخصات عن آخر ما تخرجه المطابع العالمية من كتب مهمة، ويروحون يستعرضون معارفهم الضئيلة التي اكتسبوها من قراءة تلك العروض الهزيلة في المناقشات على المقاهي والندوات الأدبية. للأسف هي عادة ضارة جداً بصاحبها. كيف يمكن أن تقرأ ملخصاً للحرافيش، مثلاً! أو للإخوة كارامازوف! أو لظاهريات الروح! أو للبحث عن الزمن المفقود! يا راجل بلا كلام فارغ!

المهم أنني أقنعت نصار بعد المناقشات والمقارنات حول أدب

محفوظ في الفترة الواقعية الأربعينية والفترة الانفتاحية، بأن أعمال محفوظ الواقعية سياقية جداً؛ بمعنى أننا نستطيع أن ننزع (القاهرة الجديدة) أو (خان الخليلي) أو (بداية ونهاية) من سياقها الزمني، ونضعها في زمن الانفتاح، أو حتى في وقتنا الحالي، فنجدها صامدة أمام امتحان تغيير السياقات الزمنية؛ لأنها تنطبق جداً في أزمنة مختلفة، بل وفي أماكن مختلفة أيضاً؛ وإلا لما كان نقاد وأدباء أمريكا اللاتينية، وخصوصاً في المكسيك، قد احتفوا كثيراً بأدب محفوظ الأربعيني، بل وصنعوا منه هناك عدداً معتبر من الأفلام أيضاً.

وحشنا نصار والله! كنا نراه في قناة الجزيرة مراسلاً للقناة في موسكو، ثم اختفى فجأة، ولم يعد يظهر منذ فترة، وحل محله مراسل آخر للجزيرة في موسكو، ولا نعلم عنه أي شيء منذ ذلك الحين! نأمل أن يكون بخير وأن تكون أحواله طيبة، وأن يكون قد انتقل لعمل إداري أهم شأناً في الجزيرة أو شيئاً من هذا القبيل.

آه، لا لا، تذكرت الآن! الربط بين تدهور الحالة الاقتصادية وبين تدهور الأخلاق سمعته من نجيب محفوظ نفسه في أحد اللقاءات التلفزيونية، على ما أعتقد، ولا أظنه ورد هكذا حرفياً في رواية من رواياته! ربما في لقاء تلفزيوني مع المذيع طارق حبيب. أو ربما لقائه الإذاعي مع نادية صالح في برنامج (زيارة لمكتبة فلان). لا أتذكر!

المهم يا عزيزي أن ما جرنا إلى كل هذا الكلام؛ هو أنني

كنت أقول إن هناك ربطاً عند نجيب محفوظ بين الحالة الاقتصادية المتدهورة وبين الأخلاق المتدهورة. ونحن، وعلى نفس هذا القياس، نستطيع أن ننشئ علاقة بين الحالة الاقتصادية المتدهورة وبين الوجوه العابسة المتجهمة المتقبضة. أو قل: علاقة بين الحالة الحضارية المتدهورة وبين عبس الوجوه وتجهمها. والحضارية يا رفيق ليست شتيمة، ولكنها تعني شمول التدهور للمناحي: الاقتصادية، والاجتماعية، والتعليمية، والفنية، والثقافية، والقيمية، أي التدهور بمعناه الشامل والكامل والمطلق، وأنت سيد العارفين.

واستغرقتني تلك الأفكار بالكامل. وكنت أرتشف من زجاجة المياه المصرية بعض الرشفات كل حين وآخر، حتى قاربت الزجاجة على النفاد، وامتلئت بطني بالمياه، وعندها سمعت صوت المذيعة الداخلية بالمطار تحث المسافرين إلى تولوز للاستعداد والتوجه إلى بوابة السفر. ورأيت الناس يتجمعون بالقرب من الكاونتر القريب مني، والذي كان إلى يميني وأنا جالس. فوضعت زجاجة المياه شبه الفارغة في الهاندباج، وقمت، وحملت الهاندباج على كتفي، واتجهت على مهل إلى طابور المسافرين، ووقفت في آخره.

لا يوجد شيء مميز يقال في هذا الشأن، لأن الأمور قد جرت بسلاسة ونظام وسرعة، كأحسن ما يكون التنظيم. وكان ممر الركاب الذي يربط بين صالة المطار والطائرة قصيراً. لكن الغريب في الأمر أن مسلسل التساهل الأمني قد استمر، فلا أحد

فتشني، ولا فتش حقيبة اليد، ولا الهاندباج، ولا ظهر أي كلب بوليسي من أي نوع، فلو كانت معي القنبلة، أو البضاعة يا معلم، لكان الأمر بالنسبة لي فل الفل ولوز اللوز، وخذ بالك أن هذا يحدث بعد خمس سنوات من 9/11، وفي أعقاب تفجيرات العام الماضي في لندن، وبعد كل تلك التأكيدات التي سمعناها من وزراء الداخلية ومسؤولي الأمن عن تشديد الرقابة في المطارت وإلخ إلخ إلخ.

ودخلنا الطائرة. وكانت تشبه إلى حد كبير صالة الرحلات الداخلية بمطار شارل ديجول نفسه؛ طويلة للغاية، وضيقة للغاية في نفس الوقت. وذكرني هذا الضيق بالرحلة الغريبة في طفولتي على الطائرة الجزائرية التي كان أكثر من نصف الركاب فيها واقفون في الممرات مثل أتوبيسات الدلتا. وكان على جانبي الممر الضيق جداً للطائرة صفان طويلان من الكراسي، كل صف عبارة عن كرسيين ضيقين ومتلاصقين. ورحنا نقرأ أرقام كراسينا المكتوبة على بطاقات الركوب. وكان نصيبي الجلوس في المقعد المجاور للشباك بجوار رجل خمسيني سمين جداً، وضخم جداً، ومترهل جداً، وأصلع، ومنتفخ الأوداج وبلغد ضفدع سابغ. كان الرجل يرتدي تيشرتاً أبيض غارق في عرقه، وسروالاً بيج متسع جداً كالشوال وأضخم حتى من جسده لكي يخفي ترهلاته، وصندلاً مفتوحاً تظهر منه أصابع قدميه الضخمة وكل تلك الأشياء.

ودخلت إلى مكاني بالكرسي بعد معاناة شديدة، لأنه أحب أن

ينهض ويقف ليسمح لي بالمرور، مما كان سيزيد من صعوبة الأمر، لأنه إن قام ووقف فمن المستحيل أن أتمكن من المرور بأي حال من الأحوال، لأنه كان سميناً جداً وضخماً جداً ومترهلاً جداً. فما كان مني إلا أن صحت فيه بالفرنسية بلهجة آمرة:

- لا لا إبقى كما أنت أرجوك يا سيدي، كما أنت!

فأطاع الرجل وحبات عرق الخجل تنساح من صلعته على جبهته، مما أثار عاطفة الشفقة لدي، فندمت على لهجتي المتعالية.

المهم، وبعد أن نجحنا معاً، وبعد معاناة كبيرة واحتكاكات عديدة، في أن أمر من أمامه إلى الكرسي الداخلي المجاور للنافذة، جلست، ثم ركنت حقيبة الأوراق تحت النافذة وبجوار قدمي اليسرى، وحشرت الهاندباج أسفل الكرسي الخاص بي، لأنه كان من المستحيل أن أقف مرة أخرى وأفتح كابينة الأمتعة العلوية لأضع فيها الهاندباج وكل هذا الحجم من اللحم والشحم على الكرسي المجاور لي.

واكتشفت أن أخينا هذا، وغصب عنه بالطبع نتيجة سمنته الشديدة، قد احتلت شحومه ولحومه تقريباً نصف مساحة الكرسي الخاص بي. وكان جسده اللين جداً، كأنه لية خروف، يلتصق تماماً بجانبي الأيمن كله ويضغط عليه، وكان يغمرني بعرقه المتساقط من جسده كأنه مياه تنزل من مصفاة دش، حتى ابتل بعرقه قميصي الرصاصي الفاتح النظيف والمكوي. وكان هو ولا شك يشعر بكل ذلك، مما زاد من خجله أكثر وأكثر، فزاد تساقط

عرقه بالتالي أكثر وأكثر. وفي الحقيقة لم يكن لهذا الموضوع أي حل. وزادت شفقتي عليه. وقلت هذه، ولا شك، سمنة مرضية، مستحيل أن تكون سمنة طبيعية أو سمنة أكل وشراهة، هذا الرجل المسكين، بالتأكيد لديه خلل ما في الهرمونات، خلل ما كبير جداً في الهرمونات، كان الله في عونه!

ورحت أفكر أنه في أزمنة غابرة، غابرة تماماً وسحيقة للغاية، كانت البدانة تعد مصدراً للفخر والتباهي، بل وللحسد أيضاً يا كوتش، كما هو الحال بالنسبة لثروات أغنياء اليوم من أصحاب ومديري الشركات العابرة للقارات وكل هؤلاء القوم. ذلك أن البدانة، في تلكم العصور السحيقة، كانت تعد مخزناً للطاقة، ومأمناً من حدوث أي طارئ أو كارثة، فالشحوم المتراكمة في الجسم، كانت هي الضامن على استمرار الإنسان على قيد الحياة في تلك الظروف القاسية. وها نحن الآن يا رفيق قد وصلنا إلى مرحلة إنسانية تعد فيها النحافة، التي هي ربما ضد الغريزة البشرية، مدعاة للتفاخر والتباهي، حتى صار الهدف الأسمى للبنات جميعاً هو الوصول إلى الوزن صفر!

ولما زاد عطفي على جاري وغمرتني الشفقة عليه، قلت له:

- هل تسمح يا سيدي بأن أرفع مسند اليد إلى أعلى حتى تجلس على نحو أكثر راحة؟

ولم أنتظر الإجابة، وشرعت فعلاً في رفع مسند اليد الذي بيننا إلى أعلى، وتخليصه من بين الشحوم واللحوم، وهو يعافر

ويجاهد ليميل على أقصى يمينه ناحية الممر على أمل أن تنزاح مع حركته تلك بعض الشحوم واللحوم بعيداً عن المسند. وهكذا نجحنا بالتعاون سوياً في رفع المسند إلى أعلى، وصار الكرسيان كرسياً واحداً أنا ضيف خفيف عليه، ولكني مع ذلك كنت أشعر بسعادة غامرة.

- أنا آسف جداً أنني أضايقك في الجلوس!

- لا لا يا سيدي بالعكس المكان واسع ومريح وأنا سعيد بمشاركتك هذه الرحلة!

ابتسم الرجل الذكي، ككل البدناء الأذكياء، للمجاملة الزائدة عن حدها، التي لا يستسيغها كثيراً الأوروبيون.

وككل الأوروبيين ذوي اللياقة واللباقة، وككل البدناء الأذكياء الدمثين، أحسست أن الرجل لا يحب أن يتطفل على شؤوني بسؤالي عن جنسيتي وعملي وسبب زيارتي لتولوز وكل تلك الأسئلة التي إن كان مصري هو الذي بجوارك فسوف يكفرك من دينك بأسئلته اللزجة التي من هذه النوعية حتى تترك له المقعد وتقوم من جواره!

وسرعان ما تحركت الطائرة. وسرعان ما أقلع الطيار بالطائرة. ولا أعرف، في الحقيقة، أي جزء بالضبط من إقلاع الطيار الفرنسي بالطائرة قد استدعى إلى ذهني فوراً أسلوب سائقي سرفيس الترامكو المعفن بأول فيصل! وقلت في نفسي

ربما لأنها رحلة محلية داخلية فيوكلون أمر الطيران فيها إلى طياري الدرجة الثانية، أو ربما يكون طياراً شاباً ما يزال يؤسس خبرته ويتدرب فينا، أو قد يكون طياراً عجوزاً شارف على نهاية الخدمة وضعف تركيزه، وآهو يا ختشي كده ينفع وكده ينفع وكده ينفع!

وصوبت نظري نحو النافذة، ولم يكن هناك مناظر جديدة، فكلها رأيتها وأنا آت من القاهرة إلى باريس، وها أنا ذا أشاهدها ثانية ونحن راجعون من باريس إلى تولوز. لكن لا بأس إطلاقاً في إعادة مشاهدة شيء جميل، فهذا ليس تكرار القبح ولا الفوضى ولا البشاعة، إنه تكرار الجمال يا ريس! وعندي أن تكرار مشاهدة الجمال يزيد من جمال الجميل، لأنك في كل مشاهدة جديدة تحصد باستمرار تراكم إعجابك السابق به، حتى أن الأعمال الفنية التاريخية العظيمة في الرسم أو الموسيقى أو الشعر، مثلاً، تصبح خارج نطاق التقييم تماماً، لأنها تحصد إعجابات الملايين بها في كل مشاهدة جديدة، فأنت لا تشاهد أو تسمع أو تقرأ تلك الأعمال، إلا مصحوبة بإعجاب الأجيال السابقة لها. وهذا طبعاً يشكل معضلة بالنسبة للأعمال الفنية الحديثة، لأن حداثتها، أي موقعها من التاريخ، يحرمها من كل تلك الإعجابات السابقة لأجيال من الملايين، وهو ظلم بين ولا شك عند المقارنة بين عمل فني جديد وآخر قديم، ولكن متى كان الفن عادلاً يا عزيزي؟! ويا ما في الفن مظاليم!

ورحت أمتع نظري بمناظر البنايات المنسقة الشاهقة في

باريس، وألوانها المتنوعة. ثم الحقول والبساتين والغابات التي بدأت تظهر خارج باريس بألوانها البهيجة الممتعة من كل درجات الطيف. وكان النظر إلى النافذة في الحقيقة إنقاذاً لكلينا من الإحراج، ولحوم جاري وشحومه جاثمة عليّ، وأنا غرقان في لجة عرقه، وهو مسكين ليس بيده شيء فالأمر خارج عن إرادته. وزاد من عطفي وشفقتي عليه، إحساسي بنوع من الإخوة والتماثل والتشابه في ظروفنا المالية. فعلى حد علمي، من في مثل حجمه ووزنه تلزمهم بعض شركات الطيران بحجز مقعدين اثنين لا مقعداً واحداً، أما وإن أخينا قد حجز مقعداً واحداً على الإر فرانس، التي تسمح لمفرطي البدانة من أمثاله بحجز مقعد واحد، فإن هذا ولا شك دليل على فقره، أو على الأقل على أن ظروفه المالية صعبة هذه الأيام، وهو ما يشبه حالتي أنا أيضاً، لأن ظروفي المالية كانت صعبة، لا في هذه الأيام فقط، ولكن في كل الأيام، والحق يقال.

ولم يطل الأمر، وفوجئت بطاقم الضيافة وهو يوزع علينا صواني الغداء بسرعة. غداء جديد! وماله، زيادة الخير خيران، والبحر بيحب الزيادة، وآهو كله في الآخر مدفوع تمنه برضو في تذكرة الطيران، ولو إني في الحقيقة مش دافع شخصياً حاجة من جيبي أنا معزوم بس! وكنت أظن أن المسافة بين باريس وتولوز لا بد وأن تكون في حدود نصف ساعة، ربما أقل أو أكثر قليلاً، ولكن هذا ما قدرته. وربما لهذا السبب شرعوا فور إقلاع الطائرة في توزيع الغداء.

وعندما اقتربت منا عربة الوجبات التي يجرها مضيف وبجواره مضيفة، وكان كلاهما كبيران في السن، في حدود الأربعينيات أو ما شابه. فتحت الطاولة الصغيرة المثبتة في الكرسي الذي أمامي، وفردتها. وفعل جاري المثل. ووضعت المضيفة الأربعينية صينيتي غداء على مائدة كل منا وهي تبتسم ابتسامة رقيقة وتقول: شهية طيبة!

وناولها زميلها كوبين مغلقين، فهمت بوضعهما بجوار صينية كل منا، إلا أن جاري أومئ إليها حازماً جازماً، وقال:

- هل هذا نبيذ؟! لا لو سمحتي نحن نريد سكرو درايفر، اثنان من فضلك!

ثم تذكر أن يسألني، فالتفت نحوي وقال بخجل:

- هل يمكنني أن أدعوك لتشرب معي سكرو درايفر؟!

- نعم نعم بالطبع يا سيدي سأكون ممنوناً جداً، شكراً جزيلاً يا سيدي!

ودفع جسده إلى الأمام بجهد جهيد، ومد يديه السمينتين إلى الجراب القماشي المشبوك في ظهر الكرسي الذي أمامه، وتناول منه حقيبة يد جلدية صغيرة في حجم كف يده تقريباً أو أكبر بقليل، وأخرج منها بعض النقود وهو يسأل المضيفة:

- بكم أدين لحضرتك؟!

- عشرة يورو يا سيدي.

ناولها الرجل عشرة يورو ثمن كوبي السكرو درايفر. وقالت المضيفة:

- دقائق قليلة وسأعود لحضرتك بالمشروب.

واستمرت هي وزميلها في توزيع صواني الغداء.

وتمتم الرجل وهو ينظر إليّ:

- نبيذ الطائرات سيء جداً، جربته كثيراً من قبل، وفي كل مرة يكون أسوأ من التي قبلها!

- أنا متشكر جداً لدعوتك يا سيدي، لقد جربت فعلاً النبيذ على طائرة الإر فرانس الآتية من القاهرة إلى باريس، وفي الحقيقة كان سيئاً جداً فعلاً!

- نعم أنا متأكد من ذلك! أنت مصري؟!

- نعم يا سيدي وهذه هي أول زيارة لي لفرنسا.

- مرحباً بك يا صديقي!

- شكراً جزيلاً يا سيدي.

وتمنيت له شهية طيبة. وبدأت أنا بفض لفافات أدوات المائدة

وأطباق الطعام، مقدراً أن الرجل لا بد وأن يكون جائعاً، وقلت لن أعطله بالكلام والرغي والحديث عن تناول لقمة تسد رمق جوعه وإلا فربما أصابته إغماءة سكر أو شيء كهذا. ولك أن تتخيل موقفي وأن أقوم بفض لفافات الأكل وأدوات المائدة، وأنا مكتف، ومحصور، ومضطر لاستخدام يدي اليسرى، التي نادراً ما أستعملها في الأحوال العادية. وتذكرت مقولة لزياد رحباني في برنامج (العقل زينة)، أو ربما في برنامج آخر، فلم أعد أتذكر، مقولته تلك عن أنك لن تدرك أهمية اليد اليمنى إلا حين تتعطل أو تنكسر أو تفقدها أو شيء من هذا القبيل، فتضطر، اضطراراً، إلى استعمال يدك اليسرى.

وهكذا عرفت قيمة يدي اليمنى، التي كانت محبوسة ومقيدة تحت اللحوم والشحوم لجاري السمين. فرحت، وبقدر الإمكان، أفض الأطباق والأكياس بأصابعي اليسرى، مع الاستعانة باليمنى في بعض الأحيان، بأن آخذ الشيء بأصابعي اليسرى وأقربه من أصابعي اليمنى، ثم أحاول فتح الشيء أو فضه أو ما إلى ذلك، ثم تعود به أصابعي اليسرى إلى الطاولة أمامي. وهي حركات لاحظها جاري الذكي منذ أول وهلة، فحاول القيام بمناورات بجسده الضخم إلى الأمام قليلاً لكي يحرر يدي اليمنى المحبوسة تحته، لكني بادرته بالقول:

- لا يا سيدي أرجوك، أنا بخير ومرتاح هكذا تماماً، لا تتعب نفسك رجاءً!

وهيء لي أنه ابتسم. قد يكون ابتسم من مبالغاتي الشرقية في الأدب واللطف، أو التصنع الشرقي إن أحببت.

وليس هناك الكثير مما يقال بشأن وجبة الغداء هذه التي أمامنا، فقد كانت مشابهة للوجبة التي تناولتها على الإر فرانس من القاهرة إلى باريس. ومن ملاحظة صينية جاري، كانت الوجبة متماثلة وإجبارية علينا جميعاً، بلا أية اختيارات ولا تنويعات في اللحوم أو المشاريب، وكانت عبارة عن: قطعة من اللحم المشوي، وخضار سوتيه مسلوق، وسلاطة خضراء، وعلبة جبن كامومبير، وبعض قطع الخبز المحمص. ويبدو أن بروتوكولاً غذائياً موحداً كان سارياً ويتم العمل به على متن طائرات الإر فرانس، يتضمن هذه العناصر الغذائية السابق ذكرها. وربما كان ما يميز الرحلات الخارجية للشركة، هو استمارة الاستبيان التي توزع على المسافرين، والتي تخيرهم ما بين: الدجاج، أو اللحوم الحمراء، أو السمك. وما بين المشاريب: العصائر، أو النبيذ السيء.

وأتت لنا المضيفة أخيراً بالسكرو درايفر، في كوبين كبيرين إلى حد ما. تناولت كوبي باليد اليسرى، ورفعته في صحة جاري:

- في صحتك يا سيدي!

- في صحتك يا صديقي!

وشرعنا نأكل ونشرب. وذكرني السكرو درايفر؛ وهو

الفودكا بالبرتقال يا زعيم، وهناك أيضاً: الفودكا بعصير الطماطم؛ ويسمونها في كل أنحاء العالم: بلودي ميري، ويقال إنه سُمي على اسم ملكة إنجلترا: ماري الدموية، لأنها كانت تحب شربه كثيراً. أما لماذا سموا السكرو درايفر بالسكرو درايفر، فلست متأكداً في الحقيقة، وبإمكانك أن تبحث في الأمر بنفسك إن شئت، وإن كانت هناك بعض الحكايات عن أن سبب التسمية هو أن عمال النفط الأمريكيين في الخليج العربي في بدايات اكتشاف النفط هناك، كانوا يمزجون الفودكا بالبرتقال، ثم يقلبون المزيج بمفك من المفكات التي في جيوبهم أو شيئاً كهذا. المهم، كنا نقول إن شرب السكرو درايفر على طائرة الإر فرانس التولوزية قد ذكرني بحادثة طريفة وقعت لي منذ عدة سنوات.

كنت بائتاً عند محب في العوامة، أيام ما كان يسكن في عوامة في الكيت كان على النيل قبل أن يسافر إلى بعثة الدكتوراه في لندن. وكنا، على ما أتذكر، في الشتاء. والشتاء في عوامة على النيل شديد البرودة والحق يقال. وكنا قد شربنا ليلتها كثيراً. شربنا سكرو درايفر من ستوك خزانة الخمور التي في العوامة. ثم رحنا في سبات عميق. وفي الصباح الباكر، سمعت طرقاً على باب الشقة. فقمت دائخاً وفتحت بصعوبة، فوجدت شاباً أمريكياً بترينج سوت، عرفني على نفسه على أنه الساكن الجديد في الطابق السفلي. فالعوامة التي كان يقطن فيها محب كانت مقسمة إلى شقتين كبيرتين. كان هو يؤجرالشقة العلوية، بينما كانت الشقة السفلية شاغرة حتى ذلك الحين. وقال إنه قد سكن بالأمس فقط هو وأخواته البنات، وإنه في حاجة إلى سكرو درايفر، فهل يمكن أن

أساعدة في العثور على سكرو درايفر الآن؟!

قلت له وأنا أكاد أسقط من طولي من الثمالة:

- لا توجد بارات مفتوحة الآن في القاهرة، عليك أن تنتظر حتى الظهر!

- لا لا، أنا لا أريد السكرو درايفر المشروب، أنا أريد السكرو درايفر!

وراح يمثل بكلتا يديه حركه لف المفكات. ففهمت أخيراً. ودخلت، ونسيت أن أدعوه للدخول. ورحت أبحث في صندوق الأدوات والعدد الميكانيكة في المطبخ عن مفكات. ثم تناولت واحداً، وخرجت وأعطيته إياه. فانظر كيف تكون حالة المرء عندما تسيطر عليه فكرة واحدة، فينسى جميع مرادفات الكلمة إلا مرادفاً واحداً، وشخصيات دوستويفسكي يا عزيزي، ويبدو أنه قد سبق لي ذكر ذلك، مصابة دائماً بسيطرة الفكرة الواحدة، بمرض الفكرة الواحدة، بجنون الفكرة الواحدة؛ وقد سماها دوستويفسكي في (يوميات كاتب): الهول!

هذا الولد الأمريكاني كان من أصول إيرانية. وكانت له اختان رائعتا الجمال، والبياض، والشعر الأسود الطويل، بوجهين كالبدر في تمامه. وكانت هناك شقوق في الأرضية الخشبية لشقة محب العلوية، تسمح لي بالتلصص على البنات تحت وهن نائمات أو وهن يبدلن من ملابسهن لكي يذهبن للصلاة في الجامع.

متدينات يا مؤمن! وتخيل أنهن كن يقضين ساعة أو شيئاً كهذا أمام المرآة يبدلن من ملابسهن الداخلية قبل ارتداء الإسدالات السوداء والخروج للصلاة في الجامع. بل وكن يحرصن على ارتداء الأندر الفتلة، أو الجي سترنج يا معلم، بل وتجربة عدة أندرات فتلة أمام المرآة في تلك المناسبات الصلواتية التي كن يفضلن فيها ارتداء أندرات الجي سترنج. كن محجبات بالطبع. الحجاب على الطريقة الأمريكية. الحجاب على طريقة الجامعة الأمريكية التي ظهر فيها مؤخراً الدعاة الشباب ذوو الثقافة الأمريكية في التبشير والدعاية الإعلامية ومزج الدين بدورات التنمية البشرية ولم الفلوس بالكوم من وراء ذلك. وشككت أكثر من مرة بأن الولد الأمريكاني الإيراني ليس أخيهن ولا يقرب لهن في الحقيقة، خصوصاً بعد أن اختفى بعد فترة قصيرة، وراحت البنتان تستقبلان بنات مصريات بمني جيبات وشباناً أغراباً ويشربون البيرة في البلكونة تحت وهىء ومىء، وكنا نراهم أنا ومحب من بلكونتنا، والركب والفخاد العريانة وقزايز البيرة يا زعيم، ومحجبات ومتدينات ومصليات مع ذلك، تخيل! حجاب إيه ده يا خويا! ولكن هذه قصة أخرى، ذكرني من فضلك بأن أرويها لك بالتفصيل في مناسبة أخرى إن أحببت.

وأنهينا وجبتينا. وسرعان ما شرع طاقم الضيافة في لملمة الصواني الفارغة. وعندما أتت المضيفة إلينا، طلب منها جاري اثنين كمالة من السكرو درايفر، وناولها عشرة يوروهات. فأحضرت لنا كوبين آخرين من السكرو درايفر. ولاحظت أنها أكرمتنا في الكمية، لأن كمية المشروب في كوبي كانت أعلى

بمقدار عقلة إصبع على الأقل من المرة الفائتة. وشربت في نخب صديقي التولوزي الجديد. وأنا أستغرب من مسألة دفعه لعشرين يورو في الشراب، وقد قدرت أنه فقير، أو على الأقل يمر بصعوبات مالية، وإلا لحجز كرسيين ووسعها على نفسه في الطائرة. ولكني كنت قد صادفت من قبل بعض الأشخاص الكرماء الندماء، من السكريين بالطبع، الذين كانوا على استعداد تام لإنفاق آخر قرش في جيوبهم على الشراب وعلى دعوة صديق للشرب ومنادمته، فعددت صديقي التولوزي الجديد واحداً من تلك الفئة.

ولا أستطيع أن أصف لك ما فعله فيّ السكرو درايفر، في الحقيقة، حتى وإن حاولت جهدي. فهذه الكأس الثانية، على الطائرة الثانية لهذا اليوم، قد أزالت كل الإرهاق، والتوتر، والخوف، وكل تلك الأشياء التي تشعر بها في رحلتك الأولى إلى الخارج لبلد غريب وليس في جيبك إلا مئتي دولار سلفة من صديق كريم. الحق الحق أقول لكم إن الأمم إنما تبنى بالمشاريب. أو تهدم، في الحقيقة! قل لي ماذا تشرب أقل لك من أنت، وعلى أية درجة من سلم الحضارة والتقدم والمدنية تقف كوتش! وربما كان تخلفنا، نحن العرب، هو بسبب مشاريبنا، لا لشيء آخر. وإلا فقل لي إذن لماذا تقدم الغرب والشرق والشمال والجنوب، بينما ظللنا نحن متخلفين وفي مرحاض البشرية؟! نعم طبعاً هناك الحكام وكل تلك الأمور، ولكنها المشاريب في البداية والأساس يا صديقي، صدقني، حكامنا، أنفسهم، هم نتاج لمشاريبنا المتخلفة، لو كانوا يشربون مشاريب نظيفة لصاروا أنظف بكثير.

سألت رفيقي، من باب فتح الحديث والدردشة، إن كان قد سبق له زيارة مصر من قبل، لأنني أعرف الولع الفرنسي بالفراعنة وكل تلك الأشياء:

- لا للأسف، ولكن لدي عدة كتب مصورة عن مصر فيها صور كثيرة لطيفة، للأسف ليس لدي أبناء في مصر، فأنا عادة لا أزور إلا البلاد التي يكون لي فيها أبناء!

وراح يشرح لي أن لديه الكثير، والكثير جداً من الأبناء؛ البنات والأولاد، في عدد كبير من مدن فرنسا، وفي عدة دول أوروبية أيضاً. بل ولديه في أمريكا نفسها ابن يعمل ضابطاً في الجيش الأمريكي، هو الآن ضمن القوات الأمريكية الموجودة في العراق. ولما سألته إن كان أبناؤه الكثر هؤلاء هم نتاج زيجة واحدة، أم أنه قد تزوج أكثر من مرة؟! قال:

- لا، لقد أتى أبنائي إلى هذا العالم بسبب طبيعة عملي، فقد كنت في شبابي أمارس الجنس كثيراً!

ثم دفع نفسه إلى الأمام بجهد جهيد، وتناول بيديه السمينتين حقيبة يده الجلدية الصغيرة من داخل الجراب القماشي المثبت في ظهر الكرسي الذي أمامه، وأخرج منها بطاقة ورقية، وناولني إياها. فقرأت المكتوب على البطاقة:

سكس شوب & بوتيك إروتيك

المدير: دومينيك كوتو

ثم عنوان المحل

ورقم الهاتف

وفوجئت في الحقيقة يا رفيق! لم تكن هيئة السيد دومينيك، ولا جسده، ولا خجله، ولا كرمه، يوحيان لي على الإطلاق بأنه مدير سكس شوب!

وقدمت له، بالطبع، بطاقتي أنا الآخر. ولكي أحضر بطاقتي من حقيبة الأوراق اللاطية بجوار قدمي اليسرى والمركونة تحت النافذة، قمت بتفكير سريع، ثم مناورة. والفكرة السريعة التي طرأت على بالي، أننا لسنا في حاجة إلا إلى مائدة واحدة منصوبة نضع عليها كوبينا سوياً. فقمت بوضع كوبي على مائدة دومينيك، وإرجاع مائدتي إلى مكانها بيدي اليسرى، وأغلقت ترباسها بأصابعي اليسرى وبمهارة لم أكن أعهدها في تلك الأصابع. ثم تناولت حقيبتي من على الأرض بيدي اليسرى أيضاً، وبمناورة عظيمة، حتى وضعتها على ركبتي، إلى جوار أصابعي اليمنى. وبمساعدة الاثنين، فتحت سوستة شنطة الأوراق، وأخرجت بطاقة من بطاقاتي وناولتها لدومينيك.

وكنت قد صممتها، ثم طبعتها في أحد مطابع العتبة، فور

علمي بحصولي على المنحة. ولم تكلفني سوى ثلاثين جنيهاً فقط لا غير. وكانت مئة كارت باللغة الإنجليزية، على كل منها اسم شركتي الوهمية، واسمي، وتحته: صانع أفلام، ورقم هاتفي المحمول. وكان تصميماً بسيطاً وراقياً في نفس الوقت. واخترت لطباعتها كروتاً ذات ورق محبب لونه بيج جميل جداً. ولم يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة. سلمت الولد التصميم على دسك، واخترت نوعية الورق الذي أريده من حافظة نماذج طويلة عريضة أراها لي. وقال الولد إنها ستكون جاهزة بعد نصف ساعة. فرحت أتجول قليلاً بالقرب من المكان. وكان المكان قريباً من مكتب بريد العتبة الرئيسي. وكان أمامه كشك رائع أحبه كثيراً، يبيع كل أدوات القرطاسية والورق والبلوك نوتس وكلها تشبه ورق البردي وعليها رسومات فرعونية. وكان يبيع أشياء أخرى أيضاً، مثل الكوتشينة الفرعونية وكروت البوستال الفرعونية وما شابه ذلك. وكانت أسعاره رخيصة، وجودة الأشياء ممتازة. وكنت أحب شراء بعض الهدايا للأصدقاء الأجانب من هناك. أشتريت يومها من عندهم بلوك نوت ورق بردي برسومات فرعونية بثلاثة جنيهات، أحمله معي الآن في حقيبة الأوراق التي في حجري.

قرأ دومينيك الكارت، ورفع حاجبيه منبهراً ونظر لي وقال:

- صانع أفلام مسيو سامح! واو! أنا أيضاً لدي بنت في بوردو تدرس السينما!

- يا لها من مصادفة يا مسيو دومينيك، أتمنى لها كل التوفيق!

- وأين ستقيم في تولوز، إن جاز لي السؤال؟!

- في فندق اسمه إتاب، على ما أظن!

- أي إتاب فيهم، في تولوز لدينا أكثر من عشرة إتاب؟!

- لا أدري في الحقيقة، فاللجنة المنظمة للمؤتمر الذي أحضره هي التي حجزت الفندق والطيران وكل شيء!

- أنت هنا لحضور مؤتمر عن السينما؟!

- ورشة عمل، بمعنى أدق، نعم، هي ورشة عمل عن صنع الأفلام التسجيلية.

- ورشة عمل يعني أنك ستقيم أسبوع؟ عشرة أيام؟!

وتأكدت من ذكاء وحصافة دومينيك.

- نعم ، صحيح، أسبوع واحد فقط، للأسف!

- لكن لابد وأن تأتي لزيارتي في المحل قبل أن ترحل، أنا أصر!

- طبعاً طبعاً، سيشرفني ذلك كثيراً، في الحقيقة، يبدو أنه سيكون لدي يوم إضافي بعد انتهاء ورشة العمل، وسيسعدني

كثيراً أن أمر عليك في الأوديسة!

- إن وجدت صعوبة في العنوان، كلمني في التليفون وسأتدبر أمر من يحضرك إلى المحل.

- لا تقلق، فأنت تعرف القول الشائع بأن السينمائيين أمهر من رجال المخابرات!

وضحكنا.

في الحقيقة، لم يكن هذا لا قولاً شائعاً ولا يحزنون، وكنت قد ارتجلته في التو واللحظة، وهيّ حلاوتها كده في الارتجالات!

وفيما بقى من دقائق على وصولنا إلى تولوز، راح دومينيك يشرح لي أهم المعالم الرئيسية في تولوز، وتلك التي يجب أن أحرص على زيارتها في أيامي القليلة التي سأقضيها في المدينة. قال لي بإن سكان تولوز ودودون للغاية، وإن المدينة ترجع إلى العصور الوسطى، وبها الكثير من المباني المبنية بالحجر الوردي ولذلك يسمونها: المدينة الوردية. وأن تولوز تعتبر عاصمة أوروبا في الطيران، لأن بها مقر شركة إرباص وبعض المصانع والهناجر التي يتم فيها تجميع الطائرات، وبها أيضاً: مدينة الفضاء، وهو متنزه ترفيهي-تعليمي يمكن أن ترى فيه نماذج للصواريخ الفضائية وكل تلك الأشياء. وعندهم أيضاً متحف تولوز للتاريخ الإثنوجرافي، والطبيعي، والنباتي، والحيواني، والمعدني، والصخوري، والطيوري، والحفرياتي، وكل تلك

الأشياء. وعندهم متحف سان ريمون للآثار الرومانية والقرون الوسطية، والمبنى نفسه كان يستخدم في القرون الوسطى كجامعة أو أكاديمية أو شيء من هذا القبيل. وقال إن أهم شيء في تولوز هو قناة دي ميدي؛ التي ُشقت في القرون الوسطى لكي تربط بين البحر الأبيض المتوسط وبين المحيط الأطلسي، وقال إنه مهما كانت حالة المرء النفسية محبطة أو مكتئبة أو منهزمة، فإنه حالما يتمشى حول ضفاف القناة وتحت أشجارها الكثيفة التي تظللها كسقف واق، تنبسط أساريره فوراً، وتخف روحه، ويزول الاكتئاب والاحباط والانهزام، ووصاني بأن أزورها وأتمشى هناك، وقال إن هذه تجربة ستظل محفورة في ذاكرتي بعد أن أعود إلى مصر. وذكرني كل هذا الكلام بما نقوله في مصر للسائحين من باب النصب والضحك على الذقون بأن من يشرب من ماء النيل لابد وأن يعود إليه وكل تلك الخزعبلات. كما وصاني دومينيك بأن أجلس أمام مبنى الكابيتول في ساحة الكابيتول وأحتسي هناك قهوة أو بيرة أو أي مشروب آخر أحب، لأن منظر المكان تحفة، وساحة الكابيتول، كما علمت منه هي تقريباً ما نسميه عندنا في القاهرة: وسط البلد، ومبنى الكابيتول نفسه هو فندق زائد مسرح زائد قاعة لدار البلدية أو شيء من هذا القبيل، وهو مبنى من القرون الوسطى أيضاً.

وبالطبع لم أر أياً من هذه الأشياء خلال وجودي في المدينة. باستثناء ساحة الكابيتول، لأنك لابد وأن تمر بها حين تمشي من أي مكان في المدينة إلى أي مكان آخر. ولم يكن عزوفي عن زيارة تلك المعالم السياحية، العظيمة ولا شك في نظر دومينيك

وباقي التولوزيين، فقط من باب التعالي الثقافي والحضاري، بوصفي ابن الحضارة الفرعونية التي يصطفون طوابير وطوابير من أجل قطع تذكرة ومشاهدة بعض القطع البسيطة التي نحضرها إليهم لتعرض في متحف أو قاعة أو شيء من هذا القبيل، كما أن الزحام على قسم الحضارة الفرعونية في متحف اللوفر شاهد على ما أقول، ولا ينبغي خداع النفس أو المغالطة من باب المجاملات الحضارية والثقافية، بل ينبغي قول الصراحة، ألا وهي أنني لست شغوفاً كثيراً بزيارة مبنى من العصور الوسطى، أو مشاهدة قطعة آثار من العصور الوسطى، أنا القاطن في القاهرة على بعد خطوات من المتحف المصري العظيم، والذي أرى الأهرامات العظيمة كلما رحت أو غدوت في أي مشوار لي من مشاويري في البلد، وأنا الذي كنت منذ بضعة أيام جالس أدخن الشيشة في مقهى في الدور الأرضي لمبنى من العصور الوسطى، بل ما قبل الوسطى وشرفك، أمام السور الخلفي لجامع الأزهر، ثم رحت ليلتها وتمشيت حتى السيدة زينب، وجلست قبالة السور الخلفي للجامع، وتعشيت فول وطعمية عند (الجحش)، ثم طلبت وأنا جالس عند الجحش في الشارع وعلى قارعة الطريق العام وفي الهواء الطلق وكل حجر وطوبة حولي مما قبل العصور الوسطى، طبق ممبار عظيم من المحل اللى جنبه بثلاثة جنيهات، وبعد كده تقولي يملىء عيني متحف تولوز ولا قناة دي بنما ولا مش عارف إيه، يا راجل! الحضارة اليابانية القديمة معلش نحترمها، اليونانية القديمة على راسنا من فوق، إنما عصور وسطى مين يا عم دومينيك!

لكني طبعاً أبديت علامات الاهتمام وإيماءات الاندهاش والرجل يتكلم بفخر عن أهم المعالم في مدينته، فنحن شرقيون أولاً وأخيراً، ونفهم في الأصول والواجب، ومن المجاملات عيشنا ورأس مالنا. وكان أهم ما في هذا العرض الدومينيكي، أنه وعدني بأنني لو زرته فسوف يعزمني على كاسوليه توليزين، أو كاسوليه دى تولوز، أو الكاسوليه التولوزي إن أحببت. والكاسوليه التولوزي يا كوتش كما فهمته من دومينيك الذي كان لعابه يسيل وهو يشرحه لي، هو عبارة عن كاسوليه معين مشهورة به تولوز. والكاسوليه يا صديقي هو الطاجن عندنا، أو الطاجين باللهجة المغربية. والكاسوليه الفرنسي، عموماً، أو الطاجن، أو الطاجين، هو عبارة عن: فاصوليا بيضاء تطهى ببطء شديد، وسجق تولوزي، ولحم خنزير، أو بقر، أو بط. وفي بعض أنواع الطاجن التولوزي، يستبدلون لحم الخنزير أو البقر بلحم الخروف أحياناً. هذا طبعاً بالإضافة إلى لوازم الكاسوليه من بصل، وجزر، وثوم، وبهارات، وخبز محمص، وإلخ إلخ إلخ. وهذا وإن دل على شيء يا زعيم فإنما يدل على صدق دومينيك عندما ذكر بأن التولوزيين أناس ودودون للغاية. أرأيت أود من ذلك: أول مرة نتقابل، وصدفة على الطائرة، ثم يعزمني على اثنين سكرو درايفر، ودعوة إلى السكس شوب تبعه، وعزومة على أكلة الكاسوليه التولوزي!

أما السبب الحقيقي والبسيط والمباشر الذي منعني من رؤية معالم تولوز العظيمة التي وصفها دومينيك وأوصاني بزيارتها، فلم يكن، كما سبق وأن ذكرت، التعالي الحضاري أو الثقافي،

وهو موجود ومتوفر وحاضر وحياتك، ولكن ببساطة لأنه لم يتوفر لي أي وقت. وها أنا ذا أقول لم يتوفر لي أي وقت، ولم أقل لم يتوفر لي أي زمن، لأنك إن أحببت أن تهين الزمن فسمه: الوقت، وهذا التعبير أخذته من عماد فكري، فهو مغرم دائماً بترديده: إن أردت أن تهين الزمن فسمه الوقت**!** ففي الحقيقة أن ورشة العمل، وما صاحبها من أحداث وحوادث سنأتي على ذكرها حالاً بالاً، لم تترك لي أي متسع من الوقت لا لزيارة متحف تولوز العظيم، ولا قناة دي سويس أو أبصر إيه الخطيرة، ولا كل تلك الأشياء القرونوسطية التي ذكرها دومينيك.

ووصلنا إلى تولوز. ومرة أخرى، لا أدري أي جزء بالضبط في مرحلة الهبوط بالطائرة قد ذكرني بأسلوب قيادة سائقي الميكروباصات التي تأخذك يوم الجمعة من ميدان السيدة عائشة إلى سوق الإمام. ولم تكن مدرجات المطار مزدحمة، بدليل أن الطائرة سريعاً ما ركنت أمام أحد ممرات إنزال الركاب. واصطدمت الطائرة صدمة خفيفة، ولكن محسوسة، بنهاية طرف الممر المغطى بالكاوتشوك لحسن حظ الجميع؛ والموجود من أجل هذه الحالات التي يكون فيها الطيار ضعيفاً في الركن. وبدأ الركاب في النزول. وانتظرت أنا ودومينيك حتى انتهى صف الركاب، فقمت على الفور، وفي يدي حقيبة الهاندباج الخفيفة، وفي اليد الأخرى حقيبة الأوراق، وتخطيت ساقي دومينيك كما يفعل متسابقو قفز الحواجز، وقد صار ما بيننا من عشرة يسمح الآن بهذه الأريحية في التعامل، وهو التصرف العملي والوحيد، إن كنت قد لاحظت، الذي يختصر الوقت والمجهود والإحراج في

مناورات لا طائل منها. أما هو، وقد رآني أتصرف على طبيعتي وبأريحية، فقد تصرف مثلي بطبيعية وأريحية، بأن دحرج نفسه على شقه الأيسر، فانكفأ بوجهه ويديه على الكرسي الذي كنت أجلس عليه، ثم اعتمد بيديه على الكرسي وعلى حافة شباك الطائرة، ودفع بيديه لكي يرفع نفسه، ثم سند بيد على رأس الكرسي الذي كنت أجلس عليه، وباليد الأخرى على الكرسي الذي أمامه، وهكذا حرر دومينيك نفسه من وضع الجلوس، وصار الآن واقفاً. وهممت أنا بسرعة وتناولت حقيبته الجلدية الصغيرة من جراب ظهر الكرسي حتى لا ينساها، أو حتى لا يضطر للانحناء من أجل تناولها، وإلا لكانت مشكلة.

ناولته الحقيبة، فشكرني. ورحنا نتمشى الهوينا في ممر الطائرة. وكانت خطوته بطيئة، بل بطيئة جداً. وأسعدني إيقاع المشي البطيء هذا وغمرني بطمأنينة وراحة نفسية. وتذكرت مقال كنت قد قرأته عن موضة انتشرت في باريس في منتصف القرن التاسع عشر بين المتسكعين الفرنسيين تحت البواكي الباريسية الشهيرة، وأنهم كانوا يصطحبون معهم سلاحف في التسكع في الشوارع، أي نعم سلاحف، حتى تحدد لهم إيقاع خطوهم. وكان كاتب المقال يتأسف على أن هذه الموضة لم تدم طويلاً، ولم يقدر لها الاستمرار، وإلا لاضطر التقدم إلى ضبط نفسه على هذا الإيقاع، فقد أتى أحد الحمقى الفرنسيين وأطلق شعار: فليسقط التلكؤ! وهكذا انهزم إيقاع السلاحف التأملي المتمهل العظيم، أمام لاإنسانية دوامات التدافع والعصبية والذهول.

كنت أنا أتقدم دومينيك بخطوة، بينما كان هو يعتمد بيديه على الكراسي التي على جانبي الممر لكي تساعده في السير. كان بدينا بحق! وقمنا بتحية الطيار وطاقم الضيافة الذين اصطفوا أمام الباب. وواصلنا مشي الهوينا في ممر الركاب، الذي كان قصيراً للأسف. وكان دومينيك يسألني عن كيف سأصل إلى فندقي وكل تلك الأشياء. فقلت له بإنني أتوقع وجود أحد من اللجنة المنظمة لورشة العمل في المطار لكي يأخذني إلى الفندق. وسألني إن كنت أسافر كثيراً. فقلت له لا هذه أول مرة أسافر فيها منذ سنين طويلة جداً. وحكيت له قصة سفري المتكرر وأنا صغير مع أبي وأمي وأختي من طرابلس الغرب إلى القاهرة، وبالعكس، عبر مطاري الترانزيت بأثينا وفالِتا وكل تلك الأشياء التي سبق وحكيتها لك.

وكنت أرى بوضوح ملامح الرضى والاطمئنان والراحة على وجه دومينيك ونحن نمشي جنباً إلى جنب، وقد وضع يده السمينة الثقيلة في مرفقي كأننا صديقان منذ زمن، أو حبيبان. وتذكرت قصيدة لبودلير يقول فيها:

محبو العاهرات

سعداء، راضون وهانئون

أما أنا، فذراعاي مكسورتان

لأنني احتضنت السحب.

ورغم أنني أحفظها بالفرنسية، لأنني أحفظ كل شعر بودلير بالفرنسية، لحبي إياه، إلا أنني، بالتأكيد، لم أقلها له ونحن نمشي، فأنا برضو حسيس وعندي نظر!

وحالما انتهى ممر الركاب. رأينا سلم كهربائي يهبط عليه المسافرون إلى أسفل في صالة المطار التي بدت صغيرة ومحلية للغاية. وكان السلم الكهربائي يعمل، ولم يكن معطلاً كالسلم الكهربائي في مطار القاهرة. وكان يبدو على دومينيك أنه يحفظ المطار عن ظهر قلب لأنه قادني إلى السلم مباشرة وهو يقول:

- لنهبط من هناك، وعندما ننزل سوف نعثر على حقيبتك، أنت معك حقيبة، أليس كذلك؟!

- نعم معي حقيبة مشحونة في الطائرة.

وهبطنا على السلم الكهربائي، الذي كان يعمل وفل الفل. وعلى السلم، ومن باب الإتيكيت، عدت لأتقدم دومينيك بخطوة، أو بمعنى أدق؛ بدرجة، فلو، لا قدر الله، تعثر أو أي شيء من هذا القبيل، لكنت في وضع يمكنني من إنقاذه والإمساك به، بالرغم من أنه، منطقياً، الكل يعلم أنه لو تعثر دومينيك فلن أستطيع أنا، ولا غيري كائناً من كان، أن ينقذه أو يمسك به. ولكنه كان شيئاً من باب الإتيكيت والسلام.

وحالما شرعنا في الهبوط على السلم الكهربائي، رأيت في مرمى البصر، تحت في نهاية السلم، فتاة صغيرة في حدود الستة

عشر أو السبعة عشر ربيعاً تمسك في يدها بورقة بيضاء كبيرة إلى حد ما مكتوب عليها: (بروجراما ميديا)، بالأحرف اللاتينية بالطبع. وكان هذا هو اسم الجهة المنظمة لورشة العمل، وهي شركة إسبانية، تولت مسؤولية تنظيم الورشة من كافة الجوانب العلمية والتقنية واللوجستية وكل شيء، نيابة عن برنامج دعم السينما في الاتحاد الأوروبي الذي منحني المنحة. فرفعت يدي فوراً للبنت وأنا أبتسم. وأشرت فرحاً لدومينيك وكأنني أثبت له أنني بالفعل شخص مهم وهناك أناس في انتظاري بالمطار:

- ها هي يا دومينيك، هذه البنت الجميلة هي من اللجنة المنظمة للمؤتمر!

- هذا رائع أن تكون في انتظارك بالفعل، هذه سائقة تاكسي يا سامح، لكنها ستقوم بكل ما يتوجب القيام به في المطار حتى توصلك إلى الفندق.

- حقاً، رائع!

وحالما وصلنا إلى الأرض، ودعني دومينيك وهو يقول إنه سوف ينتظرني بعد انتهاء ورشة العمل. فاحتضنته بحيميمة. هذا ما يطلقون عليه الحضن الإنجليزي، لو تعلم حضرتك: الإنجلش هَج. أي أنه ليس تقليداً شرقياً أو عربياً أو متخلفاً أو مثلياً أو شيئاً من هذا القبيل، فخلي بالك يا زعيم.

وسلمت على البنت الجميلة، وذكرت لها اسمي، وأنني من

مصر. ولا أذكر إن كان اسمها كرستين أو بياتريس. ففي الحقيقة نسيت أن أكتب اسمها في اليوميات التي كنت أواظب على كتابتها. وكل هذه المعلومات الواردة في هذه السطور هي من اليوميات التي أواظب على كتابتها. فمن إين إذن تظن أنني قد أتيت بها والذاكرة، كما لم أقل لك بعد، في زهايمر الزهايمر! يقولون إن الإنسان بعد سن الأربعين يعاني من صعوبات بالغة جداً في استدعاء الأسماء، الأسماء بالذات، لأن العقل يبذل أقصى جهد له في استدعاء الأسماء. هذا بالرغم من أنني لم أبلغ الأربعين بعد، وما زلت في بدايات الثلاثينيات. بدايات الثلاثينيات وخلاص، ها تفرق معاك إيه يعني لما تعرف كام سنة بالضبط!

لكنني، وفي كل من ذاكرتي ومذكراتي، احتفظت بوصف للبنت السائقة الجميلة. كانت نحيفة ممشوقة القوام. قصيرة. ربما لا تتجاوز 165 سم. ولها وجه طفولي جميل، وإن كان يبدو عليه الجدية، وكأنها تعول عائلة كاملة، أو طموحة جداً مثل بطل (المراهق) لدوستويفسكي، وتريد أن تصبح مليونيرة قبل سن الثلاثين أو شيء من هذا القبيل. لكن من المستحيل أن تكون أكبر من سبعة عشر عاماً. ثمانية عشر على أقصى تقدير. وكانت معتنية اعتناءً خاصاً برسم حاجبيها؛ كحل في عينين شرقيتين واسعتين وجميلتين. وكانت خمرية إلى حد ما. أو ربما كان لون بشرتها كذلك من أثر التعرض لحمامات الشمس، سواء على البحر أو النهر أو حمام السباحة أو حتى على سطح البيت. وأنف طويل روماني جميل. وشفة علوية مكتنزة ومرفوعة قليلاً وتعطيك الانطباع بأنها غير راضية عن شيء ما، بالرغم من أن

ملامح البنت عموماً كانت مريحة وتدعوك للاطمئنان والثقة. آه نسيت، وكانت ترتدي قميصاً أبيض ناصعاً ببعض الكرانيش والتخريمات حول المعصمين والرقبة، وبنطلوناً قماشياً أزرق داكناً.

اقتادتني فوراً وبمشية سريعة وخبيرة وواثقة، إلى مكان الحقائب. ولم أشاهد أية كلاب بوليسية من أي نوع في مطار تولوز. وانتظرنا بضع ثوان أمام سير ناقل الحركة الذي يحمل حقائب المسافرين من داخل صالة شحن الأمتعة إلى داخل صالة الركاب. وكان واضحاً أنهم قاموا بإفراغ الطائرة من الحقائب في وقت سريع وقياسي. وظهرت حقيبتي بسرعة، فتناولتها، وقلت لها إن هذه هي حقيبتي الوحيدة ولا يوجد غيرها. والغريب يا رفيق أن البنت اقتادتني إلى صالة الجمارك، بدون أن يكون معها تصريح بدخول الجمارك، ثم أومأت لموظف الجمارك أنني معها وأن كل شيء تمام التمام، فأشار لنا الرجل الكريم بالخروج، دون أن يلمس حقيبتي، ولا هاندباجي، ولا شنطة أوراقي ولا أي شيء. فتخيل حسرتي لو كان لي في تجارة الصنف! مش كان أبوك أولى بالترالملم ده! ولا أكتمك القول، شعرت أيضاً بغصة وقلق بعض الشيء، ماذا لو استطاع إرهابي فعلاً أو شيء من هذا القبيل إدخال قنبلة للمدينة نتيجة هذا التساهل الذي يصل إلى درجة التسيب!

وخرجنا من المطار وأنا أحمل حقيبتي، والهاندباج على ظهري، وحقيبة الأوراق في يدي الأخرى، بعد أن حاولت

كرستين أو بياتريس حمل الحقيبة، وأصررت أنا بالطبع من باب اللياقة والشهامة والرجولة أن لا، مستحيل، لا ممكن أبداً! وده يصح برضو!

وقادتني إلى سيارة بيجو عائلية حديثة كحلية. وكانت هناك شابة وشاب يقفان بالقرب من السيارة. وقدمتني كرستين أو بياتريس إليهما: ليلى، وبي جى. سلمت على ليلى، وذكرتُ اسمي وأنني من مصر. وقالت إنها من لبنان. وسلمت على بي جى، الذي قال إنه من مالطا. وفرحت كثيراً عندما علمت أنه من مالطا. وحين ُتذكر مالطا أمام أي مصري فإنه يتذكر شيئين فوراً: فلان يقلع ملط؛ أي يصير عارياً تماماً كما ولدته أمه. وفلان يدَّن في مالطا؛ دلالة على أنه لا حياة لمن تنادي وأن المؤذن يؤذن في مجتمع لا يوجد فيه إلا عكس كل ما هو مسلم وإسلامي ومتأسلم. آه، وهناك أيضاً: بعد خراب مالطا، وتعني أن محاولة الإصلاح قد جاءت متأخرة جداً وبعد فوات الأوان وكل ذلك. ويقال إن سبب العبارة هو أن جيش نابليون لما وصل إلى جزيرة مالطا واحتلها، وهو في طريقه لاحتلال مصر في نفس السنة، أي في عام 1789 ميلادية، عاث جنود الجيش الفرنسي في مالطا فساداً وخراباً وتدميراً وسرقة ونهباً، حتى هدموا مبانيها وقصورها وكنائسها، وفر أهلها إلى صقلية نجاة بحياتهم، ولما حاول الإنجليز تحرير الجزيرة من الاحتلال الفرنسي، ونجحوا أخيراً، كانت مالطا قد صارت خرابة بالفعل، مما يعني يا ريس أن الانجليز دائماً ما ينقذون مالطا بعد خراب مالطا، وإنهم إذا ما أتوا لإنقاذ الرأس فإنما يأتون بعد أن تكون قد وقعت فيها الفأس.

وهناك أخيراً الحكاية التي لم أهتم كثيراً بتوثيق صحتها، والتي حكاها لي أحد النحاتين المصريين الشبان، من أن الفراعنة كانوا يستوردون التراب المالطي ويدفعون فيه وزنه ذهباً.

وأعجبني شارب بي جى كثيراً، فهو يشبه شوارب القبضايات في لبنان الذين كنت أشاهدهم في مسلسلات التلفزيون وأنا صغير في ليبيا. ويشبه كذلك شوارب الصعايدة المأصلين. وإن كنتَ قد رأيت شوارب الريس متقال، فهي نفسها شوارب بي جى. ولا تستغرب كثيراً من عادة تربية الشوارب في أوروبا، أو حتى الذقون، فهناك هواة وغاوون لكل تلك الأشياء، خصوصاً في فرنسا وبلجيكا وباقي الدول الفرانكوفونية، لكنهم يربون ذقوناً مهذبة، لا كحالة الإسلاميين والمتطرفين وكل هؤلاء المجانين الذين يربون ذقوناً غير مهذبة.

وكان كل شيء آخر في بي جى يشبهني من حيث الطول والوزن. وربما أكون قد ذكرت في مناسبة ما من قبل أنني طويل، وربما لم أذكر. ولكن ها أنا ذا أذكر في هذا المقام أنني طويل بالفعل. ونحيف إلى حد ما. وقمحي البشرة إلى حد ما. وبي جى كان قمحياً كذلك. أما ليلى فكانت أقصر منا. وفي طول كرستين أو بياتريس، أو أطول بقليل. ولم تكن نحيلة ولا بدينة، بل بين بين. وكان لها وجه طويل ومسحوب إلى حد ما. وشعر مفلفل، أو مجعد، أو كيرلي، أيهم شئت، لونه بني ويصل إلى كتفيها تقريباً وينسدل بحرية حول وجهها. وكان لها أيضاً حاجبان أسودان مميزان لأنهما كثيفان إلى حد ما. وبشرة برونزاج من

كثرة حمامات الشمس على الشاطئ حسبما قدرت. وكانت، مثلنا جميعاً، ترتدي بنطلون جينز، لم أعد أذكر لونه، لأنني لم أدونه في مذكرات ذلك اليوم، وبلوزة بناتي جميلة، لم أدون لونها أيضاً في اليوميات، وإن كنت ما زلت أذكر أنها فاتحة، وكانت مقورة من الصدر تقويرة واسعة تظهر النحر كله إلى بداية ثدييها.

وفتحت لي كرستين أو بياتريس حقيبة السيارة الخلفية الكبيرة، والتي اتسعت لحقيبتي وهاندباجي بجوار حقائب وهاندباجات ليلى وبي جى. ثم استقلينا السيارة؛ ليلى في الأمام، وأنا وبي جى في الكنبة الخلفية المتسعة. وكانت السيارة كبيرة من الداخل وواسعة وذات سقف عال. وكانت كرستين أو بياتريس تجلس على حرف مقعد السائق لكي تصل بقدميها، وهي القصيرة، إلى دواسات البنزين والفرامل. وذكرني وضعها وطريقتها في الجلوس وعمرها بالفتيان الصغار الذين يقودون الميكروباصات في الأحياء العشوائية بالجيزة والهرم وهم تقريباً واقفون لقصر قامتهم لأنهم لو جلسوا على مقعد السائق فلن يستطيعوا الوصول إلى دواسات البنزين والفرامل لسيارة الميكروباص الكبيرة. لكن طبعاً شتان بين بياتريس أو كرستين وبين أولئك الصبية الجهلة المتسخون الأوباش.

لكن بياتريس أو كرستين كانت بالرغم من صغر سنها الواضح، وعلى عكس صبية الميكروباصات في القاهرة الكبرى، تقود السيارة بمهارة كبيرة وتمكن من فن القيادة ومن الأصول والآداب المرعية، فكأنها كانت تطبيقاً حرفياً ومجسماً لمقولة:

القيادة فن وذوق وأخلاق.

ولم أعر تركيزاً كبيراً، في الحقيقة، للطرق التي مررنا عليها. ودخلنا سريعاً إلى ما يشبه وسط البلد عندنا في القاهرة، أو إن شئت الدقة، وسط البلد في الإسكندرية، وخصوصاً: شارع فؤاد، وشارع صفية زغلول، وشارع سعد زغلول، وشوف جمال اسكندرية لما تعمل شارع صفية زغلول عمودي على سعد زغلول! ورحنا نسير وسط بنايات جميلة وقديمة بعض الشيء وكأنها من الأربعينيات أو الخمسينيات أو شيء من هذا القبيل، بالرغم من أنها كانت حديثة الطلاء ومعتنى بها فوق الوصف، وهذا يا كوتش ما يميز مباني الغرب عن مبانينا في القاهرة والإسكندرية، فنحن عندنا كنوز معمارية، لكننا نهملها بانعدام الصيانة والترميم.

وقالت بياتريس أو كرستين وهي تقود التاكسي إن أمامنا عشر دقائق حتى نصل إلى الفندق، فقلت أنا بصوت عال بالمصري:

- قشطة!

فسألت كرستين أو بياتريس عن معنى ما قلته، فأوضحت ليلى على الفور وهي تبتسم:

- كريم دو لا كريم!

ولم أكن لأترجم أفضل من ذلك ولو استغرقت سنة كاملة في المحاولة. صدق اللى قال: إدي العيش لخبازه! فلغتي الفرنسية، التي هي حصيلة معافرة وتذاكي وتوفيق وتلفيق من هنا ومن هناك، لن تصمد مطلقاً أمام ثقافة فرنسية متأصلة ومتغلغلة في ليلى منذ نعومة أظفارها؛ في المنزل مع الأسرة، وفي المدرسة مع المعلمات والمعلمين والرفاق.

وضحكت بياتريس أو كرستين، وبانت الطفلة فيها حين ضحكت.

وكان اهتمامي في ذلك الوقت مركزاً على بي جى. فقد نبأني حدسي بأننا سنصير أصدقاء. إنه من ذلك النوع الذي تشعر حالما تراه لأول مرة بإنه ملاك بجناحين. ملاك بجناحين وشاربين ضخمين مثل شاربي الريس متقال يقف عليهما الصقر وكل تلك الطيور. وأكثر ما يشد بصرك في وجه بي جى أن له نظرة دائمة الشرود، مثل الشخصيات الكبرى في تاريخ الدراما: راسكولنيكوف، وهاملت، وإيفان كارامازوف، وستافروجين، وكيريلوف، وأبطال العظيم تاركوفسكي، وإلخ إلخ إلخ. وبعد أن تعاملت معه قليلاً، اكتشفت أيضاً أنه هادئ الطباع جداً، وأنه ذو طبع مساير.

ولما رأيت بي جى لا يتفاعل مع المحادثة الفرنسية، سألته بالإنجليزية إن كانت رحلته بالطائرة مريحة، فأجاب بأنها كانت مريحة ولطيفة. وعرفت أنه ركب من فالِتا إلى مطار روما، ثم

من روما إلى تولوز. وكانت ليلى في المقدمة تتحدث مع السائقة الصغيرة وتسألها بالفرنسية عن شيء ما أظنه موعد الأوكازيون في المدينة، لكنني لم أسمع رد البنت. وسألني بي جى بالإنجليزية عن رحلتي، فقلت إنها كانت رائعة، وإنني شربت اثنين سكرو درايفر في الطائرة مع صديق جديد من تولوز تعرفت عليه في الطائرة ودعاني إلى محل السكس شوب الذي يملكه هنا في تولوز، فضحك بي جى، وصرنا منذ تلك اللحظة أصدقاء. ونظرت ليلى نحوي وضحكت هي الأخرى. بينما صاحت بياتريس أو كرستين بصوت طفولي ضاحك وهي تنظر إليّ في المرآة الأمامية للسيارة:

- لقد رأيت صديقك في المطار وظننت أنكما تعرفان بعضكما منذ زمن طويل!

- يا حبيبتي نحن في مصر قادرون على كسب الأصدقاء هكذا!

وفرقعت بأصابعي.

فضحكت بياتريس أو كرستين، وليلى أيضاً.

وسألت ليلى إن كانت قد أتت عن طريق باريس، لأنني لم ألمحها في مطار شارل ديجول. فنفت، وقالت إن رحلتها كانت من بيروت إلى مرسيليا، ومن مرسيليا إلى تولوز. وسألتها عن نوعية النبيذ الذي تناولته على الطائرة، فضحكت وقالت إنه لم

يمكن سيئاً جداً. وهكذا عرفت أننا نحن الثلاثة سوف نقضي وقتاً طيباً في هذه المدينة الطيبة.

وسرعان ما وصلنا إلى بوابة الفندق. الذي كان يتكون من أربعة طوابق. ومبني من الحجر الوردي؛ الذي قال دومينيك إن معظم مباني تولوز القديمة مبنية به، وإن الحجارة الوردية التي تأتي من باطن الأرض في تولوز هي مصدر فخر كل التولوزيين في المدينة. وكانت نوافذ الفندق طويلة وجميلة، فخمنت أن سقف الغرف لا بد وأن يكون عالياً. وأنا أعشق الغرف ذات السقوف العالية. وأنزلنا حقائبنا من السيارة. وودعنا السائقة اللطيفة الصغيرة، وقبلتها على وجنتيها، وبان عليها الخجل من هذه الحميمية الزائدة. لكنني كنت مخموراً بعض الشيء. اثنان سكرو درايفر. وثلاثة نبيذ قبلهما. وأظنها خشيت من أن أتبع القبلتين على الوجنتين بقبلة على الشفاه، فقد ابتعدت البنت بسرعة وقفزت في سيارتها وقادتها واختفت.

ودخلنا الفندق. واتجه نحونا على الفور شاب في أوائل الثلاثينيات بشعر طويل بني ناعم ينسدل على جبهته، ورحب بنا، وقال إنه خافيير؛ مدير شركة (بروجراما ميديا). وهي الشركة الإسبانية المسؤولة عن تنظيم ورشة العمل لحساب الاتحاد الأوروبي، كما سبق وأن ذكرت لك على ما أظن. وتولى هو التعامل مع رسبشن الفندق. وجرت الإجراءات سريعة جداً. وناولتنا البنت الموظفة في الرسبشن مفاتيح غرفنا، وكانت عبارة عن كارت ممغنط، لم يكن قد سبق لي استعماله، ولا حتى رؤيته،

ولا حتى في فنادق القاهرة أو شيء من هذا القبيل. وظل خافيير حولنا، يرحب بنا، ويتمنى لنا إقامة سعيدة، وذكر لنا رقم الغرفة التي يستعملها هو ومساعدوه في إدارة الورشة، في حالة إن رغبنا في أي شيء. واقترح علينا أن نصعد إلى غرفنا ونستريح قليلاً، وأن ننزل إلى الرسبشن في السابعة مساءً للتعرف على باقي المجموعة، ولتناول طعام العشاء.

وكانت غرفنا في الطابق الثاني. ولم يكن المصعد متسعاً جداً، فبالكاد استوعب ليلى وبي جى وحقائبهما. وصعدت أنا على السلالم، لأنني لم أحب الانتظار، وفي النهاية، كان صعود السلم لا يستغرق سوى دقيقة أو اثنتين، أي أسرع من الانتظار، ولم يكن الصعود للطابق الثاني شاقاً بأي حال من الأحوال.

وفتحت باب غرفتي بالكارت الممغنط. وتيقنت فوراً أننا في فندق من ذوي الثلاث نجمات. كانت الغرفة صغيرة للغاية. بسرير. وتلفزيون. وخزانة لحفظ الأشياء الثمينة تفتح بالكارت الممغنط. مثل نور الغرفة الذي يفتح هو أيضاً بالكارت الممغنط. ودولاب للملابس. وشباك طويل ضيق وحيد يطل على الشارع. ولكن الغرفة كانت نظيفة للغاية. وذات سقف عال، كما توقعت. أما الحمام، فكان في منتهى الصغر: مرحاض صغير، وحوض غسيل صغير، ودش بلا بانيو وببلاعة تحته لتصريف المياه فقط. لكن الحمام كان في غاية النظافة. وشعرت براحة كبيرة لأنني لم أجد بالغرفة ثلاجة المشروبات الصغيرة التي سبق أن حذرني محب من استعمالها أو تناول أي مشروب أو حلويات منها، وقال

إنهم يغالون كثيراً في أسعار عينات الكحوليات والعصائر والحلويات التي يضعونها في تلك الثلاجة. وربما تكون فنادق الثلاث نجوم عموماً مثل فندقي هذا لا تضع مثل تلك الثلاجات في غرف النزلاء، وربما لا، فالمرء لا يستطيع أن يعرف مثل هذه الأشياء دون تجربة واسعة في الحياة الفندقية بمختلف نجومها.

ولابد أنك خمنت أن أول شيء استحوذ على ذهني فور انفرادي بنفسي في الغرفة هو لف سيجارة بانجو وتدخينها. وربما يكون سبب اشتهاء البانجو أكثر من تبغ الأمبرليف العادي السادة هو بسبب الجو الاحتفالي الذي كنت أعيشه، أو نتيجة الحرمان الطويل من التدخين فصارت الرغبة أشد وأقوى في الإفراط. المهم أنني لففت سيجارة. وقبل أن أشرع في تدخينها، صوبت نظري إلى السقف بسرعة بديهة وحدس صائب، فلاحظت وجود جهاز استشعار الدخان المرتبط بجهاز إنذار الحريق في منتصف سقف الحجرة، فتوجهت إلى النافذة الطويلة الضيقة، وفتحتها، ووقفت أدخن هناك وأنا أتفرج على الشارع الهادئ. وبالرغم من أن الشارع الذي يطل عليه الفندق كان يبدو شارعاً رئيسياً بالمدينة، إلا أنه كان هادئاً بالفعل. وكانت هناك بعض أعمال التصليحات في نهاية الشارع، على يميني وأنا واقف خلف النافذة. ولكن كان كل شيء في ترتيب وتنظيم ونظافة تامة. بعض الحواجز المعلق عليها بعض الأشرطة التي تنبه المارة إلى أن: هنا تصليح في هذا المكان. ولم يكن هناك عمال أو أي شيء من هذا القبيل. ربما لأننا في ظهر يوم السبت. أو ربما لأن الساعة قد

شارفت على الثالثة ظهراً بتوقيت فرنسا. وكان عدد السيارات محدود للغاية. والغريب والعجيب والمثير يا مواطن أن الناس هنا تعبر الطريق فوراً بدون أن تنظر لا يميناً ولا يساراً، وبثقة تامة وبلا أية ريبة ولا شك في أنها سوف ُتدهس من قبل سائق أرعن أو طائش. وكانت السيارات هي التي تقف للمارة حتى يعبروا الشارع بسلام، في حين أن المشاة كانوا يسيرون على أقل من مهلهم. ولم يكن المارة العابرون ينظرون ناحية السائق إطلاقاً ولا يحيونه أبداً أو يشكرونه بهز رؤوسهم، كما عندنا، على أساس أنه قد قام بصنيع وجميل ومعروف لأنه تكرم وتلطف ووقف للمارة حتى تعبر الطريق. هذا بالرغم من أنني لاحظت أن المارة هنا يعبرون الطريق من أي مكان، وليس بالضرورة من المكان المخصص لعبور المشاة المتعارف عليه والمرسوم بخطوط بيضاء على الأسفلت الأسود. لا يا زعيم، الناس هنا تعبر من أي مكان كان، سواء مخصص للمشاة، أو غير مخصص، وعلى السيارات مراعاة العابرين على الطريق ورجليهم فوق دماغهم! وهذا هو ما يمكن أن تطلق عليه يا أستاذي الفاضل: حقوق العبور، المحرومون منها في بلادنا للأسف الأسيف!

وانتهت سيجارتي الأولى بسرعة. فلففت واحدة أخرى، بالبانجو طبعاً. ورحت أدخن على مهل قليلاً. وأخرجت رأسي من الشباك، واعتمدت بمرفقي على حافة النافذة. ولاحظت أن درجة حرارة الجو بالخارج تكاد تكون في حدود الـ 26 أو الـ 27 درجة أو شيء من هذا القبيل. وكان الجو جافاً ورائعاً، بلا أية رطوبة سخيفة ولا عرق ولا لزوجة ولا كل تلك الأشياء المقرفة في جو

بلادنا في الصيف. وبعد انتهاء السيجارة أغلقت النافذة، ودعست عقبها في مطفأة السجائر، مثل سابقتها. وكانت مطفأة صغيرة زجاجية موجودة على سطح مكتب صغير جداً، أقرب للكومودينو، ملاصق للسرير، وكان أمامه كرسي عريض بلا مسند للظهر. ولاحظت أن درجة حرارة الغرفة أقل من الخارج بقليل؛ ربما أقل بدرجتين أوثلاث درجات. وصوبت نظري إلى أعلى، فرأيت فتحات تهوية عديدة في أعلى الجدران ملاصقة لسقف الغرفة، فخمنت أنها لابد وأن تكون فتحات التكييف المركزي.

وتناولت الريموت كنترول وفتحت التلفزيون. وبالإضافة إلى القنوات المحلية الفرنسية، والقنوات القومية الفرنسية، والسي إن إن، كانت هناك قناة تلفزيونية داخلية في الفندق تذيع أفلام بورنو بالطلب. وكانت هناك شاشة بنفسجية في التلفزيون عليها أرقام معينة وأمام كل رقم نوعية الفيلم الذي قد ترغب في مشاهدته، بالإضافة إلى سعر كل فيلم، وهو سعر موحد: عشرة يورو للمشاهدة الواحدة! وكانت القائمة طويلة وممتدة، وتضم أفلاماً من قبيل: العادي، والمثلي الأنثوي، والمثلي الذكوري، والعنيف، والسود، والفيتش، والسادي، والصدور الكبيرة، والمؤخرات الكبيرة، والأقدام، والجماعي، والخلفي، والمشعرات، واللاتينيات، واليابانيات، وبين الأعراق، والكبيرات في السن، والكبار في السن مع الصغار في السن، والشيميلات والليدي بويز، وإلخ إلخ إلخ.

فحاذرت ألا أدوس، بالخطأ أو بالسهو، على أي زر في الريموت كنترول، حتى لا أتورط في عشرة يوروهات لا لزوم لها على الإطلاق. وخمنت أن لديهم في الفندق آلية ما لمعرفة من الغرفة التي طلبت أي فيلم، وفي أي وقت، ثم ستجدهم يطالبونك، وربما أمام رفاقك في ورشة العمل، بعشرة يورو بدل مشاهدة، ولماذا؟! لأشياء بتنا الآن نشاهدها مجاناً في القاهرة وقرفنا منها أصلاً وزهدناها!

وخرجت بسلام من قناة البورنو البنفسجية، وتركت التلفزيون على قناة فرنسية كانت تذيع فيلماً تسجيلياً عن العنب والكروم وصناعة النبيذ في بعض مناطق الريف الفرنسي. وكنت أشعر بنشاط وحيوية ورغبة ملحة في بذل مجهود ونشاط. وربما يكون التدخين قد أنعشني. فرحت أخرج حاجياتي من حقيبة السفر وأرصها في دولاب الملابس. ولما كانت الحجرة ضيقة جداً، وكان السرير الكبير يقسمها إلى قسمين متساويين. باب الغرفة هناك في القسم الأول، يليه دولاب الملابس، ثم خزينة الأشياء الثمينة. ثم السرير. ثم أنا في الجانب الآخر، وعلى يساري المكتب الصغير الملاصق للسرير، وخلف ظهري تماماً النافذة، وورائي وإلى اليمين باب الحمام. وكان التلفزيون ملاصقاً للحائط المواجه للسرير، ويفصله عن السرير مساحة ضيقة جداً، تتيح لك بالكاد أن تمر منها. أقول؛ لما كان كل ذلك كذلك، فقد أخذت أعبر من مكاني إلى الجانب الآخر حيث دولاب الملابس، عبر الصعود إلى السرير الكبير والمشي عليه. ولما كانت الحجرة ضيقة جداً، فلم أكن في حاجة إلى الهبوط إلى الجانب الآخر، لأن الدولاب

كان كله في متناول يديّ وأنا واقف على السرير. ثم بعد قليل، عدلت من وضع الحقيبة على السرير، بحيث أظل على ركبتني على السرير؛ آخذ من الحقيبة، وأرص في الدولاب، بحركة التفاف خفيفة رشيقة من خصري فقط لا غير.

وأمسكت علبة النسكافيه الكلاسيك التي كانت في حقيبة السفر، وفتحتها، واشتهيت كوب قهوة. فلففت سيجارة بانجو بسرعة، وقررت أن تكون هي الأخيرة في هذه الساعة، ثم سأدخن تبغ أمبرليف سادة بعد ذلك، خصوصاً وأنني قد شربت عدة كؤوس من السكرو درايفر والنبيذ صباحاً وظهراً. وقمت أبحث عن كوب أو أي شيء يصلح ككوب. ووجدت في الحمام، وعلى حوض غسيل الوجه واليدين كوباً زجاجياً شفافاً قصيراً ومنتفخاً وانسيابياً ومبهجاً. وفتحت المياه الساخنة في الحوض، وانتظرت قليلاً حتى سخنت تماماً، ثم أفرغت ظرفيّ نسكافيه في الكوب الزجاجي، ووضعته تحت صنبور المياه الساخنة، فامتزجت القهوة سريعة الذوبان بسرعة مع الماء الساخن وذابت تماماً، بل وصنعت رغوة كثيفة وجميلة وشهية على السطح.

خرجت من الحمام، وفتحت النافذة من جديد، وشرعت أدخن سيجارة البانجو، وأرشف من كوب النسكافيه، وامتع ناظري بالهدوء والنظام والنظافة، وأنا أشعر كما لو كنت قد ولدت من جديد، في عالم أنظف وأرقى وأجمل، وأنا أقول: يا ربي، لقد بعثتُ من جديد، برغم أن البعث كان بالواسطة هو أيضاً! وأعني بذلك الحصول على التأشيرة من القنصلية الفرنسية وكل تلك

الأشياء التي حكيتها لك. واجتاحني شعور كاسح احتل كل كياني بأن الحياة جميلة جداً وبأن الإنسان قادر على فعل أي شيء؛ سواء بالاعتماد على نفسه أو بالواسطة، وأن المستحيل هو خرافة من الخرافات الغير موجودة إلا في الأذهان السقيمة الضعيفة الخاملة. ولم أرَ أي دكاكين مفتوحة أمامي عبر الشارع، وعزوت ذلك إلى يوم السبت، أو ربما لأننا ساعة عصاري وربما يكون أصحاب المحلات في القيلولة، أو ربما لأنه لا دكاكين في هذا الشارع، لأنني لم ألمح لافتات لأية محلات.

وسمعت طرقاً على باب الغرفة. طرقة واحدة، أو اثنتين سريعتين، لا أكثر. فاتجهت لفتح الباب بخطوات وئيدة متمهلة متعمداً أن أستغرق وقتاً طويلاً لفتح الباب، وأنا أستغرب من قليل الذوق هذا الذي قرر إزعاج مسافر المفروض أنه يستريح الآن من تعب وإرهاق السفر؟! وقررت أن أكون جافاً. وعطلتني المسافة الضيقة بين السرير والتلفزيون مزيداً من العطلة. ثم رأيت أمام عقب الباب على موكيت أرضية الغرفة الأخضر مظروفاً أصفر في حجم أوراق A4. فانحنيت والتقطته، ثم أدرت مقبض الباب وفتحته، فلم أرَ أحداً، فخرجت برأسي للطرقة ونظرت يميناً وشمالاً، فلم ألمح أحداً. فعدت وأغلقت الباب، واتجهت إلى السرير وجلست على حافته، وفتحت المظروف.

كانت الأوراق عبارة عن جداول تفصيلية؛ باليوم والساعة والدقيقة، لأنشطة وفعاليات ورشة العمل في السبعة أيام كاملة. وكان هناك أيضاً نبذات مختصرات عن المشاركين في ورشة

العمل؛ من الحاصلين على المنحة من مختلف دول شمال وجنوب المتوسط، ونبذة مختصرة عن مشروع كل منهم. ونبذة مختصرة، ولكن وافية جداً، عن المشرفين والمرشدين والخبراء الذين سيقومون بمساعدتنا خلال الورشة على اكتساب مهارات تطوير السيناريوهات التسجيلية، وإعداد الميزانيات على نحو جيد وكفء، وتسويق المشاريع للقنوات التلفزيونية، وكيفية توزيع الأفلام بعد الانتهاء من صنعها، وكل تلك الأشياء التقنية التي تحتاج إلى الخبراء والعارفين لكي ينقلوها إليك. بالإضافة إلى نبذة مختصرة عن أفراد الفريق المعاون والمساعد في شركة (بروجراما ميديا) الذين سيتولون إدارة ورشة العمل بكل لوجستياتها، وكانوا ثلاث شابات إسبانيات، مع مديرهن خافيير، الذي لابد وأنك تذكر أنني قد عرفتك عليه من قبل في مناسبتين سابقتين واحدة قريبة والأخرى أبعد، مع أرقام هواتفهم، وأرقام حجراتهم، وكل تلك الأشياء.

وكانت الأوراق تحتوي أيضاً على تقسيم لنا جميعاً في خمس مجموعات. كان عددنا الإجمالي خمسة وثلاثون. فوضعونا في خمس مجموعات. وكانت مجموعتي كلها، كما خمنت، من المتحدثين بالإنجليزية. ولابد أنهم وضعوني هناك لأن معلوماتهم أن اللغة الأجنبية الأولى لدى المصريين هي الإنجليزية. بالرغم من حالتي الخاصة؛ حيث أنني أفهم وأتكلم الفرنسية بصورة جيدة، والبركة في ألكس العزيزة. وإن كنت لم تعد تذكر من هي ألكس، فاسمح لي يا عزيزي، هذا كثير!

وفرحت كثيراً عندما رأيت اسم بي جى في نفس المجموعة التي أنا فيها. وكان هناك أيضاً: هالة من فلسطين. ونورا من ألمانيا. وأولجا من اليونان. وكيت من إنجلترا، ولا أدري حتي الآن لماذا حشروا إنجلترا في المنحة رغم أنها لا تطل على البحر المتوسط ولا علاقة لها بالبحر المتوسط من أساسه! وأسَّاف من إسرائيل، هكذا كانت مكتوبة بالإنجليزية: Assaf، وغالباً هو من أصول عربية كما خمنت، لأننا عادة ما نطلق على من يحمل نفس اسمه: عساف، وكان السؤال: إذا ما دعت المناسبة، ويا ليتها لا تدعو على الإطلاق، إلى منادته، هل أناديه عساف، أم أسَّاف؟! وقررت تأجيل الإجابة عن هذا السؤال إعمالاً للمثل الإنجليزي: لا تزعج الإزعاج قبل أن يزعجك الإزعاج، أو: لا تعبر الجسر قبل أن تبلغه، أو: لا تعد فراخك قبل أن تفقس، وكل تلك الأمثال الإنجليزية اللطيفة.

وكانت هناك أيضاً بطاقة تعريف لي، بطاقة بلاستيكية بمشبك، مكتوب بداخلها اسمى، ومصر، وشعار الاتحاد الأوروبي، وشعار شركة بروجراما ميديا. وعادة ما يطلقون على تلك البطاقات: النيم تاج، أو شيئاً من هذا القبيل.

أرجعت الأوراق وبطاقة تعريفي للمظروف، وتركته على السرير. ورحت أقلب في قنوات الريموت كنترول حتى جاءت حفلة لموسيقى كلاسيكية لا علم لي بها، فقلت لا بأس بأية موسيقى كلاسيكية ما دامت الأوركسترا تعزف في قاعة كبيرة مهيبة محترمة. واتجهت إلى المكتب الصغير الملاصق للسرير،

وتناولت تليفوني المحمول ونظرت في الساعة، وكانت قد شارفت على الثالثة والنصف. وأنا يا رفيق دائماً ما أستعمل الموبايل كساعة أيضاً إن كنت قد لاحظت ذلك، لأنني أكره ارتداء الساعات في معصمي، فهي تشعرني بالقيود المادية والمعنوية في نفس الوقت. وكان لدي أكثر من ثلاث ساعات كاملة على بدء الاستعداد للنزول للعشاء في السابعة مساءً. وكنت أشعر بنشاط كبير وحيوية فائقة، فقررت أن أكتب يومياتي اليومية. أو مذكراتي اليومية. وهي عادة اكتسبتها منذ فترة بسيطة وأواظب عليها يومياً، خصوصاً وأن ذهني قد صار منذ العام الماضي يكثر من الشرود، والنسيان، وتتداخل فيه الأحداث مع الذكريات على نحو هذياني محموم. وكنت كثيراً، ولا أزال، ما أضبطه وهو متلبس بالتلفيق أو الادعاء أو الكذب أو أشياء أخرى. فقلت لنفسي في أحد الأيام إن كتابة اليوميات، أو المذكرات اليومية، ربما يكون حلاً يساعدني على التفرقة بين ما قد وقع بالفعل وبين ما هو كذب أو ادعاء أو تلفيق من الذهن.

ولا تستغرب كثيراً من أن يقوم الذهن بتلفيق شيء ما دون وعي من صاحبه. فقد قرأت قريباً إحدى المقالات عن بحث علمي أجراه أحد المعاهد العلمية الأمريكية المتخصصة في علوم النفس والاجتماع وكل تلك الأشياء، واستغرق البحث أكثر من عشر سنوات، وأجري على عشرات الآلاف من المبحوثين والمتطوعين، واكتشف العلماء القائمون على البحث أخيراً، وبعد كل هذه المدة وكل هذا المجهود البحثي وكل تلك الموارد المالية والبشرية الباهظة، أن معظم ذكريات الذهن هي إما ملفقة جزئياً،

أو كلياً. وقال المقال إن الناس يلفقون 40% من ذكرياتهم بشأن الأحداث والوقائع، في حين أنهم يلفقون 60% من ذكرياتهم بشأن مشاعرهم عن تلك الأحداث والوقائع، وكيفية تصرفهم حيالها في وقت وقوعها، هذا إن كانت قد وقعت بالفعل. وقال المقال إن الذكريات تصبح، مع مرور الوقت، وها أنا قد قلت الوقت لا الزمن، مشوشة وتتغير عواطفنا تجاهها. وحتى تلك الأحداث الكبرى في حياتنا التي تظل متوهجة وواضحة في ذاكرتنا، يطال التشوش أيضاً ذكرياتنا حول ردود أفعالنا ومشاعرنا وتصرفاتنا تجاهها آنذاك. وخلص المقال في النهاية إلى أن الذاكرة ليست منحوتة من الصخور، ولكنها مرسومة على رمال شاطئ البحر. وهو ما يذكرني بالمشهد الافتتاحي في فيلم العظيم تيودورس آنجلوبولس (الأبدية ويوم)، والتي يُشبه فيه الزمن بطفل يلعب بالنرد على الشاطئ. وها أنت تراني الآن أقول: الزمن، لا الوقت، لأننا في حضرة تيودورس آنجلوبولس يا سيدي، فيكون إذن من الواجب احترام الزمن.

وبعد كل ما تقدم، وبعد أن بيّنا أنه عالم مزيف من الذكريات، أجد لزاماً عليّ يا رفيق أن أحذرك كل الحذر من الآن فصاعداً من أي سرد لأية ذكرى؛ فقد تكون معدلة على نحو أو آخر، أو حتى ملفقة بالكامل ولم تحدث قط في يوم من الأيام، وها أنا قد نبهت وحذرت وأنذرت، فخذ حذرك واحتياطك واحترازك.

سحبت الكرسي العريض الذي بلا مسند للظهر، وجلست عليه. وأزحت الموبايل جانباً. وكذلك الكتيب الصغير الخاص

بأرقام الرسبشن في الفندق والدليفري وكل تلك الأشياء. وكان هناك أيضاً بلوك نوت رشيق قليل الصفحات، عليه شعار الفندق، وقلم حبر جاف عليه أيضاً شعار الفندق، أزحتهما على جانب. وتناولت الحقيبة الهاندباج، التي كانت لاطية بجوار السرير وبجوار قدمي، وتناولت منها كراسة المذكرات الخاصة بي، وقلم حبر أسود جل. ولا أدري إن كنت قد أخبرتك سابقاً بأنني أحمل في الهاندباج كراسة يومياتي أم لا؟! ولكن على أية حال ها أنا أذكر لك ذلك الآن. وفتحت الكراسة على آخر صفحة مكتوبة. وكنت قد كتبت فيها آخر مرة قبل أن أخلد إلى النوم في آخر ليلة لي في القاهرة، وبعد أن عدت من مشوار أحمد فرحات. لا أذكر إن كنت قد ذكرت لك أنني كتبت بعض اليوميات في تلك الليلة أم لا، ولكن على أية حال ها أنا أذكر لك ذلك الآن. وكانت آخر سطور كتبتها هي:

"وقبل أن أنهي المكالمة مع رجب، ومن باب تحسين الأجواء وحفظ ماء وجه الولد، سألته عن أخباره مع الدكتور أحمد لطيف الشرنوبي، لأنه كان يشتكي منه كثيراً، ويقول إن أحمد لطيف الشرنوبي مطلع دين أهله في سيناريو التخرج! بالرغم من أن أحمد لطيف الشرنوبي كان في المعهد دائماً ما يعطيني الدرجات النهائية، وبالرغم من أن رجب هو الوحيد الذي أعرفه على الإطلاق الذي يشتكي من أحمد لطيف الشرنوبي، لأن أحمد لطيف الشرنوبي معروف ومشهور باللطف، بل وباللطف الزائد عن اللزوم في الحقيقة، حتى أننا كنا نسميه في المعهد: أحمد لطيف جداً الشرنوبي! إلا أن رجب، مع ذلك، كان دائم الشكوى منه،

وكان يخشى أن يمنحه أحمد لطيف جداً الشرنوبي درجة متدنية في سيناريو التخرج. المهم أنني طالبت رجب بالصبر وبالكياسة وبالعقلانية، وأن اللى تغلب به العب به، حتى تمر سنته النهائية في المعهد بسلام ويصل المركب إلى بر الأمان ويتخرج ويحصل على البكالوريوس، وبعد ذلك فليذهب أحمد لطيف جداً الشرنوبي إلى جهنم الحمراء، أو إلى غيرها من الأماكن التي يفضلها! هذا بالرغم من أنني كنت متأكداً من أن أحمد لطيف جداً الشرنوبي من المستحيل أن يتصيد لطالب عنده، أو أن يتعمد إحباطه أو الحط من شأنه. ولما كنت أعرف إمكانيات الولد رجب المهنية، فقد كنت آسفاً عليه بحق، لأن طموحه يتجاوز إمكانياته. ولكن ليس للمرء يد في هذه الأمور كما تعلم."

واستأنفت كتابة اليوميات من تلك النقطة وحتى اللحظة التي أكتب فيها الآن في فندق إتاب في تولوز، على منضدة الكتابة الأشبه بالكومودينو، وأنا جالس على الكرسي العريض الذي بلا مسند للظهر.

وكنت أنسى نفسي تماماً وأنا أكتب، خصوصاً وأنا أكتب اليوميات، لأنها كتابة متدفقة، مسترسلة، محمومة، بلا أي خوف ولا خشية على الأسلوب، وبلا حليات ولا منمنمات ولا منمقات ولا سجع ولا كل تلك الأشياء المصطنعة التي تعرفها. لذلك أحببت كثيراً كتابة اليوميات، برغم أن الأحداث والوقائع التي تكتبها تكتبها بطينها ورملها وزلطها، لكن الغريب يا أخي أنك عندما تقرأ هذا النوع من اليوميات الحقيقية والصادقة، لا تمل أبداً

من القراءة وتشتهي المزيد من ذلك الطين والرمل والزلط.

وكانت الكتابة أيضاً تستغرق مني وقتاً طويلاً. ليس فقط بسبب التدفق والاسترسال وحمى الكتابة التي تتلبسك وأنت منهمك في كتابة اليوميات، ولكن لأنني كنت لا أكتب إلا بالخط الكوفي. والكتابة بالخط الكوفي يا زعيم تستغرق دائماً وقتاً أطول بكثير من الكتابة بأي خط آخر.

وكنت قد وقعت في حب الخط الكوفي بعد عدة مشاهدات متكررة لفيلم (المومياء، أو يوم أن تحصى السنين) لشادي عبد السلام. وقبل ذلك لم أكن أعير مسألة الخطوط أي اهتمام على وجه الإطلاق. وإن كنتَ قد شاهدت الفيلم، فلابد وأنك تتذكر لوحة البداية التي يفتتح شادي بها الفيلم، وهي من متون التوابيت، ومكتوبة على صورة قناع لتابوت من العصر الفرعوني الوسيط؛ فاقد لإحدى عينيه، ومنزوع عنه ذهبه الذي يزينه على نحو مؤسف:

يَا مَنْ تَذْهَبْ سَتَعُودْ

يَا مَنْ تَنَامُ سَوْفَ تَنْهَضْ

يَا مَنْ تَمْضِي سَوْفَ تُبْعَثْ

فَالْمَجْدُ لَكْ

لِلسَّمَاءِ وَشُمُوخِها

لِلأَرضِ وَعَرْضِهَا

لِلْبِحَارِ وَعُمْقِهَا

وكذلك لوحة النهاية:

إِنْهَضْ

فَلَنْ تَفْنَى

لَقَدْ نُودِيتَ بِإِسْمِكْ

لَقَدْ بُعِثْت

فكلتا اللوحتان مكتوبتان بالخط الكوفي؛ وتحديداً: الكوفي المصحفي بقلم المشق. والمشق هو اسم لأحد أنواع الأقلام التي تكتب بها الخطوط العربية، ويعني في اللغة: جذب الشيء ليطول ويمتد، ومشق الخط: أي مد حروفه. وهو نفس النمط الذي يذكرنا بالمخطوطات في العصرين الأموي والعباسي الأول؛ بعد اختراع التنقيط والتشكيل؛ الذي بدأ بإدخاله أبو الأسود الدؤلي بطلب من علي بن أبي طالب، ثم تبعه تلميذيه النابهين: نصر بن عاصم الليثي، ويحي بن يعمر العدواني.

وكنت قد أجريت تحريات وأبحاث واستقصاءات حول الخط الكوفي بعد مشاهداتي المتكررة للفيلم، وبعد أن علمت أن علي بن أبي طالب كان يكتب بالخط الكوفي ويشجع على الكتابة به، فأنا

في الحقيقة أحب علي بن أبي طالب جداً، بل وأعتبره أكثر العرب حكمة وتعقلاً وتبصراً. ووصلت من تحرياتي الخطية الكوفية إلى أشياء كثيرة مدهشة، ويكفي أن أذكر لك منها بعض الإشارات السريعة حول نشأة وتطور الخط الكوفي.

في البداية، كانت الخطوط في الجزيرة العربية تكتب بنوعين: المبسوط الهندسي؛ وتطوره الأرقى هو الخط الكوفي، وهذا النوع من الخطوط يتميز بالهندسية، والتربيع، والزوايا المستقيمة، والقلم المسطح الذي كان يُكتب به هو أول وأصل كل الأقلام العربية. أما النوع الآخر، فهو الخطوط المقورة اللينة؛ وتطورها الأرقي هو في خطوط النسخ، والثلث، ثم النستعليق وغيرها من الخطوط الفارسية، وهذا النوع تميل حروفه إلى اللين، والميل، والاستدارة.

ووفقاً للأقوال المأثورة في كتابات المؤرخين العرب؛ ومنهم: أبو حيان التوحيدي في (علم الكتابة)، وابن خلدون في (المقدمة)، والألوسي في (بلوغ الأرب)، و(خطط) المقريزي، و(تحفة أولي الألباب) لابن الصائغ. ووفقاً كذلك لما اطلعنا عليه أثناء بحثنا وتحرياتنا من كشوف أجنبية حديثة للنقوش القديمة في المنطقة العربية؛ فإن أصل الخط الكوفي كان الخط الحجازي المكي اليثربي، المأخوذ عن الخط الحيري، المأخوذ عن النبطي، عن الحميري، عن المسند، عن الفينيقي، المأخوذ عن خط طور سيناء؛ والذي بات معلوماً الآن أنه أصل الأبجديات العربية، والعبرانية، والبهلوية، واللاتينية، والكثير من الأبجديات الأخرى.

ولذلك فإن الخط الكوفي أقدم من اسمه. فهو أقدم من مدينة الكوفة التي بنيت في عهد عمر بن الخطاب عام 639 ميلادية قرب الحيرة والأنبار. وقد سُمي الخط الكوفي بالكوفي أيام كانت الكوفة مركزاً إدارياً وسياسياً للدولة العربية، ومقراً لخلافة الإمام علي بن أبي طالب، والذي كان هو نفسه من عشاق الخط الكوفي ويحب الكتابة به ويشجع الناس على الكتابة به، وكذلك كان ولداه الحسن والحسين. ولذلك ترقى الخط الكوفي في مدينة الكوفة في تلك الفترة، وأدخلت عليه التحسينات، ومنها التنقيط والتشكيل كما سبق وأن ذكرت لك. وأصبح الخط الكوفي بعد ذلك هو المعتمد في كتابة الدواوين، ورسائل الحكام، وتدوين القرآن والحديث، ونسخ الكتب والمخطوطات، وتزيين القصور والمساجد وإلخ إلخ إلخ. ومن الكوفة انتشر واشتهر، لدرجة أنه حين حلت العربية محل القبطية في مصر، واحتفظ بعض أهل مصر باللغة القبطية، كتبوها بالخط الكوفي.

وبلغ الخط الكوفي ذروته في العصر الأموي من عام 661 إلى 750 ميلادية، والعصر العباسي الأول من عام 750 إلى 847 ميلادية، وأصبح ينتشر مع انتشار الدولة العربية إلى باقي أنحاء العالم، فيحل في الكتابة محل خطوطها القومية، معبراً عن قوة الدولة العربية، وعن شخصيتها الجديدة.

ومن دراما الخط الكوفي الغريبة والعجيبة، أنه استمر هو الخط الأساسي في الكتابة العربية طوال العصر الفاطمي من عام 913 إلى 1171 ميلادية، ولم تحاول الدولة الفاطمية الشيعية أبداً

فرض أنواع أخرى من الخطوط لكي تعبر مثلاً عن شخصيتها الشيعية الجديدة أو ما إلى ذلك، بل استمر حتى في المكاتبات الرسمية في دواوين الدولة وتواقيع حكامها. لكن الأمر انقلب مع خلفائهم الأيوبيين الذي أعادوا المذهب السني ليحل محل الشيعي، حيث شهد عصر الدولة الأيوبية، من عام 1171 إلى 1260 ميلادية، الاعتناء بخط النسخ على حساب الخط الكوفي، وحاولوا نشره في البلاد العربية التي وقعت تحت سيطرتهم. ولكن مع ذلك ظلت الخطوط الكوفية تصارع رأساً برأس الخطوط الرسمية في دواوين الدولة الأيوبية، وظلت هي المفضلة للخطاطين في الكتابة، ونسخ المخطوطات، وتزيين القصور والمساجد.

ولم يحد من نمو الخط الكوفي وانتشاره إلا الاحتلال العثماني للبلدان العربية، حيث عملت الدولة العثمانية منذ عام 1229 إلى 1922 ميلادية على فرض شخصيتها الجديدة على المجتمعات العربية، حتى في الخطوط يا رفيق، حتى في الخطوط! ففرضت الخطوط التي هي من أصل عثماني، مثل: الديواني، والطغرا، والرقعة، والياقوتي، والقرمة، وهلم جرا، على الكتابة العربية. كما شجعت أيضاً أنواع الخطوط اللينة الأخرى التي معظمها من أصل فارسي، والصالحة للكتابة السريعة في الدواوين والمراسلات الرسمية التي تضخمت، والتي تطلبت السرعة في الكتابة، والربط أكثر ما بين الحروف وإلخ إلخ إلخ. على عكس الخط الكوفي الذي يحتاج إلى التمهل في الكتابة، والاعتناء، والدقة، والركوز. وكانت ذروة الدراما بالنسبة للخط الكوفي، والضربة القاضية له، هي في نقل كبار أساتذته وأمهرهم إلى

الآستانة، فيمن نقلوا من الحرفيين والفنانين والصناع العرب المهرة لبناء الآستانة، فحرمت تركيا الكتابة العربية من جهودهم من ناحية، واستخدمتهم هم أنفسهم في تطوير الخطوط العثمانية الجديدة وباقي الخطوط اللينة.

فتأمل كيف أن شادي عبد السلام حين يختار خطاً في افتتاحية درة أفلامه يختار أول وأقدم الخطوط في الكتابة العربية، وواجهة القوة في الحضارة العربية، وسفيرها إلى العالم. ولا يختار خطاً من الخطوط التي ابتكرها أو طورها الفنانون على هوامش المركز العربي؛ كخطوط التعليق والنستعليق والمكسر الإيرانية، أو خطوط الرقعة والديواني والطغرا التركية. بل ويختار النمط الأرقى من الخط الكوفي. ولعلمك فإن الخطوط الكوفية أكثر من 70 نوعاً وشكلاً. فهو لا يختار مثلاً: الكوفي المزهر، أو المورق، أو المشجر، أو المغربي، أو المعماري، أو المضفور، أو غيرها من الخطوط الكوفية الصالحة للزخرفة وتزيين واجهات القصور والمساجد، بل يختار الشكل الصالح للكتابة العادية: الكوفي المصحفي بأسلوب المشق، وهو نفس النمط الذي يذكرنا، فوراً، بالمخطوطات في العصرين الأموي والعباسي الأول، بعد اختراع التنقيط والتشكيل.

والمدهش يا أستاذي الفاضل، والذي يؤكد الإرادة الواعية والقصدية في اختيارات شادي، إحجامه عن الفصل ما بين الجمل في الفقرة المكتوبة: بالفصلة، أو الفصلة المنقوطة، أو النقطة، أو النقطتين، أو علامة التعجب، أو غيرها من علامات الترقيم.

فنحن نعلم أن علامات الترقيم قد دخلت الكتابة العربية بعد فوز الخطاط المصري محمد أفندي محفوظ عام 1928، في مسابقة بين الخطاطين، أقيمت بناءً على رغبة ملك مصر السابق أحمد فؤاد الأول، الذي عاش من عام 1868 إلى عام 1936 ميلادية، بغية إرشاد القارئ العربي أثناء القراءة، على غرار ما هو معمول به في الكتابات اللاتينية، وهو ما عممته وزارة المعارف العمومية المصرية على مدارسها عام 1930. إن شادي هنا يهمل هذا التطور الجديد في الكتابة، ويحافظ على الخط الكوفي كما كان يُكتب في عصر القوة العربية، تأكيداً للمعنى الذي أراده. إن الخط الكوفي يحمل الرسالة التي أرادها شادي، كما حمل من قبل صورة القوة في الحضارة العربية في أوجها.

فاقتداءً بأسلوب الفنان المصري القديم الذي ظل لأكثر من ثلاثة آلاف عام يختار موضوعاته على نحو تكون معها في ريعان الصحة والقوة والجمال، وبالنسب القياسية لجمال الشكل الإنساني، فإن شادي يكتب لوحتي البداية والنهاية بأكثر الخطوط العربية تعبيراً عن الصحة والقوة والجمال: الخط الكوفي المصحفي بقلم المشق مع التشكيل؛ أي نفس ما كان العربي يكتب به مخطوطاته ونصوصه في أوج قوة الدولة العربية في العصرين الأموي والعباسي الأول.

صحيح أن فكرة (العصر الذهبي) للحضارة العربية هي فكرة ذهنية أكثر منها حقيقة تاريخية، بمعنى أنها تجميع لعناصر القوة في الدولة العربية في عهود شتى. فيجمع هذا العصر الذهبي

المزعوم، مثلاً، بين: العدالة في عصر عمر بن الخطاب، والازدهار الاقتصادي في عهد عمر بن عبد العزيز، واتساع الدولة في العصر الأموي، وازدهار الفنون والآداب في العصور العباسية، والتلاقح الحضاري في الأندلس، ونبوغ جابر بن حيان في الكيمياء، وابن الهيثم في الفيزياء، وابن سينا والرازي وابن النفيس في الطب، وابن خلدون في علم الاجتماع، والموصلي وزرياب في الموسيقى، وموسوعية الفارابي والبيروني وإلخ إلخ إلخ. ورغم هذه الحقيقة الشارقة كالشمس، إلا أن الذهن العربي مع ذلك يتجه فور ذكر مفهوم (العصر الذهبي) إلى كلا العصرين الأموي والعباسي الأول، حيث كانت الدولة العربية في أوج قوتها، واتساعها، وكانت الخلافات والتناحرات البينية مُحجَّمة، وتحت سيطرة مركز واحد قوي، قادر على حسم الأمور، وفرض توجهات وسياسات عامة واحدة.

أما القناع الذي نراه في خلفية النص الاستهلالي للفيلم، والفاقد لإحدى عينيه، والمنزوع عنه ذهبه على نحو مؤسف؛ إشارة لما فعله الآباء بالأجداد، وينتظر الإنقاذ والبعث على أيدي الأحفاد؛ أي كبطل الفيلم ونيس، وأنا وأنت يا رفيق، فهو قناع لأحد التوابيت من العصر الوسيط؛ أزهى عصور الحضارة الفرعونية. ونحن نعلم أن الحضارة المصرية القديمة تُقسَّم لدى الباحثين إلى: العصر القديم المبكر، والوسيط، والمتأخر، فالديموطيقي، ثم القبطي. وعلى ذلك يكون وعي الفنان لدى شادي قد جمع ذروة الفنين الفرعوني والعربي في افتتاحية الفيلم: القناع من فن العصر الوسيط الفرعوني، والخط الكوفي في أوج قوة

الدولة العربية.

وهكذا يا صديقي رحت أكتب يومياتي بالخط الكوفي، مع ما يتطلبه من تمهل واعتناء ودقة وركوز؛ أي ما يتطلبه من احترام. وكنت آخذ بعض الاستراحات القصيرة التي أدخن فيها تبغاً صافياً بلا مخدرات، من باكت أمبرليف جديد فضضته من العلبة التي اشتريتها من مطار القاهرة، مع كوب من النسكافيه سريع الذوبان مُحضر من الماء الساخن من صنبور الحمام، مع وقفة قصيرة في الشباك الطويل الضيق للغرفة؛ تشبه وقفة الفتاة المرسومة في لوحة سلفادور دالي (فتاة تقف في النافذة)، التي رسمها عام 1925، ثم أعاود الكتابة بعد ذلك بنشاط محموم.

وانهيت الكتابة في السادسة والنصف تقريباً. أي قبل الموعد الذي حدده لنا خافيير للنزول تحت للعشاء بنصف ساعة. فأغلقت كراسة اليوميات، ونهضت وأنا أزمع أن آخذ دشاً منعشاً. وأعددت سيجارتين عاديتين من التبغ. وكوب نسكافيه جديد. وخلعت ملابسي. ودخلت تحت مصفاة الدش. واستمتعت بالمياه المنعشة، وأنا أدخن، وأشرب القهوة في الحمام أثناء الاستحمام. وكان الصابون جميلاً وله رائحة الورود، مما شجعني أكثر على إطالة الاستحمام. وهو شيء محمود لعلمك يا كوتش لأن الاستحمام، والإطالة في الاستحمام يا زعيم هي مسألة منشطة للدورة الدموية، ومحسنة للمزاج، وباعثة على الاسترخاء، ومزيلة لآلام العضلات بعد طول الجلوس أمام طاولة الكتابة، ومساعدة على علاج الصداع لو عندك، ومخففة من الضغوط

النفسية، ومعالجة لتصلب المفاصل، ومنشطة للجهاز العصبي، ومحسنة للتنفس، ومطهرة للجسم، وتزيد من مناعة الجسم لأنها تنشط خلايا الدم الحمراء، ومنعمة للبشرة، ومرطبة للجلد، ومجددة للأنسجة، وإلخ إلخ إلخ.

وانتهيت. وخرجت وأنا أجفف جسدي ببشكير أبيض كبير التقطته من بين عدة مناشف بيضاء كبيرة كانت على ستاند بجوار حوض الغسيل. وكان ملمس النسيج القطني الناعم للمنشفة ممتعاً.

واتجهت لدولاب الملابس، وعطرت جسدي العاري بعطر الفهرنهايت. ثم ارتديت أحد البوكسرات النظيفة. ثم قميص البيير كاردان السماوي. والبنطلون الجينز الليفايز السماوي. والجوارب السوداء. والحذاء الكلاركس الأسود. وأخذت وقتي في ارتداء الملابس وفي التأنق أمام المرآة التي كانت تعلو طاولة الكتابة. ألم أذكر لك من قبل أن طاولة الكتابة كان يعلوها مرآة؟! عذراً، ها أنا قد فعلت.

ولاحظت أن ذقني قد طالت. فقررت الحلاقة. وكنت متأكداً من أنني أحضرت ماكينتي حلاقة جيلت معي من القاهرة، ووضعتهما في الحقيبة الكبيرة. لكنني فتشت كل مكان بالحقيبة، التي دسستها تحت السرير، وفتشت أيضاً في بالدولاب، وبين الملابس، وفي كل مكان، دون جدوى، فلم أعثر على أية ماكينة حلاقة! وبدأت أشك في ذاكرتي، فقررت الرجوع إلى المذكرات. وراجعت اليوميات التي كتبتها، ولحسن الحظ أكدت اليوميات

صدق ذاكرتي، ورحت أقرأ الفقرة المعنية في اليوميات بصوت عال حتى أؤكد لنفسي أنني على حق:

" عدد 2 ماكينة حلاقة بلاستك جيلت بلو تو متصلتين من الرأس بكرتونة واحدة. معجون حلاقة إنجرام أزرق جديد. معجون أسنان سجنال بلس جديد. فرشاة أسنان بشعر متوسط الصلابة جديدة."

وكنت وأنا أفرغ حقيبة الملابس قد وضعت فعلاً على أحد أرفف الدولاب، معجون الحلاقة، ومعجون الأسنان، وفرشاة الأسنان، ولكن لم يكن هناك أية ماكينة حلاقة! كان التفسير الوحيد المعقول هو أنهم فتحوا الحقيبة في مطار القاهرة، أو في مطار باريس، أو في مطار تولوز، وأخذوا منها ماكينتي الحلاقة، ثم أغلقوها مرة أخرى، خصوصاً وأنني لم أغلق الحقيبة بأقفال. وكان الاحتمال الأكبر هو أنهم فتحوها في مطار القاهرة، أو شارل ديجول. لأن الحقيبة نزلت من الطائرة وكانت في صالة المسافرين في تولوز في منتهى السرعة. ثم أنه لا يوجد أي سبب على الإطلاق لأمن المطار في تولوز أن يأخذ ماكينتي حلاقة بعد أن تكون الطائرة قد هبطت بالفعل ووصلت أنا إلى وجهتي الأخيرة. ولم أفهم أبداً لماذا يصادر أمن المطار أو أمن الطائرة، سواء في القاهرة أو في شارل ديجول، ماكينتي حلاقة من حقيبة موضوعة في باطن الطائرة، وليست معي مثلاً في كابينة المسافرين. هل هي إجراءات الأمن الجديدة وبروتوكلاته بعد 9/11؟! طيب والمخدرات التي كانت معي وكنت أصعد وأنزل

من الطائرات عادي جداً وهي معي وأتجول بحريتي في صالات السفر والترانزيت وأدخل وأخرج على مزاجي والمخدرات في حقيبة الهاندباج على كتفي!

ثم تذكرت شيئاً، فرجعت بسرعة إلى كراسة اليوميات ورحت أفتش في الفقرة التي تسرد محتويات حقيبة السفر، وقرأت فيها بصوت عال لكي أثبت لنفسي بأنني على حق:

"قصافة أظافر معدنية إنجليزية جولد بل."

كانت القصافة قد اختفت هي الأخرى، ولم أعثر لها على أثر! مما أكد شكوكي بأنه بروتوكول أمني ولا شك، لأن القصافة كان بها مطواة صغيرة من التي تطوى للداخل كما تعرف.

وهداني تفكيري إلى طلب رسبشن الفندق. وقلت للفتاة التي ردت عليّ في التليفون إنني قد فقدت ماكينة الحلاقة الخاصة بي، وأحتاج إلى ماكينة حلاقة من فضلك. فقالت: حاضر يا سيدي. وأغلقت الخط. وكنت أعتقد أنهم قادرون على التصرف في مثل هذه الحالات، لأنهم من البلد ويعرفون الدكاكين القريبة المفتوحة التي يمكن أن تبيع شفرات الحلاقة وكل تلك الأشياء. وقلت لا بأس من أن يضيفوا يورو أو اثنين إلى فاتورة الغرفة، فحتى إن طلب مني خافيير أن أدفع تلك التكلفة الإضافية فسيكون ذلك في مقدوري. وبعد دقيقتين سمعت طرقاً على باب الغرفة. ففتحت. وكانت فتاة عشرينية مهذبة تقف أمامي، وترتدي زي الموظفات بالفندق؛ قميص أبيض بنصف كم، وتنورة كحلية محبوكة إلى ما

فوق الركبة بقليل. مدت يدها بماكينة حلاقة بيضاء، تشبه ماكينات حلاقة جيلت البلاستيكية، فتناولتها منها وأنا أشكرها، ومشت البنت سريعاً. وتمنيت لو كان عندي علبة حلويات أو بعض قطع الشوكولاتة، لكنت أعطيتها منها. ولمت نفسي لأنني لم أشتر أياً من هذه الأشياء لا من مطار القاهرة، ولا من مطار شارل ديجول، بالرغم من أن الحلويات والشوكولاتات كانت متوافرة بكثرة أمامي! وعزوت ذلك إلى القلق والاضطراب والارتباك والتشوش الذي صاحب رحلتي الأولى خارج البلد، وقلت في نفسي إنني لو كنت معتاداً على السفر لكنت في حال أهدئ وأروق وأصح، ولفكرت، بالتأكيد في مثل تلك التفاصيل الصغيرة.

وبعد أن أغلقت باب الغرفة. فتحت باب دولاب الملابس، وتناولت من على الرف: معجون الحلاقة، وفرشاة الحلاقة الإنجليزية التي لا أستغني عنها بتاتاً والتي قاربت على عيد ميلادها العاشر عندي وما زال شعرها هو هو لم ينقص شعرة. واتجهت إلى الحمام، ووقفت أمام مرآة حوض الغسيل، ولا أدري إن كنت قد ذكرت لك أن فوق حوض الغسيل بالحمام مرآة أم لم أذكر؟! ولكن ها أنا ذا أذكر لك ذلك الآن. ووضعت بعضاً من المعجون على ذقني. وبللت فرشاة الحلاقة. ورحت أمخض بها المعجون على ذقني مباشرة، حتى أزبد المعجون وتكثفت رغوته اللزجة. فصبونت وجهي جيداً. ورأيت علامة الفندق واسمه على ذراع ماكينة الحلاقة البلاستيكية البيضاء لأول مرة، ففرحت كثيراً لأنني لن أدفع شيئاً مقابل الماكينة. ورحت أحلق بتأن واستمتاع أول وش. ثم ثاني وش. ثم ثالث وش.

وكانت تلك من المرات النادرة التي أحلق فيها ذقني مرتين في اليوم. في الحقيقة، لا أذكر أنني قد فعلتها من قبل. ولكن ربما أكون فعلتها على نحو نادر ونسيت، فلست متأكداً مع هكذا ذاكرة تمشي ومعها كراسة يوميات لتذكرها بما فعلت وبما لم تفعل! واستدعت الحلاقة الثانية مشهداً من فيلم ستانلي كوبريك (لوليتا)، ذلك الذي يقول فيه جيمس ميسون وهو يحلق ذقنه للوليتا التي يهيم بها عشقاً لدرجة أنه يتزوج من أمها لكي يكون بالقرب منها والتي تستغرب من كونه يحلق ذقنه مرتين في اليوم: أحسن الرجال هم من يحلقون مرتين في اليوم!

وتأكدت من الأناقة والنظافة مرة أخرى في مرآتي الحمام والغرفة. ثم نظرت في الموبايل فوجدت أن الساعة قد تجاوزت السابعة والربع، فقررت الإسراع بالنزول.

تناولت كيس البانجو المخلوط بالتبغ، وفتحت خزانة الأشياء الثمينة ووضعت البانجو هناك، مع الموبايل، ومحفظة النقود. ليس لأنني شككت في العاملين في خدمة الغرف لا سمح الله أو شيئاً كهذا، ولكن إن كنت قد تعرضت مثلي لمواقف كثيرة قذرة من بني البشر فسوف تتعلم إن اللى يتلسع من الشوربة ينفخ في الزبادي، وإن اللى يتقرص من التعبان يخاف من الحبل، وإن حرص ولا تخونش، وكل تلك الأمثال العظيمة الخالدة التي ما قالها أسلافنا إلا لأن الخسة والنذالة والإيذاء هو طبع أصيل في الجنس البشري ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وأنت في النهاية في أرض غريبة وليس معك إلا أقل من مئتي دولار وبحوزتك

مخدرات فوجب يا رفيق أن نمشي بجوار الحائط.

وأغلقت باب الخزانة. وألقيت نظرة سريعة على الغرفة. وأغلقت التلفزيون. وأخذت معي باكت الأمبرليف السادة، مع ولاعة الزيبو، ودسستهما في جيب البنطلون الأمامي الأيسر. واتجهت أخيراً نحو باب الغرفة. ورأيت المظروف الكبير على السرير، فتذكرت بطاقة التعريف البلاستيكية. ففتحت المظروف وتناولتها، وشبكتها في جيب قميصي. ثم أطفئت النور. وسحبت مقبض الباب، وخرجت.

وقررت استعمال المصعد لا السلالم، لإحساسي بأنني قد تأخرت عن موعد العشاء قليلاً. ودخلت المصعد، وضغطت على زر الطابق الأرضي، لكنه لم يتحرك.وفطنت أخيراً إلى أنني يجب أن أمرر الكارت الممغنط في الجزء الخاص بلوحة المفاتيح، ففعلت، فتحرك المصعد هابطاً.

ولم أشاهد أحداً في الرسبشن سوى الموظفة الواقفة خلف الكاونتر. وكرهت أن أسألها عن مكان رفاقي، وأنا المفترض أنني سينمائي وولد خطير ومقطع السمكة وذيلها وأعرف كيف أتصرف في أحلك المواقف وأصعبها. وسمعت أصوات خفيفة وبعيدة تأتي من مكان ما من الجهة المقابلة لرسبشن الفندق. فتمشيت إلى هناك وأنا أخمن أنه ولابد المطعم. وظهر باب المطعم سريعاً، وكان مختفياً خلف عواميد حاملة أو شيء كهذا. ووقفت على عتبة المطعم، ومسحت المكان ببصري، وكان ممتلئاً

عن آخره، وكانت الموائد صغيرة، وعلى كل منها أربع أفراد تقريباً، وكانت متقاربة جداً من بعضها البعض، لأن المطعم نفسه كان صغير المساحة إلى حد ما. ورأيت خافيير يقوم من مائدة عليها ثلاث فتيات، ويتجه نحوي. سلم عليّ وهو يقول بالإنجليزية إنهم قلقوا عليّ لأنني تأخرت. فحكيت له سريعاً حكاية ماكينة الحلاقة، فضحك بطلاقة. بينما كنت أنظر من حين لآخر لإحدى مساعداته الإسبانيات التي كانت تجلس على مائدته، وقد لفتت نظري لأنها ذكرتني بفاتن حمامة على وجه من الوجوه. كانت البنت ترتدي نظارة طبية، وتشبه تلك البنات المجتهدات في الدراسة، والمتحفظات إلى حد ما في ملابسهن لأنهن من عائلات متوسطة محافظة، ولكنهن في نفس الوقت رائعات الجمال لو كنت تعرف ما أعني.

وقادني إلى مائدة عليها ثلاثة أشخاص: كهل، وشاب، وشابة. وقدمني إليهم بالفرنسية ذاكراً اسمي، وأنني منتج من مصر، وفاز مشروعي عن (سكان المقابر في القاهرة) بالمنحة. وربما لأنه كان يعتقد أن فرنسيتي ضعيفة، كما بدا لي، فقد استعمل الإنجليزية وهو يعرفني على الثلاثة: بوريس؛ الذي يعمل في قناة آرتيه الفرنسية-الألمانية، كمدير للتحرير بالفرع الألماني للقناة، أو ما يطلقون عليه: كومشنج إيديتور. ماري؛ منتجة فرنسية، وفاز مشروعها عن (ليون الأفريقي) بالمنحة. وإنياس؛ المنتج البلجيكي، الذي فاز مشروعه عن (عطور البحر الأبيض المتوسط) بالمنحة. وعندما تقول: بلجيكي، لأي مصري، فإن أول ما يتبادر إلى ذهنه هو المرآة البلجيكية الصافية الرائق ماؤها.

جلست في الكرسي الوحيد الشاغر بينهم. وكان إلى يساري إنياس، وإلى يميني ماري، وأمامي بوريس. وكانت نادلات المطعم قد بدأن في وضع أطباق الطعام بالفعل، فكان هناك على المائدة: حساء خفيف لا أعرف ما هو، ثم عرفت فيما بعد عندما تذوقته بأنه حساء الخضر؛ الجزر واللفت والكرفس. وأطباق سلاطة. ثم أطباق من قطع كبيرة من اللحم المشوي الأحمر المائل إلى البني المحروق والذي بدا شهياً للغاية. وسرعان ما أتت إحدى النادلات بالأطباق الخاصة بي من نفس النوعيات الموجودة على المائدة أمام الجميع. ولسوء الحظ، لم يكن هناك أي نبيذ أو كحول أو شيء من هذا القبيل، وهو ما أحزنني وعكر مزاجي، لأنني توقعت خمرة. وكنت قد نزلت من غرفتي وأنا منشرح الصدر ممنياً النفس بالشرب المجاني، مع العشاء المجاني، والصحبة الحلوة. فخابت توقعاتي وآمالي وتمنياتي بخصوص بند واحد على الأقل، ومن أول الأمسية!

ورحت في البداية آكل بلا نفس. لكن الأكل كان شهياً، فراح مزاجي يعتدل شيئاً فشيئاً. واكتشفت أن قطعة اللحم الكبيرة المشوية في طبقي هي من لحم الغنم الذي يذوب فوراً حالماً تضعه في فمك يا كوتش! وكان حوله في الطبق قطع كبيرة من البطاطس والجزر والبصل والفلفل الأخضر، وكلها مشوية في مشوية. ولاحظت أمراً غريباً بعض الشيء؛ فقطعة اللحم في طبقي هي أكبر في حجمها على نحو ملحوظ جداً من باقي القطع في باقي أطباق الزملاء. وقلت في نفسي، ربما تكون صدفة، وربما قد لاحظوا حجمي الكبير فقرروا إعطائي قطعة كبيرة

تتناسب مع حجمي الكبير حتى تكفيني سعراتها الحرارية.

وكان إنياس يتحدث بحماسة عن العطور في دول جنوب المتوسط العربية، وكيف انتقلت إلى دول شمال المتوسط الأوروبية، فتعلمت أوروبا العطور والتعطر والعطارة من العرب وكل تلك الأشياء. وإنياس يشبه كثيراً تان تان لو كنت تفهم ما أقصد؛ فهو لديه تلك الشوشة الشقراء المكومة في منتصف رأسه، وكانت له عينان ضيقتان، وحاجبان قصيران مقوسان على نفس طريقة حاجبي تان تان، وبشرة بيضاء مشربة بالحمرة. وكان يبدو على إنياس أنه يعول كثيراً على إثارة اهتمام السيد بوريس؛ الكومشنج إيديتور في قناة آرتيه على سن ورمح. ولاحظت أن حماسة إنياس وتهافته على كسب رضى السيد بوريس قد أنسياه أن يأكل مثلنا، حتى إنه لم يمس تقريباً أي شيء من طعامه أثناء كلامه عن مشروعه للسيد بوريس الذي كان، على العكس، منهمكاً بشغف في الأكل ولا يبدو أنه يعير انتباهاً لما يقوله إنياس، بل وبانت على وجهه علامات الضجر بعد أن أطال إنياس في الكلام والشرح، وخمنت أن طبيعة عمل الرجل تجبره على الاستماع إلى آلاف المشاريع التي يطمح أصحابها إلى شرف التمويل السخي من قناة آرتيه ذات السمعة العالمية المرموقة.

وأخيراً، سأل السيد بوريس إنياس:

- هل مشروعك هو فيلم واحد، أم سلسلة من أفلام؟!

- إإ.. هو في الحقيقة فيلم واحد فقط ..إإ حتى الآن.. لكن

بالطبع يمكن أن يصبح عدة أفلام.. إإ يمكن بسهولة .. حتى إن المشروع يصبح أفضل كثيراً إذا حولناه إلى سلسلة من أفلام .. هذه فكرة عظيمة، ولكن هل يمكن لآرتيه أن تهتم أكثر بالمشروع لو كان على هذا النحو؟! أقصد لو أصبح سلسلة أفلام؟!

رد السيد بوريس بآلية وهو مستمر في الأكل، وكأنه يقرأ شيئاً محفوظاً كرره لسانه من قبل لآلاف المرات:

- هذا يتوقف على أشياء كثيرة في الجوانب الفنية للمشروع نفسه، ولكن دعنا لا نستبق الأحداث لأن هذه خطوة مبكرة للتفكير في آرتيه الآن، وإن أردت نصيحتي فمن الأفضل أن تبحث عن إنتاج مشترك مع منتج فرنسي أو ألماني يشترك معك في الإنتاج على أن يقوم هو لاحقاً بمخاطبة آرتيه، من الأفضل أن يخاطب هو آرتيه لا أنت.

كنت أسمع أن إنتاج السلاسل الفيلمية في أوروبا هو شيء صعب ومعقد للغاية، ولا تقوم به إلا القنوات التلفزيونية بنفسها؛ أي إنتاج من داخل القناة نفسها، وهو شبه مستحيل بالنسبة للمنتجين الصغار المبتدئين المستقلين عن المؤسسات والشركات الفيلمية الكبرى. ولا أدري، في الحقيقة، إن كان سؤال السيد بوريس لإنياس عن ما إذا كان فيلمه هو فيلم واحد فقط أم سلسلة أفلام هو توريطة من الرجل للشاب أم مجرد سؤال بحسن نية؟! فقد كان يبدو مجرد سؤالاً عفوياً من الرجل، ولا يمكن لومه أو اتهامه لمجرد سؤال بريء من هذا النوع، وإن كان مثل هؤلاء

المسؤولين الكبار في القنوات التلفزيونية الكبيرة، والرجل في النهاية كومشنج إيديتور في آرتيه، لا يسألون أسئلة بريئة على الإطلاق!

ورحت أنظر إلى إنياس وأتخيل أن الأمل قد ملئه بأن تقوم آرتيه بتمويل فيلمه، فراح يحول المشروع من فيلم واحد بسيط يتكلف ثلاثين أو أربعين ألفاً إلى سلسلة فيلمية تتكلف الملايين لإنتاجها، فيطير منه كل المنتجين المحتملين، وتسوء سمعة مشروعه بسبب عزوف المنتجين عنه، ويظل حبيس درج مكتبه طيلة العمر، وتضيع عليه النقود التي أنفقها على المشروع حتى الآن، والسبب هو سؤال ُألقي عرضاً من عم بوريس بتاع آرتيه!

وربما أكون قد نسيت أن أصف لك السيد بوريس. إنه، كما يبدو وهو جالس يأكل أمامي، في الخمسينيات من عمره. ممتلئ، بل ويمكن القول بإنه مترهل أيضاً. ذو شعر أحمر خفيف منحول. أبيض البشرة. أخضر العينين. وسنتاه الأماميتان كبيرتان أرنبيتان. وكان في بياض بشرته شيء منفر ومزعج، بل ومقرف إلى حد ما إن أردت الحقيقة.

أما ماري، التي كانت على يميني، فأول ما يستوقفك في وجهها هو خلوه التام والكامل والشامل من أي مكياج. لا كحل ولا روج ولا بودرة ولا يحزنون! وكان وجهها يبدو متعباً. وعلى الأخص عيناها اللتان كان الإجهاد بادياً بوضوح فيهما. وكانتا مفتوحتين على اتساعهما وكأنهما تنظران إلى الداخل لا إلى

الخارج، وحاجباها مرفوعان دائماً إلى أعلى في ترقب ودهشة وتحفز، حتى خلتها على وشك الإصابة بنوبة صرع. ولكني، فيما بعد، عرفت أنها تصارع من أجل الإقلاع عن الكحوليات، لأنها كانت مدمنة على الشراب، ولكن هذه قصة أخرى.

وكانت ماري كلما وضعت شيئاً من الطعام في فمها، أتبعت تلك الحركة بالاستناد بذقنها على قبضة يدها وهو تمضع الأكل، وتعتمد بأحد مرفقيها على المائدة. وإذا لم تضع شيئاً من الطعام في فمها، استندت بذقنها على كلتا قبضتيها المضمومتين، حيث كانت حينها تضع مرفقها الآخر هو أيضاً على المائدة. وكانت لا تتكلم، ولم تشارك حتى ذلك الحين في الحديث، الذي كان معظمه من طرف الأخ إنياس؛ ون واي.

سألتها، بغية الدردشة، لا أكثر ولا أقل، بالفرنسية بالطبع:

- ماري، أنت تنتجين فيلماً عن ليون الأفريقي؟!

- نعم.

- هل تشاركين في كتابة السيناريو أيضاً؟!

- لا، المخرجة هي نفسها كاتبة السيناريو، لكنني أشرف على العمل كله، وأقول رأيي في السيناريو، هو عمل جماعي بشكل كبير، لكن المخرجة هي المسؤولة الرئيسية عن السيناريو.

- وحسب رأيك، أية وجهة نظر سوف تتبناها المخرجة في

الفيلم؟ أنتِ طبعاً تعرفين أن هناك وجهتي نظر عن الرجل؛ في الشمال عندكم وجهة نظركم عن ليون الأفريقي، وفي الجنوب عندنا وجهة نظرنا عن الحسن بن محمد الوزان!

اعتمدت بمرفقيها على المائدة، ووضعت ذقنها على قبضتي يديها المضمومتين، وفكرت قليلاً، ثم قالت:

- نحن نحاول بقدر الإمكان أن يظهر الفيلم بصورة موضوعية، نقرأ ما نستطيع الوصول إليه من مراجع، ولا نكتفي بالمراجع الفرنسية أو الأوروبية، ولكن نحاول أيضاً الاطلاع على بعض المراجع العربية، هل تعلم أنني عملت من قبل في بعثة فرنسا في كازابلانكا كمسؤولة عن الأنشطة السمعية-البصرية، هذا قبل أن أستقيل وأنشئ شركة إنتاجي الخاصة!

- واو، هذا رائع!

ولم أشأ أن أسبب الإحباط للبنت بالقول بإنه لا يوجد شيء على الإطلاق اسمه وجهة نظر موضوعية، فكل شيء يحمل انحيازاً في داخله، والموضوعية الوحيدة هي الاعتراف بذلك الانحياز منذ البداية، حتى الروبوتات نفسها ليست حيادية ولا موضوعية، فهناك من يقوم بصناعتها وبرمجتها ومعالجة البيانات الخاصة بها، وهذا الشخص بالتأكيد له انحيازاته، ولهذا فإنه يقوم بتحميلها ببيانات منحازة من الأساس حتى ولو لم يكن يقصد ذلك، بل إن مجرد اختيار اسم الفيلم ليكون (ليون الأفريقي)، وليس (الحسن بن محمد الوزان)، هو انحياز في حد ذاته، ومنذ البداية،

إلى وجهة نظر بعينها.

ولا أدري لماذا خطر على بالي لحظتها مثال محدد بخصوص مسألة وجهة النظر الموضوعية والمحايدة وكل تلك الخزعبلات، وكان هذا المثال له علاقة بشاحنة فولكس فاجن الشهيرة، فبالرغم من أن تلك الشاحنة تعد رمزاً للحرية والتحرر والهيبز والثقافة المضادة في أمريكا وأوروبا ومعظم أنحاء العالم، إلا أنك يمكن أن تتخيل شعور أي يهودي بالغصة وهو يراها أمامه؛ فالشاحنة قد تم تصميمها وصنعها، أصلاً، كشاحنة لأدولف هتلر شخصياً!

وكنت على وشك أن أخبر ماري بهذا المثال ودلالته بالنسبة لما تظنه حيادية وموضوعية في مشروع فيلمها، لكنني أمسكت لساني في آخر لحظة وقلت إنها قد تأخذ انطباعاً خاطئاً عني بأنني أحب أن أحشر أنفي في أمور الآخرين، أو بأنني انتقادي بشكل صارخ، أو من هواة الهدم من أجل الهدم في حد ذاته أو شيئاً كهذا، فصمت، مفضلاً اتباع سياسة النأي بالنفس، على أساس أن هذا شأن داخلي.

قالت ماري:

- وقرأنا أيضاً بالطبع رواية أمين معلوف!

ضحكت وقلت، وقد تذكرت نصيحة بوريس إلى إنياس بالبحث عن منتجين مشاركين:

- ووفقاً لتقسيمة رواية أمين معلوف، هل ستبحثين عن إنتاج مشترك مع إسبانيا والمغرب ومصر وإيطاليا؟! أنا شخصياً مستعد للمساعدة فوراً!

وإن كنتَ قد قرأت رواية (ليون الأفريقي) لأمين معلوف، فستعرف ما أعنيه، لأن أمين معلوف قسَّم الرواية إلى أربعة أجزاء: غرناطة، وفاس، والقاهرة، وروما، وكل جزء من هذه الأجزاء مرتبط بمرحلة تاريخية معينة في حياة الراوي: الحسن بن محمد الوزان.

ضحكت ماري، وقالت:

- طبعاً يسعدني ذلك! هل تصدق أنك قد قلت للتو فكرة ممتازة حقاً!

وتدخل السيد بوريس بتشجيع الفكرة، مضيفاً بأن إنتاجاً مشتركاً لفيلم عن ليون الأفريقي بين فرنسا وإسبانيا والمغرب ومصر وإيطاليا، مع طرح وجهات نظر هذه الثقافات كلها في الفيلم، سيكون شيئاً مشجعاً على مشاركة القنوات التلفزيونية لتلك البلدان نفسها في الإنتاج وفي التوزيع. ولم أحب أن أعلق على ما قاله السيد بوريس، لأنه بالتأكيد كان سيزعل! فأي طالب في سنة أولى معهد سينما يعرف أن فيلماً واحداً بسبعين وجهة نظر لابد وأن يكون فيلماً فاشلاً فاشلاً فاشلاً، بل في الحقيقة: لافيلماً! فكما لا يستطيع الإنسان أن يركب حصانين في وقت واحد، فما بالك بخمسة أحصنة، فإن الفيلم حتى يكون فيلماً لابد له أولاً وقبل أي

شيء من وجهة نظر واحدة مهيمنة تفرض على أجوائه روح التماسك والوحدة والانسجام يا حمار يا بقف ويلعن أبو اللى شغلك في آرتيه من أساسه وحرام عليك الولد إنياس شكله صدقك وها يعدِّل في مشروع فيلمه عشان يبقى سلسلة أفلام ويروح في طوكر من تحت راس اقتراحك العبيط إقفلي حنفية الاقتراحات وحياة أبوك وكفاية اقتراحات لحد كده ما تقترحهاش أكتر من كده!

هذا بالرغم من أن كلام السيد بوريس كان يبدو كما لو كان نغماً في أذنيّ الولد إنياس. وكنت قادراً على تفهم دوافع التهافت عند إنياس تجاه كسب رضى السيد بوريس بأي شكل. فالكومشنج إيديتور في قناة كقناة آرتيه = كنج كونج التمويلات والإنتاج؛ بإشارة من إيده دي يحي الفيلم، وبإشارة من إيده دي يموت الفيلم!

وذكرتني المقترحات البلهاء والهابطة للسيد بوريس بالمشهد الذي في نهاية فيلم (الكيف)، والمحادثة التي تدور بين موزع شرائط، وبين صاحب محل أشرطة كاسيت تعليقاً على صوت المغني النشاز في أحد الأشرطة الهابطة الجديدة:

- بس ده صوته وحش قوي!

- بكره الناس تتعود عليه ويبقى نغم!

- نغم ولا لغم، المهم إنه يجيب فلوس!

ووضعت السيد بوريس منذ تلك اللحظة بخانة المديوكر. وقلت له في سري: فك يو، أو طز فيك، أو تباً لك، وكلهم تقريباً بنفس المعنى. ونظرت إليه وهو يأكل، ورحت أشبهه: مرة بطبال لديه طبلة ولكنه لا يصدر منها إلا ضوضاء، ومرة أخرى بلاعب كوتشينة لديه كل أوراق اللعب ولكنه لا يعرف ولا لعبة واحدة، وكل تلك التشبيهات والتمثيلات.

وحتى تكون معنا في الصورة، وحيث إنه لا يصح أن نتحدث عن شخص قد تكون سيادتك لا تعرف من هو، فها هي يا عزيزي صورة سكتش مختصرة وسريعة للحسن بن محمد الوزان، أو ليون الأفريقي، أو الأسد الأفريقي، أو يوحنا الأفريقي، أو يوحنا الأسد الأفريقي، من باب العلم والمعرفة والإحاطة.

ولد الحسن بن محمد الوزان في مدينة غرناطة قبل سقوطها، في حوالي عام 1500 ميلادية، أو قبل ذلك ببضع سنين. ويقال إن قبيلته من أصول أمازيغية. وعاشت أسرته بعض الوقت في الأندلس. ثم انتقل إلى المغرب، وعاش بمدينة فاس. وأصبح سفيراً ومبعوثاً لسلطان فاس إلى بعض الممالك الأفريقية. وزار كذلك مصر وتركيا والحجاز. ثم سقط في الأسر خلال رسو السفينة التي كان يستقلها في جزيرة جربة التونسية. وأخذوه أسيراً إلى روما كهدية للبابا ليون العاشر. ويُقال، في المراجع الغربية، إنه اهتدى إلى المسيحية واعتنقها عندما التقى بالبابا وتحدث معه. ويُقال، في المراجع العربية، إنه تظاهر فقط باعتناق

المسيحية صورياً من باب التقية. ويستشهدون على ذلك بكتابه عن تاريخ بلاد الإسلام الذي كله تقدير واعتزاز بالدين الإسلامي، بالإضافة إلى أنه، كما تقول المراجع العربية، قد عاد في أواخر حياته إلى تونس، وتوفي بها.

وهكذا فأنت الآن تعلم مغزى سؤالي السابق لماري عن أية وجهة نظر سوف يتبناها فيلمها عن الرجل: هل وجهة نظرهم عن ليون الأفريقي، أم وجهة نظرنا عن الحسن بن محمد الوزان؟

لكن المهم، في الحقيقة، في قصة الحسن بن محمد الوزان، هو أنه كان كاتباً كبيراً، ومؤرخاً عظيماً، فقد كتب العديد من الكتب المهمة وهو في روما، سواء كأسير أو كمواطن، حسب وجهة النظر التي تحبها، فكتب كتباً في اللغة العربية التي كان يقوم بتدريسها هناك في روما، وكتباً في الأدب، وفي الجغرافيا؛ وأشهرها كتاب (وصف أفريقيا). والمهم أيضاً في قصة الرجل، أنه عاصر نهايات دولة الأندلس وسقوطها، وبدايات الدولة العثمانية وصعودها، وسقوط دولة المماليك في مصر، وفجر النهضة الأوروبية وانبعاثها، والتغيرات الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، والقيمية، التي صاحبت أفول حضارات وصعود أخرى حلت محلها. كما لا يمكن أيضاً إغفال إجماع المراجع العربية والغربية على أن البابا ليون العاشر كان يشجع الثقافة والمثقفين والفن والفنانين، وأنه عرف معدن الحسن بن محمد الوزان كمثقف عربي من الطراز الرفيع، ومتبحر في ثقافات الشرق وأفريقيا، وعلى دراية عميقة بالتحولات التي كان

يمر بها العالم وقتها نتيجة رحلاته الطويلة، فوفر له كل سبل الراحة والمساعدة لكي يتفرغ للقراءة وتعلم اللغات والكتابة عن مشاهداته الجغرافية والسياسية والثقافية، بل ووصلت درجة ثقة البابا ليون العاشر في الحسن بن محمد الوزان إلى درجة أنه أرسله سفيراً له إلى ملك فرنسا، وإلى السلطان العثماني سليمان القانوني. ويمكنك أن تعرف مدى استنارة البابا ليون العاشر، عندما تقارن بينه وبين ما فعله خلفه: البابا أدريان، المتعصب المتزمت عدو الفنون والآداب، الذي عرفت روما في عصره انتكاسة فنية وثقافية، والذي ألقى بالحسن بن محمد الوزان في السجن لمدة عامين كاملين.

وكنت مستمتعاً جداً بلحم الغنم. ولما شارفت على الانتهاء من طبقي. لمحت نفس النادلة التي جاءت لي بأطباق الطعام تمر بالجوار، فأومئت لها برأسي. ولما اقتربت، قلت لها بالفرنسية وأنا أشير للطعام وأرفع الإبهام:

- الشغل عشرة على عشرة، ممتاز، تحياتي للشِف!

فضحكت البنت معتبرة أن ذلك ظريف للغاية، وتمنت لي شهية طيبة، وشيعتها ببصري وهي تنصرف، واستقر في وعي لحظتها أنها قد أحضرت لي قطعة اللحم الكبيرة عن قصد وتدبير وتبصر.

وعرضت على إنياس، هو أيضاً، ومن باب المجاملة، المساعدة في فيلمه عن تطور العطور المتوسطية إن رغب في

التصوير في القاهرة أو في أية مدينة مصرية أخرى. وفرح الولد كثيراً. وتدخلت ماري في النقاش، وقالت إنها قرأت النبذة المختصرة عن فيلمي عن سكان المقابر في القاهرة وتحب أن تقرأ أكثر، وطلبت قراءة السيناريو الكامل للفيلم، إن كان هناك سيناريو كاملاً للفيلم. وطلب إنياس هو الآخر، ولا أدري لماذا، وبحماس يشبه حماسه في عرضه لمشروعه على السيد بوريس المديوكر كومشنج إيديتور آرتيه فرع ألمانيا، أن يقرأ هو الآخر سيناريو فيلم القرافة. وشكرت الاثنين على اهتمامهما بالموضوع، وكان السيد بوريس قد انتهى من طعامه وراح يصوب نظره هنا وهناك في أرجاء صالة المطعم غير عابئ بحديثنا، وربما سمع، وربما لم يسمع، شكري لماري وإنياس على اهتمامهما بمشروعي، والذي قصدت متعمداً أن يكون بصوت عال، من باب اللوم المبطن والغمز واللمز على حاجي بابا حمص أخضر الذي لم يعنه أن يسألني، ولو من باب المجاملات العشائية، أي سؤال بخصوص مشروعي عن سكان القرافة، بالرغم من أنه موضوع مثير جداً لأي أوروبي!

ووعدت ماري وإنياس بإعطائهما نسخة من المعالجة الأخيرة للفيلم التي معي، وحرصت على أن أقول إنها بالطبع قابلة للتعديل على ضوء المعارف التي سوف نكتسبها هنا في ورشة العمل، وعلى ضوء غير ذلك من الظروف والتطورات التي قد تطرأ على علاقتي بسكان القرافة، وبناءً على ملاحظات أي شريك محتمل في المستقبل في إنتاج الفيلم.

وطلب السيد بوريس لنفسه بيرة، وراح يصب ويشرب. ولم يطلب لنا شيئاً، ولا حتى دعانا أو عزم علينا؛ ولو حتى من باب الذوق واللطافة والكياسة، بالرغم من أنه أكبرنا سناً وأكبرنا مركزاً على المائدة، وبمثابة أستاذنا في الورشة، وبالرغم من أنه يعلم أنه بعد وجبة عشاء غنمي كهذه لابد من بعض البيرة أو أية كحوليات أخرى أياً كانت، ولا أدري لماذا ذكرتني تلك الخسة بأبيات من موال (شفيقة ومتولي) لحفني أحمد حسن:

وقال يا معلم هات كراسي

وطلب طلبات لصحابه وهوّ ما رضاش يشرب

جه الجرسون يقول وحش في جبلك

وياك الكلام أجيبو لك، إنت تشرب إيه أجيب إلك

قال له هاتلي شاي الغلب مر

سمعه المعلم وراح له

المعلم راح لمتولي

قاله يا أخينا داير بكا مالك

ما كنت قاعد بكمالك

يكنش خدوا م البوك مالك

قال له يا ريت راح مالي

أنا الموت بقى ستري ورحمالي

وجمال عكسني وراح مالي

عشان واحدة اسمها شفيقة

قال له إنت مؤمن تاجي رب ليك

لو في الجواب ده تقرب لك

إنت زبونها ولا تقربلك

قال له أنا راجل ريس كل مِتين

والحب بهدل كل مَتين

وعايز أقابلها في كلمتين

وفي العذاب قلبي بربيه

عشان يآمن بربيه

خده من إيده وطلع بره بيه

قال له شفيقة ع البلكونة دي

شاف اخته والعقل منه زل

وبعت صحابه طلعوا المنزَل

يا متولي

ونزل حاجي بابا حمص أخضر من نظري. وأظنه نزل من نظر ماري، ومن نظر إنياس أيضاً، وإن لم يحق لي التحدث باسمهما، لكن كانت إيماءات الوجوه وتعبيراتها واضحة لا تحتاج لجهد في القراءة والتفسير. ويجب أن تعرف أن الذي ينزل من نظري ينزل من نظري، بمعنى أنه ينزل ويظل قابعاً هناك في الأسفل إلى أبد الآبدين، بلا أية فرصة للصعود مجدداً! أو على الأقل كانت هذه هي خبرتي مع البشر وقتها، ولا تزال، فمن كل الذين صادفتهم حتى الآن، لم ينزل أي شخص من نظري ثم عاد وصعد من جديد، فلا تصدق من فضلك من يقول إن الانطباعات الأولى تكون خاطئة، فهي على العكس تماماً يا رفيق، هي الصدق بعينه، على الأقل في حدود خبرتي المتواضعة.

وكان بسلامته الوالي أبو زعيزع مستمراً في العب من البيرة والتلفت حواليه وكأننا لسنا موجودين على نفس مائدته اللعينة. ولا أدري إن كان هو الذي سيقوم بالإشراف على المجموعة التي ستكون فيها ماري وإنياس، أم أحد آخر، لكن كان من باب اللياقة وحسن الأخلاق، أن يشاركنا الحديث بدلاً من هذه النطاعة الغير مبررة. وراح يتخذ أوضاعاً متعجرفة وهو جالس إلى المائدة يشرب من كوب البيرة ويصنع شارباً من الرغاوي على شفتيه.

ولم أكن أحب المتعجرفين الذين يصطنعون أوضاع إمبراطور روماني. واجتاحنى إلهام مفاجئ بأن هذه اللحظة التي قد تبدو ضجرة أو مملة أو بلا قيمة، هي المكسب الحقيقي من هذه الورشة وإنجازها الذي سوف يضاف إلى رصيد خبراتنا. وأعني؛ إقامة أواصر التعارف وجسور التعاون والتعاضد بين السينمائيين الشبان في دول البحر الأبيض المتوسط. وقلت في نفسي وقد أشرقت نفسي بالآمال الكبار: من يدري، فلعله ينتج عن هذا شيء مفيد أو مشروع فيلم مشترك مع بعض هؤلاء الزملاء، بدلاً من الطنطنات والكلام الفارغ من الكومشنج إيديتورز، أو حتى الوعود البراقة الزائفة التي لا قيمة لها في عالم صناعة الأفلام القاسي الذي لا يرحم. وملئت أفكاري الباطنية روحي بالطاقة الإيجابية، إلى جانب امتلاء معدتي بلحم الغنم اللذيذ.

وكنا ثلاثتنا؛ ماري وإنياس وأنا، قد قمنا بتحييد حاجي بابا حمص أخضر في مناقشاتنا التي دارت حول خلفية كل منا وخبراته السابقة. حتى إنياس نفسه؛ المتلهف للفت انتباه الوالي أبو زعيزع، بدا وكأنه قد أدرك أخيراً أن الرجل مديوكر ولا رجاء منه. أو ربما يكون قد أدرك ذلك منذ البداية، ولكن الأمور في السينما للأسف تجري على نحو يضطر فيه السينمائي في كثير من الأحيان إلى أن يلحس للمنتج على أمل أن يهتم بمشروعه فيقوم بتمويله. ونحن في النهاية نحضر ورشة العمل هذه بوصفها فرصة لكي يجد كل منا لنفسه مشترين، رعاة، وكل راع مسؤول عن رعيته. كان رعيتك ده يا كابتن!

قالت ماري إن خلفيتها وخبرتها السابقة هي في العمل الدبلوماسي وفي الإشراف على بعض المنح التي تمنحها الخارجية الفرنسية للفنانين المستقلين والمؤسسات الفنية في المغرب، وإن فيلم (ليون الأفريقي) هو أول إنتاج لشركتها الصغيرة التي أنشأتها بعد استقالتها من العمل في وزارة الخارجية الفرنسية. أما إنياس، فقال إن خلفيته وخبرته السابقة هي في العمل في الإرشاد السياحي في مقاطعة أنتويرب في بلجيكا؛ معقل صقل وتجارة الماس في العالم، والتي كنت أعرف أن اليهود هم الذين يسيطرون على الأمور فيها. وقال إنياس إنه مهتم بالعطور بصفة شخصية، هو وأخته، وهذا هو الفيلم الثاني الذي ينتجه في شركته الإنتاجية التي أنشأها منذ عامين فقط. وراح إنياس يقدم لنا جولة سياحية مجانية عن مدينة أنتويرب، ومقاطعة أنتويرب، وكنائسها وكاتدرائياتها، ومتاحفها، وموانيها، ومصانعها، ومسارحها، وصناعاتها الحرفية، وكل تلك الأشياء، حتى كدت أن أتثاءب، لكن الله ستر وأمسكت نفسي بصعوبة، وهكذا عرفت أن إنياس حينما يتحمس ويشرع في الحديث عن شيء ما، فإن كلامه قد يستغرق ساعات طويلة إن أنت تركت له الفرصة ولم تقاطعه.

وذكرت أنا أخيراً بعض الأشياء عن خبرتي في مجال السينما. وقلت بفخر إنني وبعد أن تخرجت من معهد السينما، عملت مساعداً ليوسف شاهين. لكنني لم أرَ أي رد فعل من أي نوع على وجهي ماري أو إنياس. فكررت بصوت عال ليسمعني الحاج أبو زعيزع؛ بأنني عملت سنتين مساعداً للمخرج المصري الكبير يوسف شاهين، فنظر إلي ببلاهة ولم يظهر أي تعبير على

وجهه. تجرأت أخيراً وسألتهم:

- ألم تسمعوا من قبل عن يوسف شاهين؟!

ردت ماري:

- لا، هل هو مخرج مصري؟

- نعم، إنه أشهر مخرج في مصر، وفي المنطقة العربية كلها، ثم إن أفلامه تقوم آرتيه بتمويلها، أنا في الحقيقة مستغرب كيف لم تشاهدوا أفلام الرجل! هل شاهد أحدكم فيلم (المصير)، أو (المهاجر) مثلاً؟!

هزوا رؤوسهم. وشعرت بصدمة كبيرة. كنت أعول على عملي السابق مع يوسف شاهين لكي يفتح لي أبواب كل التعارفات العظيمة والصداقات المتينة، معتقداً بأنني حالما أذكر اسم الرجل، سوف ينبهر السينمائيون الأوروبيون فوراً. وسألت السيد بوريس في محاولة أخيرة لإنسان يغرق ويحاول التعلق بقشة وهو يعلم أنها لن تنقذه:

- ولكن يا سيدي، إن قناة آرتيه عندكم تقوم بإنتاج كل أفلام يوسف شاهين! فكيف لا تعرفه؟!

- ربما يعرفونه هناك في الفرع الفرنسي، بالنسبة لنا في فرع ألمانيا، وفيما يتعلق بي، أنا لم أسمع بالرجل من قبل!

وصدمني إنياس، فوراً، بصدمة ثانية:

- أنا شاهدت فيلماً مصرياً رائعاً منذ عدة أيام في إحدى القنوات الفرنسية، كان كوميدياً، وكان على ما أتذكر اسمه ... الكباب .. وشيء ما..؟!

قلت فوراً:

- الإرهاب والكباب!

- نعم، الإرهاب والكباب، كان فيلماً رائعاً، والممثل الكوميدي رأيته من قبل في بعض الأفلام التي تذاع في قنوات بلجيكية وفرنسية ولكنني لا أذكر اسمه!

- عادل إمام.

- نعم، هو، ممثل ممتاز، يضحكني كثيراً!

وتذكرت ماري هي الأخرى أنها رأت جزءًا من فيلم (الإرهاب والكباب). واستغربت جداً، وما زلت، من المفارقة الكبيرة! يوسف شاهين، وأفلام مصر العالمية، حوت التمويلات الفيلمية في مصر، وكنج كونج الإنتاج المشترك مع آرتيه وكانال بلوس وكل قنوات أوروبا الكبيرة، غير معروفين لدى الجمهور الأوروبي، بينما عادل إمام، ذو الإنتاج المصري المحلي الصرف الخالص، هو المعروف والمُشاهد والمشهور في أوروبا! قلت في نفسي: سبحان الذي يحي بالسم ويُميت بالغذاء!

ليس لأنني لا أحب عادل إمام أو شيئاً كهذا لا سمح الله، فأنا لست فقط أحبه، ولكنني أحترمه جداً، قبل كل شيء.

كان مصدر احترامي وتقديري البالغين لعادل إمام هو أنه، ومنذ أن وصل إلى المرحلة التي يختار فيها أفلامه بنفسه، ويصبح هو المتحكم فيما يقدمه على شاشة السينما، وبغض النظر عن المستوى الفني للأفلام التي يقوم ببطولتها، فمن المستحيل أن نعثر له على فيلم لا تظهر فيه الصورة السلبية لنتائج سياسات الانفتاح الساداتي والمباركي السداحي مداحي على المجتمع المصري. صحيح أن أفلام عادل إمام تظل دائماً شعبية بامتياز، لكن الخبرة التي تتأسس عليها تلك الأفلام تحميها من التردي إلى مستوى المساخر، كموهبة أخرى أقل وعياً ضلت الطريق، مثل موهبة سمير غانم، والتي هي في رأيي أعظم موهبة ارتجال في تاريخ الكوميديا المصرياً تماً، ومع ذلك، لم تحمه تلك الموهبة الخالصة ولا حمت أعماله من التردي لمستوى المساخر.

ولا كذلك عادل إمام، الذي يصل إلى ذروته الفنية في أفلام خالدة من قبيل: (الحريف)، و(الأفوكاتو)، و(اللعب مع الكبار)، و(الإرهاب و الكباب)، و(المنسي)، و(طيور الظلام)، وغيرهم. لكن حتى أفلامه الشعبية الأخرى الأقل فنية لا تخلو مع ذلك من نغزات ووخزات حادة لنتائج سياسات الانفتاح. وعلى سبيل المثال لا الحصر: (على باب الوزير)، و(عنتر شايل سيفه)، و(كراكون في الشارع)، و(الغول)، وهلم جرا.

فعادل إمام يضرب بجذوره في الطبقات المتوسطة والفقيرة، وطالما وجدت أفلامه الشعبية صدى جماهيرياً واسعاً في تلك البيئات، ورغم أنه أحرص على صقل حيله الفكاهية لجذب انتباه جمهوره أكثر من حرصه على تحميل أفلامه لمحتو تعليمي أو تثقيفي، إلا أن أفلامه الشعبية رغم ذلك لا تخلو من طبيعة جدلية، فمن ناحية، تلعب تلك الأفلام، جزئياً، لدور مشابه للدور الذي كانت تلعبه قديماً الحكايات الخرافية، وربما لذلك تحظى أفلام عادل إمام بإعجاب الأطفال، كما تحظى أفلام إسماعيل ياسين بإعجابهم لنفس السبب، ويمكن للملاحظة الدقيقة أن تعثر على تشابهات لأفلامه مع الحكايات الخرافية في عناصر من قبيل: شخصية الأبله، والمتذاكي، وعاملا الحظ والصدفة، والمكر البريء، والعاطفية، وانتصار الرجل البسيط في النهاية، والانحياز للنهايات السعيدة.

لكن من ناحية أخرى، وكما سبق وأن ذكرت لسيادتك في موضع سابق، وبحكم تكوين الأفلام الشعبية نفسها، تتأسس تلك الأفلام في بنيتها التحتية على الخبرة الجماعية لنفس الفئات الاجتماعية التي تستهدفها، متبنية رأيها العملي في شؤون الحياة وفي ما يحدث حولها، هذا هو الشرط الضروري للوصول إلى تلك الجماهير، وتلك الخبرة الجماعية هي شيء أقوى وأكبر من خبرة أي فرد على حدة؛ سواء أكان ممثلاً أو منتجاً أو مؤلفاً أو مخرجاً، ولا يستطيع أي عائق أو حاجز أن يقف في وجه تسربها الحتمي إلى الفيلم الشعبي، ولذلك يمكننا القول بثقة بأن لعادل إمام صفوفاً طويلة من المستشارين، ومستشاروه هؤلاء هم أنفسهم

أبناء تلك الطبقات التي يعبر عنها في أفلامه، وهم مستشارون لا لموقف درامي واحد، ولا لفيلم واحد بعينه، ولكن لكل ما يجري في المجتمع من أحداث ووقائع وتغيرات، والحساسية العالية تجاه أبناء تلك الطبقات هي التي تمكن عادل إمام من إضافة خبراتهم إلى خبرته، ومواهبهم إلى موهبته، وربما كان هذا هو سر استمرار الهالة التي أحاطت بعادل إمام لعقود متتالية بوصفه نجم السينما الشعبية المصرية والعربية الأول، وربما لنفس السبب لا يمكننا كتابة تاريخ اجتماعي للانفتاح في مصر بشكل منفصل عن أفلام عادل إمام.

واشتهيت بشدة التدخين بعد هذه الوجبة الرائعة. واشتهيت كأس من الفودكا التي عندي في الغرفة، أو أي مشروب آخر، المهم كحوليات. ورأيت خافيير قادماً نحونا ومعه بي جى. وكان بي جى له ملمح شخص مرتاح وشبعان وكسول. وكان بصحبتهما شاب آخر لا أعرفه؛ ربعة، قوي البنيان، له شعر أسود قصير وكثيف وناعم، وبشرة قمحية. ومال عليّ خافيير وقال إنهم في حاجة إلى مساعدتي. فنهضت، واستأذنت من رفاقي على المائدة في الانصراف.

وقدم لي خافيير الشاب قائلاً إنه فرناندو، زميلنا المنتج المستقل من إسبانيا. وفهمت من خافيير أن فرناندو قد أتى إلى تولوز بالسيارة، لا بالطائرة. وأن سيارته الآن في المرآب، وأن سقفها محشور في سقف المرآب، وإنهم يحتاجون إلى مساعدتي، أنا وبي جى، لكي نخلص سيارة فرناندو المحشورة من سقف

المرآب. وكان الخروج للشارع فرصة رائعة بالنسبة لي لكي أدخن سيجارة. كما سرني كثيراً رؤية بي جى من جديد. ويبدو أن فرناندو، كان ذو شخصية مرحة وانسيابية ومنطلقة، إذ أشار لنا بكلتا يديه قائلاً بالإنجليزية:

- كوم كوم، كوم كوم!

أي هيا هيا، أو تعالوا تعالوا، أو فلنذهب يا جماعة، والأشياء التي من هذا القبيل.

فقلت له ونحن نمشي، بينما أبالغ في رسم علامات الجدية والاندهاش على وجهي:

- كوم كوم! كوم كوم! أين ذهبت "من فضلكم"، يا فرناندو!

فضحكوا جميعاً، وأولهم فرناندو؛ الذي كانت ضحكته في براءة طفل في الرابعة أو الخامسة، وظل يقول:

- أوكى أوكى، أوكى أوكى!

وشعرت بأني قد صرت في مزاج جيد. وخرجنا إلى الشارع. ودرنا حول الفندق. وكان المرآب في الجهة الخلفية من بوابة الفندق. ونزلنا منحدراً بسيطاً، حتى صرنا تحت مبنى الفندق. وكان سقف المرآب منخفضاً للغاية، لدرجة أنني اضطررت للانحناء وأنا أمشي، وكذلك بي جى الذي كان طويلاً مثلي. ورأينا سيارة فرناندو التيوتا الخضراء الزيتونية المكببة،

والتي تشبه الهيونداي المكببة، وقد التصق سقفها تماماً بسقف المرآب. واندهشنا لهذا الوضع؛ فكيف استطاع فرناندو الدخول بالسيارة على هذا النحو حتى أوصلها إلى آخر المرآب والسقف ملتصق بالسقف؟! وشرح لنا خافيير بإنجليزيته الأفضل من إنجليزية كوم كوم لفرناندو، بأنه عندما وصل فرناندو بسيارته إلى المرآب، كانت محملة بعدة حقائب ثقيلة، فتمكن من الدخول إلى المرآب دون مشكلة لأن سقف السيارة ينخفض عندما تكون محملة بأشياء ثقيلة كما تعلم. لكن حالما أفرغ فرناندو حقائبه من السيارة، ارتفعت السيارة وعلت وشبت وقبت، حتى التصق سقفها بسقف المرآب. ولذلك فهو في حاجة إلى مساعدتنا. وماذا نفعل يا عم خافيير، وما المطلوب منا يا عم فرناندو؟! أشار فرناندو إلينا جميعاً بأن نركب السيارة. وخصني أنا شخصياً بالكرسي الأمامي، مصراً على أن أجلس بجواره، ربما لأنني أضخمهم وسأساعد في خفض السيارة بجلوسي في الأمام. ودخلنا جميعاً للسيارة، فهبطت على الفور، وتحرر سقفها، وقادها فرناندو بسلام إلى خارج الجراج. وهكذا تحررت سيارة فرناندو من السقف بفضل جهد مشترك من مؤخراتنا جميعاً. وخرجنا من السيارة لنتأكد من سلامتها، فكانت بسلامتها بلا خدش واحد في سقفها! وأعجبني المخ الإسباني النظيف في حل المشكلة بكل بساطة، لإن المخ النظيف نظيف كما تعلم يا كوتش.

وعاد خافيير مع فرناندو إلى الفندق. ووقفت أنا وبي جى ندخن على الرصيف والشارع معتم وليس هناك حركة لأية سيارة ولا توجد أية واجهة مفتوحة أو حتى مضئية لأي حانوت. ولفتت

سيجارة أمبرليف عادية. ودخن بي جى سيجارة دنهيل. وعرضت عليه المشي قليلاً من باب هضم الطعام والتدخين واستنشاق هواء الليل العليل واستكشاف الشوارع المحيطة بالفندق وغير ذلك فوافقني فوراً بهدوئه المعتاد، وكان ذا طبع مساير. والملاحظة التي تستوقفك عندما ينطق بي جى بالإنجليزية هي أن إنجليزيته ممتازة والحق يقال، ولكنته إنجليزية وليست أمريكية على الإطلاق. وكنت أعرف من خلال القراءة أن المالطيين يتحدثون أيضاً الإيطالية بطلاقة شديدة، بل يمكنك القول بإن ثقافتهم الأساسية هي الإيطالية لا الإنجليزية التي حررتهم بعد خراب بلادهم. وطلبت من بي جى أن يتكلم قليلاً بالمالطية، وأن يقول أي كلام، فلا فرق عندي، المهم أن أسمع اللغة نفسها ومفرداتها ونبرتها وجرسها. وحكيت له أنني قد سمعت اللغة المالطية في فالِتا في الطفولة في رحلات الترانزيت من القاهرة إلى طرابلس الغرب، والعكس، وقلت له إنني اتوق بشدة لسماعها مرة أخرى بعد هذه السنين الطويلة، وإنني ما زلت أذكر كم كانت قريبة من العربية، وكم كانت موسيقاها رائعة، وكم كان فيها من الروح والنكهة الشرقية. فراح يتحدث بالمالطية بصوته الهادئ ونحن سائرون ندخن سجائرنا في عتمة الشوارع، وكانت متعة لا توصف!

وسألته فجأة:

- هل الأصح أن نقول: مالطا، أم مولطا؟! لأنني كثيراً ما أسمع الإنجليز ينطقونها: مولطا!

- مالطا، الإنجليز فعلاً يقولون مولطا، لكننا نحن نقول: مالطا.

- أنا آسف يا بي جى، ولكن هل تسمح بالمزيد من الكلام بالمالطية؟ إن لم يضايقك الأمر!

واستأنف بي جى حديثه بالمالطية، فقد كان ذا طبع مساير. وظل يحدث نفسه بالمالطية وهو يقودني عبر الشوارع الكابية الضوء. وكان هناك عمود نور مضيء كل حين وآخر يرسل إضاءة ناعمة وخافتة وكافية لكي ترى ما حولك. ولم تكن شوارعهم كشوارعنا في القاهرة التي هي إما مظلمة ظلاماً دامساً، أو مضاءة بالغمر. وكنت أمشي وأنا مستمتع بالموسيقى المالطية التي تصدر من بي جى، وقد كففت عن ملاحظة اتجاهات الشوارع وأسلمت القيادة تماماً لبي جى. وقاطعته مجدداً:

- هل الدكاكين مقفلة لأننا ليلة السبت أم تظن أن هناك سبباً آخر؟!

- ربما، وربما لأننا تأخرنا قليلاً، فالساعة الآن تجاوزت التاسعة والنصف، وتولوز مدينة ريفية في المقام الأول.

- إذن لن نجد هنا حياة ليلية بعد التاسعة؟!

- بالتأكيد سيكون هناك بارات ونواد ليلية مفتوحة، لكن يجب سؤال أحد من أهل البلد عن هذه الأشياء، عندنا في فالِتا البارات

والنوادي تظل مفتوحة 7/24، وهناك الكثير من النوادي الليلة التي لا يوجد لها أبواب، فهي مفتوحة على الشارع مباشرة للجميع، وبإمكانك أن ترقص للصباح على الموسيقى، وإن أحببت يمكنك أن تطلب مشروباً من البار، لكن إن لم تحب فلن يجبرك أحد على طلب أي شيء، ويمكنك أن تظل ترقص للصباح بدون أن تدفع شيئاً، وعندما تمل من الموسيقى يمكنك أن تذهب إلى ناد آخر بلا أبواب عنده موسيقى أفضل وتستأنف الرقص عليها.

- شوقتني لزيارة فالِتا من جديد! ما زلت أذكرها منذ الطفولة، وما زلت أذكر شرفاتها التي تشبه شرفات بنايات وسط البلد عندنا في القاهرة وفي الإسكندرية، نحن أيضاً في مصر لا ننام حتى الصباح، والمقاهي عندنا والبارات والنوادي الليلية تظل مفتوحة حتى الصباح.

- لدي ابن عم يقيم في مصر، في القاهرة، في شارع اسمه اورابي، أظن!

- نعم نعم، عرابي، شارع أحمد عرابي، مشهور جداً، سيسعدني أن تعطيني عنوان ابن عمك ورقم هاتفه، ولكنك لم تزر القاهرة من قبل يا بي جى، أليس كذلك؟!

- لا للأسف، ابن عمي هو الذي يأتي إلينا كثيراً، ولكني أود الذهاب إلى هناك يوماً ما!

- ستكون ضيفي إذاً، هذه دعوة مفتوحة وللأبد يا رفيق،

سنقضي أوقاتاً ممتعة معاً، وسأريك كل شيء في القاهرة، في الحقيقة عندنا أكثر من قاهرة واحدة، عندنا قاهرات كثيرة ومتنوعة، وكلها مختلفة عن بعضها البعض. لن يمكنني الشرح يجب أن تشاهدها بنفسك!

ورأينا كشك جرائد في ميدان صغير يتوسط عدة شوارع، فاتجهنا إليه. ورحنا نستعرض الجرائد والمجلات بأعيننا. ولم تكن هناك لا جريدة ولا مجلة عربية واحدة. ووقفنا قليلاً بجوار الكشك ندخن. وكان الميدان خالياً تماماً، فلا مارة ولا متسكعين. وأخذت انطباعاً من هذه التمشية الأولى بأن تولوز مدينة يحطم فيها الضجر كل ما هو مثالي. وقلت لبي جى:

- عندي زجاجة فودكا في الغرفة، ولكن أظننا سنكون بحاجة إلى سفن أب أو برتقال، ألا تظن ذلك؟!

- نعم بالطبع.

واتجه إلى الكشك، وسأل البائع عن عصير برتقال أو سبرايت. وناوله البائع الأربعيني الأصلع، وهو جالس مكانه، زجاجة سبرايت عائلية لتران من ثلاجة عرض زجاجية بجواره. وأخذ من بي جى يوروهين. ووضع له الزجاجة في كيس. وعرضت على بي جى أن أشاركه في ثمنها، فضحك وقال:

- لا عليك، هذا لا شيء!

وهذا يدلك على شخصية بي جى الكريمة المعطاءة الخيرة، دعك من قيمة المبلغ، فالمهم هو النية ورد الفعل السريع البحبوح.

وقفلنا راجعين. وتركت بي جى يقودني في العودة لأنني لم أركز في الطريق في الذهاب. وكان لديه حس مدهش بالاتجاهات، أو ما يطلقون عليه بالإنجليزية: سنس أوف دايركشن. وشعرت في الطريق بأنني وبي جى قد انجذبنا لبعضها البعض كالمغانط. وحكيت له عن دومينيك مدير السكس شوب، فذكرني بي جى بأنني قد سبق وحكيت له عن دومينيك، فسألته مستغرباً:

- متى؟!

- في سيارة التاكسي التي أقلتنا من المطار إلى الفندق.

المهم أنني دعوته لكي يذهب معي إلى دومينيك في أول فرصة تسنح لنا، ففرح كثيراً. وسألته، فقال إنه يفضل الكبيرات في السن. وقلت له إنني أفضل الصغيرات في السن، ويا حبذا لو الصغيرات جداً في السن!

وأخذت أشعر أنا وبي جى بأن مزاجنا قد صار أفضل كثيراً بعد المشي. ووصلنا إلى فندقنا. ولمحنا فرناندو في مقعد السائق في سيارته المركونة بجوار الفندق، وكان منهمكاً بالعبث في تابلوه السيارة، فدعوناه إلى زجاجة الفودكا معنا، وقلنا إن معنا أيضاً سبرايت ولكن إن أحب كوكتيلاً بشيء آخر كالبرتقال مثلاً

فعليه أنه يحضره بنفسه، لكنه ضحك وقال: لا بأس بالسبرايت، السبرايت تمام! فذكرت له رقم غرفتي.

ودخلنا الفندق. ولم نلمح أياً من الوجوه المألوفة لرفاقنا في الرسبشن أو حوله. وصوبنا نظرنا نحو المطعم، ورأينا أن بابه قد أغلق، فعرفنا أن العشاء قد انتهى وأن زملاءنا قد صعدوا إلى غرفهم. وتذكرت ونحن واقفان أمام باب المصعد أن الغرفة ليس بها إلا كوب واحد. فقلت لبي جى ونحن في المصعد أن يذهب أولاً إلى غرفته ليحضر كوباً لنفسه. وتوجهت أنا إلى غرفتي وفتحتها بالكارت الممغنط، وأشعلت النور، وفتحت خزانة الأشياء الثمينة، وأعددت العدة للف بعض سجائر البانجو للأصدقاء حالما يأتون. وأخرجت زجاجة الفودكا من حقيبة الهاندباج. وأخرت أيضاً باقي كيس الفول السوداني. وأحضرت كوبي الزجاجي. ثم خطر على بالي شيء، فتناولت التليفون وطلبت الرسبشن، وسألت البنت عن رقم غرفة ماري فاديم، وكنت قد قرأت لقبها على بطاقة التعريف الخاصة بها المعلقة من رقبة فستانها، وطلبت رقم غرفة ماري، فوجدتها مستيقظة لم تنم بعد، فقلت لها إن عندنا فودكا، ودعوتها إلى حجرتي، وذكرت لها رقم الغرفة، ولم أنس أن أذكرها بأن تحضر معها كوبها لأنه ليس عندنا أكواب إضافية.

وحضر بي جى أولاً، وكان معه كوبان؛ واحد له، والآخر لفرناندو، فانظر إلى أخلاق الولد الدمثة، وغريزة الإيثار لديه، وتفكيره في الآخرين، وكل تلك الصفات الطيبة الجميلة التي

تجعلك تحبه، ولا تسألني من أين أحضر الكوب الآخر، وكل منا عنده كوب واحد فقط في غرفته، فحتى هذه اللحظة هذا لغز بالنسبة لي، ولكنه دليل أيضاً على ذكاء الولد وحسن تصرفه وكل ذلك، وصببت كأسين لبي جي ولي، ولففت سيجارتين، وقدمت واحدة لبي جي وقلت له إنها أفريكان هيربز؛ ماريوانا مصرية، وتذكرت أن أفتح الشباك على مصراعيه وأن نبتعد عن مكان إنذار الحريق في السقف حتى لا نتسبب في فضيحة في أول يوم لنا في تولوز.

وفتحنا التلفزيون. ثم أتت ماري بنفس فستان العشاء. وعرفتها على بي جى. وجلستْ على حافة السرير ناحية الباب، ووضعت ساقاً على ساق، وعندها زحزحت تقديري لعمرها من أوائل الثلاثينيات إلى أواخرها. وصببت لها في كأسها مقداراً معتبراً من الفودكا، وسألتها أولاً إن كانت تحبه بالسبرايت أم الماء أم سِلك؟! فقالت بالسبرايت. فصنعت لها كوكتيلاً عظيماً ملأ الكوب لحافته تقريباً. وناولتها سيجارتي. وقلت لها هذا أفريكان هيربز، ماريوانا مصرية. لكنها اعتذرت عن التدخين، وقالت إنها لا تدخن المخدرات، ولا حتى السجائر العادية، لكنها تحب الشراب، وهي في مرحلة تعافي حالياً من الإدمان، لذلك فهي لن تشرب كثيراً هذه الليلة، وقالت أيضاً إنها في هذه الأيام مقتصرة فقط على شرب القليل من الأوزو من حين إلى آخر، وكنت أكره الأوزو كره العمى، وفي آخر مرة شربته فيها مع أحمد فرحات ظللت أتقيأ طيلة الليل، بالرغم من أنه كان أوزو لبناني قد أتي به صديق لأحمد فرحات من الجبل، واجتمعنا يومها في بيت ذلك

الصديق في مدينة ستة أكتوبر، وكانت زوجته وأولاده غائبون عن البيت في زيارة لأهل المدام في محافظة أخرى، ولم يكن هناك أي طعام في البيت، فنزل صديق أحمد فرحات وهو سكران إلى جارته التي تسكن تحته وطلب منها كيس مكرونة لكي يطبخها لنا قائلاً: عندي أصدقاء فوق وما فيش أكل في البيت، ثم رجع إلينا وقال إن الست عرضت أن تطبخ المكرونة بنفسها وقالت إنه لن يعرف كيف يطبخها، وأخبرته بأن ينزل ليأخذ المكرونة جاهزة بعد نصف ساعة، وكانت سيدة مطلقة كما قال لنا، وفي عزها، ولما نزل صديق أحمد فرحات إلى تحت، لم يصعد إلا في صباح اليوم التالي، ولكن هذه قصة أخرى.

وحضر فرناندو أخيراً. وجلس على حافة السرير بالقرب من التلفزيون، لأن بي جى كان يجلس على حافة السرير في الجهة المقابلة لماري، وكنت أنا أجلس على الكرسي البلا مساند بجوار طاولة الكتابة التي عليها: زجاجة الفودكا، والسبرايت، والتبغ المخلوط بالبانجو وعدة اللف، وكيس الفول السوداني الذي أحبوه كثيراً وكنت أملئ لهم كفوفهم بالفول السوداني حتى نفد ما في الكيس كله. وصببنا لفرناندو وشرب معنا، وأكل الفول السوداني المصري معنا، ودخن الماريوانا المصرية معنا، وكان حريصاً على نفث الدخان بعيداً عن السقف، وأمسك بالريموت كنترول وراح يقلب قنوات التلفزيون، وتصادف أن كل من ظهر من مغنين أو ممثلين أو مذيعين كانوا سود البشرة، فأشرت إلى التلفزيون وقلت وقد ثملت:

- هل اليوم هو اليوم العالمي للسود!

ففطسوا من الضحك. وصعدت حافياً على السرير وفي يدي زجاجة الدانزكا وفي الأخرى السبرايت، وأكملت كأس ماري، ثم كأس بي جى، ثم كأس فرناندو. وضحكوا بشدة من مسألة وقوفي على السرير، برغم أنني لم أرَ في الأمر ساعتها أي شيء يدعو للضحك، فالحجرة، كما تعلم، ضيقة جداً، وجلوس فرناندو على حافة السرير أمام التلفزيون أعاق الحركة ما بين جناحي الغرفة، وكنت أنا محبوساً في جناح، وماري هناك على الطرف الآخر، فكان التصرف المنطقي والواقعي والعملي أن أصعد حافياً على السرير، وأن أتحرك عليه جيئة وذهاباً لكي أصب للجميع وكل ذلك.

واستقر فرناندو على قناة فرنسية تذيع تقريراً عن أمريكي احتكر أراضي القمر، وسجلها باسمه في حقوق الملكية في أمريكا، ثم راح يبيعها قطعة قطعة بالدولار لمن يريد. قالت ماري بالإنجليزية:

- القمر الذي هو ملك للكون كله هذا الأمريكاني يحتكره بغير حق ويقسمه إلى أراض ويبيعها للناس!

فرد بي جى، بلسان ثقيل مخمور:

- الأكثر قذارة هو الذي يشتري منه!

ففطسنا جميعاً من الضحك. واستمر تقليب فرناندو للقنوات. ومر، عرضاً، على فيلم فيه ممثلتان فرنسيتان كبيرتان في السن لا أعرفهما. والتفتُ إلى بي جى خلسة، فوجدت أن شيئاً في ملامحه قد تغير، وأنت تعلم مدى حبه للحفريات التاريخية.

وغيّر فرناندو إلى قناة فرنسية أخرى كانت تذيع تقريراً عن الجبن الإيطالي الذي يُصنف كأبشع طعام بشري على وجه الأرض. كان جبناً تقليدياً قديماً اسمه: كاسو مارزو، من سردينيا، ويحتوي على يرقات حية! وبانت علامات القرف على وجوههم. فسكت ولم أحب أن أقول إن عندنا في مصر شيئاً مشابهاً، بل وأكثر قرفاً في الحقيقة، وهو المش بدوده، وكلما كان الدود الحي أكثر في المش، كان دلالة على الجودة العالية للمش، وهذا لا يعني أنني أكره المش، فأنا في الحقيقة من عشاق المش، ولدي طريقة ممتازة لعمله على نحو رائع، وبحيث لا تتكون فيه ولا دودة واحدة، وهي ببساطة أن تضع القليل من مسحوق الدونكار؛ والموجود عند العطارين، في شاشة، وتربطها جيداً، ثم تضعها على سطح برطمان المش قبل أن تحكم إغلاقه، وبهذه الطريقة لن ترى ولا دودة واحدة، لا حية ولا ميتة، في برطمان المش، ولكن حاذر من الإكثار من الدونكار، لأنه يا ريس نوع من أنواع السموم، وللطعم والنكهة والرائعتين، أوصيك بوضع قليل من الحلبة الحصى داخل الشاشة أيضاً، وبعض من عرق حلاوة كذلك، ويا سلام لو استطعت أن تضع بعض قشور البرتقال فصل الشتاء في برطمان الجبن القديم لأصبح الطعم في منتهى الروعة، وأخيراً لا آخراً، أحب أن أضيف لمعلوماتك، إن كنت لا تعلم، أن

الفراعنة هم من اخترعوا تخزين الجبن القديم، أو المش إن شئت، وبنفس هذا الأسلوب الذي توارثناه عنهم إلى اليوم، كوسيلة لحفظ بروتين اللبن، لأنه كما تعلم يفسد بسرعة، وهكذا تفتق ذهن الفراعنة عن صنع المش كطريقة لحفظ اللبن لمدة عدة سنوات، ونفس الشيء ينطبق أيضاً على كرات الكشك، التي هي عبارة قد قمح محمص ومرشوشة بالحليب، والتي يمكن أن تظل صالحة للأكل خلال سنة كاملة لا تفسد.

وصببت لنفسي مجدداً، ولبي جي، واعتذرت ماري، لأنها كانت تحاول أن تشرب ببطء، فكانت كأسها لا تزال ممتلئة، وصببت القليل جداً في كأس فرناندو، لأنه كان يشرب ببطء هو الآخر، فكانت كأسه هي أيضاً لاتزال ممتلئة إلى حد ما. واستقر فرناندو أخيراً على قناة محلية كانت تذيع فيلماً مدبلجاً بالفرنسية لجيم كاري الذي يعمل كتحري خاص يحقق في اختفاء دولفين هو التميمة الخاصة لأحد فرق كرة القدم الأمريكية، وكان فيلماً سخيفاً رأيت جزءًا منه في القاهرة منذ أكثر من عشر سنوات، فنظرت إلى ماري، التي زمت شفتيها وكرمشتهما علامة الامتعاض من الفيلم التافه، فقلت لها رأيي بخصوص هذه النوعية من المساخر والهزليات السخيفة، ورأيي هذا معروف ويتلخص في أن الكوميديا نوعان؛ كوميديا ذكية، وكوميديا غبية. أو: كوميديا درجة أولى، وكوميديا درجة ثانية وثالثة ورابعة، الأولى تعرض الذكاء الذي في الرجل الغبي، بينما تعرض الثانية الغباء الذي في الرجل الذكي، تحط المساخر من قدر الإنسان، بينما ترتفع الكوميديا الذكية حتى بما هو دون الإنسان إلى مستوى الإنسانية؛

فتؤنسن الأشياء المادية والحيوانات والأطفال، حتى تصبح العصى: الحاجة زهرة، والقدوم: عنكب، وهلم جرا، وعلى العكس، تشيّء المساخر والهزليات الإنسان وتقلبه إلى دمية متصلبة، فتصير حركاته ميكانيكية، ومشاعره متبلدة، وأفكاره متخلفة؛ مثل الأخ إيس فنتورا وسلسلة أفلامه العبيطة.

وأشارت ماري إلى شيء غريب، وربما يحتاج إلى بعض التأمل في كل ما يتعلق بالترجمة ما بين الثقافات، قالت إن الدبلجة باللغة الفرنسية لمثل تلك المساخر الأمريكية، أو الأفلام الهابطة إن شئت، تحاول أن تعلي من قدر العمل الأصلي بقدر الإمكان، حتى إن الفرنسيين الذين يتقنون الإنجليزية يجدون فروقاً هائلة بين الأصل الأمريكي التافه وبين الدبلجة الفرنسية التي تحاول إضفاء بعض القيمة عليه. وذكرني هذا بملاحظة لأحمد فرحات، الذي يجيد الروسية كأبنائها، والذي يعرف حبي الكبير للعظيم دوستويفسكي، فقد قال لي مرة إن قراءة شغل دوستويفسكي باللغة الروسية يفقدك الكثير من متعة القراءة التي تجدها في ترجمة سامي الدروبي تحديداً، والتي ترجمها بدوره عن ترجمة فرنسية، لا عن الأصل الروسي مباشرة.

وخيل إليّ وأنا أنظر إلى الأصدقاء بأننا قد صرنا جميعاً سكارى، وأن عيوننا قد صارت غائمة من السكر. كان مفعول الدانزكا رهيباً، فما بالك ونحن ندخن بانجو معها! حتى ماري نفسها، كان يبدو أنها قد تأثرت بدخان البانجو الذي راح يملأ الغرفة واتسطلت، ومن كثرة دخان البانجو خشيت أن يُصفر

جرس إنذار الحريق بالغرفة، لكن ربنا ستر.

واجتاحني شعور بأنني قد عمدتُ ثلاث صداقات جديدة في حياتي، أو على الأقل اثنتان، وفكرت في تكوين شبكة من الأصدقاء يكون معظمهم من شمال المتوسط مثل هؤلاء، حتى ولو كانوا منتجين مبتدئين ناشئين صغار، على اعتبار أن قوة الشبكة أقوى من شبكة القوة، فإذا كان دون ألتوبيلو قد قال في (الأب الروحي-3): أغنى الرجال هو من عنده أقوى الأصدقاء، فها أنا ذا أقول: أقوى الرجال هو من عنده أوسع الشبكات!

ونظر فرناندو إلى ساعته، وقال:

- أوه، لقد تأخر الوقت!

وشرب ما تبقى من كأسه دفعة واحدة، ونهض واقفاً، ووضع الكأس الفارغة على حافة طاولة التلفزيون قائلاً:

- يجب أن أمشي، لقد تأخر الوقت.

قلت له إن الساعة لا تزال الحادية عشرة والربع، فقال بإنجليزيته العجيبة التي فهمناها بالكاد، إن صديقته في الغرفة وحدها ويجب أن يعود الآن، وكانت هذه أول مرة أعرف فيها أنه قد أحضر معه صديقته من إسبانيا، ولو كنت قد عرفت من قبل لكنت بالطبع قد دعوتها معه.

وتشجعت ماري هي الأخرى وقامت قائلة إنها يجب أن تنام

لأنها تشعر بالتعب، ونصحتنا بأن نحذو حذوها لأننا جميعاً يجب أن نستيقظ مبكراً في أول أيام ورشة العمل. رافقتهما إلى الباب، وتمنينا لبعضنا البعض ليلة سعيدة.

والتفتُ وقد صفصفت الحجرة عليّ أنا وبي جى، ففوجئت به وقد أخرج رأسه وما استطاع من جسده خارج الشباك فارداً ذراعيه ومحاولاً الطيران، فأسرعت نحوه بسرعة وجذبته للداخل بكل قوتي قبل أن يسقط في الشارع، فأنت تعرف أن رأس الإنسان ثقيلة وقد يؤدي إخراجها على هذا النحو خارج النافذة إلى سقوطه، فما بالك وجسده من بطنه إلى رقبته كان بالفعل خارج الشباك! وعددتها معجزة حقيقية أنني قد لحقته قبل أن يسقط! ونشكر الرب لأنها عدت على خير.

ومن منطلق الشعور البحت بالمسؤولية الأخوية والإنسانية قلت له:

- لقد ثملتَ يا بي جي ومن الأفضل التوقف عند هذا الحد!

- إنها الماريوانا المصرية، إنها قوية للغاية!

وقررت أن أنهي الليلة وأن أمضي به بصنعة لطافة إلى غرفته. فقلت له إنه من الأفضل أن نسمع نصيحة ماري وأن نخلد إلى النوم لأن بانتظارنا في الغد يوم طويل وعمل مهم. وصممت على اصطحابه إلى غرفته. وكانت في نفس الطابق، وتبعد عن غرفتي بضعة أبواب. وكان بي جى يترنح وهو يمشي بجواري.

ورفض باعتزاز أن أسنده. وشيعته إلى غرفته حتى أغلق الباب، فعدت إلى حجرتي.

وأطفئت النور. وأغلقت التلفزيون. وقررت ترك شباك الغرفة مفتوحاً لأطرد دخان البانجو وَنفس الأصدقاء. وتذكرت أن أضبط منبه الموبايل على الساعة السابعة صباحاً، وتأكدت من أن شحن البطارية لا يزال جيداً لأن أربعة خطوط كانت باقية من أصل الخمسة. وخلعت ملابسي وأنا أترنح من السكر والمخدرات، وأحسست فجأة بالتعب، وأحزنني ذلك، وشعرت بأن ساقيّ لا تقويان على حملي، فألقيت بنفسي على السرير وأنا أتمتم:

- أحزين لأنك تترنح وتدور حول نفسك! الأرض تدور، ومجموعتنا الشمسية تدور، ومجرتنا درب التبانة كلها ترحل سبعة مليارات كيلومتر عن مكانها كل عام وستصطدم لا محالة بمجرة أندروميدا بعد أربعة مليارات سنة!

أخبار الأيام السبعة

1

استيقظت في الصباح وأنا في قمة الانتعاش ومنتهى الانسجام. نظرت في ساعة الموبايل وأنا بعد على السرير، فوجدتها السابعة إلا بضع دقائق، فأوقفت جرس المنبه الذي كان مضبوطاً على السابعة صباحاً. وكان ضوء رائع يدخل من نافذة الغرفة المفتوحة على مصراعيها، ومعه نسمة عليلة من الهواء المنعش الذي يشعرك بأنك نائم في وسط حديقة غناء أو بستان زهور.

والحق الحق أقول لك بإنني لم أشعر بأية إثارة جنسية، كما كنت معتاداً فور الاستيقاظ من النوم في القاهرة، ولم يخطر على بالي الجنس مطلقاً وأنا مستلق على السرير. وفكرت بأنه في غياب الرغبة، وبما أنني قد صرت الآن مكتف ذاتياً، فأكون والحال كذلك قد وصلت إلى حالة الفضيلة العليا التي نادى بها أبيقورس رحمة الله عليه: راحة البال. وتذكرت دردشة لي مع الله يرحمه الأستاذ عدلي راشد أيام كان رئيساً لتحرير جريدة الأهالي، وكان رحمة الله عليه يفاخر في أيامه الأخيرة بأنه قد ارتخى وكل ذلك، فسألته من باب المداعبة:

- ويا ترى إيه شعور حضرتك يا أستاذ بعد ما اترخيت؟!

- تصدق يا وله في منتهى السعادة! دلوقتي باكل أحسن،

وبشرب أحسن، وبفكر أحسن، الأول ابن الكلب ده كان شغال لوحده ومعطل الست حواس!

وهكذا منيت النفس بأنني سوف آكل على نحو أفضل، وأشرب على نحو أفضل، وأفكر على نحو أفضل. ونهضت عن السرير وروحي المعنوية عالية. ولملمت ملابسي الملقاة على الأرض من ليلة البارحة، وعلقتها في دولاب الملابس. ورفعت زجاجة الدانزكا المعدنية، وقدرت من وزنها أن الباقي بها حوالي ربعها. ولكني كرهت الشرب باكراً، فرغم أن الوعي كان في حاجة إلى كأس الاصطباحة من أجل الفوقان، إلا أن مسألة أن تفوح مني رائحة خمرة في الصباح الباكر عندما أقابل الزملاء لم تكن بالأمر اللائق، فلم أحب أن يأخذوا عني فكرة بأنني سكير، خصوصاً وأن الانطباعات الأولى تدوم يا كوتش، ولست متأكداً إن سبق لي وأن قلت لك ذلك أم لا، المهم، قررت أن أستفيق بالنسكافيه وحده، وأن أدخن سيجارتي بانجو.

وكان بي جى قد نسى أن يأخذ كوبيه معه وهو يغادر بالأمس، فأخذتهما، هما وكوبي الفارغ، وغسلتهم، ووضعتهم في المكان الوحيد المتاح لهم؛ على حوض غسيل الوجه بالحمام، فصاروا ثلاثة أكواب متجاورة متلاصقة تسر العين. وغسلت وجهي. وأعددت لنفسي كوباً من النسكافيه. ولفتت سيجارة أمبرليف بالبانجو. ورحت أدخن وأشرب القهوة وأنا أقف عارياً في نافذة الغرفة. وعرفت سبب الشذى العطري لنسيم الهواء العليل الذي يدخل من النافذة، فقد كانت شرفات المنازل في كل

مكان، وعلى امتداد البصر، بها أصاري زرع وورد ملونة؛ أحمر، وأبيض، وأصفر، وأرجواني.

وكانت هناك حركة خفيفة لبعض السيارات الصغيرة التي تسير بهدوء في الشارع أمام الفندق، ولاحظت أن أياً منها لا تصدر عنه أية عوادم أو انبعاثات كربونية أو غير كربونية. وكان السائقون يقودون سياراتهم ببطء وعلى مهل وكأن أمامهم كل وقت العالم. وعموماً، كان صباحي التولوزي الأول هو سالب تجربة الصخب الصباحي اليومي الملوث للقاهرة.

ولاحظت أيضاً أن بعض الدكاكين قد فتحت أبوابها في هذه الساعة المبكرة من الصباح، لكنني لم ألمح من مكاني أي شيء في واجهاتها الزجاجية، فلم تكن مزدحمة بأشياء كثيرة كما هو الحال في واجهات دكاكين القاهرة التي تتكوم فيها الأشياء فوق بعضها البعض. وفرغت من السيجارة، فدعست عقبها في مطفأة السجائر. ولففت واحدة أخرى. وفتحت التلفزيون. ورحت أقلب في قنواته بحثاً عن أي موسيقى كلاسيكية مناسبة للصباح. ولحظي السعيد وجدت قناة، إيطالية في الغالب كما خمنت من لوجو القناة، تذيع فيلم فيم فيندرز (بوينا فيستا سوشيال كلوب)، الذي صنعه هناك في كوبا مع أعضاء الفرقة من العجائز منذ حوالي سبع أو ثماني سنوات تقريباً، فرفعت من الصوت قليلاً بقدر ما يسمح عدم وصوله إلى الخارج لعدم إزعاج أحد، ورحت أستمتع بموسيقى وأغنيات عازفي ومغنيي فرقة بوينا فيستا سوشيال كلوب، وأصواتهم الحادة الصائحة الأقرب إلى الهتاف؛

هتاف من حواري وأزقة كوبا الجميلة!

هناك شخص ذكي قال مرة: إننا نستمع إلى الموسيقى لكي نشحذ طاقتنا. هيجل؟! شكسبير؟! وَت إز ذى ديفيرنس؟! فكلاهما ينطبق عليه الوصف بأنه ذكي.

وعملت لنفسي كوب نسكافيه آخر من صنبور المياه الساخنة في حوض الحمام. ورحت أدخن السيجارة الجديدة، وأنا أرتشف من النسكافيه وأتفرج عارياً على أعضاء فرقة بوينا فيستا سوشيال كلوب في التلفزيون. وأحسست بالفوقان والانتعاش وبأن الوعي قد تم ضبطه أخيراً. وربما كانت الخمرة يارفيق، هي والمخدرات، والمكيفات، والمنشطات، وسائل توصل إليها الإنسان من أجل ضبط الوعي، وإيصاله إلى حالة ضبط المصنع، لو كنت تفهم ما أعني. أو ربما كان ضبط المصنع هو نفسه من الأساس معيوباً ويحتاج للتعديل، سواء بالرفع أو بالخفض، عن طريق الخمر والمخدرات وكل تلك الأشياء. وعي معدل. وهذه أشياء معروفة منذ زمن طويل يا زعيم، فلا تنسى أن أبا الطب أبقراط اليوناني قد وصف الخمر كدواء معالج لعدد كبير من الأمراض.

وعلى صوت الأغاني الكوبية، وكوب النسكافيه في يدي، وسيجارة البانجو بين شفتي، قررت أن أقوم بطقس التطهر الصباحي، أعني أن أغتسل. وكنت بالفعل ما زلت عارياً، فدخلت إلى الحمام، وفي يدي مطفأة السجائر، ووضعتها على حافة

حوض الغسيل وعليها باقي سيجارة البانجو المشتعلة، وبجوارها باقي كوب النسكافيه. ووقفت تحت الدش. واكتفيت بالمياه العادية ولم أفتح صنبور المياه الساخنة، لأن المياه كانت فاترة ولا تحتاج لأي تسخين. هكذا لأنك فاتر فإنني مزمع أن أتقيأك من فمي، ليتك كنت حاراً أو بارداً. واغتسلت جيداً بالصابون، وأنا أخرج من تحت الدش من حين لآخر لأدخن وأشرب من كوب القهوة. ليس عندك أدنى فكرة يا رفيق كم هو ممتع أن تمارس طقوس التطهر الصباحي وأنت تشرب قهوتك وتدخن سيجارتك!

ولما انتهيت من الاغتسال، وقفت قليلاً أمام مرآة حوض الغسيل التي كانت رائقة وصافية بلا أي بخار لأنني لم استعمل المياه الساخنة كما قلت لك. وفوجئت قليلاً لما رأيت ذقني وكأنها محلوقة للتو! بالرغم من أنني قد حلقتها منذ أكثر من اثنتي عشرة ساعة. ورغم ذلك قررت أن أحلقها في السريع ولو حتى وش واحد فقط من باب العادة والتعود والاعتياد، وحتى تكتمل طقوس التطهر والاغتسال الصباحية كما ينبغي لها أن تكون. وجهزت عدة الحلاقة. ورحت أصبون وجهي بالفرشاة. ثم حلقت مرة واحدة فقط على مهل، وأنا أفكر في قوة شفرة الحلاقة التي أتوني بها البارحة في الفندق، وكيف أن حلاقتها قد دامت كل هذا الوقت، بينما ماكينات جيلت التي نشتريها من القاهرة، تلك المكتوب عليها "صنع في بولندا"، لا تدوم حلاقتها لأكثر من ثلاث أو أربع ساعات فقط، ثم تجد ذقنك وقد طالت من جديد، وتضطر لحلاقتها مرة ثانية خلال نفس اليوم. إنهم يا أستاذي الفاضل يبيعوننا سلعاً من الدرجة الثالثة ثم تجعلها العادة والاعتياد

والتعود تبدو في أعيننا وكأنها سلعاً من الدرجة الأولى.

ولما انتهيت من الحلاقة، واطمأننت على النظافة والنضارة، شرعت في ارتداء ملابسي، وقد شارفت الساعة على السابعة والنصف؛ موعد النزول لتناول الإفطار. فارتديت تيشرتاً رصاصياً على البنطلون الجينز الليفايز السماوي، والحذاء الكلاركس الأسود، ولمعته بعد ارتدائه بإسفنجة التلميع لأنه لم يكن يحتاج إلى طلاء جديد، ولم أضع الكثير من العطر، لأنه ليس مناسباً في الصباح الباكر أن يضع المرء الكثير من العطر؛ مجرد تلميح فقط، لا تصريحاً فاضحاً. ثم أعددت حقيبة الأوراق، فتأكدت من وجود أوراق مشروع فيلم القرافة، وجدول عمل الورشة، ووضعت فيها أيضاً الموبايل، والمحفظة، وباكت تبغ الأمبرليف السادة، وباكت الأمبرليف الممزوج بالبانجو، وباقي عدة اللف من أوراق بفرة وفلاتر كرتونية، والولاعة. وظرفان من أظرف الواقيات الذكرية من باب الاحتياط، والاحتياط حلو برضو مافيش كلام. وألقيت نظرة سريعة على جدول اليوم. كنا سنستقل حافلة عقب الإفطار مباشرة ونتوجه إلى مجمع لدور العرض السينمائي اسمه: "يوتوبيا سينما"؛ وهو سلسلة من دور العرض التي تعرض الأفلام المستقلة، وتستضيف ورش عمل خاصة بالسينما، وتقيم ندوات ومؤتمرات على هامش عروض الأفلام، وتصدر مجلة سينمائية، وأشياء أخرى من هذا القبيل، وكنت قد سمعت عنها وأنا في القاهرة من بعض الأصدقاء الفرنسيين. وكما فهمت، كانت اللجنة المنظمة قد حجزت لنا قاعات هناك في "يوتوبيا سينما" فرع تولوز، لكي نقيم فيها ورشة

العمل وباقي أنشطتنا.

وألقيت نظرة على اسم مرشدنا في المجموعة، أو معلمنا إن شئت، وكان اسمه: آدم سميث. وقد ضحكت عندما قرأت اسمه لأول مرة بالأمس في الأوراق. ولا أذكر إن كنت قد قلت لك ذلك أم لا؟! أي أنني ضحكت بالأمس لما قرأت اسمه في الأوراق. وربما لم أضحك تماماً، وإنما قد أكون ابتسمت فقط. أو قد أكون فتحت فمي على مصراعيه في إيماءة ضحك دون صوت، أو أي شيء مشابه من هذا القبيل، فما الفراق؟! وعموماً ليس هذا هو مربط الفرس، ولا أدري لماذا يسترسل المرء في سرد اختلافات بين أشياء لا فرق بينها في النهاية، ولا تبعث في نفس القارئ سوى الارتباك وسوء الفهم، ولكنني قد كتبت هذه الفقرة على أية حال ولهذا فأنا أبقي عليها كما هي، المهم يا كوتش أن أول ما خطر على بالي حين قرأت: آدم سميث، هو أن أطرح على مرشدنا السؤال التالي في أول مناسبة:

- هل حقاً مصلحة كل واحد هي الخير للجميع؟!

وإليك السؤال بالإنجليزية، إن كنت تجيدها:

- Is the interest of each, the good of all?

فهذه يا صديقي هي واحدة من أهم مقولات السيد آدم سميث، والذي هو اقتصادي سكوتلاندي من القرن الثامن عشر، ويعتبره المتخصصون مؤسس الرأسمالية الحديثة بكتابه: (بحث في طبيعة

ثروة الأمم وأسبابها، 1776)، والمعروف اختصاراً باسم: (ثروة الأمم)، والذي دعى فيه إلى حرية التجارة، والمنافسة الحرة، والمبادرات الفردية، وقال كذباً بإنها الوسيلة الفضلى لتحقيق أكبر قدر ممكن من السعادة للبشرية. وإن كانت الرأسمالية تحقق السعادة للبشرية فليسمح السيد آدم سميث، عالم الاقتصاد الذي غار في ستين داهية، لا مرشد مجموعتنا أطال الله في عمره، أقول فليسمح السيد آدم سميث بتقبيل مؤخرتي! أو لا يسمح، سيان، فهو قد مات منذ زمن طويل، وهذا في النهاية تعبير فني من قبيل التعبيرات الفنية لا غير فأرجو ألا يؤذي ذائقتك الفنية! وأقسم لك غير حانث إنني قد رددت مرة أمام أحمد فرحات مقولة آدم زفت: مصلحة كل واحد هي الخير للجميع، فما كان منه إلا أن شخر شخرة اسكندراني قوية لم أسمع شخرة في قوتها لا من قبل ولا من بعد! ثم راح يشرح لي ذلك المثال الذي يكرره كثيراً؛ مثال العمارة، التي يظن صاحبها أن مصلحته هي في تحصيل أكبر مبلغ ممكن من الإيجارات من السكان، والإنفاق، في نفس الوقت، أقل ما يمكن على صيانة المبنى، ولا يدرك هذا الأحمق أن مصلحته الحقيقية تكمن في الإنفاق على صيانة العمارة حتى تعيش أطول فترة ممكنة، وبالتالي يحصل منها هو وأولاده وأحفاده على إيجارات لمدد مضاعفة، وهكذا فإن الناس، كما ترى يا رفيق، أغبياء لا يعرفون مصلحتهم الحقيقية، ولا يفكرون إلا فيما هو تحت أقدامهم فقط، وبالتالي فعليك أن تفكر ألف مرة حينما تقرأ عبارة السيد زفت الطين عن أن مصلحة الفرد هي الخير للجميع، وكل تلك الترهات!

وأغلقت النافذة. وأطفأت النور. وخرجت من الغرفة وأغلقت بابها ورائي. وهبطت في المصعد إلى الدور الأرضي. وحييت البنت الواقفة في ريسبشن الفندق، فردت بابتسامة متصلبة متحجرة خاطفة، ثم تظاهرتْ بالانهماك في بعض الأوراق أمامها. وتوجهتُ إلى المطعم. وكان مكتظاً بالزملاء، وبغيرهم من نزلاء الفندق. ولمحني بي جى من بعيد، فأشار إليّ وهو جالس أن أقترب. وفي طريقي إليه، حييت من أعرفه من الزملاء إما باليد فقط، أو برفع اليد وفتح العينين على اتساعهما. ولما وصلت إلى مائدة بي جى كان عليها بنتان، فعرفني عليهما: نورا من ألمانيا، وكيت من إنجلترا.

كانت نورا وكيت كلتاهما نحيلتي القوام، صغيرتي الثديين، تجلسان منتصبتي الظهر. ولكن كيت الإنجليزية كانت قصيرة للغاية على نحو مبالغ فيه، وشعرها الأسود قصير أيضاً وعلى نحو مبالغ فيه؛ وكأنها حلقته بالموس منذ بضعة أيام، وكانت عموماً تبدو مثل صبي في الخامسة عشرة، لا كأنثى، وكانت ترتدي بلوزة بكم طويل وبرقبة مقورة مخططة بالعرض بالبني الفاتح والبني الداكن، وكان لكيت ابتسامة دائمة صغيرة على شفتيها المضمومتين. أما نورا، فكانت على العكس، طويلة، وتبدو رياضية؛ كسباحة أو شيء من هذا القبيل، لكني لاحظت أن جسدها يبدو متيبساً على الرغم من ذلك، وكان شعرها البني الطويل ملموماً في ضفيرة مدرسية تصل إلى آخر ظهرها، وكانت ترتدي بلوزة كريمي بكم ورقبة سبعة، وما يلفت نظرك في عيني نورا؛ أن فيهما ذلك النوع من الترقب والقلق وكأنها

تتوقع حدوث شيء سيء في أية لحظة.

لكن انظر إلى دماثة ورفعة أخلاق الولد بي جى! لقد فكر فيّ وعمل حسابي فحجز لي مقعداً على مائدته ولم ينسني. فتى مثل هذا، بذمتك، وأنا راض بذمتك، وقد ذممتك يا شيخ، ألا يستحق أن تحبه! ليت عندنا من هذه النوعية في مصر، لكانت ساعدت الواحد في التغلب على قسوة الحياة في القاهرة التي لم تقهر أحداً إلا أبناءها وبناتها. ولاحظت أن المسألة هي أوبن بوفيه، أو بوفيه مفتوح إن فضلت، ولن يخدمك أحد على مائدة الإفطار. فعلقت حقيبة الأوراق من سيرها على رمانة كتفي، وتوجهت إلى مكان البوفيه، والتقطت طبقاً، وفنجاناً، وأنا أنوي الاكتفاء بقطعتي بسكويت، أو واحد كرواسون، أو ما شابه ذلك، مع كوب معتبر من النسكافيه، أو القهوة الأمريكية، أو أية قهوة موجودة في المطعم. ووقفت أولاً أمام عدة ماكينات للقهوة، اخترت منها ماكينة الكابتشينو، وصببت لنفسي في الفنجان. ثم رأيت بنتاً ذات ملامح عربية تأتي وتقف إلى يساري وفي يدها كوب فارغ. فتناولت منها كوبها، وصببت لها كابتشينو. لكن للأسف، أدت رغبتي في إظهار كرمي الزائد، وهو كرم في غير محله لأن الكابتشينو ليس لي ولا هو من بيت أبويا، المهم أقول لك إنني صببت لها الكثير من الكابتشينو حتى اندلق من حافة الكوب وملء طبق الفنجان! فاعتذرت وأنا أشعر بإحراج شديد، ورحت أنظر يميناً وشمالاً باحثاً عن أي مكان يصلح لكي أفرغ فيه طبق الفنجان المملوء برغاوي القهوة، لكنها عاجلتني بالقول بالعربية:

- لا ما يهمش!

فناولتها الفنجان الغارق طبقه بالكابوتشينو، وتمتمت معتذراً مرة أخرى. ثم قلت شيئاً أهبلاً، لا أدري لماذا:

- الروس متعودين يشربوا الشاي من طبق الفنجان كده!

فصوبت لي البنت نظرة ثابتة جامدة، وشعرت بأن لسان حالها يقول: "وحياة أمك!"

كانت قصيرة، تصل إلى ما دون كتفيّ، وقمحية تشبه المصريات، وبوجه طويل، وأنف مدبب، وعينين واسعتين مكحلتين بكحل ثقيل، وشعر أسود متموج ومجعد يبدو مغسولاً لتوه ومدهوناً بكريم الشعر المرطب تصل خصلاته إلى نهاية رقبتها، وشفتين مفتوحتين قليلاً وشهوانيتين. كانت ترتدي بنطلوناً قماشياً أسود، وعليه بلوزة بيضاء حريرية بياقة. نظرت إلى اسمها المدون في بطاقة التعريف المعلقة بجوار الأزرار العلوية للبلوزة، وقرأت: "بسمة عمر، إسرائيل".

أشرت إلى بطاقتي المعلقة من ياقة التيشرت، وقلت:

- أنا سامح من مصر.

- بسمة من فلسطين.

- أهلاً وسهلاً يا بسمة حصلنا الشرف.

وصافحنا بعضنا البعض. وتمشينا إلى حيث المخبوزات الطازجة التي كانت رائحتها تكشف لنا عن مكانها دون مجهود في البحث من طرفنا. وسألتها، فقالت إنها في مجموعة تتحدث باللغة الإنجليزية هي أيضاً، مع مجموعة من الإسرائيليات، وتركي واحد. وأخذ كل واحد منا قطعة كرواسون في طبقه. وقلت لها إن مجموعتي هي أيضاً ممن يتحدثون بالإنجليزية، وإنني برفقة مالطي، وفلسطينية، ويونانية، وألمانية، وإنجليزية، وإسرائيلي اسمه أساف أو عساف. ولما ذكرت اسم الولد أمامها، ارتسمت علامات الاشمئزاز الشديد على ملامحها وكادت أن تبصق، فأمسكت نفسي بصعوبة عن الضحك، وسألتها: هل أناديه أساف، أم عساف؟! فقالت لي إن أردت أن تغيظه وتحرق دمه فلا تقل له إلا: يا عساف! فقلت لها وأنا أمثل الجدية:

- خلاص يا بسمة والله ما انا مرجعلك كلمة!

فماتت البنت من الضحك. وعرفت أننا صرنا أصدقاء منذ تلك اللحظة. ورجع كلانا إلى مائدته.

ولما جلست بجوار بي جى، ملت عليه وسألته هامساً إن كانت صحته جيدة وإن كان كل شيء قد سار على ما يرام ليلة أمس بعد أن رجع إلى غرفته، فابتسم الولد المهذب وهز رأسه، وشكرني على اهتمامي. وأخذت كيت تحدثنا عن مرشدنا في الورشة السيد آدم سميث وتقول إنها كانت تتمنى لو كان مرشدنا هو السيد توم جبسون الكومشنج إيديتور في (ستوري فيل) بالقناة

الرابعة للبي بي سي. فسألتها:

- وأية مجموعة سوف يشرف عليها السيد توم جبسون إذاً؟

- تلك التي فيها الإسرائيليين، هناك، أنظر، ما إن يرن هاتف إحداهن، حتى تراهن كلهن وقد انحنين على حقائبهن الضخمة ورحن يفتشن بداخلها، ثم يخرجن موبايل وراء الآخر حتى تعثر إحداهن على الموبايل الذي يرن!

وكنا قد سمعنا بالفعل رنة لأحد الموبايلات هناك، ثم رأينا طاولة عليها أربع فتيات سمينات كلهن يرتدين أسود في أسود، وقد انحنين على حقائب يدهن ورحن يفتشن فيها، حتى ردت أخيراً إحداهن على مكالمة التليفون. علقت:

- ولكننا ما زلنا بعد في السابعة والنصف صباحاً، أعتقد أنه هناك في إسرائيل ستكون عندهم الخامسة والنصف أو شيئاً كهذا، من يتصل بأحد في هذا الوقت المبكر من الصباح بحق الجحيم!

فضحكوا جميعاً، حتى نورا، التي لاحظت أنها قد شعرت بحرج طفيف من تعليقي أنا وكيت. وشككت في شيء ما، فحاولت النظر خلسة إلى اسمها المكتوب في بطاقة التعريف المعلقة على فتحة بلوزتها، فتأكدت من شكوكي؛ كان اسمها: نورا أكرمان.

قررت تغيير الموضوع، فسألت كيت:

- ماذا يعمل إذن السيد آدم سميث؟! أعني ما هي خبراته السابقة في صناعة السينما؟!

- إنه الناشر ورئيس التحرير لنشرة شهرية تصدر في إنجلترا اسمها (تي في يوروب) وتوزع في كل أوروبا وتتناول آخر أخبار القنوات التلفزيونية وشركات إنتاج الأفلام التسجيلية، بها معلومات مهمة في الحقيقة، لكنها لسوء الحظ ليست متاحة للجميع، أعني أنه ليس بإمكانك أن تشتريها من أي مكان، فعليك أن تشترك فيها بالبريد حتى تصل إليك!

- وكم قيمة الاشتراك؟

- 350 يورو في السنة!

- أوف! غالية جداً!

ووافقني بي جي، وهز رأسه أسفاً وامتعاضاً من هذا السعر المبالغ فيه لمجرد نشرة شهرية من عدة صفحات.

قالت نورا:

- الحقيقة أنها تستحق هذا المبلغ، لأن (تي في يوروب) بها معلومات قيمة عن المسؤولين في القنوات التلفزيونية المختلفة في كل أوروبا مع عناوينهم الإلكترونية وأرقام هواتفهم، بالإضافة إلى معلومات أخرى حول المنح المختلفة للمشاريع السينمائية التسجيلية، وهناك أيضاً أخبار ومواعيد المهرجانات الأوروبية

التي يمكن أن تقدم فيها لتحصل على مكان في السوق الخاص بكل مهرجان والذي يحضره عدد كبير من مسؤولي القنوات التلفزيونية، الحقيقة أن شركة (جروب فايف) التي أعمل فيها مشتركة في هذه النشرة وتصلنا بانتظام.

- واو! أنتي تعملين في (جروب فايف)!

صاحت كيت مندهشة وهي تنظر لنورا باحترام وتقدير.

- (جروب فايف) هي شركة ألمانية للسينما التسجيلية، وهي من كبرى الشركات في العالم.

قال بي جى موضحاً لي. وسألت نورا:

- وأين مقرها؟!

- في هامبورج.

ثم سألتها سؤالاً سؤالاً عبيطاً جداً، وكأنها ستفرق معي:

- وأنتِ تقيمين في هامبورج أصلاً، أم انتقلتي إلى هناك نتيجة لالتحاقك بجروب فايف؟

- أنا وعائلتي كلها نقيم في هامبورج منذ زمن طويل.

- رائع جداً!

ولا أدري ما هو الرائع في ذلك، ولكنني قلت ذلك على أية حال! وفي بعض الأحيان تجد العبد لله راجي عفو ربه يسأل أسئلة ساذجة وعبيطة من هذه النوعية، ويتصرف تصرفات ساذجة وعبيطة لا لزوم لها وليس لها أي تفسير، ولو عند حضرتك تفسير يا كوتش تفضل!

ولا يغيب عن بالي أن ألفت نظرك إلى ما لاحظته من أناقة كاملة وشياكة تامة لبي جى وهو يتناول طعامه؛ أنيق في طعامه هذا الولد! بالرغم من أنها كانت مجرد قطعة كرواسون، مثل التي في طبقي، وفنجان من الكابتشينو، مثل الكابتشينو الذي كنت أحتسيه، ولكن مع ذلك سيلفت نظرك ونظر أي شخص يجلس إلى المائدة التي عليها بي جى أن هذا الولد أنيق في طعامه، أنيق في شرابه، بل شديد الأناقة، والحق يقال.

ثم سألت كيت عن شيء كان قد لفت نظري بالأمس، ثم ها هو ذا يلفت نظري الآن من جديد:

- تلك السيدة التي ترتدي الأسود هناك، لقد رأيتها بالأمس مع زملائنا، هل هي مرشدة لمجموعة من المجموعات؟!

كانت سيدة ممتلئة، وبملامح عربية، وتشبه كثيراً السيدات المصريات، بل قل الأمهات المصريات، وترتدي فستاناً أسود أنيقاً، كما كانت بالأمس ترتدي أيضاً ملابس سوداء أنيقة وذات ذوق راق، وكانت ذات شعر كستنائي غزير مشرب بخصلات سوداء ومصفف بعناية وأناقة، ولها عينان حزينتان ساهمتان

شاردتان، وذكرتني فور رؤيتها بالسيدة تحية كاريوكا، والسيدة أم كلثوم، وأمي رحمة الله عليها، وجدتي ألف رحمة ونور على روحها الطيبة، وكل تلك النساء الجميلات العظيمات.

ردت كيت قائلة، وهي تنظر ناحية السيدة:

- لا، إنها أم هالة، زميلتنا الفلسطينية في مجموعتنا، لقد أتت معها.

- من فلسطين!

واستغربت أن تُحضر سينمائية أمها معها وهي مسافرة لحضور ورشة عمل مهنية في فرنسا أو في أي مكان آخر في الدنيا، أقصد أننا لو كنا أطفالاً صغار في المدرسة لظل الأمر غريباً وشاذاً مع ذلك، أعني أن تُحضر تلميذة أمها معها في الفصل وكل تلك الأشياء!

وبدا لي أنني لمحت ابتسامة، أو شبه ابتسامة، أو مشروع ابتسامة، على شفتي نورا، ولا أدري لماذا شعرت بالتحفز والعصبية والاستنفار بسبب ذلك، فسددت لعينيها نظرة تحدٍ.

قالت نورا:

- إنه لأمر غريب أن تحضر أمها معها!

ردت كيت بحماسة مدافعة عن هالة وأمها:

- لقد تحدثنا معاً على العشاء بالأمس، هذه قصة مأساوية! لقد أصيب والد هالة بأزمة قلبية منذ أسبوعين، وحين حاولوا نقله إلى المستشفى، أوقفهم الإسرائيليون على أحد الحواجز، ورفضوا السماح لهم بالمرور، فتوفي الأب على الحاجز، وقالت هالة إنها أصرت أن تأتي بأمها إلى هنا في محاولة لإخراجها من الحالة النفسية الصعبة التي كانت تمر بها عقب تلك المأساة، مساكين!

ولا أستطيع وصف الحرج الذي شعرت به بعد معرفتي بذلك، وقد ظلمت البنت وأمها! حقيقة، لقد نزلت من نظر نفسي! وصوبت نظرتي المتحدية إلى نورا وكأنني أقول لها: ما رأيك يا ست نورا في المأساة التي تسبب فيها الإسرائيليون لهؤلاء الناس الطيبين، مبسوطة؟!

ودققت النظر، لأول مرة، في البنت المتشحة بالسواد التي تجلس بجوار الست الكلثومية الكاريوكية المتشحة بالسواد. فوجدت أن أكثر ما لفت انتباهي في هالة هو عينيها القويتين المتحديتين في وجهها الصغير الأسمر، وأنفها الكبير المسيطر، وشفتيها المقطبة في تحفز وعناد. كانت البنت نحيفة، على عكس أمها، وسريعة الحركة، كما بدا من حركتها على مائدة الطعام، وذات شخصية مسيطرة مهيمنة.

وقام بي جى مستأذناً في الانصراف لتدخين سيجارة بالخارج قبل أن نستقل الحافلة. فاستأذنت أنا أيضاً، وقمت معه، وقد علقت حقيبة الأوراق على كتفي، بينما كان بي جى يحمل حقيبة هاندباج

بنية صغيرة على كتفه. وخرجنا إلى مدخل الفندق، ووقفنا ندخن على الرصيف. ولأول مرة ألاحظ ملابس بي جى، وقد كانت غريبة بعض الشيء! كان يرتدي قميصاً أخضر فاتحاً بنصف كم، ولم يكن هناك ما يلفت النظر في ذلك، ولكنه كان يرتدي بنطلون جينز بلون أحمر وردي! وفردتي حذاء قماشي بلون برتقالي فوسفوري لامع! لم آخذ بالي من هذه الألوان عندما كان يجلس إلى المائدة، ولكنها الآن انكشفت وبانت لما خرجت من تحت غطاء المائدة إلى النور! واستغربت هذه الجرأة اللونية المبالغ فيها من بي جى، وتمنيت أن يكون هذا التهور والنزق مقتصراً فقط على الألوان وأنه لا يمتد إلى أشياء أخرى فكرية أو ذهنية أو قيمية.

وأشاد بي جى بالصنف الذي دخنه البارحة، فشرحت له كل ما أعرفه عن البانجو المصري، وأنواعه، ومزاياه، وعيوبه. ولففت له سيجارة أمبرليف سادة. وقال لي وهو يدخنها إنه من حين لآخر يشتري تبغ درم الأزرق ويدخنه. فقلت له إن درم الأزرق على ما يرام ولا بأس به على الإطلاق.

وفجأة سمعنا صوتاً عالياً بالإنجليزية آتياً من ردهة الفندق، أقل قليلاً من الزعيق والصياح، ولكن ربما كان كذلك لأنه يصلنا من الداخل ونحن واقفان على الرصيف، وربما لو كنا هناك بالداخل لصنفناه في باب الزعيق والصياح. المهم أننا قررنا أنا وبي جى أن ندخل ونرى ماذا يحدث؟! ولما دخلنا وجدنا هالة في ركن لوحدها، وعلى بعد خمس أو ست خطوات هناك تكوين

متعاضد من الفتيات الإسرائيليات السمينات المتشحات بالسواد ومعهن عساف، وكان يبدو واضحاً وضوحاً جلياً أن الفريقين في مواجهة أو عراك ما، أقصد البنت في مواجهة الفريق الإسرائيلي، فلا يمكنك في النهاية أن تعد البنت الوحيدة المسكينة فريقاً لوحدها**!** المهم أنني توجهت بسرعة إلى هالة وسألتها:

- خير يا هالة فيه إيه؟**!**

وربما تكون البنت قد فوجئت بأنني أعرف اسمها، وهي بالتأكيد تعرفني بالشكل، أعني أنها لا بد وأنها قد أخذت بالها مني، فقد سبق وقلت لك مراراً بأنني طويل جداً وعلى النحو الذي يصعب معه ألا يلاحظني أحد. ثم استدركت معرفاً بنفسي، ومشيراً إلى البطاقة المعلقة في ياقة التيشرت للتأكيد:

- أنا سامح من مصر.

- أهلاً وسهلاً سامح**!**

- خير يا هالة فيه إيه؟**!**

- الإسرائيليا بيقولوا على فيلمي بروباجاندا**!**

وأشارت بيدها المفرودة على امتدادها إلى الكتلة الإسرائيلية التي تلاحمت وتداخل أفرادها في بعضهم البعض وهم يتهامسون، بالعبرية طبعاً، أمال يعني بإيه**!**

وغلت الدماء في عروقي، وكبرت في دماغي، وعملت فيها عنتر بن شداد، فصحت بأعلى صوتي وأنا أشير إلى الكتلة الإسرائيلية المتعاضدة:

- اللى يقولك بروباجندا يا هالة قولي له أيوه بروباجندا، عايز إيه؟! ياللا قوم روَّح من هنا! مابقاش ألا كده كمان! ما هما طول عمرهم بيعملوا بروباجندا أربعة وعشرين ساعة في الاربعة وعشرين ساعة، إشمعنا احنا يعني! إللى يقولك بروباجندا قولي ليه أيوه بروباجندا يـ ...

وأمسكت لساني بمعجزة عن قول: يا xx أمك، فقد تنبهت في آخر لحظة إلى أنني أقف في حضرة فتاة قبل كل شيء. ضحكت هالة ضحكة صافية وقد راقت، وقالت:

- والله انتوا يا مصريين...!

- إنتي من حقك تعملي بروباجندا، كل سينمائي من حقه يعمل بروباجندا، إن ما كانش السينمائي اللى تحت الاحتلال يعمل فيلم بروباجندا لصالح قضيته أمال مين اللى يعمل!

وكانت نبرتي الغاضبة قد خفت إلى حد كبير، خصوصاً بعدما انسحبت الكتلة الإسرائيلية التي كانت كلها من الفتيات السمينات المرتديات السواد ومعهن الولد عساف الذي كان يقف بينهم مرتدياً تيشرتاً أبيض. واصطحبت هالة إلى مائدتها، كنوع من الحماية؛ أعني كتأكيد على أنها في حمايتي وأنني أقف إلى

صفها وأن الذي ينوي التعرض لها عليه أولاً أن يعبر من على جثتي. وسلمت على أمها الجميلة قائلاً: حمدلله على السلامة يا طنط. وتمنيت لها إقامة سعيدة في تولوز. ولم تجلس هالة إلى المائدة، لأن خافيير كان قد ظهر بالقرب من مدخل الفندق داعياً الجميع إلى استقلال الحافلة التي وصلت بالخارج. فتناولت هالة حقيبتها السوداء الكبيرة، الأشبه بالهاندباج، وسلمنا على أمها، التي قالت لنا: لا تقلقوا عليّ، سوف أمضي الوقت في الحجرة أتفرج من النافذة. وقتلتني هذه العبارة! حرفياً قتلتني. وتمنيت لو امتلكت الشجاعة الكافية لكي أضرب الورشة بالصرمة القديمة وأجلس مع أم هالة أسليها في الفندق، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يفعله. واتجهنا إلى مدخل الفندق.

ووقفنا أمام الأتوبيس خلف زملائنا الذين كانوا يصعدون تباعاً. ولما لم أكن أحب الزحام، أخرت نفسي قليلاً إلى آخر طابور الصعود، فتخلفت عن هالة، وجاءت وقفتي بجوار شاب طويل نسبياً، ولكنني أطول منه بالطبع، وأصلع في منتصف الرأس، ونحيل، وبعضلات تبدو متينة نتيجة مجهود الحياة والشقاء لا نتيجة ممارسة الرياضة. ولم أحب عينيه من أول وهلة، لأنهما كانتا ملحتين إلحاحاً منفراً وتصران على تعرية من تنظران إليه، وعموماً، شعرت بالنفور منه، فقد كان في عينيه وشفتيه وخديه وكل شيء آخر فيه ما يشعرك بالتباهي والغطرسة والتكبر وكأنه يقول لك: أنت أقل مني شأناً بكثير! نظر إلى النيم تاج بنظرته المتباهية تلك، وقال بصوت حاد كالصفارة:

- سامح! مصري!

نظرت بقرف متعمد إلى بطاقته المعلقة على صدر الفانلة البيج أم كم طويل التي يرتديها.

- رامز!

ثم دققت النظر في لقبه. وشككت في شيء ما، لكن الذاكرة لم تسعفني، فقررت أن أسأله:

- رامز أبو خليل! رامز إنت تعرف حد مصري دكتور في الاقتصاد السياسي اسمه محب ذكي؟!

فكر لبضع ثوان وهو ينظر إليّ بنظرته المتغطرسة، ثم ابتسم، وانفرجت أسارير التكبر قليلاً، بالرغم من أنها لم تختفي تماماً، وقال:

- محب، وي وي، كان في غزة العام الماضي، مو هيك؟!

- أيوه تمام، أنا ومحب أصدقاء على فكرة، وكان حكالي على رحلة غزة، وذكر اسمك على ما أظن، لإني افتكرت أبو خليل لما شفت الاسم، وسينمائي تسجيلي كمان، يبقى أكيد ما فيش منكم اتنين! عن أذنك ثواني!

وتركته واتجهت إلى مدخل الفندق، بلا أي سبب، سوى أن أتخلص منه في الحقيقة، فلم أستلطفه من أول نظرة. وكان محب

قد قال لي إنه في رحلته إلى غزة، والتي كان يُجري فيها بحثاً عن التمويل الدولي الذي يصل إلى السلطات هناك وأين يذهب وأين ينتهي به المطاف وكل ذلك، قد قابل سينمائياً فلسطينياً اسمه شيء ما أبو خليل، وتعرضا للحصار سوياً في بيت شبه مهجور بسبب القصف الإسرائيلي، ولمدة أربعة أيام كاملة لم يستطيعوا الخروج من البيت، ونفد منهم الطعام والسجائر، لدرجة أنهم اضطروا إلى أكل ما في الزبالة، وتدخين أعقاب السجائر التي ألقوها في القمامة!

دخلت إلى الفندق، وخرجت بسرعة، قبل أن يتحرك الأتوبيس، وصعدت آخر واحد. وصوبت نظري بسرعة إلى الكراسي الخلفية، فلمحت بي جى جالساً على الكنبة الأخيرة المستعرضة بعرض الأتوبيس كله، ولكنني استبعدت، بسرعة، الذهاب والجلوس بجواره، لأن رامز أبو خليل كان جالساً هناك هو أيضاً. ويبدو أن كل طويلي القامة قد فضلوا الجلوس في الكنبة الخلفية. ورأيت هالة بجوار كيت في أحد الأركان. وفرناندو بجوار شخص لا أعرفه في مكان آخر. وحتى لا أثير الاستياء من وقوفي طويلاً في مدخل الأتوبيس، قررت الجلوس على أي كرسي والسلام، المهم أن يكون بجوار الممر حتى أستطيع أن أفرد ساقيّ. ووجدت مكاناً شاغراً بجوار أحد الأشخاص في النصف الأول من الأتوبيس، فسلمت بالفرنسية، وجلست. وكان شاباً أبيض ذا قسمات متناسقة، بل ووسيمة والحق يقال، وبشعر أسود كثيف وناعم ومفروق من الوسط، وكان يرتدي قميصاً يبدو أوسع منه بنمرتين على الأقل، لونه سماوي

بخطوط طولية برتقالية وصفراء وبيضاء، فقلت في عقل بالي: لأ، ده تهور بي جى الألواني أرحم بكتير!

أمسكت ببطاقتي وقلت للولد:

- سامح من مصر.

- صراط من الجزائر.

وأقسم أنني لو ظللت سنة كاملة أحاول تفسير الحروف اللاتينية المكتوبة بها اسمه على البطاقة لما عرفت أن اسمه صراط! كان اسمه مكتوباً هكذا: Sorat، أتستطيع سيادتك أن تخمن أنها: صراط!

- أهلاً وسهلاً أهلاً وسهلاً!

وفرحت كثيراً أنه من الجزائر. وقربت وجهي من بطاقته المعلقة على حافة جيب قميصه، وحاولت القراءة:

- صراط، بو... عكاظ؟!

- بو عكاز.

صحح الولد.

- بو عكاز! أهلاً وسهلاً صراط بو عكاز!

الواحد يعرف الصراط المستقيم آه، إنما الصراط أبو عكاز دي جديدة يا كوتش**!** يعني ما ينفعش يمشي فيه إلا المكسحين**!**

ولما كانت العلاقات الشعبية المصرية الجزائرية تشهد توتراً في الآونة الأخيرة، وفي الآونة ما قبل الأخيرة وحياتك، وخصوصاً من أيام مباراة مصر والجزائر في التصفيات المؤهلة لكأس العالم، والتي أقيمت في ستاد القاهرة في 17 نوفمبر 1989، وانتهت بفوز مصر 1- صفر؛ بالهدف الشهير للكابتن حسام حسن، وما أعقبها من أحداث مؤسفة، كانت على قمتها وفي ذروتها اتهام الكابتن لخضر بلومي بفقأ عين طبيب مصري في فندق الإقامة للمنتخب الجزائري، بالرغم من نفي الكابتن لخضر بلومي للتهمة وتأكيده على أن زميلاً آخر له في الفريق الجزائري هو الذي قذف الكأس الزجاجية في وجه الطبيب المصري، وليس هو، وإحجامه عن ذكر اسم ذلك اللاعب المتسبب الحقيقي في تلك المأساة لأنه ليس واشياً وكل ذلك، أقول لما كانت العلاقات المصرية الجزائرية تشهد توتراً متزايداً بمناسبة كل مباراة في كرة القدم بين البلدين، وشوف إزاي حاجة تافهة زي دي ممكن تفسد الأسس الأخوية المتينة بين الشعبين اللذين نسى كلاهما أن مصر والمصريين كانوا في ظهر الشعب الجزائري في كفاحه العظيم لنيل استقلاله عن المستعمر الاستيطاني الفرنسي، لكنها الأنظمة العربية الفاسدة يا رفيق التي تلهي شعوبها في معارك جانبية تستنزف قواهم حتى تصرف نظرهم عن فشلها في التنمية وفي إقامة مؤسسات الدولة الحديثة وكل شيء، وطبعاً ليس هناك أفضل من حمائية كرة القدم لتجييش المشاعر الشعبوية ضد الأخ

والصديق، نهايته، كنت أقول لما كانت العلاقات بين الشعبين في أسفل سافلين بسبب كرة القدم، قررت أن أثبت حسن النية لصراط بو عكاز، ويا له من اسم، ويا لجماله، ويا لقوته، ويا للمفارقة الكامنة فيه، فقلت:

- مصر والجزاير خاوة خاوة، إحنا وانتم خاوة خاوة، إحنا خاوتنكم، وانتم خاوتنا، واحنا الاتنين خاوتين بعض، مصر والجزاير خاوة خاوة، مصر والجزاير لا مِم شوز!

ضحك الولد بطلاقة، وقال بصوت عال:

- خاوة خاوة، ماشي عدّاوة!

ولم أفهم ما دخل أنه ماشي على الدواء في الموضوع! فقلت له:

- لأ سلامتك ألف سلامة، لا بأس عليك!

ثم أسعفتني القريحة بسرعة بعد أن كتبت الكلمات التي قالها صراط على سبورة رأسي: ماشي ع الداوا = ما شيء عداوة = ليس هناك عداوة = لا توجد عداوة.

فلحقت نفسي بسرعة، لأن عينيّ الولد كانتا قد بحلقتا على اتساعهما، ولم أحب أن يحدث أي سوء تفاهم بيننا لأن العلاقات بين الشعبين مش ناقصة سوء تفاهم زي ما انت راسي يا ريس. فقلت:

- آه تمام تمام، ماشي عداوة، وان شاء الله مش ها تحصل أبداً أي عداوة يا صراط، مصر والجزاير خاوة خاوة!

ثم اقترحت عليه أعظم اقتراح عملي لإجهاض أي سوء تفاهم من أساسه، فقلت:

- بص يا صراط، نتكلم فرنساوي أحسن، خدمة ً لينا إحنا الاتنين، مش احسن برضو!

وتحدثنا بالفرنسية لكي نفهم بعضنا البعض. وكان صراط فتى لا بأس به على الإطلاق. وكنت قد قرأت نبذة مختصرة عن مشروعه؛ الذي كان بعنوان: "ماسكارا". وفي حدود معلوماتي، كنت أعرف أن ماسكارا هو نوع من أنواع النبيذ الجزائري الفاخر. وأرجوك ألا تسخر أو تضحك عندما نقول: النبيذ الجزائري، لأنني عندما كنت جاهلاً أنا الآخر وضحكت عندما قالوا لي " النبيذ الجزائري"، كنت من حسن الحظ أن وجدت من يصحح لي معلوماتي المغلوطة، أو إن شئت الحق: اللامعلومات. وزاد من حسن حظي أن ذلك الشخص الكريم كان كريماً بحق، فدعم المعلومات النبيذية الجزائرية بتجربة عملية مذاقية، فأذاقني بعضاً من قنينة ماسكارا كانت لديه.

وأحب أن أؤكد لك يا صديقي بأن النبيذ الجزائري الفاخر هو الأجود والألذ بلا منازع في العالم، وحتى بالنسبة للفرنسيين أنفسهم، وقد كان مرشدي ومصحح معلوماتي فيما يتعلق بالنبيذ الجزائري هو شخص فرنسي. فالنبيذ الجزائري الفاخر هو

الأعلى مكانة في العالم، أعلى حتى من أفخر أنواع النبيذ الفرنسي. ولا تستغرب يا زعيم لأن هذه، كما علمت فيما بعد، كانت مسألة يتفق عليها جميع شاربي النبيذ في جميع أنحاء العالم، وعلى سبيل المثال لا الحصر، كان هو النبيذ المفضل لدى: ألبير كامو، وإديث بياف، وتشارلي تشابلن، وداليدا، وباتريس لومومبا، وتشى جيفارا، وفيدل كاسترو، وجوزيف تيتو، ونلسون مانديلا، وشارل ديجول، وجاك شيراك، وإيف سان لوران، وإلخ إلخ إلخ.

وسألت صراط عن مشروع فيلمه، بعد أن قلت له بإنني مهتم بهذا الموضوع بعد أن قرأت نبذة عن فكرة فيلمه، فقال بإنه يريد أن يركز في الفيلم على تراجع المساحات المزروعة من الكروم، وبالتالي تراجع الإنتاج وتراجع التصدير، بالنسبة للنبيذ الجزائري الفاخر، بعد أن وصل في يوم من الأيام في عهد الرئيس الراحل هواري بومدين إلى تحقيق ما قيمته 12 مليار دولار من التصدير لكل دول العالم، أما اليوم فإن مساحات الكروم تتقلص نتيجة عزوف المزارعين عن العمل في هذا الميدان لاعتبارات دينية.

تأسفت بالطبع لهذا الحال. وسألته عن قوة التيار الديني في الجزائر في الوقت الراهن، وبعد انتهاء العشرية السوداء عندهم، فرد وقال:

- إذا جرت الآن انتخابات حرة ونزيهة فسوف يصل الإسلاميون إلى السلطة!

- هذا هو نفس الحال عندنا أيضاً في مصر، إذا جرت أية

انتخابات نزيهة فسيصل الإخوان المسلمون إلى الحكم!

- هذا هو الحال في كل البلاد العربية للأسف!

- إذن نحمد الله لأنه لا توجد انتخابات حرة ونزيهة في بلادنا العربية!

فمات الولد من الضحك.

وسألته، فقال إن معظم التصوير في الفيلم سوف يجري في الشمال الجزائري، أي منطقة القبائل، لأنه هناك تزرع أجود أنواع الكروم، فالتربة هناك هي الأفضل في العالم، كما أن المناخ هو الأنسب على الإطلاق، ونوعية المياه، وتوقيت هطول الأمطار، وكل تلك الأشياء. قلت له: خسارة، لو انتبهت الجزائر إلى هذا الكنز الذي بين يديها لربما نافست مدخولات السعودية من النفط! ورحت أستعرض أمامه أسماء المشاهير الذين أحفظهم والذين كانوا يشربون النبيذ الجزائري الفاخر ويحبونه، كما استعرضت أسماءهم أمامك من قبل، فاندهش الولد لمعلوماتي الغزيرة، وبانت نظرات الاحترام في عينيه. وقال إن الأمر الآن شبه مقتصر على الطلب الفردي لهذا النوع الفاخر من النبيذ من قبل الأغنياء والمشاهير والملوك والرؤساء في مختلف أنحاء العالم.

وكنت وأنا أتحاور مع صراط بو عكاز، أصوب نظري من حين لآخر إلى نافذة الأتوبيس. ويطيب لي أن أفاجئك بأنني لم

أشاهد أية عمارة زجاجية من أي نوع، ولا بناية واحدة بواجهة زجاجية أو شيء من هذا القبيل! كانت كل البنايات مبنية بالطوب، وحتى تلك الحديثة منها لم يكن فيها أي زجاج على الإطلاق، اللهم باستثناء النوافذ فقط، فانظر إلى الناس الذين عندهم عقل، ويفهمون في التخطيط، والحال العمراني عندهم ليس سداحاً مداحاً!

وبالإضافة إلى المباني وكل تلك الأشياء، لاحظت أيضاً أننا مررنا في النهاية على جسر، وكان يطل على قناة مائية أو فرع من فروع الأنهار أو شيئاً كهذا. وهالني اللون الأخضر الداكن للمياه وكأنها مياه مستنقعات آسنة ومعفنة وكل ذلك، وقلت في نفسي إنه من رابع المستحيلات أن ينزل أي إنسان عاقل إلى هذه المياه ليستحم؛ أي الغول، والعنقاء، والخل الوفي، والنزول في المياه الخضراء لهذه القناة المائية التولوزية!

ووصلنا أخيراً، وبعد حوالي عشر دقائق أو أكثر قليلاً، إلى مقر: سينما يوتوبيا. وكانت تقع في داخل حديقة مشجرة كبيرة جداً، أقرب إلى الغابة منها إلى الحديقة في الحقيقة. وكان المجمع عبارة عن عدة مبان متلاصقة؛ منها المبني بالطوب الوردي، ومنها المبني بالطوب الرمادي. وكانت بعض البنايات مكونة من طابقين، وبعضها من ثلاث طوابق، لكن الأكثرية كانت أشبه بالصناديق الطويلة أو الهناجر المكونة من طابق أرضي واحد فقط. وكان حول مجمع (سينما يوتوبيا) بعض الساحات الواسعة العشبية، وبعض الملاعب الرياضية المسورة بسياج شبكي. وكان

الأفق في كل مكان حول المباني والساحات مليء بالأشجار العالية الكثيف. وقفت الحافلة في ساحة انتظار بها بعض السيارات بالقرب من المدخل الرئيسي لمباني سينما يوتوبيا. ونزلنا من الأتوبيس، وقادنا خافيير إلى داخل أحد الهناجر المكونة من طابق أرضي واحد. واصطفت على ستاندات معدنية في مدخل المبنى تلال من النشرة الأسبوعية المجانية التي تصدرها سينما يوتوبيا، وكان ورقها هو الورق الأرق وزناً الذي رأيته في حياتي على الإطلاق، لكنهم بالطبع كانوا يوفرون في مصاريف الطباعة، وكتر خيرهم، فعندما يتصفح المرء النشرة المكونة من أربعين أو خمسين صفحة، يجدها خالية من الإعلانات، وكانت النشرة عبارة عن مقالات تعرض أحدث الأفلام التي تعرضها قاعات السينما في يوتوبيا، وكانت تلك الأفلام من جميع أنحاء العالم، ومن مختلف الأنواع والتخصصات؛ سينما روائية طويلة، وسينما روائية قصيرة، وسينما روائية متوسطة، وأفلام تسجيلية طويلة، وأفلام تسجيلية قصيرة، وأفلام تسجيلية متوسطة، وأفلام تجريبية طويلة وقصيرة ومتوسطة، وإلخ إلخ إلخ. ولا أذكر إن كنت قد قلت لك هذا من قبل أم لا، ولكن ها أنا ذا أقوله لك الآن: كان النظام في (سينما يوتوبيا) يقوم على أن تتلقى من مختلف أنحاء العالم أي نوع من الأفلام، ثم تقوم لجنة متخصصة من النقاد باختيار الأفلام الجيدة فنياً للعرض، ولا تقف في سبيل ذلك الجودة التقنية للصورة التي يكون المخرج قد صور بها فيلمه، بمعني أن سينما يوتوبيا تستطيع أن تعرض أفلاماً حتى ولو كانت مصورة على في إتش

إس، ما دامت قد اقتنعت بالقيمة الفنية للفيلم، وكان النظام أيضاً أن يستمر عرض الفيلم طالما أن الجمهور ما يزال يقبل عليه ويشاهده، ويرفعون من العرض فقط الأفلام التي ليس عليها طلب، ثم يقسمون في النهاية الأرباح مناصفة ما بين (سينما يوتوبيا) وبين منتج الفيلم.

وأشار خافيير إلى ردهة طويلة على أحد جانبيها عدة أبواب، وعلى كل باب رقم لمجموعة من المجموعات، فاتجهت إلى الباب المكتوب عليه (3)، وهو رقم مجموعتي، وكان من يبدو عليه أنه السيد آدم سميث يقف على عتبة الباب مرحباً وابتسامة على شفتيه، وظل واقفاً يرحب بكل أفراد المجموعة وهم يدخلون إلى القاعة الصغيرة المضيئة المخصصة لنا، وكنت أنا آخر الداخلين، ولما حازيته، قلت وأنا أشير إلى بطاقتي:

- سامح من مصر.

- آدم سميث من إنجلترا.

- طبعاً، السيد آدم سميث مصلحة كل واحد هي الخير للجميع!

فضحك الرجل، وخبطني بحميمية على كتفي. واضح أن السيد آدم سميث قد قرأ للسيد آدم سميث ويعرف ماذا أعني!

وجلسنا على طاولة دائرية من خشب الفورمايكا. ولاحظت

أن الحجرة المكيفة والصغيرة نسبياً والمضاءة إضاءة قوية، كانت بلا نوافذ. وخمنت، بخبرتي في المجال السمعي-البصري، من شكل الجدران أنها معزولة الصوت. وجلست إلى يمين السيد آدم سميث مصلحة كل واحد هي الخير للجميع. وكيت الإنجليزية إلى يميني. ونورا إلى يمينها. وعساف إلى يمينها. وأولجا إلى يمينه. وبي جى إلى يمينها. وهكذا فأنت ترى أن حظي السيء جعلني في مواجهة الزلمة عساف وجهاً لوجه. ولكي أكون صريحاً معك، كنت أكره سحنته منذ أن وقع بصري عليه أول مرة. كان يشبه نباتشية الأفراح ذلك الولد. ونباتشي الأفراح هو الشخص اللزج الذي يدهن رأسه ويغرقه بالفازلين ويمسك بالمايكروفون ويروح يستجدي معازيم الفرح هنا وهناك لكي ينقطوا الراقصة ببعض النقود ويروح يلملمها من على الأرض وكل تلك الأشياء. ورغم أن الولد عساف لم يكن يلبس اليمكا؛ والتي هي الطاقية اليهودية، إلا أنني كنت أراها على رأسه اللعينة! فقد كان من السفرديم، كما خمنت من اسمه اللعين، والسفرديمي لابد وأن يكون من هؤلاء المهاويس المجانين المتطرفين الذين نسمع عنهم، والذين هم أبناء عمومة المتطرفين الإسلاميين الذين هم من القاعدة وكل تلك التنظيمات المتخلفة، فإسرائيل كما تعلم هي الماسورة الأم لكل الصرف الصحي من المهاويس الإرهابيين والمتطرفين دينياً الذين يطفحون في كل مكان في شرقنا الأوسط العزيز.

واقترح مرشدنا أن نخصص لكل مشروع من مشاريعنا السبعة يوماً للمناقشة؛ فيستعرض صاحب المشروع مشروعه، ثم

يعلق عليه الزملاء بالملاحظات التي من شأنها أن تدعم المشروع وتدفعه إلى الأمام. وأمسكت لساني عن سؤال مستر آدم سميث: وحضرتك يعني ها تقعد معانا أباجورة تتفرج علينا؟! إحنا برضو اللى ها نقول الملاحظات لنفسينا، أمال إنت لازمتك إيه هنا؟! وتحسرت على أن هناك بالغرف المجاورة كومشنج إيديتورز حقيقيون يرشدون مجموعاتهم إرشاداً مثمراً لكي يطوروا من مشاريع أفلامهم تطويراً حقيقياً، لا كجلسات دردشات المقاهي التي يقترحها صاحب النشرة الشهرية السينمائية أم 350 يورو!

ونظر إليّ، بما أنني أجلس إلى يمينه، فعملت نفسي من كندا! وإذا سألتني كيف عملت نفسك من كندا، أقول لك إنني صوبت نظري نحو عيني بي جى وحملقت فيهما، وزممت شفتي، وكاد الولد أن ينفجر من الضحك من منظري هذا. وخاطب السيد آدم سميث في النهاية مواطنته التي كانت إلى جواري بصوت متردد وكأنه يخشى الرفض:

- ربما تحبين يا كيت أن تحدثينا عن مشروعك: "راقصو البطن الرجال"!

هزت كيت رأسها بحماسة، وشرعت في فتح أوراقها، وعرض مشروعها. كانت تريد صنع فيلم في تركيا عن الرجال الذين يمتهنون الرقص الشرقي وهز الوسط في البارات والمطاعم والملاهي الليلة في اسطنبول وغيرها من المدن التركية.

قالت كيت إن هذه الظاهرة قد أخذت في الانتشار السريع في

المدن التركية في الآونة الأخيرة، خصوصاً بعد أن وصل إلى الحكم سياسيون لهم توجهات إسلامية من حزب العدالة والتنمية، والذين يحاولون إحياء الدولة العثمانية من جديد. وقالت إن هذه الظاهرة كانت منتشرة في حقبة الدولة العثمانية القديمة حيث كان الرجال هم الذين يرقصون أمام سلاطين الدولة العثمانية، لأن النساء لم يكن مسموح لهن بالرقص. وقالت إنه في ذلك الوقت كانت هناك تجارة رائجة ومربحة جداً في الدولة العثمانية، حيث كانت هناك عصابات تقوم بسرقة الأطفال الصغار، ثم يقومون بتدريبهم على الرقص بطريقة مغرية، ثم يبيعونهم إلى الأثرياء وأصحاب النفوذ، الذين يحتفطون بهم مثل الجواري، من أجل التسلية والمتعة الجنسية، وكان هؤلاء الأطفال الصغار يتم الاعتداء عليهم طوال حياتهم.

أما الآن، كما قالت كيت، فإن الوضع قد تغير، ولم يعد هناك لا عصابات ولا خطف أطفال، بل إن الشبان الأتراك هم أنفسهم الذين يبادرون ويسعون من أجل العمل كراقصين شرقيين، لأنها مهنة صارت تدر دخلاً كبيراً عليهم، وصار الإقبال على مشاهدتهم يزداد يوماً بعد يوم في الكباريهات والبارات والملاهي وكل تلك الأشياء. بل وصار الطلب يزداد عليهم في الحفلات ذات الصبغة العائلية أيضاً؛ مثل حفلات الزواج، وأعياد الميلاد، وحفلات الحنة النسائية، وحفلات الختان، وكل ذلك.

وقالت كيت إن الفيلم سوف يتضمن مقارنة ما بين الماضي والحاضر، وكيف أن الشباب التركي الآن هو من يسعى بنفسه

لتقديم نفسه، بلا خجل، كراقص هز بطن، بل ويفاخرون بكونهم "راقصون شرقيون رجال".

وكنت أمسك نفسي بصعوبة عن الابتسام، حتى لا تزعل كيت، وحتى لا يأخذ عني زملائي فكرة خاطئة بأنني مصري متخلف وكل تلك الأشياء. لكن ما نجحت أنا فيه، فشلت فيه هالة، لأنها لم تكف عن الابتسام، والنظر إليّ والغمز واللمز، وقد بانت إيماءة احتقار رهيبة على جانب شفتيها.

سألتُ كيت، من باب التسالي:

- وهل يرتدون حمالات للصدر؟! أعني بالنسبة للزي؟!

- بعضهم يرتدي، وبعضهم لا، هناك الكثير من أنواع الرقص الشرقي بالنسبة للذكور، وليس نوعاً واحداً.

وشبكتُ ذراعيّ، والتفت بالكامل في مواجهة كيت، وقد هيأت نفسي لسماع معلومات تفصيلية مسلية عن رقص الذكور الأتراك وهزهم لبطونهم ومؤخراتهم.

قالت كيت: هناك من يرتدون بدلات رقص تشبه تماماً بدلات الراقصات بحملات الصدر، وهناك من يرتدي الجزء السفلي فقط من بدلة الرقص ويترك صدره عارياً، وهناك من يرتدون الجلابية وهم يرقصون، وهناك من يرتدون البيكيني في الملاهي الليلية وهؤلاء يكونون في الغالب من عمال الجنس،

وهناك من يحلق شعر جسده في الصدر وباقي أنحاء جسمه، وهناك من يتركون شعر أجسادهم، وهناك من يرقصون مثل النساء بكل الإغراء المميز لهن، وهناك من يرقص برجولة أكثر، وهناك من يشبه رقصهم الرقص الحديث ويميل إلى الاستعراض التعبيري وليس الإغراء.

ولكي أكون صريحاً معك، لم أحب أن أسأل الأسئلة الحقيقية التي كانت تدور في رأسي وقتها، من قبيل:

- وما هي الحدود الفاصلة بين أولئك الراقصين وبين الدعارة؟!

- هل نحن نتحدث عن فيلم عن فن من الفنون يمارسه الرجال؟! أم نحن نتحدث عن فيلم عن حقوق المثليين وكل تلك الأشياء؟!

- هل هذا نوع من خلع اللباس الذي يقوم به الأتراك الآن لكي يرضى عنهم الاتحاد الأوروبي ويقبل انضمامهم إليه؟!

- لماذا يهتم الاتحاد الأوروبي بمنح جائزة لفيلم عن موضوع هامشي مثل رقص الذكور الأتراك وهزهم لمؤخراتهم، بينما هناك عشرات الموضوعات التسجيلية الأخرى الأكثر أهمية بكثير والتي تستحق التمويل، حتى في داخل تركيا نفسها؟! خذ عندك مثلاً عشرات الموضوعات المهمة للغاية التي تتفرع من موضوع حقوق الأرمن المنهوبة التي سرقها الأتراك من أموالهم،

وأملاكهم، ومبانيهم، وكنائسهم، وأراضيهم، وكل شيء، بعد أن قاموا بتهجيرهم وذبح الملايين منهم! ألا يستحق موضوع كهذا عشرات الأفلام التسجيلية، بدلاً من هز مؤخرات الشبان الأتراك!

لكني صمتُ طبعاً، ولم أسأل أي سؤال قد يحرج كيت، متبعاً سياسة النأي بالنفس وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، وما شابه ذلك.

وأخذوا يناقشون الفيلم وجوانبه المختلفة. أما أنا فواصلت سياسة النأي بالنفس. لكن عقلي كان يفكر في أنه في عالم ما بعد الحداثة الأوروبية، أو النيولبرالية الأوروبية، أصبح التركيز كله على موضوعات "الجسد"، وحقوق الجسد، والاختلافات الجندرية والجنسية وكل تلك الأشياء. صار الجسد هو الموضوع في فنون ما بعد الحداثة النيولبرالية، صار هو الدين الجديد. صار البحث عن المتع الخالصة، والحريات الجسدية الصغيرة، هو التعبير الوحيد الممكن عن تحدي المجتمع القديم بأعرافه وتقاليده. المشكلة أن تلك الحالة من التفرغ لتطبيق مبدأ التمتع بلا حدود لا تنتج عنها إلا التفاهة والسطحية والانحطاط.

يقولون لك: ولكن الجسد ومتع الجسد هي الجوهر الحقيقي للإنسان، الطبيعة الحقة للإنسان، والباقي ما هو إلا زيف! حسن، أصغ إليّ، إن هذا الذي يصفونه بالزيف هو الذي أنتج الشعر، والموسيقى، والرسم، والنحت، والعمارة، والمسرح، والأدب، والسينما، وكل الفنون والآداب التي يشعر دعاة حرية الجسد

بالدونية تجاهها، أليس كذلك!

إن دعوة ما بعد الحداثة النيولبرالية إلى إطلاق العنان للجسد والغرائز كموضوع فني للتعبير، ما هي إلا دعوة لإطلاق الطبيعة الأولى للإنسان؛ ألا وهي: الشر، وهذا أمر متفق عليه بين أغلب الفلاسفة المحترمين في تاريخ الفكر الإنساني، فطبيعة الإنسان الأولى هي الشر، وهو دائم الانغماس في الشر، ما لم يجد رادعاً من المجتمع، متمثلاً في القوانين، لكي ترده عن غيه، وتلجم شروره، وتهذب سلوكه، وتجبره على السير في طريق الطبيعة الثانية؛ أي الخير، ومع توالي ممارسة هذه الطبيعة الثانية، أي الخير، ينسى الإنسان، شيئاً فشيئاً، طبيعته الأولى الشريرة، ليبدو في النهاية وكأن الخير هو طبيعته الأولى. يمكنك أن تزعم أن هذه المعلومة الفلسفية عن الطبيعة الأولى والطبيعة الثانية هي معلومة جديدة بالنسبة لك، ولكنها يا رفيق ليست معلومة جديدة على الإطلاق، وسيتفق معي الخبراء في الفلسفة عندما أقول إن هذا هو أقدم شيء في تاريخ البشرية على الإطلاق.

ونخلص من هذا إلى أن فنون ما بعد الحداثة النيولبرالية تطلق الآن الطبيعة الأولى في الإنسان؛ أي الشر، والغرائز البهيمية، والمتع الجنسية، حتى يتناسى طبيعته الثانية؛ أي الخير، والعقلانية، والانضباط، في ظل حريات السداح مداح، الحريات الصغيرة، الحريات التافهة السطحية المنحطة. وخذها مني قاعدة، وكنت قد أخذتها قبلاً عن صديقي عماد فكري: كلما تضخم إحساس المرء بجسده وغرائزه ونصفه السفلي وطبيعته

الحيوانية، كلما نمت طبيعته الأولى مزيداً من النمو؛ أي الشر والفوضى والهمجية.

واستغرقتني تلك الأفكار أثناء مناقشات الزملاء مع كيت. وانتبهت فقط عندما بدأت تتطرق إلى مسائل الإنتاج والتمويل. وذكرت أنها خاطبت عدداً من القنوات التلفزيونية من أجل المشاركة في الإنتاج، وأنها حتى هذه اللحظة، قد حصلت على موافقة مبدئية من قناة في الدنمارك، وقناة أخرى في النمسا.

واقترح السيد آدم سميث على كيت أن ترسل المشروع إلى قناة آرتيه؛ سواء فرع فرنسا أو فرع ألمانيا، وكان اقتراحاً عبيطاً للغاية ولا يحتاج لمرشد لكي يقترحه، لأننا كلنا وبدون أي استثناء كنا نزمع إرسال مشاريعنا إلى قناة آرتيه، كان شيئاً من قبيل الألف باء في مهنتنا هذه! ردت عليه كيت باقتضاب:

- أنا أبحث الآن عن منتج من فرنسا يكون مهتماً لكي يقدم هو بنفسه المشروع إلى آرتيه.

وذكرت لها نورا اسم قناتين في ألمانيا، وقالت لكيت أن تراسل المسؤولين فيهما، لأنهما سيهتمان في الغالب بفيلمها، وقالت لها إنها سوف تعطيها إيميلات هؤلاء المسؤولين. وقالت أولجا لكيت إنها تظن أن المنتج الفرنسي الذي يشاركها في إنتاج أحد أفلامها، قد يكون مهتماً بمشروعها، وقد يساعدها في تقديمه إلى آرتيه، وقالت لها إنها سوف تعطيها كونتاكت الرجل. فانظر بذمتك، ألم يسبق لي أن قلت لك بإن إحساساً قد غمرني بأن الفائدة

الحقيقية في ورشة العمل هذه ستأتي من الرفاق والزملاء المنتجين المستقلين من أمثالي في صورة تعاون مشترك وكل تلك الأشياء، لا من الكومشنج إيديتورز، والمرشدين، وكل هؤلاء الملاعين!

ومضت الساعتان المخصصتان لمناقشة مشروع كيت على هذا النحو، أو على الأقل معظم الساعتين، لأن السيد آدم سميث نظر في ساعته، ثم قال:

- أعتقد أنه حان الآن موعد استراحة المرطبات، هل تحبون أن نخرج أم هناك شيء آخر؟!

وكان مسروعاً ابن القديمة على الاستراحة. وهكذا ترى أننا لم نستفد من مرشدنا في أول يوم ولا حتى بنكلة واحدة، بالرغم من إلغاء النكلة منذ عشرات السنين.

وخرجنا من حجرة الاجتماعات. ووجدنا زملاءنا الآخرين وقد انتهوا هم أيضاً من اجتماعاتهم. وقادتنا البنت الإسبانية الجميلة المتحفظة في ملابسها والتي تشبه فاتن حمامة، إلى مكان يشبه البوفيه المفتوح. كان هناك ترامس شاي، وقهوة، وعصير ما، وزجاجات كثيرة من المياه الفوارة. صببت لنفسي قهوة تشبه النسكافيه. وأخذت زجاجة صغيرة من المياه الفوارة. واقتربت من أولجا، التي جاءت لتصب لنفسها كوباً من القهوة، وهمست أسألها، وأنا أشير برأسي إلى السيد آدم سميث، الذي وقف في الركن بعيداً يتحدث إلى خافيير:

- ما رأيك؟!

- ضعيف!

- ضعيف جداً يا أولجا، في الحقيقة!

وضحكت الست. وقدرت عمر أولجا بأوائل الأربعينيات أو شيء كهذا. كانت طويلة، ونحيفة، بشعر أسود معقود في ضفيرة. وكانت ترتدي بنطلوناً من القماش الأسود، وقميصاً أبيض بكم طويل. كانت تبدو كمديرة تنفيذية لشركة ناشئة أو شيئاً من هذا القبيل. وانبسطتُ أننا توافقنا في الرأي بشأن مهنية السيد آدم سميث وقدراته وإمكانياته. وسحبتني من ذراعي بلطف، فتمشينا معاً وهي تقول:

- أنا بصدد تصوير فيلم في مصر، في سانت كاثرين، كاتدرائية سانت كاثرين، الفيلم من إنتاج آرتيه، سوف نقوم بالتصوير في أكتوبر القادم، هل عندك مانع من أن تكون المنتج المنفذ للفيلم في مصر؟

- هذا يسعدني جداً يا أولجا، سيكون شرفاً لي بأن أعمل معكِ!

- ممتاز، إذن سنتكلم في التفاصيل لاحقاً، وسأقول لك ما نحتاج إليه هناك.

- عظيم، إطمئني فسوف أحرص على أن يجري العمل بكل

هدوء وسلاسة ممكنة، ولكن، يبدو لي أن التصوير في دير سانت كاثرين كان أمراً ممنوعاً، أعني أن الرهبان هناك كانوا يرفضون دائماً التصوير في الدير، هذا في حدود علمي!

- نعم هذا صحيح، هذه أول مرة يسمحون فيها بالتصوير داخل الدير، لقد استغرق الأمر مجهوداً كبيراً واتصالات كثيرة حتى وافقوا، إنهم يريدون أن يرى الناس المكتبة الجديدة التي أنفقوا الكثير على تجديدها، هناك الكثير من المخطوطات والأيقونات النادرة في تلك المكتبة!

- لقد تحمست بالفعل للعمل!

وهكذا، فكما قلت لك، وما زلت أكرر، في مثل تلك المناسبات من ورش العمل والمؤتمرات وكل تلك الأشياء، المهم هو العلاقات التي تعقدها مع الصغار، لا مع الكبار، وهذا أمر يتفق عليه جميع من خاضوا تجارباً من هذا النوع. فها أنا قد حصلت على شغلانة عظيمة كمنتج منفذ لفيلم من إنتاج آرتيه حتة واحدة، وأجر باليورو، وفسحة في سانت كاثرين، وإقامة هناك لمدة أسبوعين على أقل تقدير.

وخرجنا إلى حديقة صغيرة جميلة داخلية تحيط بمباني (سينما يوتوبيا). وكانت هناك بعض الطاولات في الأركان. وكانت السماء صافية ورائعة، والجو عليل ومنعش. واستأذنت أولجا وذهبت لتتحدث مع شخص لا أعرفه. ووقفت وحيداً لبضع ثوان. ثم أتى صراط بو عكاز ووقف معي. ثم عرفني على زميلنا

من المغرب: الحسن اللحية، أو لحسن اللحية كما ينطقونها ويكتبونها هناك في المغرب، أو المغريب إن شئت. وهكذا فأنت ترى أنه لم يكن ثمة مكان للخرائط فيما بيننا، فالجزائري صديق للمغربي، وكلاهما صديق للمصري، وكلنا خاوة خاوة ماشي عداوة.

وكان لحسن اللحية بلا لحية على الإطلاق، ولا حتى بشارب، ولكنها الأسماء يا رفيق، الأسماء! ورحنا نتحدث بالفرنسية حتى يفهم أحدنا الآخر. وكان لحسن اللحية في طول صراط بو عكاز تقريباً، وكان الاثنان أقصر مني وتصل رأساهما لمحاذاة كتفي. وكان الذي يسترعي انتباهك في وجه لحسن اللحية أنه أقرب إلى وجه فتاة مليحة منه إلى وجه ذكر. أعني أن ملامحه كلها كانت دقيقة ومسمسمة وصغيرة، وكان شعره بنياً لامعاً وناعماً. أما أصابعه فأقسم غير حانث أنك لو رأيتها لوحدها لحلفت أنها لبنت انتهت لتوها من عمل الباديكير وكل تلك الأشياء، أعني أنها لم تكن مطلية، ولكن باستثناء ذلك، كانت أصابع أنثوية بامتياز كما يقول أطلس الصور الخاص بهذه الأشياء.

وطلب لحسن اللحية أن أروي له آخر نكتة مصرية، فأخبرتهما بأنه لا يمكنني روايتها بالفرنسية وإلا لفقدت مذاقها، فقالا إنهما يفهمان اللهجة المصرية، فقلت:

- فيه مشروع عندنا في مصر اسمه مشروع توشكى، كان

مبارك بيتفقد المشروع ده، فلقى واحد بيبع فول للعمال، فسأله: إيه الأحوال عندك، هل بتبيع فول كويس؟! قال له البياع: أيوه يا ريس الحمدلله. فقال مبارك: طيب إيه رأيك بقى هاقولك على فكرة تخليك تبيع فول أكتر واكتر وتكسب أكتر واكتر، إنت تعمل فول، وتقطع عليه قوطة، وتبيع الفول بقوطة! فقال له البياع: لا مؤاخذة يا ريس العمال هنا كلهم صعايدة، والصعايدة عندنا بيحبوا الفول السادة ما بيحبوش الفول أبو قوطة! فشخط فيه مبارك وقال له: تسمع الكلام اللى بقولك عليه يا ولد، تعمل فول بقوطة، فاهم ولا لأ! فخاف الراجل منه وقال له: حاضر يا ريس سيادتك تؤمر، خلاص مش هاعمل من هنا ورايح إلا فول بقوطة! وفعلاً الراجل تاني يوم عمل الفول بقوطة، لكن ماحدش رضي يشتري منه، وبعد ما كانت العربية بتاعته عليها طوابير وطوابير من الزباين، بقى هوّه اللى يدور ويلف في الشوارع وينده على الفول ويقول: الفول، الفول ابو قوطة، الفول ابو قوطة فكرة ابن الشرموطة!

ففطست العيال من الضحك. وشرعنا ندخن ونحن واقفون. وانضم إلينا رامز أبو خليل، وفجأة شعرت بقدر كبير من الطاقة السلبية التي تهب من ناحيته. وسأل عن ماذا نضحك؟ فروى له لحسن اللحية النكتة بالفرنسية، التي كان من الواضح أن رامز أبو خليل يتقنها تماماً. وابتسم رامز أبو خليل فقط ولم يضحك. وسب مبارك. وشعرت بالغيظ لما سب رئيس جمهوريتي. أدعي على ولدي وأكره اللى يقول آمين! وسألني عن أحوال محب. فقلت له باقتضاب إنه بخير هناك في لندن في (كلية لندن للاقتصاد) التي

أصبح مدرساً بها كما كان يحلم ويأمل ويخطط منذ زمن طويل. وسألته هل هو من سكان غزة؟ وكنت أعرف من محب أنه ليس من سكان غزة، وإنما من مكان ما في الضفة لم أعد أذكر أين بالتحديد. فقال رامز أبو خليل إنه ليس من سكان غزة وإنما كان في مهمة تصوير للأوضاع المعيشية للسكان هناك لصالح إحدى القنوات الفرنسية. ثم سألت ابن اللئيمة مرة أخرى مين أين هو؟! فقال إنه من رام الله أساساً، ولكنه متزوج من فرنسية ويعيش الآن في باريس. ودققت النظر مرة أخرى في بطاقته التعريفية، ورأيت اسم "فلسطين" عليها. وسألته سؤالاً ليس بالسؤال. فرد مؤكداً وقال: نعم لقد قدمت المشروع باسم فلسطين وليس باسم فرنسا. وسألته عن طبيعة مشروعه وفكرته. فقال باقتضاب وكأنه يشعر بألم في معدته إنه عن الحياة اليومية لثلاثة من عمال اليومية الفلسطينين الذي يذهبون للعمل في تل أبيب في كل صباح ويعودون إلى قراهم الفلسطينية في المساء. وسألني عن مشروعي، فأخبرته. فابتسم ابتسامة لئيمة، وقال ما معناه إنه سيكون من السهل عليّ إيجاد ممولين للفيلم لإن الغرب يحب مثل هذه الأفلام. فلم أرد عليه. وشعرت بلفحة كثيفة من الطاقة السلبية في كلامه وإيماءاته. فقررت لحظتها أن أطلق عليه في يومياتي اسم: برنس الطاقة السلبية!

وكرهت الوقوف أكثر من ذلك مع الولد رامز أبو خليل، بالرغم من أنني أحببت الوقوف مع صراط بو عكاز ولحسن اللحية. فسألت صراط بو عكاز عن مكان الحمام. واستأذنت ومضيت في سبيلي. ودخلت الحمام، وكان بمساحة مربعة واسعة

جداً؛ بأحواض غسيل بيضاء فوقها مرايا، وعدد من الكنف، ولم يكن هناك مباول على الإطلاق. وخمنت أنه حمام مشترك. وصدق توقعي لما رأيت فتاة جميلة سمراء ببنطلون بيج ضيق ومؤخرة ممتازة تدخل أحد الكنف، بينما أنا واقف على أحد أحواض الغسيل أغسل وجهي. وقررت تدخين سيجارة بانجو. فدخلت كنيفاً، بعيداً عن الكنيف الذي دخلته الفتاة. وجلست على القاعدة البلاستيكية النظيفة والجافة للمرحاض الأبيض الخزفي. وأخرجت باكت البانجو من حقيبتي، وشرعت في لف سيجارة. ثم دخنتها على مهلي. ولما انتهيت، قمت وشددت السيفون، فتدفقت المياه في المرحاض. وخرجت من الكنيف. وتأكدت من الشياكة في المرايا، وتأكدت كذلك من نضارة وجهي. وخرجت أبحث عن الزملاء. ورأيت السيد آدم سميث في أحد الأركان، فاتجهت إليه.

- آدم! كنت أود سؤالك إن تصادف أن معك بعض الأعداد القديمة من نشرة (تي في يوروب)؟!

- آه، حسناً، لقد أحضرت معي البعض منها، لكن للأسف في الحقيبة التي ضاعت أثناء الرحلة!

- هل ضاعت حقيبتك أثناء السفر؟!

- ضاعت واحدة، كان معي اثنتان،ولم تصل الحقيبة الثانية حتى الآن.

- ولكن، هل تحدثت مع شركة الطيران؟!

- نعم، قالوا سوف يخبروني عندما يعثروا عليها، على أي حال، سوف أعطيك بعض الأعداد حالما يحضروا الحقيبة!

- أوكي، شكراً جزيلاً.

وأقسم إنه لم يعطني أي شيء حتى هذه اللحظة! بل إنني أشك شكاً يقترب من اليقين أنه كان يكذب، وأنه لم يضيع أي حقيبة ولا أي شيء. هل تصدق مثل هذا الكلام! الوحيد وسط أربعين شخص أو أكثر، وعدد كبير منا قد سافر في ترانزيت، أي انتقلت حقائبه من طائرة لطائرة، ولم يضيع أي منا أية حقيبة ولا شيء، ثم يأتي هو ويقول ضاعت حقيبتي، وصلت واحدة واختفت الأخرى! هل يعقل هذا الكلام! وأخذت انطباعاً سيئاً عن الشخصية الإنجليزية، أو الأكثر دقة أن نقول، ترسخت عندي قناعات سابقة عن الشخصية الإنجليزية، كانت كلها للأسف سلبية!

ووصلت والسيد آدم سميث مصلحة كل واحد هي الخير للجميع إلى قاعة المحاضرات العامة. وكانت المحاضرة قد بدأت بالفعل. وكان هناك شاب لم أره من قبل، واقف على عتبة باب القاعة من الداخل، يعطي لكل منا جهاز استقبال لسماع الترجمة، فأخذته أنا، بينما أحجم السيد آدم سميث عن أخذ الجهاز لأن المحاضرة كانت باللغة الإنجليزية. ووجدتها فرصة لكي أؤخر نفسي قليلاً لأتخلص من صحبة السيد آدم سميث. ثم اتجهت بهدوء وجلست بجوار ليلى في أحد الصفوف الخلفية. لم يكن مع

ليلى جهاز ترجمة، فعرفت أنها تجيد الإنجليزية أيضاً بالإضافة إلى إجادتها للفرنسية وليست في حاجة إلى ترجمة. وإن سألتني لماذا مددت يدك وأخذت من الولد جهاز الترجمة وأنت تجيد الإنجليزية؟! أقول لك: من قبيل اللعب وحب الاستطلاع.

كانت القاعة كبيرة نسبياً، ومقسمة إلى صفوف من الطاولات الطويلة التي يتوسطها ممر صغير نسبياً. وكان أمامنا على الطاولات زجاجات كبيرة من المياه الفوارة التي أحببتها جداً، فهي تشبه كثيراً الصودا، ولكن بلا طعم ولا لون ولا رائحة ولا سعرات حرارية. ووضعت السماعات على أذنيّ، ورحت أقارن بين الترجمة الفرنسية ودقتها مع الأصل الإنجليزي. كانت ترجمة بصوت رجالي لا بأس بها. ثم غيرت قناة الصوت إلى الصوت الأصلي، وأخذت أقارن بين درجة التزامن، فوجدت أنني لا أستطيع أن أجد فرقاً ملموساً بين وصول الصوت الطبيعي إليّ، وبين صوت الست عبر السماعات. ثم وضعت السماعات جانباً في النهاية، لأن ليلى كانت لا تستطيع منع نفسها من الضحك مما أفعل، وبدأ الناس ينظرون ناحيتنا.

كانت الست التي تلقي المحاضرة ألمانية، وكانت تعمل مسؤولة كبيرة ومهمة في إحدى شركات التسويق السينمائي. وهي، كما فهمت، شركات موجودة في أوروبا، تكون مهمتها أن تأخذ منك مشروع الفيلم على الورق، ثم تسعى بعلاقات موظفيها لكي تحصل لك على التمويل اللازم للفيلم، مقابل حصة بالطبع من التورتة، حصة كبيرة في الواقع، تفوق الثلاثين بالمئة من

إجمالي العائدات. كانت الست الخبيرة اسمها كورينا.

قالت كورينا إن كلاً منا يجب أن يحدد عشر قنوات تلفزيونية مستهدفة، وأن نبدأ في مراسلتها، وإعلامها بمشروع فيلمنا، على أمل أن نتلقى من بعضهم رداً بأنهم مهتمون بهذا المشروع، كخطوة أولى قبل أي شيء آخر. وقالت لنا أن نحذر من إرسال الكثير من المعلومات عن موضوع الفيلم في البداية، لأن بعض الكومشنج إيديتورز في تلك القنوات قد يرفضون مشروعنا، وفي نفس الوقت يأخذون فكرتنا وينتجوها بأنفسهم. لم تقل كورينا بإنهم لصوص حرفياً، ولكن هذا ما فهمناه جميعاً من سياق كلامها. ونصحتنا بأن لا تزيد النبذة المختصرة التي نشرح فيها فكرة فيلمنا في المراسلات الأولى عن 150 إلى 200 كلمة على الأكثر. قالت حرفياً:

- لِس إز بتر!

أي كلما كانت المعلومات أقل كلما كان أفضل. على الأقل في هذه المرحلة الأولية، وإلى حين أن يبدي بعضهم الموافقة على الدخول في تمويل الفيلم. وحينئذ علينا أن نكون مرنين بأقصى ما يمكن للمرونة أن تكون. هذا ما قالته كورينا. قالت إنه لا ينبغي لنا أن نتزمت ونصر على الفكرة الرئيسية التي في رؤوسنا، إن حدث وطلبت منا قناة من القنوات التي وافقت على تمويل الفيلم بعض التعديلات أو التغييرات، فكل قناة من تلك القنوات لديها أجندتها الخاصة في الإنتاج، ومعاييرها الخاصة في

الموضوعات، وعلينا نحن أن نوفق أوضاعنا من أجل أن تتوافق مع رغبات الكومشنج إيديتور الخاص بالقناة. هذا ما قالته السيدة كورينا. أما ما لم تقله الست كورينا، فهو أن الأمر يتلخص في أن القنوات هي التي تملك حذاء سندريللا الزجاجي، وعلينا نحن أن نوفق أقدامنا حتى تدخل فيه، ويا ترى يا هل ترى من الذي سوف تناسب قدمه الحذاء الزجاجي السندريللي لقنوات التلفزيون الأوروبية؟!

وأخذت تعطينا فكرة مفصلة عن كيفية كتابة المراسلات الأولى عبر الإيميل. والمدة الزمنية التي علينا أن نتوقع الرد خلالها. وماذا نفعل إن لم ترد علينا قناة من القنوات؟ وكل تلك الأشياء الفنية التي لن أصدع رأسك بها. المهم في كل ذلك، أن الست كورينا، أكثر الله من أمثالها، قالت لنا إنها سوف توزع على كل منا سي دي يتضمن كل أسماء القنوات المهمة في أوروبا، مع أسماء الكومشنج إيديتورز الذين يعملون في كل قناة منها، مع العناوين وأرقام الهواتف وكل شيء. كان هذا كنزاً بحق! ولو لم يخرج المرء من هذه الورشة إلا بهذا السي دي، لكان في ذلك الكفاية ويزيد. وراحت توزع علينا السي دي فعلاً، ولم تقل مثلاً إنها أحضرت سي ديهات ولكن الحقيبة التي فيها السي ديهات ضاعت في المطار أو شيئاً من هذا القبيل. وأخذت فكرة ممتازة عن العنصر الألماني، أو الأكثر دقة أن أقول، ترسخت عندي قناعات سابقة عن الشخصية الألمانية، كانت كلها لحسن الحظ إيجابية!

ولما وصلت الست كورينا إلى حيث كنا نجلس في مؤخرة الصفوف، لاحظت أنها بدينة أكثر مما كانت تبدو وهي بعيدة هناك. كانت ترتدي تاييراً وردياً من قطعتين، وكان بيضاوية الوجه، بشعر بني قصير وكثيف، وأعطيتها من اثنين وأربعين إلى خمسة وأربعين عاماً، ولفت نظري الأرداف العريضة للغاية للسيدة كورينا، لم تكن أردافاً مصرية، بل أرداف سيدة خليجية تربت على النعيم إن كنت تفهم ما أعني. وبالطبع شكرنا السيدة كورينا شكراً جزيلاً، والتي قالت وهي تضحك إن علينا أن نشكر مساعدتها في الشركة لأنها هي التي سهرت ليلة بطولها لكي تعد لنا هذه المعلومات المهمة في وثيقة واحدة. وهكذا ترسخت عندي مزيداً من الترسخ قناعات كلها إيجابية وممتازة بخصوص الشخصية الألمانية على وجه العموم.

هل كانت حركة السي دي تلك، المتخم بالمعلومات الخطيرة عن كل الكومشنج إيديتورز على سطح كوكب الأرض، مجرد دعاية لشركة التسويق الفيلمي الذي تعمل بها كورينا؟! أم كانت نفحة من نفحات الجود الألمانية؟! وفكرت بيني وبين نفسي أنها ربما كانت حركة من حركات السخرية العميقة التي لا تصدر إلا عن حس دعابة من النوع الراقي: هلى تعتقدون حقاً أن الأمر بهذه السهولة أيها السذج! طيب، خذوا هذه هي كل المعلومات الممكنة يا أولاد ويا فتيات، وأروني شطارتكم، ومن منكم الغضنفر الذي سينجح في الحصول على تمويل من قناة تلفزيونية بدون مساعدة من شركتنا أو من أية شركة تسويق أفلام أخرى! ولكي أكون صريحاً معك يا رفيق، كانت تجربتي مع الواسطة

والمحسوبية الأوروبية لا تزال ماثلة أمام عينيّ.

وبعد أن انتهت المحاضرة العامة، وبدأ الزملاء في الانصراف من القاعة، لاحظت أن ليلى تهمس لزميلتنا الإيطالية مانويلا التي كانت تجلس إلى جوارها، وكان يبدو عليها التعب والإرهاق، حتى أنها صلبت ساعديها على الطاولة أمامها ووضعت رأسها عليهما. كانت مانويلا ترتدي فستاناً بنياً جميلاً مليئاً بالدوائر الحمراء الصغيرة. ومانويلا، لعلمك، طويلة نسبياً، ونحيفة، ولها شعر بني مفروق من منتصف الرأس وينسدل بحرية على كتفيها، وكانت لها تلك العينان الحنونتان اللتان تشعرانك بأنها كائن هش جداً وتحتاج إلى حمايتك وكل شيء.

استفسرت من ليلى بصوت هامس، فقالت إن مانويلا لم تدخن الحشيش منذ يومين بسبب السفر وكل ذلك. واجتاحتني السعادة الغامرة، لأنني كنت أملك كنزاً في هذه الظروف، واستحسنت تفكيري وذكائي لأني قررت إحضار ذلك الكنز معي إلى هنا. فهمست لليلى وأنا أبتسم وقلت لها أن تخبر مانويلا بأن معي ماريوانا مصرية. فهمست ليلى لمانويلا بالأخبار السعيدة. فصحصحت البنت المسكينة فجأة ونصبت ظهرها وبحلقت فيّ وكأنها تستكثر على نفسها هذه الأخبار المفرحة. وسألتُ ليلى أن تنضم إلينا، فاعتذرت بأنها لا تدخن المخدرات، فأخذت مانويلا إلى الحمام.

ما حدث بعد ذلك بيني وبين مانويلا في الحمام ليس جزءًا

من هذه القصة، وأنا أفضل أن نتوقف عن هذا الحد وأن ننتقل مباشرة إلى ما حدث عقب ذلك بنصف ساعة أو أقل قليلاً. فقد أسرعنا إلى الحديقة بعد أن شعرنا بأننا تأخرنا عن موعد الغداء. وكانوا قد ضموا كل الموائد إلى بعضها البعض في صف واحد، وفرشوا عليها مفارش بيضاء، فصارت مائدة واحدة بطول الحديقة كلها، ورصوا عدداً كافياً من المقاعد المتقابلة على جانبيها، ووجدت مكانين متجاورين لي ولمانويلا، بجوار بسمة الفلسطينية التي هي من عرب الداخل، والتي تحب أن ُتعرِّف نفسها بأنها فلسطينية، لا إسرائيلية.

وأتاح لي الجلوس على هذه المائدة الطويلة، وفي ضوء النهار، أن أرى بوضوح كل الزميلات والزملاء. ورأيت بعض الشباب الذين لم أتعرف عليهم بعد. كان هناك: بي جى، ونورا، وكيت، وهالة، وأولجا، والسيد آدم سميث، وخافيير، وفرناندو الذي لم تحضر معه صديقته التي رافقته إلى تولوز على حسابها، وتركها في الفندق، مثلما تركت هالة أمها التي رافقتها إلى تولوز على حسابها، في الفندق. وبالإضافة إلى باقي الزميلات والزملاء الذين لم نتعارف سوياً، كان ما لفت نظري هو توأم آسيوي كانتا تتحدثان الفرنسية بطلاقة كأهلها، فسألت مانويلا هامساً إن كانت تعرفهما، فقالت إنهما منتجتان فرنسيتان من أصول فلبينية تعيشان هنا في مدينة تولوز: دزو، وماري.

وأتوا لنا بأطباق الطعام. وكان الطبق الرئيسي من لحم البط بصوص كريمي لذيذ جداً، إلى جانب حساء من المشروم،

وسلطات متنوعة، وشرائح من الخبز اللذيذ. ولكن الأهم هو دوارق النبيذ الأحمر الكثيرة التي وضعوها أمام كل منا على المائدة، حتى أنني ابتكرت اسماً لهذا النوع من المآدب، فأسميته: "الغداء السائل"، أعني أن المرء فيه يشرب أكثر مما يأكل وكل ذلك. وكان البط لذيذاً والحق يقال. وراحت المجموعة إسرائيلية المكونة من النساء القصيرات البدينات المرتديات أسود في أسود واللاتي كن يجلسن متجاورات، بل وملتصقات في بعضهن البعض، يتهامسن كلما وضع الندل أي طبق أمامهن. وفهمت بالحداقة أنهن يتساءلن فيما بينهن ما إذا كان طبق الطعام الجديد "كوشر" أم لا؟! والكوشر اليهودي هو الطعام الحلال عند المسلمين وأشياء من هذا القبيل، فالمتدينون من اليهود يحرمون الجمع بين الألبان واللحوم في طعام واحد، وإن شربت حليباً، على سبيل المثال، فعليك أن تنتظر ست أو سبع ساعات أو شيئاً من هذا القبيل قبل أن تأكل لحماً، حقاً، دون مزاح، هم يفعلون ذلك يا رفيق! بالإضافة إلى أنه مُحرم عندهم أكل البهائم التي حوافرها غير مشقوقة وكل تلك البلاهات، ويدخل في قائمة التحريم أيضاً، وبحسب الشريعة التوراتية، أكل كل من: الخنزير، والأرنب، والحصان، والكابوريا، والجمبري، وسرطان البحر، والمحار، والأخطبوط، وسمك الثعابين، والبومة، وأبو قردان، وإلخ إلخ إلخ. ويجب طبعاً ذبح الحيوان بحسب الشريعة التوراتية وكل شيء، ثم طهيها في قدور وأواني مخصوصة يتم تطهيرها أولاً بطريقة خاصة معقدة وصعبة ومجهدة جداً، وكله بحسب الشريعة التوراتية، وهذا هو كل ما سأقوله لك في شأن الكوشر

وكل تلك الترهات.

لمحتني بسمة وأنا أتابع ما تفعله الإسرائيليات هناك. ذكية هذه البنت، حقيقة! فقالت لي إنهن معجبات بي. تفاجئت والحق يقال! واستوضحتها الأمر وأنا لا أصدق أذنيّ، كنت أظنها تمزح. لكنها أكدت المعلومة وقالت إن الإسرائيليات يعتقدن إنني أشبه محمود ياسين! وقالت إن الإسرائيليات، عموماً، يعشقن شيء اسمه محمود ياسين، وإنهن ينتظرن بفارغ الصبر من الجمعة إلى الجمعة حتى يذيع التليفزيون الإسرائيلي فيلماً مصرياً على أمل أن يكون لمحمود ياسين، وإن الرسائل ومكالمات التليفون تنهال على التليفزيون الإسرائيلي من المشاهدات الإسرائيليات المتحمسات لمحمود ياسين تطالب إدارة التلفزيون بإذاعة أفلام لمحمود ياسين، محمود ياسين بحق الجحيم! حقاً، دون مزاح، هذا ما قالته البنت، وهي أدرى بالطبع بهذه الأشياء.

قلت لها إنني للأسف لا أحب البدينات، ولا أحب النساء في هذا السن. وقلت لبسمة إنها إن أحبت أن تخدمهن فلتدلهن على بى جى هناك، لأنه من عشاق الكبيرات في السن والحفريات الأثرية وأمثال تلك الأشياء، ففطست البنت من الضحك. وسألت بسمة عن الفتاة التي تجلس إلى جوارهن، لأنها لفتت نظري بعينيها الشرقيتين الواسعتين، ووجهها المليح، وبشرتها الخمرية، وصدرها الوافر، أعني أنها كانت الصدر الأعظم بين كل الزميلات، بالرغم من أنني لا أحب الصدور الكبيرة على الإطلاق بحق الجحيم. فقالت إنها شوشانا، منتجة أفلام تسجيلية

وممثلة، وهي زوجة المخرج الإسرائيلي المعروف آلون ناتيف. فقلت إنني سمعت عنه ولكنني لم أشاهد أياً من أفلامه. وسألت بسمة عن فيلمها، فقالت إنه عن التمييز الذي تتعرض له النساء من عرب الداخل؛ فهن يتعرضن لنوعين من التمييز، واحد بوصفهن نساء، والآخر بوصفهن عربيات، أي تمييز بروحين. قلت معلقاً إن البنت الفلسطينية من عرب 48 يمكن أن تتعرض لتمييز بثلاث أرواح. سألت: كيف؟! قلت: إن كانت سوداء! فوضعت البنت يدها بسرعة على فمها حتى لا يتناثر الطعام من الضحك. وبعد أن هدأت نوبة الضحك، قالت:

- فلسطينية وسودا!

وراحت تضحك من جديد، وشرقت، فبلعت ريقها بشربة من النبيذ الأحمر. ولاحظت أن بسمة وهي تتحدث عن مشروعها لا تقول: إسرائيل، ولا تقول كذلك: فلسطين، بل تقول: "البلاد". وأعجبني التعبير. وسألتها إن كانت قد قابلت إسرائيليين من أصل مصري، فقالت إنها رأت بعضهم. وسألتها عن مهنهم، فقالت إنهم في الغالب مدرسون، أو أطباء، أو صحفيون، أو أصحاب دكاكين صغيرة. سألتها إن كانت قد صادفت مستوطناً إسرائيلياً من أصل مصري؟! فنفت قائلة إنها لم يسبق لها قط أن رأت ولا سمعت عن مستوطن من أصول مصرية. فشعرت بالارتياح.

وأخبرتني بسمة بأنها درست السينما في أحد معاهد السينما بإسرائيل. وقالت إنها تعمل الآن كمعلمة للسينما بمدرسة إعدادية.

واندهشت، وسألتها: وهل عندكم في المدارس الإعدادية في إسرائيل مادة للسينما؟! فقالت: أجل، وعندنا أيضاً مادة للمسرح. فتحسرت على حال التعليم في مصر وفي باقي بلادنا العربية الحبيبة. وقالت بسمة إنه بسبب إدخال مادة السينما التسجيلية في مدارس إسرائيل، فإنهم يحصلون الآن على أهم الجوائز في مهرجانات السينما التسجيلية العالمية. وزادني ذلك مزيداً من الحسرة على حال السينما التسجيلية في مصر وفي بلادنا العربية.

ولاحظت أن بسمة تطيل النظر إلى بي جى هناك وهو يتناول طعامه. وكان الولد أنيقاً في طعامه أشد الأناقة، والحق يقال، بل أكثر الحاضرين أناقة في طعامه. كانت لديه تلك المهارة في تقطيع أي شيء بالسكين والشوكة بمنتهى السلاسة وكأنهما امتداد ليديه وكل ذلك. أعني أنه قادر على تقطيع حمامة بالشوكة والسكين بأفضل مما لو أمسكها بأصابعها وفصصها ومصمصها حتى العظام. أقول لك هذا بالرغم من أنني أعلم أنه من الإتيكيت تناول الحمام باليد، لا بالشوكة والسكين، وربما تكون على دراية بذلك، وربما لا تكون، ولكنه يقال إن لهذا الموضوع أصل وحكاية، تتلخص في أن ملكة إنجلترا كانت قد دعت عدداً كبيراً من السفراء والشخصيات العامة الدولية إلى مأدبة لمناسبة ما، لم أعد أذكر ما هي الآن، وكان الطبق الرئيسي الذي أعده طباخو القصر الملكي هو الحمام، مشوياً أم محمراً ليس هذا هو بيت القصيد، بيت القصيد هو أن الملكة لما رأت أن بعض المعزومين مرتبكون في مسألة تقطيع الحمام بالشوكة والسكين، وهي مسألة صعبة لعلمك يا برنس، وقد يكون من ارتبك هو شخص من

أفريقيا أو آسيا أو من الدول العربية أو من أي مكان آخر لعين في العالم الثالث، المهم، أن ملكة إنجلترا لما رأت هذا الارتباك والتخبط والعرق السائل على جباه المعازيم، قررت لحسن أدبها وكياستها أن ترفع الحرج عن الناس، فوضعت شوكتها وسكينها على جانب، وأمسكت بالحمامة وراحت تفصصها بأصابعها الملكية وتأكل، وطبعاً، وهذه مسألة بديهية يا ريس، عندما تأخذ ملكة إنجلترا في أكل شيء ما بيديها، فمن العيب أن يأكله الآخرون بالشوكة والسكين! ولذلك وضع الجميع الشوكات والسكينات على جنب، وراحوا يقلدون ملكة إنجلترا ويفصصون الحمام بأيديهم ويلتهمونه، وصار منذ ذلك الوقت هذا هو الإتيكيت في كيفية أكل الحمام اللعين، أوكى، كابيش!

وقلت في نفسي إن بي جى قد يعمل لبسمة استثناءً من موضوع الكبيرات في السن والحفريات الأثرية وكل ذلك، فقلت لها كل ما أعرفه من معلومات عن بي جى، علها تساعدها في مساعيها الحميدة. في الحقيقة، كان الولد أقرب إلى محمود ياسين مني أنا شخصياً، أقرب كثيراً والحق يقال.

وفرغت من الأكل، بعد أن أفرغت دورقي نبيذ في جوفي. كان الندل ما إن يروا دورقاً قد فرغ، يسرعون إلى استبداله بآخر ممتلئ عن آخره. وأظن أنهم كانوا يستمتعون بذلك، أعني الندل. وقد أحببت كثيراً "الغداء السائل" في هذا المكان. أعني أن النبيذ لم يكن من النوع الفاخر أو المعتق لسنين طويلة أو شيئاً كهذا، بل كان مما يُطلق عليه: "نبيذ كل يوم"، أو "نبيذا المائدة" إن شئت،

وهو النبيذ الذي يستعمله الناس في فرنسا وفي باقي الدول الأوروبية المتحضرة على موائد الغداء والعشاء، كما نستعمل نحن المخلل أو الطرشي أو المقبلات والأشياء المشابهة في ثقافتنا المطبخية العربية، لكنه مع ذلك كان لذيذاً ذلك النبيذ، ومنعشاً، وكان الأهم هو الكميات الضخمة المجانية المتاحة منه لكي تشرب وترتوي براحتك، وربما، وأقول ربما فلست متأكداً تماماً، لو أتيح شرب النبيذ والبيرة وغيرها من المشروبات الكحولية، وبأسعار رخيصة، وأقول وأكرر: وبأسعار رخيصة، على موائدنا الغدائية والعشائية في مصرنا وبلادنا العربية الحبيبة، لقل استخدامنا للبانجو والحشيش والقات وكل تلك القاذورات التي لا تليق إلا بأدمغة البوابين.

ولما فرغنا، شرع الندل في رفع الأطباق والأكواب وكل شيء. ووقف بعضنا في أركان الحديقة للتدخين. ولم تكن بسمة تدخن. وانضم إلينا بي جى، ولاحظت أن بسمة قد فرحت كثيراً لذلك. وجاء صراط بو عكاز، وكذلك لحسن اللحية. ووقفنا ندخن جميعاً، إلا بسمة. ورأيت عساف يقف مع البنات الإسرائيليات ونورا، وكان الحمار يُسلك أسنانه بخلة أسنان، وجميعنا طبعاً يعرف أن خلة الأسنان لا تستخدم لا على مائدة الطعام ولا حولها، بل في الحمام فقط. وكانت أمامنا ساعتان حتى موعد العودة إلى الفندق، ولم يكن هناك أي خيار متاح إلا مشاهدة فيلم من إنتاج وإخراج رامز أبو خليل، كان هو الفيلم الذي انتهى من صنعه من عدة أشهر، وشارك به في بعض المهرجانات الدولية، وحاز على بعض الجوائز القيمة. وفوجئت لما علمت من بسمة

إن المركز القومي للسينما في إسرائيل قد شارك في تمويل الفيلم. قالت بسمة إن رامز أبو خليل يعمل دائماً مع طواقم عمل من السينمائيين الإسرائيليين؛ منتجين، ومصورين، ومسجلي صوت، ومونتيرين، وكل شيء. واسترحت لحسن توقعي وحدسي وفراستي لأنني لم أسترح إلى الزلمة منذ أول وهلة.

ودخلنا بعد برهة إلى إحدى قاعات (سينما يوتوبيا) التي خصصوها لعرض بعض أفلام الزملاء التي تم إنجازها. وكان فيلم رامز أبو خليل بعنوان: الرحلة، أو الزيارة، أو الجولة، أو شيء كهذا إن ترجمته من الفرنسية إلى العربية. وكان عبارة عن مجموعة من الشبان الفلسطينيين من الضفة الغربية، الذين رتب لهم رامز أبو خليل رحلة إلى تل أبيب لأول مرة في حياتهم، ثم ترى هذا الانبهار بالحضارة التل أبيبية وبالبنايات وبالنظافة وبالنظام وبالأشياء التي من هذا القبيل، ثم يفاجئك هذا الانبطاح الشبابي الفلسطيني أمام الكيان الصهيوني المحتل وكل ذلك، كان شيئاً مقززاً في الحقيقة! وفهمت لماذا يمول المركز القومي للسينما في إسرائيل أفلام رامز أبو خليل، ولماذا تحصل أفلام رامز أبو خليل على جوائز قيمة في مهرجانات السينما العالمية، ثم يحسب نفسه فلسطينياً بعد كل ذلك، ويحسب نفسه على القضية، تفوه! أعني أنه كانت هناك شخصية في الفيلم من الشباب الفلسطينيين، وبعد أن قاموا بالجولة في تل أبيب وشاهدوا كل شيء جميل هناك في المدينة بما في ذلك البارات والكباريهات والفتيات والمومسات وكل شيء، تقول هذه الشخصية لزملائها ما معناه:

- إن هذه الأرض جميلة جداً، وربما نكون نحن الفلسطينيون لا نستحقها، ولذلك نزعها الله من بين أيدينا!

أقسم لك إنه قال ذلك، أنا لا أمزح!

وكدت أبصق لما سمعت هذا. ونهضت بسرعة في الظلام، وخرجت من قاعة العرض. وكدت أصطدم بشوشانا. كان آتية من الاتجاه المضاد بملابسها السوداء وكل شيء. ووقفت أبحلق رغماً عني في ثدييها الكبيرين. فراحت تهزهما يميناً ويساراً كراقصة أفراح مصرية من الدرجة العاشرة. واندهشتُ من الجرأة التي تصل إلى حد الوقاحة. فعملت نفسي أنظر في بطاقة تعريفها المعلقة في ياقة قميصها الأسود.

- شوشانا! أنا سامح من مصر.

وأمسكت ببطاقة تعريفي وحاولت تقريبها من عينيها. فبان عليها الخجل، وقد ظننت أنها أساءت الظن وأنني لم أكن أبحلق في صدرها بل في بطاقتها التعريفية، وقالت بالإنجليزية:

- أهلاً سامح، هل شاهدت فيلم رامز؟!

- لا، لم أستطع أن أكمله، أنا أشعر بالملل سريعاً من الأفلام!

- تشعر بالملل من الأفلام وأنت صانع سينما!

- نعم، أليس الأمر مضحكاً!

وضحكنا سوياً. وتمنيت أن أنام معها، بالرغم من أنني لا أحب على الإطلاق تلك الأجساد ذات الصدور الكبيرة وكل شيء، ولكن فكرة أن تنكح إسرائيلية حتى تفشخها كانت فكرة مغرية جداً بحق الجحيم! أرجو أن لا تأخذ عني فكرة بأنني عنصري، أو معاد للسامية، أو متطرف، أو إرهابي، وأمثال هذه الأشياء، ففي الحقيقة كنت أحب شخصيات كثيرة جداً من اليهود ويحظون باحترامي البالغ، ولكن الأمر كان يتعلق بكراهية إسرائيل والإسرائيليين كسلطة احتلال استيطاني عنصري، لا أكثر ولا أقل. بل حتى في داخل إسرائيل نفسها يمكنك أن تجد أناساً محترمين للغاية وفي غاية الإنسانية. خذ عندك مثلاً الشخصيات العظيمة المؤيدة للحقوق الفلسطينية من أمثال: جدعون ليفي، ويوري آفنيري، والحاخام موشيه هيرش، والحاخام ديفيد يسرائيل، وحركة ناطوري كارتا، ومنظمة بتسليم، ومنظمة جوش شالوم، ومنظمة يش دين، وتحالف النساء من أجل السلام، ومنظمة لا للحواجز، ومركز هموكيد، وحركة السلام الآن، ومؤسسة جيشاه، والكثير من المحامين والنشطاء الإسرائيليين الذين يدافعون عن حقوق الفلسطينيين في الأراضي المحتلة.

وهكذا فأنت تعرف الآن أن العبد لله راجي عفو ربه ليس ممن يكرهون اليهود لكونهم يهوداً وكل تلك البلاهات، ولكننا نكره الاحتلال والظلم والاستيطان والسلب والنهب الذي يقوم به الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي في فلسطين المحتلة، أو "البلاد" كما تطلق عليها بسمة. وربما خطر في ذهنك الآن أن تسألني، من باب الإحراج، عن رأيي في كيفية حل القضية

الفلسطينية، أو الصراع العربي-الإسرائيلي وكل شيء. وها أنا ذا أقول لك إن الحل الذي قال به الشيوعيون العرب واليهود منذ العام 1947 أو حتى ما قبل ذلك، هو الحل الوحيد المنطقي في رأيي. أعني حل الدولة الواحدة ثنائية القومية. دولة واحدة ديمقراطية حديثة، يتعايش فيها كلا الطرفين وكل شيء. هذا هو الحل الوحيد الممكن للصراع، والذي رفضه الطرفان آنذاك وشتموا الشيوعيين ونعتوهم بالخونة وكل شيء. ولن يتحقق سلام حقيقي في هذه المنطقة إلى أن يقبل الطرفان هذا الحل، ويؤمنان أنه لا حل إلا إياه. مرة كنا نتناقش في معضلة الشرق الأوسط، وقال محب ذكي إن الذي يقف في طريق السلام بين الطرفين هو المسائل الدينية، وإنه إن خرج الدين من المسألة فإن كل شيء سيحل بسهولة، فسألته: وكيف ُنخرج الدين من المسألة؟! فقال إنه يتوجب علينا هدم المسجد الأقصى وكل شيء، فقلت: إن هذا بالضبط هو ما تتمناه إسرائيل!

دخلت شوشانا قاعة العرض. وخرجت أنا إلى خارج بوابة (يوتوبيا سينما)، ووقفت أدخن في الساحة الواسعة المطلة على أشجار من كل اتجاه، وكانت الساعة قد اقتربت من الخامسة عصراً، وكان ضوء العصاري رائعاً ولون السماء بنفسجياً ويشعرك كما لو أنك في الأبدية. في الحقيقة، وبالرغم من أنني كنت وحدي، وكان الجو مطمئناً للغاية، إلا أنني لم أشتهي سيجارة بانجو، بالرغم من إغراء الوحدة، والهواء العليل، ومناظر الأشجار الرائعة، وكل شيء. وربما كنتُ على حق فعلاً، وكان ما ينقصنا في مجتمعاتنا العربية هو النبيذ والكحوليات وكل

تلك الأشياء، وأننا نستبدل هذه الأشياء العظيمة الغير متوفرة في مجتمعاتنا العربية بالبانجو والحشيش والقات؛ نستبدل الذي هو خير بالذي هو أدنى.

ولما حان وقت الرجوع إلى فندقنا، صعدنا إلى الحافلة، وجلست بجوار زميلتنا السورية الجميلة التي قالت إن اسمها رغد. وكنت قد قرأت اسمها من قبل في الأوراق التي وزعت علينا وكان فيه النبذة المختصرة عن مشروع كل منا. أعني أنني كنت أعرف أنها ابنة المخرج السوري الكبير أديب الحلو، لأن اسمه كان مذكوراً في الورق بوصفه مخرج الفيلم، وابنته رغد هي منتجة الفيلم. كانت صبية لم تتجاوز الخامسة والعشرين، كما قدرت. وجميلة جمالاً لا يوصف يا رفيق! كانت تشبه العروسة باربي وكل شيء. شقراء بشعر طويل ملفلف رائع، ووجه كالبدر، وكانت لها تلك الابتسامة الموناليزية التي تشي بأنها واعية بجمالها. وكانت متحفظة جداً في الكلام، ولم تستجب كثيراً لمحاولاتي في فتح مواضيع معها. وأخيراً، قررتُ أن أحاول إضحاكها، فحكيت لها حكاية كان شعبان السباعي قد رواها لي أيام كان مساعداً ليوسف شاهين في فيلم (المصير).

كانوا قد وصلوا إلى سوريا، وبدأوا في تصوير الجزء الخاص ببعض المشاهد الخارجية هناك وكل شيء. وكان هناك في السيناريو شخصية لأمرأة خمسينية، وكانت ستقول جملة واحدة أو جملتين على الأكثر، أي كانت أقرب إلى الكومبارس المتكلم منها إلى الممثلة، ولكن يوسف شاهين أحب أن يعطي

الدور إلى ممثلة سورية وقتها، فسأل في النهاية أديب الحلو، الذي كان متواجداً في كواليس التصوير، عن ممثلة سورية وكل ذلك، فرشح له أديب الحلو الممثلة السورية الكبيرة منى واصف، ولم يكن أديب الحلو، بالطبع، يعلم أن الدور عبارة عن جملة واحدة وكل تلك الأشياء، المهم، أن يوسف شاهين طلب من شعبان السباعي أن يذهب إلى بيت منى واصف ويعرض عليها الدور. وكان وقتها، لا يوسف شاهين، ولا شعبان السباعي، يعرفان من هي منى واصف، ولا سبق لهما أن سمعا باسمها من قبل. وذهب فعلاً شعبان السباعي إلى بيت منى واصف. ويقول شعبان السباعي إنه لما فتحوا له الباب ودخل بيت الست، وشاهد مستوى البيت من الداخل، وشاهد صورها المعلقة على الحوائط وهي تصافح ملوك العالم ورؤوساء الجمهوريات وكل ذلك، أدرك بذكائه أنها فنانة كبيرة وقديرة جداً، فلما أتت وسلمت عليه، قال لها: إن يوسف شاهين هنا في سوريا من أجل تصوير فيلم، ويسعدنا جداً أن تشرفينا بالحضور في أي يوم يناسبك، لإن الأستاذ كان يتمنى أن يتشرف بلقائك، ولكنه للأسف مشغول جداً جداً في التصوير ولا يستطيع مغادرة اللوكشن، وكل تلك الترهات، ولم يذكر مطلقاً مسألة الدور الذي من كلمتين فقط وكل تلك الأشياء. ابن لذينا ذكي جداً الولد شعبان السباعي!

وليس عندي أدنى فكرة عن سبب رد فعل رغد أديب الحلو غير المتوقع عندما انتهيت من رواية تلك الحكاية، فقد غضبت بدلاً من أن تضحك، وقالت لي ما معناه إننا نحن المصريين منغلقون على أنفسنا ولا نعرف شيئاً خارج حدود بلدنا، وإن ما

حكيته لها الآن هو دليل على جهل فاضح وكل تلك الأشياء، لأن مني واصف أشهر من أن ُتعرَّف؛ فنحن لا نشاهد لا سينما عربية، ولا دراما تلفزيونية عربية، ولا مسرح عربي، ولا أي شيء على الإطلاق! وبدلاً من أن أغضب أو أن ُأستفز أو شيئاً كهذا، رحت أضحك على نحو محموم، مما زاد من غضب رغد أديب الحلو في النهاية. وشعرت بأن المسافة بيننا قد زادت على نحو يبعث على اليأس. وكان المزعج في الأمر هو اضطرارنا للجلوس بجوار بعضنا البعض طيلة ما تبقى من الطريق إلى الفندق.

ولما وصلنا إلى الفندق، صعدت مباشرة إلى الغرفة، لأنني ظننت أنني في حاجة إلى دش. وبعد الدش، أعددت نسكافيه، ودخنت سيجارة تبغ صاف بدون مخدرات وأنا بعد عارٍ. وشرعت أكتب بعض الشيء في دفتر اليوميات، وعانيت أثناء الكتابة في تذكر الأوصاف واستدعائها من الذاكرة؛ تفاصيل الملابس وألوانها، وألوان الشعر وتصفيفاته، وشكل الوجوه وما يميزها، وكل ذلك. ولما كان المجهود المبذول في كتابة تلك الأشياء كبيراً للغاية، فقد قررت من الآن فصاعداً أن تقتصر اليوميات على كتابة ما هو ضروري وحيوي ومهم فقط، بدون أوصاف مجهدة، خصوصاً وأنني لم أكن واثقاً تمام الثقة من صحة ما كتبته من أوصاف للملابس والوجوه والشعور وأمثال هذه الأشياء، ولذلك فعذراً، لكن لا تتوقع مني في المستقبل أوصافاً تفصيلية من هذا القبيل.

ولما انتهيت من الكتابة، فتحت التلفزيون، وتمددت على السرير، وقلبت قليلاً في القنوات، ثم تركت فيلم "بالب فِكشن"، أو حكايات مثيرة، لكونتن تارانتينو، بالرغم من أنني أحفظه عن ظهر قلب. وكنت أحب المقطع الذي يقول فيه صامول جاكسون نصاً من العهد القديم ما هو بالعهد القديم. النص الذي يدعي أنه من سفر حزقيال، أصحاح 25، الآية 17. إن صامول جاكسون ينطق نص الآية هكذا:

"طريق الإنسان المستقيم محفوف من جميع الجهات بجور الأنانية واستبداد الرجال الأشرار. مبارك هو الذي باسم الإحسان، والنية الطيبة، يرعى الضعيف السائر في وادي الظلمات.، لأنه هو الحامي لأخيه بصدق، والمعين للأطفال الضائعين. وسأنزل عليكم انتقامي الساحق، وغضبي العارم، يا من تسعون لإفساد وتدمير إخوتي، وستعلمون أن اسمي هو الله، عندما أصب عليكم نقمتي."

إن هذه الآية يا مؤمن لا وجود لها في العهد القديم على الإطلاق، لا في سفر حزقيال، ولا في أي مكان آخر. إن الآية رقم 17، أصحاح 25، من سفر حزقيال، ُتقرأ نصاً كالتالي:

"وُأجري عليهم نقمات عظيمة بتأديب سخطٍ فيعلمون أني أنا الرب إذ أجعل نقمتي عليهم."

لا شيء مقدس عند تارانتينو يا زعيم! لا النصوص الدينية، ولا أي شيء آخر، إنه يتعمد تحريف النص الديني، كما يتعمد

إحياء أوما ثيرمان في الفيلم بعد أن تموت وتشبع موتاً! ويبدو لي أن تارانتينو يطبق تعريف جون ترافولتا للمعجزة في الفيلم، حين يقول:

- المعجزة هي أن يجعل الرب ما هو مستحيل ممكناً!

إن تارانتينو يجعل المستحيل ممكناً في أفلامه! وتحريف النص الديني الذي ورد على لسان جولز، هو المثال الأوضح في كشف الملابسات التي تعمل على تشويش الذهن لدى المجرمين الذين يقفزون فجأة قفزات إيمانية، فيتحولون من ذوي سجلات إجرامية إلى مؤمنين ودعاة وإرهابيين، إن هذه العملية لازم لها في الأساس تحريف للنصوص؛ تلك حقيقة شارقة. مجرم تارانتينو!

ولففت سيجارة أخرى ودخنتها على السرير، نافثاً الدخان بحذر حتى لا ينطلق جرس إنذار الحريق. وفكرت أنني لست بحاجة إلى تدخين مخدرات على الإطلاق. كان دورقا النبيذ لا يزالان بداخلي، ولم أشعر برغبة في البانجو. ولكي أكون صريحاً معك، زهدت حقارة البانجو وابتذاله. دماغ بوابين! وفكرت في أن أعطي كل باكت البانجو لمانويلا. فارتديت التيشرت السماوي، على البنطلون الليفايز السماوي، ووضعت فردتي الحذاء في قدميّ، وعدد 2 باكت واقي في الجيب الخلفي للبنطلون، ورحت لحجرتها لأعطيها باكت البانجو. وما حدث بعد ذلك بيني وبين مانويلا في حجرتها ليس جزءًا من هذه القصة، وأنا أفضل أن

نتوقف عن هذا الحد وأن ننتقل مباشرة إلى ما حدث عقب ذلك بنصف ساعة أو أكثر قليلاً، أي في حوالي السابعة والنصف، فقد أسرعنا بالنزول إلى لوبي الفندق، أو الردهة إن شئت، وقد شعرنا بأننا قد تأخرنا على موعد العشاء.

كان خافيير قد حجز لنا في مطعم قريب. وكان زملاؤنا يملؤن ردهة الفندق. وخرجنا في شبه طابور من باب الفندق، وسرنا مشياً على الأقدام قرابة العشر دقائق. وأكرر فأقول إنني لم ألمح أية عمارة زجاجية من أي نوع في الطريق. وكان أقصى ارتفاع لبناية هو خمسة أو ستة طوابق لا أكثر. وكنت أمشي مع مانويلا، وليلى، وبسمة، وشوشانا. ولاحظت أن ليلى تنظر لي أنا ومانويلا من تحت لتحت وتبتسم، فتجاهلتُ الأمر. وناديت على بي جى ونحن نمشي، فتوقف قليلاً حتى وصلنا إليه. وكنت أنا قد سبقت مجموعتي بخطوتين، وهمست له بسرعة بإن بسمة الإسرائيلية معجبة به وتريد التعرف عليه، فهز الولد رأسه بأدب وذوق. وعرفتهما على بعضهما البعض. وتأخرا عن مجموعتنا ببضع خطوات، وقد اندماجا في الحديث. وحاولت مانويلا مسك يدي في الطريق، فسحبت يدي بسرعة، وغمزت لها، ففهمت على ما يبدو ولم تزعل.

ووصلنا إلى المطعم. وكان المبنى صغيراً نسبياً ومن طابقين، ويطل على قناة مائية. والغريب أن الأرض عن يمينه وعن شماله كانت خالية من أية مبان. ولما دخلنا وجدنا أنه ديسكو وبار ومطعم؛ صالة ديسكو بالأسفل، وصالة مطعم صغير بالدور

الثاني. كانت الإضاءة معتمة إلى حد ما، والصالة تحت مزدحمة بالشباب الذين يرقصون على وقع أغنية فرنسية لم أتبين ملامحها من الإيقاعات الصاخبة. وكان هناك في السقف تلك الكشافات الصغيرة التي تدور حول نفسها وترسل أضواء ملونة وكل شيء. وصعدنا إلى الدور الثاني على سلم خشبي حلزوني. وكان الطابق الثاني عبارة عن صالة صغيرة نسبياً، بنصف مساحة المبنى أو أقل قليلاً. وكان لصالة المطعم شرفة بدرابزين تطل بضلعين من أضلاعها على صالة الديسكو تحت، فكان يمكنك وأنت جالس هناك أن ترى صالة الديسكو والراقصين بالأسفل.

جلسنا على مائدة طويلة جداً بطول صالة المطعم كلها، ولا أدري إن كانت هذه المائدة هي المائدة المستديمة للمطعم، أم أنهم أعدوها خصيصاً لنا لما عرفوا أننا مجموعة واحدة تتكون من أربعين شخص تقريباً. وكان المفرش الذي عليها باللون الأحمر القرمزي. جلستُ إلى يمين مانويلا، وجلست إلى يميني بسمة، وإلى يمينها بي جى. وكان في مواجهتي تماماً رامز أبو خليل، وإلى يساره، أي إلى يميني أنا، جلست الثلاث سيدات الإسرائيليات البدينات، وأقول السيدات، ولم أقل الفتيات أو البنات، لأنه كان واضحاً عليهن عامل السن كما سبق وأن ذكرت لك من قبل على ما أذكر. وعليك أن تتوقع أنه على يسار السيدات الإسرائيليات، أي على يميني أنا، جلست كل المجموعة الإسرائيلية بمن فيهم شوشانا وعساف وكل هؤلاء.

وبدأ الندل في وضع الأطباق أمامنا. وبالإضافة إلى السلطات

والمقبلات وكل شيء، كان الطبق الأساسي هو قطعة كبيرة جداً جداً من البفتيك، وحولها مجموعة من الخضروات المشوية، بالإضافة إلى بطاطس محمرة، أو فرنش فرايز، أو البلجيم فرايز إن أردت الحقيقة والصدق. وقالت لي مانويلا إن اسم هذا البفتيك هو الـ "الفيينا ستيك"، أو بفتيك فيينا، أو شيء كهذا، وكان الذي يميز هذا البفتيك أنه طري جداً من الداخل، ومقرمش جداً من الخارج، وكانوا قد وضعوا عليه نصف ليمونة، وشريحة ملفوفة من الرنجة المدخنة. وشرحت لي مانويلا طريقة عمله، فقالت إنه يُحضر من لحم البتلو، الذي يقطع إلى شرائح كبيرة وسميكة، ثم يدقون شريحة اللحم بالشاكوش حتى ترق الأنسجة وكل شيء، ثم يغمسونها في الدقيق أولاً، ثم البيض المتبل، ثم بقسماط الخبز المحمص المتبل، ثم يحمرونها في الزبد. كانت حرفياً ألذ قطعة لحم بقري أكلتها في حياتي يا رفيق! والأهم من كل هذا، أنهم، هنا أيضاً، مارسوا هوايتهم العظيمة في وضع الدوارق المليئة بالنبيذ الأحمر أمام كل اثنين منا، ثم تبديلها بغيرها عندما تفرغ، لذلك أسميت هذا النوع من العشاء: "العشاء السائل"؛ نسبة إلى طغيان كمية المشروب على كمية المأكول. وقد شربت كمية مهولة من النبيذ، ربما أكثر من دورقين كاملين، مما حدا بالولد فرناندو الإسباني، الذي سبق وقلت لك إنني ساعدته بوزني في إخراج سيارته العالقة من الجراج وكل شيء، والذي كان يجلس هناك في العتمة في أقصى اليسار في الجهة المقابلة لي، إلى أن يرفع يده إلى فمه ثلاث مرات ممثلاً إيماءة الشرب؛ قال يعني الولد بيقول لي إنت بتشرب كتير وكده! فرفعت له يدي محيياً وأنا

أضحك، وكنت قد ثملت إن أردت الحقيقة. ورأيت صديقة فرناندو بجواره لأول مرة، وكانت شديدة القبح، ولم يسبق لي أن رأيت فتاة أقبح منها في حياتي كلها! كان الولد أكثر وسامة منها مليون مرة. وشككت وأنا جالس هناك بأن البنت غالباً شيميل أو شيء كهذا. وسألت مانويلا، فقالت إن فرناندو لابد وأنه سيدفع ثمن عشاء صديقته من جيبه، لأن خافيير استحالة أن يدفع ثمن عشاء الصديقة. وعندها تذكرت أم هالة. وبحثت عينيّ عن هالة حتى وجدتها في الجهة المقابلة لفرناندو، أي نفس الجهة التي أجلس فيها، هناك في أقصى اليسار في العتمة. لكنني لم أرَ أمها معها. وحكيت لمانويلا عن قصة والد هالة الذي مات على الحاجز الإسرائيلي في الطريق إلى المستشفى، وكيف أن الاحتلال الإسرائيلي رفض أن يجعل سيارة الأسرة تمر وكل تلك الأشياء. فكادت مانويلا أن تبكي، أقسم لك أنها كانت على وشك البكاء، فقد تقلص وجهها وتكرمش وكل شيء، لولا أنني سارعت بإمساك يدها من تحت الطاولة حتى تتماسك.

وربما بسبب السكر، أو بسبب الاندماج مع مانويلا، أو بسبب الانشغال بالجناح الأيسر الذي فيه فرناندو وهالة، فلم أنتبه إلى الأحاديث التي كانت تجري في الجناح الأيمن. لكنني انتبهت أخيراً إلى ما يشبه النواح أو المناحة التي كانت تصدر من الأخ رامز أبو خليل، فقد راح يتشكى من أنه لا يعرف تحديداً من هو؛ هل هو فلسطيني، أم عربي، أم فرنسي، أم مواطن عالمي، وكل تلك الخولانيات! وليس عندي أدنى فكرة عن من فتح هذا الموضوع، ولا سببه، ولا أي شيء. هكذا فجأة سمعنا الولد يلطم

وينوح وكل ذلك، وربما كان هذا بسبب أنه شرب كثيراً مثلي، فقد لاحظت أنه أفرغ دورقين من النبيذ في جوفه، كما فعلت أنا. أو ربما كان تعليقاً على فيلمه الذي عرضوه لنا في العصر أو شيئاً كهذا. كان رامز أبو خليل يتحدث بالإنجليزية، وظهر التأثر على الجميع، لأنهم كانوا أناساً طيبين وكل شيء. لكنني أخذت بالي من أن بسمة كانت واجمة وتحاول تجنب النظر إلى سحنة رامز أبو خليل، وكأنها كانت متقززة منه وكل ذلك. وأنا بصراحة من الذين يكرهون الناس الذين يعشقون الشكوى في أحاديثهم من كل شيء. ولاحظت أن هذه صفة أصيلة في الكثير من الفرنسيين. والإسرائيليين. والفلسطينين. بل ربما يكون الفلسطينيون قد غشوها عن الإسرائيليين. وإن لم يجد الواحد منهم أي سبب للشكوى، يروح يشتكي من الطقس، أو من الحظ السيء، أو من الحظ الطيب للآخرين، أو من غباء السياسيين، وإلخ إلخ إلخ. حتى أن البوفتيك النمساوي التحفة الذي ليس له مثيل في العالم، اشتكى منه هذا الرامز أبو خليل وقال إن عليه شريحة رنجة، وأمسكها بإصبعين وهو قرفان ورماها في طبق جانبي، الجاهل بن الجاهل! هكذا ُيقدم طبق الستيك النمساوي يا حمار يا ابن الحمار يا بقف! ثم، وبعد أن لم يجد ما يشتكي منه، قال على قطعة اللحم إنها باردة! والله ما في أبرد من دين أمك يا رامز يا أبو خليل!

ولما طفح الكيل وبلغ السيل الزبى، قررت أن أصفعه على قفاه، فقلت، بالإنجليزية طبعاً حتى يسمع الجميع:

- يبدو أنه عندك مشكلة ضخمة في الهوية يا رامز! ويبدو أن هذه المشكلة متجذرة عندك، فقد ظهرت في الفيلم، وظهرت أيضاً خارج الفيلم!

- خارج الفيلم! ماذا تعني؟!

- إعني في التترات، فقد قرأت على تترات البداية أنك أخذت تمويلاً من المركز القومي للسينما في إسرائيل، وهو ما يعكس هذا التخبط بخصوص الهوية عندك: فلسطيني وتمويل فيلمه من إسرائيل!

فضحك ضحكة صفراوية، واحمر وجهه، وبدا لي أنه على وشك قذفي بالكوب الذي أمامه. فأضفت قائلاً حتى أقتله:

- أقول إنني قرأت على تترات البداية مصادر تمويلك، لأنني لم أنتظر حتى تترات النهاية، فلم أتحمل أكثر من عشر دقائق من فيلمك في الحقيقة، سامحني على صراحتي!

ضحكت بسمة، ولم تحاول بذل أي مجهود في مدارة الضحكة أو إخفائها. وتبادلنا أنا ورامز أبو خليل نظرة كراهية، ومن لغة العيون، تأكدت أننا صرنا أعداء إلى الأبدية. وقررت أن آخذ حذري منه، فهو، ولابد، سوف يسعى للأذية ورد الضربة في أول فرصة سانحة.

وفجأة، وجهت لي إحدى السيدات الإسرائيليات، أكثرهن

بدانة، الكلام باللغة الإنجليزية:

- سامح، لدينا في شركتنا فيلم تسجيلي عن فتاة، هي ابنة واحد من العسكريين الذي كانوا في مفاوضات الكيلو 101، وهي الآن مخرجة سينمائية وتريد أن تصنع فيلماً عن أبيها، وبالطبع سوف نذهب للتصوير في مصر، فهل يمكنك أن تساعدنا هناك؟!

كان فخاً يا رفيق! كمين من سينمائية إسرائيلية ماكرة كالثعالب. كانت متأكدة من أنني سوف أرفض، وقد مسحت للتو بكرامة رامز أبو خليل الأرض لأنه أخذ تمويلاً من إسرائيل. إذن الكمين يكمن في أن أرفض باستعلاء أو بتأفف أو شيئاً من هذا القبيل، فأظهر أمام الخواجات بأنني عنصري ومعادٍ للسامية وكل ذلك، وتطلع هيّ الست خضرة الشريفة!

لكن الله هداني إلى الرد رداً موفقاً بسرعة، فقلت:

- سيسعدني هذا كثيراً يا صديقتي، ولكن للأسف نقابة السينما عندنا في مصر لديها هذا القرار بمنع العمل مع السينمائيين الإسرائيليين، وأنا بالطبع عضو في النقابة، ولن يمكنني مخالفة قرارات النقابة!

ومن هذا المنطلق، فأنا أنصحك في أي موقف مشابه، بأن ترد رداً مشابهاً فتتحجج بقرارات النقابة والأشياء التي من هذا القبيل، فعندما توضع في موقف فيه خواجات، سيكون هناك من هم منهم على دراية بتفاصيل الصراع العربي-الإسرائيلي،

وسيكون هناك من ليس لديهم أدنى فكرة على الإطلاق، أو فكرة مغلوطة ومشوهة ومتحيزة للجانب الآخر في أغلب الأحيان، ولذلك سيكون من الأسلم أن ترفض على النحو الذي رفضت أنا به، وبالطريقة التي تفوّتِ بها على الإسرائيليين أن يظهروك كعنصري وكاره لليهود ومعادٍ للسامية وكل ذلك.

ولما قاربنا على الانتهاء من طعام العشاء، أخذ بعضنا يغادر مكانه ويتكئ على الدرابزين المطل على صالة الديسكو بالأسفل ليتفرج على الرقص والراقصين. والغريب أنه بالرغم من علو الصوت تحت وكل شيء، إلا أن الصوت كان يصلنا معتدلاً إلى حد ما فوق في صالة المطعم. وكانت ليلى اللبنانية من ضمن الذين وقفوا واتكئوا على الدرابزين، وأخذ جسدها يتراقص على الموسيقى. ثم فجأة، أسرعت إلى حيث حقيبة يدها التي تركتها على الكرسي الذي كانت تجلس عليها هناك بجوار هالة الفلسطينية، ورأيتها تفتح شنطتها وتخرج منها سي دي، ثم تتجه بسرعة نحو السلالم، وتهبط إلى صالة الديسكو. لحظات قليلة، ثم سمعنا تغييراً في الموسيقى، من موسيقى ميتال فرنسية، إلى كمان شرقي عذب، وخمنت على الفور أنها المقدمة الموسيقية لأغنية وائل جسار: "مشيت خلاص":

بعد ما ارتاحت روحي ليك

وعرفت طعم الدنيا بيك

مشيت خلاص وما قلتليش أنا أعمل إيه

تنساني ليه بالله عليك وانا قلبي حياته وروحه فيك

وازاي ها يجيله حبيبي نوم لو مش لاقيك

أنا قلبي كنت بخاف عليه

شفتك ما عرفش جرالي إيه

وإلخ إلخ إلخ من كل تلك الترهات!

نهايته، فور تشغيل الأغنية، سمعنا تصفيقاً، أظنه من الزملاء العرب أو شيئاً كهذا. ثم هرع الجميع إلى الشرفة التي تطل على صالة الديسكو ومالوا عليها ليتفرجوا، بينما نزل بعضهم إلى تحت للرقص وكل شيء. ونهضت أنا أيضاً من مكاني قاصداً الدرابزين للفرجة، فاصطدمت رأسي بالسقف، وأنت تعرف الآن أنني طويل جداً، لكن مع ذلك لابد من القول إن صالة المطعم بالدور الثاني كان سقفها منخفضاً للغاية، وكأننا في الدور المسحور لبناية أو شيء كهذا، حتى أن كل الزملاء تقريباً كانوا مضطرين لإحناء هاماتهم إذا ما وقفوا، بالرغم من أنهم لم يكونوا جميعاً من طوال القامة مثلي. وأمسكت رأسي متألماً، لكن الشعور بالألم كان خفيفاً ربما بسبب تناول كمية كبيرة من النبيذ. وجزعت مانويلا قليلاً، وأمسكتْ برأسي لكي ترى إن كان هناك شيء خطير وما إلى ذلك، لكنني طمأنتها. واتجهنا سوياً إلى الدرابزين وأخذنا نشاهد ليلى وهي ترقص هناك بمنتهى الرشاقة والحيوية. كان تجيد الرقص هذه البنت! ورأيت كل الشبان يتحلقون حولها،

من الفرنسيين الذين كانوا في الديسكو، ومن زملائنا أيضاً الذين نزلوا للرقص، وكان صراط بو عكاز الأكثر قرباً منها، وكان يحاول الاحتكاك بها وإمساكها بيديه أثناء الرقص وأمثال هذه الأشياء، وكانت ليلى تحاول تجاهله كما بدا لي، وفي مرة أمسكها من وسطها فعلاً، فتوقفت البنت عن الحركة تماماً ونظرت إليه شزراً، نهايته، لم الولد نفسه بعد ذلك وابتعد برقصاته وحركاته الخرقاء عن ليلى.

ونظرت ليلى نحوي وأنا على الشرفة، وبحركة رشيقة من يديها مدتهما نحوي داعية إياي للنزول والرقص معها. فضحكتُ، وقلت في نفسي: إنزل يا عم وهز لهم شوية! والتفت مسرعاً متجهاً نحو السلالم للنزول. وكدت أصطدم بإحدى السيدات الإسرائيليات، أقلهن بدانة، التي حملقت في عينيّ بلهفة أولاً، ثم قالت بالإنجليزية:

- سامح، أليس كذلك؟!

- نعم.

- أنا اسمي زيفا.

- أهلاً وسهلاً يا زيفا.

ثم فجأة، وبدون أية مقدمات، شبت بقدميها واستعانت بكلتا يديها في مسكي من كتفي لكي تتسلق إلى هناك، ثم طبعت قبلة

طويلة مبلولة على خدي. ها تفرق معاك إيه خدي اليمين ولا الشمال! أنا كنت في إيه ولا إيه! الحق الحق أقول لك،ُأخذت بتلك الحركة التي كانت أكثر من جريئة. أي وقحة. ولم يخطر ببالي أن أقيم مع زيفا أية علاقة، كما سبق وخطر لي إقامة علاقة مع شوشانا، من باب نكح إسرائيلية وكل تلك الأشياء، ربما لأنني لم أكن أحب البدينات، ولا القصيرات، ولا الكبيرات في السن، فضلاً عن الإسرائيليات. يعني عندك أربعة أسباب هنا! وخطر على بالي لحظة أن أعرفها على بي جى لأنه، كما تعلم، يحب الحفريات الأثرية. ولكنني للأسف لم ألمحه هناك، وتذكرت أنني رأيته تحت في صالة الديسكو يرقص بالقرب من ليلى.

ولم أكد أنزل وأنضم إلى ليلى، حتى انتهت أغنية وائل جسار، وبدأت أغنية شيرين: "صبري قليل":

أنا لا جاية أقولك إرجع، إسمع، علشان أنا صبري قليل

كل مرة تهرب قرب على إيه إنت مسهرني الليل

خدت مني روحي، عمري، عقلي وسايبني بقلب عليل

ياللي حبك انت مغلبني معذبني مورينى الويل

على قد ما بسهر ليلك على قد ما بتسبني في نار

ترميني بقسوة عيونك وتسبني في وسط التيار

يرجع قلبي يغنيلك ويجيلك علشان يحتار

وانت ولا انت هنا

أنا في بعادك يا حبيبي أنا خلصت دموع العين

أنا مش عارفة انت ناسيني وجارحني وسايبني لمين

بتحن عليّا ثواني وتنساني يا حبيبي سنين

وما فيش ما بينا لقى

هوّ انا آخرة ما اتحمل في هواك تنساني وتخدعني

ولا مرة حبيبي صعبت عليك وانت بتقسى وبتبعني

كم مرة احتجت انا ليك أناديك والاقيك رافض تسمعني

إرحم دموعي أنا

وكنت، ومن أول مرة سمعت فيها هذه الأغنية لشيرين، أعتبرها أغنية صوفية بامتياز، صالحة للرقص عليها في موالد فاطمة النبوية، والسيدة نفيسة، والحسين، وهلم جرا. فرقصت مع ليلى. وكانت البنت تضحك من طريقتي في الرقص. كانت عندي هذه الطريقة في الرقص على نحو كوميدي في مثل هذه المواقف الكوميدية ومناسبات التفاريح التي من هذا النوع، فلا نوعية الموسيقى، ولا عمق الكلمات، كانت تستدعي أخذ الأمر إلا على

نحو كوميدي ومن قبيل التسالي، وآهي حاجة كده زي الآيس كريم لاتشبّع ولا تجوّع! فرحت أفقر وكأنني في مولد فاطمة النبوية أو شيء كهذا، ثم رحت أمعن في المبالغة في مرجحة مرفقيّ، بينما قدماي ثابتتان على الأرض، ووجدت كوباً فارغاً على طاولة قريبة، فالتقطه، ووضعته على رأسي ممسكاً إياه بيد، ورحت أدور حول نفسي مع حركة زنبركية من مرفقي الحر، وحركات أخرى من هذا القبيل.

ولما انتهت أغنية شيرين، بدأت أغنية نانسي عجرم: "آه ونص" وكل تلك الأشياء. فتوقفت عن الرقص. وهمست لليلى بأنني أشعر ببعض الدوار لأنني شربت كثيراً. وغادرت صالة الرقص. وصعدت السلم الحلزوني إلى صالة المطعم بالدور الثاني. وجلست قليلاً في مقعدي. ووجدت قنينة هناك إلى أقصى اليسار ممتلئة لنصفها بالنبيذ، ولا أدري من الحمار الذي يترك نصف قنينة نبيذ أحمر منبوذة هكذا! فقمت من مكاني وأحضرتها، وأنا أقول بصوت مسموع: مش أبوك أولى بالترالملم ده! لا تقلق، فلم يكن أحد يجلس هناك، كان ما تبقى من الزملاء قد تحلقوا كلهم حول الشرفة ليشاهدون الرقص تحت. ورحت أصب وأشرب. ولا تسألني عن مانويلا، فلا أعرف أين ذهبت بحق الجحيم، فلست ولي أمرها حتى أهتم بالمكان الذي توجد فيه الآن.

ورأيت هالة، وكيت، ونورا، وهن يلملمن حاجياتهن وحقائبهن استعداداً للمغادرة. لا أدري كم كانت الساعة بالضبط، ربما الحادية عشرة أو شيئاً كهذا. فقمت معهن، وقد قررت أن

أرجع إلى الفندق أنا أيضاً. لا تقلق أرجوك، كنت بالفعل قد أتيت على ما تبقى من دورق النبيذ، إلا قليلاً. ولا أدري إن كنتُ قد أخبرتك بنظريتي في ترك فتات في الأطباق والأكواب، وعدم إفراغها بالكامل، أم لا؟! ولكن ها أنا ذا أخبرك بها. فقد كانت عندي هذه النظرية عن وجوب ترك بعض البواقي في الأطباق والأكواب، وعدم مسحها بالكامل. البعض يقول عنها: "نصيب الملائكة" وكل تلك الأشياء، ولكنه تقليد بشري يرجع إلى الأزمان السحيقة، ويعبر عن احترام الإنسان للأرض، بأن يعيد إليها جزءًا من كل ما يتلقاه منها، بل ربما حتى قبل أن ينال الإنسان نصيبه هو شخصياً، ولذلك كانت هناك هذه العادة القديمة في إراقة النبيذ على الأرض إكراماً للآلهة، وتحريم حصاد السنابل المنسية، وتحريم جمع العناقيد الساقطة على الأرض، فكل ذلك يعود إلى أمنا الأرض، أي إلى أسلافنا الذين يمنحونا البركة، والإغريق القدامى أيضاً حرموا جمع فتات الخبز بعد الوجبات لأنه من نصيب الآلهة والأبطال وكل ذلك.

ونزلنا السلالم. وخرجنا من المطعم. وبدأت هالة تعرج بشدة، فسألتها، فقالت إنه بسبب الحذاء. فأعطيتها ذراعي، فتعلقت به. ورحنا نمشي الهوينا، وقد حدد عرج هالة إيقاعنا في المشي. وسألت هالة عن أمها، فضحكت وقالت إنها بخير. وقلت لها أن تنقل لها سلاماتي، فضحكت وقالت حسناً. وكان الجو بالخارج في منتهى الهدوء. ومعتماً أيضاً. وكانت البنايات حولنا قليلة. ومشينا على كورنيش القناة المائية قليلاً. وتمنيت لو كان معنا بي جى الآن، لأن الولد موهوب في مسالك الطرق، وعنده سنس أوف

دايركشن وكل شيء. وقد بانت المعضلة عندما أخرجت نورا خريطة لشوارع تولوز من حقيبتها، ووقفنا هناك تحت أحد أعمدة النور، ندرس الشوارع وكيفية الرجوع إلى فندقنا، بالرغم من أن المسافة لم تكن بذلك البعد. وكنا كلنا ثملين حقاً. ولم أكن متأكداً من أن الطريق الذي نمشي فيه هو الطريق الصحيح. ولم نلبث أن شاهدنا على البعد مجموعة من الشبان الذين يرتدون سترات جلدية ويتكئون على دراجات نارية. كان عددهم حوالي ستة أو سبعة. فقلت لرفيقاتي، بالإنجليزية، وأنا أتجه إلى الدراجين:

- سوف أسألهم عن الطريق.

فصاحت نورا بفزع:

- لا لا لا!

ولكنني كنت قد تحركت بالفعل قبل أن تقول نورا ذلك، وقبل أن أدرك مدى تهوري. وهداني تفكيري أن أكمل ما بدأته وأن أواصل السير، وقدرت أنهم إن رأوني أتراجع فيمكن أن تزداد الأمور سوءًا. ودارت في ذهني وأنا متجه إلى الدراجين أفكار مشوشة حول سوء سمعة راكبي الدراجات النارية، وخشونتهم، وفظاظتهم، وعصبيتهم، وعنفهم، وإجرامهم، واغتصابهم، وعنصريتهم، وكراهيتهم للأجانب، وكل ذلك. وتحولت ستراتهم الجلدية في نظري إلى عدة للحرب، والدائرة التي يتحلقون حولها إلى أرضهم الخاصة للصيد، وأنا، بالطبع، الفريسة المسكينة! ورغم أنني مشيت الهوينا، إلا أنني وصلت إليهم بسرعة البرق،

لا أدري كيف؟! ولما وقفت أمامهم ساد السكون بيننا. هذا السكون الذي تلحظه إذا كان الناس ينتظرون أحداً ما. ولم يعيروني انتباهاً، بالرغم من أنني كنت أقف أمامهم تماماً. بأي لا مبالاة استقبلوني! وربما بسبب الصدمة التي تمنع تغلغل الخبرة إلى الوعي وكل تلك الأشياء، لم أستطع تمييز تضاريس أي منهم. فخاطبت أقربهم لي، الذي نظر إليّ، أخيراً، وأنا أكلمه، وسألته عن الطريق إلى فندقنا. فنظروا إليّ جميعاً نظرة سخرية مُرة كمن ينظر إلى شخص نزق متهور أخرق لم يستوعب بعد الورطة التي وضع نفسه فيها. وفي تلك اللحظة شعرت بكل ضغط عمود الهواء! هل تعرف نظرية عمود الهواء الذي يتوزع ضغطه على جميع البشر على الكرة الأرضية فلا يعود أي منهم يشعر بوزنه وكل ذلك، لقد شعرت في تلك اللحظة وكأنني، وضد كل قوانين الفيزياء، قد صرت أحمل وزنه على كتفي! وخطر على بالي فجأة أن التنفس من بين كل الوسائل هو أفضلها لضبط التوتر العصبي، فصرت أنظم عملية تنفسي وفقاً لأحد إيقاعات اليوجا: 4-6-8-4.

وأخيراً، رفع الولد الذي كان يقف بجوار الولد الذي خاطبته يده وأشار إلى شارع أمامنا. فشكرته، ودرت، وعدت أدراجي إلى البنات. ولما وصلت إليهن، قالت نوراً بصوت خافت حتى لا يسمعه الدراجون:

- سامح! ماذا فعلت!

- لا بأس، كل شيء على ما يرام، من هذا الطريق!

وتعلمت من هذا الموقف أنك وأنت في أوروبا، عليك ألا تطلب مطلقاً أي عون من راكبي الدراجات. نهايته، أعطيت ذراعي مرة أخرى لهالة، واستأنفنا مشي الهوينا في الشارع الذي أشار إليه الدراج الشاب. مشينا حوالي خمس دقائق أو شيئاً كهذا، ثم رأينا في النهاية الشارع المألوف لنا الذي كان فندقنا يقع في طرفه الآخر، وخفقت قلوبنا وشعرنا شعوراً رائعاً لما رأينا مقر إقامتنا أخيراً، وهو نفس الشعور التي تحسه عندما ترجع إلى بيتك القديم وأنت واثق من العثور على كل شيء في مكانه بالضبط.

ودخلنا من باب الفندق. وصعدتُ مع البنات إلى فوق بالمصعد. ولما دخلت غرفتي، توجهت فوراً إلى الحمام، وجلست على المرحاض، وتبولت. ثم خرجت، ونزعت جميع ملابسي في الظلام الذي لم يكن ظلاماً، لأن أشعة من الضوء الخافت كانت تدخل إلى الغرفة عبر النافذة الطويلة المغلقة. واستلقيت عارياً على السرير وقد اجتاحنى شعور طيب. وكنت أشعر بالإرهاق، ولكن دون تعب. ولفتت سيجارة. ولست مضطراً الآن للقول بإنها سيجارة عادية، لأنك تعلم أنني قد تخليت لمانويلا عن باكت البانجو بكامله. ورحت أدخن وأنا أحاول أن أجد تعريفاً للسعادة. وكانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة في ساعة الموبايل. وضبطت المنبه على السابعة صباحاً، ووضعت الموبايل على طاولة الكتابة بجور السرير. وأكملت تدخين السيجارة. ثم توصلت أخيراً إلى الحل، فقلت بصوت مسموع:

- السعادة هي أن تكون واعياً بذاتك دون فزع.

2

استيقظت في السابعة صباحاً على صوت جرس منبه التليفون. كنت في مزاج ممتاز. وشرعت في طقوس التطهر الصباحي التي تشمل، كما بت تعرف الآن، الاستحمام، وحلاقة الذقن، وعمل التواليت، وكل تلك الأشياء. وارتديت ملابسي، ونزلت إلى مطعم الفندق للإفطار. وحييت من أعرفهم في المطعم. وأخذت قطعة كرواسون في طبقي، وصببت لنفسي فنجاناً من الكابتشينو. وأسعدني أنني وجدت مكاناً شاغراً على مائدة هالة وأمها، فجلست معهما. وعزيتهما وقلت لهما البقية في حياتهما وكل تلك الأشياء. ولاحظت أن القلادة التي ترتديها أم هالة في عنقها يتدلى منها صليب صغير.

ورأيت سيدة ثلاثينية غاية في الجمال والرشاقة، خمرية، بشعر أسود، تحمل فنجاناً من القهوة وطبق عليه كرواسون تبحث بعينيها عن مكان شاغر، فأشرت إلى الكرسي الشاغر على مائدتنا، فأتت وجلست معنا. عرفتنا بنفسها وقالت إنها حسيبة من تونس، وإنها جاءت متأخرة بالأمس لظروف خاصة بها لم تذكرها. وعرفتها بنفسي، وبهالة وأمها. ولما كانت حسيبة قد انهمكت في قضم الكرواسون، وشرب القهوة، فقد رحت أسأل هالة وأمها عن أحوالهما. قالت هالة إنهم من قرية في رام الله، ويعانون كثيراً بسبب الاحتلال في الانتقالات اليومية والحياة المعيشية وكل شيء. فحاولت أن أستعرض أمام حسيبة، فقلت

إنني غير مقتنع على الإطلاق بعملية السلام وأسلوا، وإن الأمر لن يسفر عن أية نتائج إيجابية لصالح الفلسطينيين، وإن إسرائيل لن تعطينا شيئاً، والدليل هو سرطان المستوطنات المزروعة في كل شبر من الأراضي الفلسطينية، وإن المفاوضات على الطاولة معهم فعل عبثي، وكأننا نقاوم السرطان بالبانادول وكل شيء. وانفعلت هالة وراحت تحكي ما يؤكد كلامي، والمعاناة اليومية التي يجدها الفلسطينيون بسبب حصار الاحتلال لهم وكل ذلك، فقلت معلقاً إن ما يفعله الإسرائيليون بحصارهم للفلسطينيين أنهم يتحكمون في كمية الكالوريز، أو السعرات الحرارية إن شئت، التي تدخل إلى جسد كل فلسطيني، وبالتالي فهم يتحكمون في مقدار السعرات الحرارية التي يمكن للفلسطيني أن يحرقها في اليوم!

وتحمست حسيبة وانضمت إلى النقاش، الذي تطور إلى مسألة تقاعس العرب عن نصرة الفلسطينيين وأشياء من هذا القبيل. وضحكت حسيبة وقالت ما معناه إن العرب لا يحسنون إلا إصدار بيانات الشجب والإدانة والرفض. وابتسمت أم هالة في مرارة. لكنني وجدتها فرصة لكي أبهر فيها حسيبة مرة أخرى، فقلت لها بكامل أمارات الجدية:

- بس يا حسيبة بيانات الشجب والإدانة والرفض دي هيّ أهم حاجة في مقاومة الاحتلال!

فضحكوا الثلاثة كأنني قلت نكتة خطيرة. لكنني لم أبتسم،

وأكملت بنفس أمارات الجدية وأنا أوجه كلامي للثلاثة:

- بجد يا جماعة، على فكرة أنا مش بهزر، الشجب والإدانة والرفض هما فعلاً أهم سلاح لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي!

فسألت حسيبة وبان الوجوم على وجهها:

- كيف يعني؟!

قلت:

- بصي يا حسيبة، الفنجان ده بتاعك، صح!

وأشرت إلى فنجان القهوة الذي كان أمام حسيبة، وأكملت:

- تفتكري ليه الفنجان ده بتاعك؟!

تلجلجت واضطربت وتلعثمت حسيبة وهي تحاول أن ترد، ولم أكن أريد أن تصل الأمور إلى هذه المرحلة على الإطلاق لكي لا تشعر الست بالحرج من أسلوبي فأفقد فرصتي معها، فأسرعت بالرد على السؤال:

- الفنجان ده إنتي ممكن تكوني شارياه، وممكن يكون حد اداهولك مثلاً هدية، أو ممكن تكوني وارثاه من العيلة، وممكن لا مؤاخذة تكوني سارقاه أو أي حاجة، بس كل ده مش مهم، المهم في الموضوع إننا كلنا هنا معترفين إن الفنجان ده بتاعك، فعشان كده هو بتاعك، كل اللى على الترابيزة هنا معترفين إن الفنجان ده

بتاع حسيبة، فعشان كده الفنجان بتاع حسيبة فعلاً، لكن تخيلي مثلاً لو واحد فينا إحنا التلاتة بدأ يشكك في شرعية امتلاكك للفنجان ده ويقول لأ الفنجان ده مش بتاع حسيبة الفنجان ده كان بتاع حد تاني وحسيبة سرقته منه، في الحالة دي تفقدي فوراً شرعية امتلاكك للفنجان، حتى ولو كنتي شارياه فعلاً وما سرقتهوش ولا حاجة، لإن طول ما في حد على الترابيزة دي بيشكك في شرعية امتلاك للفنجان، تبقى شرعية امتلاكك للفنجان منقوصة، وعشان كده أنا رأيي إن أهم حاجة في الدنيا هي بيانات الرفض والشجب والإدانة إللي بيصدرها العرب، لإن معناها إنهم ما زالوا على موقفهم من رفض الاحتلال، ومستمرين في التشكيك في شرعية الاحتلال، وبالتالي فمهما عملت إسرائيل قدام العالم، ها تفضل شرعيتها منقوصة طول ما في عرب بيطلعوا بيانات شجب وإدانة ورفض، وفي اليوم اللى يتوقف فيه العرب عن إصدار بيانات الشجب والإدانة، تقدري تقولي على القضية الفلسطينية إنها ضاعت! وأنا أعتقد إن إسرائيل عارفة كده كويس، ومنتبهة للموضوع ده من زمان، وبتخاف جداً وبتترعب من بيانات الشجب والإدانة العربية، ويمكن يكون عملاءها هما اللى زرعوا بين العرب فكرة التريقة على بيانات الشجب والإدانة، واحنا بلعنا الطعم بكل هبل، لإن أمنية إسرائيل الكبرى كما أعتقد هي أن يكف العرب عن إصدار بيانات الشجب والإدانة!

طبعاً حازت محاضرتي تلك على إعجاب هالة وأمها، فيما أظن. لكن الأهم بالنسبة لي لحظتها كانت حسيبة، التي جاءت عيناي في عينيها، فتأكدت من لغة العيون أنني قد نجحت

وانتصرت واستوليت على الحصن وأن الست آتية آتية لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً، وتمنيت، بالطبع، أن تأتي عاجلاً. وزاد من سعادتي وفخري بالإنجاز، أنني كنت أرى جميع الذكور الذين في المطعم، بلا استثناء، ينظرون من تحت لتحت إلى حسيبة. حتى إن الأهبل بن الأهبل رامز أبو خليل برنس الطاقة السلبية قد افتعل المرور من جوار مائدتنا وإلقاء السلام عليّ وعلى هالة وأمها، ثم وقف فوق رأسي كاللطخة، أي كالأحمق، وهو يحاول التعرف على حسيبة، التي تجاهلته تماماً وأدارت حديثاً هامساً مع أم هالة، وأثناء وقفته تلك فوق رأسي، نفث كمية طاقة سلبية مهولة لا قبل لأحد بها، حتى ياس ومشى وغار في ستين داهية.

ولما صعدنا إلى الباص، تعمدت أن أجلس إلى جوار حسيبة. وأخذت بالي أن مانويلا، التي كانت تجلس في الأمام، قد التفتت مرتين ناحيتنا، لكني لم أعر الأمر اهتماماً. وسألت حسيبة، فقالت إنها في مجموعة تتحدث الفرنسية ومع مرشد اسمه جاك شيء ما، وهو منتج فرنسي ومدير لإحدى شركات إنتاج الأفلام التسجيلية المهمة في فرنسا، واسمها "عشرة سنتات"، أي نعم وحق الجحيم كان هذا هو اسم شركته! وقلت لحسيبة إن حظها سعيد لأنهم لم يضعوها في مجموعة السيد موريس حاجي بابا حمص أخضر كومشنج إيديتور قناة آرتيه فرع ألمانيا، ورحت أحكي لها عن بسلامته الوالي أبو زعيزع، وعن ضعفه المهني، وقلة ذوقه، وغبائه، وفظاظته، فأخذت البنت تضحك، فأطمأنيت إلى تثبيت الاستحواذ، وكما يقولون في عالم كرة القدم يا كوتش: المهم الاستحواذ، لأنه يمنع خصمك من الوصول إلى الكرة، لكن

وفي نفس الوقت، عليك أن تحاذر من الهجمات المرتدة وكل شيء! ولكي أكون صريحاً معك، كان ما يقلقني، حقيقة، هو الولد خافيير الذي لم ينزل عينيه لحظة عن حسيبة، خصوصاً وقد لاحظت أن البنت كانت تشجعه من حين لآخر بابتسامات تواطؤ. الصراحة، خفت أن تطير الفريسة من بين يديّ!

وحين وصل الباص إلى مجمع سينمات يوتوبيا، ونزلنا، وافترق كل منا في طريق، كنت أتوجه إلى غرفة اجتماعات مجموعتي الصغيرة وأنا بنصف عقل وربع قلب وثمن كل شيء. وبعدما جلسنا في أماكننا، أعطى السيد آدم سميث الكلمة إلى أولجا، التي بدأت تعرض لنا مشروعها. ورغم عدم تركيزي وتشتت ذهني مع حسيبة وكل ذلك، إلا أن مشروع فيلم أولجا قد أجبرني جبراً على الانتباه. كان مشروع الفيلم اسمه: (في البدء مصنع، في النهاية ماخور.)

قالت أولجا إن اليونان بعد أن خرجت من الحرب العالمية الثانية، خاضت أكثر الحروب الأهلية دموية في تاريخ أوروبا الحديث. وعندما انتهت الحرب الأهلية، وقعت اليونان، الفقيرة أصلاً، في حالة ركود اقتصادي، في ظل نظام سياسي غير مستقر، تحول في النهاية إلى ديكتاتورية عسكرية وحشية. وعندما نجح اليونانيون في إنهاء الحكم الديكتاتوري، قاد العمل السياسي في اليونان الحكومات الاشتراكية في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، وأدت هذه الإدارات الاشتراكية إلى نهضة صناعية وزراعية في اليونان. لكن بعد انتهاء العهد

الاشتراكي في اليونان، ووصول أنصار الرأسمالية واللبرالية الجديدة إلى الحكم، استشرى الفساد، وزادت المديونية الخارجية، وانتشرت الأنشطة الهامشية، والمضاربات، والتسويق العقاري، وبدأت المصانع اليونانية التي كانت تنتج منتجات صناعية وكل شيء تغلق ويتم تسريح عمالها، ثم تتحول في النهاية إلى مواخير وكباريهات وأشياء من هذا القبيل.

وذكرني حديث أولجا، على الفور، بفيلم محمد خان: (عودة مواطن)، الذي تم عرضه في مصر عام 1986. وفيه يعود الأخ الأكبر شاكر، أو يحي الفخراني، إلى القاهرة، بعد رحلة عمل استغرقت عدة سنوات في قطر، وبعد أيام قليلة يقرر زيارة المصنع الذي كان يعمل به سابقاً في القاهرة قبل السفر، حيث كان يعمل محامياً في مصنع من مصانع مستحضرات التجميل التي كانت تنتج المكياج وأدوات التجميل للسوق المصرية قبل أن تعرف حمى الاستيراد المجنون عقب سياسة الانفتاح الساداتية السداحية المداحية وكل شيء. نهايته، ماذا يجد شاكر في نفس عنوان المصنع القديم، وفي نفس الشارع، وبنفس رقم البناية؟ المصنع وقد تحول إلى كباريه!

وهكذا وضعت أولجا يدها، كما وضع من قبلها بعشرين عام محمد خان ورفيقه في كتابة السيناريو عاصم توفيق أيديهما، على أحد أهم السمات التي تميز الاقتصادات في المجتمعات النيولبرالية، أو الرأسمالية الما بعد حداثية، أو الرأسمالية في عصر العولمة إن شئت، ألا وهي: التحول من الاقتصاد المادي

الذي ينتج منتجات صناعية ومادية حقيقية تنفع المجتمع، إلى ما يمكن لنا أن نسميه: "العمل الانفعالي العاطفي"؛ أي القائم على خدمات الترفيه والتسلية، والأنشطة الطفيلية، ومضاربات البورصة، والتسويق العقاري، والإسكان الفاخر، والاستثمارات السياحية، وهلم جرا. وهذه التحولات الصادمة التي بدأت عالمياً مع وصول مارجريت ثاتشر إلى رئاسة وزراء بريطانيا في مايو 1979، ووصول رونالد ريجان إلى البيت الأبيض في يناير 1981، كانت قد بدأت قبل ذلك ببضع سنوات محلياً في مصر مع تدشين أنور السادات عصر الانفتاح الاقتصادي، والذي أسماه أحمد بهاء الدين: انفتاح السداح مداح، مع (ورقة أكتوبر)، وإصدار القانون رقم 43 لعام 1974، الذي فتح الباب أمام رأس المال الأجنبي الآتي من الخارج، والقانون رقم 118 لعام 1975، الذي فتح الباب على مصراعيه للقطاع الخاص المصري في الداخل للاستيراد. بين ليلة وضحاها، تحولت مصر من عصر "الاستهلاك الضروري" إلى عصر "الاستهلاك التفاخري"، وتم نزع سيطرة الدولة على الاقتصاد والتجارة، وأدى ربط السوق المصري بعجلة السوق الرأسمالي العالمي إلى أن أصبح عرضة لقوته، ورغباته، وتقلباته.

وكانت النتيجة هي عملية مستمرة من التدهور الطبقي الذي أخذ في الاتساع يوماً بعد يوم، فاتسعت الفجوة الطبقية بين الأغنياء والفقراء، وبرزت سياسات اقتصادية تسمح للأغنياء بأن يزدادوا غنى، وتدفع الطبقة الوسطى نحو مزيد من الفقر. وفاقم من ذلك الوضع، الزحف الاستهلاكي الذي رافق الانفتاح، فدفع

إغراء البضائع المستوردة بأصحاب الدخول المتواضعة من الطبقة الوسطى إلى الإفراط في الشراء، فأنفقوا ما يفوق طاقتهم في مجالات الاستهلاك الكمالي، بعد أن راحت تروج له وتغذيه الشركات الكبرى، بإعلانات للرياضيين والفنانين للترويج للسلع والخدمات الاستهلاكية، حتى أصبحت الكماليات هي الضروريات في مجتمع صار عاجزاً عن سد الحاجات الضرورية لعشرات الملايين من أبنائه، وعادت مصر إلى الموقف الطبقي الذي ساد في المجتمع قبل ثورة 1952؛ احتكار طبقة بالغة الصغر للثروة القومية، وانتشار الفقر بين عموم الطبقات الوسطى والفقيرة، وانسداد باب الأمل أمام أبنائها في الترقي، مما دفع بالنخب المهنية للطبقة الوسطى للهجرة إلى الخارج بحثاً عن الخلاص الفردي؛ كحال شاكر في (عودة مواطن)، ونبيل الحلفاوي والد الطفلة ناهد الذي هاجر إلى الكويت في (سوبرماركت، 1990)، وابن المدرس عبد العظيم في (فارس المدينة، 1991)، في حين انغمس من تبقي منهم في الدوامة المعيشية لتوفير الاحتياجات الضرورية والصراع من أجل البقاء؛ كحال باقي شخصيات أفلام محمد خان.

وأحسست لحظتها بالفخر وأولجا تتكلم عن فيلمها (في البدء مصنع، في النهاية ماخور)؛ ففيلم محمد خان (عودة مواطن) كان سابقاً بعشرين عام على ذلك، بل هو، في رأيي، من أول الأفلام في تاريخ السينما العالمية التي رصدت بوعي عميق التحولات في المجتمعات الاشتراكية التي انتقلت إلى اقتصاد السوق الحر، وأثر تلك التحولات على الطبقة الوسطى. وينتبه، وفي وقت مبكر

جداً، إلى الآثار التي سترصدها بعد ذلك بعقد كامل السينما في أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية؛ أي الدول التي خضعت لشروط النيولبرالية وصندوق النقد الدولي، كحال مصر. وقد شاهدت منذ عدة سنوات في سينما مترو بوسط البلد فيلماً رومانياً كان يُعرض ضمن مهرجان القاهرة السينمائي الدولي للمخرج الروماني ناي كارانفيل، وعلى ما أتذكر كان اسمه: (المؤسسة الخيرية)، وتم صنعه في عام 2002، والذي تبدأ افتتاحيته باللوحة الاستهلالية التالية:

"في رومانيا الأن، هناك طبقة صغيرة من فاحشي الثراء، وطبقة صغيرة من المعدمين، وبينهما عدد كبير جداً من الشحاذين كان يطلق عليهم في ما مضى: الطبقة الوسطى."

ومن اللافت أيضاً أن محمد خان يصنع فيلماً سابقاً على هذا الفيلم الروماني بعشر سنوات، هو (فارس المدينة)، وفيه إشارات بينة للخراب الذي لحق بالطبقة الوسطى المصرية. إن أستاذ التاريخ في الفيلم، حسن حسني، هو شحاذ ينصب على الأغنياء، كحال بطل فيلم (المؤسسة الخيرية) الروماني، والذي هو نفسه أيضاً مدرس ثانوي ينصب ويحتال على الأغنياء لتوفير لقمة عيشه.

الوعي بسمات العصر النيولبرالي الجديد نجده لدى محمد خان، وشريكه في كتابة السيناريو عاصم توفيق، في (عودة مواطن) في أنقى صوره عندما يتحول مصنع مستحضرات

التجميل إلى كباريه، مع إشارات إلى بقاء عمال وموظفي المصنع السابقين في العمل بالكباريه. وفي المقابل، فإن المصنع الحقيقي في الفيلم؛ مصنع الحديد والصلب الذي يعمل به الخال، عبد المنعم إبراهيم، يظهر على نحو تبدو فيه أحوال العمل في تدهور وانحدار، بل ونرى أحد العمال وقد أدمن تعاطي المخدرات. إن مشاهد المصنع، على نحو خاص، مدعومة بوعي إخراجي عميق من محمد خان، قل أن يوجد بين المخرجين السينمائيين، فهو يُفوِّت فرصة تصوير مصنع الحديد والصلب على نحو مبهر بصرياً، بكل إمكانيات الثراء البصري والتشكيلي لكادرات مصنع من هذا القبيل، لصالح دعم المعنى الأكثر عمقاً، فيصوره كخرابة صدئة في كادرات ضيقة ومغلقه، أي متقشفة، وليست فقيرة بصرياً.

في مشهد دال في (عودة مواطن)، تطلب الأخت الكبرى فوزية، ميرفت أمين، من خالها عامل مصنع الحديد والصلب مساعدتها في البحث عن عمال لمخبز الكيك والجاتوهات الذي تنوي افتتاحه. ولاحظ أن اسم المخبز: ماري أنطوانيت! لقد أدركت فوزية أن المستقبل من الآن فصاعداً هو للاستهلاك الترفيهي والتفاخري. إننا هنا نشهد أيضاً وعياً عميقاً من محمد خان وعاصم توفيق بسمة أساسية للنيولبرالية: المجتمع الاستهلاكي الذي يجد معظم أفراده صعوبة حقيقية في الحصول على رغيف الخبز، يتطلع إلى الحصول على الجاتوه! بل وسيصبح على استعداد للتضحية بكل شيء للحصول على الجاتوه في فيلم (سوبر ماركت)؛ وهو أحد أهم الأفلام الأخرى التي

تعاون فيها محمد خان مع عاصم توفيق، والتي ترصد توابع سياسات الانفتاح الساداتي السداحي مداحي على الطبقة الوسطى المصرية. ومحمد خان وعاصم توفيق هنا يسبقان نقاد النيولبرالية في ما سيطلقون عليه لاحقاً توصيف: "سلوك المستهلك المتطلع وغير القادر مادياً". فالعصر الانفتاحي قد فتح الشهية للاستهلاك المفرط والإنفاق المتهور، وأصبح إنسان الطبقة الوسطى محاطاً من كل جانب، وفي كل وقت، بالضغوط الثقافية والسلوكية والنفسية والاجتماعية التي تدفعه دفعاً نحو الإنفاق المتهور، وهو عاجز في الوقت نفسه عن تلبية تلك الرغبات؛ لتدني الأجور، والغلاء، والبطالة المتفشية، وارتفاع الأسعار، وأزمات الإسكان والغذاء، وكل تلك الأشياء. إن الطبيب الثري عزمي، عادل أدهم، يبدو في (سوبر ماركت) واعياً أيضاً بالحقيقة التي أدركتها فوزية في (عودة مواطن)، ولذلك يفتتح سوبر ماركت جديداً؛ كأحد أهم أشكال الاستثمارات المربحة في المرحلة الجديد، وذلك بعد أن يعرض لنا محمد خان المنطق الصريح في إدارة المستشفى التي يملكها الدكتور عزمي كـ سوبر ماركت. بل ويشعرنا محمد خان كما لو أن الدكتور عزمي يتحرك في مستشفاه كمالك إقطاعية بين عبيده.

ولذلك أعجبني المخ اليوناني النظيف لأولجا في رصد ما سبق أن رصده من قبل محمد خان وعاصم توفيق، وكما تعلم يا رفيق فإن المخ النظيف نظيف. ونويت أن أخدمها بأقصى ما أستطيع في فيلمها الذي سأساعدها في تصويره في سانت كاثرين وكل شيء. كما شعرت بالفخر أنه أصبح لدي صديقة يونانية

مستنيرة وواعية وبهذا المخ النظيف.

ثم خرجنا لتناول بعض القهوة والشاي في حصة البريك التي تسبق المحاضرة العامة. وكنت أشتاق إلى رؤية حسيبة والوقوف معها. لكنني رأيتها واقفة مع خافيير ورجل آخر أربعيني لا أعرفه. وكان ذلك الآخر طويلاً وأصلعاً وقوي البنية. ولما سألت ماري الفرنسية التي كانت تصب لنفسها قهوة من ترموس القهوة، قالت إنه جاك شيء ما، وإنه رئيس شركة أفلام تسجيلية فرنسية، وهو أحد مرشدي المجموعات هنا، فعرفت أنه المرشد لمجموعة حسيبة، وسميته بيني وبين نفسي: **"جاك آس"!** وأخذت أشرب قهوتي وأنا غير قادر على إبعاد عينيّ عن حسيبة بالرغم من الألم الذي كان يسببه رؤيتها مع هذين الرجلين، وكان ذلك الألم ممزوجاً بلذة غريبة الشأن لا أعرف مصدرها ولا كنهها.

ولما دخلنا قاعة المحاضرات العامة، حاولت أن أجلس بجوار حسيبة، إلا أنني فشلت، حيث كان كل من خافيير والجاك آس مستحوذين عليها، الأول جلس إلى يسارها، والثاني جلس إلى يمينها. واضطررت إلى الجلوس بعدهم بصفين، وكانوا على يساري. وكانت هناك حركات مياعة وتشجيع من حسيبة تجاه الجاك آس بالذات؛ من ميل عليه، وتقريب لشفتيها من وجهه وهي تهمس له أثناء المحاضرة، وأشياء من هذا القبيل. وكنت أغلي من الداخل. ولم تفلح المياه الفوارة التي رحت أصبها من زجاجاتها التي أمامنا على الطاولة وأشربها، في تهدئة الغليان الداخلي الباطني. ولاحظ السيد آدم سميث، الذي كان يجلس بجواري، ولم

ألحظ حتى هذه اللحظة أنه كان يجلس بجواري، أنني أشرب الكثير من الماء، فعلق بما معناه أنني أشعر بعطش شديد، فنظرت إليه بابتسامة سخرية وسألته هامساً:

- والحقيبة الضائعة منك، هل من أخبار عنها؟!

- لا، ليس بعد.

- إذن لن نحصل على أعداد مجانية من نشرتك!

فوجم السيد آدم سميث وبدا عليه أنه زعل. وقلت في نفسي: في ستين داهية!

وكان المحاضر الفرنسي، الذي لم يعنني كثيراً معرفة اسمه، يقول لنا أشياء مهمة بخصوص كيفية تحديد القنوات التي نراسلها بغرض الإنتاج المشترك وكل تلك الأشياء. ورغم أنني كنت مركزاً مع حسيبة والأحمقين اللذين بجوارها، إلا أنني مع ذلك استطعت أن ألتقط بعض النقاط التي راح محاضرنا الفرنسي يؤكد عليها خلال محاضرته. وإليك هذه النقاط:

- قسَّم المحاضر القنوات التلفزيونية إلى ثلاثة أقسام، وسمى كل منها "نافذة"، على النحو التالي:

1- النافذة الأولى: وهي القنوات التي إن وافقت على مشروع فيلمك، فسوف يقومون بإنتاجه بالكامل، بمعنى أنه سيدخل ضمن ميزانية إنتاج القناة التلفزيونية، وفي هذه الحالة، لن تكون في

حاجة إلى أي تمويل آخر إضافي. وضرب لنا مثلاً بفقرة "ستوري فيل" في قناة بي بي سي فور الإنجليزية، التي إن وافقت على مشروع فيلمك، فسيتم منحك ما يوازي الثمانين ألف جنيه استرليني، ثم ستعمل في فيلمك كمنتج منفذ لصالح القناة.

2- النافذة الثانية: وضرب مثلاً لها بقناة آرتيه الفرنسية-الألمانية، التي إن قبلت المشاركة في إنتاج فيلمك، فسوف تعطيك جزءًا من الميزانية، وسيكون عليك تأمين باقي الميزانية من أماكن أخرى.

3- النافذة الثالثة: القنوات التي لا تشارك في تمويل الأفلام، بل تشتريها جاهزة بعد أن يتم صنعها، وهذه القنوات تدفع ما يتراوح ما بين الألف إلى الخمسة آلاف دولار مقابل العرض من مرة واحدة إلى ثلاث مرات، وهم عادة ما يشترون الأفلام الجاهزة التي يتم الترويج لها في السوق الفيلمي الذي يقام على هامش المهرجانات التسجيلية الكبرى في العالم.

- حذرنا المحاضر من عدم الوقوع في فخ الإمضاء على أي عقد حصري لأية قناة من القنوات، وقال إنه الآن، وبعد أن أصدرت العديد من المحاكم الأوروبية أحكاماً ببطلان العقود الحصرية، قد صارت العقود الحصرية في ذمة التاريخ، وهي الآن تعتبر عقوداً باطلة لا تعترف بها أية محكمة في أوروبا، ومن السهل جداً عليك إن تورطت ووقعت عقداً من هذا القبيل، أن يتم إبطاله فوراً في أية محكمة. وهنا تحسرت على حالنا في

مصر، وواقع السينما المصرية، التي لا توجد فيها إلا عقود حصرية فقط، بمعنى أن المبدع، وفور التوقيع على العقد، يتخلى عن ثمرة عمله لصالح شركة الإنتاج مدى الحياة سواء أكان مؤلفاً، أو مخرجاً، أو ممثلاً، أو مصوراً، وهلم جرا. هذا بخلاف أوروبا وأمريكا، التي تستطيع أن تعيش فيها على نحو ممتاز، حتى وإن توقفت عن العمل المهني لبعض الوقت، من العوائد المالية التي يتم تحصيلها لصالحك في كل مرة يتم فيها عرض فيلمك في أية قناة، أو في أي مكان آخر، ولو حتى كان مقتطفاً أو جزءًا صغيراً من الفيلم، وليس بكامله.

- كما حذرنا المحاضر من عدم بيع حقوق البث على الإنترنت، أو التنازل عنها، مهما كانت المغريات، وقال إن هذا هو الكنز الكبير في السنوات القادمة، والذي سيدر الملايين، بل ملايين الملايين على المنتجين السينمائيين في المستقبل، فإياك إياك التنازل عن حقوق الإنترنت يا زعيم!

وشعرت فجأة بالاختناق وأنا أنظر ناحية حسيبة ومن معها. فقمت وخرجت قبل أن تنتهي المحاضرة. ووقفت في مدخل المبنى أدخن سيجارة في الهواء الطلق. وبعد لحظات رأيت مانويلا آتية والقلق باد على ملامحها. سألتني إن كنت على ما يرام؟! فقلت لها إنني على ما يرام وليس هناك داع للقلق، ولكنني أشعر ببعض الصداع وأشياء من هذا القبيل. ولما أنهيت سيجارتي، دخلنا إلى الحمام، وفي داخل أحد الكنف، فعلناها معاً. لكنني ظللت أفكر في حسيبة حتى ومانويلا في أحضاني. وإن

أردت الحقيقة يا رفيق، فقد كانت مانويلا أجمل كثيراً من حسيبة، وتلك حقيقة، أعني أنه وبمعايير أي رجل شرقي، إذا ما شاهد مانويلا تقف بجوار حسيبة فسيسيل لعابه على مانويلا فوراً، ويزهد في حسيبة. لكنها النفس البشرية! وإذا كان يمكن لتجربتي أن تساعد، فأنا أقرر لك الآن أن النفس البشرية شديدة التعقيد في دوافعها وتصرفاتها على نحو لا يمكن تفسيره، وأفضل ما نفعله هنا هو الاقتصار على سرد الوقائع فقط دون تعليلها.

ولما حان وقت الغداء، جلست بجوار بي جى المدهش. وكان على يمين بي جى بسمة، وعلى يمينها شوشانا، التي لاحظت الآن أنها لا تفارق بسمة، وبسمة لا تفارقها، لا ليلاً ولا نهاراً. وجلست إلى يساري ليلى. وبحثت في الأول عن حسيبة، فلم أجدها على المائدة. وفوجئت لما رأيتها آتية بعد قليل بصحبة السيد بوريس المديوكر كومشنج إيديتور قناة آرتيه فرع ألمانيا، وهالني أن أراها برفقة حاجي بابا حمص أخضر، بعد أن حدثتها عن غبائه، وفظاظته، وضعفه المهني، وكل ذلك! شعرت بطعنة في الصدر يا رفيق، حقاً، دون مزاح!

ولم أستمتع بالأكل، بالرغم من أنه كان شهياً وكل شيء. كان هناك سمك فيليه، ثم وضعوا أمامنا محاراً، وبالطبع كانت هناك دوارق النبيذ، وكان النبيذ روزى، ومذاقه في منتهى الجمال. ووضعت همي في النبيذ من جديد، وأظنني شربت أكثر من دورقين كاملين هذه المرة. كنتَ ما إن تنهي دورقاً، حتى يأتيك النادل بدورق جديد دون أن تطلب أو حتى تشير له أو تلفت

انتباهه. كان الغداء اليوم سائلاً بحق! وأنا، كما تعلم، من عشاق الغداء السائل، والعشاء السائل. ومن جديد لاحظت أن هناك حركات مياعة وتشجيع من حسيية تجاه الوالي أبو زعيزع! وتذكرت لحظتها موقفاً حدث في إحدى المرات التي حضرت فيها مهرجان الإسماعيلية للأفلام التسجيلية. كانت هناك مخرجة شابة من المغرب، وكانت تصر على ارتداء تنورات قصيرة للغاية تظهر فخذيها وكل شيء، وكان الرجال والشباب في المهرجان يحيطون بها في كل مكان كالذباب. ثم أتذكر أن أحد زملائنا النابهين تنبأ بأن هذه البنت سوف تفتعل مشكلة! ولما سألته لماذا يقول ذلك؟! قال إنه يعرف هذه النوعية من البنات، وهن دائماً ما يجذبن الرجال إليهن من أجل افتعال مشكلة في الآخر. عقدة نفسية وأشياء من هذا القبيل تنتمي إلى عالم الدكتور فرويد. وقد صدق صديقي هذا، فلم يمر يومان إلا وكان جميع من في المهرجان يتحدثون عن اتهام المخرجة المغربية الشابة التي ترتدي تنورات تظهر كامل فخذيها حتى اللباس لمخرج شاب مصري بمحاولة اغتصابها، وكانت جرسة كبيرة، وتناولت الجرائد الفضيحة وكل شيء.

ولما وضعوا المحار أمامنا، وضعوا بجواره طبقاً صغيراً مملوءًا بالماء وفيه نصف ليمونة. واحترنا، والحق يقال، في ما نفعله بالطبق المملوء بالماء والليمون. إلى أن بادر بي جى الرائع بأخذ محارة وفتحها، ثم أكل ما بها من لحم، ثم وضع الصدفة الفارغة في طبق المحار على جنب، ثم قام بتغطيس أطراف أصابعه في الماء والليمون، ففهمنا أنه من أجل غسيل الأصابع

من زفارة المحار. وأنا الذي كنت على وشك أن أشربه! وهكذا فأنت ترى كيف أن الولد بي جى أنيق في طعامه، متمكن من فنون وآداب الإتيكيت، ويعرف ويفهم في كل هذه الأشياء. نهايته، قلدناه، وأخذنا نأكل المحار، ونغطس أطراف أصابعنا في الماء والليمون. فتصور أن أكلة سمك ومحار عظيمة كهذه، ومعها كل هذه الكميات من النبيذ الروزى، ثم لا يستمتع المرء بها بسبب تصرفات حسيبة وكل ذلك. لقد زادت من حركاتها المائعة وهي تميل كل آن وآخر على كتف حاجي بابا حمص أخضر المديكور، حتى كدت أجن! وقلت بيني وبين نفسي إن هذه الست سوف تتسبب في فضيحة وجرسة قريباً جداً، لأنها مصابة بعقدة نفسية تجعلها تلم الرجال حولها وتشجعهم، ثم تروح وتشتكى من أن أحدهم قد حاول اغتصابها أو شيئاً من هذا القبيل.

ولما انتهى الغداء، دخنت سيجارة قبل الدخول لقاعة السينما التي كانت ستعرض فيلماً قامت شوشانا بإخراجه سابقاً. وكان الفيلم عن ذلك الشخص الإسرائيلي الذي نجا من كارثتين مميتتين في حياته، فقد نجا من أحد معسكرات النازي الألماني وهو طفل صغير، ولما هاجر إلى إسرائيل، وأصبح فيما بعد بطلاً من أبطال سباقات المشي، واشترك في أولمبياد ميونخ عام 1972، نجا مرة ثانية من عملية ميونخ؛ وهي العملية التي قامت فيها منظمة (أيلول الأسود) الفلسطينية، في الساعة الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة من صباح الخامس من سبتمبر 1972، باقتحام مقر البعثة الرياضية الإسرائيلية في القرية الأولمبية، واحتجاز عدد من الرهائن الإسرائيليين من الرياضيين المشاركين في

الأولمبياد، وكان مطلبهم هو الإفراج عن عدد 232 معتقلاً فلسطينياً من السجون الإسرائيلية، بالإضافة إلى الألمانيين أندرياس بادر وُألريكه ماينهوف من منظمة (الجيش الأحمر) اليسارية، والياباني كوزو أوكاموتو عضو منظمة (الجيش الأحمر) اليابانية؛ والذي قام بعملية إطلاق للنار في مطار اللد في إسرائيل في الثلاثين من مايو 1972، حيث فتح مع شركاء له من (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) النار في قاعة انتظار الأمتعة بواسطة بنادق أوتوماتيكية. وانتهت عملية ميونخ بعملية كارثية لتحرير الرهائن المخطوفين، بعد أن رفضت إسرائيل مطالب منظمة (أيلول الأسود)، وقالت حينها رئيسة الوزراء الإسرائيلية جولدا مائير: إن وافقنا على مطالبهم، فلن يشعر إسرائيلي واحد بالأمان على حياته في أي مكان حول العالم! وأدت عملية التحرير الكارثية التي قامت بها أجهزة الأمن الألمانية الغربية في النهاية إلى مقتل 11 رياضياً إسرائيلياً، و5 من منفذي العملية الفلسطينيين، وشرطي ألماني غربي، وطيار مروحية ألماني غربي.

وكانت عيناي تفتشان عن حسيبة في كل أنحاء قاعة العرض، بلا جدوى، فلم تكن الست حسيبة هناك. وقبيل نهاية الفيلم، قمت وغادرت القاعة، وتوجهت إلى الحمام، بنصف رغبة في التبول، ونصف حاسة استخباراتية فلعلي أجدها هنا أو هناك. وصدقت مجسات الاستشعار الاستخباراتية، فقبل أن أدخل الحمام مباشرة، لمحتها واقفة في ركن مظلم مع أحدهم. مع من؟! خمن يا أستاذي الفاضل؟! مع لا أحد سوى الولد رامز أبو خليل برنس

الطاقة السلبية! فزاد ذلك من غضبي وغيظي وحنقي. نهايته، دخلت الحمام، تبولت نقطتين، ثم خرجت ودخلت قاعة العرض من جديد، حتى لا ألفت نظرهما إلى أنني أتجسس عليهما وكل تلك الأشياء، وأنا أقول في نفسي إن الشيطان نفسه يعجز عن معرفة دوافع حسيبة في التسلية بالرجال على هذا النحو! واشتعلت الرغبة بداخلي مزيداً من الاشتعال وأنا جالس في الظلام، وقد بدأت تترات النهاية لفيلم شوشانا في النزول. كنت في حالة انفعال واهتياج، مما جعل أفكاري مشوشة ومضطربة، وطغى عليّ إحساس قاتم وشامل وعارم بانعدام الثقة في نفسي.

ولما ركبنا الحافلة في طريق العودة إلى فندقنا، كانت حسيبة تجلس إلى جوار الحمار رامز أبو خليل. وجلست أنا في مؤخرة الباص، على الكنبة الخلفية، بجوار بي جى، وكانت بسمة إلى يساره، وشوشانا إلى يسارها. وكانت بسمة وبي جى الآن لا يفترقان، كما كانت بسمة وشوشانا أيضاً لا تفترقان. وشككت بعض الشيء في طبيعة العلاقة بين بسمة وشوشانا. ووجدت الفرصة لأهنئ شوشانا على فيلمها وكل شيء. قلت لها إنه فيلم عظيم، والإخراج فيه عظيم. كان الفيلم عظيماً لأن شوشانا لم تشعرنا بأنها تتدخل كمخرجة كثيراً في سير القصة، فالفيلم التسجيلي مثل الكعكة، والدريسنج هو الإخراج، أعني أن جسم الفيلم نفسه أو الكعكة نفسها هي القصة والأفكار والقيم وما يريد صانع الفيلم أن يقوله وكل شيء، بينما الإخراج هو التقنية والأشياء التي من هذا القبيل. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، كان هناك نوع من الغموض في شخصية الرجل الإسرائيلي الذي

نجا مرتين من كارثتين محققتين، والجميل في شغل شوشانا أنها حاولت الحفاظ على هذا الغموض في الفيلم. هناك غموض في قلب كل قصة، وعليك أن تحافظ على هذا الغموض يا رفيق. وابتسمت لي شوشانا، وشكرتني على ذوقي وكل شيء. كانت البنت على ما يرام، وإن أردت الحقيقة، كانت شوشانا لطيفة جداً، والحق يقال.

وكان جاك آس يجلس في الكرسي الذي أمامي مباشرة في الصف الذي على اليمين، وكان ممسكاً بتليفونه المحمول ويتحدث بصوت عال وهو غاضب وحانق ومنفعل أشد الانفعال، وسمعنا جميعاً ما كان يقوله، والشتائم التي كان يطلقها وكل شيء. وكان كل الزملاء ممن يجيدون الفرنسية ينظرون إلى بعضهم البعض ويبتسمون. بل حتى كان بعضهم يضحك. ويتلخص الموضوع في أن هذا الجاك آس كان يكلم صبياً مراهقاً هناك في باريس حيث تعيش جدة الجاك آس، ويبدو أن ذلك المراهق الذي هو أحد جيران جدة الجاك آس كان يضايق الجدة وكل شيء، فكان الجاك آس يهدده في التليفون بأنه إن اقترب مرة أخرى من جدته فسوف ينكحه وينكح أخته وكل ذلك. وبعد أن أنهى جاك آس المكالمة مع ذلك الفتى، اتصل بفتى آخر، يبدو أنه كان هو الآخر مشتركاً مع الفتى الأول في مضايقة جدته وكل شيء، وراح يشتمه ويهدده هو الآخر ويقول له إنه سوف ينكحه وينكح أخته إن سمع أنه قد اقترب من جدته أو ضايقها من جديد وكل ذلك. كانتا مكالمتين مضحكتين جداً يا معلم، وقد أخرجني ذلك، بعض الشيء، من حالة الغم والنكد والضيق التي تسببت فيها حسيبة بتصرفاتها

الغريبة مع الرجال. وكبر الرجل في نظري، وندمت على تسميته منذ البداية "جاك آس"، فلم يكن "آساً"، والحق يقال، وقررت استبدال تلك التسمية الغير موفقة، فسميته بيني وبين نفسي: "جاك السفاح".

وحين وصلنا إلى الفندق، اختفت حسيبة ورامز أبو خليل عن الأنظار، بالرغم من أنني حاولت النزول بسرعة من الحافلة، ثم فتشت عنهما في أرجاء لوبي الفندق وكل شيء، دون جدوى. وفكرت أنهما الآن في غرفتها، أو في غرفته، فوقع قلبي بين قدميّ. وصعدت إلى غرفتي، وخلعت ملابسي. ودخلت الحمام، ومارست العادة حتى أتيت. لكن، للأسف، بعد خمس دقائق كنت أفكر في حسيبة من جديد، بل وعلى نحو أقوى وأشد. وقلت لنفسي إنني في أشد الحاجة إلى هدوء النفس، لذلك شرعت في تدوين اليوميات. ولم يستغرق الأمر مني وقتاً طويلاً، وأنت تتذكر ولا شك ما سبق وأن قلته لك من أنني قد قررت في كتابة اليوميات عدم الإيغال في التفاصيل وأوصاف السحنات وما إلى ذلك. ثم استلقيت عارياً على السرير. وشرعت أتفرج على التلفزيون. ولففت سيجارة، ورحت أنفث دخانها في حرية، دون الاكتراث بجرس أنذار الحريق اللعين. وكانت قناة فرنسية تعرض تقريراً عن صناعة السيارات الألمانية. وخلص التقرير في النهاية إلى أنه ما دامت صناعة السيارات في ألمانيا بخير، فإن ألمانيا كلها بخير.

وقلبت قليلاً في القنوات، حتى وجدت قناة فرنسية أخرى تذيع

فيلماً تسجيلياً عن ممارسات الجنود الأمريكيين داخل سجن أبو غريب العراقي منذ سنتين تقريباً أو أكثر قليلاً. ظهرت الجرسة والفضيحة للعالم أجمع في أواخر أبريل 2004. وكان في الفيلم تلك الصور التي شاهدها العالم كله، وكانوا يغطون المواضع الحساسة فيها لئلا تظهر للمشاهدين، بالرغم من أن المشاهدين قد شاهدوها عشرات المرات من قبل، ومنها تلك الصورة الشهيرة للسجين العراقي الواقف على صندوق، مرتدياً قناعاً أسود، وفي يده وصلات أسلاك كهربائية. وأخرى للمجندة الأمريكية التي تجر سجيناً عارياً ملقى على الأرض بحبل مربوط في عنقه. وصورة الجندي الأمريكي الذي يرهب أحد السجناء على الأرض بالكلب البوليسي. وصورة أخرى لكلاب بوليسية في أيدي الجنود الأمريكيين يرهبون بها سجيناً عارياً مزنوقاً في ركن بالزنازين. وصورة جندي أمريكي يجلس القرفصاء بسلاحه على ظهر سجين عراقي ملقى على بطنه وهو عارٍ. وصورة السجناء العراة في ممر السجن، وهم مكدسون فوق بعضهم البعض، ويقف حولهم بعض الجنود الأمريكيين من الجنسين وهم يتضاحكون، وإلخ إلخ إلخ.

وكان هناك لقاء مع جندي أمريكي سابق كان يعمل في سجن أبو غريب، وتورط في تلك الانتهاكات، وحكمت عليه المحكمة الأمريكية بالسجن لمدة عام، وكان اللقاء يتم في جراج أو شيء من هذا القبيل، وقال إنه نادم على ما فعله بالسجناء العراقيين، وإنه بات يكره نفسه بعد تلك الحادثة وكل شيء، وإن هناك اعتداءات جنسية أيضاً حصلت في السجن من رفاقه على السجناء

العراقيين الأبرياء الذين تم القبض عليهم بالخطأ في الغارات الأمريكية على القرى والبلدات العراقية، وقال أيضاً إنه علم أن بعض السجناء العراقيين قد ُضربوا حتى الموت، وإنه شاهد جثة سجين ُضرب حتى الموت ملفوفة في بلاستك، وإنه كان هناك بالإضافة إلى الانتهاكات: قتل، واغتصاب، وأهوال أخرى كثيرة، وإن سجن أبو غريب كان محتجزاً به، وقت عمله هناك، أكثر من ألفين من السجناء العراقيين؛ من الرجال، والنساء، والأطفال أيضاً.

ثم هناك لقاء آخر مع السجين العراقي الشهير الذي كان يقف على الصندوق في الصورة وعلى رأسه القناع الأسود؛ الأستاذ علي القيسي، الذي قال إن هذه التجربة قد سحقته نفسياً إلى الأبد، كما قال إن المترجمين العراقيين الذين كانوا يعملون في السجن قد شاركوا الأمريكيين هم أيضاً في تلك الانتهاكات. وقررت أن أستحم، لأنني شممت رائحة مانويلا عالقة في جسدي، وكرهت أن تظل عالقة في جسدي عندما أنزل لتناول العشاء. ولما انتهيت من الاستحمام، قررت أن أكون الأكثر أناقة بين الرجال الليلة، فارتديت القميص الببير كاردان السماوي، على البنطلون الليفايز السماوي. ودهنت الحذاء الكلاركس بالورنيش، حتى صارت لمعته براقة. وعطرت نفسي بعطر الفهرنهايت، بكمية أكثر كثيراً من المعتاد، بالرغم من أنني كنت من أنصار التلميح لا التصريح فيما يختص بالعطور، لكنني كما قلت لك كنت أشعر بفقدان الثقة في نفسي وكل شيء.

وغادرت الغرفة أبكر من موعد العشاء بربع ساعة أو أكثر قليلاً. ومشيت محاذراً حتى غرفة حسيبة، التي كانت في نفس الطابق. وكنت أخشى أن يراني أحد الزملاء أو الزميلات. ووقفت على عتبة غرفتها، وطرقت بهدوء طرقتين. ولم أسمع أي جواب. فطرقت مرة أخرى بظهر الوسطى طرقتين أقوى. برهة، ثم سمعت خطوات ثقيلة تتجه ناحية الباب، وكأنها كانت تتقافز أو تنط على الأرض أو شيء كهذا. سألتْ بالفرنسية من وراء الباب المغلق:

- من؟!

- أنا سامح يا حسيبة!

- نعم!

- إنه موعد العشاء الآن، هل ستنزلين؟!

- طيب، سأنزل بعد قليل، شكراً.

ووقفت وأنا أفكر: هل أنتظرها حتى تنتهي من ارتداء ملابسها وتفتح الباب؟! أم أن موقفي سيكون سخيفاً إن رآني أحدهم؟! ولم يطل التفكير، فقد حسمته بسمة، حيث رأيتها تخرج من غرفة شوشانا. فهممت بالمشي ناحيتها، قبل أن تراني واقفاً أتسول على باب حسيبة وكل شيء. سلمت عليها، وبدا عليها الارتباك بعض الشيء. وخمنت أنها لم تكن تحب أن أراها

خارجة من غرفة شوشانا. وسألتها إن كانت بصدد النزول الآن لأن موعد العشاء قد اقترب، فقالت إنها ستنزل بعد قليل لأن الوقت ما يزال مبكراً وهي في حاجة لتغيير ملابسها. فنزلت وحدي إلى بهو الفندق. ولم أجد أحداً من الزملاء باستثناء إنياس البلجيكي صاحب مشروع فيلم (عطور البحر الأبيض المتوسط). واصطحبته إلى خارج الفندق من باب شم الهواء الطلق والتدخين في نفس الوقت. وعزمت عليه بسيجارة أمبرليف لف، فابتسم وقال إنها خفيفة كثيراً بالنسبة له، وراح يدخن سيجارة جيتان بلو الأصلية التي كنت أعشقها والتي هي بدون فلتر كربوني وكل شيء. وعزم عليّ بواحدة، فطوحت بباقي سيجارة الأمبرليف بعيداً. وأشعل لي الولد المهذب السيجارة وهي بين شفتيّ. وسألته عن أحوال مجموعته، وأحواله مع السيد بوريس أبو زعيزع كومشنج إيديتور قناة آرتيه فرع ألمانيا. فقال إن الأحوال على ما يرام، وإن السيد بوريس حمص أخضر لا بأس به وكل شيء. وسألته إن كان فعلاً سوف يفعل ما اقترحه عليه بوريس الحمار ويحوِّل فيلمه إلى سلسلة أفلام؟! فقال الولد إنه ما يزال يفكر في الأمر ولم يحسم قراره بعد. فنصحته ألا يفعل. لم يكن الأمر يعنيني ولا من شأني، ولكني كنت قد استلطفت الولد إنياس وأشفقت عليه. كان الولد لا بأس به.

وسألني إنياس عن النسخة التي وعدته بها من سيناريو فيلم القرافة. فتذكرت لتوي أنني قلت له ولماري بإنني سوف أجهز لكل منهما نسخة من المعالجة. فاعتذرت له، ولم أقل إنني نسيت، بل قلت بإنني لا أملك إلا نسخة واحدة فقط، وسوف أسأل

ريسبشن الفندق عن مكان قريب لتصوير الورق لكي أجهز له نسخة. فقال إنياس فوراً بحماسة إن الغرفة التي يستعملها خافيير ومساعداته في إدارة الورشة بها ماكينة تصوير وورق وكل شيء. فسألته إن كان الوقت يسمح الآن لكي أصعد إلى هناك وأنسخ نسختين؛ واحدة له والآخرى لماري؟! فقال إنه من الأفضل أن أقوم بذلك غداً، لأن خافيير والمساعدات قد نزلوا الآن، ثم أشار بإصبعه إلى ركن بالبهو، والتفت فرأيت خافيير ومساعداته الثلاث يقفن هناك في اللوبي. ثم بدأ الرفاق في الخروج من باب الفندق.

انضمت إلينا ماري. وسرنا نحن الثلاثة معاً في الشارع في صف واحد، خلف طابور من الزملاء والزميلات، متجهين إلى المطعم الذي حجز فيه خافيير للعشاء في هذه الليلة. ولمحت حسيبة تسير في الخلف بجوار جاك السفاح، وقلت في نفسي: ربما يكون جاك السفاح هو الذي رسى عليه العطاء! وكانت ترتدي جيبة فاتحة محبوكة وقصيرة بفتحتين جانبيتين تظهران فخذيها. فقلت في نفسي: فما بالك لو جلست! أكيد ستنحسر الجيبة عن وركيها وهي جالسة إلى جوار جاك السفاح! يا بختك يا جاك يا ابن المحظوظة!

ووصلنا بعد قليل إلى المطعم. وكان عبارة عن عوامة في القناة، أو قارب قديم تم تحويله إلى مطعم عائم أو شيء كهذا. لم تكن مساحته كبيرة من الداخل، بل العكس. وقد صفوا خمس مناضد بطول العوامة، وتركوا مساحة صغيرة بالعرض لحركة

الزبائن والندل. وكانت الحوائط مليئة برفوف مصفوف عليها أدوات المطبخ وكل شيء، حتى أنك تشعر وأنت جالس وحولك المقالي والطناجر المعلقة وكأنك جالس في مطبخ بيتك أو شيء من هذا القبيل. كان الجو حميمياً ويفتح النفس والشهية، لكنك تعلم، ولابد، أن مزاجي كان معتكراً بسبب حسيبة وكل شيء. ورأيت حسيبة وقد جلست بجوار جاك السفاح، كما توقعت، وجلس بجانبها من الناحية الأخرى بوريس أبو زعيزع.

كنت أجلس في آخر منضدة، فكان أمام ناظري كل المناضد الأربعة الأخرى. كانت حسيبة في المنضدة التي تلي المنضدة التي بعدي. أما المنضدة التي بعدي، فكان ما يميزها أنه جلس إليها التوأم الفرنسي التولوزي اللتان هما من أصل فلبيني أو شيء كهذا، وكانت إحدى التؤامين يجلس، إلى يمينها وإلى يسارها، رجلان فارعا الطول، ممشوقي القوام، في منتهى الوسامة والرجولة. همست ماري، التي جلست إلى جواري، بالفرنسية وهي تبتسم، لما رأتني أحملق فيهما:

- هل تعلم من هما؟! أحدهما زوجها، والآخر عشيقها!

- حقاً! أتمزحين؟! وتجمع بينهما في خروجاتها العشائية؟!

- أنظر إليهما، الاثنان يغيران من بعضهما البعض، وكل واحد يحاول أن يكسبها!

- وهي بالطبع مستمتعة بذلك!

وضحكنا. أعني أن البنت كانت قصيرة، وقبيحة، والحق يقال، ولا توجد أية أمارة لكي يتنافس عليها رجلان وسيمان، تتمنى أية أمرأة من أيهما أن يشير إليها بإصبعه الصغير وكل شيء. وقلت في نفسي: سبحان الله، صدق اللى قال كل فولة ولها كيَّال!

وكان الصحن الرئيسي للعشاء السائل في هذا المساء، عبارة عن كرات من اللحم. أعني أنها كرات كبيرة جداً من اللحم، حوالي أربع أو خمس كرات كبيرة جداً من اللحم في صحن كل منا! والصحن نفسه كان كبيراً بإفراط! وكان هناك بعض الخضروات من البسلة والفاصولياء والجزر وقطع البطاطس حول كرات اللحم. وكان هناك صوص أحمر في أطباق صغيرة من المفروض أنك تغمس كرة اللحم فيها قبل أن تأكلها. هذه المعلومة الأخيرة عرفتها عندما راقبت بي جى الذي كان يجلس أمامي. وإن كنتَ تريد أن تعرف كيف تأكل أي شيء على وجه الأرض فعليك بمراقبة بي جى الرائع وهو يأكل، ثم ما عليك بعد ذلك سوى أن تقلده، فتكون قد اتبعت الإتيكيت الصحيح. كان يرشق شوكته برشاقة في كرة اللحم تلك، ثم يغمس جزءًا منها في الصوص، ثم يرفعها إلى فمه ويأكل فقط الجزء المُصوَّص، ثم يعيد غمسها مرة أخرى، ثم يأكل الجزء المُصوَّص، وهكذا دواليك.

وأحب أن أذكرك بأنني قد قلت في بداية الفقرة السابقة: "العشاء السائل"، ومادمت قد قلت "العشاء السائل"، فعليك أن

تتوقع دوارق النبيذ التي كانت توضع وهي ممتلئة لعينها، وترفع وهي فارغة جوفاء. ومن المفترض ألا تسأل هذا السؤال المتعلق بنوع النبيذ ولونه؛ إن كان أحمر، أم أبيض، أم روزى، فالجميع يعلمون أنه مع اللحوم الحمراء لا يُقدم إلا النبيذ الأحمر، أعني جميع من يشربون الخمور والنبيذ وكل شيء.

وكانت ليلى هي الأخرى تجلس أمامي على المائدة، بجوار بي جى. وكانت تبدو معتكرة المزاج وغاضبة بعض الشيء. فسألتها هامساً. فردت وقالت باستياء بالغ بإنها كانت تريد أن ترقص، وإنها معتادة على الرقص في كل ليلة، ولا يمكنها أن تتحمل مرور يوم بلا رقص وكل ذلك، وإنه لو علمت أن المطعم ليس به قاعة للرقص لما أتت من الأساس، ولذهبت إلى أي مكان آخر يمكنها الرقص فيه ولو بمفردها! وحاولت أن أطيب خاطرها، لكنها كانت غاضبة جداً، وراحت تلوم خافيير على اختياراته في المطاعم التي يحجز لنا فيها على العشاء، وراحت تقول أيضاً إن تكلفة العشاء في أي مطعم من المطعمين اللذين تناولنا فيهما العشاء، سواء بالأمس أو اليوم، تتكلف ما يقارب نصف ميزانية فيلم من أفلامنا! فضحكنا جميعاً على المائدة. وصببت لها نبيذاً في كأسها. وصببت لماري، ولهالة التي كانت تجلس بجوار ليلى، ولأولجا التي كانت تجلس إلى جوارها، ولبي جى، ولإنياس الذي كان يجلس إلى يساري، ولكيت التي كانت تجلس إلى جواره. وهكذا أفرغت دورقي نبيذ كاملين. فرفعتهما النادلة الصغيرة العشرينية. وأتى لنا النادل الثلاثيني بدورقين آخرين ممتلئين مكانهما.

وذكرني موضوع حب ليلى للرقص، وإدمانها اليومي عليه، بشيء كنت قد سمعته من صديق في المدرسة الثانوية كان يمارس رياضة المصارعة الرومانية. فقد كان لنا هذا الزميل في الصف الثاني الثانوي، وكان ذكياً ومتفوقاً في الدراسة، لكنه كان أيضاً من المتفوقين في المصارعة الحرة. وكان هذا الولد دائماً ما يفتعل المشاكل لكي يتعارك مع أي أحد. وكنا وقتها صديقين، وفي مرة سألته بعشم لماذا يفتعل المعارك مع الناس بدون سبب وجيه؟! فقال إنه لا يفعل ذلك إلا في الأيام التي لا يكون لديه فيها تمرين على المصارعة، وإنه في تلك الأيام يأكله جسمه كله ويتوق إلى الدخول في معركة فيها ضرب وخبط وهبد، وإنه إن لم يفعل ذلك فسيشعر وكأن حكة قوية ومستمرة تأكل جسده كله! وقارنت في ذهني بين جسد أيمن المصارع الذي كان يأكله أكلاً إن لم يدخل في عركة، وبين ليلى المنتجة والمخرجة التي يأكلها جسدها أكلاً إن لم تدخل في رقصة.

ورأيت حسيبة تخلع السترة الخفيفة الحمراء التي كانت ترتديها. وظهر كتفيها العاريين، ونحرها كله، وساعديها، وإبطيها، وكل شيء، لأنها كانت ترتدي فانلة بحمالات ذات لون فاتح. ورأيت بوريس حمص أخضر يغرس نظره في لحمها العاري، خصوصاً إبطها وهي تمد يدها لتتناول شيئاً من على المائدة. وللمرة الأولى أعجبني ذوق السيد بوريس، فأنا أيضاً من هواة الإبط الحريمي وكل شيء. وحسدت السيد بوريس والسيد جاك السفاح لأنهما يحظيان الآن برؤية فخذي حسيبة المكشوفين، ونحرها العاري، وساعديها العاريين، وإبطيها العاريين، وكل

ذلك.

وكانت النادلة الشابة الرشيقة القوام، والتي تبدو كمن تعمل لكي تعيل نفسها في فترة الصيف وإجازات الكليات والمعاهد، قد شرعت في لملمة الصحون الفارغة. والنادل من هؤلاء يعرف الصحن الفارغ من الصحن الغير فارغ، أو قل يعرف مَن مِن الزبائن انتهى من صحنه، ومن منهم لم ينتهي بعد، بملاحظة شيء بسيط للغاية، ففي عرف الإيتيكيت، أنت تضع الشوكة والسكين متجاورين متوازيين إلى جوار بعضهما البعض على حافة الطبق، إما على اليمين، أو على اليسار، علامة على أنك قد انتهيت من طبقك. أما إن وضعت الشوكة والسكين متقاطعين على بعضهما البعض في وسط الصحن، فهذا يعني أنك لم تكمل طعامك بعد، ولن يقترب منك أي نادل لكي يرفع طبقك، حتى وإن كان فارغاً وملحوساً لحساً.

ولما وضعت النادلة الصغيرة عدة أطباق فارغة على ساعدها، كما يفعل الندل المحترفون، وحملت طبقين آخرين في يدها الحرة، وبدأت بالمشي، سقط كل شيء على الأرض فجأة! أنا لا أعلم إن كانت قد تعثرت مثلاً، أم أن توازن الصحون قد اختل على يديها، المهم أن كل الصحون قد وقعت على الأرض. وفوجئت بالجميع على الموائد يصفقون بحماس وهم يضحكون! وغرقت النادلة الصغيرة في الخجل، وهيئ لي أنها تبكي أو شيء من هذا القبيل. وهممت أن أقوم وأساعدها، لكنها انحنت بسرعة على الأرض وراحت تلملم تلك الصحون التي سقطت.

واستغربت من رد فعل الأوروبيين وقسوتهم على نادلة صغيرة شابة تحاول أن تساعد نفسها، وقلت في نفسي: يا لقسوة البشرية!

ولما خرجنا من المطعم، سرت في المجموعة التي فيها بي جى الرائع، لأنه كانت لديه تلك الحاسة المدهشة في معرفة الاتجاهات؛ سنس أوف دايركشن وما إلى ذلك. ولم أحب بالطبع أن أتورط مع دراجين تولوزيين يرتدون السترتات الجلدية. ولففت سيجارة وأنا أمشي، ورحت أدخن. وأخرج إنياس، الذي كان يسير بجواري، قطعة حشيش صغيرة ملفوفة في ورقة سوليفان خضراء، تماماً كما يُلف قرش الحشيش عندنا في مصر. وقدرت بنظري أن القطعة ربما كانت في حدود ربع قرش أو شيء كهذا. وقسم الولد الكريم الربع قرش إلى نصفين، وناولني نصفاً، فشكرته. وسألته عن مصدره، فقال إنه من الأتراك الذين يعيشون في بلجيكا. وقال إنه متوفر عندهم هناك بكثرة، وفي كل مكان تمشي فيه في بروكسل. سألته إن كان قد جلبه معه من بروكسل، بالرغم من أن الولد كان كلامه واضحاً، ولكنني سألته هذا السؤال العبيط والسلام، ربما لأنني لم أكن مركزاً انتباهي معه. كان تركيزي على كتفي حسيبة العاريين وهي تسير بمعية جاك السفاح، والبنتين الفرنسيتين الفلبينيتين التوأم، والزوج والعشيق الخاص بإحدى التوأمين. والتفتت حسيبة فجأة وهي تمشي إليّ وكأنها شعرت بلسعة نظراتي على لحمها العاري، وغطت كتفيه العاريين، فوضعت الكنزة التي كانت تمسكها في يدها على كتفيها دون أن ترتديها.

وسبقت الجميع إلى الدخول إلى الفندق حالما لاح من بعيد. وصعدت السلالم بسرعة. ووقفت في مكان معتم على الدرج، كاشفاً بعيني الردهة الطويلة للطابق الذي فيه غرفتي وغرفة حسيبة. كنت أنتظر حتى تصعد في المصعد، وكنت أود أن أعرف من سيدخل معها غرفتها وكل شيء. نهايته، انتظرت هناك فترة طويلة، وكانت الزميلات والزملاء يصلون بالتتابع إلى الطابق، ويدخل كل منهم لغرفته ويغلقها وراءه، إلا الست حسيبة. ولم يكن عندي أدنى فكرة عما كانت تفعله تحت كل هذا الوقت بحق الجحيم؟! وخطر على بالي أخيراً أنها ربما دخلت غرفة جاك السفاح أو بوريس حمص أخضر، اللتان كانتا في الطابق الذي يعلو طابقنا. كان هذا هو التفسير المنطقي الوحيد. ولمت غبائي وأنا واقف هناك على الدرج. كنت ثملاً، ومنفعلاً، والانفعال، كما تعرف، يجعل أفكارك مشوشة ومضطربة. في الحقيقة، كانت هناك عاطفة كبرى تسيطر عليّ، وفكرة واحدة تستحوذ على ذهني: حسيبة! كنت في حالة حمى وأنا أقف هناك على السلم، كنت إنساناً محموماً.

وفجأة شعرت برغبة جارفة لا تقاوم في النوم، وأدركت فوراً أنها هجمة من هجمات النوم. وبينما أنا أجلس على درجات السلم أخذ شعور عام بالضعف الشامل يسري في كل عضلاتي، وخصوصاً ركبتيّ، ولولا أني سارعت بالجلوس على الأرض لخررت مغشياً عليّ. واستندت بظهري إلى درابزين السلم، ورحت في سبات عميق.

رأيت حلماً حياً شديد الوضوح. رأيتني في صالة مسرح كبيرة، أتفرج على ممثلة مثيرة ومغرية على خشبة المسرح، وصعدت إلى خشبة المسرح، ورحت أطاردها هناك، حتى حاصرتها في الركن المؤدي إلى الكواليس، وأمسكت بها من حمالات فستانها، وأنزلته بالقوة إلى أسفل، فسقطت فوراً على الأرض، ورميت نفسي فوقها وهي عارية تماماً، وإذا بالماء الغزير يتساقط على ظهري وعلى رأسي، فنظرت إلى أعلى، ورأيت سقف المسرح تخر منه المياه، وبدأ بياض السقف في الوقوع علينا، ورأيت في المكان الذي تخر منه المياه ثقباً في السقف يزداد ويتسع، وكلما زاد واتسع، كلما كثرت كميات الماء الساقطة علينا، حتى أصبح شلالاً هادراً، وفكرت أن بإمكاني أن آخذ الممثلة في يد، وأن أتسلق باليد الأخرى ستائر المسرح لكي نصبح في مأمن من المياه، لكنني عندما شرعت في تنفيذ ذلك، لم أستطع أن أتسلق الستائر، وقلت: هذا يحتاج إلى قوة جبارة! وغافلتني الممثلة وفلتت من بين يديّ، وقفزت بسرعة في الماء كسباحة محترفة، حتى غطتها المياه واختفت تحتها، ووقفت مذهولاً من جرأتها، وقلت في نفسي: إذا كانت هي البنت قد استطاعت فعل ذلك، فأنا الرجل بالتأكيد قادر على أن أفعل مثلها! ووقفت هناك متعلقاً بأستار المسرح أتفرج على الدلافين التي تتقافز في الماء، وقلت في نفسي وأنا مبسوط: رؤية الدلافين في الماء في الحلم هي بشير خير، لكن رؤية الدلافين على اليابسة في الحلم هي نذير شؤم، والتفت إلى صالة المسرح حيث يجلس المتفرجون، فوجدت عدة دلافين هناك ملقاة على الأرض تصارع

الموت.

وعند ذلك استيقظت.

فتحت عينيّ، وسعلت. وللحظة أو لحظتين، لم أكن واعياً لا بالمكان ولا بالزمان. ثم رحت أتذكر، شيئاً فشيئاً، بأنني في الفندق في تولوز، وعلى درجات السلم. وأقمت ظهري بصعوبة، وأنا أشعر بأن جسدي كله مشلول عاجز عن الحركة. ورحت أتذكر كل شيء حتى اللحظة التي هاجمني فيها النوم. ولم أكن أعلم كم مضى على نومي، لكنني وجدت درجة العتمة لم تتغير كثيراً في ردهة الطابق، فخمنت أني لم أنم كثيراً.

واستمر إحساس الشلل بجميع أطرافي. وكنت أعرف أنها حالة مؤقتة بعد نوبة النوم القهري ولن تستمر طويلاً. وشيئاً فشيئاً، رحت أستعيد إحساسي بعضلات جسدي، وبالتمكن من التحكم فيها. وقمت في النهاية ومشيت إلى غرفتي، وفتحتها بالكارت الممغنط، ودخلت وأغلقت الباب ورائي.

خلعت ملابسي بصعوبة ملقياً بها كيفما اتفق. وانطرحت على الفراش. ورحت أبحلق في سقف الحجرة، وشعور طاغ بالكآبة والقنوط يغمر نفسي.

3

استيقظت على صوت قرع على بابي. ظننت أولاً أن الطرق كان في الحلم، ثم انتبهت إلى الواقع عندما فتحت عينيّ بصعوبة وأدركت أنني نائم في غرفة فندق بمدينة تولوز في فرنسا. أقمت ظهري بمشقة، ولما كنت عارياً، فقد قلت بالإنجليزية:

- حسناً، أنا قادم، لحظة واحدة!

ونزلت من على السرير، وارتديت ملابسي الملقاة على الأرض بسرعة وأنا بعد في تهويمة النوم التي بين النوم واليقظة، وفتحت الباب أخيراً، فرأيت بسمة وبي جي. قال بي جي بابتسامة:

- صباح الخير، من الجيد رؤيتك بخير، لقد قلقنا عليك لأنك لم تنزل إلى الإفطار!

رددت وأنا بعينين نصف مغلقتين:

- صباح الخير يا بي جى، صباح الخير يا بسمة، يبدو أنني قد نمت قليلاً، كم الساعة الآن؟!

نظرت بسمة بسرعة إلى ساعة يدها، كمن ينظر إلى ساعته ليؤكد لك الوقت بالرغم من أنه يعرفه، وقالت بالإنجليزية:

- إنها الثامنة والنصف، لقد انتهى الإفطار، والباص على وشك التحرك في أية لحظة.

- حسناً، أعطوني خمس دقائق وسوف أنزل.

وأغلقت الباب وراءهما. وأسرعت إلى الحمام، وغسلت وجهي بالماء فقط، فقد قدرت أن الصابون سوف يعطلني. وتمضمضت لأزيل رائحة الفم الصباحية، وقد قدرت أن غسيل الأسنان بالفرشاة والمعجون سوف يعطلني. وتأكدت في مرآة الحمام أن عينيّ خاليتين من الرمص، أو العماص إن شئت. وخلعت ملابس الأمس، وارتديت بسرعة ملابس نظيفة. وأخذت شنطة الأوراق، وخرجت من الغرفة وأغلقت بابها. ونزلت في المصعد إلى الدور الأرضي.

كانوا يستقلون الأتوبيس عندما نزلت إلى اللوبي، فصعدت آخر الصاعدين، وأنا أشتاق إلى فنجان من القهوة القوية. وجلست في الكنبة الأخيرة بجوار بي جى، وبسمة، والتي كانت تجلس إلى جوارها شوشانا كالمعتاد، فأنت تعلم الآن أن شوشانا لا تفارق بسمة، وبسمة لا تفارق شوشانا. وبدأت أشعر بصداع. وراح الصداع يزداد أثناء الطريق. كنت فعلاً في حالة سيئة. وشعرت باضطراب في معدتي. وأظن أنه لو كان في معدتي شيء لكنت تقيئت.

ولما وصلنا إلى مقر سينمات يوتوبيا نزلنا من الباص. وتوجهت مجموعتنا إلى غرفة الاجتماعات الخاصة بها. وراح بي جى يعرض لنا مشروع فيلمه، وكان اسمه: (كيف تعلمت أن أتغلب على مخاوفي وأن أحب الاتحاد الأوروبي.)

وذكرني اسم الفيلم، بفيلم ستانلي كوبريك: (كيف تعلمت أن أتغلب على مخاوفي وأن أحب القنبلة)، أو (دكتور سترنجلاف) إن فضلت. وكان كبار اليهود المتنفذين في هوليود قد طلبوا منه، وألحوا كثيراً في الطلب، أن يصنع فيلماً عن جرائم النازي، ومعسكرات الاعتقال الجماعية، والهولوكوست، وكل تلك الأشياء. فصنع لهم كوبريك في النهاية فيلم (دكتور سترنجلاف) الذي هو فيلم عن جنون المؤسسة الرسمية الأمريكية، وكيف أن الفاشية هي محركها الخفي، وأنها لا تتورع عن توريط العالم كله في هولوكوست نووي.

وزاد إعجابي ببي جى كثيراً، لأنه قد اختار لفيلمه اسم من وحي فيلم كوبريك الذي أحبه كثيراً. وفجأة تذكرت أنني قد شاهدت منذ عدة أشهر، في قناة آرتيه الفرنسية، فيلماً للمخرج الإسرائيلي آفي موجرابي، اسمه: (كيف تعلمت أن أتغلب على مخاوفي وأن أحب آريل شارون). وانظر إلى تصاريف العناوين، وكيف أن اسماً واحداً قد يعني الشيء ونقيضه معاً، ففيلم كوبريك الذي يدين الفاشية، وفيلم آفي موجرابي الذي يتساهل مع آريل شارون، كلاهما يحمل نفس الاسم. لكنني استبعدت أن يكون بي جى قد سمى فيلمه كبارودي أو باستيش لفيلم آفي موجرابي، فضلاً عن أن يكون قد شاهد الفيلم من الأساس.

كان بي جى يريد أن يعرض في فيلمه آراء المالطيين الذي يعارضون الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، ومخاوفهم في هذا الشأن، بالرغم من أن مالطا قد انضمت فعلاً، ورسمياً، إلى

الاتحاد الاوروبي في الأول من مايو عام 2004. وانظر إلى هذه المفارقة بحق الجحيم! فتاريخ الانضمام هو نفسه تاريخ عيد العمال في كل بلاد العالم، بينما المعارض الأساسي لانضمام مالطا إلى الاتحاد الأوروبي هو حزب العمال المالطي! وراح بي جى يشرح كيف أن الحزب الوطني اليميني عندهم قد فاز في نتيجة الاقتراع على الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي بهامش طفيف، حيث فاز بنسبة 52% فقط، في حين تتزايد الآن أعداد المعارضين للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.

وكانت مخاوف بي جى، والذي خمنت بالطبع أنه من حزب العمال، أو على الأقل مؤيد له، دون حتى أن أسأله، هي نفس مخاوف كل وطني شريف في أية دولة من دول العالم التي في طريقها إلى تطبيق سياسات النيولبرالية، أو تطبقها بالفعل: الخوف من انهيار قيمة العملة، الخوف من ارتفاع الأسعار، الخوف من التضخم، الخوف من البطالة، الخوف من سياسات التقشف وانسحاب الحكومة من الإنفاق على الخدمات والرعاية الاجتماعية والإنفاق على التعليم والصحة، الخوف من السياسات المالية للاتحاد الأوروبي والمفروضة من قبل وزير المالية الألماني، الخوف من أن يصبح السوق في مالطا عرضة لإرادة السوق في الاتحاد الأوروبي ورغباته وتقلباته، الخوف من تدهور مستوى معيشة الطبقة الوسطى كما حدث في كل الدول التي انضمت مؤخراً إلى الاتحاد الأوروبي: اليونان، والبرتغال، ودول أوروبا الشرقية، الخوف من أن يزداد أعداد الفقراء، الخوف من أن تذهب كل مكاسب الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي إلى فئة

قليلة من المليونيرات المالطيين، الخوف من استيلاء الشركات الكبرى في الاتحاد الأوروبي على الموارد الطبيعية والأصول والمرافق العامة والشركات الوطنية بأبخس الأثمان بعد تعبيد الطرق أمامها برفع القيود الوطنية عنها ومنحها الامتيازات والإعفاءات لكي تربح أكبر الأرباح بأقل التكاليف تحت دعاوى أن الاستثمار الخارجي هو الحل وكل تلك الأكاذيب، وإلخ إلخ إلخ.

وتنفست الصعداء عندما حان وقت الاستراحة أخيراً. كنت في حالة نفسية وبدنية سيئة للغاية، لأنني لم أشرب حتى الآن قهوة الصباح، ولا حتى دخنت. وكنت أشعر بدوار كمن ظل يتشقلب على عارضة أفقية لساعات متوالية. وصببت لنفسي فنجان قهوة، وقد قررت أن أشرب أكثر من واحد حتى أفيق وأشعر بالتحسن. وجاءت ماري ووقفت معي، ورحنا نحتسي قهوتنا سوياً. وسألت عن أحوالي، وقالت إنها تظن أنني لست على ما يرام لأنني أبدو مرهقاً وكل تلك الأشياء. فقلت لها إنني لم أنم جيداً ليلة البارحة. فردت بأنها هي الأخرى لم تنم جيداً ليلة البارحة وأنها قد شعرت بالقلق. فقلقت من مجرى الحديث، لأنني لم أكن أنوي التورط في علاقة مع ماري على الإطلاق. وكنت قد خبرت هذا النوع من الأحاديث فيما مضى، والذي لا بد وأن يقود إلى: ما دام نحن الاثنان نشعر بالأرق، فما المانع من أن نقضي الليلة سوياً؟! لا أعني أن ماري قبيحة أو شيئاً كهذا، فكما يقولون: كل فولة ولها كيَّال. في الحقيقة، لم تكن ماري قبيحة الملامح، أو سمينة العجيزة، أو متهدلة الثديين، وكل تلك الأشياء، ولكنني لم

أشعر بأية إثارة من ناحيتها، أعني أنه لا بد لي من أن أكون محروماً من النساء، ولفترة طويلة جداً، حتى أفكر في ماري جنسياً، لو كنت تفهم ما أعني.

وانتهى فنجان قهوتي بسرعة، فصببت لنفسي فنجاناً آخر. وابتسمت ماري، ولم تعلق. وشرحت لها أنني في حاجة إلى المزيد من القهوة بسبب أرق الأمس وكل ذلك. واستأذنت ماري في الذهاب إلى الحمام. وشربت القهوة بسرعة، ثم صببت لنفسي فنجاناً ثالثاً، وكانت الردهة قد خلت في تلك الأثناء من كل الزميلات والزملاء الذين خرجوا إلى الحديقة لتنشق بعض الهواء النقي.

ولما انتهيت من الفنجان الثالث، شعرت بتحسن كبير في الحالتين المعنوية والفسيولوجية. فخرجت أنا أيضاً إلى الحديقة. وأخرجت عدة التدخين من الحقيبة، ولففت سيجارة، ورحت أدخن أول سيجارة هذا الصباح بمتعة لا توصف. كنت أدخن بشراهة شديدة لحرماني من الدخان منذ أن استيقظت من النوم، فانتهت السيجارة بسرعة. ولففت واحدة أخرى، ورحت أدخنها ببطء، بفضل كمية النيكوتين التي كانت قد دخلت إلى دمي من السيجارة الأولى وضبطت الأمور إلى حد ما. وانضمت إليّ نورا الألمانية، وقالت إنهم قد تعاونوا في (جروب فايف)، شركة الإنتاج الألمانية التي تعمل بها، فيما مضى مع أحد المنتجين المنفذين المصريين، عندما كانوا يصورون أحد أفلامهم في القاهرة منذ عدة أشهر، وإن التجربة كانت سيئة للغاية، لأنه ظهر أن الولد المصري

حرامي ولص ونصاب، فضلاً عن أنه ضعيف مهنياً ولم يستطع أن ينفذ لهم ما كانوا يريدونه أثناء التصوير، مما أثر سلباً على النتيجة النهائية التي ظهر عليها الفيلم وكل شيء. وكنت أتوقع أن تصور جزءًا من فيلمها الحالي في مصر، لأنني قرأت في أوراق الورشة التي وزعوها علينا في أول يوم وصلنا فيه عن فيلم نورا الذي كان عن شخص مصري اسمه "محمد عطا". ومحمد عطا هذا، هو مهندس مصري درس في ألمانيا، وتطرف دينياً وانضم إلى تنظيم القاعدة وكل شيء، وهو قائد مجموعة هامبورج التي خطفت إحدى الطائرات الأمريكية التي هاجمت إحدى مبنيي التجارة العالمية.

قالت نورا إنها في حاجة إلى مساعدة لأنها سوف تقوم بتصوير جزء من فيلمها في مصر. وقلت لها عندئذ إنني قد قرأت النبذة المختصرة لفيلمها عن المأفون محمد عطا، وإنني متشوق لرؤية الفيلم بعد الانتهاء من صنعه وكل ذلك. واقترحت عليها أن تتصل بـ (فيديو مصر)، وقلت لها إنهم محترفون للغاية وسوف يقدمون لها ولـ (جروب فايف) كل ما يحتاجونه بمنتهى الحرفية والانضباط. في الحقيقة، لم أحب أن أسارع بترشيح نفسي للمساعدة، لأنني خجلت، والحق يقال. وردت نورا وقالت إنهم قد قاموا بالفعل بالاتصال بفيديو مصر، ولكنهم يغالون في أتعابهم. فوجئت، في الحقيقة، من أنها اتصلت بفيديو مصر، وتأكدت من حرفيتها، ومن حرفية (جروب فايف)، ماداموا يعلمون أهمية وحرفية (فيديو مصر) في مصر. سألتها كم طلبوا؟ فقالت إنهم طلبوا ثمانية آلاف يورو من أجل المساعدة في عملية البحث

ومعاينة أماكن التصوير في مصر. سألتها:

- ثمانية آلاف يورو من أجل البحث والمعاينات فقط؟!

قالت:

- نعم.

كان مبلغاً كبيراً فعلاً. وشعرت باستياء وغيظ شديدين من غباء المصريين في التعامل مع الأجانب من ناحية، وروحهم العالية في السرقة والنصب من ناحية أخرى. قالت نورا:

- هل تستطيع أنت أن تساعدنا هناك؟! لن نحتاج للتصوير في مصر في هذه الفترة، أنا فقط أريد أن أجري بعض المعاينات عن الأماكن التي عاش فيها محمد عطا، والمدارس التي ذهب إليها، والكلية التي درس فيها، وبعض الجيران والأصدقاء الذين ما زالوا يذكرونه، وبعض من أهله إن أمكن ذلك.

- نعم، بالطبع، سيسعدني ذلك كثيراً، اعتبري الموضوع قد تم!

- شكراً جزيلاً.

وبعد لحظة صمت، قالت بمنتهى الروح العملية، وبلا أدنى ذرة خجل:

- وكم ستأخذ؟

- هممم.. كنت قد قرأت أن محمد عطا قد ولد في قرية في محافظة كفر الشيخ، قبل أن يأتي أهله ويستقروا في القاهرة..

- نعم هذا صحيح!

- وهل تريدين الذهاب إلى هناك إلى كفر الشيخ؟!

- نعم أريد ذلك.

- إذن بحساب الانتقالات، لأننا سوف نحتاج إلى أن تكون هناك سيارة للانتقالات تحت تصرفنا، في كفر الشيخ، وفي الانتقالات الأخرى في القاهرة أيضاً، وأنا سوف أحتاج إلى مساعد معي، وأنتِ هل سيأتي معكِ أحد إلى القاهرة؟

- لا، سأكون بمفردي.

- وكم ستقضين في مصر؟

- أنا أخطط لقضاء خمسة أيام من أجل إتمام البحث هناك.

- إذن، أعتقد أن التكاليف سوف تكون في حدود تسعمئة يورو تقريباً، أنا في حاجة بالطبع إلى كتابة ميزانية تفصيلية، لكنها ستكون في تلك الحدود من خبرتي السابقة في مثل تلك الأشياء، خمسة أيام، ستكون التسعمئة يورو كافية!

- شكراً جزيلاً يا سامح، أنا حقيقة ممنونة لمساعدتك!

لا أريد أن أقول لك إن البنت كادت أن تطير من الفرحة، بل وكادت أن تقبلني أيضاً، لولا أنها أمسكت نفسها في آخر لحظة، على الأقل هذا ما أحسسته، وأنا إحساسي لا يخيب في مثل تلك الأمور. والغريب أن الألمانية عادة متحفظة في مشاعرها، فما بالك لو كانت ألمانية ويهودية في نفس الوقت! بل وُتظهر مشاعرها تلك أمام عربي ومصري أيضاً! لكن طبعاً عليك أن تضع نفسك في محلها، وأن تتخيل القفزة الرهيبة من الثمانية آلاف يورو إلى تسعمئة يورو فقط، أي توفير سبعة آلاف ومئة يورو بالتمام والكمال للشركة الألمانية! كانت الثمانية آلاف يورو التي طلبوها في فيديو مصر سرقة نهارية يا رفيق! أعني أنه بالتسعمئة يورو سوف أؤجر سيارة بيجو لنا تكون تحت تصرفنا طيلة الخمسة أيام، وسوف أعطي الولد رجب الغلبان الذي سيساعدني ألف جنيه، وهناك أيضاً مصاريف لبعض النثريات، مثل وجبات خفيفة أثناء السفر إلى كفر الشيخ، وزجاجات المياه المعدنية أو الطبيعية التي سوف نشتريها أثناء المعاينات، وبعض البقشيش والإكراميات هنا وهناك، وسوف يتبقى بعد كل ذلك أربعة آلاف جنيه مصري، إن لم يكن أكثر يا برنس!

قالت نورا إنها سوف تنسخ لي بعض الأوراق الخاصة بفيلم (محمد عطا)، بالإضافة إلى المعالجة السينمائية، عندما نعود إلى الفندق. وتذكرت عندها أنه عليّ أنا أيضاً أن أقوم بتصوير نسختين من معالجة فيلمي لكل من ماري وإنياس. فقلت لنورا أن تعرج على غرفتي قبل أن تذهب لتصوير الأوراق لأنني أنا أيضاً في حاجة إلى تصوير بعض المستندات. وفكرت أن أسألها، فيما

بعد، عن إمكانية أن تقوم شركة (جروب فايف) التي تعمل فيها بتمويل جزء من فيلم القرافة. وها أنت ذا ترى الآن صدق مقولتي التي سبق وأن صرحت بها من قبل عدة مرات، وهي أن الفائدة الحقيقية من أمثال تلك الورشات هي في التعرف على الزملاء من المخرجين والمنتجين الشباب، وتعميق العلاقات بينك وبينهم، أكثر من التشبيك مع المسؤولين الكبار والكومشنج إيديتورز وكل أولئك البلهاء المغرورين أولاد الزواني.

ودخلنا قاعة المحاضرات العامة أنا ونورا سوياً، وجلسنا متجاورين. وكان المحاضر هو مخرج ومنتج فرنسي قد حصل على نفس المنحة التي حصلنا عليها، ولكنه حصل عليها في العام قبل الماضي، وقد انتهى من إنجاز فيلمه بالفعل، وشارك به في عدد كبير من مهرجانات السينما العالمية، وحصل على عدد كبير من الجوائز، وعُرض في عدد كبير من قنوات التلفزيون العالمية المهمة.

وقد قدموه لنا على اعتباره "سكسسفول ستوري"، أي "قصة نجاح" يا رفيق. وشرع الولد الطويل، ذو الشعر الناعم الطويل، يحكي لنا كيف حصل على منح من كل مكان في أوروبا: من المركز القومي للسينما في فرنسا، والمركز القومي للسينما في بلجيكا، ومنحة (يان فريمان) من مهرجان أمستردام، ومنحة مهرجان روتردام، ومنحة مهرجان مونبلييه، ومنحة مهرجان مارسيليا، ومنحة (سورس)، ومنحة ساندنس، ومنحة صندوق دعم الفيلم الكندي، وهلم جرا. ثم راح يحكي لنا، بعد ذلك، كيف

نجح في الحصول على إنتاج مشترك مع كل القنوات الأوروبية الكبيرة: مع قناة آرتيه الفرنسية-الألمانية، وقناة كانال بلوس، وقناة آر تي بي إف البلجيكية، وقناة زد دي إف الألمانية، وراي ترى الإيطالية، وقناة سي بي إس الأمريكية، وقناة برافو الكندية، وهلم جرا.

ولاحظت أن نورا، التي كانت تضع سماعات الترجمة لأنها لم تكن تتقن الفرنسية، تنظر لأخينا هذا بإعجاب شديد. وتجولت ببصري بين باقي الحضور من الزميلات والزملاء، فوجدت أنهم، هم أيضاً، ينظرون لأخينا هذا بمنتهى الإعجاب والتقدير. فقدرت أن هذا الإعجاب كله هو بسبب قدرته المنقطعة النظير على الحصول على منح وتمويلات من طوب الأرض.

آه صحيح، نسيت أن أقول لك إن فيلم هذا الولد الفرنساوي كان عن التحرش والاعتداءات الجنسية التي تتعرض لها ضابطات الشرطة الفرنسية! آه، وحق الله، بلا مزاح، كان الفيلم فعلاً يعرض قصص بعض الضابطات الفرنسيات اللاتي عملن في الشرطة الفرنسية، وكيف تعرضن للانتهاكات الجنسية من قبل زملائهن الذكور، ورؤوسائهن في العمل، ولم يستطعن أن يوقفن هذه الانتهاكات بحقهن، بالرغم من أن بعضهن قد تشجعن وتقدمن بشكاوى للإدارة، بل ولوزير الداخلية الفرنسي نفسه، بلا أية جدوى، بل انتهى الأمر بمعظمهن إلى الفصل من الخدمة، نتيجة لشكواهن! واستغربت، والحق يقال، من أن يحدث هذا في فرنسا، بلد الحرية، والعلمانية، والتحرر الجنسي، وكل شيء، وقلت في

نفسي إن هذا هو الإنسان في كل مكان وزمان، وإن سيوارن قد صدق حين قال: إن الإنسان يسيل خراباً. أم هل الأدق القول: إن هذا هو الرجل في كل مكان وزمان، وإن الرجل يسيل خراباً!

وفور انتهاء المحاضرة، شعرت برغبة شديدة في التبول. قد تكون نتيجة شرب عدد كبير من فناجين القهوة وما شابه ذلك. فتوجهت إلى الحمام. وفوجئت بحسيبة تخرج من باب الكنيف الملاصق للكنيف الذي كنت على وشك دخوله، وشممت رائحة خراء مقرفة أشد القرف لما فتحت حسيبة باب الكنيف، ولا أدري كيف وجدت الرغبة في نفسي لكي أبتسم لها ابتسامة ود لما جاءت عينانا في عينيّ بعضنا البعض، حقيقة، كانت الرائحة في منتهى القذارة والقرف. ومشيت إلى الكنيف الذي بعد الكنيف الذي كنت أزمع الدخول إليه، وأغلقت الباب ورائي، بينما كانت حسيبة واقفة أمام أحواض الغسيل. وظلت رائحة خرائها في أنفي وأنا أتبول جلوساً على كرسي دورة المياه. وشعرت أنني على وشك التقيؤ، ولكنني لم أتقيأ. وكنت أشعر باشمئزاز شديد، وقدرت أن علامات وجهي لابد وأن تكون في هذه اللحظة مشدودة وجبيني وحول عينيّ متغضن وكل تلك التعابير الأخرى التي تدل على الاشمئزاز. وحتى أتخلص من كل هذا الشعور المقرف بالاشمئزاز، هززت رأسي بسرعة عدة مرات وبقوة في إيماءة مفرطة للرفض، وأنا مغلق لعينيّ إغلاقاً قوياً، وكنت قد قرأت مرة أن المرء لا يتوصل إلى السيطرة على الشعور بالاشمئزاز إلا بإيماءة قوية ومفرطة.

وأدركت لحظتها أنني لم أعد أشعر برغبة في حسيبة، وأن الرغبة قد استنفدت تماماً في لحظة واحدة. كان قرفي من رائحة خرائها أشد كثيراً من رغبتي فيها، أو الأنسب أن أقول إن قرفي قد أبطل رغبتي. وشعرت أن حملاً ثقيلاً قد انزاح للتو عن صدري. وعرفت في تلك اللحظة، وبيقين رياضي، أنني قد تخلصت من تأثير حسيبة ومن رغبتي المهووسة فيها. وقلت في نفسي إن الرغبة مسألة عقلية، تماماً مثل الهزيمة والنصر، وإنك فقط تحتاج إلى المزاج المناسب حتى تفقد رغبتك، أو الأدق أن نقول إنك تحتاج إلى الحدث الاستثنائي الذي يمكنه أن يجلب لك الإنقاذ، وإن المسافة بيني وبين حسيبة الآن قد اتسعت على نحو يبعث على الزهد فيها، وإنها قد فقدت بهائها تماماً، وُقطع فتيل الرغبة المشتعل قبل أن يصل الشرر إلى الديناميت، ونزلت درجة حرارة مشاعري تجاهها إلى ما دون الصفر، وإن الحقيقة الأزلية هي أنه ما من شيء يدوم، ولا حتى الرغبة، بل خصوصاً الرغبة يا رفيق.

وفي الغداء، جلس بجواري إنياس البلجيكي، وأولجا اليونانية. وهمس إنياس في أذني سائلاً عن جودة الأشياء، أو البضاعة إن شئت. وتذكرت لتوها أنه قد أعطاني قطعة حشيش بالأمس ولم أجربها بعد. فأشرت له بإبهام النصر، فابتسم فرحاً لأن الصنف قد أعجبني. وقررت أن أول شيء أفعله حين نعود إلى الفندق، هو أن أجرب حشيش إنياس. وكنت قد قدرت من حجم القطعة أنها كافية لعمل عشر سجائر على الأقل. وقلت في نفسي إنني سوف أعطي سيجارتين منهم لمانويلا الإيطالية. وقلت

في نفسي أيضاً، وأنا أنظر ناحيتها وأبتسم، حيث كانت تجلس في الصف المقابل لي، وعلى بعد عدة كراسي على يميني، قلت إن هذه البنت سوف تصبح مدمنة، هذا إن لم تكن قد صارت مدمنة بالفعل. وشعرت بالأسف لها. وخف حماسي تجاهها. وكنت أعرف أنه، وعلى العكس، قد زاد حماسها تجاهي. كنت أعرف من الخبرة السابقة أن البنات دائماً ما يتحمسن لي في اللحظة التي أفقد أنا حماسي تجاههن. مش جديدة، وعادتي ولا هاشتريها!

وكان الطعام عبارة عن شريحة لحم ستيك كبيرة، مع بعض الخضروات، والسلاطات، والأهم، كما تعرف يا زعيم، هو النبيذ اللى بالهبل الذي يجعل من الغداء غداءً سائلاً. وكما تعرف أيضاً، وضعت كل همي في النبيذ. وقالت أولجا ونحن نأكل إنها قد كلمت مخرج فيلم سانت كاترين، والذي كان أخوها نفسه، وأخبرته بأنني سوف أساعدهم في التصوير في سانت كاترين، وإنه قد فرح لذلك وكل شيء. وسألتها عن عدد فريق التصوير الذي سيصاحب أخاها المخرج، فقالت إنهم أربعة، بالإضافة إلى أخيها: مدير الإنتاج، الذي هو زوجها. ومدير التصوير، الذي هو فنان مشهور في اليونان وحاصل على عدة جوائز في التصوير السينمائي. ومساعدته. ومسجل الصوت.

سألتها إن كانت هي نفسها تزمع المجيء إلى مصر؟ وأجابت بأنها لن تحضر التصوير في مصر. وقالت إنهم سيحتاجون إلى سيارة ميكروباص تكون تحت تصرفهم لمدة أسبوع التصوير في سانت كاترين، بالإضافة إلى أنها ستقلهم من مطار القاهرة إلى

سانت كاترين، وبالعكس في العودة. وسألتني عن تكلفة السيارة. فأجبت على الفور، وقلت: سبعين يورو في اليوم. فرفعت حاجبيها وابتسمت ابتسامة فرح عريضة، وقالت: عظيم! لقد سألت الملحق الصحفي في سفارة اليونان في القاهرة، لأنني أعرفه فهو صديق لي، فقال إن الميكروباص الجيد في مصر سوف يتكلف مئة يورو في اليوم. فقلت لها إن معلومة صديقها الملحق الصحفي اليوناني في القاهرة صحيحة بالتأكيد، ولكنني أتعامل مع أصحاب سيارات معينين، أقرب إلى الأصدقاء، وهم يعطونني السيارة بالسائق بهذا السعر لأن لي تعاملات كثيرة معهم، وهذا هو سعر الإيجارات الطويلة للسيارات في السينما في مصر، بمعنى أنكِ تستطيعين أن تحصلي على سيارة ميكروباص جديدة ومكيفة وماركة مرسيدس، بسبعين دولاراً في اليوم، فقط إذا ما كنتِ ستؤجرينها لمدة ستة أسابيع متواصلة، وهي متوسط مدة تصوير الفيلم الروائي الطويل في مصر.

وسألتني أولجا عن معدات الإضاءة في مصر، لإن أخاها المخرج قال لها إنه من الأفضل أن يأخذوا معدات الإضاءة من مصر، بدلاً من شحنها من اليونان إلى مصر، والعكس. وعرفت منها أنهم سيحضرون معهم إلى مصر: كاميرا التصوير، وجهاز ناجرا ستريو لتسجيل الصوت، فقط لا غير. فقلت لها إنني أستطيع توفير كل معدات التصوير التي يمكن لها أن تتخيلها، وبأسعار مناسبة جداً، وإنني سوف آخذ أخاها المخرج، ومدير التصوير، إلى مخزن معدات يوسف شاهين، لكي يختارا ما يرغبان فيه من هناك، وسوف نضع كل شيء في الميكروباص،

ونتحرك إلى سانت كاترين، ولن يستغرق الأمر أكثر من ساعة زمن. وسألتني إن كان مخزن يوسف شاهين به "دادوهات" أم لا؟ فقلت لها إنه بالطبع به دادوهات، وإن هناك حقيبتان من الدادوهات في المخزن، بكل حقيبة أربعة دادوهات. وسألت إن كانت كل حقيبة بها الزووم الخاص بالدادوهات؟ فقلت لها طبعاً بها الزووم الخاص بالدادوهات. فبان عليها المفاجأة من أننا في مصر عندنا دادوهات، ونستعمل الدادوهات في التصوير. والدادو، لعلم حضرتك يا رفيق، هو نوع خاص من سبوتات الإضاءة، صغيرة للغاية، ويُمسك باليد، عن طريق ذراع معدني صغير ورشيق، وهو عادة ما يستخدم في إضاءة اللوحات الفنية مثلاً، التي يجري تصويرها في الأفلام التسجيلية، ومثل تلك الأشياء. وقد قدرت أنهم سوف يحتاجونها لتصوير الأيقونات الأثرية في دير سانت كاترين. ولعلم حضرتك لا يطلب استخدام الدادوهات إلا مديري التصوير العظام من كبار فناني السينما، وليس أي مصور والسلام.

وطمأنت أولجا إلى توافر كل معدات التصوير عندنا في مصر، وقلت لها إن مخزن يوسف شاهين، مثلاً، به كل شيء، من أول السبوتات الصغيرة، إلى الدناكي: أي الأبولو مقاس واحد كيلو، إلى الأبولوهات الكبيرة مقاس 18 كيلو: والتي يمكنك أن تستخدمها في إضاءة الهرم الأكبر أو واجهة قلعة محمد علي أو أي شيء كهذا، كما يوجد عندنا أيضاً كل شيء آخر من مستلزمات الإضاءة: الكاشات، والفلاتر، والعواكس، والمظلات، وإلخ إلخ إلخ.

ورجعنا بعد الغداء إلى الفندق، فلم يكن هناك عروض لأية أفلام من تلك التي أنجزها الزملاء، ربما لأن باقي الزملاء كانوا يصنعون فيلمهم الأول، وحتى أولئك الذين سبق لهم صنع فيلم أو اثنين، ربما خجلوا من عرض أفلامهم أو شيء من هذا القبيل. وجلست في رحلة العودة على الكنبة الخلفية للأتوبيس، كالعادة، بجوار بي جى، وبسمة ، وشوشانا. ولم يكن هناك ما يُحكى في هذا الشأن.

وحالما دخلت غرفتي بالفندق، شرعت في لف سيجارة حشيش، وكان الحشيش ليناً وسهلاً في التعامل معه. وأعجبني حشيش إنياس إيما إعجاب، فقد كان ممتازاً في الرائحة، وفي الدماغ التي صنعها أيضاً، وليس مثل ذلك الحشيش الذي يُغرق السوق في مصر، والمُسمى بـ "البكسوتة"، والذي يصنع دماغاً كدماغ البوابين الأوساخ، ولا ينتج عنه إلا الصداع، والشرود، والبلاهة.

ولففت سيجارة حشيش ثانية، وخلعت ملابسي، وقد قررت أن أعوض طقوس التطهر الصباحي التي لم تحصل، بطقوس تطهر مسائي. وشممت إبطيّ حالما تعريت، ولم تعجبني الرائحة. فشعرت بالخجل من نفسي. وهو بلاء لو تعلمون شديد. فأس البلاء هو الخجل من النفس. ودخلت الحمام، ووقفت تحت الدش، ورحت أستحم بالصابون، وأدخن من سيجارة الحشيش الجديدة. ولما انتهيت، جففت جسدي بالمنشفة الكبيرة البيضاء، وأتيت بعدة الحلاقة، وشرعت أحلق ذقني التي طالت قليلاً، لأنني لم أحلقها

منذ الأمس. ثم عطرت جسدي كله ببعض بخات من عطر الفهرنهايت. وشرعت في ارتداء نفس ملابسي التي خلعتها، بعد أن شممت إبطيّ التيشرت ولم أجد بهما أية رائحة. وجلست أكتب يومياتي، باختصار هذه المرة، لأنه لم يكن هناك الكثير الذي يمكن كتابته. ولاحظت بعد أن انتهيت من الكتابة أنني قد أسهبت كثيراً في وصف فقدان الرغبة في حسيبة، وإنني كنت أكرر وأعيد وأزيد بجمل منمقة ومصطنعة نفس الفكرة الواحدة اليتيمة. وفكرت أن أشطب معظم تلك الجمل وأن أترك جملة واحدة فقط أو اثنتين تعبران عن الفكرة. لكنني قررت في النهاية أن أترك ما كتبته كما هو، ما دام قدُ كتب وانتهى الأمر. لذلك تركت الفقرة كما هي بدون أية تعديلات:

"وأدركت لحظتها أنني لم أعد أشعر برغبة في حسيبة، وأن الرغبة قد استنفدت تماماً في لحظة واحدة. كان قرفي من رائحة خرائها أشد كثيراً من رغبتي فيها، أو الأنسب أن أقول إن قرفي قد أبطل رغبتي. وشعرت أن حملاً ثقيلاً قد انزاح للتو عن صدري. وعرفت في تلك اللحظة، وبيقين رياضي، أنني قد تخلصت من تأثير حسيبة ومن رغبتي المهووسة فيها. وقلت في نفسي إن الرغبة مسألة عقلية، تماماً مثل الهزيمة والنصر، وإنك فقط تحتاج إلى المزاج المناسب حتى تفقد رغبتك، أو الأدق أن نقول إنك تحتاج إلى الحدث الاستثنائي الذي يمكنه أن يجلب لك الإنقاذ، وإن المسافة بيني وبين حسيبة الآن قد اتسعت على نحو يبعث على الزهد فيها، وإنها قد فقدت بهائها تماماً، وُقطع فتيل الرغبة المشتعل قبل أن يصل الشرر إلى الديناميت، ونزلت

درجة حرارة مشاعري تجاهها إلى ما دون الصفر، وإن الحقيقة الأزلية هي أنه ما من شيء يدوم، ولا حتى الرغبة، بل خصوصاً الرغبة يا رفيق."

وفجأة خطرت على بالي نكتة "حتة الخرا اللى بتفوق"، وفكرت أن أكتبها في اليوميات، لكنني أحجمت كسلاً من ناحية، ومن باب عدم التكرار من ناحية أخرى، حيث تذكرت أنني قد كتبتها في اليوميات في موضع ما قبل ذلك.

ولفتت سيجارة تبغ عادية، وأعددت لنفسي كوباً من النسكافيه. ولم أكد أكمل شرب القهوة وتدخين السيجارة، حتى سمعت طرقات على الباب. وصح تخميني من أنها نورا، حيث كنت أنتظرها بالفعل لكي نذهب معاً لتصوير بعض الأوراق كما تعرف. وفتحت الباب لها، ودعوتها للدخول لثوان. وتناولت معالجة فيلم القرافة بالإنجليزية، التي كنتُ قد حضرتها بالفعل ووضعتها على السرير، وهي عبارة عن 12 صفحة من القطع الكبير، فيها ملخص للفيلم، وللشخصيات التي ستظهر بالفيلم، وأسلوب التصوير، وطريقة حركة الكاميرا، والبناء الذي سيكون عليه الفيلم، وإلخ إلخ إلخ. كانت المعالجة مكتوبة بالإنجليزية بالرغم من أنني أجيد التحدث بالفرنسية، إلا أن إجادة الكتابة بالفرنسية لم تكن عظيمة والحق يقال، خصوصاً وأنت تكتب معالجة سينمائية، ومن المفروض أن يقع من يقرأها في حب الفيلم، ويتحمس للمشاركة في إنتاجه وكل شيء. كنت قادراً، بالطبع، على كتابة رسالة، مثلاً، إلى أحدهم بالفرنسية، أو ترجمة

نص ترجمة جيدة بالفرنسية، لكنني لم أكن قادراً، والحق يقال، على كتابة نص فرنسي تقع في حبه.

كانت حجرة التصوير والمهمات تقع في الطابق الأول. فنزلت أنا ونورا على السلالم. وكانت الحجرة مفتوحة. ولم يكن بها سوى فاتن حمامة الإسبانية، والسيد توم جبسون الكومشنج إيديتور في (ستوري فيل) بالقناة الرابعة للبي بي سي، الذي كان يصور بعض الأوراق الإرشادية المفيدة لأعضاء مجموعته من الإسرائيليات. وحسدتهن، في الحقيقة، على وجودهن مع السيد توم جبسون الهمام الكريم، ورثيت لحالنا في مجموعتنا التي يديرها السيد آدم سميث الذي يتركنا نحن لنناقش بعضنا البعض في مشروعات أفلامنا، بينما يجلس هو كالمصباح المنير، الذي لا ينير شيئاً في الحقيقة، وحتى نشرته الشهرية اللعينة بخل علينا ببعض أعدادها القديمة ابن القديمة!

ولما انتهى السيد توم جبسون من تصوير أوراقه، أشرت لنورا أن تبدأ هي في تصوير أوراقها. ليدز فيرست يا رفيق. ولما انتهت من تصوير معالجة فيلم (محمد عطا)، أعطتني النسخة التي كانت بالإنجليزية، فشكرتها. وشرعت في تصوير نسختين من معالجة فيلمي. وأثناء ذلك دخل خافيير إلى الحجرة وهو يبتسم ابتسامة عريضة، وقال إنه ساعد ليلى في الحصول على قاعة فارغة تحت بجوار المطعم لكي ترقص فيها. واتضح أن ليلى، التي لا تستطيع أن تستغني يوماً واحداً عن الرقص، والتي ُأحبطت نفسياً لأنه، كما يبدو، أن فرصة وجود ديسكو في

المطاعم التي سنذهب للعشاء فيها في الأيام القادمة ليست مضمونة تماماً، لذلك فقد سألت خافيير المساعدة في توفير قاعة للرقص، على شرط أن يكون فيها أجهزة ستريو وكل شيء. وهكذا فقد دعانا خافيير للنزول تحت والرقص مع ليلى إن أحببنا.

نزلتْ نورا على الفور مع خافيير وفاتن حمامة الإسبانية وهم يضحكون. وذهبت أنا أولاً إلى حجرة ماري، وأعطيتها نسخة من معالجة الفيلم، واعتذرت أنها بالإنجليزية، فقالت إنه لا بأس وهي معتادة على القراءة بالإنجليزية. وأخبرتها عن موضوع قاعة الرقص تحت التي اخترعتها ليلى. فقالت إنها ستبدل ملابسها وستنزل حالاً. ثم ذهبت إلى حجرة إنياس، وأعطيته النسخة الباقية من معالجة الفيلم، وفرح بها جداً. واعتذرت له أنها بالإنجليزية. فقال إنه لا بأس وهو معتاد على القراءة بالإنجليزية. وأخبرته عن موضوع قاعة الرقص تحت التي اخترعتها ليلى، فضحك كثيراً، وقال إنه سيأتي معي حالاً، وقال إنه قد أحضر لي هدية، فابتسمت وشكرته على ذوقه، واستأذن ودخل إلى غرفته وموارب الباب في وجهي، وأنا بعد واقف على عتبة بابه، وغاب قليلاً، ثم خرج أخيراً وناولني كتيب، وقال إنه عن مقاطعة أنتويرب البلجيكية، وفيه معلومات قيمة جداً، تاريخياً، وديمجرافياً، واقتصادياً، وطوبوجرافياً، وكل ذلك، فتناولت الكتاب منه، وشكرته، وأنا مستغرب غاية الاستغراب كيف يمكن أن تكون هذه هدية! وهل يصح أن يطلق الناس وصف "هدية" على كل ما هب ودب!

ومررنا على غرفتي، ففتحت الباب وطوحت بكتاب أنتويرب

في الهواء، فوقع على السرير، وأغلقت الباب، وقد لاحظت أن إنياس قد امتعض بعض الشيء من ذلك. ونزلنا إلى قاعة الفندق تحت. واتجهنا إلى المطعم. وكانت قاعة الرقص التي اخترعتها ليلى مجاورة للمطعم. كانت قاعة صغيرة، وفارغة، وذات إضاءة معتمة إلى حد كبير. وكانت اسطوانة السي دي الخاصة بليلى، والتي سمعناها من قبل في المطعم-الديسكو في أول ليلة لنا في تولوز، هي هي، بنفس أغانيها الشبابية الحديثة التافهة المليئة بإيقاعات المقسوم والمصمودي الصغير والكونجا وكل ذلك. وأظن أن ليلى تحب تلك الموسيقى المليئة بالإيقاعات السريعة والصاخبة. وقد سمعت مرة من أحد كبار النقاد الموسيقيين المصريين قولاً حكيماً، قال الرجل: كلما قل الإيقاع في الموسيقى كلما ارتقت وسمت، وكلما زاد الإيقاع وطغى على الموسيقى كلما تخلفت. وضرب لنا مثلين، أحدهما بالموسيقى الكلاسيكية التي يكون الإيقاع فيها ضمنياً ومحسوساً أكثر من كونه صريحاً ملموساً، وبموسيقى الإنسان البدائي الذي لم يكن يعرف إلا الدق على الطبول.

كانت ليلى ترقص على أغنية لحكيم أو شيء كهذا. وكانت مانويلا ترقص معها، وعدد آخر من الزملاء والزميلات، من ضمنهم كل العرب تقريباً الذي كانوا هناك. ورأيت المجموعة الإسرائيلية واقفة في أحد الأركان المظلمة؛ السيدات الإسرائيليات البدينات وعساف وكل هؤلاء، وهم يتفرجون بحسد واضح وظاهر في ملامحهم على اندماج المجموعة العربية في الرقص والاستمتاع بوقتهم مع بعض الخواجات وخصوصاً المجموعة

الإسبانية التي كان على رأسها فرناندو.

وانضم إنياس إلى الراقصين، وقد قرر أن يهز أردافه قليلاً. ولم أجد أنا أية رغبة في الرقص. بل وشعرت بانقباض يشتد عليّ من مجرد الوقوف هناك، فقررت الانصراف، وقلت لنفسي: أخرج وأتمشى قليلاً حول الفندق في ساعة العصاري الرائعة هذه. ولكن لما مررت على قاعة المطعم، الذي كان خالياً في ذلك الوقت، رأيت هالة وأمها جالستان إلى إحدى الطاولات تحتسيان القهوة، فيما يبدو، فدخلت المطعم، وسلمت عليهما، وجلست معهما، بدون أن أنتظر دعوة ولا أي شيء.

سألت عن أحوال أم هالة، فردت الست الطيبة وقالت إنها بخير. وسألت هالة عن رأيها في ورشة العمل حتى الآن، فقالت إنها جيدة وعلى ما يرام وغير ذلك. فقررت أن أقول لها نظريتي التي كونتها منذ عدة أيام، والتي تتلخص في أن الاستفادة الحقيقية هي من الزملاء، لا من المرشدين اللعينين. وهزت هالة رأسها موافقة. ثم بدت كما لو أنها قد تذكرت شيئاً مهماً، فقالت إنها في حاجة إلى مساعدتي للحصول على بعض اللقطات من فيلم (جميلة بوحريد) الذي أخرجه يوسف شاهين، لكي تستعملها في فيلمها عن السيدات الفلسطينيات الأسيرات وكل ذلك. فوعدتها بأن أرسل لها اللقطات التي تريدها على شريط بيتاكام، فور أن تحدد لي اللقطات التي تريدها بالضبط. وسألتني عن ما سوف تطلبه شركة يوسف شاهين جراء استخدام تلك اللقطات، لأن ميزانيتها محدودة للغاية، فقلت لها:

- عيب يا هالة! هوّ يوسف شاهين برضو ها يخد منك فلوس لو عرف إنك مخرجة فلسطينية! أي حاجة تحتاجيها من مكتب يوسف شاهين اعتبريها مجابة، ومجاناً طبعاً، ده يوسف شاهين بيعتبره واجب قومي إنه يساعد أي مخرج أو مخرجة من فلسطين بالذات!

وشكرتني هالة. وسألتها: هل أرسل الشريط إلى عنوانها الموجود في كتالوج الورشة؟ فقالت إنني إن فعلت ذلك، فلن يصل الشريط إليها، لأن الاحتلال الإسرائيلي يصادر البريد في العادة كنوع من التعسف والتضييق على الفلسطينيين في الداخل، وإنها ستكون شاكرة جداً إذا كان باستطاعتي أن أرسل الشريط إلى أخيها في أمريكا، وهو سيجلبه معه في أول زيارة له إلى رام الله.

وسألت أم هالة من أين هم بالضبط من رام الله، فقالت إنهم من قرية اسمها: "طيّبة"، فاستغربت، وقلت لأم هالة إنني أعرف صديقاً فلسطينياً أمضى بعض الوقت في القاهرة واسمه نصار الكاشف، من سكان قرية طيّبة أيضاً، فهزت أم هالة رأسها، وقالت هالة بسرعة وهي تبتسم ابتسامة عريضة إنهم يعرفون نصار الكاشف الذي كان يعمل مراسلاً لقناة الجزيرة، فتسائلتُ مندهشاً:

- كان بيتشغل في الجزيرة؟! أمال هوّ دلوقتي فين؟! أنا بقالي فترة ما بشوفوش فعلاً في الجزيرة!

قالت هالة إن نصار الكاشف الآن في قرية طيّبة، لأنهم قد

طردوه من قناة الجزيرة. ولما استفسرت عن معلومات أكثر، قالت باقتضاب إن هذا شيء معروف جداً للجميع في رام الله، وإن الإقالة قد حدثت من القناة على خلفية تصريحات علنية لنصار الكاشف تسيء للإسلام، واعتراف صريح له لبعض زملائه من العاملين في القناة بأنه ملحد.

وما أعقب ذلك، في حقيقة الأمر، وحتى نهاية اليوم، ليس بذي أهمية في هذه القصة. فقد صعدت إلى غرفتي لأتبول وأغسل وجهي استعداداً للعشاء. ثم ذهبنا إلى مطعم بجوار الفندق، كالعادة، وتعشينا لحم ماعز، أو نيفة كما نسميها في مصر. وكان العشاء، كالعادة أيضاً، سائلاً، وسائلاً بشدة، وشربت ما يقارب الدورقين من النبيذ الأحمر لوحدي. ثم رجعنا إلى فندقنا وكل ذلك.

لكن ربما يكون الشيء الذي يستحق الذكر فقط في تلك الليلة، هو ما رأيته بعد أن تركت هالة وأمها وصعدت إلى غرفتي لكي أتبول وأغسل وجهي. فحالما خرجت من باب الأسانسير، لمحت زميلنا المغربي لحسن اللحية، والذي هو بلا لحية على الإطلاق، ولا حتى بشارب، أي أجروداً، يدخل غرفة حسيبة بسرعة ويغلق الباب وراءه. الحق الحق أقول لك إنني لم أصدق عينيّ ساعتها!

ذهبت إلى أمام باب الغرفة لكي أتأكد من أنها غرفة حسيبة، ثم رجعت ودخلت غرفتي وأنا في غاية الاندهاش من اكتشاف هذه العلاقة المفاجأة بالنسبة لي. فالولد لحسن اللحية، وبالرغم من

أنه يتمتع ببعض الوسامة وكل شيء، إلا أنه كان قصيراً للغاية، وأقصر كثيراً من حسيبة، ثم إنه يبدو كمراهق في الثامنة أو التاسعة عشرة من عمره، بل إن بوجهه بثوراً لحب الشباب بحق الجحيم! وقبل كل ذلك وبعده، لم أرَ أية مؤشرات تدل على أية علاقة بينهما، فلم أشاهدهما يقفان مع بعضهما البعض أو يتبادلان أي كلام، وهما، أصلاً، ليسا في مجموعة واحدة، بل في مجموعتين مختلفتين. ووصلت في النهاية إلى النتيجة التي كنت أعرفها من قبل، وهي أن الجنس أغواره سحيقة، وأن النفس البشرية لغز كبير، وخصوصاً النفس البشرية الأنثوية.

4

في صباح اليوم التالي، عرضت نورا مشروع فيلمها عن (محمد عطا) في المجموعة. كانت هناك، بالطبع، قصة محمد عطا نفسه، وكيف أنه ولد عام 1968، في إحدى قرى الدلتا لأب متعصب دينياً يعمل في مجال المحاماة. وعندما بلغ الولد عامه العاشر، انتقلت الأسرة إلى القاهرة، حيث درس هناك، وأثبت تفوقه في المدارس، حتى استطاع الانضمام إلى كلية الهندسة بجامعة القاهرة. وهناك، تعرف على مجموعة من الطلبة من الإخوان المسلمين، وانشغل بأمور الجماعة، والدروس في المساجد، وكل ذلك، حتى تأخر في الدراسة، وتخرج في النهاية من كلية الهندسة بتقدير متوسط. وهو ما أصاب والده بالإحباط، حيث كان يخطط لكي يصبح ولده عضواً في هيئة تدريس كلية الهندسة. ولكن الأب لم يدخر جهداً، فراح وتعرف على زوجين ألمانيين كانا يزوران القاهرة، وكانا يعملان في إحدى المؤسسات الألمانية المعنية بإعطاء منح دراسية للطلاب المصريين، وظل يدعوهما إلى العشاء في منزله وكل شيء، حتى وافقا في النهاية على إعطاء الولد محمد عطا منحة دراسية في جامعة هامبورج للتكنولوجيا، بل وعرضا أيضاً استضافته في منزلهما في هامبورج للإقامة معهما. وانكب الولد محمد عطا على دراسة اللغة الألمانية في معهد جوته بالقاهرة في تلك الفترة.

وعندما سافر محمد عطا إلى هامبورج، وأقام مع الزوجين الألمانيين، فوجئا بعد فترة قصيرة بأفكاره المتزمتة وشخصيته المتعصبة، ورفضه الأكل معهما، والتزامه بأكل إسلامي مخصوص، وكثرة تردده على مسجد القدس بالمدينة، ورفضه

الاختلاط بالآخرين، بل وسلوكه الفظ والعدواني مع ابنتهما، التي كانت أماً ولديها طفل صغير بدون زواج. نهايته، طرده الزوجان الألمانيان في النهاية وطلبا منه مغادرة منزلهما.

وقال أستاذه في جامعة هامبورج إنه كان يكره العمارة الغربية، التي كانت بالنسبة له نتيجة لتبني الدول الإسلامية للثقافة الغربية، ولذلك اختار أطروحته في الجامعة لتركز على العمارة في مدينة حلب القديمة في سوريا، منتقداً مشاريع التنمية الحديثة والمباني الشاهقة التي تنفذها الحكومة السورية هناك في حلب. وأضافت نورا معلومة كنت أعرفها مسبقاً، وهي أن مدينة حلب تعتبر معقل الإخوان المسلمين في سوريا. وقالت إن محمد عطا قد سافر إلى هناك مرتين أو أكثر عام 1994.

وبعد عودته إلى هامبورج، صار أكثر تشدداً وتزمتاً، وأصبح يقضي معظم وقته في مسجد القدس، وتعرف هناك على مجموعة من المتشددين، على رأسهم رمزي بن الشيبة، وراح محد عطا يعطي دروساً في الدين في مسجد القدس، وفي مسجد آخر تركي، وفي تلك الدروس راح ينتقد اتفاقيات السلام من إسرائيل، وحرب الخليج، والسياسات الأمريكية في الشرق الأوسط والعالم، والنظام الحاكم في مصر، وكل تلك الأشياء. وأطلق لحيته في تلك الفترة، ثم سافر إلى مكة للحج.

وفي عام 1997، اختفى محمد عطا من هامبورج، ثم ظهر مرة أخرى عام 1998. وقالت نورا إنه سيظهر في فيلمها محقق

ألماني اسمه كلاوس أولريش كريستن؛ وهو المدير السابق للوكالة الفيدرالية الألمانية لمكافحة الجريمة، وإن كنت أتذكر اسمه، فلأنني قد دونته في دفتر الملاحظات الذي كان أمامي أثناء عرض نورا لمشروع الفيلم، وبحسب الأقوال التي سترد في الفيلم على لسانه، فإن محمد عطا قد تردد على أفغانستان في تلك الفترة، وظل يتردد على أفغانستان أيضاً بين عامي 1999، و 2000، والتقى هناك بأسامة بن لادن، وكان يدعي في تلك الفترة أن جواز سفره قد ضاع، ويطلب جوازاً جديداً، كطريقة لمحو أي دليل على سفره إلى أفغانستان.

وفي أفغانستان، تدرب محمد عطا في معسكرات القاعدة. وأثناء ذلك، اختاره القيادي في القاعدة محمد عاطف، للمشاركة في "عملية الطائرات" التي كانت القاعدة تجهز للقيام بها. وقابل أسامة بن لادن عقب ذلك، وبايعه على القيام بالعملية الانتحارية. ثم تم إرساله إلى كراتشي، حيث قام خالد شيخ محمد بتلقينه المهام المطلوبة لعملية خطف الطائرات وكل شيء.

وعاد محمد عطا إلى هامبورج، وبدأ في مراسلة أكثر من 60 أكاديمية طيران في أمريكا من أجل الحصول على التدريب الكافي لقيادة الطائرات، حتى وافقت أخيراً أكاديمية طيران في فلوريدا على إلحاقه ببرنامجها التدريبي المكثف. ثم حصل على تأشيرة إقامة في الولايات المتحدة الأمريكية لمدة خمس سنوات، وبمنتهى السهولة والسرعة، من السفارة الأمريكية في برلين. وخذ بالك يا رفيق من السهولة والسرعة في منحه التأشيرات

والإقامات الأمريكيات ولمدة خمس سنوات لكي تتحسر مزيداً من التحسر!

وسافر إلى فلوريدا، وبدأ التدريب على الطيران في أكاديمية الطيران هناك. ويقول أحد زملائه من الطلبة الأمريكيين في الأكاديمية، والذي سيظهر في جزء من الفيلم، إن محمد عطا كان يقول لهم إنه في الأصل مهندس من مصر، ولكنه انتقل للعيش في أفغانستان، وإن حلمه هو تعلم قيادة الطائرات، وإنه كان يسألهم دائماً عن البيت الأبيض ومقر البنتاجون، ويقول إنه يريد زيارة مركز التجارة العالمي، ويسأل عن ترتيبات الأمن وقوته هناك، كما ذكر مرة أن تنظيم القاعدة يمكن أن يوظف أعضاء من الأمريكيين، وأن أسامة بن لادن سيصبح قريباً أعظم قائد في العالم.

وبعد انتهاء فترة التدريب على قيادة الطائرات، سافر محمد عطا في رحلات استكشافية على متن بعض طائرات الخطوط الجوية الأمريكية، مع عدد من أعضاء مجموعة هامبورج، التي جندها لكي تشاركه في عملية خطف الطائرات، لكي يتأكدوا من الخطة المرسومة لعملية خطف الطائرات ووضع اللمسات الأخيرة للعملية. حتى جاءت اللحظة الحاسمة في 11 سبتمبر 2001، حين استقل مع عدد من أعضاء مجموعته طائرة الخطوط الجوية الأمريكية من بوسطن إلى نيويورك، وبعد مرور ربع ساعة من الإقلاع، اقتحم الخاطفون قمرة القيادة، وتولى محمد عطا مهمة السيطرة على الطائرة، ثم قادها لتصطدم بالبرج

الشمالي لمركز التجارة العالمي. وانهار البرج بعد الاصطدام به بـ 102 دقيقة، مؤدياً إلى مقتل أكثر من 1600 من المدنيين وأجهزة الأمن والإسعاف الذين بادروا بالاستجابة سريعاً والتوجه إلى البرج ومحاولة إنقاذ الناس هناك.

وأعجبني عرض نورا للفيلم بشدة. كان واضحاً أنهم قد قاموا ببحث واسع ومستفيض عن الموضوع. وكنت، ولا زلت، من المؤمنين بأن قوة الفيلم التسجيلي تتناسب طردياً مع قوة البحث الذي يجريه فريق العمل حول موضوع الفيلم. ولم يكن الأمر يقتصر على البحث في كل جوانب حياة محمد عطا فقط، بل إن نورا قد أوضحت أن محمد عطا نفسه لن يكون إلا ما يُسمى في أدبيات صناعة الأفلام التسجيلية "الصنارة" التي ستصطاد بها الموضوع الحقيقي للفيلم؛ ألا وهو المجتمع المحلي للمسلمين في ألمانيا عموماً، وفي هامبورج خصوصاً، وطريقة الأجهزة الأمنية الألمانية في التعامل معهم. قالت نورا إن الجالية الإسلامية في ألمانيا تخضع الآن للمراقبة من قبل الأجهزة الاستخباراتية الألمانية، خصوصاً بعد العقدة النفسية التي سببتها حقيقة أن خلية محمد عطا التي نفذت أحداث 9/11 قد تكونت في مدينة هامبورج، وتحت أنف المخابرات الألمانية، التي كانت في ذلك الوقت في عماء معلوماتي كامل. وفي ظل هذا الشعور المهين والمذل، وحتى لا يتكرر مرة أخرى، تمارس الأجهزة الاستخباراتية الألمانية الآن عمليات تجسس واسعة على الجالية الإسلامية في ألمانيا، وتجند بعض الجواسيس منهم، خاصة من جماعة الإخوان المسلمين، لتزويدهم بالمعلومات عن أنشطة

الشخصيات الإسلامية الخطيرة والخلايا النائمة، في مقابل منح هؤلاء العملاء بعض التسهيلات اللوجستية في الإقامة والعمل في الأراضي الألمانية.

وقالت نورا إن الفيلم، الذي يأخذ الشكل الاستقصائي في ثلثه الأخير، سيطرح أسئلة على بعض الشخصيات التي كانت تعمل سابقاً في بعض الأجهزة الأمنية الألمانية، بخصوص تقارير صحفية وأكاديمية، حول استمرار أنشطة جمع التبرعات للجمعيات الإسلامية داخل الأراضي الألمانية وإرسالها إلى الجماعات المتطرفة خارج ألمانيا، وهل حقيقة أن الأجهزة الأمنية الألمانية على علم بذلك، وتترك لهم الحبل على الغارب؟! ولأي سبب؟! وهل الحكومة الألمانية تستخدم الجماعات الإسلامية داخل ألمانيا في دعم كل من السياسة الأمنية في الداخل، والسياسة الخارجية في العالمين العربي والإسلامي؟! وأسئلة أخرى مهمة وحيوية من هذا القبيل.

ولما انتهى اجتماع مجموعتنا وخرجنا إلى الاستراحة لتناول القهوة والشاي، رأيت المجموعة الإسرائيلية وهم يتناولون مشروباتهم، فاتجهت إلى عساف، الذي كان محاطاً بالثلاث سيدات الإسرائيليات البدينات، وقلت لهم بالإنجليزية:

- هاي، هل سمعتم خبر التفجير الانتحاري في تل أبيب؟!

ظهر الفزع فوراً على وجوههم، وخاطبتني أكثر السيدات الإسرائيليات بدانة، وأكثرهن فزعاً في نفس الوقت:

- ماذا؟! هل حدث تفجير في تل أبيب؟!

- نعم، ألم تسمعوا الأخبار هذا الصباح، إن الخبر في جميع قنوات التلفزيون!

وضعت السيدة الإسرائيلية البدينة كفها على خدها وشهقت وقد تشوه وجهها من الفزع، بينما سألني عساف وقد قطب جبينه كأنه يشعر بألم شديد في استه:

- ما الذي حدث بالضبط، هل تعرف؟!

- لقد وقع تفجير انتحاري صباح اليوم في تل أبيب، والقنوات الفرنسية تقول إن الضحايا أكثر من ستة قتلى وعشرين جريحاً حتى الآن، أعني حتى وقت نزولي من غرفتي في الفندق.

أخذ عساف يرطن بالعبرية في غضب، وراحت ساحرات ماكبث الثلاث يرطن بالعبرية هن الأخريات. ثم وقع مشهد مضحك للغاية، حيث راحت ساحرات سالم يفتشن في حقائبهن السوداء الكبيرة، التي كانت أقرب إلى حقائب السفر، ويخرجن تليفوناً محمولاً إثر آخر، ويعبثن في مفاتيحه مفتشات عن شيء ما، خمنت أنه الرصيد المتبقي أو شيئاً من هذا القبيل، حتى أستقرت كل منهن أخيراً على التليفون الذي ستستخدمه، ثم رحن يتصلن بتل أبيب، فيما يبدو، للاطمئنان على الأقارب والأحباب، أو لاستطلاع الأمر ومعرفة الأخبار. أعقب ذلك، صياح وصراخ بالعبرية، وشتائم فيما يبدو، وكان عساف أكثرهم غضباً، وبدا أنه

يريد ضرب أحد بقبضة يده أو شيئاً كهذا.

وشعرت بسعادة الظفر عندما رأيت أن الإسرائيليين قد حُرق دمهم. كنت في الحقيقة أنتظر الفرصة السانحة لكي أحرق أعصابهم بأية طريقة، وقد جاءت الفرصة عندما سمعت خبر العملية الانتحارية الفلسطينية في تل أبيب. وسبب الرغبة في الانتقام هو شيء قد حدث أول أمس، فقد شاهدت ذلك التقرير في إحدى القنوات الفرنسية عن تصنيف إسرائيل للفلافل كطبق قومي إسرائيلي، والتأكيد على ارتباط الفلافل بالهوية القومية الإسرائيلية، وسعي وزارة الثقافة الإسرائيلية لتسجيل الفلافل كطبق قومي إسرائيلي في منظمة اليونسكو وكل تلك البلاهات. كانوا يسرقون تراثنا الغذائي يا رفيق عيني عينك، جهاراً نهاراً، وبكل صفاقة وانعدام حياء**!** أعني، حتى الفلافل بحق الجحيم يا أولاد الزواني**!**

وخرجت إلى الحديقة، ووقفت أدخن قليلاً. ورأيت بسمة الفلسطينية، أو الإسرائيلية من عرب 48 إن شئت، آتية مسرعة الخطوات، وعلى ملامحها علامات الغضب. صاحت قبل أن تتوقف أمامي:

- إنت اللى خبرت الإسرائيليا بموضوع التفجير؟**!**

ثم راحت تلومني وهي غاضبة على افتعالي للمشاكل مع المجموعة الإسرائيلية. ولم أفهم ما هي المشاكل بالضبط التي افتعلتها؟**!** وقلت لبسمة إنني لم أفبرك موضوع التفجير

الانتحاري، بل نقلت الخبر فقط لا غير، وإن ناقل خبر التفجير الانتحاري ليس انتحارياً، وإنني قد نقلت الخبر إلى من يهمه الأمر؛ أي إلى الإسرائيليين الذين حدث التفجير في بلادهم، فأين هي المشاكل التي أفتعلها بحق الجحيم!

قالت، وقد هدأت بعض الشيء، إن عساف الآن يلومها ويقول عنها إنها إرهابية ككل الفلسطينيين الإرهابيين وكل تلك الاتهامات. كانت بسمة منفعلة. وإن أردت الحق، كنت متفهماً لموقفها المعقد، والسيء، في الحقيقة. فهي من المفترض أنها إسرائيلية، أو قل نصف إسرائيلية-نصف فلسطينية، ولن يرضى عنها الأولون، ولا الآخرون، وسيحملها كلا الطرفين دائماً مسؤولية كل خراء يقع هنا أو هناك.

قلت لها فليذهب عساف ابن الزبائن إلى جهنم الحمراء، فك هِم صن أوف آبتش، فاكن إديوت، هي إز آ كك ساكر آند فول أوف شيت، وكل تلك الشتائم التي تعرفها.

ورأيت رامز أبو خليل برنس الطاقة السلبية وهو ينظر ناحيتي أنا وبسمة محاولاً معرفة ماذا يجري، لأن بسمة كما قلت لك كانت منفعلة وتتحدث بصوت عال. لم يكن الولد في بهو الاستراحة حين تكلمت مع الإسرائيليين، ولذلك لم يكن يعلم شيئاً عن الأمر. وكان واقفاً مع أولئك الزملاء الفرنسيين الذين لا أعرفهم، وينظر من تحت لتحت ناحيتي أنا وبسمة. فصوبت له نظرة احتقار، أي تلك النظرة التي تعرفها التي تمسح جسم

الإنسان من فوق لتحت، وبالعكس. وعلى إثر ذلك نظر الولد أمامه ولم نفسه.

ثم دخلنا وحضرنا المحاضرة العامة، التي كانت لإحدى المسؤولات الفرنسيات عن قسم التوزيع في قناة آرتيه الفرنسية-الألمانية. لا توجد أشياء مهمة يمكن أن أقولها لك بخصوص تلك المحاضرة، فقد كررت الست عدة نقاط كنا سمعناها من قبل من محاضرين آخرين.

لكن الشيء، أو الشيئين، المهمين في تلك المحاضرة من أولها لآخرها، كان أولاً: التأكيد على ضرورة معرفة إلى أي مسؤول بالضبط سوف نرسل مشروعات أفلامنا بالقناة التي نراسلها، لأن لكل كومشنج إيديتور اختصاص معين، وأجندة موضوعات محددة، فإذا أرسلنا مقترح التمويل أو طلب الإنتاج المشترك إلى المسؤول الخطأ، فعلى الأرجح لن نتلقى أي رد، وقد نفسر ذلك، في الغالب، بأنه عدم اهتمام من القناة بمشروعنا، في حين قد يكون العكس هو الصحيح، وأن القناة مهتمة جداً بفيلمنا، ولكن المشكلة تكمن في أننا قد أرسلنا الطلب إلى المسؤول الخطأ.

الأمر الثاني المهم، أنها قالت إنه في بعض الأحيان تكون بعض الإدارات في القنوات التي قد نعتقد أن لا علاقة لها بمسألة التمويل، قد تملك، في الحقيقة، تمويلاً لأفلامنا. وضربت مثلاً بالإدارة التي تعمل فيها، وهي إدارة التوزيع، فمن الطبيعي أن

يعتقد المرء أن تلك الإدارة تهتم فقط بتوزيع الأفلام التي تنتجها آرتيه بعد الانتهاء من صنعها في شكل ديفيديهات وأشياء من هذا القبيل، ولكن الحقيقة أن إدارة التوزيع في آرتيه قد يكون لديها في بعض الأحيان ميزانية معينة لتمويل بعض الأفلام. وضربت مثلاً حدث في العام الفائت، حيث كانت إدارة التوزيع في آرتيه بصدد إصدار ديفيدي جديد للنسخة المرممة لفيلم المخرج الروسي العظيم دزيجا فيرتوف (رجل معه كاميرة سينما، 1929)، وكان هناك في نفس الوقت مشروع فيلم بريطاني اسمه (الكاميرا مع السينمائي) يحاول اقتفاء نفس أسلوب وموضوعات فيلم دزيجا فيرتوف، فقررت الإدارة وقتها منح الفيلم البريطاني تمويلاً، في مقابل الحصول على حقوق توزيعه وطبعه على نفس ديفيدي فيلم (رجل معه كاميرة سينما)، على أساس أن يكون الفيلمان معاً على نفس الديفيدي، أحدهما بارودي للآخر.

وبعد أن تناولنا الغداء في هدوء، وبينما نحن في انتظار الباص الذي سيقلنا إلى الفندق، أثار الولد عساف مشكلة. كنت أدخن في ركن بخارج المبنى، وكان يقف معي بي جى يدخن هو الآخر، عندما سمعنا صياح عساف ابن الزبائن، فاتجهنا إلى حيث الصوت، فرأيناه يصرخ بالإنجليزية في البنت المسكينة هالة، ويقول بالإنجليزية:

- لماذا تقومون بعمليات إرهابية بينما نحن نتفاوض على السلام؟! أنتم إرهابيون ولا تريدون السلام...

إلخ إلخ إلخ، وكل تلك الأكاذيب البروباجاندية الإسرائيلية.

اتجهت إليه، وصحت فيه بالإنجليزية بينما كان جميع الزملاء والزميلات الخواجات يستمعون ويشاهدون:

- عن أي سلام تتحدث يا عساف! أنا طبعاً ضد العمليات الانتحارية، ولكنني سمعتك تتحدث عن السلام وعن المفاوضات، إسمح لي أن أسألك: عن أي سلام تتحدث؟! تتفاوضون مع الفلسطينيين على تقسيم كعكة، بينما أنتم تلتهمون الكعكة أثناء التفاوض!

كنت أقصد طبعاً سرطان المستوطنات الإسرائيلية التي تبتلع في كرشها ما تبقى من الأراضي والحقوق الفلسطينية المشروعة والتي اتفق عليها الجميع، بمن فيهم إسرائيل نفسها في بدايات عملية السلام وأسلو وكل شيء. كان ذلك بالطبع قبل اغتيال إسحاق رابين على يد اليمين المتطرف الإسرائيلي، الذي ذبح القطة لأي سياسي من أي تيار يفكر في أي سلام حقيقي مع الفلسطينيين! إن الشيطان نفسه يعجز عن معرفة كيف يمكن لسرطان المستوطنات الإسرائيلية والاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي واسع الذمة أن يُعالج بالمفاوضات؟! وهل يُعالج السرطان بالبانادول؟! وبصوت إيميل سيوران الذي قال: كل المياه بلون الغرق! يمكننا أن نقول الآن: كل الأراضي الفلسطينية بلون المستوطنات!

والتقت عينانا، فأدركت أننا أصبحنا نكره بعضنا البعض. قال

عساف:

- نحن قبلنا بالسلام، لكنهم يرفضون الوصول إلى اتفاق، ويفضلون الإرهاب!

- أرجعوا إليهم أراضيهم المغتصبة وسوف ُتحل المشكلة!

وبانت على سحنة الولد عساف علامات ازدراء لا حدود له. وفجأة سمعت صوت بسمة عرب 48 وهي تقول:

- نو بولِتِكس، نو بولِتِكس بليز!

ثم رأيتها واقفة على يميني، ولم أكن قد لاحظتها قبل ذلك، في الأغلب بسبب الانفعال وكل شيء. وانتهى الموضوع عند ذلك الحد، أو قل، تأجل الموضوع عند ذلك الحد، لأنني قد بيّت النية على قتل الولد عساف، وسحله بعد قتله، في أقرب فرصة تسنح لي.

وبعد أن عدنا إلى الفندق، استغرقت قليلاً في كتابة اليوميات. ثم استلقيت على السرير ورحت أتأمل بعض الشيء. كنت قد بدأت أشعر بالملل، بعد أن مضت عدة أيام على وصولي إلى تولوز وتلاشت الإثارة الأولى. واستغربت من أن الإنسان يظل هو نفسه في كل مكان، وفي كل مدينة، بأفكاره، وهواجسه، ومخاوفه، وتشوشه. وقلت: أدخن سيجارتي حشيش! ثم قررت أن أذهب إلى مانويلا وندخن معاً هناك. ومدحت مانويلا كثيراً في

الصنف الإنياسي. وكنا مستلقيين عاريين تماماً على سريرها والتلفزيون مفتوح على تقرير طويل عن الطقس وما إلى ذلك، حين راحت تحدثني عن تطورات مشروعها الفيلمي. كان فيلم مانويلا عن المستشفيات الإيطالية العامة التي تضطر إلى الإغلاق بسبب شح الموارد الحكومية المخصصة لها، وكيف أن بعض الأطباء في هذه المستشفيات قد قرروا العمل مجاناً لخدمة المواطنين، لكنهم مع ذلك يعانون من انعدام الموارد والمستلزمات الصحية وكل شيء، وأن كل هذا يحدث بسبب سياسات التقشف التي تتبعها الحكومية الإيطالية بضغوط من الاتحاد الأوروبي، والتي أدت إلى انسحاب الحكومة الإيطالية من الخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية، وترك المواطنين للقطاع الخاص الذي يغالي في تقديم تلك الخدمات مغالاة شديدة، وفي ظل انعدام الرقابة على جودة تلك الخدمات أيضاً. كان الشعب الإيطالي يعاني معاناة شديدة. وقلت لها إنني سمعت عن ذلك، وعن معاناة الشعوب أيضاً في اليونان وإسبانيا والبرتغال بسبب السياسات الاقتصادية للاتحاد الأوروبي وكل تلك الأشياء. وقلت لها إننا في مصر نعاني نحن أيضاً ومنذ سنوات طويلة من نتائج سياسات الانفتاح الساداتية، ووصفات صندوق النقد الدولي، وضغوطات البنك الدولي، التي قضت على الاقتصاد الحقيقي في مصر القائم على الصناعة والزراعة، لصالح قطاع الخدمات والتسويق العقاري والمضاربات والأنشطة التجارية والترفيهية، حتى تحولت مصر من نمط إنتاج الفلاحين إلى نمط إنتاج الخدامين. ابتسمت مانويلا في مرارة، وقالت شيئاً ذكياً، بل شديد الذكاء في

الحقيقة، وشديد التشاؤم في نفس الوقت، قالت:

- سامح، أنتم في مصر لا زلتم في بداية نهاية البداية!

ورجعت إلى غرفتي. وغيرت ملابسي استعداداً للنزول إلى العشاء. وفي أثناء توجهنا إلى المطعم الذي حجز لنا خافيير فيه للعشاء في هذه الليلة، انضم إنياس إليّ وأنا أمشي بجوار بي جى وبسمة. قال لي إنياس إنه قد انتهى لتوه من قراءة معالجة فيلم سكان المقابر، وإن الفيلم يعجبه كثيراً، وإنه متحمس للغاية للعمل معي كمنتج مشارك في المشروع وكل شيء. وكان ذلك خبراً سعيداً للغاية بالنسبة لي. وسحبني إلى الخلف حتى ابتعدنا قليلاً عن بي جى وبسمة، ثم همس لي قائلاً إنه يريد أن يتقدم بالفيلم لنيل منحة تطوير المشاريع بـ (فليمش فيلم فند)، أو صندوق تمويل الأفلام الفلامنكي، وهو ليس الجبنة الفلامنك الصفراء التي نعرفها في مصر، والتي يطلقون عليها في الإسكندرية اسم "الجبنة الحمرا"، ولكنه صندوق لتمويل الأفلام في بلجيكا يا رفيق.

سألت إنياس وأنا في منتهى السعادة، فقال إنهم إن أعطونا المنحة، فستكون حوالي عشرة آلاف يورو، وبعد ذلك سيكون من حقنا أن نقدم على منحة إنتاج في حدود ستين ألف يورو، ثم منحة بوست برودكشن في حدود عشرين ألف يورو. كان ذلك شيئاً رائعاً يا كوتش! ثم طلب إنياس مني أن نجلس سوياً، ابتداءً من الغد، لكي نعد الأوراق اللازمة للمنحة، وميزانية الفيلم التي

سنقدمها لصندق التمويل الفلامنكي وكل شيء.

كنت أطير من السعادة، والحق يقال، وشعرت بكمية ثقة في نفسي لم أشعر بها منذ أن وعيت على هذه الدنيا. كنت أشعر بالتفوق، وبأنني قادر على فعل أي شيء أريده، وأننا نحن المصريين جواهر مدفونة في الأوساخ حالما نجد البيئة النظيفة نسطع ونتفوق. كنت أرى المستقبل باهراً ومشرقاً ومزدهراً. وعشقت الحياة في تلك اللحظات.

5

وأتت فرصة ذبح وسحل الولد عساف بأسرع مما كنت أتخيل. ففي صباح اليوم التالي شرع ابن الزبائن في عرض مشروع فيلمه، الذي اسماه: "أبي والموساد". كان الفيلم عن أبيه ذاك الذي هو من أصول عراقية، سفارديم يعني كما توقعت منذ البداية، وهاجر إلى إسرائيل في بدايات إنشاء الدولة وكل شيء، ثم راح يعمل في مهن هامشية غير مفهومة، حتى بالنسبة لابنه نفسه، فقد قال عساف إن المهنة المفهومة الوحيدة التي عرف أن أباه يشتغلها هي مترجم من العربية إلى العبرية. وراح عساف يشرح كيف أن أباه كان مغرماً بأغاني محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ، وكيف أنه انضم إلى فرقة موسيقية للهواة، كان يغني فيها أغاني عبد الحليم وعبد الوهاب. ثم قفز فجأة إلى ما بعد موت أبيه، والذي مات منذ عامين تقريباً، وقال إنه حينذاك راح

يفتش في أوراق أبيه وكل شيء، حتى عثر على بعض الإيصالات وأوراق أخرى عليها ختم الموساد وأشياء من هذا القبيل. وبعد ذلك بدأ يشك في طبيعة مهنة أبيه الحقيقية، وراح الفأر يلعب في عبه وفي أماكن أخرى أستحي من ذكرها، وتفتق ذهنه العبيط أخيراً إلى أن أباه في الغالب كان يعمل جاسوساً لصالح الموساد. وقال إنه ذهب إلى أحد المقرات الإدارية لجهاز الموساد، وطلب أن يقابل أحد المسؤولين، ثم سأله عن شكوكه بخصوص أبيه، فطلب منه المسؤول الموسادي مهلة لكي يستطلع الأمر في الأرشيف وكل شيء ثم يرد عليه. وقال عساف إنه بعد فترة راح وقابل المسؤول الموسادي مرة أخرى، والذي أعلمه بأن أباه شغل، ولفترة وجيزة جداً، وظيفة تايبرايتر على الآلة الكاتبة لبعض النصوص العامة غير المهمة في إحدى إدارات العلاقات العامة بالموساد، وأن هذه هي كل علاقة أبيه بالجهاز.

وقال عساف إنه غير مقتنع بهذه النتيجة، ولا بإجابة المسؤول الموسادي، وإنه يريد أن يعمل فيلماً استقصائياً عن حياة أبيه وعلاقته بالموساد، وإنه سوف يُجري مقابلات مع كل أفراد العائلة من ناحية، وكل أصدقاء ومعارف والده من ناحية أخرى، بالإضافة إلى زملائه في الفرقة الموسيقية التي تعزف ألحان محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ، ومسؤول الموساد الذي أخفى، من وجهة نظر الولد عساف، حقيقة العمل الجاسوسي الخطير لأبيه وكل شيء.

وكان أكثر ما ضايقني في عرض الولد عساف هو أنه ظل

يردد أكثر من مرة كلمة "سكس" بدلاً من كلمة "سيكس"، الأمر الذي أزعجني أيما إزعاج، لأنه أمر مريع أن ينطق شخص الكلمة الإنجليزية التي تدل على الرقم 6 فيقول بدلاً منها كلمة "جنس"! وظل ابن الزبائن يكرر ذلك عدة مرات، ولم يكلف السيد آدم سميث، ولا حتى كيت، نفسيهما عناء تصحيح نطق تلك الكلمة له.

بادرت بأخذ الكلمة للتعليق. وقلت إن موضوع الفرقة الموسيقية الإسرائيلية الهاوية التي تعزف موسيقى محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ يبدو موضوعاً جيداً لعمل فيلم تسجيلي، خصوصاً بإظهار الصراع النفسي، الذي هو موجود ولا بد، بين الأصول السفارديمية لليهود العرب الذين هاجروا، أو هُجروا، من بلدانهم العربية الأصلية إلى إسرائيل، وبين الهوية الإسرائيلية الجديدة، لكنني أشك في إمكانية عمل فيلم عن أبي عساف بوصفه جاسوساً يعمل في الموساد وكل شيء. ثم وضحت وجهة نظري بأنه بعد أن يُجري عساف البحث والاستقصاء وينتهي منه، فإن الأمر لن يخرج عن أحد احتمالين:

- إما أن يكون أبو عساف لا علاقة له بالموساد، سوى مسألة أنه أمضى بضعة أسابيع من حياته يكتب بعض النصوص العامة على الآلة الكاتبة لصالح إدارة العلاقات العامة بالجهاز، وفي هذه الحالة لن يكون هناك فيلم.

- أو أن أبا عساف جاسوس فعلاً في الموساد، وفي هذه

الحالة فإن إدارة الموساد نفسها سوف تمنع عساف من الاستمرار في عمل الفيلم عن الجاسوس الذي كان يعمل لصالحهم منعاً للفضائح وكشف الأسرار وكل تلك الأشياء، وفي هذه الحالة أيضاً لن يكون هناك فيلم.

أي أننا في كلتا الحالتين لن يكون عندنا أي فيلم!

طبعاً الحقد والكراهية وكل تلك الأشياء راحت تنط وتفط من عينيّ الولد عساف بعد هذا الكلام. لكن الذي صدمني، في الحقيقة، هو أن كيت الإنجليزية، والتي كانت تجلس بجواري مباشرة، قالت:

- واو! لو كان كل العرب يفكرون مثلك لكنا نحن...

وقطمت الجملة ولم تكملها، وبدا عليها كما لو أنها قد باحت بسر قومي خطير لأحد الأعداء بسبب زلة لسان! لكن الفكرة والشعور كانا قد وصلا إليّ يا سيدي الفاضل. وأحسست وقتها بالاغتراب، وبالدونية، وبأشياء سلبية أخرى كثيرة. ومنذ تلك اللحظة، قوي عندي الشعور بالفجوة الكبيرة بين الغرب وبيننا، وبالتمييز الموجود لدي الغربيين تجاهنا كعرب. ورغم كل هذا، لم أملك إلا أن أشعر بالإشفاق على البنت كيت، خصوصاً بعد ما لاحظت أن وجهها قد احمر واخضر واصفر وبدت كمن تبولت على نفسها وكل ذلك.

وحاول الولد عساف أن يحاجج بأن الأكثر أهمية في فيلمه

هو الرحلة الشخصية التي سيخوضها بنفسه من أجل التعرف أكثر على أبيه، وكشف ملامح جديدة من حياة أبيه لم يكن يعرفها وكل تلك البلاهات. ورددتُ عليه بأن كل ذلك جميل ورائع، ولكنك لو بدأت الفيلم بفرضية أنك تشك في أنه كان يعمل جاسوساً لصالح الموساد لما صدقك المشاهد، لأن الجميع يعلمون أن نطاق عمل جواسيس الموساد هو الخارج وليس الداخل، الشين بيت هو الذي يعمل في الداخل الإسرائيلي مثل الإف بي آي الأمريكية، في حين أن الموساد مثله مثل السي آي إى يعمل في خارج البلاد فقط، ومن ناحية أخرى، فالجواسيس الذين يعملون لصالح الموساد دائماً ما يتغيبون لفترات طويلة عن أسرهم بسبب طبيعة عملهم في الخارج، وأنت تقول إن أباك كان طوال الوقت معكم ويعيش بينكم ومقضي حياته بالطول والعرض في تل أبيب ويمارس هوايته بالغناء لمحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ في فرق الهواة الإسرائيلية السفارديمية. ونصحته في النهاية أن يركز على مسألة الفرقة الموسيقية، وغناء أبيه للمغنيين العرب، وكل ذلك العك والتناقضات.

كنت في قمة الهدوء وأنا أتكلم، كنت تطبيقاً حياً لمقولة: "القوة في الهدوء". وكنتُ في مزاج مناسب للقتل. ينبغي أن تكون في مزاج مناسب حتى تقدم على فعل مثل تلك الأشياء. وإن كان لتجربتي أن تساعد على أن تكون دليلاً فإنني أؤكد لك إن المرء لا يحتاج إلى أي مجهود لكي يُحرج إسرائيلياً. وهذا هو كل ما سأقوله في هذا الشأن.

وفي المحاضرة العامة، كان المنتج الفرنسي جاك السفاح حالياً، جاك آس سابقاً، مدير شركة (عشرة سنتات) هو من يحاضرنا عن كيفية كتابة ميزانية الفيلم. وقبل أن تنتهي المحاضرة، وزع علينا نموذجاً لميزانية فيلم تسجيلي، مكوناً من جداول من عشرين صفحة، في كل صفحة جدول فيه مليون بند، أي أن بنود الميزانية كلها عشرين مليون بند، أي وحق الجحيم!

لكنه قال إن هذا هو النموذج العام، وليس علينا بالضرورة أن نملئ كل هذه العشرين مليون بند، فكل مشروع من المشاريع وله خصوصيته الخاصة وكل تلك الأشياء. وقد فرحت أنا شخصياً بهذه الميزانية فرحاً شديداً، لأنها كانت كنزاً، والحق يقال، يمكن عن طريقه مضاعفة المبلغ المطلوب لإنتاج أي فيلم بمنتهى السهولة. كانت شيئاً أذكى وأخطر من دهان وش أول ودهان وش تاني ودهان وش تالت وتقطيب الثقوب وحبل ومخلة وجردل لزوم أكل وشرب الخروف وإلخ إلخ إلخ. وإذا ما قرر المنتج أو المخرج أو مدير التصوير أو أي عابر سبيل يمر من أمام الكاميرا أن يتغوط، فسوف تجد بنداً في هذه الميزانية لتكاليف ورق التواليت الذي سيمسح به أخينا ذاك مؤخرته اللعينة. أعني أنك تستطيع مع هذه الميزانية أن تضع خمسين مليار يورو في خانة التكلفة النهائية إن أحببت. كان هناك، على سبيل المثال، بند يختص بتكلفة شراء ملابس مناسبة للمنتج لكي يحضر بها اجتماعاته مع المسؤولين عن صناديق التمويل والكومشنج إيديتورز وكل هؤلاء، وأنا لا أمزح، كان هناك بنداً بهذا المعنى بحق اللعنة، أعني أن للمنتج أن يشتري بدلاته وقمصانه وأحذيته

وبوكسراته وكل شيء على حساب الفيلم أو على خساب صاخب المخل!

وقررت على الغداء أن أختبر في الخارج فاعلية لعبة كنتُ أحبُ أن أمارسها كثيراً في الداخل مع البنات. كانت بسمة عرب48 تجلس بجواري، وكانت تقول أثناء الغداء إنهم في مجموعتها لا يناقشون كيفية إصلاح السيناريوهات وتعديلها على نحو تصبح معه أقوى، في حين أنها سمعت أن مجموعات أخرى تقوم بذلك، وإنها تشعر بالإحباط نتيجة لذلك وتتمنى لو كانت في مجموعة أخرى وكل شيء. فقلت لها:

- على فكرة يا بسمة، رغم إنه يبان عليكي عاطفية ورومانسية، إنما إنتي في نفس الوقت برضو جادة جداً وواقعية!

نظرت إليّ البنت باندهاش وهي مفتوحة العينين، وصاحت:

- واو، مضبوط، عن جد كيف عرفت؟!

وأنا عندي هذه النظرية من أنك إذا قلت لأي بنت شيئين متناقضين في نفس الوقت، فسوف تقول لك على الفور: واو! هذا صحيح، أنا فعلاً كذلك، كيف عرفت؟! قل لها مثلاً: أنتِ واقعية جداً، ولكنكِ في نفس الوقت رقيقة وحنونة. أو قل لها: أنتِ عصبية، ولكنكِ في نفس الوقت عاقلة ومتزنة. أو: أنتِ حساسة، ولكنك في نفس الوقت قوية، أو أي شيئين آخرين متناقضين، جرب هذه اللعبة، وستجد أنني على حق، مئة بالمئة يا رفيق.

وعندما عدنا إلى الفندق، دعاني إنياس إلى حجرته لكي نباشر العمل على ورق منحة الفليمش فيلم فند. وكانت مأساة فعلية إن أردت الحقيقة. فالولد لم يكن عنده أي شيء في حجرته يمكن أن يُشرب، لا شيء على الإطلاق! وقد استمر عملنا مدة أربع ساعات متواصلة بحق الجحيم! مما دفعني إلى الذهاب إلى حجرتي، والإتيان بما تبقى من فودكا في زجاجة الدانزكا. وتخيل أن الولد إنياس لم يكن عنده في غرفته لا عصير ولا بيبسي ولا أي شيء آخر لعين! فاضطررنا إلى إضافة ماء من الصنبور على الفودكا لكي نشربها.

وبعد الأربع ساعات عمل متواصل، صار لدينا: ملخص جديد للفيلم من صفحتين، ومعالجة جديدة للفيلم من تسع صفحات، والرؤية الفنية للمخرج الذي هو العبد لله راجي عفو ربه، والسيرة الذاتية للمنتج والمخرج والذي هو أنا أيضاً، وميزانية الفيلم الجديدة. وقد رفض إنياس الاستعانة بميزانية العشرين مليون بند التي وزعها علينا جاك السفاح في الصباح، وقال إنه يعرف ماذا ينبغي أن نقدم للفليمش فيلم فند، لأنه سبق وتعامل معهم من قبل، ويعرف نوعية الميزانيات التي يفضلونها. ثم رحنا نشتغل على ميزانية، ليست من عشرين مليون بند، وإنما من سبعين ألف بند فقط. وعندما انتهينا منها، صارت الميزانية أم 60 ألف يورو التي كتبتها منذ عدة أشهر، ميزانية بـ 320 ألف يورو، بقدرة إنياس. أعني أنني كنت أظن أنه حتى الـ 60 ألف يورو التي كنت أطلبها لإنتاج الفيلم هو رقم مبالغ فيه، لأنني كنت أعرف أنني أستطيع إنجاز الفيلم أولاً عن آخر بعشرة آلاف يورو فقط، أو حتى أقل

من ذلك. وكان كل ما سيأتي على حس الإنتاج المشترك، أو تمويل من القنوات، سيكون خيراً وبركة، من باب أن البحر يحب الزيادة وكل ذلك. لكن أن تصل ميزانية فيلم القرافة، الذي يمكن صنعه بعشرة، إلى 320، فقد كانت مفاجأة، وصدمة، من النوع الجميل طبعاً.

وحتى أبسط لك المسألة، فإن جميع الميزانيات الفيلمية، سواء التسجيلية أو حتى الروائية، لا تخرج عن الأربعة بنود الرئيسية التالية: مرحلة الإعداد والبحث والكتابة، ثم مرحلة التصوير، ثم مرحة المونتاج والمكساج والمؤثرات، ثم مرحلة التوزيع. وكان تحت كل بند رئيسي من هؤلاء عدة بنود فرعية للإنفاق. فعلى سبيل المثال، احتوى البند الرئيسي الأول، أي ميزانية التطوير، أو البحث وكتابة السيناريو، التي كتبتها مع إنياس على البنود التالية:

أجر 3 باحثين ميدانيين، تكاليف شراء كتب ومراجع وأفلام للبحث، تكاليف اجتماعات للباحثين، تكاليف انتقالات ميدانية للباحثين، أجر كتابة السيناريو، أجر مستشار لمراجعة كتابة السيناريو، أجور 2 منتجين لمرحلة تطوير المشروع (منتتج من مصر، ومنتج من بلجيكا)، أجر المخرج عن مرحلة الإعداد، تكاليف تصوير وتحميض وطبع فوتوغرافيا لمعاينات أماكن التصوير، تكاليف تأجير كاميرة فيديو للمعاينات، تكاليف تأجير عدسات للكاميرا، تكاليف تأجير حامل للكاميرا، تكاليف شراء شرائط للكاميرا، أجر مصور فوتوغرافيا، أجر مصور فيديو،

تكاليف انتقالات محلية داخل مصر وتأجير سيارات، تكاليف ركن السيارات، تكاليف مشروبات ووجبات أثناء المعاينات، تكاليف سفر المنتج البلجيكي من بلجيكا إلى مصر وبالعكس مرتين خلال فترة التحضير، تكاليف إقامة المنتج البلجيكي في مصر خلال فترة التحضير، تكاليف مصروفات الجيب الخاصة بالمنتج البلجيكي أثناء إقامته في القاهرة، تكاليف سفر مدير التصوير البلجيكي لإجراء معاينات لأماكن التصوير من بلجيكا إلى مصر وبالعكس مرة واحدة (وكنا قد اتفقنا على أن يصور الفيلم مدير تصوير بلجيكي لأن صناديق التمويل البلجيكية تطلب أن يعمل فنيين بلجيك في المشاريع التي تمولها للأجانب)، تكاليف إقامة مدير التصوير البلجيكي في مصر، مصروفات الجيب لمدير التصوير البلجيكي أثناء إقامته في القاهرة، تكاليف سفر منتج إلى مهرجانين تسجيليين كبيرين (على أن يتم تحديدهما لاحقاً) لعرض مشروع الفيلم في السوق الخاص بهما، تكاليف إقامة المنتج في المدينتين الخاصتين بالمهرجانين الكبيرين، مصروفات الجيب للمنتج أثناء إقامته في كلا المدينتين الخاصتين بالمهرجانين الكبيرين، تكاليف إعداد ملف الفيلم الذي سوف يُعرض في السوق الخاص بالمهرجانين الكبيرين، تكاليف تصميم وطبع البوستر الخاص بالفيلم الذي سيظهر في السوق الخاص بالمهرجانين الكبيرين، تكاليف مكتبي الإنتاج في مصر وبروكسل (إيجار المكتبين، واستهلاك كهرباء، وماء، وغاز، ومناضد، وكراسي، وكمبيوترز وسوفت ويرز، وبرينترز وأحبار، وأوراق، وأقلام، وأدوات قرطاسية أخرى، ودبابيس ودباسات، ومشابك ورق،

وتليفونات وفاكسات، وإنترنت، وأدوات تنظيف للمكتبين، وصابون لغسيل الأيدي، ومعطر للجو، وفليت للذباب، وشاي وبن وسكر ومرطبات ومياه معدنية، ووجبات أثناء العمل، ومصروفات استقبال للضيوف، وأجر ساعيين للبوفيه، وبدل استهلاك فرش المكتبين، وتكاليف صيانة وتصليح، وضرائب، ومتفرقات أخرى)، أجر مساعدي إنتاج واحد في القاهرة وآخر في بروكسل، تكاليف تفريغ شرائط المعاينات والمقابلات، تكاليف ترجمة أوراق ومستندات المشروع إلى لغتين (الإنجليزية والفرنسية)، تكاليف مراسلات عبر البريد السريع للقنوات التلفزيونية وصناديق التمويل، أجر محاسب، أجر مستشار قانوني، رسوم تصاريح الرقابة والنقابة، ومتفرقات ومصاريف طارئة.

وهكذا يا فنان قفزت ميزانية البحث والإعداد، من عشرة آلاف يورو، على الورق فقط، لأنني في الحقيقة كنت قد انتهيت تقريباً من كتابة السيناريو النهائي للتصوير بملاليم ليس إلا صرفتها على الشاي والقهوة في جلسات المقاهي في السيدة نفيسة والسيدة زينب وقرافة الإمام وقرافة البساتين ومعاينات سوق الجمعة وهلم جرا، أقول قفزت ميزانية الإعداد من العشرة آلاف يورو الصورية إلى ستين ألف يورو حتة واحدة بقدرة إنياس!

وبحلول موعد العشاء كنت أشعر بصداع وإرهاق وبحاجة ماسة إلى الراحة، ولكنني أكملت العشاء مع الزميلات والزملاء، وشربت كثيراً في تلك الليلة، حتى بت لا أرى أمامي إن أردت

الحقيقة. ولما رجعنا إلى الفندق، كنت بالكاد قادراً على المشي، وقد لاحظ بي جى أنني أجر قدميّ جراً على الأرض، واستفسر إنياس عن صحتي، فقلت إنني على ما يرام وأحتاج فقط إلى قليل من النوم.

ولما دخلت لغرفتي بالفندق، سارعت إلى خلع ملابسي وألقيتها كيفما اتفق. ورغم أن إغراء كتابة اليوميات كان كبيراً، خصوصاً ما حصل صباح اليوم مع الولد عساف السفارديم ابن الزبائن، ثم ما حدث عشية اليوم من العمل مع إنياس، وخصوصاً كتابة الميزانية ذات السبعين ألف بند وكل شيء. وكان أكثر المغريات بالطبع هو كتابة السبعين ألف بند في الميزانية بنداً بنداً، فقد كان عندي ذلك الغرام بسرد وكتابة القوائم، أية قوائم وحق الجحيم. فقد كان عندي نفس ذلك الحلم الذي راود أحد أكثر الكتاب الأذكياء في تاريخ البشرية؛ ألا وهو أن أنجح يوماً في كتابة كتاب ضخم جداً عبارة عن قائمة طويلة لشيء ما، أي شيء بحق اللعنة، فلم يكن ذلك هو المهم، المهم هو أن يكون ذلك الكتاب الضخم عبارة عن كتالوج متناهي الكبر؛ سرد لقائمة لا تنتهي من الأشياء. وكنت أحتفظ ضمن الأشياء التيُ أخزنها في بيت أختى في المنيل بعدد كبير جداً من الكتالوجات التي حصلت عليها من كل مكان، بل وكان بعضها من المقتنيات القديمة للعائلة، حيث كان أبي هو أيضاً يحب الاحتفاظ بكتالوجات الأشياء التي يشتريها للبيت: كتالوج التلفزيون، وكتالوج الكاسيت، وكتالوج خلاط المواد الغذائية، وكتالوج المروحة، وكتالوج الدفاية، وكتالوج البوتاجاز، وكتالوج السخان، وكتالوج الثلاجة،

وهلم جرا. وقد ورثت عنه هذه الكتالوجات بعد وفاته، ثم رحت أضيف لها كتالوجات أخرى من منشآتي أنا على مر الزمن، حتى صار عندي جبل من مليونات الكتالوجات. لكنني قررت في النهاية أن أنهض في الصباح الباكر، وأن أكتب اليوميات وأنا في حالة بدنية أفضل، وقلت لنفسي إنه لا جدوى من الكتابة والمرء يشعر بالحاجة الملحة إلى النوم وكأنه على وشك الإغماء أو شيء كهذا.

وأتذكر أنني وأنا راقد على السرير، وفي حالة التهويمة التي ما بين النوم وبين اليقظة، والتي كثيراً ما يصفها صديقي عماد فكري في كتاباته، قد طافت برأسي أفكار مشوشة كانت تلف وتدور حول الشعور بالملل الذي رحت أشعر به منذ الأمس، وراح يستولي علي أكثر فأكثر. فيبدو أن إثارة السفر والرحلة إلى فرنسا قد راحت تخبو شيئاً فشيئاً، ولم يعد هناك فرق يذكر ما بين مصر وفرنسا، ما بين القاهرة وتولوز، باستثناء موضوع الغداء السائل والعشاء السائل إن كنت تفهم ما أقصد. أعني أن نفس الأحاسيس والمشاعر السوداوية التي كنت أشعر بها هناك في القاهرة، قد صرت أشعر بها هنا أيضاً في تولوز. صدق من قال إنه لا جديد تحت الشمس، وصدق الشاعر السكندري العظيم كونستانتينوس كفافيس حين قال في قصيدته (المدينة):

قلت: سأذهب إلى بلاد أخرى، إلى ضفة أخرى

مدينة أفضل من مدينتي

لكن كل محاولة محكوم عليها بالفشل

وقلبي مدفون، ميت

إلى متى سأصبر على اهتراء عقلي في هذا المكان؟!

أينما وليت وجهي، أينما نظرت

أرى أطلال الخرائب القاتمة لحياتي

حيث العديد من السنين ضاعت، وبُددت

لن تجد بلاداً أخرى، لن تجد ضفافاً ثانية

فسوف تلاحقك مدينتك

ستهيم في الشوارع نفسها

ستهرم في الأحياء نفسها

وسيدب الشيب في رأسك في هذه المنازل نفسها

سينتهي بك المآل دوماً إلى هذه المدينة

لا تأمل في بقاع أخرى

فما من سفينة من أجلك

ما من سبيل

ما دمتَ قد خربت حياتك هنا، في هذا الركن الصغير

فهي خراب أينما ذهبت في العالم.

وأتذكر أن آخر تداعيات الأفكار التي طرأت على ذهني قبل أن أغرق في السبات العميق، هو استغرابي من الفلاحين الذي يرهنون أرضهم، ويستدينون، ويبيعون ذهب ومصوغات زوجاتهم، من أجل تسفير أطفالهم القصر إلى إيطاليا عبر مراكب مهربي الهجرة غير الشرعية، حتى أننا بتنا نقرأ يومياً على وجه التقريب حوادث غرق هؤلاء الأطفال في البحر الأبيض المتوسط قبل وصولهم إلى شواطئ إيطاليا. كان هؤلاء الفلاحون الملاعين يعرفون أن هناك قانوناً في إيطاليا، وفي دول الاتحاد الأوروبي عموماً، ُتلزم البلد الذي يصله أطفال قصر، برعايتهم وإيوائهم، وتعليمهم، حتى يتقنوا حرفة أو يلتحقوا بالمعاهد والجامعات وكل شيء، وكان الأهالي يراهنون على هذه الوضعية القانونية الحقوقية الإنسانية الأوروبية. لكن الضغوط تصبح شديدة على أولئك الأولاد الصغار عندما يصلون إلى إيطاليا لأن أهاليهم يطالبونهم بسرعة الحصول على المال اللازم لفك رهنية الأرض، أو تسديد جزء من دين الأب، وكل ذلك، فيضطر هؤلاء الأولاد إلى الهرب من مراكز الرعاية الإجتماعية، ويسرحون في شوارع روما، أو أية مدينة إيطالية أخرى كبيرة، ويعملون لدى العصابات المنظمة، وفي كثير من الأحيان مع المافيا، في توزيع

المخدرات، أو الدعارة، بل وفي كليهما معاً: الدعارة وتوزيع المخدرات! وكانت المصيبة أن الجميع في مصر يعلمون هذا الوضع، وأولهم الفلاحون أهالي هؤلاء القصر المنتشرين في شوارع روما يوزعون المخدرات وينامون مع الشواذ الطليان. إنه أمر مؤسف يا رفيق أن ترى الفلاحين المصريين وقد تردوا إلى هذا الحضيض، ويقبلون على أطفالهم النوم مع الشواذ مع أجل اليوروهات! أعني ملعون أبو الفلوس يا أخي، وملعون أبو الدنيا على رأي المعلم نونو! ألم أقل لك إن مصر الآن قد تحولت من نمط إنتاج الفلاحين إلى نمط إنتاج الخدامين! نمط إنتاج الخولات ونمط إنتاج المنايك وأنت الصادق! وكما تعلم يا سيدي الفاضل، ففي بلادنا: المنايك ركبوا الفلايك، والزبيرة أخدوها عوم! وكان آخر ما رددته بصوت هامس وآفل وأنا أغرق في النوم، بيتان من (كسميات) نجيب سرور رحمة الله عليه:

بلد المنايك بلدنا الكل ناك فيها

شوف الخريطة تلاقيها فاتحة رجليها

ربك خلقها كده راح تعمل إيه فيها

يا نيك يا نيك يا ليل

يا نيك يا نيك يا عين!

توضيح: المقصود بـ "شوف الخريطة تلاقيها فاتحة رجليها":

فرعي دلتا نهر النيل وكل ذلك.

6

ونحن متجهون إلى مجمع سينمات يوتوبيا، جلس إلى جواري الولد اللعين رامز أبو خليل، ولم أستطع طبعاً أن أرفض أو أن أعترض أو أي شيء، وقلت في نفسي: عشر دقائق وتنتهي العلقة! كنت أجلس بجوار النافذة، وكان هو يتطلع إلى الطريق من النافذة ووجهه موجه إليّ وأنفاسه اللعينة تصطدم بأنفي وكل ذلك القرف. ولا أدري بحق الجحيم لماذا قررتُ أن أجامله، فقلت له: كيف حالك يا مسيو رامز؟! والغريب والعجيب والفظيع، أن الولد المأفون رامز أبو خليل بدلاً من أن يرد بالجواب المعتاد: بخير، أو: الحمدلله، أو حتى: لا بأس، أو كل تلك الردود الآلية الميكانيكية التي نقولها عندما يسألنا أحدٌ عن الحال، فقد قرر رامز أبو خليل، بدلاً من ذلك، أن يسرد عليّ تاريخه الطبي بالتفصيل، بل وبتفاصيل التفاصيل، شارحاً إياه شرحاً مفصلاً، منذ أن وصل إلى تولوز وإلى هذه اللحظة: الصداع، والأرق، واضطرابات المعدة، وألم الأسنان، وضيق النفس، والإمساك، الإمساك بحق الجحيم!

وعرضت لنا هالة مشروع فيلمها في المجموعة، وكان بعنوان: (نساء القضية)، أو شيئاً من هذا القبيل إن أنتَ ترجمته. وكان عن أربعة نسوة قد عانين في سجون الاحتلال الإسرائيلي من التعذيب والتحرش والاغتصاب وكل تلك الأشياء، نتيجة دفاعهن عن القضية الفلسطينية. كن أربع مناضلات فلسطينيات

قد أفرجت عنهن السلطات الإسرائيلية مؤخراً، فخرجن إلى الحياة العامة، وهالهن مقدار التدهور في القضية الفلسطينية بعد اتفاقيات أوسلو وكل ذلك الغباء، وأصابهن الإحباط وكل شيء من مرارة الواقع الفلسطيني، خصوصاً بعد التضحيات الكبرى التي قدمنها، والسنين المريرة والطويلة التي قضينها في سجون الاحتلال، ومن قبل ذلك، أثناء الاعتقال، والتحقيق الطويل والمهين.

وعرضت لنا هالة صور الأربع شخصيات التي سيكن أبطال الفيلم. وأعجبني كثيراً أن الأربع شخصيات المناضلات كن جميعاً من غير المحجبات، فقد دأب الإعلام الغربي، ومن قبله الإعلام الإسرائيلي، على تصوير المرأة الفلسطينية كمحجبة ومتزمتة ومتعصبة ومتخلفة وقذرة وقبيحة وعنيفة وكل شيء.

وكان من المقرر أن تحكي هؤلاء المناضلات الفلسطينيات عن الأساليب القذرة التي تمارسها سلطات الاحتلال الإسرائيلية معهن أثناء التحقيق، وبعد ذلك في فترة السجن أيضاً. وكان هناك من بينهن هذه السيدة الرائعة التي ستروي لنا في الفيلم كيف أن سلطات السجن الإسرائيلية قد دأبت مراراً وتكراراً على تجريدها من ملابسها، وإجبارها على السير عارية في زنازين الرجال، تصور القذارة يا أخي! كما أجبروها عدة مرات على التعري تماماً أمام أبيها، حتى يكسروا نفسها، ونفس أبيها، ويجبروها على الاعتراف وكل شيء. وكانت السيدات الأربع سوف يروين أيضاً قصصاً يشيب لها الولدان عن زميلات لهن في الزنازين تعرضن

للاغتصاب على أيدي السجانين الإسرائيليين الهمج الملاعين أولاد الزانـي.

وحاول الولد عساف ابن الزبائن أن يعترض بسحنته السنجابية وعينيه الغائرتين في مقلتيهما، وقال إن ذلك كذب، ودعاية فلسطينية كاذبة، وإن حقوق الإنسان مصانة في السجون الإسرائيلية، وكل تلك الأكاذيب الصهيونية التي تعرفها يا رفيق. فردت عليه هالة بعنف وقالت له إن كان يشكك في قصص هؤلاء البطلات الفلسطينيات فهي على استعداد لكي ترتب له مقابلات معهن لكي يسمع منهن ويرى آثار التعذيب وكل شيء بنفسه وليحكم بعد ذلك. فخرس الولد عساف وأغلق فمه القذر.

واشتكت هالة في النهاية من أنها تجد صعوبة في إيجاد التمويل الكافي للفيلم، لأن الممولين الأوروبيين في القنوات التلفزيونية وكل شيء يطالبونها بأن تكون نبرة ووجهة نظر الفيلم حيادية وعلى مسافة واحدة من الطرفين؛ الفلسطيني والإسرائيلي. وقالت إنها تستغرب من هذا الطلب، فكيف يمكن أن تكون على مسافة واحدة من الضحية والجلاد في نفس الوقت؟! وهل هناك مقابل في الجانب الفلسطيني لجرائم الاحتلال في السجون الإسرائيلية؟! بمعنى هل هناك أسيرات إسرائيليات في سجون السلطة الفلسطينية يتعرضن للتعذيب والاغتصاب وكل شيء، حتى تعرض قصصهن، فتكون على مسافة واحدة من الطرفين؟! وأضافت هالة إنها ترفض تماماً التمويل الإسرائيلي، بالرغم من أن بعض المخرجين الفلسطينيين يقبلون بأن يأخذوه ويمولوا به

أفلامهم. وهنا تذكرتُ الحمار رامز أبو خليل الذي يأخذ تمويل أفلامه من المركز القومي للسينما في إسرائيل. وقالت هالة إنها تصر على أن يكون موضوع الفيلم ووجهة نظره من منطلق فلسطيني بحت، فشجعناها جميعاً على ذلك، باستثناء الولد عساف ابن الزبائن طبعاً. وقد تأثرتُ كثيراً لرؤية جميع الزميلات والزملاء الأوروبيين في المجموعة وهم يشجعون هالة ويشدون من أزرها ويحمسونها لإكمال الفيلم وكل شيء، وعرفت أن الدعاية الإسرائيلية الصهيونية مكشوفة ومفضوحة في أوروبا، وأن الأوروبيين، وفي ظل الظروف المناسبة التي تضمن عدم اتهامهم بمعاداة السامية وكل تلك البلاهات، سوف ينحازون لصالح الحق المشروع للقضية الفلسطينية العادلة، وتأكدتُ أخيراً مما كنت متأكداً منه من قبل من أن المرء لا يحتاج إلى مجهود كبير لكي يُحرج الإسرائيليين.

وكانت المحاضرة العامة لشخص كندي، أي والله كندي من كندا، يعمل مسؤولاً كبيراً في صندوق دعم الفيلم الكندي، وراح يشرح لنا كيفية التقديم في صندوق دعم الفيلم الكندي، والشروط الواجب توافرها في المشروع المُقدم لصندوق دعم الفيلم الكندي، والموضوعات التي يفضلها صندوق دعم الفيلم الكندي، والمنح التي يقدمها صندوق دعم الفيلم الكندي، وكل تلك الأشياء التي من هذا القبيل.

وقال الرجل إنه راجع بسرعة النبذات المختصرات عن مشاريعنا جميعاً والتي وردت في كتيب الورشة، وقال إنه مهتم

إلى حد كبير ببعض تلك المشاريع. وقفز قلبي من مكانه وأنا أنتظر أن أسمع اسم مشروعي، أو كلمة "المشروع المصري"، أو "سكان المقابر في مصر" أو شيئاً كهذا. لكن ظني خاب، وأصابني إحباط ما بعده إحباط، عندما راح الرجل الكندي يعدد أسماء المشاريع التي لفتت انتباهه ويراها مرشحة للتقديم في صندوق دعم الفيلم الكندي ولم يكن من بينها مشروعي للأسف الأسيف. وسمعت اسم مشروع صراط بو عكاز مصر والجزائر خاوة خاوة ماشي ع الداوا: (ماسكارا). وربك والحق، شعرت ببعض الغيرة، بل بكثير من الغيرة والحق يقال. وسمعت أيضاً اسم مشروع إنياس: (عطور البحر الأبيض المتوسط)، ومشروع كيت الإنجليزية عن الخولات الأتراك، أو (راقصو هز البطن الرجال) إن شئت. وراحت الغيرة تأكلني وتنهش أحشائي، خصوصاً وأن فيلمي عن (سكان المقابر في القاهرة) كان مؤهلاً لأن يصبح تحفة فنية سينمائية من حيث الموضوع، ومن حيث الصورة، ومن حيث الأصوات، وكل شيء. وهل هناك أقوى من صورة الأحياء الذين يمارسون حياتهم الطبيعية داخل المقابر، وينامون في حجرات مليئة بشواهد القبور؛ والتي يستعملونها كمناضد وطاولات وكل شيء؟! وهل هناك أقوى وأمتع من أصوات المنشدين والمداحين والمغنيين في موالد الأولياء التي تقام في داخل المقابر، والتي كنت أزمع تصويرها ودمجها داخل الفيلم؟! كان الشعور الطاغي بالغيرة من الزميلات والزملاء يصاحبه شعور مرافق له، ولا يقل وطأة عنه، وهو الشعور بالاستغراب والدهشة من أن يفوت هذا الحمار الكندي أهمية

مشروعي وجماله وجمالياته!

وذكرني الحمار الكندي بالدكتور شرف الدين إسماعيل، الذي كنت أراه أحياناً في التلفزيون المصري، والذي رأيته وجهاً لوجه مرة أو اثنتين عندما كنت أزور محب في مركز ابن رشد بالمقطم. كان لديه نفس صلعته الوسطى، مع تلتين من الصوف الرمادي الخفيف على جانبي رأسه، وتلك السكسوكة التي كان يشتهر بها. لكن الحمار الكندي المسؤول في صندوق التمويل الكندي كان يتميز عن شرف الدين إسماعيل بأن لديه رأس ضخمة ضخامة مرعبة ولا تتناسب على الإطلاق مع مقاييس باقي جسده. كانت لديه تلك الدماغ العملاقة التي تشبه رؤوس الأقزام والتطور القزمي وكل تلك الأشياء، لو كنت تفهم ما أعني. وكان أكثر مواطن الشذوذ في النسب الجسدية لدى هذا الحمار الكندي رقبته في الحقيقة. كانت له رقبة طويلة للغاية، وفي نفس الوقت في عرض القلم الجاف. أعني أنها تذكرك على الفور برقبة ألبير قصيري أمد الله في عمره. كانت رقبة ألبيرية قصيرية تماماً لو كنت تفهم ما أعنى!

ألست معي في أن ألبير قصيري يشبه الممثل الفرنسي الجميل جان بيير لو، أعني عندما كان كلاهما في نفس العمر تقريباً؟! أنا شخصياً طالما وجدت بينهما شبهاً كبيراً من الناحية الفسيولوجية، ومن الناحية النفسية أيضاً، أعني أن جان بيير لو هو أيضاً يمثل بتلك الطريقة الكسولة البسيطة الرائعة، وكأنه لا يأبه على الإطلاق حتى ولو كان كل الجنس البشري اللعين في

انتظاره، أو كأنه قد رأى نهاية العالم ولم يعد هناك أي شيء يهمه، لو كنت تفهم ما أعني.

ولم يحدث شيء مهم في ذلك اليوم، بإستثناء أنه أثناء عودتنا بالحافلة إلى الفندق، جلست بجوار مانويلا، التي كانت قد اشترت كتاباً مصوراً من مكتبة بمجمع السينمات. كان الكتاب ترجمة فرنسية لأشعار شاعر من كوريا الجنوبية اسمه كيونج سو، وكانت مانويلا فرحة جداً بالكتاب الذي اشترته بعشرين يورو، يورو ينطح يورو، وبالصور التي فيه، والتي تشبه رسومات الأطفال الصغار التي يلونونها بالألوان المائية وكل ذلك. ومن حماس مانويلا لأشعار السيد كيونج سو، قررتْ أن تقرأ عليّ إحدى قصائده، والتي كانت بعنوان (الثلج يتساقط). وقد أخذتُ منها الكتاب فيما بعد لكي أنقل إليك ترجمة عربية أمينة إلى أقصى حد أستطيعه للترجمة الفرنسية عن الأصل الكوري الجنوبي، فاستمع يا رفيق إلى قصيدة (الثلج يتساقط)، للسيد كيونج سو الكوري الجنوبي:

هناك منظمة تدعى إيكا

تخضع الناس لإرادتها بلا سبب

صحيح أن بعض الناس ليسوا تحت سيطرتها

لكن من يتم التحكم بهم، يتم التحكم بهم بلا سبب

إيكا لا تسمح لأناسها بحرية التنقل

حق الانتقال بيدها هي فقط

وإذا أصبحتَ عضواً في إيكا، لن يمكنكُ التنقل كما يحلو لك

في اليوم الذي هطل فيه الثلج

جلبتْ امرأتان طفلاً صغيراً

إنه طفل صغير، وأسنانه اللبنية ما زالت تتساقط

لكنه مع ذلك جميل

وتدريجياً أدرك الناس أنه طفل ثمين

الأمهات الاثنتان أرادتا أن تأخذا الطفل بعيداً

حاولن عدة مرات، لكنهن لم يستطعن المغادرة

إنهن يردن الذهاب، لكن الناس مفتونون للغاية بالصبي

إيكا تريد أن تحتفظ بالصبي

إيكا قالت: "هذا الطفل الذي يجعل الناس سعداء سيبقى هنا"

وبما أن الأمهات لا يمكنهن أن يأخذنه

كبر الطفل هناك في الظلام

أصبح طويلا، وصار الآن مكتمل النمو

وجهه مظلم، وعيناه منتفختان

لستُ متأكداً مما إذا كان يشبه الطفل الصغير الذي كان في السابق

لقد تغير كثيراً

شيء محزن!

إيكا قاسية

بعد أن كبر، أصبح الفتى يضخ البنزين في السيارات

ومثل من ينقبون عن الفحم في المناجم، أصبح الولد أسود البشرة من كثرة ضخ البنزين

في مدينة إيكا القاتمة والموحشة

صار الفتى وحيداً للغاية

يحمل خرطوم مضخة البنزين

بينما الثلج يتساقط

وكادت مانويلا أن تبكي بعد أن انتهت من قراءة القصيدة، بل

إنني لمحت الدموع في مقلتيها فعلياً. وأن لا أعلم ما هو رأيك، فربما تكون ممن يجدون في تلك الأشعار شيئاً عظيماً ورائعاً، ولكنك إن أردت رأيي، فأنا في الحقيقة لا أدري ما هو الرائع لهذه الدرجة في قصيدة السيد كيونج سو عن منظمة إيكا! أعني أن الأشعار العظيمة لا بد وأن تصيبك في مقتل، تصيبك بعمق في مقتل، تشعر بالفزع والرعب وأنت تتلقاها؛ أعني الفزع والرعب من الموهبة الطاغية التي تخبطك خبطاً لو كنت تفهم ما أقصد: شكسبير مثلاً، وبودلير، وإدجار آلان بو، وتي إس إليوت، وجلال الدين الرومي، وصلاح عبد الصبور، ومحمود درويش، وبوب ديلن، وهلم جرا من هؤلاء العظماء.

لكني سكت بالطبع عن إبداء رأيي في أشعار السيد كيونج سو الذي من كوريا الجنوبية، وقلت في نفسي ربما كانت الأشعار في الأصل الكوري الجنوبي أروع من ذلك، وأن الترجمة قد بخستها حقها أو شيئاً كهذا، لكني مع ذلك ظللت مستغرباً من الإعجاب الغير مبرر لمانويلا، ولأمثالها، بتلك التفاهات. قلت في نفسي، وقد شارفنا على الوصول إلى فندقنا:

- أحمق هو من يرثي لانحطاط ذوق الجماهير!

7

عرضتُ مشروعي في آخر أيام ورشة العمل. كان عن أولئك الناس الذين يسكنون في المقابر في القاهرة. وإذا لم تتح لك الفرصة لزيارة المقابر في القاهرة، فعليك أن تعلم أن مقابر القاهرة ليست مثل باقي المقابر في العالم. أعني أنهم لا يلقون الميت هناك على عمق ستة أقدام تحت الأرض ثم يردمون عليه ويضعون شاهداً للقبر فقط ودمتم! لا يا رفيق، إنهم في القاهرة يبنون ما يشبه البيت، ثم يحفرون تحت أرضية ذلك البيت ما يشبه النفق الواسع، ثم يضعون موتاهم هناك في النفق تحت الأرض، الرجال في جانب، والنساء في جانب آخر. وهم ينزلون إلى ذلك النفق بسلم حجري وكل شيء، ويظل السلم هناك إلى الأبد. وكان القاهريون، والمصريون عموماً، فيما مضى، حين كانت الحياة أجمل وألطف وأرق، كانوا يقضون الأعياد والمناسبات في تلك البيوت-المقابر، كنوع من مشاركة العيد مع موتاهم، وكنتَ ترى الأطفال هناك يلعبون ما بين شواهد القبور، والسيدات يطهين الطعام حول شواهد القبور وكل شيء. وكانت العائلات تبيت هناك، وبعضهم يقضي كل أيام العيد الثلاثة أو الأربعة في المقابر مع موتاهم وكل ذلك. طبعاً ذلك التقليد اللطيف الجميل قد تلاشى الآن، وصار المصريون، كما الأوروبيين، يلقون بموتاهم هناك في الأنفاق التي تحت المدافن، ثم يسرعون بمغادرة المكان ونسيانهم ونسيان كل شيء.

ومع بدايات سياسة الانفتاح الساداتي السداحي مداحي، والذي رافقه، بل وميزه، هجرة أهالي الريف والصعيد إلى العاصمة بسبب تدهور عناية الدولة بالعمل الزراعي وبتنمية الريف

والصعيد وكل مكان آخر، إضافة إلى الارتفاع الرهيب في إيجارات المساكن في القاهرة وباقي المدن المصرية الكبرى، أدى ذلك إلى بدايات ظاهرة السكن في المقابر مع الموتى، في تلك البيوت التي كانت مخصصة لكي يقضي أقارب الميت فيها بعض الوقت أثناء الأعياد، ثم استفحلت تلك الظاهرة، وهجم الجميع على المقابر، حتى صارت مدناً كاملة بها كافة الأنشطة الإنسانية التي يمكن أن تتخيلها، بل وصارت تجذب السكان العاديين في القاهرة بأنشطتها المميزة؛ فالموالد تقام فيها، والحرفيون المهرة من سباكين ونجارين وكهربائية وسمكرية وبنائين وغيرهم سكنوا فيها، وانتشرت المقاهي في أركانها حتى أصبح بين كل مقهى ومقهى مقهى، وصارت هناك فرق غنائية تعزف وتغني في بعض تلك المقاهي وعلى شواهد القبور بحيث يقف المغني أو المغنية على شاهد القبر ويغني وكل شيء، وساعد على عمران تلك المناطق القرافية المقبرية نشوء أسواق شديدة الأهمية على أطرافها؛ كسوق الجمعة يوم الجمعة والذي يصبح اسمه سوق الإمام باقي أيام الأسبوع. وسوق السيدة عائشة للحيوانات الأليفة، وغير الأليفة، والأطعمة، والحلويات، وأدوات البناء، ومواد الطلاء، وخلافه. وبائعي الورد، والحلي الرخيصة، وألعاب الأطفال الصينية في ميدان السيدة نفيسة، وهلم جرا.

كانت البيئة، وأسلوب الحياة، في المقابر يشبه إلى حد كبير تلك البيئة الريفية التي انحدرت منها العائلات الصعيدية والريفية التي استوطنت المقابر. وكان هؤلاء قد استقروا في المقابر بمهن وحرف وأنشطة مستقرة ومربحة. وكانت المقابر، من ناحية

أخرى، قريبة من وسط البلد والمناطق الحيوية والمهمة بالقاهرة. وبسبب تلك الأسباب الثلاثة، كان معظم سكان المقابر يرفضون مغادرتها والتخلي عن الحياة في المقابر، إذا ما أتيحت لهم الفرصة للسكن في المجمعات السكانية التي كانت الحكومة تنشئها على أطراف القاهرة الكبرى. كانوا يرفضون الانتقال إلى تلك المساكن المنعزلة في الصحراء، وترك البقاع القريبة من الأنشطة الحيوية بوسط القاهرة، والتخلي عن أسلوب حياتهم الريفي في تلك الأحواش الأقرب إلى مساكنهم في الريف والصعيد. لقد عرفت الكثيرين من سكان المقابر في القاهرة ممن رفضوا بشدة الانتقال من المقابر إلى المعلبات السكنية في دار السلام، أو مساكن الزلزال في المقطم، أو الحي العاشر، أو منشأة ناصر، أو غيرها من الخرائب.

ثم رحت أعرض لهم بعض الشخصيات الرئيسية التي ستظهر بالفيلم، فحدثتهم عن سيد فهمي الصعيدي الذي لديه مليون مهنة: فهو بلطجي يُؤجَّر بالمال، وحفار قبور، ونجار باب وشباك، وهو لديه هذه الفرقة الموسيقية التي تعزف في الأفراح في أي قران يتم عقده في جامع السيدة نفيسة وهم جميعاً يعزفون وهم واقفوان ويمشون حول العروسة والعريس ولا واحد منهم يجيد العزف على أية آلة على الإطلاق ويفرضون أنفسهم على الناس بالعافية وجرب أن تعترض على خدماتهم يا معلم لترى ماذا سوف يحدث لك، وسيد فهمي يحتكر أيضاً توزيع البيبسي والكوكا كولا في أي كتب كتاب يتم عقده في جامع السيدة نفيسة وهو يضاعف ثمن الحاجة الساقعة مرتين وثلاثة وجرب أيضاً أن

تعترض يا برنس وشوف اللى ها يحصلك، وسيد فهمي يساعد أخته الكبرى في لضم الورود في باقات ليلة الخميس من أجل بيعها لمن يزورون أحبائهم الموتى صباح الجمعة، وسيد فهمي يعمل أحياناً صبي قهوجي، ويعمل أحياناً في كار البناء والمعمار في أية فرصة متاحة، وسائق ميكروباص إن احتجت إلى سائق ميكروباص، وبائع أعلام وقت المباريات المهمة، ويساعد أخته الكبرى أحياناً في بيع لعب الأطفال الصينية في ميدان السيدة نفيسة، وموزع حشيش وبانجو، وأنا متأكد أن لديه مليار مهنة أخرى سوف أعرفها مع الأيام.

وحدثتهم عن رقة سيد فهمي بالرغم من أنه بلطجي ومخيف ووجه كالشوارع من كثرة ضربات المطاوي فيه وكل شيء، فهو يحب السينما كثيراً، ويعشق فيلم (سبارتاكوس) ولا يمل من مشاهدته حتى ولو كانت المشاهدة المئة ألف. وهو أيضاً يحب زوجته التي تكبره بمليون عام ومخلص لها ويعاملها كما لو كانت أمه لا زوجته. وزوجته تلك لديها ابن من زواج سابق، وهذا الابن في عمر سيد فهمي تقريباً، ويعيش معهم مع باقي أولاد وبنات سيد فهمي. وقد رأيت بنفسي، ومراراً وتكراراً، كيف يعامل سيد فهمي ابن زوجته بمنتهى الحنان، حتى أنه يخاف عليه أكثر مما يخاف على أولاده، والعلاقة بينهما في منتهى الرقي والتحضر وكل شيء.

وهناك أيضاً الشيخ عبود شيخ قرافة السيدة نفيسة، والذي لديه كل مفاتيح المقابر في السيدة نفيسة وفي ترب الإمام أيضاً.

وهو صعب المراس جداً، وعنيد، ومتشكك. وبعد أن نجحت في مقابلته، بعد عدة أشهر من المحاولات، وبمساعدة سيد فهمي الذي توسط لي عنده، جلسنا ندخن الحشيش، الذي جلبه سيد فهمي وحاسبني على ثمنه الدوبل، لأن الشيخ عبود من مدمني الحشيش. وقد راح سيد فهمي يرص أحجار الحشيش في الجوزة بمنتهى الكرم، حتى أنه رص النصف قرش حشيش في حجرين فقط، وكانت مسألة انتحارية أن تشد نفساً من تلك الأحجار المدفوسة بالحشيش الخالص، وقد أحمرت عيناي ورحت أسعل بشدة من أول نفس، وتركت الحشيش كله في النهاية للشيخ عبود وسيد فهمي ليدخناه سوياً.

والمقبرة التي يعيش فيه الشيخ عبود تقع على ناصية مجموعة من المقابر، وبجوار نقطة شرطة ميدان السيدة نفيسة، في مكان شديد الحيوية، ويكشف كامل قرافة السيدة نفيسة، وفي مكان شاعري أيضاً، لأنك وأنتَ واقف على عتبة الحوش ترى شروق الشمس وغروبها بمنتهى الوضوح والجمال وهي تشرق وتغرب من بين كنتور المقابر. أما حوش المقبرة من الداخل، فهو يغص بالمزروعات وأصص النباتات في كل مكان وفي كل سنتيمتر، حتى أنك تجد مكاناً بصعوبة شديدة لكي تجلس دون أن تحطم تلك النباتات. وما يصدق على النباتات يصدق أيضاً على القطط، فالشيخ عبود لديه أكثر من مليار قطة في حوش المقبرة من مختلف الأشكال والألوان والأحجام والسلالات، ولكل منها اسمه الخاص يا رفيق.

وفي المرة الأولى التي زرت فيها الشيخ عبود في حوش مقبرته، رن تليفونه المحمول، فرد على شخص ما من معارفه، واتضح أنه كان يكلمه من مدينة طنطا، وفهمت من المحادثة التليفونية أن سيارة ذلك الشخص قد تعطلت هناك في طنطا، وأنه أول مرة يذهب إلى طنطا، وأنه لا يعرف أحداً في طنطا، فسأله الشيخ عبود عن مكانه بالضبط، وطلب منه أن يصف له المكان وأية علامات يراها حوله، فلما وصف له هذا ذاك، عرف عندها الشيخ عبود أين يقف صاحبه بالضبط في طنطا، فراح يصف له كيفية الوصول إلى أقرب ميكانيكي سيارات من مكانه هذا! تخيل! كان جالساً معنا في حوشه في السيدة نفيسة ويشرح لأخينا ذاك كيف يصل إلى أقرب ميكانيكي في طنطا! طنطا بحق الجحيم! كان هذا الرجل يعرف كل شيء على وجه الكرة الأرضية، وأنا وحق اللعنة جاد لا أمزح!

وكلمتهم أيضاً عن حسن الأسود فنان القصب؛ تلك المهنة التي انقرضت تقريباً من مصر، والتي هي عبارة عن التطريز بالقصب: الحِكم، والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، أو حتى أي رسم من الرسومات التي تريدها. كان التطريز اليدوي بالقصب مكلفاً، بل ومكلفاً جداً، وكانت البضائع الصينية الرخيصة الرديئة قد أغرقت الأسواق العربية وكل شيء، ولذلك فقد كان حسن الأسود متعطلاً متبطلاً طيلة أشهر العام تقريباً، اللهم إلا إذا ُطلب منه تطريز رسمة أو اثنتين لصالح ثري من الخليج الكريم أو شيء كهذا، لذلك كنتَ ترى حسن الأسود، ذلك الفنان الجميل، يجلس طيلة النهار، أعني طيلة ما بعد الظهر، لأنه

لا ينهض من النوم إلا بعد الظهر، أقول إنه كان يجلس طيلة ما بعد الظهر حتى آخر الليل على المقاهي يلعب الدومينو التي كان يدمنها إدماناً شديداً، وكان دائماً ما يستهل بداية اللعب بقولته الشهيرة: نفتح الدكان**!** وكان دائماً ما يربح، وكان اللعب دائماً على نقود.

وحسن الأسود متزوج من دجالة كبيرة في السن تكبره بحوالي مليون عام، وهي التي تصرف على البيت، لأن ما يربحه حسن الأسود ينفقه في الجلوس على المقاهي مع أصدقائه. وقد ضحكوا كثيراً، وخصوصاً كيت ومستر آدم سميث مصلحة كل واحد هي الخير للجميع، عندما قلت لهم إن حسن الأسود يتزوج كثيراً، وهو لا يتزوج إلا الكبيرات في السن من المطلقات والأرامل، وذلك بسبب أن عضوه ضخم للغاية ويستحيل أن تتحمله أية فتاة صغيرة لم يسبق لها الزواج، فلا تتحمل هذا الحجم إلا المطلقات أو الأرامل الكبيرات في السن اللاتي قد اتسعن من تحت وأصبحت أعضاؤهن كنفق شبرا في اتساعه. وكانت زوجة حسن الأسود الدجالة تعمل في السحر والشعوذة وقراءة الطوالع وكل تلك الأشياء، وكان زبائنها من علية القوم، وقد رأيت بنفسي، مرة، كيف أن سيارة مرسيدس أحدث موديل تقف بالقرب من حوش المقبرة الذي يسكنه حسن الأسود وزوجته في قرافة السيدة نفيسة، وتنزل منها سيدة في منتهى الشياكة والأناقة والجمال، وتدخل إلى عند الدجالة زوجة حسن الأسود لقراءة الطالع أو فك عمل على ما يبدو، وقد جلستُ مع هذه الدجالة عدة مرات في حوشها هي وحسن الأسود، وفي كل مرة كنتُ أتعجب من كم

الثقة بالنفس والهدوء والفراسة التي تتمتع بها هذه السيدة العجوز.

وحدثتهم أيضاً عن روبي صبي القهوجي الذي يعمل في مقهى محمد نصر في ميدان السيدة نفيسة، وكيف أنه دائماً ما يروي لي مغامراته مع البنات الجميلات اللائي يأتين إليه ويقمن بإغوائه واصطحابه إلى منازلهن بغرض أن ينام معهن، ثم كيف يضحك عليهن في النهاية ويطلب منهن أن يطبخن له دجاجة، ودائماً ما تكون دجاجة التي يطلبها منهن، ثم يضحك عليهن ويأكل الدجاجة وينزل من البيت دون أن ينام معهن. وكان روبي يجد في اختراع تلك الحكايات لذة ما بعدها لذة.و لكنه في آخر مرة عندما كنت في السيدة نفيسة، روى لي أنا ورجب مساعدي، حكاية أخرى مختلفة، ويبدو أنه قد شعر بأننا قد مللنا من حكاياته عن البنات الجميلات اللائي يضحك عليهن ويجعلهن يطبخن له فرخة ليأكلها ثم يحبطهن ولا ينام معهن في النهاية، فقرر أن يغير الحكاية هذه المرة، فحكى لنا عن ذلك الولد الوسيم الذي رآه في الليلة الكبيرة لمولد السيدة نفيسة هذا العام، والذي عرف من أول مرة وقع نظره عليه أنه خول، وكيف أنه أخذه إلى حوش مهجور، وكيف أنه ناكه هناك، ثم أخذ منه عشرة جنيهات بعد أن ناكه. وقد ضحكنا أنا ورجب حتى كدنا أن نقع على ظهورنا من كثرة الضحك من مسألة أنه ناكه ثم أخذ منه عشرة جنيهات أيضاً!

وهناك محمد نصر نفسه صاحب مقهى ميدان السيدة نفيسة، وعلاقاته مع أمناء الشرطة الذين يغضون الطرف عن عدم مشروعية المقهى الذي يملكه وكل شيء، حتى إنه سوف يزوج

أخته الصغرى بعد عدة أسابيع من أمين شرطة يعمل في نقطة ميدان السيدة نفيسة، مصداقاً لأغنية عبد المنعم مدبولي وشادية في مسرحية (ريا وسكينة): ونسبنا الحكومة وبقينا قرايب!

وهناك أم صابر، وأولادها وبناتها الكثر، الذين يسكنون جميعاً في حوش قبر بميدان السيدة نفيسة. وأم صابر تعمل حتى اليوم، بالرغم من أنها تجاوزت عامها الخمسمئة أو شيء من هذا القبيل، أعني أنها عجوز جداً جداً جداً، ولكنك لن تجد أشهى ولا أطعم من الجبنة القديمة التي تصنعها أم صابر، فهي لديها في الحوش سبعين ألف زلعة مش أو أكثر، وطالما اشتريت منها جبنة قديمة، وطالما جلست معها في الحوش في أيام الشتاء الباردة ونحن نشرب الشاي ومتحلقين حول شاهد القبر الكبير الذي في صالة البيت، أعني في صالة المقبرة، مع أولادها وبناتها. وصابر هو ابنها الأكبر، وهو أكبر مني بعامين أو أكثر قليلاً، وشديد الدماثة والتهذيب، ويعمل جرسوناً في مقهى عشوائي مجاور لحوش الشيخ عبود.

والمعلم شلبي، تاجر المواشي في سوق الإمام، الذي لا يترك أحداً يمر به إلا ويطلب منه أقراص فياجرا، ويحكي له بمنتهى الفخر، وهو يبرم شنباته الغليظة الغير مهذبة، كيف أنه يحتاج للفياجرا لأنه متزوج من أربع نساء في نفس الوقت وكل تلك الأمور.

والسائق منصور، سائق أتوبيس المدارس، الذي ينتهي من

عمله في توصيل التلاميذ ظهراً، ثم يرجع إلى القرافة، ويركن الأتوبيس هناك، ويستطيع أي أحد أن يؤجر منه الأتوبيس، الذي هو سائقه فقط وفي عهدته، في أي مشوار يريد إلى أي مكان. وفي مرة، أجرت منه الأتوبيس، وأخذنا: أنا، ورجب، وسيد فهمي وأخته وامرأته وأولاده، وأم صابر وأولادها وبناتها، وحسن الأسود وزوجته الدجالة، وروبي، وآخرين، إلى الإسكندرية، صد رد، ذهاباً وإياباً، متوقفين في منتصف الطريق في (الرست هاوس) في الذهاب، و(واحة عمر) في الإياب، كنوع من الفسحة، التي انبسط بها الجميع، وأوثقت علاقاتي بهم مزيداً من التوثيق في نفس الوقت.

والشاب قنديل المتفوق في دراسته في كلية التجارة، والذي نجح أخيراً في العمل في أحد فروع البنك الأهلي وهو لا يزال يسكن في قرافة الإمام.

وعازف العود قناوي الصعيدي الذي يعزف في الفرق الموسيقية التي تعمل في القرافة لأنه محتاج للنقود، ولكنه غير مقتنع بما يفعله لأنه فنان حقيقي ولا يعجبه العك الذي تعكه أشباه الفرق الموسيقية وكل شيء، ويظل يحدثك دائماً عن مسيرته المتفوقة في الموسيقى ويندب حظه العاثر، ويتحسر على الفرصة التي عرضت فيها عليه صاحبة الغرفة التي كان يؤجرها في الفجالة في السبعينيات وهو شاب صغير شراء عود رياض السنباطي، أي والله رياض السنباطي شخصياً، بخمسين جنيه فقط، ولكنه لم يكن يملك المبلغ وقتها.

والقواد محمد القاضي القومسيونجي الذي يلم النقطة في إحدى فرق الغناء في المقابر، وكيف أنه قادر على أن يأتيك بمن تشاء من حريم القرافة مقابل عشرين جنيهاً عمولته.

وشرحت لهم، ما أمكنني، الرؤية البصرية للفيلم وكل شيء. فقلت لهم إنه لن يقتصر فقط على مقابلات مع تلك الشخصيات، وغيرهم الكثيرون، ولكن سيكون هناك أيضاً الفرق الموسيقية التي تعزف في مقاهي القرافة، والتي تستخدم شواهد القبور كخشبة مسرح، والغناء والرقص في الموالد في ميادين القرافة، والأنشطة الأخرى التي يمارسها السكان هناك والتي ستكون جميلة بصرياً مثل: لضم الورود في باقات، والسلع والبضائع المختلفة والمتنوعة والكثيرة في سوق الجمعة والإمام، وترميم المدافن-المساكن التي يقوم بها سكان القرافة بأنفسهم، والمقاهي المزدحمة بالزبائن، والمطاعم العشوائية التي في الهواء الطلق والتي يمكنك أن تأكل فيها أشهى الأكلات المصرية من: فول، وفلافل، وجبنة قديمة بالزيت والطحينة، وبصارة، وباذنجان مخلل، وشوربة عدس، وفول نابت، وجميع أنواع المحاشي، والعصبان أو المنبار، فضلاً طبعاً عن النيفة والكفتة والكباب، وهلم جرا.

وقبل الغداء، كان هناك هذه المحاضرة العامة عن كيفية الاشتراك في المهرجانات العالمية للأفلام التسجيلية وأهميتها في توزيع الفيلم وكل شيء. في الحقيقة، كانت محاضرة عامة أكثر مما ينبغي، أعني أن السيدة الفرنسية التي كانت تحاضرنا كانت

تقول لنا معلومات كان أغلبنا يعرفها بالفعل.

ولفت نظري على الغداء شيء واحد عددته طريفاً بعض الشيء، فقد كنا جميعاً على طاولة الغداء في تلك الحديقة الخلفية لمبنى المحاضرات في (يوتوبيا سينما)، وكان هناك عدد من الندل يخدموننا وقد شرعوا في وضع الأطباق وقناني النبيذ على الطاولة وكل شيء. وفجأة، سمعنا إنياس، الذي كان يجلس على بعد عدة كراسي في مقابلي، يصرخ في أحد الندل الذي كان يضع طبقاً أمام صراط بو عكاز، والذي كان يجلس بجوار إنياس، قائلاً بنبرة عجرفة وبصوت عال وغاضب، وكأنه سيد والولد الجرسون عبده:

- إخدمني!

وتوقعت أن يلومه الجرسون، أو يبدي على الأقل استياءه من تلك اللهجة المتعالية المتعجرفة المهينة، لكن الذي حدث هو العكس تماماً، فقد شرع الولد الجرسون، وبكل ذلة، في الإسراع بوضع أطباق الطعام أمام إنياس بمنتهى الهمة والنشاط. وعرفت عندها أن زبون المطاعم في أوروبا مقدس، ويمكنه أن يصرخ في الجرسونات كيفما يشاء، ولا يستطيع أي منهم أن يرد عليه أو أي شيء، بل يخدمونه كسيد محترم وكل ذلك.

وبعد الغداء، عدنا إلى الفندق. ورقصت ليلى تحت على عادتها في كل يوم بعد الرجوع من الورشة، وكان معظم الزميلات والزملاء يرقصون هناك معها. لكنني لم أنضم إليهم،

بل شرعت في توزيع الثلاث برديات التي أحضرتهم معي من القاهرة. وربك والحق، لقد أخذت وقتاً طويلاً للوصول أخيراً إلى قرار بمن سأعطيهم تلك البرديات. كان جميع من تعرفتُ عليهم في الورشة يستحقون، والحق يقال، أن أعطيهم جميعاً لوحات بردي وكل شيء، ولكن المسألة أنني كنت أمام المعضلة الاقتصادية الأزلية: موارد محدودة، واحتياجات لا نهائية. وبعد تفكير وتمحيص وحسابات طويلة، قررت ليلة أمس أن أمنح الثلاث برديات إلى كل من: هالة الفلسطينية، ومانويلا الإيطالية، وبي جى الرائع.

وقد فرح الثلاثة، أيما فرح، بالهدايا الفرعونية. وأمسكت نفسي في آخر لحظة عن تقبيل وجنتي هالة وأنا أسلمها البردية أمام أمها، وقد احمر وجهها من الخجل وكل شيء، وفي لحظتها غمرني إحساس طاغ تجاهها وتجاه أمها بمسؤولية أبوية من نوع ما، لو كنت تفهم ما أقصد.

وفي تلك الأثناء، تلقيت مكالمة من ألكس التي قالت إنها في باريس، وإنها في طريقها إلى مارسيليا حالاً، لإجراء زيارة من زياراتها الروتينية لمعسكر اللاجئين الغير شرعيين وكل شيء. وغني عن البيان أن ألكس قد اعتذرت بسبب المشغولية الوظيفية عن دعوتي إلى بيتها في باريس في الغد كما كنا نأمل وكل ذلك. وقالت إنها سوف تأتي إلى القاهرة مع زوجها قريباً في أول فرصة تسنح لها بأخذ إجازة من وظيفتها البغيضة في وزارة الخارجية الفرنسية.

وعندما نزلنا إلى لوبي الفندق استعداداً للذهاب إلى مطعم العشاء، جاء فرناندو وأرانا شيئاً اشتراه من محل مجاور للفندق، وفطسنا جميعاً من الضحك. كان عبارة عن تمثال صغير، أصغر من كف اليد، لراهب بثياب الرهبنة البنية وكل شيء، وكانت هناك تلك الراهبة التي تركع على الأرض أمامه وتمص له! كان شيئاً مشمئزاً، ومريضاً، لو كنت تفهم ما أعني، ولكنه كان مضحكاً للغاية. وأحببت ساعتها روح الدعابة التي في العنصر الإسباني وعقليتهم المتفتحة وكل تلك الأشياء.

وليس هناك الكثير الذي يُذكر بخلاف ذلك، فقد كان العشاء عشاءً سائلاً كالعادة، وتبادلنا عبارات التحيات والمجاملات والوعود بالمراسلات وبأن نبقى على اتصال وكل ذلك الهراء، بمناسبة أن هذه هي آخر ليلة لنا في تولوز وكل شيء. وعندما عدنا إلى الفندق، أمضيتُ الليلة مع مانويلا في حجرتها. وقد كررت دعوتها لكي أزورها في روما وأقيم معها هناك في شقتها، وألحت على الدعوة، التي كنت قد قبلتها من أول مرة تفوهت بها. كنتُ آمل أن أتلقى العشرة آلاف يورو، المنحة الأوروبية الفيلمية، بعد شهر أو أقل قليلاً من انتهاء هذه الورشة، فقلت في نفسي إنني لن أتكلف إلا حق تذكرة الطيران فقط، وإنني سوف أجد تذكرة طيران لروما بسعر رخيص، وأستطيع بالتالي أن أقضي شهراً كاملاً في روما بصحبة مانويلا في شقتها. وقلت لها إنه في هذه الحالة، فإنني أصر على أن ترجع معي إلى القاهرة، وإننا سوف نقضي وقتاً لذيذاً في مصر، وسوف أريها كل شيء في القاهرة وسوف نستمتع كثيراً.

ودخنا سوياً ما تبقى من الحشيش في حجرتها، فوقفنا متكئين على النافذة ننفث دخان الحشيش، بينما نرتب لرحلتي إلى روما، ورحلتها إلى القاهرة.

اليوم المسروق

سميته اليوم المسروق لأنه يشبه الطابق المسروق، أو الطابق المسحور إن شئت، الذي كان يوجد قديماً في بعض مبانينا في مصر، بل ولا يزال موجوداً في العديد من المباني الضخمة في عدد كبير من دول العالم، والذي هو عبارة عن طابق ارتفاعه متر أو أكثر قليلاً، يكون بين طابقين عاديين، ولا يتوقف عنده الأسانسير، ويُستخدم في العادة في تخزين كابلات وأسلاك ومواسير العمارة من كهرباء وغاز وتكييف وغيرها من تلك الأشياء، وإخفائها عن الأنظار. كان يومي الباقي في تولوز يشبه كثيراً "الطابق المسروق"؛ من حيث أنه ليس يوماً كاملاً، وإنما نصف يوم أو أكثر قليلاً، فقد كانوا قد حجزوا لي على طائرة الإر فرانس التي ستغادر إلى باريس في الساعة العاشرة مساءً، ثم من باريس إلى القاهرة، أيضاً على متن طائرة الإر فرانس، التي ستغادر مطار شارل ديجول في الثانية عشرة مساءً، وقد فرحت لما علمت أنني سأسافر، مجدداً، على متن الإر فرانس أثناء العودة إلى مصر، لأنني أحببت أن أطيل الجو الخواجاتي الأوروبي الذي أعيش فيه إلى أقصى فترة ممكنة، وأن أستمتع، أيضاً، بالنبيذ الذي يقدمونه مع الوجبات، وإن كنت أشك كثيراً في أن يقدموا لنا نبيذاً، أو أية كحوليات، في الفترة من الثانية عشرة مساء إلى الرابعة صباحاً؛ موعد وصولنا إلى القاهرة.

نزلت للإفطار مع من تبقى من الزملاء، وجلست إلى مائدة الإفطار مع بي جى الرائع، وبسمة عرب 48، وماري الفرنسية، ومانويلا الإيطالية. ولما سألت عن هالة الفلسطينية، قالوا لي إنها وأمها قد غادرتا فجراً لتستقلا الطائرة المتجهة إلى عمان في

الأردن، ومن هناك ستواصلان طريقهما إلى رام الله. وكانت المجموعة الإسرائيلية كلها، وبسمة، سيغادرون الفندق بعد أقل من ساعة ليستقلوا طائرة العال المتجهة إلى تل أبيب.

وبعد الإفطار حاولت أن أودع كل من أعرفهم، وكانوا جميعاً، تقريباً، في صالة اللوبي؛ بعضهم واقف، والبعض الآخر جالس، والعديد منهم مع حقائب سفرهم لأنهم كانوا على وشك المغادرة إلى المطار. سلمت على بسمة، وقبلتها على الوجنتين. وجاءت السيدات الإسرائيليات البدينات ربيلات الشحم واللحم ذوات الأجساد التي عليها من الدهون شبرين والمرتديات السواد أسود في أسود وسلمن عليّ، وكان يقف بجوارهن عساف ابن الزبائن، الذي تجاهلني وأدار وجهه للناحية الأخرى، وشرحه الولد رامز أبو خليل بوجهه المزيت الذي كان سيغادر مع المجموعة الإسرائيلية، لأنه كان سيستقل طائرة العال المتجهة إلى تل أبيب هو أيضاً، فقد أشاح بوجهه عني كأنني غير موجود.

وودعت ماري وجاك السفاح، اللذان كانا سيستقلان القطار المتجه إلى باريس من محطة القطارات في تولوز. وقالت لي ماري بإنها قرأت بعض الأوراق من معالجة فيلم سكان المقابر، وإنها مهتمة به كثيراً، وقالت إنها ستراسلني حالما تنتهي من القراءة تماماً، ولكنها تتوقع أن تضع الفيلم على لائحة المشروعات التي ترغب شركتها في إنتاجها إنتاجاً مشتركاً، إن كنتُ أنا لا أمانع. فشكرتها كثيراً، وكان ذلك خبراً مفرحاً حقاً. وقلت لها إن إنياس البلجيكي مهتم هو الآخر بالفيلم، وقد اتفقت

معه على أن يصبح منتجاً مشاركاً في الفيلم، وإننا بصدد تقديم أوراق الفيلم لنيل منحة (الفليمش فيلم فند) وكل شيء، فقالت البنت إن هذه أخبار عظيمة، وتشجعها أكثر على الدخول في إنتاج مشترك معي ومع إنياس، وإننا في غضون فترة وجيزة قد نستطيع أن نقدم المشروع إلى قناة آرتيه، من خلال شركتها، بوصفها المنتجة الفرنسية المشاركة في إنتاج الفيلم.

وودعت نورا، وأولجا، وبي جى، وحسيبة، وكيت، ورغد السورية الجميلة، والسيد آدم سميث، والسيد بوريس حاجي بابا حمص أخضر، وإنياس الذي فرح كثيراً لما أخبرته أن ماري على وشك الموافقة على المشاركة في إنتاج فيلم القرافة وكل شيء، ومانويلا. وبكت مانويلا، رغم أنها حاولت أن تتماسك. وتواعدنا، مرة أخرى، على اللقاء قريباً. وبعد ذلك بنصف ساعة غادر الفندق لحسن اللحية. وبعدها بعدة دقائق، صراط بو عكاز. وبعدها بربع ساعة تقريباً غادرت كل المجموعة الإسبانية، بمن فيهم خافيير والبنات المساعدات، وودعت فرناندو أيضاً وكل شيء. وقد حرص خافيير على طمئنتي بأنه رتب الأمور لكي تأتي سيارة التاكسي في الثامنة مساءً لاصطحابي إلى مبنى المطار، وأن كل شيء مدفوع مسبقاً، ولست في حاجة لدفع أية نقود للتاكسي أو أي شيء. وغني عن البيان طبعاً أننا جميعاً، زميلات وزملاء ومنظمين، قد تبادلنا الوعود بالاستمرار في التواصل والمراسلات وكل ذلك الهراء.

وكان باقي الزميلات والزملاء، كما علمت، قد غادر بعضهم

فجراً. أما المتبقي، فقد كنتُ أنا، وزميلاً تركياً، لم يسبق لنا أن تعارفنا، أو تكلمنا، لكنني كنت أعرف أنه تركي، وفي مجموعة من المجموعات الفرنسية، ولا أدري متى كان سيغادر الفندق، ولم أكن مهتماً من الأساس بأن أعرف، ولا بأن أفتح معه أية أحاديث فيما تبقى لي من ساعات قليلة في هذه المدينة، فصعدت إلى غرفتي بالفندق.

فتحت النافذة، وشرعت في إعداد كوب من القهوة، ولففت سيجارة. ورحت أكتب قليلاً في دفتر اليوميات، وأنا أرشف من كوب القهوة، وأدخن السيجارة. ثم قررت أن أعد حقيبة السفر. فوضعت بها كل ملابسي، وكل الأشياء الأخرى، والكوبين الزجاجيين الرشيقين اللذين كانا عندي في الغرفة تركة صديقي العزيز بي جى، وتركتُ لهم في الفندق كوبهم الأساسي على حوض الغسيل في الحمام، بعد أن غسلته من بقايا القهوة التي شربتها طبعاً، فكأني لم آخذ منهم أي شيء. ولففت سيجارة أخرى وأنا أعد الحقيبة، وفتحت التلفزيون على إحدى القنوات الفرنسية التي كانت تذيع نشرة الأخبار، ولفت نظري رؤية الملك عبد الله بن عبد العزيز، ملك السعودية، وهو يبدو مرهقاً وتعباً وضعيفاً، وخطر على بالي أنني لا أرى ملوك السعودية، السعودية تحديداً، إلا وهم في حالة صحية صعبة؛ يتعلثمون في نطق الكلمات، ويحتاجون إلى من يسندهم وهم يمشون، بالإضافة إلى التقارير الصحفية الأجنبية، الأجنبية دائماً وليست العربية إطلاقاً، التي تنتشر من حين لآخر أخباراً عن تلقيهم العلاج في مستشفيات ألمانيا وأنجلترا وأمريكا. وفكرت أنهم ربما كانوا

يعانون صحياً، ويبدون كما لو كانوا يحتضرون، نتيجة لانغماسهم الشديد في الملذات في فترات شبابهم.

كنت وأنا في السنة الثالثة بمعهد السينما قد قررت أن أتعلم الموسيقى؛ وتحديداً العزف على الكمان، والعزف على الإيقاع. وفي مسألة تعلم العزف على الكمان، انضممت إلى الدراسات الحرة في معهد الموسيقى العربية بشارع رمسيس، أيام كان المبنى ملكاً للجمعية الأهلية للموسيقى، وقبل أن تستولي عليه وزارة الثقافة وكل شيء. وكان من حسن حظي أن أستاذي في مادة الكمان الكلاسيكي كان الأستاذ أسامة المنسي؛ العازف السابق في أوكسترا القاهرة السيمفوني، والذي تقاعد بسبب مشاكل في القلب جعلته يكتفي بالتدريس فقط في المعهد. وكانت هناك بالطبع مشكلة شراء كمان من أجل التعليم والتدريب. وكان الكمان الجديد الستراديفاريوس التشيكي، وليس الألماني، يباع في شارع محمد علي بما يفوق الثلاثة آلاف جنيه. كانت هناك بالطبع آلات كمان صينية من التي يسمونها: "سوزوكي"، ولكن كان من المستحيل التفكير فيها، لأن أصواتها قبيحة وبشعة، بالإضافة إلى أنه قد قيل لي بأن أبعادها غير مضبوطة، بمعنى أنك تضع إصبعك على الرقبة في مكان الدو مثلاً، فتسمع الدو زائدة أو ناقصة وكل ذلك العك.

يومها قال لي الأستاذ أسامة المنسي ألا أشتري كماناً من شارع محمد على، وقال إنه سوف يخدمني خدمة العمر، وأخذني بعد عدة أيام إلى بيت عيسوي داغر في حي عابدين، وعيسوي

داغر هو الأخ الأصغر لفنان الكمان الكبير عبده داغر، الذي يُعتبر معجزة في عالم الموسيقى الكلاسيكية العالمية، لأنه علم نفسه بنفسه العزف على الكمان دون معلم، بل ودون حتى أن يعرف القراءة من النوتة، وهو أمر لو تعلمون لمستحيل استحالة مطلقة، ولكنه قد حصل مع عم عبده داغر، الذي علم أخاه الصغير العزف على الكمان، هو أيضاً، سماعياً بدون نوتة ولا أي شيء.

ولما ذهبنا إلى عند عيسوي داغر، اشتريت منه كمان ستراديفاريوس ألماني قديم قام هو بتصليحه ودفعت فيه ثلاثمئة جنيه فقط لا غير بعد توسط الأستاذ أسامة منسي، الذي عزف على الكمان جزءًا من (أوبرا عايدة) كتجربة قبل أن أشتريه، لأنني كنت لا أجيد أي عزف على أي كمان وقتها، كما عزف عليه عيسوي داغر نفسه مقطوعة شرقية حزينة من (جددت حبك ليه) لأم كلثوم. وكان عيسوي داغر في تلك الفترة يسافر إلى مدن الأقاليم المصرية المختلفة ليسأل في مدارسها الابتدائية والإعدادية عن آلات كمان قديمة، في غرف الموسيقى القديمة المغلقة والتي تحولت مع الزمن إلى غرف للتخزين والتكهين، من آلات الكمان التي كان معلمو الموسيقى يستخدمونها أيام زمان، أيام كانت المدارس المصرية تقوم بتعليم التلاميذ الموسيقى كحصة أساسية وكل شيء. ومن هناك، وبهذه الطريقة، حصل عيسوى داغر على العديد من آلات الكمان المدرسية من أيام الستينيات، وكانت كلها مكسورة بالطبع وفي حالة يرثى لها وأقرب إلى القمامة منها إلى آلة موسيقية محترمة، ولكنه ظل يصلح فيها، ويوفق ظهر

كمان من هنا، على وش كمان من هناك، إلى رقبة كمان من هونيك، وهكذا صار لديه عدد كبير من آلات الكمان التي تم تصليحها، وتم الحفاظ على تصميمها الأساسي: ستراديفاريوس، أو أماتي، أو مينديني، أو سيسيليو، أو وندسور، أو كايزر، أو غيرهم.

وفي ذلك اليوم كان عيسوي داغر غاضباً ومستاءً من تصرف أحد جيرانه، والذي كان مجنوناً حرفياً، ويسكن في الطابق الأول، حيث قام بتلطيخ حوائط السلم من الطابق الأرضي إلى الطابق الأول ببرازه، أي نعم والله العظيم ببرازه! وقد شممنا رائحة قذرة للغاية أنا والأستاذ أسامة المنسي ونحن نصعد على السلالم إلى شقة عيسوي داغر في الطابق الثاني. ولكن هذه قصة أخرى ليس هذا هو مكانها في الحقيقة، ولا هذا أيضاً هو مكان تلك القصة الأخرى الظريفة التي حكاها لنا عيسوي داغر في تلك الليلة، عن كيفية معالجته لضرسه الملخلخ، حيث قام بلصقه بمعجون لصق "سوبر كلو" الذي يلصقون به البلاستك والكرتون والخشب وكل ذلك.

ما كنت أريد قوله في الحقيقة، وسبب تداعي تلك الحكايات العيسوية الداغرية، هو ما حكاه لنا وهو يقوم بتعديل وضع عمود الكمان المسؤول عن نقل الصوت وحدته وارتفاعه وكل شيء، حيث كان الأستاذ أسامة المنسي، وبعد أن عزف على الكمان كتجربة، قد أبدى ملاحظة مفادها أن صوته مرتفع بعض الشيء ويحتاج إلى التنعيم، وربما كان سبب ارتفاع صوت الكمان هو أن

معظم آلات الكمان لدى عيسوي داغر كان يشتريها عازفو الفرق الموسيقية الشرقية، وهؤلاء يفضلون صوت الكمان مرتفعاً قدر الإمكان، نهايته، قام عيسوي داغر، وعلى إثر ملاحظة الأستاذ أسامة المنسي، بتعديل مكان عمود الكمان؛ وهو عمود خشبي صغير ورقيق يُوضع داخل الكمان، ويصل وجهها بظهرها من الداخل، ويُثبت بدون مسامير ولا لصق ولا أي شيء، وهذه من إحدى عجائب وغرائب ومعجزات صناعة الكمان. وأثناء استخدام عيسوى داغر لأداة خاصة صغيرة ورشيقة لتعديل وضع عمود الكمان، حكى لنا أنه في فترة شبابه، عندما كان يعزف في فرقة الراقصة سهير زكي في الملاهي الليلية في القاهرة، سافر معها على متن طائرة خاصة سعودية في رحلة سريعة لمدة 24 ساعة إلى فرنسا، لإحياء ليلة في قصر يملكه الأمير فهد، ولي العهد السعودي في تلك الفترة، وملك السعودية فيما بعد، وكان القصر في جنوب فرنسا، ويقع على بحيرة أو نهر أو شيء من هذا القبيل كما حكى عيسوي داغر، وقال عيسوي داغر إنه عندما وصلوا إلى هناك، وبدأت الليلة، وراحوا يعزفون، وسهير زكي ترقص، كانت هناك استراحة قصيرة بين الفقرات، وفي تلك الاستراحة شعر عيسوي داغر برغبة شديدة في التبول، فتسحب وتسلل من تحت لتحت ومن دون أن يشعر به أحد إلى أروقة القصر المنيف بحثاً عن حمام هناك في أي مكان لكي يتبول فيه، وقال إنه أثناء بحثه في القصر عن حمام، دخل حماماً كبيراً وفاخراً ورائعاً، فرأى بعد المدخل مباشرة: الأمير فهد واقف معطياً ظهره له، وكانت هناك فتاتان فاتنتان رائعتا الجمال

شقراوتان تركعان أمام الأمير فهد وكلتاهما تمصان له في نفس الوقت! قال عيسوي داغر إنه صُدم لما رأى هذا المشهد، وبلم، وتجمد من المفاجأة ومن الخوف، ولم يسترد وعيه إلا لما هرع إليه أحد مساعدي الأمير فهد، والذي يبدو أنه كان يقف هناك في أحد أركان الحمام، وقال له إن الأمير فهد يعاني من صعوبة في التبول، وإن هذه الطريقة الجديدة في التبول هي وصفة الطبيب المعالج لسمو ولي العهد وكل ذلك. ضحكنا يومها كما لم نضحك من قبل. وتخطر على بالي هذه الحكاية في كل مرة أرى فيها الصحة المتدهورة لأحد ملوك السعودية، فأقول في نفسي: هذا نتيجة الانغماس الشديد في الملذات ولا شك!

أخرجت أجندة التليفونات من الهاندباج، واتصلت بالتليفون المحمول لماثيو ديجريمو، الذي سبق وأن قابلته في القاهرة في فيديو مصر، أيام كان يصنع فيلماً تسجيلياً هناك، وساعدته أيامها وكل شيء. رد بعد رنين طويل، وقال إنه ليس في تولوز، ولكن في أوكرانيا، لأنه يصور فيلماً تسجيلياً هناك وكل ذلك. فحاولت أن أختصر المكالمة الدولية سريعاً، لأنني قدرت أنني من سيدفع فاتورة المكالمات التي أجريها من غرفتي. وتمنيت من أعماق قلبي ألا يغالي الفندق في تكلفة المكالمة الدولية، وألا يكون مثل النصابين والحرامية في الفنادق المصرية الذين يسرقونك عيني عينك في وضح النهار.

ثم أجريت مكالمة أخرى، محلية هذه المرة، إلى السيد دومينيك؛ صاحب محل السكس شوب الذي قابلته في الطائرة،

والذي كنت أحتفظ بكارت محله بين دفتي أجندة التليفونات. رد عليّ بنفسه فوراً، وأسعدني كثيراًَ سماع صوته الرخيم والعميق مرة أخرى. قال إنه في انتظاري في المحل، وإنني مدعو إلى الغداء عنده، وأعطاني عنوان المحل مرة أخرى، بالرغم من أنه كان موجوداً بالفعل معي في كارت المحل. قلت له ألا يقلق، وأن باستطاعتي الوصول إلى المحل بسهولة.

أغلقت التلفزيون، والنافذة، وأخذت معي عدة السجائر، ومحفظة النقود، ونزلت إلى بهو الفندق. سألت الموظفة الشابة الأنيقة عن كيفية الوصول إلى العنوان المكتوب في كارت دومينيك، وقد توقعت أن تبتسم، أو تبدي أية علامة من العلامات وهي تنظر إلى كارت السكس شوب الذي ناولتها إياه. لكن ذلك لم يحدث، وحافظت البنت على أمارات الجدية والصرامة على وجهه وهي ترد إليّ كارت السكس شوب وتصف لي، وبدقة متناهية، كيفية الوصول إلى العنوان، الذي كان أقرب كثيراً إلى الفندق مما خمنت.

خرجت من الفندق، ومشيت في الشوارع، كما وصفت لي موظفة الريسبشن. انحرفت يميناً، ثم يميناً، ثم يميناً. وتذكرت في ثالث انحراف يميني، أن أحداً ما، لم أعد أذكر من هو الآن، قد ذكر لي مرة بأن السر في الخروج من أية متاهة هو الاستمرار في الانعطاف إلى اليمين دائماً، وأن هذا هو كود سري يحافظ عليه مصممو المتاهات في كل زمان ومكان. وصلت إلى "لا بلاس دى كابيتول"، أو ميدان الكابيتول إن شئت، وهو الميدان

الرئيسي في تولوز، كما عرفت من دومينيك ومن غيره، أي تقريباً هو بمثابة ميدان التحرير في القاهرة وكل شيء. وتذكرت أنني قد أتيته ليلاً مع بي جى واشترينا من كشك بالميدان زجاجة سبرايت في أول ليلة لنا بتولوز.

ولفت نظري وأنا أمشي أن معظم المحلات مقفلة، لأن اليوم هو الأحد في الغالب. كانت هناك القليل من دكاكين الخمور والبقالة الصغيرة المفتوحة، وبعض أكشاك الصحف والمجلات والتبغ. ولفت نظري أيضاً أن هناك لافتات على كل المحلات تقريباً، المقفلة والمفتوحة، تعلن عن موعد أوكازيون في الأسبوع القادم، وخصومات تصل إلى 70%، وأظنها خصومات حقيقية، وليست مثل النصب الذي نتعرض له في أوكازيونات القاهرة. وشعرت بغصة من أنه ليس معي نقود تكفي لشراء كل ما أتمناه، هذا بالرغم من أنه حتى لو كانت معي نقود، فلم أكن لأستطع حضور الأوكازيون، لأنني راجع إلى القاهرة هذا المساء. وكان ميدان الكابيتول يغص بالإعلانات عن الأوكازيون. وكان هناك بعض العمال الذين يقيمون ما يشبه المنصة الخشبية، لا أدري إن كانت للاحتفالات والعروض الموسيقية أو ما شابه، أو كانت بغرض أن ُتعرض عليها بعض السلع المخفضة الأثمان في الأوكازيون. لكن في العموم، كان المشي وحيداً في شوارع تولوز شيئاً رائعاً بحق، والناس القلائل الذين مررت بهم كانوا في منتهى الشياكة والأناقة والعطور الفواحة، والشوارع نفسها كانت نظيفة وجميلة وهادئة وتفوح منها روائح الأشجار العطرية المزروعة على جانبي الطريق، وقلت في نفسي وأنا أمشي إن التسكع

الحقيقي يكون في مثل هذه الشوارع الرائعة، وليس في شوارع القاهرة القذرة والمتربة التي تفوح من كل مكان فيها، في أحسن الأحيان، روائح الزيوت المقدوحة والمحترقة التي يطهون بها أطعمة الشوارع، وروائح المجاري والخراء في أسوأ الأحيان.

وانعطفت يميناً، مرة أخيرة، في الشارع التالي لكشك الجرائد والتبغ الذي اشترينا منه بي جى وأنا زجاجة السبرايت، والذي قالت لي موظفة الريسبشن إنه هو الشارع الذي يوجد به محل السكس شوب.

كان موقعاً ممتازاً في وسط البلد، مما أوحى لي بأن دومينيك لابد وأن يكون غنياً وأن تجارته رابحة بدون شك حتى يتمكن من فتح محل في شارع متفرع من الميدان الرئيسي لتولوز. مشيت قليلاً وأنا أنظر إلى أرقام البنايات والدكاكين، ولم تكن هناك أية صعوبة في العثور على: "الأوديسة- سكس شوب- بوتيك إروتيك".

كانت واجهة البوتيك الخارجية من الخشب الأسود اللامع، أعني الأطار الخارجي الذي يحدد حدود الواجهة، بالإضافة طبعاً إلى الباب بالكامل، والذي كان هو أيضاً من الخشب الأسود. وكانت على جانبي الباب نافذتان كبيرتان، كل منهما بحجم نصف الواجهة تقريباً، وعلى كل منهما ستارة مشدودة من البلاستك، قرمزية اللون، ومكتوب على اليمنى منها:

XXX DVD XXX

CP

FETISH

FEDOM

BONDAGE

SPANKING

HETRO & GAY

LES & TRANS

IN STOCK

وعلى الستارة القرمزية اليسرى، ما ترجمته بالعربية:

مجلات

كتب

ألعاب

كريمات

شموع

سبراي التأخير

فتحت الباب ودخلت، فسمعت صليل الجرس الرشيق الذي كان معلقاً أعلى حلق الباب من الداخل.

صُدمت قليلاً لما دخلت، والحق يُقال. أدركت أنني في داخل مكان أشبه بالمكتبة الكبيرة أو شيء كهذا. كانت هناك دولايب، ورفوف، وستاندات، في ممرات طولية وعرضية بداخل المحل، وعلى رفوفها: كتب، ومجلات، وديفيدهات، وشموع ُمغلفة، وألعاب جنسية ُمغلفة، وهلم جرا. مشيت في الممر الرئيسي الذي يواجهك بعد أن تدخل البوتيك، وكان في آخره شاب عشريني يقف خلف منضدة البيع المرتفعة، والتي تخفي أكثر من نصفه الأسفل. كان الولد مفتول العضلات، قصيراً نسبياً، وقمحياً، ولديه شعر أسود ناعم وطويل ومفروق من المنتصف. كان الولد يبدو مهذباً، وما إن وصلت إليه، بادرت بالسلام بالفرنسية:

- صباح الخير.

- صباح الخير يا سيدي، كيف يمكن أن أخدمك؟

- اسمي سامح، وأظن أن مسيو دومينيك في انتظاري الآن.

- آه، مسيو سامح! طبعاً، تفضل، من هنا.

والتفت الشاب المؤدب إلى يساره، وخطا عدة خطوات في ممر معتم قليلاً، ثم أشار إلى غرفة مفتوح بابها على مصراعيه:

- مسيو دومينيك هنا.

ووقف الولد في حلق الباب، وخاطب دومينيك:

- مسيو دومينيك، مسيو سامح قد حضر!

شكرت الشاب المؤدب، ودخلت إلى غرفة مكتب دومينيك، الذي سارع إلى النهوض، والذي تم بمشقة، كما ولابد وأنك توقعت:

- دومينيك!

- سامح!

وسلمنا على بعضنا البعض بحميمية، وقبلنا بعضنا البعض على الوجنتين كصديقين من أيام الطفولة.

- إجلس، احكي لي كيف أمضيت الأيام الماضية هنا؟!

جلست على كرسي جلدي أسود منحول جلده قليلاً، بينما جلس دومينيك خلف مكتبه الضخم على كرسي فوتيه بني كبير وضخم وبدا كما لو أنه أمتن كرسي في الوجود.

- في الحقيقة لا يوجد الكثير لأحكيه لك، أمضيت الأسبوع كله في ورشة العمل، من الفندق إلى يوتوبيا سينما، ومن يوتوبيا سينما إلى الفندق!

- ولم تشاهد أية معالم في المدينة؟!

- لا للأسف!

- خسارة! إسمع أنت اليوم معزوم على الغداء عندي، سوف ُأحضّر لك كاسوليه دى تولوز.

- حقاً! الكاسوليه التولوزي!

- نعم، بالمناسبة، هل قدموه لكم على الغداء أم لا؟!

- لا في الحقيقة لم يحدث!

- حسناً، سوف تأكل اليوم الكاسوليه، عندي كل شيء فوق في الشقة، لكن يجب أن أحذرك، الكاسوليه التولوزي يستغرق وقتاً طويلاً في تحضيره، إن تحضيره لهو فن في حد ذاته، هل أنت جائع الآن؟

- في الحقيقة لا، لقد تناولت الإفطار منذ قليل.

- رائع، إذن اعتبر أننا سنتناول العشاء لا الغداء!

- هه هه هاااا، حسناً يا دومينيك، وأنا في الحقيقة أريد أن أقف إلى جوارك وأنت تحضر الكاسوليه حتى أتعلم طريقة عمله وأصنعه لما أرجع إلى مصر!

- الطريقة سهلة جداً وبسيطة للغاية، لكن سر النجاح هو

الصبر، الصبر والإخلاص.

- الصبر وعارفينه؛ نار الفرن الهادئة، لكن ماذا تعني بالإخلاص؟!

- المكونات يجب أن تكون من النوع الممتاز، يجب أن يكون صانع الكاسوليه كريماً فيما يتعلق بنوعية المكونات.

- فهمت، إذن الكاسوليه التولوزي ليس للبخلاء، إن جاز القول!

- بالتأكيد! سامح أنا لديّ مكالمتيّ تليفون أو ثلاثة للشغل، سأجريهم ثم سنصعد بعد ذلك إلى فوق، موافق.

سألني دومينيك السؤال وكأنه ليس سؤالاً.

- أخشى أن أعطلك عن العمل!

- لا لا، أنا عادة أنزل إلى البوتيك ساعة أو اثنتين كل صباح للإشراف على العمل وإمضاء الفواتير، ثم أترك العمل كله لسيزار بعد ذلك، هو شاب ممتاز!

- قريبك؟!

- ابن أختي.

- خمنت ذلك من الشبه!

- واضح، أليس كذلك؟!

- جداً في الحقيقة، حسنٌ، سوف أخرج وأتفقد المعروضات في البوتيك إلى أن تنتهي من مكالماتك التليفونية!

- تمام، سآتي إليك حالما أنتهي.

خرجت من مكتب دومينيك، الذي كان يغص بالكراتين في كل مكان؛ كراتين مجلات، وكتب، وديفيديهات، وألعاب جنسية، مكتوب عليها بالفرنسية. مررت من أمام سيزار، فحييته مجدداً:

- سيزار!

- مسيو سامح!

ورحت أتفقد الأرفف على مهل. ولم تستوقفني المجلات ولا الكتب ولا شرائط الديفيدي طويلاً، لأنني كنت قد شبعت من هذه الأشياء منذ زمن طويل؛ من أيام فترة المراهقة وإلى اليوم، فهي متوفرة في القاهرة لدرجة الملل. لكن ما استوقفني، في الحقيقة، كانت هي الألعاب والإكسسوارات الجنسية، فلم أكن قد رأيتها من قبل. أعني أنني رأيتها بالطبع في أفلام البورنو وكل ذلك، ولكنني كنت أول مرة أراها رؤية العين، وجهاً لوجه، وهي في أغلفتها البلاستيكية الشفافة، وعليها الأسعار المكتوبة، وكل شيء.

كانت معظم تلك الألعاب باللون القرمزي، والأحمر، والأسود، والوردي، والقليل منها باللون الإرجواني، أو الأزرق

السماوي. وما ستقرأه الآن من وصف لتلك الألعاب والإكسسوارات وخلافه، هو ما دونته، على عجل، عندما عدت إلى الفندق، وقبيل أن أغادر إلى المطار، فقد كانت هناك ساعة، أو أكثر قليلاً، على موعد سيارة التاكسي التي كانت ستقلني إلى مطار تولوز. قد تكون بعض الأسعار قد اختلطت في بعضها البعض، فصار أبو قرش بقرشين، وأبو قرشين بقرش، وقد أكون نسيت بعض الأشياء، أو أضافت المخيلة بعض التفاصيل على الوصف لأشياء أخرى، ولذلك فإنني أستميحك عذراً، وأراهن على سعة صدرك، لأن المهم يا رفيق هو نقل الحالة العامة، والجو العام، والفكرة العامة، وكل تلك الأشياء العامة بخصوص الألعاب الجنسية التي كانت متوافرة في بوتيك دومينيك. كان هناك:

- هزاز فائق الاستجابة، على شكل قرص أحمر، مع تقنية باللمس تسمح للقرص بالاهتزاز أكثر أوتوماتيكياً كلما ضغطت المرأة عليه، مع زر قفل يثبت مستوى الاهتزاز عند الوضع الذي ترغب المرأة في الاحتفاظ به. السعر: 39 يورو.

- كريم (آلو كادابرا) الطبيعي (للاستمناء، وأيضاً أثناء الجماع للتقليل من الاحتكاك بين القضيب والمهبل)، خالٍ من الجلسرين، ومصنوع من 95% من الصبار العضوي، لا يسبب الالتهابات ولا عدوى التخمر. السعر: 14 يورو.

- شموع زيت التدليك (كاما سوترا)، تحترق في حرارة

منخفضة حتى لا تؤذي نفسك أو أي شخص آخر أثناء التدليك. السعر: 17 يورو. (ملاحظة: لم أفهم ما فائدة هذه الشموع، ولكني خمنت أنها قد تكون الشموع التي يصب قطراتها محبو السادية على أجساد محبي المازوخية وكل تلك الأشياء).

- مجموعة أساور وأحزمة للتقييد إلى السرير (لمحبي التعذيب)، سوداء، معها سوط جلدي هدية، أساور لليدين وللكاحلين، يمكن تعديل حجم واتساع الأساور، وهي مبطنة من الداخل مما يضمن الراحة والأمان. السعر: 30 يورو.

- مجموعة قضبان سوداء للشرج (4 قضبان)، أربعة أحجام مختلفة لتناسب المبتدئين، ولتتيح لك اختيار أفضل ما يرضيك أنت وشريكك. السعر: 18 يورو.

- هزاز (جي سبوت)، قضيبي الشكل، قرمزي، بدائرة هزازة في الرأس، من السيليكون الطبي، آمن لإدخاله في الجسم، بعشر سرعات، مثالي لأية امرأة لكي تجد المتعة بنفسها، . السعر: 27 يورو.

- النرد الجنسي الراقي للكبار، أسود في أحمر في أبيض، من خلال رمي الزهر دع الحظ يحدد لك أنت وشريكك الأوضاع، 60 وضعاً للمداعبة، و24 وضعية جنسية مختلفة، يأتي مع النرد أيضاً كتيب من الرسوم التوضيحية والتعليمات والنصائح لمساعدتك في تحقيق أقصى متعة من المواقف التي تقوم أنت وشريكك بتدويرها. السعر: 15 يورو.

- قضيب زجاجي شفاف، على شكل بلورات دائرية متصلة ببعضها، متعدد الاستخدامات، للمهبل أو الشرج، يمكنك وضعه في الفريزر أو الميكروويف للحصول على درجة الحرارة التي تفضلها. السعر: 17 يورو.

- مضرب جلدي أسود، للضرب على الأرداف، لكماته مُرضية، صغير وعملي. السعر: 8 يورو.

- عَصّابة للعينين ، قناع العينين الناعم من الساتان الأحمر، ستستمتع بالنعومة، مثالية في مواقف تقييد الشريك. السعر: 5 يورو.

- ريشة هزازة للمداعبة، حمراء، أداة جنسية رائعة، منخفضة المخاطر، لمحبي الدغدغة في الأماكن الجنسية، مصنوع من مواد تتحمل طويلاً، لا يُفقد ريشه بسهولة، يأتي معه ضارب من الجلد في الطرف الآخر من العصا كمكافأة إضافية للشريك. السعر: 17 يورو.

- هزاز صغير بنفسجي، يمكن الاحتفاظ به سرياً في حقيبة اليد، ممتاز وقوي في إنجاز المهمة، يمكن الضغط على السهمين لأعلى أو لأسفل على سطح الجهاز لزيادة أو لتقليل شدة الاهتزاز. السعر: 20 يورو.

- (شيباري ميني)، على شكل قضيب صغير منتفخ وردي، أفضل هزاز في السفر، من السيليكون، سهل التعامل معه، له

رقبة قابلة للانحناء لضمان حصولك على الزاوية الصحيحة، 20 إعداد مختلف للاهتزاز. السعر: 28 يورو.

- هزاز قضيبي للشرج، قرمزي، يعمل بالبطارية، مقاوم للماء، حجمه وتصميمه الحلزوني يجعله رائعاً للمبتدئين، يمكن تكبيره بإضافة رأس قابلة للإزالة تأتي معه كهدية. السعر: 19 يورو.

- شيء اسمه: (شوتبوكِت)، على ما أتذكر، أزرق سماوي، يشبه الكوب الصغير، من السيليكون، مكتوب أنه مُصمم خصيصاً للمتحولين جنسياً، وفهمت أنه من أجل الاستمناء، أو لتكبير حجم القضيب، حيث يُدخل المتحول جنسياً زبه فيه، ثم يمارس العادة السرية، وهو قابل للمط بحسب حجم الزب، كما فهمت، ومكتوب على العلبة أنه يمنح الواحد من هؤلاء الإحساس وكأن زبه يُشفط. السعر: 22 يورو.

وغيرها الكثير من الألعاب، والإكسسوارات، والكريمات، والمزلقات، والزيوت، ولكن، للأسف، هذا هو كل ما استطاعت ذاكراتي الاحتفاظ به عندما رجعت إلى الفندق، أعني أنني أتمنى أن يكون هذا هو الوصف الأقرب إلى الدقة للأشياء كما رأيتها فعلاً، وأن الذاكرة لم تخن وكل ذلك.

وانتهى دومينيك مع مكالماته التليفونية، وأتى لاصطحابي إلى شقته، وسلمت على سيزار اللطيف قبل أن أخرج من البوتيك.

كانت شقة دومينيك تقع أعلى المحل مباشرة، في نفس البناية التي فيها المحل. دخلنا من بوابة العمارة المجاورة لباب البوتيك، وصعدنا إلى الدور الأول على أقدامنا، فلم يكن الأسانسير يقف في الدور الأول، كما عندنا في مصر. وذكرتني سلالم العمارة الواسعة، الرخامية، البيضاء، والمرآة التي توجد في بسطة الدرج في منتصف المسافة إلى الدور الأول، بنفس السلالم، تقريباً، في فيلم (الدائرة الحمراء) لجان بيير ملفيل، تلك التي تؤدي إلى محل المجوهرات الذي سيسرقه أفراد العصابة وكل شيء. وإذا ما توقعت أن الصعود على السلالم كان بطيئاً بسبب حجم ووزن دومينيك، وصعوبة حركته، فإن توقعك في محله تماماً يا رفيق، فقد استغرقنا مئة ساعة على الأقل من باب البوتيك حتى وصلنا إلى باب شقته. وفي هذه الساعات الطويلة، التي بدت لي كأنها لن تنتهي، حتى تصورت أنني سوف أقضي حياتي كلها في الطريق من البوتيك إلى شقة دومينيك وسوف أموت من الشيخوخة في الطريق وكل ذلك، أقول إنه في تلك الأعوام الطويلة على الطريق، قلت لدومينيك ضاحكاً:

- كنت أتوقع أن أرى فتيات في المحل، عذراً يا دومينيك، فهذه هي أول مرة في حياتي أدخل فيها سكس شوب!

قال دومينيك ضاحكاً:

- لا عليك، في الحقيقة كنا في الماضي نوظف فتيات فعلاً في بوتيكات السكس شوب، هل رأيت مكان مكتبي؟ في تلك

الطرقة كانت هناك في الماضي عدة أكشاك سكس؛ هي أكشاك يدخل فيها الزبون ويغلق على نفسه الباب، ثم يستمني على منظر فتاة تخلع ملابسها في حجرة صغيرة يفصلها عن مكان الزبون نافذة زجاجية مغلقة.

- نعم نعم، رأيتها في الأفلام الأمريكية، ولكن لماذا توقف الأمر؟!

- كانت هناك ضغوط شديدة علينا من جمعيات حقوق المرأة، ومن غيرهم أيضاً، والحكومة كذلك، فاضطررنا في النهاية إلى إغلاق ذلك النشاط.

- خسارة!

- ولكنه موجود في بعض الأماكن في فرنسا لا يزال، وموجود طبعاً في كل الولايات في أمريكا، وفي بعض الأماكن في أوروبا، مثل هولندا مثلاً، وفي اليابان كذلك.

- ولكن على حد علمي فإن المراقص التي تتعرى فيها الفتيات لا تزال موجودة في فرنسا، أليس كذلك؟!

- نعم، ولكن هناك الكثير من الرقابة، والكثير من الاشتراطات، التي يحاولون بها أن يضمنوا عدم استغلال النساء هناك، وأن الأمور تتم بالموافقة التامة لهن وبالتراضي.

- هل تعلم يا دومينيك، عرفت مرة سيدة أمريكية في القاهرة،

قالت لي إنها كانت تعمل في ملاهي الرقص العاري في لوس آنجلوس من أجل أن تدفع مصاريف تعليمها، وإنها بهذه الطريقة استطاعت مواصلة التعليم حتى حصلت على الدكتوراه!

- نعم، هذا صحيح، الكثير من الفتيات اللائي يعملن في هذا المجال، يعملن فيه من أجل الحصول على مصاريف التعليم.

- وهذا لا يسبب الضيق لجمعيات حقوق المرأة، بل يسمونه حرية المرأة، والاستقلال المادي للمرأة، وكل تلك الأشياء، أليس كذلك!

- نعم، إن كان في الأمر مكاسب مالية فإن النظر إلى الأمور يتغير في هذه الحالة!

- إذا دخل المال من الباب هربت حقوق المرأة من الشباك، إن جاز التعبير!

ففطس دومينيك من الضحك.

وقال لي دومينيك إنه بالرغم من ذلك، فإن جمعيات حقوق المرأة، وحقوق الإنسان، وتلك التي تهتم بنوعية الحياة، كلها تدعم الآن بوتيكات السكس شوب، دعماً معنوياً طبعاً، وليس دعماً مالياً، لأنهم يعتقدون أن تلك البوتيكات تساعد في ترويج الثقافة الجنسية الصحية، ومنتجاتها تقوم بتوعية الزبائن عن الممارسات الصحية في الجنس، كما أن ما تبيعه من ألعاب وأدوات جنسية،

مثل القضبان الصناعية والهزازات التي توضع في المهبل وكل شيء، تمنح المرأة المتعة، والحرية والاستقلال عن الرجل أيضاً، وكل تلك الأشياء. وفهمت من دومينيك أنه يحترم مهنته ويحبها، وأنه لا يشعر بالخجل منها، وتذكرت قولاً للشيخ زوسيما، في رائعة دوستويفسكي (الإخوة كارامازوف)،حين قال ما معناه: إن أس البلاء هو شعور المرء بالخجل والخزي من نفسه، وكل ذلك.

ولما فتح دومينيك باب شقته، ودخلنا، أعجبني كثيراً ذوقه وديكورات شقته. كانت أقرب إلى الروح الشرقية منها إلى الروح الفرنسية. أعني أنه كانت هناك سجاجيد عجمية معلقة على الحيطان، ومصباح زيتي قديم يشبه مصباح علاء الدين في الحكايات موضوع على طاولة خشبية طويلة من الأرابسك، ورأيت أيضاً خنجراً عمانياً، كما بدا لي، من تلك الخناجر المقوسة وكل شيء. وكان الجو العام في صالة الشقة الواسعة جداً يوحي بأن سيد البيت يقيم حفلات عربدة ها هنا. وكان أكثر ما لفت نظري هو المكتبة الضخمة، الضخمة جداً، التي كانت في الصالة. كان هناك ديوان طويل جداً من الخشب، يشبه الكنبة الأسيوطي، ولكنه أطول بكثير، وكأنه من ثلاث أو أربع كنبات أسيوطية ملتصقة ببعضها البعض، وكان عليه وسائد كثيرة، وخمنت أنه مصنوعة خصيصاً لدومينيك لكي يتحمل وزنه الثقيل، وفي الجهة المقابلة للكنبة الأسيوطية الطويلة طولاً أبدياً، كان الحائط كله عبارة عن أرفف مكتبة، من الأرض حتى السقف، تتوسطها شاشة تلفزيون (إل جي) بلازما، خمنت أنه خمسون بوصة أو أكثر، وقال لي دومينيك، فيما بعد، إن هوايته هي

مشاهد الأفلام العالمية على تلك الشاشة، وهو مضطجع على الكنبة الكبيرة المقابلة، لساعات طويلة ممتدة، وفي أيام الإجازات، أو الكسل، يمكنه أن يقضي 24 ساعة يتفرج على أفلام مخرجيه المفضلين: تشارلي تشابلن، وجان بيير ملفيل، وجون فورد، وهوارد هوكس، وبيلي وايلدر، وديفيد لنش، وتيودورس آنجلوبولس، وكونتن تارانتينو، وسيرجيو ليوني، وهتشكوك، وكيروساوا، وفرانسوا تروفو، وإرنست لوبيتش، وياسوجيرو أوزو، وغيرهم.

ولما استعرضت بعينيّ سريعاً الكتب التي كانت في مكتبته، هالني أن أياً منها ليس له علاقة بعمله، لا من قريب ولا من بعيد، أعني أنني لم أجد كتباً في الجنس، أو الأوضاع، أو شيئاً من هذا القبيل، بل وجدت المجموعات الكاملة لأعظم الكتاب في تاريخ الإنسانية: كافكا، ونيتشه، ودوستويفسكي، وتشيكوف، وجوجول، وديكنز، وجيمس جويس، وكاواباتا، وهنري جيمس، وكامو، وبورخيس، وهنري برجسون، وستندال، وإمبرتو إيكو، وإيميل سيوران، وبريخت، وبلزاك، وجان بودريار، وبول باولز، وبول ريكور، وبيير بورديو، وتشرشل، وتورجنيف، وتولستوي، ونجيب محفوظ، وتوماس مان، وتيري إجليتون، وحنة آرنت، ودريدا، وساراماجو، وجيل دولوز، وسالنجر، وستيفن زفايج، وسيمنيون، وشتاينبك، وفالتر بنيامين، وفرويد، وفوكو، وكانط، وكورتاثار، وهرمان هسه، ومونترلان، وهيجل، وهايدجر، وهيمنجواي، ويونسكو، وآخرون. أعني أنني كنت أمام مكتبة أعظم مثقف في فرنسا، على ما يبدو، وليس صاحب دكان سكس

شوب! وكبر دومينيك في نظري ألف مرة، مئة ألف مرة! أعني أن الرجل كانت لديه في مكتبته الترجمة الفرنسية لـ (صحوة فِنيجان)، صحوة فِنيجان بحق الجحيم!

سألني دومينيك إن كنت أحب أن أشرب "أولد فاشوند"، فاستغربت كثيراً من معرفته بالأولد فاشوند، وابتسمت وأنا أقول له: طبعاً!

كانت أول مرة أشرب فيها الأولد فاشوند، بل وأول مرة أتعرف عليه واسمع اسمه، كانت في شقة صامويل الأيرلندي في الزمالك؛ صامويل الأيرلندي الذي يكره الإنجليز كره العمى! حضَّره يومها أمامي، وعندما تذوقته أعجبني أيما إعجاب. ثم عرفت، بالخبرة ومع التجربة، أنهم لا يعرفونه في بارات القاهرة، ولا حتى في بارات الفنادق الكبرى فيها، وغالباً ما يخلطون بينه وبين "كوكتيل مانهاتن". المكان الوحيد الذي كان يعده جيداً، كما ينبغي للأولد فاشوند أن يُعد، كان بار (أوجيني) في فندق ماريوت بالقاهرة؛ وتحديداً الولد حلمي البارمان هناك، والذي كان الوحيد في القاهرة الذي يعرف الفرق بين الأولد فاشوند وبين كوكتيل مانهاتن، ويعرف كيف يعد كلاً منهما على نحو ممتاز. وحتى تكون في الصورة يا رفيق، فإن الأولد فاشوند التقليدي الكلاسيكي يُحضر من مزج خمر البوربون، مع الكلوب صودا، مع مكعب سكر، مع شريحة من البرتقال، ويجب أن يكون ذلك بحرفية شديدة وبنسب وبمقادير محسوبة لكل من المكونات، حتى ينتج في النهاية الأولد فاشوند بطعمه الذي لا

يُنسى. أما كوكتيل مانهاتن يا رفيق فهو يُصنع من مزج البوربون، أو الويسكي، مع خمر الفرموث المسكر، مع خمر الفرموث الجاف، وبنسب معينة أيضاً، وبمقادير معلومة ومحسوبة حتى ينتج الطعم الرائع لكوكتيل مانهاتن.

وكنت حين أشتاق إلى خمر الأولد فاشوند، أذهب إلى بار أوجيني بالماريوت. وهو بار يقع في الطابق الأرضي للفندق، بل حتى تحت الأرضي، ويُقال إنه أصلاً كانت الحجرة التي نامت فيها الملكة أوجيني، حين جاءت إلى مصر لكي تحضر افتتاح قناة السويس وكل تلك الأمور. وكنت غالباً ما أقابل الولد خالد الأسمر هناك في أوجيني، لأنه كان يقضي وقته كله في ذلك البار، حتى تكاد تظن أنه ينام فيه أيضاً! كان الولد مولعاً ببار أوجيني، وكنت أراه دائماً على البار هناك يتحدث مع حلمي البارمان، فأنضم إليه على الفور. وكانت هوايتنا، كلينا، أن ننتظر حضور أسامة الباز إلى البار، لأنه كان يأتي إلى البار شبه يومياً، ويجلس هناك وحيداً على طاولة في ركن مظلم، يشرب دون أن يكلم أحداً، بينما عازف البيانو يعزف إحدى المقطوعات الكلاسيكية. لم يكن أحد يجرؤ على إقحام نفسه على أسامة الباز، ولا حتى الذهاب للسلام عليه ولا أي شيء. كان الجميع يحترمون خصوصيته، ويحافظون على المسافة الفاصلة بينهم وبينه، حتى لا يزعجوه وهو يشرب وحيداً هناك.

أما خالد الأسمر نفسه، والذي كان موسوعة في أنواع الخمور والكوكتيلات، ومن القلائل الذين وجدتهم في القاهرة

يعرفون الأولد فاشوند، ويعرفون الفرق بينه وبين كوكتيل مانهاتن، فقد كان طالباً فلسطينياً في الجامعة الأمريكية بالقاهرة وقتها، وكان يدرس العلوم السياسية كدراسة أساسية، وكنت أنا ما زلت في السنة الرابعة بالمعهد، وقد تعارفنا على بعضنا البعض لسبب غريب وعجيب، فقد كان كلانا في أعقاب فتاة قطرية كانت ابنة لأحد كبار الدبلوماسيين في السفارة القطرية بالقاهرة، وكان كلانا يخطط للإيقاع بها، ونجح الولد خالد الأسمر في النوم معها أولاً، في حجرته بالهوستل التابع للجامعة الأمريكية، أو بيت الطلبة إن شئت، والذي كان أغلى كثيراً من فنادق الخمس نجوم بالقاهرة، وقد زرت خالد الأسمر في حجرته الفارهة الأنيقة هناك، وأقول لك إنها كانت أفخم من الهلتون والشيراتون والفور سيزون وكل شيء. أما أنا، فقد نمت بعد ذلك مع ظبية، وها قد عرفتَ اسمها يا رفيق، في سيارتها، حيث ركنت سيارتها البي إم في طريق المطار، وفعلناها هناك، بناءً على رغبتها، وكنتُ قد عرضت عليها الذهاب إلى شقتي ليلتها، فسألتني إن كان هناك أحد آخر غيري يسكن الشقة، فقلت نعم، مينا، زميلي في المعهد، فرفضت الذهاب إلى هناك، وقالت نفعلها في السيارة، لأنها كانت تحب النيك في السيارات وكل تلك الأمور، ولكن هذه قصة أخرى.

صنع دومينيك الأولد فاشوند بطريقة رائعة، كما يقول كتاب الأولد فاشوند بالضبط؛ فان فكن تاستك! ورحت أستمتع بالمشروب، بينما دخل دومينيك المطبخ، الذي أعجبني تصميمه جداً، فقد كان يقع على يمين الجالس على الكنبة، ولم يكن له باب،

أعني أن حلق الباب كان فارغاً، وكان حائط المطبخ الذي يطل على الصالة به فتحة كبيرة جداً في نصفه العلوي، كشباك، ولكن بدون درف ولا أي شيء، مجرد فتحة كبيرة، يرى منها الجالس في الصالة ما يحدث داخل المطبخ، ويرى منها من في المطبخ من في الصالة، وقد يتم مناولة أطباق الطعام عبر تلك الفتحة الكبيرة، لو كنت تفهم ما أقصد.

وضع دومينيك اسطوانة سي دي في الكاسيت الكبير الستريو الذي كان بجوار شاشة التلفزيون هناك في المكتبة، وسعدت كثيراً لما اكتشفت أنه قد وضع كوكتيلاً من أغاني الجاز من ترتيبه هو شخصياً، وقد حاولت أن أصنع شبيهاً له لما رجعت إلى القاهرة. كانت أغاني كوكتيل دومينيك، إن لم تخني الذاكرة، لهؤلاء المغنيين الكبار: لوي آرمسترونج، إيلا فيتزجيرالد، جو كاكر، أوسكار بنتون، دايانا كرول، نينا سيمون، آريتا فرانكلين، أوتيس كلاي، نيكي باروت، جو بوناماسا، بوب ديلن، وبوب ديلن، وبوب ديلن، فرانك سيناترا، جاكي تيراسون، نيلسون رانجيل، بيلي هوليداي، بيجي لي، وآخرون.

وانضممت إلى دومينيك في المطبخ لكي أساعده في عمل الكاسوليه التولوزي. ورحنا نشرب الأولد فاشوند، ونعمل على تحضير الكاسوليه، الذي اتضح أنه شيء صعب للغاية، وقد يحتاج إلى يومين، أو حتى ثلاثة، لكي تجهز مكوناته وكل شيء. لكن دومينيك الذكي كان يضع في الفريزر، وفي الثلاجة، كل المكونات الصعبة التحضير، والتي تستغرق يومين أو ثلاثة، في

صورة نصف جاهزة، لأنه كان يحب تحضير، وتناول، الكاسوليه كثيراً، كما قال لي، فكان الأسهل هو الاحتفاظ بالمكونات التي تحتاج إلى وقت طويل للتحضير، نصف جاهزة في الفريزر وكل شيء.

وسألني دومينيك، ونحن في المطبخ، إن كنتُ آكل لحم الخنزير، أم أفضل لحم الضأن؟! وقال إنه يستطيع أن يصنع الكاسوليه بلحم الخروف، لأنه يعلم أن المسلمين، مثل اليهود، لا يأكلون الخنزير وكل ذلك. فصحت وأنا أضحك:

- خنزير أرجوك! أنا أحب الخنزير، أنا أعشق الخنزير! استعمل الخنزير من فضلك يا دومينيك!

فضحك الرجل كثيراً، ولاحظت أنه نظر لي من تحت لتحت باستغراب، وعطف، في نفس الوقت، وأظن أنني قد كبرت في نظره ساعتها وزاد احترامه لي.

وطلبت ورقة وقلماً من دومينيك لكي أكتب مكونات الطبخة، وطريقة صنعها، وكل شيء. واكتشفت أن الكاسوليه، أو الطاجن التولوزي، كثير المكونات، ومقداره الذي يكفي شخصين يتألف من:

- نصف كيلو من لحم كتف الخنزير، منزوع العظام، ومخلي من الدهون، ومقطع إلى 12 قطعة مكعبات،

- نصف كيلو من كوارع الخنزير، مخلية من العظام (وبعضهم يستعمل ربع كيلو فقط، ولكن دومينيك كان كريماً في المقادير)،

- ربع كيلو (أو أكثر قليلاً) من جلد الخنزير، مع طبقة الدهون الداخلية الموجودة فيه،

- كيلو من الفاصولياء البيضاء،

- ثلث كوب ماء من دهن البط،

- 2 بصلة متوسطة مفرومة،

- 3 حبات جزر مقشرة ومقطعة إلى حلقات رفيعة،

- ربع كيلو من شرائح البانستا (لحم الخنزير المقدد والمملح، الذي يُصنع من لحم بطن الخنزير)،

- رأس ثوم كاملة غير مقشرة، و4 فصوص ثوم كبيرة مقشرة،

- 2 ملعقة كبيرة معجون طماطم،

- 2 لتر مرق دجاج، غير مملح،

- 6 قطع من أوراك البط المخلية،

- 2 ملعقة كبيرة دهن خنزير،

- نصف كيلو من سجق تولوز الشهير بالثوم (يُستعمل في صنعه لحم الخنزير، والكثير من الثوم)،

- نصف كوب ماء من البقسماط المطحون،

- 4 ملاعق طعام من زيت الجوز الفرنسي،

- ملح، وفلفل أسود مطحون، وحزمة بقدونس، ونصف حزمة زعتر، ونصف حزمة كرفس، وبعض أوراق الغار.

أما طريقة العمل، فمعقدة، وطويلة، واستغرقت أكثر خمس ساعات كاملة، مع العلم أن عدداً كبيراً من المكونات كانت نصف مطهية كما قلت لك وموجودة في فريزر ثلاجة دومينيك. وتتلخص طريقة العمل المعقدة والمليئة بالتفاصيل في الخطوات التالية:

1- نقوم بتتبيل مكعبات لحم كتف الخنزير، وكوارع الخنزير المخلية، وجلد الخنزير، نتبل الجميع بالملح والفلفل، ونضعهم في وعاء خزفي، ونغطيهم، ويترك اللحم في التتبلية لمدة يوم كامل في الثلاجة. (كان دومينيك قد قام بهذه الخطوة بالنسبة للحوم الخنزير المحفوظة لديه في فريزر الثلاجة).

2- ننقع الفاصولياء في الماء لمدة ساعتين. (كانت الفاصولياء التي في الفريزر منقوعة من قبل بالفعل).

3- نغلي جلد الخنزير، في ماء، لمدة 20 دقيقة. ثم ننشل جلد الخنزير من الماء، وبعد أن يبرد، نقطعه إلى شرائط طولية (حوالي 5-6 شرائط)، ونلف كل شريط على نفسه كالبكرة، ونربطه بالخيط.

4- نجفف مكعبات كتف الخنزير، والكوارع، وفي قدر ساخن، نسيّح دهن البط على نار متوسطة، ونقوم بتحمير مكعبات الخنزير، مع إضافة البصل المفروم، وشرائح الجزر، مع التقليب، حتى يصبح البصل ذهبي اللون بعد حوالي 5 دقائق. ثم نضيف كوارع الخنزير، وشرائح البانستا المقددة، ونقلب من حين لآخر حتى تصبح حواف اللحوم بنية. ثم نضيف رأس الثوم الكاملة الغير مقشرة، وصلصة الطماطم، ومرق الدجاج، وحزم جلد الخنزير، وجميع الأعشاب، ويجب أن يغطي مرق الدجاج جميع المكونات. ونخفف الحرارة إلى درجة منخفضة، ونترك القدر على النار لمدة ساعة ونصف، مع التقليب من حين لآخر.

5- نصفي الفاصولياء البيضاء، ثم نغطيها بماء نظيف في قدر، وندعها تغلي ببطء، حتى تنضح الفاصولياء، ويمكن معرفة وقت نضج الفاصولياء عن طريق أخذ حبة بالملعقة والنفخ عليها وسنجد أن القشرة قد تطايرت. نصفي الفاصولياء، ونتركها حتى تبرد.

6- نحمر أفخاذ البط المخلية في قليل من دهن الخنزير لمدة عشر دقائق حتى تلين.

7- في الخلاط الكهربائي، نفرم قليلاً من دهن الخنزير، مع الملح، ونضغط على رأس الثوم الكاملة حتى نستخرج منها اللب، ثم نضعه في الخلاط، ومعه فصوص الثوم النيء، مع كوب ماء، ونشغل الخلاط، حتى نحصل على هريس ناعم.

8- نضيف الهريس إلى الفاصولياء، ونرفعه على النار لمدة عشرين دقيقة تقريباً.

9- نسخن الفرن إلى درجة 350 درجة فهرنهايت. ونقوم بتجميع كل مكونات الكاسوليه. فنحضر طاجن كبير، ويفضل أن يكون خزفياً، بحجم 6 لترات، ونقوم بفك لفائف جلد الخنزير، ونبطن بها قاع الطاجن بحيث يكون الجانب الدهني في قعر الطاجن. ثم نضع نصف الفاصولياء مع مكعبات كتف الخنزير، ثم أوراك البط فوقهما، ثم النصف المتبقي من الفاصولياء، وننثر عليها كوارع الخنزير. نصب بعضاً من الشوربة المتكونة من سلق لحوم الخنزير، بعد التخلص من الأعشاب وقشور الثوم وكل شيء، حتى تغطي كل المكونات، ونتذوق ونضبط الملح. ونتأكد من وجود 3 سم على الأقل من نهاية المكونات وحتى حافة الطاجن، لأن المكونات سوف تتمدد وكل ذلك. نرش على الوش ملعقتان كبيرتان من الدهن المتخلف من تحمير الخنزير والبط.

10- نضع الطاجن في الرف السفلي الأول القريب من نار الفرن، ونتركه لمدة ساعة ونصف، على درجة حرارة 350 فهرنهايت.

11- نحمر السجق التولوزي، أو النقانق التولوزية الخنزيرية الثومية، في قليل من دهن البط. ثم نقطع كل واحدة إلى 4 أو 5 قطع.

12- نفتح الفرن، ونخرج الطاجن، وبالملعقة، نحرك بلطف طبقة القشرة الدهنية التي تكونت فوق الفاصولياء، ثم نضع قطع السجق المحمر فوق الفاصولياء، ونقوم برش فتات البقسماط المحمص على السجق والفاصولياء، وندخل الطاجن مرة أخرى في الفرن، بعد أن ننزل الحرارة إلى 275 درجة فهرنهايت، ونتركه في الفرن لمدة ساعة أخرى.

13- عند انتهاء الساعة، نكشف على الطاجن، ويجب أن نرى قشرة علوية ذهبية جميلة قد تكونت على السطح. نخرج الطاجن من الفرن، ونتركه ليرتاح مدة عشرين دقيقة. ونرش زيت الجوز الفرنسي على السطح قبل التقديم مباشرة.

وأثناء العمل في المطبخ، غيرنا الموسيقى، بعد ثلاث ساعات أو أكثر قليلاً من تكرار سماع كوكتيل أغاني الجاز من صنع دومينيك، فوضعنا أولاً اسطوانة للكونشرتوهات: الثاني، والثالث، والرابع للهاربسيكورد ليوهان سباستيان باخ. ثم اسطوانة لأعمال الأورجان والفوج لباخ أيضاً. وبعد نصف ساعة، أو أكثر قليلاً، من بدء العمل في عمل الكاسوليه، غسل دومينيك يديه جيداً، ثم اختفى، في حجرة النوم ربما، أو حجرة أخرى، وعاد وهو يمسك بسيجارين طويلين جداً، طول كل منهما أكثر من مئة متر،

وناولني واحداً وقال إن اسمه "فوندادورس"، وهو معتق بطريقة خاصة منذ عام كامل في درجة رطوبة 70%، وأن نكتهه ستكون في قمة روعتها الآن. وحالما أشعلت السيجار الطويل جداً جداً، شعرت بشعور لا يوصف من المتعة، أعني أن نكتهه كانت في غاية الروعة يا رفيق! سألت دومينيك على استحياء عن ثمنه، فقال إن السيجار الواحد بحوالي خمسة وثلاثين يورو، وإنه معد للمناسبات السعيدة. ثم أتحفني بالخبر السعيد، وقال إننا سوف ندخن واحداً آخر بعد الأكل.

وأثناء الوقت الطويل في إعداد الطعام بالمطبخ، ومن باب تزجية الوقت من ناحية، والتعرف أكثر على دماغي بعضنا البعض من ناحية أخرى، رحنا نتحدث ونتناقش حول الأفلام والمخرجين السينمائيين وكل ذلك، واتضح من المناقشات أن دومينيك ليس فقط مثقفاً كبيراً، وإنما أيضاً متحدث بارع غاية البراعة.

تحدثنا أولاً عن شخصية المتسكع تشارلي في أفلام تشارلي تشابلن، وكيف أنه لا يمكن تصنيفه اجتماعياً لأنه لا ينتمي إلى أية طبقة، فهو مستقل عن الطبقات، ولا يحتاج إلى سند اجتماعي، وأنه يحسن السير وحيداً، ومسلك الاستقلال هو غريزته الغالبة التي تحدد مسلك باقي غرائزه، وأنه ممتلك لفرديته، حتى وهو وسط الزحام، فلا يمكن لزحام مدينة كبيرة أن يمتص فرديته، فوعيه الكثيف بذاته يجعله مخلوقاً ممتلكاً لذاته على الدوام، وعلى النحو الذي لا يمكن اعتباره جزءًا من الجماهير، ولذلك تأتي

مشاركته في المظاهرة في فيلم (العصر الحديث) من باب الصدفة واللبس وسوء الفهم، لا من باب القصدية والعمد.

وأكدت أنا تلك الفكرة بالاستشهاد بشكل رداء تشارلي؛ فهو فردي ولا يخضع للموضة، بل ويؤكد استقلاله عن كتلة الجماهير، وهو يتمتع بجمال شاعري خاص به، لأنه نتاج لخيال واسع، ويلبي متطلبات تشارلي لا متطلبات الموضة: فهو واسع ورخو ليتمتع داخله بالحرية وسهولة الحركة، وحذاءاه يشبهان قدمي طائر أكثر من كونهما قدمي بشر، ويتيحان له المشي بسذاجة طائر يجوب شوارع المدينة بحثاً عن غنيمة من الطعام. وقلت إن إصرار تشابلن على أن تكون مشية تشارلي أقرب إلى السذاجة ليس من باب إظهاره بمظهر الخراقة، فهو ليس عبيط القرية، ولكن لحرصه على أن تكون تلك السذاجة مظهراً من مظاهر اندماج تشارلي مع الطبيعة لا مع المدنية والحداثة، ولهذا لا يمكن لأقدام تشارلي إلا أن تكون مفلطحة؛ لأنها أقدام الإرادة الثابتة والعزيمة التي لا تلين.

وتطورت المناقشة إلى مسألة الأدوات التي يستعملها تشارلي في حياته اليومية. وتوصلنا إلى أن مسلك الفردية موجود أيضاً هنا، فتشارلي دائماً ما يصر على ابتداع قيم جديدة في استعماله للأدوات تأكيداً على فرديته، ففي كل أفلامه، نلاحظ إصراره على رفض استخدام أدوات المائدة كما نستعملها نحن اليوم، وكما تفرضها آداب المائدة في الثقافة الغربية المعاصرة، هو لا يرفض استخدامها في حد ذاتها، ولكنه يبتدع لها وظائف جديدة غير

المستقرة في الأذهان.

فهو مثلاً: يستعمل الشاكوش لكسر البيض في (المتشردة)، والفرن الساخن لكي بدلته في (حلبة التزلج)، وملاحات الطعام كمنظار مُقرِّب في (المهاجر)، وإبريق الشاي كرضَّاعة للطفل، وعلبة السردين كعلبة سجائر في (الطفل)، ويخرم الخبز بمثقاب ليحشو فيه إصبع السجق ويُحكم حشره بدقه بالشاكوش في (يوم استلام الراتب)، ويصمم رقصة للبانتومايم بشوكتين مغروستين في قطعتي خبز في (حُمى الذهب)، ويستعمل بضع قطرات من النبيذ كعطر يضعه خلف أذنيه في (أضواء المدينة)، وهلم جرا.

وأذكر أيضاً أننا قد تطرقنا بعد ذلك إلى سينما بيلي وايلدر، وأسلوب المفارقات الذي يميز أفلامه، وكيف أن الإنسان يحيا بالقناع، وأن ارتداء المرء للأقنعة هو وسيلته لحفظ النوع وكل ذلك، وكيف أنه يستخدم القناع كحيلة درامية فعالة لتوليد المفارقات الساخرة، فيعكس التناقض بين الشكل والجوهر، ثم يضاعف من هذه التناقضات بحيلة "القناع داخل القناع".

ورحنا نستشهد كلانا بفيلمه الرائع (البعض يفضلونها ساخنة) كمثال على أسلوبه في المفارقات، وكيف افتتح وايلدر الفيلم بسيارة لنقل الموتى، والتي تتحول فوراً إلى سيارة للعصابة، والتابوت في السيارة الذي هو صندوق لتهريب الخمور، ومحل التوابيت الذي هو ملهى ليلي لبيع الخمور الممنوعة من التداول في فترة حظر الخمور في أمريكا، والخمور التي في المحل والتي

يسمونها: "القهوة"، وأفراد العصابة المرافقون لزعيم العصابة والذين هم في الحقيقة محامون خريجو جامعة هارفارد، ومارلين مونرو التي تحسد دافني، أي جاك ليمون، على قوامها الممشوق، وجيري، أي جاك ليمون في صورته الرجولية، الذي يرتدي قناعاً فيتحول إلى دافني، وجو، أي توني كيرتس، الذي يرتدي قناعاً ويتحول إلى جوزفين في البداية، ثم يرتدي قناعاً آخر ويتحول إلى شيل جونيور، ثم يرتدي قناعاً ثالثاً فوق القناع الأخير: قناع البرود العاطفي، وكيف أن التنكر يستمر، وارتداء الأقنعة المختلفة أيضاً يستمر أثناء المطاردات الأخيرة مع العصابة في أروقة الفندق، وقارب المليونير الذي يرجع إلى الخلف عوضاً عن السير إلى الأمام، ويقول شيل جونيور إنه يبدو أن الوقود قد نفد منه، فتعلق مارلين مونرو: غريب أن ينفد الوقود من قارب ملك البترول!

واتفق كلانا على أن القناع والتنكر والخداع هم من ينقذون البطلين من براثن أفراد العصابة، واستشهد دومينيك بالمشهد الذي يهربان فيه من العصابة، فيقابلان بعض أفرادها في المصعد، وبدلاً من أن تفتك بهما العصابة، يرفع أفرادها القبعات احتراماً للسيدتين، وقال إن القناع والكذب والخداع هم سبب وقوع توني كيرتس في حب شوجر كين، والقناع هو أيضاً من ينقذ الموسيقيان الفقيران من الفاقة والبطالة، بل ومن الموت أيضاً.

وضحك دومينيك كثيراً وهو يسترجع مشهد النهاية في الفيلم، والذي اتفقتُ معه في اعتباره واحداً من أجمل مشاهد السينما

العالمية في تاريخها كله، حين يكشف جاك ليمون للمليونير أوزجود، والذي وقع في حب القناع الذي يرتديه، أي دافني، ويطلب الزواج منه، فيصارحه عندها جاك ليمون، ويكشف له أخيراً عن أنه رجل مثله، وينزع الباروكة ويريه وجهه الحقيقي، ويقول له: "بصراحة، أنا رجل!"، فيرد عليه أوزجود، متمسكاً بالزيف، وبالقناع الذي وقع في حبه: "لا يوجد أحد كامل!"

ولما كنتُ قد رأيت في مكتبته مجموعة الأعمال الكاملة لياسوجيرو أوزو، فقد فتحت الموضوع بالكلام عن الأسلوب الديني الذي كان يصنع به أوزو أفلامه، ذلك الإصرار والإيمان الثابت الذي لا يتزعزع، والذي يصل إلى حد التزمت. وقلت لدومينيك معلومة اكتشفت أنه لا يعرفها، وهي أن أوزو، وطوال رحلة عمله في السينما التي بلغت 35 عاماً، صنع خلالها 35 فيلماً روائياً طويلاً، لم يصور إلا بعدسة مقاس 50 ملم فقط! وظن دومينيك في البداية أنني أبالغ، ولكنني أكدت له المعلومة، وأن أوزو خلال حياته المهنية بطولها وعرضها لم يستعمل إلا عدسة 50 ملم فقط في تصوير كل مشاهد أفلامه الـ 35، وأوضحت لدومينيك أن هذه العدسة هي الأقرب إلى حجم الرؤية لعين الإنسان، وأن صانعي الكاميرات في السبعينيات والثمانينيات، حين كانوا يصنعون كاميرات فوتوغرافية بعدسات ثابتة، كانوا يصنعونها بعدسة 50 ملم، الأقرب إلى عين الإنسان، وأضفت بأن أوزو ظل مقتصراً على استخدام الـ 50 حتى بعد دخول الصوت، ودخول الالوان للسينما.

ولكي أزيد من دهشة دومينيك، استعرضت معلومة أخرى غريبة جداً أمامه، وهي أن أوزو لم يقتصر فقط على تثبت حجم الرؤية في أفلامه، بل تثبيت المنظور أيضاً ووجهة النظر، لأنه ظل طيلة حياته لا يستخدم إلا حاملين فقط للكاميرا: حامل مقاس 30 سم للقطات البعيدة، وحامل مقاس 90 سم للقطات القريبة، وهو ما يجعل المُشاهد يشعر دائماً في أفلامه بأن وجهة نظر الكاميرا، أي وجهة نظر المتفرج، هي ما يُسميه السينمائيون "وجهة نظر الدودة"؛ أي حين يكون ارتفاع الكاميرا أقرب ما يكون إلى سطح الأرض، وكأن المتفرج جالس القرفصاء على الأرض في جلسة يابانية تقليدية لشرب الشاي أو شيء من هذا القبيل.

وأضفت أن ديانة الثبات هذه عند أوزو، كانت تشمل كذلك تحريم تحريك الكاميرا تحريماً مطلقاً، فالكاميرا عند أوزو ثابتة ثباتاً مقدساً، لا تتحرك ولا أهون حركة، ولا حتى على الحامل الثابت، وأن إرادة أوزو الجبارة أصرت خلال 35 عاماً من العمل السينمائي على جماليات اللقطة الثابتة؛ أي جماليات الفوتوغرافيا.

قال دومينيك إنه لاحظ بعد مشاهدة أفلام أوزو أن عنصر الثبات ذاك في أفلامه يشمل البشر أيضاً، وليس فقط العدسات، وحامل الكاميرا، واللقطات الثابتة، وقال إنه لاحظ أن أوزو لا يغير طاقم ممثليه وممثلاته، وكذلك لاحظ من تترات الأفلام أنه لا يغير التقنيين الذين يعملون معه. وأكدت أنا هذا المعلومات

لدومينيك، وحييته على حسن ملاحظته، وأضفت معلومة أخرى في نفس السياق، فقلت إنه ظل يعمل مع نفس مدير التصوير لعشرين عاماً كاملة، حتى مات، فاضطر إلى تغييره اضطراراً، وحتى عندما اختار مدير تصوير جديد، قام بتكليف مساعد المتوفي ليحل محل استاذه في العمل. وقلت له إنه من الطريف أن الممثل الذي كان يقوم بشخصية الأب العجوز في أفلامه، قد بدأ لعب هذا الدور عندما كان في أواخر العشرينيات من عمره في أفلام أوزو الأولى، ثم استمر يلعب نفس الدور، حتى أصبح عمره وعمر الشخصية واحد.

وأضاف دومينيك ملاحظة سديدة، وقال إن عنصر الثبات في أفلامه أيضاً يتضمن الموضوعات، فقد لاحظ أن كل أفلام أوزو هي تنويعات ليست متباينة كثيراً لفكرة واحدة هي: "علاقة الآباء بالأبناء في شدها وجذبها"؛ محاولات الأبناء الاستقلال عن سلطة الآباء، وخيبات الآباء في أبنائهم نتيجة لذلك. واندهش دومينيك كثيراً عندما قلت له إن هذا الموضوع الأثير لدى أوزو، لا علاقة له بأوزو على الإطلاق، أعني لا علاقة له بحياته الشخصية وكل ذلك، بل إن أوزو قد اختار أبعد موضوع ممكن عن حياته الشخصية ليعبر عنه في جميع أفلامه، لأن الرجل لم ينجب، ولم يتزوج أصلاً، فضلاً عن أن علاقته بأبويه، وخصوصاً أمه، كانت شديدة الحميمية والمتانة والإخلاص.

وسألني دومينيك عن شيء ما كان يزعجه بعض الشيء عند مشاهدة أفلام أوزو، وقال إنه في كثير من الأحيان يرى الممثل أو

الممثلة في يمين الكادر، ثم في اللقطة التالية يراها في يسار الكادر، وأنه لاحظ أن ذلك أسلوباً مستمراً في أفلام أوزو. وشرحت له أننا نسمي ذلك في السينما: "كسر الآكس"، أي كسر قاعدة الحفاظ على أن تظل الكاميرا في محيط 180 درجة لا تغادرها، لأن الخروج عن هذه الحدود يؤدي إلى ارتباكات لدى المُشاهد فيما يتعلق باتجاهات الأشياء والحركة، فالممثل أو الشيء الذي يكون في يمين الكادر، ينتقل بقدرة قادر ليصبح في يسار الكادر في اللقطة التالية إذا لم يتم الحفاظ على قاعدة الـ 180 درجة؛ التي تحافظ على زوايا اللقطات ضمن قطر نصف دائرة ، من أجل توحيد المنظور، واتجاهات الحركة، والعلاقات النسبية بين الموضوعات.

وقلت لدومينيك إن أوزو كان ينتهك حرمة قاعدة الـ 180 درجة، ويكسر الآكس، عن وعي وتصميم، فلا يوجد فيلم لأوزو إلا والكاميرا تكسر فيه الآكس من لقطة لأخرى، فتتبدل أوضاع الممثلين بالنسبة للمُشاهد، وبالنسبة لبعضهم البعض، من اليسار إلى اليمين، وبالعكس، طوال الفيلم، وإن هذا الإصرار الواعي على كسر "وحدة الرؤية"، والذي يُعرض صاحبه لاستخفاف واستهزاء زملائه السينمائيين، خصوصاً وأن هذا تم في وقت مبكر من تاريخ السينما، وكان غير مسبوق، لابد وأن يكون له أساس فلسفي يتعلق برؤية الرجل للعالم، فربما لم يكن العالم بالنسبة له بالتماسك والتوحد الذي نظنه نحن، ربما كان العالم مكسور الآكس، وربما كان يرى أن النظر للعالم وللبشر وللأشياء لا ينبغي أن يكون من منظور واحد.

وبعد أن وضعنا، أخيراً، الطاجن الكبير في الفرن لآخر مرة، قال دومينيك إن فكرتي بخصوص أن أوزو لم يكن ينظر للعالم والبشر من منظور واتجاه واحد، ذكرته ببعض تأملاته الخاصة بخصوص سينما ديفيد لنش. وعندها ضحكت وقلت له مقاطعاً:

- على فكرة، ديفيد لنش معروف ومحبوب في فرنسا أكثر منه في أمريكا وهوليود!

- هذا صحيح، ودائماً ما تقوم آرتيه وكانال بلوس بتمويل أفلامه، أقرأ ذلك دوماً على تترات أفلامه.

- يشبه ذلك كثيراً الروائي بول أوستر، فهو معروف في فرنسا أكثر بكثير من أمريكا، هل تعرفه؟!

- طبعاً، وقرأت له (ثلاثية نيويورك)، و(في بلاد الأشياء الأخيرة)، و(قصر القمر)، و(موسيقى الصدفة)، و(السيد فرتيجو)، و(تمبكتو).

- واو يا دومينيك، أنت قارئ عظيم يا صديقي! أنا لم أقرأ بعد نصف هذه الكتب، قرأت بالطبع (ثلاثية نيويورك)، و(في بلاد الأشياء الأخيرة)، وعندي (موسيقى الصدفة) ولكنني لم أبدأ فيها بعد، بالمناسبة، هل تصدق أن إحدى صديقاتي الأمريكيات التي تدرس في الجامعة الأمريكية رأتني مرة أقرأ (في بلاد الأشياء الأخيرة) فسألتني عن الكاتب، لم تكن تعرف أنه أمريكي، ولا حتى سمعت اسمه من قبل، في حين أنه أيقونه هنا في فرنسا!

- صحيح.

- عذراً، لقد قاطعتك! كنتَ على وشك طرح فكرة عن سينما ديفيد لنش، أليس كذلك؟!

قال دومينيك إن ديفيد لنش يبدو له كما لو كان متأثراً بتأملات صوفية بوذية، وإنه لا يعتبر العالم المادي الظاهري المألوف لنا إلا مغالطة وقناعاً زائفاً، مثل المغالطات المنطقية التي يحفل بها الحوار في أفلامه، ولكن هذه الحقيقة تغيب عنا لانغماسنا في تفاهات الوجود اليومي، تماماً كما يغيب الملح الذائب في الماء، فلا نراه، بالرغم من وجوده هناك، وبناء على ذلك، ووفقاً لرؤية لنش تلك، فإذا كان العالم الظاهري هو خدعة تمنعنا من رؤية الحقيقة، فينبغي إذن التخلص منه، أي التخلص من قوانين الزمان والمكان، ومن ثقل الجسد وحضوره، لكي تنكشف لنا الحقيقة المستترة. واستشهد دومينيك بفيلم (الطرق المفقود) ورحلة بحث الموسيقي عن ذاته الحقة، وفيلم (طريق مولهولاند) ورحلة ريتا لاكتشاف نفسها الضائعة، وذلك بعد أن يعصف بكلاهما تجربة قاسية. وقال دومينيك أيضاً إن رحلة البحث عن الذات تلك لا تبدأ إلا بعد التخلي أولاً عن المنطق العادي والجاري والمعتاد، ولذلك فإن النسيان دائماً ما يكون حاضراً في أفلام لنش؛ ينسى الموسيقي في (الطريق المفقود) أنه قتل زوجته، وتفقد ريتا في (طريق مولهولاند) ذاكرتها، وقال دومينيك إن ما يبدو أنه نسيان وفقدان للذاكرة، هو على العكس في أفلام لنش، لأنه هو البداية للتعرف على الذات الحقة.

سألته:

- ومن تعتقد أنه الإنسان الذي وصل إلى التعرف على ذاته الحقة، ولم يعد يعاني من الانقسامات الثنائية في الشخصية في أفلام لنش؟!

- أظن أن لنش قد قدم ذلك الإنسان في صورة شخصيات فوق طبيعية، إنسان حقق تعاليه، ونجح في رحلة البحث عن ذاته، مثل الرجل الغامض في فيلم (الطريق المفقود)، وأيضاً المتشرد في فيلم (طريق مولهولاند).

- ولكن الرجل الغامض في (الطريق المفقود) يساعد الموسيقي على قتل غريمه رجل المافيا في المواجهة بينهما في آخر الفيلم، هل تعتقد أن لنش هنا يود أن يقول إن الانقسامات الثنائية داخل النفس البشرية لن يتم الخلاص منها والعثور على الهوية الحقة إلا بفعل عنيف؟! فعل عنيف يتطلب مساعدة خارجية من ذات أخرى عرفت الطريق وعثرت على هويتها؟!

- نعم، أعتقد ذلك، لكنني لا أظن، بمناسبة ذكرك للعنف، أن لنش ينظر لقوى الشر التي تحتويها النفس البشرية بوصفها انعكاساً لأكثر الجوانب الإبداعية والبطولية فيه، وإنما بوصفها الحلقة الدائرية المفرغة للألم والمعاناة التي تدور فيها تلك النفس، قد تنجح النفس البشرية في إخفاء هذا الشر بداخلها، لكنها لا تنجح أبداً في التخلص منه، ولذلك ترد في فيلم (وحش في الأعماق) مقولة: "العالم ما هو إلا وحش في أعماقه، وإن بدا مجنوناً على

السطح!"

وقال دومينيك إن المنطق ينتفي في مملكة لنش الأسلوبية، والتي تتأسس على الإيمان بأن الإنسان يخدع نفسه بمحاولة فرض المنطقية على العشوائية والعبثية سعياً نحو نوع من الإحساس بالنظام في ظل الفوضى التي تغلف الوجود بأكمله، حتى إنه يكثف في أفلامه هذه العبثية وتلك الفوضى بأن يعمل على خلق مزيد من التشويه، ومزيد من التلاعب بالواقع، ومزيد من التناقضات المنطقية، والمغالطات الحوارية، في منطق كابوسي يربك المُشاهد إلى الدرجة التي لا يمكنه معها الانزعاج من التحولات الحادة في الشخصيات، ولا من قطع التسلسل في الحبكة.

وأيدت دومينيك بقوة في تأملاته عن سينما ديفيد لنش، ثم قلت مؤكداً كلامه، إن طريقة لنش في استدعاء منطق الكوابيس، وتشويه الواقع، هي طريقة الفنان السريالي الذي يقوم بتسييل الفواصل بين عالمي الحلم والواقع، للوصول إلى الحقائق الكبرى للعالم والوجود، تلك الحقائق التي تختفي تحت السطح المخادع للواقع اليومي، وإن ما يفعله لنش يشبه ما يقوم به المصور السريالي من استخدام منظورات مشوهة، وتلاعب ببعدي الطول والعرض، أي الزمان والمكان في حالة لنش، من أجل التعبير عن البعد الثالث، أي الذات الحقيقية عند لنش، المختفية عن نظر الإنسان المشغول بتفاهات الصراع اليومي، وقلت إن مراياه تعكس صورة العالم، ولكنها ليست مرايا مستوية، وإنما مرايا

محدبة ومقعرة؛ لا تشوه من أجل التشويه، بل من أجل الكشف: كشف جوهر الإنسان، وحقيقة الوجود.

كانت تأملات دومينيك العظيمة حول سينما ديفيد لنش تقترب كثيراً من الأفكار البوذية، وفلسفة الزن. وأريد أن أقول لك إنني قد رأيت في مكتبته مليون كتاب ومرجع عن الزن والبوذية، ولم أحب، بالطبع، ومن باب اللياقة والتهذيب، أن أسأله عن قناعاته الدينية، لأنني أخجل من أن أطرح مثل هذا السؤال على أي شخص كان، وذلك بعد أن حدث وسألت أحدهم مرة، في فترة مراهقتي، عن ديانته، وكان أحد الأصدقاء، والذي كان عائداً لتوه من أمريكا، واقفاً معنا، فسحبني جانباً، وهمس في أذني قائلاً إن هذا السؤال عيب كبير، وإنهم هناك في أمريكا يعتبرون أن سؤال المرء عن دينه يشبه سؤالك إيه: هوّ أنت خول يا كابتن؟!

وأثناء طبخ الطاجن في الفرن، فاحت رائحة خطيرة جداً، لا أعرف كيف أصف لك حلاوتها وروعتها، حتى أن لعابي قد ظل يسيل منذ ذلك الوقت حتى شرعنا في الأكل بالفعل، بل وزاد سيلان اللعاب ونحن نأكل من الطاجن الرائع الذي لا أعرف كيف أصف لك روعته، فعليك أن تجرب بنفسك أكل الطاجن التولوزي، لأنها تجربة روحانية يا رفيق، وليس هناك وصف آخر لطعامة ولذاذة الكاسوليه التولوزي. ولما فاحت الرائحة في كل أرجاء الشقة، قلت في نفسي إن شقق أهل تولوز، ولابد،ُتعرف من فوحان رائحة الطواجن التولوزية، كماُتعرف شقق الطليان من فوحان رائحة البن الممتاز، على سبيل المثال.

ولما انتهى طبخ الطاجن، واستراح لمدة عشرين دقيقة خارج الفرن، حمله دومينيك إلى طاولة الطعام المستديرة الصغيرة التي كانت مجاورة لباب المطبخ الذي هو ليس بباب، وكان هناك مفرش رائع على المائدة، قال لي دومينيك، ونحن نأكل، إنه من إيران. كان أخضر اللون، ذاك الاخضرار القاتم قليلاً، وفيه طيور رشيقة حمراء وبرتقالية وبيضاء. كان مفرشاً رائعاً. وساعدت دومينيك في إعداد المائدة، فوضعنا الملاعق والشوك والسكاكين والكبشة الكبيرة التي غرفنا بها من الطاجن، وطبعاً طبقين خزفيين كبيرين لزوم غرف الطعام فيهما. كما أحضر دومينيك الكريم زجاجة نبيذ فرنسي رائع، قال إنه من نبيذ الجنوب، وأظن أن اسمه كان "كوليير" أو شيء كهذا. وعندها عرفت أن الكاسوليه التولوزي، أو أي كاسوليه آخر بالتبعية والفطرة والحداقة، يُشرب معه النبيذ الأحمر، وقلت في نفسي إنني كنت قادراً، لوحدي، أن أصل إلى هذه النتيجة، بالأخذ في الاعتبار أن لحوم الخنزير هي من المكونات الأساسية للطاجن.

ولا أتذكر أنني قد أكلت أكلة شهية كهذه طيلة حياتي السابقة، ولا أظن أنني سوف آكل أكلة شهية كهذه في ما تبقى من حياتي اللاحقة، كانت تجربة أكثر من رائعة، والحق يقال، تجربة روحية كما قلت لك وكل شيء. أما عن النبيذ، فلا تسألني، فقد كان هو أيضاً تجربة روحية بامتياز يا رفيق. وهناك شيء آخر أود قوله في هذه المناسبة الطاجينية التولوزية، وهي أنني ظللت شبعاناً بعد هذه الأكلة لما يزيد عن الألف عام، أعني أنني ما زلت شبعاناً حتى الآن وأنا أكتب هذه السطور! كان الطاجن مشبعاً جداً،

ودسماً جداً، وعرفت عندئذ لماذا دومينيك ضخم الحجم وسمين لهذه الدرجة.

واستمرت مناقشاتنا الثقافية الذكية أثناء الأكل أيضاً، والذي استغرق فترة طويلة جداً، أعني أننا ظللنا نأكل على المائدة لمدة سبعين سنة كاملة إن كنت تفهم ما أعني. سألني عن تفضيلاتي في الأدب، فقلت إنني أحب دوستويفسكي كثيراً، برغم أنه في رواياته يغرف من الواقع بطينه وطوبه وزلطه وكل شيء، والغريب في الأمر، أنكَ تجد نفسك مغرماً بهذا الطين وذلك الطوب وذاك الزلط، بل وتطلب أكثر وأكثر!

سألني دومينيك:

- ولكن، ألا تظن أنه مسيحي، مسيحي لدرجة كبيرة، ليس فقط في مرحلته الأخيرة، بل وحتى في مرحلته الأولى ستجد عنده استعداداً كبيراً للمسيحية؟!

- نعم، إذا ما اعتبرنا أن مفهوم "الألم" هو المفهوم الرئيسي لديه، أعني أنك تستطيع أن تفتح المغاليق المعقدة في نفوس شخصياته باستعمال مفتاح "الألم"؛ أقصد الألم الجسدي والعاهات والمرض والإرهاق والسل والشحوب وكل ذلك، ولكن أيضاً، والأهم، الألم الذي يتفجر بسبب الصراعات النفسية الداخلية وما ينتج عنها من انفعالات عنيفة، أو حتى الانهيار تحت وطأة فكرة كبرى أكبر من أن يتحملها العقل البشري، مثل الألم النفسي والجسدي الذي يلحق براسكولنيكوف في (الجريمة والعقاب)

بسبب الفكرة التي تسيطر عليه بتقسيم البشر إلى فئتين: عليا ودنيا، طبقة مُختارة وقليلة العدد من البشر السوبر الذين يحق لهم كل شيء، وطبقة أخرى تضم التسعة أعشار الباقين الذين هم ليسوا في نظره سوى كومة كبيرة من النمل، أو مثل فكرة "اتحاد روسيا السلافية بالكنيسة الأرثوذكسية" التي تعصف في نفس شاتوف في (الشياطين)، أو الفكرة التي تثقل على عقل إيفان كارامازوف في (الإخوة كارامازوف)؛ فكرة رفض العالم إذا كان الألم، وخصوصاً الذي يحيق بالأطفال، هو الثمن المدفوع لتحقيق السعادة المنشودة للبشرية!

قال دومينيك:

- هناك إشارات عديدة في رواية (الجريمة والعقاب) إلى أن فكرة تقسيم البشر هذه لم تتسلط على رأس راسكولنيكوف إلا كنتيجة للعارض المرضي، أقصد الحمى والكوابيس والهذيان التي تصيبه في البداية!

- نعم بالتأكيد، بل إنك تلاحظ أنه دائماً ما يحدث تبادل بين صورتي الألم الجسدي والروحي في رواياته؛ فمثلاً، يتحول الألم الجسدي عند هيبولت في (الأبله) إلى حقد على العالم وعلى البشر، ومن الناحية العكسية، يتحول الألم الروحي عند إيفان كارامازوف إلى ضعف جسدي أولاً، ثم جنون في النهاية، تماماً كما يتفاقم الضعف والمرض الجسدي عند راسكولنيكوف بعد فشله في تنفيذ فكرته بوصفه من الفئة السوبر الممتازة.

علق دومينيك الذكي، وقد لمعت عيناه من ذكاء الفكرة التي خطرت على باله:

- ولكن.. إن أندريه جيد في كتابه (مقالات ومحاضرات عن دوستويفسكي) يذكر أن تورجنيف سمع مرة قرعاً لجرس باب بيته، وأعلمه الخادم بقدوم دوستويفسكي، تعجب تورجنيف من الزيارة الغريبة وتساءل: ماذا يريد مني؟! دخل دوستويفسكي الغرفة، وبدأ على الفور في رواية قصة من قصصه، واستمع إليه تورجنيف مذهولاً وهو يقول في نفسه: وما دخلي أنا في كل ذلك؟! لا شك أن هذا الرجل مجنون! وبعد أن فرغ دوستويفسكي من رواية القصة، صمت تورجنيف صمتاً تاماً.. انتظر دوستويفسكي من تورجنيف أي رد فعل؛ ربما كان يُخيل إليه مثلاً أن تورجنيف سينهض فور انتهائه من رواية قصته فيعانقه باكياً ويضمه بين ذراعيه على طريقة شخصيات دوستويفسكي المريضة بالانفعال المفرط؛ أولئك المتشردون والفوضويون والسكارى والقتلة والمجانين ومرضى الهستيريا ومرضى الصرع ومرضى استحواذ الفكرة الوحدة، لكن شيئاً من خيالات دوستويفسكي هذه لم تتحقق، ظل تورجنيف صامتاً صمتاً قاتلاً، عندئذ قفزت أمام عيني دوستويفسكي، من جديد، كل مشاعر العار والانسحاق والهوان في حضور تورجنيف سليل الارستقراطية: تورجنيف الذي كان دوستويفسكي يهفو إلى كلمة اعتراف منه.. غلت مشاعر الذل في عروق دوستويفسكي، فقال يخاطب تورجنيف: "سيد تورجنيف، يجب أن أقول لك إن احتقاري لنفسي الآن عظيم".. استمر صمت تورجنيف أمام هذا

الانفعال المرضي، فصرخ دوستويفسكي في سورة غضب مضيفاً: "وأحتقرك أكثر من احتقاري لنفسي..!"، وخرج تاركاً تورجنيف مذهولاً في غرفته!

ضحكت بشدة، وكان هناك بعض الطعام في فمي، للأسف، فلك أن تتخيل المأساة التي نتجت عن ذلك الضحك! وأعقب الضحك خجل شديد مما حدث. لكن دومينيك الذكي، عمل نفسه وكأنه لم يشاهد أي شيء من ذلك الغباء والقذارة، مثل تلك الشخصية التي في أحد أفلام فرانسوا تروفو، والتي تفتح أحد الأبواب، فتفاجئ بامرأة عارية تغير ملابسها، فيقول لها: "عفواً يا سيدي"، وكأنه لم ير عريها وكل ذلك. استأنف دومينيك فكرته وتأملاته، واستمر في الكلام بعد الفضيحة التي عملتها، وقال:

- يتساءل المرء: ألا نجد تماساً لشعور دوستويفسكي بالعار والانسحاق في حضور تورجنيف، مع شعور راسكولنيكوف بالعار عندما بانت له الحقيقة المرة من أنه لا ينتمي للفئة العليا من البشر؟! ألا يجد المرء نفسه ميالاً إلى افتراض أن تقسيم راسكولينكوف للبشر إلى فئتين: عليا ودنيا، وجد صداه أولاً في تقسيم دوستويفسكي للأدباء إلى فئتين: عليا ودنيا؟! وأن بوشكين، وتولستوي، وتورجنيف، وجوجول هم من فئة الكتاب البرونز الذين يهفو إلى أن يكون في معيتهم؟!

- هذا صحيح يا دومينيك، وأظن أن في يومياته شيئاً يثبت هذا، وأظن أنه كان دائماً ما يقارن نفسه بتورجنيف، لذلك تجد

عنده ذلك الشعور بأنه أدنى من تورجنيف، والشعور بالانسحاق أمامه، وبأن كتاباته أسوأ من كتابات تورجنيف، وفي الوقت نفسه يهفو إلى كلمة إطراء على موهبته الأدبية من تورجنيف؛ تلك المشاعر المتضاربة التي لا يستطيع التعبير عنها إلا دوستويفسكي نفسه أرهف وأقوى تعبير؛ تلك الآلام النفسية القاسية التي خبرها بنفسه في حياته وفي مهنته، والتي جسدها في تصويره لأبطاله الذين يمكن اعتبارهم تجسيداً فنياً لما كان يجول في نفسه وعقله من صراعات وآلام وعذابات وشقاء؛ أولئك الشخوص الذين يتساءلون بشجاعة وبراءة لا تخشى السخرية عن معنى الحياة والوجود، والذين يعتبرون هموم العالم والوجود هموماً شخصية ذاتية!

قال دومينيك شيئاً ذكياً جداً، منصفاً دوستويفسكي ورواياته العظيمة:

- كان دوستويفسكي يتأثر برأي النقاد السلبي في أعماله ويردده، كان يظلم نفسه باعترافه لظالميه بما يعيبوه عليه، وربما لم يخطر بباله أنه سيعلو على جميع أدباء روسيا ويبزهم، حتى أولئك العمالقة الذين كان يهفوا منهم إلى كلمة تشجيع أو اعتراف؛ وعلى رأسهم تورجنيف!

- صحيح، ولكن بالنسبة لك أنت، من هو كاتبك المفضل، أعني من هو الذي على قمة الجبل بالنسبة لك؟!

- كافكا، بدون شك!

- واو، كافكا**!** كافكا هو كاتبك المفضل، أنت عظيم يا دومينيك، حقاً أنت عظيم**!**

ضحك الرجل بتواضع، وسأل السؤال الذي هو ليس بالسؤال:

- إذن أنت أيضاً من محبي كافكا**!**

- طبعاً بدون شك، ومنذ بداياتي في القراءة في الحقيقة، ولكن إذا ما اتفقتَ معي أن "الألم" هو المفهوم الرئيسي عند دوستويفسكي، والذي نستطيع أن نفسر به الكثير مما كتبه وأن نفك به مغاليق شخصياته، فما هو في رأيك المفهوم الرئيسي، أو المفتاح الماستر، في فهم عالم كافكا وكتاباته؟**!**

قال دومينيك، دون تفكير:

- أظن أنه مفهوم "الأمل"، أو حتى أكون أكثر دقة: العلاقة بين الأمل وبين اليأس في رواياته.

- العلاقة بين الأمل وبين اليأس، كيف؟**!**

- أعتقد أنه في كل أعمال كافكا، وبخاصة في الأعمال الكبرى مثل (المحاكمة) و(القصر) و(أمريكا) و(التحول) هناك ذلك التجاور، الذي يمكن أن أصفه بـ "التجاور الفصامي"، بين اليأس العام الموجود الذي يطبع الحياة والوجود، وبين الأمل، أو "الأمل الزائف"، الذي يملئ نفس بطل كافكا ويسعى لتحقيقه، وقد

وصفته بالتجاور الفصامي، لأنهما كلاهما يتواجدان ويتعايشان في نفس الوقت جنباً إلى جنب.. ربما تكون المشكلة الحقيقية في عقل بطل كافكا نفسه، لأنه رغم انتفاء أي مسوغات للأمل بسبب الظروف والبيئة والأحداث التي تمر به، يظل مع ذلك يتمتع بالإصرار الذهني، وبالطموح في تحقيق هدفه، برغم أن الحياة لا تقدم له شيئاً طيلة مساعيه في الرواية!

تذكرت فقرة كنت قد قرأتها لحديث لماكس برود، فقلت على الفور:

- ماكس برود، صديق كافكا، وناشر أعماله بعد وفاته، قرأت له مرة حديثاً عن حوار كان قد دار بينه وبين كافكا بشأن حالة العالم بشكل عام، وانحدار الجنس البشري وكل شيء.. قال كافكا في سياق الحوار: إننا أفكار عدمية، إننا أفكار انتحارية خطرت على بال الرب.. ويقول ماكس برود إنه اعتقد عندها أن كافكا كان يقصد بعض الأفكار الغنوصية التي تعتبر أن الرب هو القوة الشريرة التي خلقت الكون، وأن العالم هو التجسيد المادي لهذا الشر.. لكن كافكا سارع بالنفي، وقال: لا لا، إن ما أقصده هو أن عالمنا هذا هو مجرد نوبة مزاج سيء تمر بالرب، إنه واحد من تلك الأيام المزعجة التي تمر به!.. عندها قال ماكس برود: إذن يا كافكا هناك أمل خارج كل تجليات هذا العالم المعروف لنا، أليس كذلك؟!، فابتسم كافكا، وقال: نعم، صحيح، هناك وفرة من الأمل، مقدار لا يُحصى ولا ينضب من الأمل، ولكن ليس بالنسبة لنا! ... ألا تظن يا دومينيك أن الضمير "لنا" هنا يعود على كافكا نفسه

وأشباهه.. أعني أن هناك وفرة من الأمل بالنسبة للتسعة أعشار من البشر، الذين هم كومة النمل بصوت راسكولنيكوف، أما الفئة السوبر من البشر، فإن هذا "الأمل" ليس لهم!

- نعم، صحيح، فكرة ذكية للغاية، برافو!

ارتفع مستوى الأدرينالين في دمي، فقلت في فورة حماسة:

- في قصة (التحول) يستيقظ جريجور سامسا من النوم فيجد نفسه وقد تحول إلى حشرة بغيضة، في فراشه بغرفته بمنزل أبويه.. ويمر كافكا سريعاً على المأساة المرعبة، واصفاً تحول سامسا إلى حشرة في سطرين فقط؛ وكأن الفاجعة هي الطبيعي والمتوقع والعادي؛ يمر سريعاً إلى ما يشغل بال سامسا فور اكتشافه أنه تحول إلى حشرة: الأمل في أن يلحق بقطار السابعة صباحاً، حتى لا يتعرض لتعنيف رئيسه لو تأخر عن عمله كمندوب مبيعات.. هذه يا دومينيك هي نوعية الأمل المتوفر بالنسبة لنا؛ نحن العاديين أشباه جريجور سامسا، التسعة أعشار من كومة النمل البشري!

- رائع.. وقد أوحت لي فكرتك الآن بواحدة من أجمل سمات أدب كافكا التي أحبها كثيراً.. إنها استعماله للمنطق العادي والمألوف، منطق الحياة اليومية، في التعبير عن المأساة والكابوس، وهي بالمناسبة، عكس ما يقوم به الكتاب والفنانون الذين توصف أعمالهم بالكافكاوية، فبينما يستعملون هم منطق الكوابيس في التعبير عن الحياة اليومية، يستعمل كافكا المنطق

اليومي في التعبير عن الكابوس.. يصحو سامسا من النوم، ويكتشف أنه قد تحول إلى حشرة مقرفة، لكن أشد ما يقلقه في الأمر هو أن مديره سوف يعنفه لغيابه عن العمل!.. كافكا حين يرسم كابوساً، يرسمه بأسلوب شديد العادية والطبيعية في تفاصيله اليومية، ولذلك يبلغ الكابوس، بل والرعب، قمته عند كافكا.. حين يصبح الفوقطبيعي هو الطبيعي!

ساعدت دومينيك في لم الأطباق، ووضعناها في حوض غسيل المطبخ، بعد أن شكرته كثيراً على هذه المأدبة الرائعة، وقلت له إنها كانت تجربة روحانية بحق، وإنني سوف أحاول صنع الكاسوليه التولوزي هناك في مصر عندما أعود وكل شيء، ولكن لا أظن أنه باستطاعتي الحصول على شرائح البانستا المقددة، ولا على نقانق الخنزير التولوزية، فهل يمكنني صنعه بالنقانق العادية، أو حتى بسوسيس الخنزير، والذي يتوفر عندنا في محلات لحوم الخنزير؟ قال دومينيك إن عليّ أن أجرب، وأن أخبره بالنتيجة بعد ذلك. طيب وماذا عن شرائح البانستا المقددة، هل ينفع لها بديل، مثلاً، من لحم الخنزير البارد، أو الجامبون، أو المورتاديلا؟! قال دومينيك إن عليّ أن أجرب، وأن أخبره بالنتيجة عندما أفعل ذلك. وسأل دومينيك، وهل تستطيع أن تحصل على جلد الخنزير بالدهون التي فيه؟! قلت إنني لم يسبق لي من قبل أن اشتريته، ولكن باستطاعتي أن أوصي عليه محل جزارة لحوم الخنزير القريب من الشارع الذي أسكن به، ولا أظن أن الحصول على جلد خنزير سيكون مشكلة.

وساعدت دومينيك، بالطبع، في غسيل الطاجن، والطبقين، وباقي أدوات المائدة. وكنا، قبل ذلك، نقوم بغسل وتجفيف كل الأطباق والصواني والطاسات والقدور والكبشات والملاعق التي نقوم باستخدامها أثناء الطهي، أولاً بأول، ولذلك كان المطبخ نظيفاً كالفل.

وسألت دومينيك، بينما نحن منهمكان، هو في غسيل الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين، وأنا في تجفيفهم بفوطة المطبخ، سألته، بينما نحتسي ما تبقى من زجاجة النبيذ في كأسينا ونحن واقفان أمام حوض الغسيل في المطبخ:

- ولكن، لماذا تعتقد أن كافكا يقوم بذلك، أعني ما هو السبب في ذلك التجاور الفصامي، كما وصفته أنت؟! هل هو مثلاً بهدف التنوير.. أعني أن بطل كافكا، وأثناء رحلته تلك من أجل تحقيق هدفه، يزداد وعياً بنفسه، وبمن حوله، وبالعلاقات بين القرية والقصر مثلاً كما في رواية (القصر)، أو يزداد وعياً بالعالم كبطل رواية (أمريكا)، أو بأسرته، وبطبيعة حالته كما في (التحول)، وإن رحلة الأمل هذه ما هي إلا سلسلة من الإثباتات لعجز لبطل، فيتفتح وعيه في النهاية، ويرى الحقيقة المرة؛ الخيبة والإحباط والألم.. هل تظن ذلك؟!

- ربما، وربما أيضاً كان نوعاً من التسلية في ظل اليأس الحتمي الذي يغلف الوجود كله، مثل كل الذين يبدعون رسماً أو موسيقى أو أدباً.. إنهم يهربون، بشكل ما، من الكآبة والجنون

والذعر المتأصل في الوضع الإنساني.. فربما كان الأمل الذي يحدو بطل كافكا هو أيضاً نوع من السلوان، أو التسلية، أو العلاج، أو الرياضة الروحية.. نوع من العزيمة على تمضية الحياة على نحو شريف ونزيه..

قلت مقاطعاً:

- أي أنه نوع من مغالطة النفس! الوهم!

- ربما كان كذلك بالفعل! ولكن هناك افتراض آخر، افتراض أكثر جسارة مما سبق.. أنت طبعاً تعرف أن النقاد التشيك كانوا ومازالوا يصنفون أدب كافكا على أنه ينتمي إلى مجال الأدب الساخر، أليس كذلك؟! ماذا لو كانوا فعلاً على حق! ماذا لو كان كافكا فعلاً لم يفعل في أدبه سوى أن يسخر من بطله، مجرد السخرية من بطله ومن الأمل الذي يحدوه!

صحت، وأنا أنزل الكأس عن فمي:

- دومينيك! أنت شرير! أنت حقاً شرير!

فمات دومينيك من الضحك.

وخرجنا إلى الصالة، وأوفى دومينيك بوعده، فأشعل كل منا سيجاراً آخر من "الفوندادورس" الرائع، وكانت أحلى تحلية بعد الأكلة الشهية، وكان له نكهة أعظم وأقوى كثيراً بعد الأكل من نكهته والمعدة فارغة وكل شيء. وفتح دومينيك التلفزيون على

قناة فرنسية، كانت تذيع الأخبار فيما يبدو، ولكنني كنت في مزاج أروع كثيراً من أن أتابع التلفزيون، أو أخبار العالم.

لكنني انتبهت إلى خبر طويل في النشرة عن العراق، وعن حادث تفجير وقع صباح اليوم في بغداد، وراح ضحيته عدد من الجنود الأمريكيين. انتبهت إلى الخبر، مع أن صوت التلفزيون كان منخفضاً، عندما لاحظت الوجوم وشيئاً من الحزن على وجه دومينيك. ولم يعطني فرصة للسؤال، لأنه بادر من تلقاء نفسه إلى القول:

- لدي ابن في الجيش الأمريكي في العراق!

- حقاً! ابنك يخدم في الجيش الأمريكي؟!

- نعم، أمه فرنسية من هنا من تولوز.. سافرت منذ سنين طويلة إلى أمريكا، واستقرت في مدينة بالتيمور، والولد دخل الجيش الأمريكي، إنه في المارينز الآن!

- حقاً! وهل وافقت أنت على ذلك؟!

- في الحقيقة لقد أسعدني الأمر في البداية، لأن الولد كان قد بدأت قدماه تنجران إلى أنشطة بيع المخدرات والجريمة المنظمة في بالتيمور في فترة مراهقته، فظننت أن دخوله للجيش سوف يساعده في الابتعاد عن الأنشطة الإجرامية، خصوصاً بعد أن أثبت تفوقاً في الحياة العسكرية وضموه إلى مشاة البحرية.. أنت

تعرف طبعاً أن معظم الفرنسيين ضد الغزو الأمريكي للعراق، وأنا طبعاً منهم، أنا أيضاً ضد الغزو الأمريكي للعراق وقتل الأطفال هناك من أجل استحواذ شركات البترول الأمريكية على نفط العراق!.. لقد فوجئت عندما أخبرتني أمه أنه ضمن من ذهبوا من الجيش الأمريكي إلى هناك.. وأنت ترى التفجيرات التي تحدث ضد الأمريكيين هناك في كل يوم!

- أنا آسف يا دومينيك، أتمنى السلامة لابنك من كل قلبي.. متى رأيته آخر مرة؟!

- منذ عدة سنوات، قبل أن يلتحق بالجيش الأمريكي، زرتهم في بالتيمور، وكان مراهقاً شقياً ومتعباً.. في الحقيقة، كانت معجزة أنه لم يصبح مجرماً أو قاتلاً.. لهذا السبب فرحت عندما انضم للجيش.. لقد أرسل لي رسالة طويلة من صفحات كثيرة، ويبدو أنه ضمنها معلومات سرية، لأنه أرسلها مع صديق له يعمل صحفياً وكان هناك في العراق يجري تحقيقاً صحفياً عن كيفية عيش الجنود الأمريكيين في العراق، وتصادف أنه مر على باريس وأمضى هناك يومين، فاتصل بي، ورأيت أنه من الأفضل أن أذهب وأتسلم الرسالة بنفسي، لذلك كنتُ هناك لكي أتسلم منه الرسالة، حين تقابلنا في الطائرة العائدة من باريس إلى تولوز!

- آه، صحيح.. وهل طمأنتك رسالته.. بالمناسبة ماهو اسم ابنك؟!

- دان.. دانييل.. لا، في الحقيقة الرسالة مكتوبة بالإنجليزية،

وهي إنجليزية أمريكية، وصعبة القراءة أيضاً بسبب الخط السيء لدان.. في الحقيقة لم أستطع أن أفهم إلا بضعة كلمات في أماكن متفرقة فقط!

- دومينيك، اسمع، أنا إنجليزيتي وأمريكيتي جيدتان للغاية، وأيضاً أجيد فك الخطوط وقراءة المخطوطات القديمة وكل تلك الأشياء، فإن أحببت، باستطاعتي أن أترجم لك الرسالة إلى الفرنسية!

- حقاً! سيكون ذلك رائعاً! أتستطيع أن تقوم بذلك فعلاً! يالها من مفاجأة!

- نعم، بالتأكيد، سيسرني ذلك كثيراً.. ولكن هل تسمح بأن تعطيها لي، على أن أقوم بترجمتها في مصر عندما أعود.. إن الساعة الآن تقترب من السادسة والنصف، وعليّ أن أرجع إلى الفندق لأن التاكسي سوف يقلني من هناك في الثامنة تماماً!

- نعم، لا بأس، سأعطيك الرسالة، ولكن رجاءً حافظ عليها!

- لا تخف، سوف أترجمها، وأرسل الترجمة إليك عبر الإيميل، والرسالة نفسها سوف أرسلها إليك عبر البريد السريع حتى تكون مضمونة الوصول.. أنا عندي عنوان البوتيك، هل أرسلها إلى البوتيك؟!

- نعم، من فضلك، سيكون ذلك رائعاً.. سأكتب لك عنوان

الإيميل حالاً!

ونهض دومينيك من على الكنبة بصعوبة، وخجلت أن أساعده، واختفى في الكوريدور المعتم الذي يؤدي إلى غرفة النوم أو شيء من هذا القبيل، ثم عاد ومعه ورقة مكتوب عليها:

dominique@sex-odyssee.fr

وقفت، وطويت الورقة، ووضعتها في جيبي. وانظر إلى كرم دومينيك وجماله! لقد أحضر لي سيجارين من سجائر "الفوندادورس" الرائعة في علبتين من الألومنيوم، وأصر على إعطائهما لي، بالرغم من إلحاحي بالرفض، وأن هذا كثير يا دومينيك وكل تلك الأشياء. وتمنيت في تلك اللحظة لو كنتُ قد أحضرت المزيد من لوحات البردي الفرعونية لكي أهديه واحدة أو أكثر. وتمنى لي دومينيك سفراً سعيداً، وسلمنا على بعضنا، محتضنين بعضنا البعض، بالإنجليش هَج كما يطلقون عليه وكل شيء. وكادت الدموع أن تفر من عينيّ، ومن عينيه هو أيضاً، عند الوداع، حقاً دون مبالغة.

فكرت، وأنا نازل على سلالم العمارة، أن رغبة دومينيك الواضحة في الأحاديث الثقافية والفنية، والتي استغرقت معظم وقت اللقاء؛ من الساعة الحادية عشرة كما أتذكر، حتى الآن، أي حتى الساعة السادسة والنصف مساءً، ربما كانت نوعاً من الهروب من الحديث عن حياته الخاصة. وكنت قد لاحظت هذا الأمر في عدد من الأصدقاء الذين يعيشون وحدهم، خصوصاً

الكهول منهم، فقد كان الحديث عن أمور حياتهم الشخصية، وعن أولادهم، وكل ذلك، يقلب عليهم المواجع، ويملؤهم بالأحزان. وقد تأكدت من هذه الفكرة، فيما بعد، عندما عرفت دومينيك أكثر وأكثر، وعرفت مدى عظمة هذا الرجل، ومدى إنسانيته ونبله، وعمق المأساة التي يعيشها، وذلك عندما زرته بعد ذلك عدة مرات في تولوز، وعندما زارني في القاهرة مرتين. ولكن هذه قصة أخرى.

ترجمة رسالة دانييل

s.sh.director@yahoo.com

To: dominique@sex-odyssee.fr

صديقي العزيز/ دومينيك

تحياتي من القاهرة،،

انتهيت أخيراً من ترجمة رسالة دانييل. عذراً على التأخير، ولكن كان هناك بعض الألفاظ والشتائم بالإنجليزية، ولم أكن أعرف المقابل الصحيح لها بالفرنسية، فقد تعلمت الفرنسية الكلاسيكية التي تصلح للقراءة والكتابة وكل ذلك، ولكنني في الحقيقة جاهل بعض الشيء بالألفاظ التي ُتقال في الشوارع، والشتائم، واللعنات، وكل ذلك. وقد استعنت بأحد الأصدقاء الفرنسيين، من العاملين في (السيديج): مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية، من أجل ترجمة تلك المصطلحات. لا تخف، فلم أطلعه على رسالة دانييل ولا أي شيء، فقط كتبت الشتائم والألفاظ الواردة في الرسالة، وأطلعته عليها، وطلبت منه المكافئ لها بالفرنسية، حتى تكون الترجمة أمينة بقدر الإمكان. وقد فضلت أن أترجم حرفياً تلك الشتائم وذلك السباب، وليس المكافئ المهذب في اللغة الذي ينقل المعنى على وجه التقريب، لأنني أحببت أن يصلك إحساس وانفعال دانييل وهو يكتب خطابه إليك. أتممت الترجمة بالأمس، فور عودتي من مقابلة الصديق الفرنسي، وهاهي مرفقة بالإيميل، وأتمنى أن أكون قد استطعت نقلها بأمانة من اللهجة الأمريكية إلى الفرنسية.

شكراً جزيلاً يا دومينيك على عرضك الكريم جداً بالإيميل السابق، وطبعاً سوف أتلقفه بمنتهى الانتهازية، هاها هه!

سيسعدني جداً أن أزورك في تولوز لكي تريني تلك المعالم العظيمة والرائعة التي لم تسنح لي الفرصة بمشاهدتها بعد، كما أنني أتوق للغاية لاستئناف مناقشاتنا الأدبية والفنية ونحن نعد الكاسوليه التولوزي الرائع! بالمناسبة، أتيت بمعظم المكونات، وعندي الآن جلد الخنزير بالدهون التي فيه، والبط وكل شيء، وربما أحاول صنع الكاسوليه المصري غداً، وسوف أرسل لك فوراً بالنتيجة.

أنا أخطط لقضاء شهر أكتوبر كله مع إحدى الصديقات في روما. هل تظن أن الأسبوع الأول من نوفمبر سيكون مناسباً لكي آتي إلى تولوز؟ أستطيع حجز تذكرة طيران من روما إلى تولوز في أوائل نوفمبر، إذا كان ذلك مناسباً لك وكان حضوري لن يسبب لك تعطيلاً عن العمل أو إزعاجاً.

دخنت سيجاراً واحداً من الفوندادورس الرائع، وما يزال لدي الآخر. سوف أنتظر مناسبة سعيدة لكي أدخنه.

سأقوم اليوم بإرسال أصل رسالة دانييل إلى عنوان البوتيك بالبريد السريع المصري، وأتوقع أن تستلمها في غضون أربعة أيام أو خمسة على الأكثر.

أتمنى أن تكون بصحة جيدة، وأحوال العمل تسير على ما

يرام.

استمتع برسالة دانييل، وأخبرني برأيك في الترجمة عندما تنتهي من القراءة.

المخلص،،

سامح

* المرفقات: ترجمة رسالة دانييل

أبي العزيز

أفكر فيك كثيراً وأنا في هذه الصحراء المتناكة، لذلك قررت أن أكتب إليك لأول مرة من هنا، فأحياناً يكون لدينا وقت طويل لا نفعل فيه شيئاً، ولذلك يأخذ الفتى منا في التفكير والتأمل لأول مرة في حياته. أمي كانت تقرأ لي الرسائل التي كنت تكتبها لنا. آسف لأنني لم أتعلم الفرنسية حتى الآن، ولكنني سوف أتعلمها خصيصاً من أجلك في أول فرصة عندما أعود إلى الوطن، وربما آتي إليك في تولوز وأنا في طريقي إلى هناك لأنني أريد أن أراك. أرجو أن تكون صحتك جيدة كما كنتَ في تلك المرة التي زرتنا فيها وأن كل شيء جيد.

أنا في صحراء العراق المتناكة، نقيم في خيام لا تحمينا من الحرارة التي تصل إلى 90 فهرنهايت، ولا من ريح الشمال التي تصل سرعتها إلى 70 ميلاً في الساعة. إن الطقس المتناك هنا أشد علينا من العراقيين المتناكين. في الحقيقة يمر الوقت ثقيلاً علينا في أحيان كثيرة، ولا يجد بعضنا ما يفعله سوى التمرين على الملاكمة، أو المصارعة، أو التايكوندو، أو حتى قراءة بعض الكتب المتناكة، والبعض منا ينام طيلة الوقت، وهناك ترومبلي ذلك المهووس بالتصوير الذي يقضي كل وقته في التصوير بكاميرا ديجيتال صغيرة على أمل أن يتمكن من أن يبيع نسخته عن الحرب المتناكة إلى السي إن إن! قلت له منذ يومين أن يركز أكثر على تصوير رودي الشاذ وهو عار، لأن فرصته في أن يبيع ذلك إلى منتجي أفلام الشواذ أكبر بكثير من البيع

للسي إن إن. هذا الشاذ رودي يملئ كل يوم حقيبة ظهره بالصخور، ثم يحملها على ظهره ويجري بها حول المعسكر وهو يرتدي قناع الغاز ويمسك في يده الرشاش! لا أعلم منذ متى بدأ سلاح المارينز في قبول هؤلاء الشواذ ضمن صفوفه! قلت لترومبلي إنه إن ركزّ على تصوير الشاذ المتناك رودي فبإمكانه أن يصبح سبلبيرج القادم في عالم أفلام الشواذ!

نحن نسمي فصيلنا: برافو-2. ونسمي معسكرنا هذا: ماتيلدا. ونسمي الكولونيل قائد الفرقة: الأب الروحي. اسمه الحقيقي: الكولونيل بترسون، وهو مصاب بسرطان الحنجرة، برغم أنه لم يشرب ولا سيجارة متناكة واحدة طوال حياته، وهو حين يتكلم يتكلم بصوت مبحوح وكأنه أفعى متناكة تحتضر. في الحقيقة هو أحمق متناك لا يفقه شيئاً، ولولا النقيب براد لكنا في عداد الأموات. الأب الروحي دائماً ما يعطي أوامر تؤدي بنا إلى الجحيم، ولكن النقيب براد يحاول في كل مرة أن ينقذ الوضع بأقل الخسائر. عندما وصلت إلى هنا أول الأمر، كانت هناك أوامر بنقل بعض الأسلحة من مكان لآخر، وانطلقت بعضها بطريق الخطأ، وأصيب اثنان أو ثلاثة منا، وكانت معجزة أن أحداً لم يُقتل! كدنا أن نموت قبل أن نذهب إلى الحرب ونقتل الناس!

لكنني لا أريدك أن تأخذ فكرة عني بأنني جبان أو أنني لا أحب هذا الخراء، لا، في الحقيقة أنا فخور بما أفعله، وأرجو أن تكون أنت أيضاً فخوراً بي.

في بعض الأحيان أفكر في كل هؤلاء العلماء والمهندسين الذين بنوا آلات الحرب تلك، وكل الأموال التي أنفقت عليها، والشجاعة أيضاً لدى كل هؤلاء الرجال الذين أتوا إلى هنا وتركوا زوجاتهم وأطفالهم وقلوبهم هناك في الوطن، من أجل نكح هؤلاء الرعاة المتناكين! تباً للعراق المتناكة! هل تصدق هذا الخراء! إن هؤلاء الملاعين لم يلتقطوا بعد مخلفات المعدات العسكرية الملقاة في الصحراء منذ حربهم مع إيران المتناكة! هؤلاء الناس يتقاتلون على هذه الأرض المتناكة منذ بدء الخليقة! كم من القبور في هذه الصحراء المتناكة التي ننام فوقها كل يوم؟! إن هذا هو قدر الرجل الأبيض، أن يُخضع هؤلاء الهمج وأن يحكم العالم.

الشيء المتعب حقيقة هنا هو أنهم يطالبوننا، وفي ظل هذه الحرارة وتلك الرياح، بأن نحافظ على أعلى معايير النظافة الشخصية، وحلق ذقوننا، وخصوصاً شواربنا، وكل تلك الأشياء المتناكة، لأن الأب الروحي يقول إنه بالرغم من كوننا في فرقة المشاة الثالثة من قوات النخبة، إلا أن هذا لا يعني خرق القواعد. تخيل أن الرقيب هولسي المتناك قد عاقبني لأنه رأى قميصي خارج البنطلون! بالرغم من أنني قلت له إنني أعمل على نقل المهمات من الخيام إلى مركبات الهمفي طيلة الصباح! وعاقب أيضاً باتريك لأنه لم يحلق الحواف حول شاربه كما ينبغي، وقال له إن منظر الشعر حول فمه يدنس شرف الفصيلة كلها وكل ذلك الخراء، تخيل! وفي النهاية حلق باتريك شاربه مثل هتلر، وقال لنا إن موضة شارب هتلر قد عادت، فقلنا له إنه يبدو جيداً مثل هتلر المتناك.

نحن جميعاً متفقون على أن العمل الأساسي للرقيب هولسي هو أن يكون خرم طيز الفصيلة، وهو متفوق حقاً في هذا العمل!

وبالرغم من هذا التشدد في المعايير والقواعد، نعاني من نقص كبير في قطع غيار المركبات، والبطاريات، وأشياء أخرى كثيرة. كانت مركبتنا في حاجة إلى قطعة غيار لم نجدها في الفصيلة، فاضطر أحدنا إلى مص زب ضابط في الفرقة للحصول عليها! وعندما أخبرونا بأن المهمة الأساسية لنا هي السيطرة على جسر نهر الفرات، والاحتفاظ به إلى أن تأتي بقية قوات المارينز الرئيسية، وهو ما يتطلب التوغل في الصحراء العراقية المتناكة بعربات الهمفي المكشوفة، والتي نقود في الوطن سيارات أفضل وأمتن منها، اكتشفنا أن جهاز الخرائط الإلكتروني لا يعمل لأن ليس به بطاريات! ومرة أخرى، حصلنا على البطاريات بمص أحدنا لزب ضابط آخر شاذ متناك وحصلنا منه على البطاريات المتناكة، فانتقلنا إلى القرن الحادي والعشرين بعد أن كنا في العصور الوسطى!

جيف الشيوعي المتناك الذي يكره الضباط يقول دائماً إن ما تحتاجه أمريكا هو يوم إجازة سنوي، يحل فيه الجنود محل الضباط في بيوتهم، فينكحون زوجاتهم، ويأكلون طعامهم، وينامون في أسرتهم!

يصلنا في بعض الأيام رسائل بريد من أطفال المدارس. معظمها رسائل تشجيع، يقول فيها الأطفال إنهم فخورون بنا لأننا

شجعان وندافع عن بلادنا ضد الأعداء من الإرهابيين الأشرار، وإنهم سعداء لأننا سوف نمسك بهؤلاء الإرهابيين ونعاقبهم، وإنهم يصلون من أجلنا. لكن كانت هناك تلك الرسالة من طفلة اسمها سوزي من فرمونت، والتي أرسلت صورتها مع الخطاب، وكانت طفلة شقراء ذات ضفائر، لا يتعدى عمرها السبع سنوات، وأخذها باتريك المتناك وراح يستمني عليها، برغم أنها طفلة ما زالت ترتدي الحفاظات! قلت له إن من الأفضل أن ينزع حفاظاتها أولاً قبل أن يستمني على صورتها، فقال إنه على استعداد لأكل خرائها نفسه من أجل أن ينكحها! فتركناه ينيك نفسه طوال الليل حتى نتخلص منه. هذا بسبب أنه لا تصلنا مجلات إباحية كافية عبر البريد، فتجد الرجال هنا يتصرفون على هذا النحو المجنون!

كتبت سوزي في رسالتها إنها تتمنى لنا العودة سالمين إلى الديار دون الحاجة إلى القتال، لأن السلام أفضل من الحرب، وسوف يكون رائعاً أن لا يتعرض أي أحد للأذى، لا نحن ولا العراقيون. استفزت هذه الكلمات ويل، فكتب لها رداً يقول فيه:

"عزيزتي سوزي، أشكركِ على كلماتك الجميلة، وأحب أن أقول لكِ إنني جندي مشاة بحرية، وقد ولدت من أجل أن أقتل، وأنكِ قد أخطأتِ وظننتني شيوعياً شاذاً متناكاً مصاصاً للزب، والسلام الذي تتحدثين عنه في خطابكِ يصلح للشيميلات من أمثالك، فسلامي لكِ ولأهلك. أما أنا، فإنني قد اعتدت على مواجهة الموت، وأنا متعطش للدماء، أستيقظ في كل صباح وأنا أتمنى الحصول على فرصة لتدمير عدونا، وتنجيس حضارته

المتناكة، وتقطيع أوصال العراقيين وشي أرواحهم المتناكة. نحن المحاربون ذوو الدم البارد، نحن آكلو لحوم البشر، وعلى الجميع أن يفهم ذلك. السلام تفاهة كبرى يا سوزي يا خرم الطيز، والحرب وحدها هي الإجابة الصحيحة يا بنت الشرموطة، لكنني أشكرك على خطابكِ على أية حال."

نحن لا نعرف أي شيء عما يجري هنا، وهم لا يخبروننا بالأخبار السيئة حتى لا تؤثر على معنوياتنا. نعرف الأخبار فقط من البي بي سي المتناكة عندما نفتح الراديو. وذلك أفضل في الحقيقة، لأن الإعلام ابن الشرموطة يصورنا على أننا قتلة أطفال ومغتصبي نساء، ولا يعرف أي من هؤلاء المتناكين ما هو شعور الرجل منا عندما يكون في معمعة الحرب، إنهم غير قادرين على الشعور بشيء سوى الشعور بالزب عندما يدخل في مؤخراتهم!

وقد انضم إلينا في المعسكر أحد المراسلين الصحفيين قادماً من الوطن؛ اسمه بابز، وهو شخص طيب وظريف ومتعاون، وهو الذي سأرسل لك هذا الخطاب معه ليوصله إليك. وبابز هو صحفي الآن في مجلة (الرولنج ستون)، وكان قبل ذلك كاتباً في مجلة (هاسلر) الإباحية، وقال لنا إنه كان يكتب مراجعات عن الأفلام الإباحية، وباب الرسائل الساخنة. وقد أرسلوه لنا لكي يغطي حياة الجنود في هذه البلاد المتناكة، والمعاناة التي يعانونها من أجل قتل الأعداء، وأنا متأكد من أنه سوف ينقل الصورة الصحيحة لوضعنا ومعاناتنا هنا لقراء مجلته المتناكين.

في بعض الليالي نستيقظ فزعين ونكتشف أننا في وسط العراء، لأن ريح الشمال المتناكة تقتلع خيام المعسكر باستمرار، ونضطر لملاحقة الخيام بنت الشرموطة التي تجرفها الرياح الشديدة عبر الصحراء، ثم ننصبها في أماكنها من جديد، ونثبتها بالأوتاد والمطارق، ونظل نثبتها حتى الصباح المتناك. وأحياناً ما يتعارك الرجال هنا أثناء ذلك، لأنهم يكونون قد استيقظوا فزعين من النوم، ويتعين عليهم ممارسة عمل متناك طيلة الصباح. وفي آخر مرة تعارك بوك مع راي وقال له وهو يشتمه إن أمه قد تزوجت ثلاث مرات بعد موت أبيه من ثلاثة زنوج، وإنها شرموطة متناكة لأنها تبيع مؤخرتها في مواقف السيارات. واستمر هذا القرف للصباح، حتى انتهينا من نصب الخيام المتناكة.

وبسبب أننا كنا مرهقين من عدم النوم، ومن نصب الخيام وتثبيتها طوال الليل، فوجئنا بانفجار موقد الغاز في أحد الخيام في وجه الولد تي، فأصبح وجهه الأبيض ملتهباً مثل دجاجة مشوية! وأدى ذلك أيضاً إلى احتراق جهاز الاتصالات اللاسلكية الموجود في الخيمة، والذي تستعمله الفصيلة في طلب الدعم الجوي. كان المفروض طبعاً أن يؤدي ذلك إلى توقيع عقوبات قاسية على كل أفراد وحدتنا، لأننا استخدمنا موقد الغاز داخل خيمتنا، وهو ما يخالف التقيد باللوائح والأنظمة. لكن المدهش أنه عندما وصل الخبر إلى الأب الروحي، وصله بطريقة معكوسة في أغلب الظن، لأنه قرر منح الولد تي نوط الواجب العسكري تقديراً لشجاعته، وإرساله إلى الوطن للعلاج! شجاعته في إحراق الخيمة

وجهاز الاتصالات اللاسلكية من أجل عمل كوب من السبريسو المتناك على موقد الغاز ابن الشرموطة!

كنا نستعد من أجل القيام بالمهمة التي أخبرنا بها الأب الروحي، وهي الاستيلاء على جسر الفرات وتأمينه. وهناك قاعدة تعلمناها في المارينز: عندما نذهب في مهمة، لا نحمل في مركباتنا أية مؤونة، لأنه من العيب أن يحمل المارينز في مركباتهم مؤونة، فنحن المارينز ننهب ونسلب أي بلد نمر بها. لكننا مع ذلك نفتقد للكثير من المهمات التي نحتاجها في القتال، وخصوصاً البطاريات المتناكة! تصور أن بابز المراسل قد أحضر لنا بالبريد من الوطن بطاريات من أجل نظارات الرؤية الليلية، لأن الفرقة لم تجلب معها ما يكفي من البطاريات، وكان علينا التصرف بأنفسنا والحصول على البطاريات بأي شكل! في الحقيقة، الفرقة لم تحضر معها ما يكفي من أي من الأشياء المهمة التي نحتاجها. إنهم حتى لا يملكون ما يكفي من الخرائط المتناكة للعراق! هناك قول شائع عندنا: عندما يذهب الجيش إلى الحرب يأخذ معه كل ما يحتاجه، لكن عندما يذهب المارينز للحرب فإنهم يوفرون لأنفسهم كل ما يحتاجونه بأنفسهم! لا خرائط، ولا بطاريات، ونحاول الحصول على هذا الخراء بالبريد، وفي النهاية لا يصل شيء إلينا أبداً!

أنا شخصياً أنفقت حتى الآن ما يزيد عن الـ 300 دولار من جيبي الخاص من أجل إصلاح المركبة همفي المتناكة التي نستقلها! اشتريت هوائيات، ومرشحات، وشبكة ظل لتعليقها على

المركبة المكشوفة.

إن من يتولون إدارة المخازن العسكرية عندنا هم قوادون! إنهم يبيعون الأشياء للجنود! هل رأيت هذه الحكمة اللامتناهية! وعندما تسأل لماذا هذا الوضع؟! يقولون لك: لكي تبقى في حالة غضب مستمر، فجندي المارينز إذا حصل على كل ما يحتاجه عندما يحتاجه فسيكون سعيداً، والجندي السعيد لن يكون مستعداً لقتل الناس طوال الوقت، فقوات المارينز هي مثل كلب البيتبول؛ يجب أن تضربه وتعامله بكل سوء، لأنك سوف تطلق سراحه في لحظة ما لكي يهاجم عدوك ويسحقه!

وفي أحد الأيام رأينا سيارات مدنية كثيرة، ربما عشر سيارات أو أكثر، يقودها هنود، آتية من الكويت فيما يبدو، وهي تحمل علب بيتزا هت! باع لنا الهنود المتناكين بيتزا هت القطعة الواحدة بعشرة دولارات! لا أقصد علبة البيتزا كلها، ولكن الشريحة الواحدة بعشرة دولارات! كانوا قد قطعوا كل بيتزا إلى أربع شرائح، وباعوا لنا الشريحة الواحدة بعشرة دولارات! جنوا ثروة من بيع البيتزا لنا! الهنود أولاد الشرموطة! أنا شخصياً ساومت هندي متناك وأخذت منه ثلاث شرائح بالبابروني بعشرين دولار فقط! هل تصدق ذلك!

والأب الروحي المتناك طبعاً أخذ نصيبه بالطبع من السماح لهؤلاء المتناكين الهنود بالحضور من الكويت لبيع ثمار حضارتنا لنا! حدث هذا قبل أن نتحرك لاحتلال جسر الفرات بـ 24 ساعة

فقط، وكانت كل مسألة البيتزا هذه لإلهائنا وتطيب خاطرنا. بعد ذلك سلمونا بدلات العمليات العسكرية المصممة ضد الهجمات الكيماوية والبيولوجية، ولم تكن أي منها على مقاس أي منا، ولم يسمحوا لنا بتبديلها، فعمت الفوضى بيننا ونحن نبدلها من بعضنا البعض! قالوا لنا إنه من غير المسموح لنا أن نغسلها أو نثقبها، فسأل راي النقيب براد: إذا كنا سنقاتل في بيئة حرب كيماوية، وأصبنا برصاصة، فكيف يمكن لهذه البدلة أن تحمينا؟! فرد عليه النقيب براد: لن تحميك، إذا أصيب أحدكم برصاصة في بيئة كيماوية فهو هالك لا محالة! هل لك أن تتخيل أنه عندما فتحنا أكياس البدلات وجدناها بدلات بتمويه أخضر اللون! هل تذكر أي شخص مسؤول عن ذلك أننا في بلد صحراوي متناك! ما هذا يا رجل! أنا أكره هذا الغباء المتناك!

وقبل أن تتحرك مركباتنا، جمعنا الأب الروحي وقال لنا قبل أن نستقل العربات إننا جئنا إلى هنا من أجل القتل، وإننا نغزو بلداً مليئاً بالمدنيين، لكن في نفس الوقت فإن من سيطلقون علينا النار لن يكونوا مرتدين للزي الرسمي للجيش العراقي، بل سيتنكرون كمدنيين، أو رعاة، أو مزارعين، وإنه لا يريد أن يفقد أياً منا بسبب أننا لسنا عدوانيين تجاه المدنيين بالشكل الكافي، لذلك فإن قواعد الاشتباك ستكون كالتالي: إذا ما خطر على بالك أنك سوف تطلق النار لحماية نفسك أو فريقك، فاطلق النار فوراً، إنه الشيء الصحيح والواجب عمله، ويا سادة، إذا كان لدى أي منكم شارباً فاحلقوه قبل أن تصلوا إلى جسر الفرات، فهذا الفصيل يجب أن يحافظ على حسن هيئته، وهذا كل شيء يا سادة!

نغزو بلداً أجنبياً متناكاً وكل ما يفكر به القائد هو الشوارب المتناكة! لكننا تعلمنا في المارينز أن يحتفظ كل منا لنفسه بمشاعره الشخصية تجاه القادة.

وعندما بدأت مركباتنا في التحرك، توقفنا بعد قليل وسط الصحراء لأكثر من أربع ساعات متواصلة تحت الشمس المتناكة، وأنت لا تعرف ماذا يمكن أن يفعل الرجال من تفاهات وعراك وهم في بدلات ساخنة ويجلسون في عربات الهمفي المكشوفة تحت أشعة الشمس الحارقة طوال هذا الوقت! قالوا لنا إننا في انتظار المترجم المتناك الذي سيرافق الفصيل في المهمة. هل يتصور أحد أننا نغزو العراق وفي انتظار مترجم متناك لمدة أربع ساعات تحت شمس الصحراء الحارقة! واضطررنا طبعاً لخلع ملابسنا كلها والبقاء بالملابس الداخلية، ولكن ذلك لم يفلح مع الشمس المتناكة، فخرجنا وتمدد من استطاع منا تحت المركبات للهروب من حرارة الشمس. يا لهذا الخراء! لماذا لم نختر بلاداً باردة حتى نغزوها؟! ولماذا لم نذهب إلى بلد فتياته جميلات وبالبكيني؟! لماذا لا تحتاج مثل تلك البلاد إلى قوات المارينز بحق المسيح؟!

ثم أتى المترجم العراقي المتناك في النهاية مشياً على الأقدام من إحدى القرى على ما يبدو، وكان شخصاً قذراً ويظن نفسه مهماً وهو ابن شرموطة لا شيء.

وعلمنا في الطريق أننا لن نحصل على دعم جوي. عرفنا

ذلك ونحن في منتصف الطريق، بالرغم من أن المعلومة كانت لدى الأب الروحي منذ يومين كما عرفنا بعد ذلك. يرسلوننا وسط صحراء العدو بدون دعم جوي! ومع كل ذلك كنا جميعاً متحمسين للمهمة، وقال جارزا، الذي يحب الطائرات كثيراً، إنه كان يتمنى لو كان قائداً لإحدى الطائرتين اللتين ألقتا القنبلتين النوويتين على اليابان، لأن اثنين من الطيارين المتأنقين استطاعوا قتل مئات الآلاف من الناس، وإنه هكذا يجب أن تكون الحروب.

هناك درجات من التخلف العقلي لا يمكنك أن تتخيلها! بانسينو الأحمق المتخلف تخلفاً لانهائياً قام بتظليل نوافذ مركبته بالطلاء كنوع من التمويه، مما أدى إلى انعدام الرؤية في المركبة وهو يقودها، فلم يستطع أن يرى موكبنا، ولا أي شيء آخر على الطريق المتناك، وتخلف عن ركب الفصيل بسبب النوافذ المتناكة المطلية!

وفي الطريق كنا نلوح للعراقيين الواقفين أمام بيوتهم في قراهم في الصحراء، وكانوا يردون التحية بالتلويح لنا هم أيضاً، وكان ذلك رائعاً! كان هؤلاء المتخلفون يقفون بالبيجامات في منتصف النهار وكأنهم استيقظوا لتوهم من النوم!

وظللنا نغني ونحن في الطريق، كان جميع من في العربات يغنون، الضباط والجنود، الجميع، وكان ذلك رائعاً!

ورأينا طفلين صغيرين واقفين في وسط الصحراء، فألقينا إليهما ببعض الحلوى التي كانت مع المراسل بابز وكرستوفر.

وعندما حل الظلام عسكرنا في الصحراء، وكنتُ في أول مجموعة للمراقبة والحماية، مع كرستوفر والشاذ رودي، ورأينا عبر المناظير الليلية عدداً كبيراً من المدنيين، ربما أكثر من مئتين، وهم يمشون في الظلام في الصحراء، ويحملون حقائبهم كمن يفر من مكان ما بسبب هذه الحرب المتناكة. والشيء الغريب أن أغلبنا من لم يستطع النوم في تلك الليلة، وبدأنا نشك في أنهم وضعوا لنا شيئاً يمنعنا من النوم في تلك البيتزا التي أحضرها لنا الهنود المتناكين!

وفي الصباح ازدادت أعداد المدنيين الفارين أكثر، وكانوا يمرون من أمام عربات الفصيل، وتحدث بعضهم إلى المترجم الذي كان معنا، والذي قال إنهم هاربون من البصرة، وسعداء جداً بسبب تحريرهم من قبل أمريكا التي سوف تحميهم وتحل مشاكلهم، وإنهم رفضوا الانضمام إلى الميليشيات العراقية لأن أياً منهم لا يريد أن يحارب أمريكا. وفجأة صاح جارزا وهو يشير إلى حزام خصر أحدهم: هذا حزام عسكري! ولما نزعنا عنه الحزام، وشققناه نصفين، وجدنا بداخل البطانة أوراقاً عربية، قال المترجم إنها تثبت أن هذا الرجل من الحرس الجمهوري. وضربه المترجم على رأسه، وطرحه أرضاً، وانهال عليه بالبصق والسباب وهو يضع حذاءه على وجهه.

وخاف باقي العراقيين، الذين أجبرناهم على الجلوس على الرمال، وفجأة صاحوا جميعاً وهم يخرجون أوراقاً من جيوبهم. ولما فحصناها، وجدنا أنها من أوراق الدعاية النفسية التي كانت

طائراتنا تلقيها عليهم في مناسبات مختلفة، وكانت تعدهم بالأمان لكل من يسلم نفسه لنا من الجيش العراقي. وترجم المترجم كلام أحدهم الذي كان يصيح منفعلاً ويقول: رجال صدام يقتلوننا، إنهم على بعد ثلاثين كيلو متراً من هنا، إنهم يعدمون كل من يرفض الانضمام إليهم، إنهم الفدائيون، المجموعة التي ما زالت مخلصة لصدام!

ونظرت إلى أقدامهم، ووجدت أن أكثرهم بالصنادل والشباشب، وأقدامهم متقرحة ومتقيحة ودامية من المشي الطويل في الصحراء، وعرفت أنهم لن يستطيعوا المواصلة على هذا النحو مطلقاً.

وحاول بعضهم إعطاءنا سجائر وعلكات، ولكننا لم نلمس أياً من حاجيات الحاج القذرة، لأنهم كانوا يمدون لنا أياديهم القذرة التي غالباً قد مسحوا بها مؤخراتهم للتو!

وأخرج أحدهم صورة عائلية له ولزوجته بالحجاب ولطفليه الصغيرين ولوح لنا بها، فأمسك بها ويل وقال: نعم، زوجتك هذه سوف أغرس زبي فيها وهي بالحجاب، ثم سأقذف منيّ على وجهها في أي يوم تحب يا صاحبي! وكان الرجل العراقي يبتسم في سعادة.

وعثرنا ونحن نفتشهم على صورة لأحدهم وهو يحتضن رجلاً عراقياً آخر شاذاً مثله، فصحنا مخاطبين رودي الخول: رودي، ها قد عثرنا على حاج عراقي شاذ مثلك، هل هو عضو

في النقابة معك؟! وصوره ترومبلي بكاميرة الفيديو، بمفرده أولاً، ثم تحلقنا حوله جميعاً وأخذ كل منا يقبله، وترومبلي يصور.

ثم جاءت التعليمات باللاسلكي من الأب الروحي بأننا لا نستطيع أن نتأخر عن مهمتنا، وأننا لا يمكن أن نعمل كجلساء أطفال لهؤلاء العراقيين، وصدرت الأوامر بإجبارهم على الرجوع من حيث أتوا. وتساءل راي: هل هو جاد في هذا؟! إلى أين نرسلهم؟! إلى حتفهم؟! إلى فرق الموت العراقية؟! وقال إنه بموجب المادة كذا والمادة كذا من اتفاقية جنيف نحن ملزمون بحماية ورعاية كل متناك يستسلم لنا. وقال بابز الصحفي إنه سوف يكتب هذا في تقاريره الصحفية. ورد النقيب براد على الجميع بأن الأوامر قد صدرت من القائد، ونحن هنا لسنا من أجل مناقشة الأوامر، ولكن من أجل تنفيذها. فعلق راي وقال إنه في أول مرة نتواصل فيها مع المدنيين العراقيين قد نكناهم! ورأيت المترجم المتناك أثناء ذلك وهو يأخذ أشياء من المدنيين: سجائر، ونقوداً، ونظارات شمسية، وأشياء أخرى. لكننا لم نهتم، وأجبرناهم في النهاية على الرجوع من حيث أتوا.

وعلمنا أثناء الطريق أن مهمتنا قد تغيرت، وأن الأب الروحي قد كلفنا عن طريق الراديو بمهمة أخرى مختلفة، وهي التوجه إلى مدينة الناصرية، لدعم فصيل قتالي هناك من مشاة البحرية، اسمه زولو-1400. وعندما استاء بعضنا، رد عليهم النقيب براد وقال: كيف تجرؤن على التشكيك في الخطة الاستراتيجية! نحن قوات المارينز، وقوات المارينز مهمتها هي

إطاعة الأوامر، ومهمتنا الآن هي عدم تنفيذ الأوامر الأصلية! وصاح جيتس قائلاً: إن الشعار الغير رسمي للمارينز هو: كن مرناً على الدوام، كن على استعداد دائماً لتغيير الخطة! ثم تمتم قائلاً: كان يجب عليّ ألا أصدق القاضي عندما قال لي بإن الانضمام للمارينز أفضل من تمضية باقي مدتي في السجن!

وعندما توقفنا للراحة في الليل، لم يستطع أغلبنا أن ينام في تلك الليلة أيضاً. ورحنا نتحدث عن الخراء، وعن التغوط، وكيفية معرفة شكل الخراء المثالي من مدى صلابته، وكيف أنه يجب ألا يكون صلباً جداً، ولا سائلاً جداً، شيئاً وسطاً بين الاثنين. وأضاف رودي الخول بأنه يجب أن يكون حاراً أيضاً، وأن يلسع خرم الطيز وهو يخرج، فقلنا له بإن ذلك هو خراء الشواذ من أمثاله!

وكان المراسل بابز متمدداً على الأرض بجوار كرستوفر، بينما كان رتل من الدبابات يمر بجوارنا، في اتجاه مدينة الناصرية. فقال كرستوفر للمراسل بابز بإنه إذا تمدد، بحيث يكون زبه على الأرض وفي اتجاه حركة الدبابات، فإنه سوف يحصل على نشوة رائعة وسوف يأتي في النهاية. وعندما سمعنا ذلك تمددنا جميعنا على الأرض، وأزبارنا في اتجاه حركة الدبابات، وكان أمراً رائعاً حقاً!

وصلنا إلى مشارف الناصرية في تلك الليلة، وانضممنا إلى فصيل زولو-1400، وكان هناك إطلاق نار كثيف علينا من بيوت على مشارف المدينة، وأصيب أحد أفراد زولو-1400

بالرصاص في معدته، ورأينا أمعاءه تخرج من بطنه، وشاركنا زولو-1400 في إطلاق النار من رشاشاتنا على تلك المباني، لكننا لم نستطع أن نرى أي شيء، باستثناء رأس حمار طارت في الهواء. وظل الإرهابيون يطلقون النار علينا طوال الليل.

وفوجئنا بحضور الأب الروحي شخصياً، ووقف معنا خارج المدينة التي تطلق النار علينا، وقال إنه يتوقع وقوع إصابات، حتى بعد دخولنا للمدينة، وقال إن فصيلة مارينز أخرى سوف تدخل المدينة من الشمال، وسندخل نحن من الجنوب وسوف نضع أصابعنا في مؤخرات العراقيين، وإنه قد تلقى اتصالاً خاصاً من الجنرال ماتيس نفسه، الذي يدعمنا بكل قوته من أجل أن ندمر العدو وأي شيء يقف في طريقنا أو يحاول إيقافنا.

وتساءل جيف الشيوعي المتناك الذي يكره الضباط: لماذا لم يقل الأب الروحي أي شيء هذه المرة بخصوص الشوارب المهووس بها؟!

أنا شخصياً لم يكن لدي أي شيء أفعله سوى المراقبة من على حدود الفصيلة، أنا وجيف ودوج. كنا نتكلم ونحن نخشى أن تفرغ بطاريات النظارات الليلية التي اشتريناها من أموالنا الخاصة. قال جيف: إن 50% من الأمريكيين بدناء، بدناء بشكل مخيف، كيف يمكن برأيكما أن يصبح الإنسان سميناً؟! تجلس هناك على الأريكة طوال اليوم، ولا تفعل شيئاً سوى التهام الطعام ومشاهدة التلفزيون، هناك رعاع بيض بدناء، وفقراء سود

ومكسيكيون بدناء، الجميع بدناء بشكل فظيع، إن الرجل الأبيض قد أوجد نظاماً للمعيشة أدى إلى أن يصبح الفقراء المتناكين أنفسهم بدناء!

فقال دوج: منذ عامين رفضت استلام شهادتي الجامعية، لأنني رفضت أن آخذ قطعة من الورق من الرجل الأبيض تؤكد له بأنني مؤهل للخدمة في عالمه المتناك وبأنني خاضع لشروطه المتناكة، ثم انضممت للمارينز بعد ذلك، كما تعرفون يا جماعة: إن لم تستطع أن تهزمهم، فانضم لهم!

قال جيف: إن المسألة كما أراها هي أن الولايات المتحدة حين تذهب إلى كل تلك الدول المتناكة: العراق، وأفغانستان، وأفريقيا، وأمريكا الجنوبية، فإنها تذهب إلى هناك لتنصيب الحكام الموالين لها، ولإنشاء البنية التحتية التي تخدم مصالحها، ماكدونالدز، وستاربكس، وإم تي في، وبعدها تسلم كل هذا لأهل البلد، على أمل أن يتوقف أولاد الشرموطة هؤلاء عن قتل بعضهم البعض، وعن قتل الجميع. نحن هنا لكي نضع ماكدونالدز في كل ركن حتى لو اضطررنا لتفجير كل تلك الأركان من أجل ماكدونالدز المتناك!

وكان بجوارنا بعض الضباط والرقباء وهم يراجعون إحدى الخرائط للعراق، وكانوا يشيرون إلى بعض الأماكن على الخريطة ويقولون إنهم سمعوا من إذاعة البي بي سي المتناكة أن تفجيراً قد حدث لقواتنا هنا، وآخر هناك، وكمين للإرهابيين أدى

إلى مقتل كذا جندي هنا، واغتصاب جندية أمريكية هناك. كما قلت لك، نحن لا نعرف أي شيء عما يجري هنا، وهم لا يخبروننا بالأخبار السيئة حتى لا تؤثر على معنوياتنا، نعرف فقط الأخبار عندما نفتح الراديو على البي بي سي المتناكة!

وكان رودي الخول قد شعر بالملل فأتى لتسليتنا، وسمع ما يقوله الضباط، فقال: إن المجندات لسن هن فقط من سيتم اغتصابهن إن وقعن في أيدي العدو! فصحت أنا فيه: هذا حلم من أحلامك يا خول!

وبدأت طائرات الهليكوبتر تحلق فوقنا وتقصف المدينة، وظلت على هذا النحو طيلة الليل. وسمعنا النقيب براد وهو يقول: إن من أوقفوا تقدمنا، وأوقفوا تقدم فصيلة المارينز في الشمال، ليسوا سوى فدائيين يرتدون بيجامات سوداء، استطاع هؤلاء المتناكين إيقاف ثلاث كتائب مارينز! فقال الملازم مايك: إن أصحاب البيجامات السود كانوا جيدين أيضاً في أفغانستان، علينا أن نحترم البيجامات! ثم سأل الملازم مايك عن عدد سكان مدينة الناصرية، فقال له النقيب براد إنه سمع أن من بقي في المدينة الآن في حدود النصف مليون، فقال له الرقيب هولسي: إذن علينا أن نشطب قليلاً من هذا العدد!

وكان المراسل بابز في تلك الأثناء يطوف في كل الأرجاء، ويسأل الجميع عن صورة صديقته، والتي كان قد أراها لكرستوفر في البداية، ثم ضاعت بعد ذلك. كان كل من يسأله بابز

يقول له: كانت معي ثم أعطيتها لليون، أو: كانت معي ثم أخذها دون، وهكذا. وعندما جاء إلينا وسألنا عن الصورة، قلت له بإنه قد أخطأ بالسماح لهؤلاء الأشخاص المرضى برؤية صورة فتاته، وإنه ولابد أن كل أفراد الفصيلتين الآن قد استمنوا عليها!

وفي آخر الليل، عرفنا أن الأب الروحي قد أصدر تعليماته بوجوب القبض فوراً على أي شخص في الفرقة الثالثة كلها لديه شارب، وعلمنا أن سر حساسيته المفرطة من الشوارب أنه كان قد علم بأن الجيش العراقي كان في البداية، وقبل غزونا للبلاد، يجهز خطة لزرع جواسيسه داخل قواتنا، كجزء من الخطة الأساسية لإيقاع الفوضى داخل صفوفنا، ولذلك فإن أي جندي مشاة بشارب يمكن أن يكون جاسوساً عراقياً مزروعاً بداخلنا، ولهذا السبب باتت الشوارب ممنوعة بأمر من الأب الروحي، وأي صاحب شارب في قوات المارينز يجب اعتقاله فوراً.

وسمعنا بعد ذلك النقيب براد وهو يقول للملازم مايك: يجب علينا أن لا نسمح لغباء القيادة عندنا بأن تؤثر كثيراً على معنويات الفصيلة.

واستمرت الطائرات في قصف المدينة حتى الصباح، ولم نعد نسمع أية طلقات من جانب العدو. وفي الصباح دخلنا المدينة التي كانت تحترق، ومرت مركباتنا ومدرعاتنا عبر المباني المهدمة والمحترقة، وكانت عربات الهمفي تسير في برك من الدماء في الشوارع، ورأينا عدة أشخاص متفحمون يجلسون داخل سياراتهم

المتفحمة، وكان هناك عدد من جنود المارينز موتى على قارعة الطرق، غالباً من الفصيلة التي اقتحمت المدينة من الشمال في وقت مبكر، واستمرت طائرات الهليكوبتر في قصف بعض المباني التي كانت أمامنا ونحن نتحرك.

وكان الجندي المسؤول عن الاتصال اللاسلكي بنا من القيادة اسمه باتيستا، وعرفنا أنه لم يكن قد حصل على المواطنة الأمريكية بعد، وكان لا يحسن الحديث بالإنجليزية، ولم نكن نفهم منه شيئاً، ولكن كان واضحاً من صوته أنه سعيد للغاية باحتراق المدينة وبما يحصل، وكان كلما زاد حماسه وهو يتكلم عبر اللاسلكي نسى الإنجليزية تماماً وتحدث فقط بالإسبانية، التي صحح لنا مارلو المعلومات بخصوصها، فقال إن ابن الشرموطة باتيستا هو من البرازيل، وهم هناك يتحدثون بالبرتغالية، لا بالإسبانية المتناكة، فقلنا له أن يخبر ابن عمه المتناك باتيستا بأن يتحدث بعد ذلك بالإنجليزية المتناكة حين يتواصل معنا عبر اللاسلكي لأنه قد انضم لقوات المارينز للولايات المتحدة الأمريكية المتناكة.

وأخذ ترومبلي يصور بكاميراته كل تلك الفوضى والدمار والقتلى والحرائق في المدينة، وقلت له إن السي إن إن بالتأكيد سوف تشتري منه هذه الدراما الجيدة، وكنا نصيح فرحاً كلما أطلقت هليكوبتر صاروخاً على أحد المباني ونشعر بنشوة عارمة.

ثم جاءت الأوامر بالتوقف في أحد الأزقة بالمدينة، وكنا مكشوفين تماماً للعدو بهذه الطريقة، فإذا أحب أن يقضي علينا استطاع بمنتهى السهولة، لأننا كنا في موقف مثالي لأي كمين للعدو. وتوتر الرجال نتيجة لذلك، وأفرغ الرقيب هولسي خزانة رشاشه في إحدى السيارات التي كانت متوقفة في أحد الأركان، ولما سأله الملازم مايك: لماذا تطلق النار على سيارة مدنية خالية؟! أجاب: لأحرم العدو من استعمال وسيلة انتقال.

ثم صدرت الأوامر أخيراً بالتحرك وإخلاء المدينة، وكان فلتشر يتذمر من أنه حتى الآن لم تأته الفرصة لكي يطلق النار على أحد. كان فلتشر يشتاق لإطلاق النار على أي إنسان، بنفس درجة اشتياقي أنا للفرج التايلندي، واشتياق رودي الخول للزب العراقي في مؤخرته! كان الأوامر هي الاندفاع نحو الشمال حتى نصل إلى نقطة معينة في المنطقة ما بين نهري دجلة والفرات، مهد الحضارة الإنسانية في هذه المنطقة، ومن المؤكد للجميع أننا ونحن في اتجاهنا إلى هناك سوف نري أولاد الشرموطة هؤلاء الحضارة الإنسانية الحقيقية! وعلمنا أننا سنكون بدون دعم جوي، وقالوا لنا إن عاصفة شديدة سوف تأتي من الشمال أيضاً، وبدا من الأمر وكأننا سنكون طعماً للأعداء بهذه الطريقة.

ورأينا قتلى مدنيين على الطريق، وقال أحدهم إن مدرعات فصيلة المارينز التي اقتحمت الناصرية من الشمال مرت على هذا الطريق ليلة البارحة. كنا نرى جثثاً متفحمة في سيارات متفحمة، وكانت هناك تلك الشابة التي تحتضن رضيعاً وجثتيهما

متفحمتين، وسارع ترومبلي بتصوير كل ذلك وقال إن وسائل الإعلام الحرة تحب مثل تلك المشاهد المتناكة وتدفع فيها أكثر، كما راح يصور تلك الطفلة الميتة والغارقة في دمائها والتي كانت مفرومة الساقين تماماً وكأن دبابة مرت عليهما، وعند ذلك أصدر النقيب براد أوامره لترومبلي بإغلاق الكاميرا.

وانفصلنا عن فصيل زولو-1400، وعن بقية القوات المشتركة، وتحركنا لوحدنا في طرق صحراوية وعرة في أرض العدو. واكتشفنا أثناء الطريق أن بطاريات النظارات الليلية قد فرغت، فتكلم النقيب براد عبر اللاسلكي طالباً تزويدنا ببطاريات جديدة، وتأخرت الإجابة كثيراً، ثم جاءت الأوامر أخيراً بالحفاظ على مواردنا التي معنا واستخدامها على النحو الأكفأ كما علمونا في تدريبات المارينز. وأقسم إنهم لم يعلمونا أي خراء من هذا أثناء التدريبات.

وفي أثناء التحرك، رأينا أسرة كاملة مقتولة في الصحراء، فتوقفت المركبات، وترجلنا لكي نستكشف الأمر، وأثناء ذلك، راح المتناك كولبرت يتبول على شوال من الأرز كان بصحبة العائلة، فصاح فيه الملازم مايك: يا غبي، كان يمكن أن نأخذ نحن هذا الأرز لنا! فرد كولبرت مستغرباً: ناخذ أرز الحاج؟!، وقال فلتشر مازحاً: هل أطلق النار على كولبرت؟! فرد الملازم مايك: لا، لا تضيّع الرصاصة هباءً! ثم ركبنا عرباتنا واستأنفنا السير في الطريق، ورحنا نغني أثناء ذلك.

وتوقفنا فجأة بعد قليل، وقال الملازم مايك إنه يرى اثنين من الإرهابيين، هاربين من الناصرية على ما يبدو، ومع أحدهما آر بي جي. ولما توقفت العربات، طلب النقيب براد الأذن من القيادة بالتعامل مع الإرهابيين، ثم أمر فكتور القناص باستخدام بندقيته الإم-40 لإسقاط الهدفين، ورحنا نتفرج على عرض رائع للمهارة في القنص بينما فكتور يصيب الاثنين في رأسيهما بطلقتين فقط، بالرغم من أن الثاني حاول الفرار بعد أن رأى رأس زميله وهي تنفجر بجواره، كان ذلك منظراً رائعاً بحق! وسألنا فكتور عن شعوره بعد ذلك، فقال إنه يشعر بشعور جيد في الغالب، وراح فلتشر يواصل تذمره من جديد لأنه لم يطلق حتى الآن ولا طلقة واحدة، بالرغم من كل هؤلاء القتلى من العدو الذين رأيناهم.

وتحركات عرباتنا، ومررنا عبر بعض الحقول الخضراء المزروعة، واخترقنا تلك المزرعة التي كانت فيها فتيات جميلات يرتدين ملابس بألوان صاخبة ويعملن في الحقل، وقال كولبرت إنه لم يكن يظن أن نساء الحاج مثيرات هكذا، وإنه كان يظنهن كالجمال في قبحهن، ورفع حاج منهم وليداً صغيراً بيديه في الهواء وصاح بالإنجليزية: نحن نحبكم، نحبكم يا أمريكان! فرد عليه الرقيب هولسي: صوِّت إذن للجمهوريين!

وفجأة توقفنا، لأن الطريق انتهى، وظهرت أمامنا حقول ممتدة من الشعير. ونزل النقيب براد من عربته غاضباً، وخاطب باتيستا في اللاسلكي وقال له إننا قد ضللنا الطريق، فرد عليه بعد قليل باتيستا بإنجليزيته الغير مفهومة، وقال ما فهمنا منه بصعوبة

أنه كان علينا أن ننحرف يميناً منذ نصف ساعة، وقد انحرفنا يساراً عن طريق الخطأ بدلاً من ذلك، فصاح فيه النقيب براد غاضباً وقال له إنه قد سأله عند مفترق الطرق، وإن باتيستا المتناك قد أصر على أن ننحرف إلى اليسار، بالرغم من أن النقيب براد قد راجع الخريطة التي على حجره، وقال لباتيستا ابن الشرموطة إن الخريطة تقول إنه يجب أن ننحرف إلى اليمين، لكن باتيستا أصر على موقفه وقال إنه يفهم جيداً ما يفعل وإن علينا العودة والانحرف إلى اليمين المتناك!

ثم التفت إلينا النقيب براد، وأعلن بكل هدوء أننا قد انعطفنا بالخطأ منذ نصف ساعة إلى اليسار، وإنه علينا أن نعود أدراجنا لكي نسير في الطريق الصحيح هذه المرة. وأثناء عودتنا، رأينا عدداً كبيراً من المدنيين من الرجال والنساء والأطفال يفرون من مدينة الناصرية على ما يبدو، فطلبنا الإذن بالتوقف لكي نستجوب بعضهم ونفهم ما يحدث.

تحدث المترجم مع بعض الرجال، ثم قال إنهم ممتنون جداً لنا لأننا حررناهم من صدام، وإنهم يتطلعون إلى العمل معنا دائماً يداً بيد، فصاح فيه الملازم مايك: أنت تكذب، نحن نعرف بأنك تكذب، وهم يعرفون بأنك تكذب! وكان الرجال العراقيون يشيرون بأصابعهم على أعناقهم علامة الذبح، ففهمنا أنهم يقولون عنا إننا قتلة. قال المترجم المتناك: عندما تم تعييني من قبل القيادة، أخبروني بأن أضع بعض الكلام المعسول أثناء الترجمة من أجل رفع الروح المعنوية للفصيلة، لكنكم على حق، هؤلاء

الناس يقولون بإنكم سيئون، وإنكم قادمون من أجل أن تقتلوهم، وإنهم يكرهونكم ويكرهون أمريكا يا رجل، وإذا أردتم نصيحتي فأنا أرى أن تستدعوا بعض طائرات الكوبرا لكي تبيدهم جميعاً وتنيكهم! فرد عليه النقيب براد وقال: ليس هناك دعم جوي لنا، اتركوهم لحالهم، فقال المترجم المتناك: سوف تنيكهم عاصفة الشمال قريباً وهم على الطريق! وتركه النقيب براد والملازم مايك وابتعدا عنه، وسمعت الملازم مايك يسأل النقيب براد: لماذا أحضروا لنا هذا المترجم المتناك؟! فقال النقيب براد: سمعت أنه يعمل بصورة مباشرة مع الجنرال ماتيس نفسه وينفذ تعليماته! وأضاف الرقيب هولسي: وأنا أخبروني بأنه كان يعمل سابقاً لدى المخابرات المركزية!

وقال لنا النقيب براد، قبل أن نكمل طريقنا، إن الأوامر قد تغيرت من جديد، وإن الأوامر الجديدة الآن هي أن نعود إلى مدينة الناصرية مجدداً، وقال إن فصيلة المارينز ألفا قد وصلت إلى هناك بالفعل، ونحن مطالبون بالانضمام إليها، وقال إننا لن نتلقى أي دعم جوي لأن عاصفة الشمال سوف تمنع طائراتنا عن التحليق. وقال أيضاً إننا آخر فصيلة مارينز سوف تدخل المدينة اليوم، وإن الأوامر هي ألا نتوقف مطلقاً حتى نصل إلى هناك، وألا نسمح لأي شيء أن يعيق مسيرتنا. وقال جيتس مرة أخرى: إن الشعار الغير رسمي للمارينز هو: كن مرناً على الدوام، كن على استعداد دائماً لتغيير الخطة! ثم تمتم مرة أخرى قائلاً: كان يجب عليّ ألا أصدق القاضي عندما قال لي بإن الانضمام للمارينز أفضل من تمضية باقي مدتي في السجن!

وفي الطريق إلى المدينة، رحنا نغني جميعاً، جنوداً وضباطاً، وكان أمراً رائعاً بحق!

وقال لنا باتيستا المتناك في اللاسلكي بإنجليزيته المتناكة إن فصيلة ألفا قد وقع بها إصابات عديدة في صفوفهم نتيجة إطلاق الإرهابيين للنار عليهم، وإنهم قد وقعوا هناك في كمين، وتم فتح النيران عليهم من جهتين متقابلتين كما فهمنا. فجهزنا جميعاً رشاشاتنا ومدافعنا الآلية وبتنا مستعدين.

ودخلنا الناصرية من جهة الشمال في هذه المرة، ولم نشاهد أي شيء في الشوارع المقفرة سوى سيارات محترقة، ومنازل مهدمة، وحماراً يجري في الشارع. وفجأة بدأ إطلاق النار علينا من مبنى حكومي خال ومحترق، وكان إطلاق النار كثيفاً ومن رشاشات آلية، وأثناء ذلك سمعنا ويل يقول: إن اليوم هو عيد ميلادي! فقلنا له جميعاً: عيد ميلاد سعيد يا ويل، من الرائع حقاً أن تتلقى رصاصة متناكة في وجهك في يوم عيد ميلادك!

وبدأنا نرى الإرهابيين بالجلاليب وهم يطلقون علينا النيران من خلف السيارات المحترقة، ففتحنا عليهم نيراننا، وألقينا عليهم القنابل، حتى صار الأمر أشبه بالجحيم، فقد فتحنا كمية رهيبة من النيران على كل ما صادفناه أمامنا، وعلى شرفات المباني أيضاً، وعلى كل شيء، وكانت عربات الهمفي لا تتوقف أبداً، حتى أنها كانت تتسلق على السيارات المحترقة التي وضعها الإرهابيون في منتصف الطرق لكي يسدوا بها الطريق علينا، وارتفع غبار كثيف

في كل مكان حتى بتنا لا نرى أمامنا، وسمعنا فلتشر يصيح فرحاً ويقول: أخيراً أصبت أحدهم بالبندقية، لقد قتلت أول حاج للتو، لقد أطلقت على زبه وعلى ركبتيه!

ثم نجحنا أخيراً في الخروج من منطقة الغبار إلى خارج المدينة، ودرنا حولها، وكان الجميع بخير ولم تحدث أية إصابات بيننا، وكان فلتشر سعيداً للغاية لأنه قتل أخيراً أول شخص في حياته.

وأتتنا الأوامر عبر اللاسلكي بأن نعسكر خارج المدينة على بعد عشرين كيلومتراً من محيطها. ولما توقفنا رحنا نتأكد من سلامة المركبات، ونهنئ بعضنا البعض على هذا الانتصار، وجاءتنا الأخبار بأن أحداً لم يمت في فصيلة ألفا، بل كانت كلها أصابات غير قاتلة في الأذرع والأرجل، ورحنا جميعاً نضحك ونحن نصف لبعضنا البعض كيف كانت مناظر الحاج مضحكة وهم يتلقون رصاصاتنا، فصاح فينا النقيب براد قائلاً: لا يوجد ما يُضحك في الأمر، لقد كان حظنا جيداً للغاية، وكان يمكن أن ُنقتل جميعاً! لكننا استأنفنا الضحك بعد ذلك، وكان شعورنا رائعاً.

وظهر الرقيب هولسي وهو يمضغ علكة متناكة وصاح: تفتيش القيافة يا فصيلة! وراح يفتش على هندام ملابسنا، وحلق شواربنا وذقوننا، وقال له دوج: تفتيش على القيافة بعد ما تعرضنا له منذ قليل، لقد كدنا أن نلقى حتفنا جميعاً! فرد الرقيب هولسي المتناك: قد يكون هناك بعض الأخطاء التي نتسامح

بشأنها مثل نقص البطاريات، أو حرارة الشمس القائظة، أو عدم وجود أي فروج للنيك هنا، ولكن الشيء الذي سوف تحاسبون عليه دائماً هو معيار القيافة، والأب الروحي قد أصدر أوامره بالأمس بالقبض على أي مخالف يربي شاربه، وإنه من الأفضل للجميع ألا نتهاون في هذا الأمر. وعندما مشى، بصقنا جميعاً خلفه.

وقمنا بملئ إطارات المركبات التي كانت تحتاج إلى الهواء، وإصلاح الثقوب التي أحدثتها رصاصات الحاج فيها، وفحص فلاتر الهواء الخاصة بالعربات. كنا من المهارة بحيث نستطيع إصلاح أية مشاكل؛ من أول مركباتنا الكسيرة، حتى القلوب الكسيرة ذاتها! وتأكد النقيب براد من أن كل أفراد الفصيلة قد تناولوا جميعاً وجباتهم، وراح يتأكد بعد ذلك من أننا جميعاً قد تبولنا، وتبرزنا، وقال إن أمامنا يوم طويل على الطريق. وأتى الرقيب هولسي المتناك وأثنى على قيافة الفصيلة، وعلى أننا قد حلقنا شواربنا، وقال له النقيب براد: إن كل شيء جيد، وكان سيكون الحال أفضل من ذلك لو كرست مجهوداتكم من أجل توفير مواد التشحيم التي تحتاجها الأسلحة، وإيجاد البطاريات التي تحتاجها الفصيلة! ولم يرد عليه الرقيب هولسي، وراح يمشي بيننا ويسأل كل واحد فينا: هل أنت مستعد الآن للقتل يا فلان؟!

واشتكى دوج من أن مدفعه الرشاش عالق بعد المواجهة مع الحاج، وراح النقيب براد يساعده في إصلاح المدفع الرشاش

وهو يقول إننا لا نتلقى أي دعم لوجستي نحن في حاجة إليه!

ووجدنا معنا بعض زجاجات عربية الصنع من زيت الطعام، ورحنا نستخدم زيت طعام الحاج في التشحيم، وقال جيف إن ذلك شيء يبعث على الحزن، ويشبه استخدام زيت الطعام في المضاجعة الخلفية لخرم طيز فتاة لم تمارس الجنس الشرجي من قبل! وسمعه النقيب براد، وقال له إنه يجب أن نستخدم أي شيء في حوزتنا من أجل القيام بالمهمة، وإذا كان أحدنا في حاجة ماسة إلى مواد التشحيم الأصلية، فعليه أن ينضم للجيش، أما نحن المارينز، فقادرون على جعل أي شيء موجود صالح للمهمة.

وقال كرستوفر، الذي رسم زهرة حمراء متفتحة على خوذته المتناكة، إن الوحيد الذي يشعر بالسعادة الآن هو الأب الروحي، الذي ولا بد أنه يأكل الآن الدجاج المحمر، ويتباهى بانتصارنا على الحاج، وإنه سوف يقودنا إلى حتفنا بأوامره المتناكة، لأن هذا هو المآل الحتمي للأمور إذا استمرت على هذا النحو، وإننا قد خضنا للتو تحد قاتل، دون وجود عناصر مساندة من الدبابات، ولا من الدعم الجوي، ولأجل ماذا؟! لأجل حفنة من الإرهابيين الحفاة المتناكين! فرددت أنا عليه وقلت: نحن قوات النخبة في المارينز، نحن سريعون، وقتلة، ومميتون، والأب الروحي يعلم ذلك، وهو يثق في أننا سوف نؤدي المهمة عندما يرسلنا إلى الخراء الذي يرسلنا إليه، وبأننا سوف نبيد الأعداء ونبقى على القمة، لأننا ببساطة الأفضل! وقال مات: هذا صحيح، ولكن ذلك لا يجعل من تلك الأوامر المتناكة أوامراً صحيحة مع ذلك!

وأتتنا الأوامر عبر اللاسلكي بأن نتحرك وأن نمر على عدة بلدات متتالية. ومررنا أولاً من إحدى البلدات الزراعية، وكان أغلبنا يشعر بالرعب من رؤية شبان تلك البلدة وهم يلوحون لنا، وقلنا: ربما كان بعضهم ضمن الإرهابيين الذين كانوا يطلقون النار علينا في الناصرية! ورأينا خارج البلدة مدرعة أمريكية محترقة، ضربوها غالباً بالآر بي جي. وقال كرستوفر إنه يعرف أحدهم في الفصيلة السابعة في المارينز، والذي سبق له أن قام بتنظيف مركبة همفي ضربها الحاج بالآر بي جي، وقال إن صديقه ذاك وجد أصابع سائق العربة المبتورة ملتصقة بعجلة القيادة، وجزءًا آخر من أصابعه في غرفة المحرك.

ومررنا من أمام مجموعة كبيرة من الكلاب الضالة، التي كانت تنهش في إحدى جثث الحاج على الطريق، وقال فلتشر إنه يريد إطلاق النار على بعضها، فنهره الرقيب هولسي وقال له إن المارينز لا يقتلون الكلاب أبداً، إنهم فقط يطلقون النار على البشر. فرد فلتشر وقال: أنا لا أحب الكلاب المتناكة، أنا أحب القطط!

ثم توقفنا عند القرية التالية، وكانت قرية صغيرة زراعية، واستطلعناها من بعيد بالنظارات المكبرة، وكان الأهالي مسالمين، ورأينا الأطفال وهم يلعبون أمام البيوت، والنساء وهن يخبزن الخبز العربي في أفران خارج الدور تشبه خلايا النحل الكبيرة. وفجأة وصلت عربات من كتيبة الاستطلاع الأولى بالجيش، وانطلق أفرادها إلى القرية، وراحوا يطلقون نيرانهم على

المدنيين. ما هذا بحق الجحيم؟! نادينا عليهم من بعيد وقلنا لهم إنه ليست هناك أوامر بإطلاق النار على هؤلاء الناس! وقلنا لهم إنهم نساء وأطفال! أوقفوا النار، أوقفوا النار! وجن البعض من أفراد كتيبتنا من رؤية هذه الفوضى، ومن سماع دوي الرصاص، فأطلقوا هم أيضاً النار على القرية، دون أوامر! وراح النقيب براد، والملازم مايك، يصرخان في أفراد الفصيلة من ناحية، وفي أفراد كتيبة الاستطلاع الأولى من ناحية أخرى: أوقفوا النيران، أوقفوا النيران، لا تشتبكوا، إنهم مجرد أطفال ونساء، لا تشتبكوا!

ورأينا قائد كتيبة الاستطلاع الأولى، العقيد آرنولد، وهو يطلق النيران بكثافة من رشاشه الآلي وهو يرتدي قبعة الكاوبوي المتناكة. وصاح فيه النقيب براد: سيدي، أنتم تطلقون النار على القرية الخطأ، لقد استطلعنا القرية ولا توجد أية أوامر بإطلاق النار! إنهم نساء وأطفال يا سيدي! لكن العقيد آرنولد المتناك لم يلتفت حتى للملازم براد، ودخل مدرعته وأخرج منها مدفع هاون وراح يطلق القنابل على بيوت القرية! ثم فوجئنا بصواريخ جو-أرض تدمر ما تبقى من مباني القرية، وسمعنا بعد ذلك صوت الطائرات! كان جنوناً بحق! أبيدت القرية تماماً، وتفحمت البيوت!

لم يكن هناك ما يمكن عمله. فتحركت الفصيلة مبتعدة عن تلك القرية المشئومة. وتوقفنا في الصحراء بعد عدة كيلومترات من أجل إبلاغ القيادة بما فعلته كتيبة الاستطلاع الأولى بالجيش، لكننا لم نستطع الاتصال بباتيستا المتناك وكانت الاتصالات

مقطوعة لبعض الوقت. وأثناء ذلك راح المراسل بابز يسأل كل أفراد الفصيلة من جديد: هل أخذت صورة فتاتي؟! هل معك صورة فتاتي؟! ورحنا جميعاً نقول له: لا، لا نظن ذلك! وراح يصف لنا شكل فتاته في الصورة: شقراء، شعرها منسدل على وجهها، عيناه بنيتان. وسأله مات: هل هي التي لديها ندبة كبيرة في وجهها؟! فقال له بابز: لا! ورحنا نضحك جميعاً.

وكان النقيب براد قد فرد الخريطة، وراح يشير لنا بمحطتنا التالية، وقال إننا سوف نمر من بلدة اسمها الرفاعي، على بعد خمسة كيلومترات من هنا، ويبلغ عدد سكانها 75 ألف نسمة، ومهمتنا حالياً هي اجتياز هذه البلدة. سألناه: وماذا بعد ذلك؟! فأجاب: نجتاز البلدة التي بعدها، آملين أن يُبقي الحاج رأسه منخفضاً ولا يسبب لنا أية مشاكل. وقال له الملازم مايك: سيدي، القرية التي أبادتها كتيبة الاستطلاع الأولى لم يكن بها أي إرهابيين، وكتيبة الاستطلاع الأولى قد تصرفت على نحو غير منضبط وأبادت الجميع! فرد عليه النقيب براد: نحن مسؤولون فقط عن فصيلتنا، وما فعله أولاد الشرموطة من كتيبة الاستطلاع الأولى ليس من شأننا! فقال له الملازم مايك: من الصعب يا سيدي أن نغض النظر بعيداً عن هذا الخراء! فقال له النقيب براد: لا يمكننا أن نقلق على باقي العالم، وأنتم قد رأيتم كيف أنني حاولت إيقاف إطلاق النار في وسط كل هذا الهراء، ما حدث قد حدث، لا يمكننا العيش في الماضي، نحتاج الآن إلى أن ننسى الأمر لأن أمامنا الكثير من الخراء في انتظارنا!

وتحركت الفصيلة، ورحنا جميعاً نغني على الطريق.

وفجأة صاح فلتشر: هناك حاج بالبيجاما، هل أطلق النار عليه؟! فسأله النقيب براد: هل ترى سلاحاً في حوزته؟! فنظر فلتشر من منظار البندقية وقال: نعم هناك سلاح معه! فقال له النقيب براد: في هذه الحالة يتوجب عليك إطلاق النار. وأطلق فتلشر عدة طلقات، ولكن النقيب براد قال له أن يخفض يده قليلاً لأنه يطلق فوق رأس الحاج، وفعل فلتشر ذلك، ورأينا من بعيد الحاج وهو يسقط قتيلاً، وراح فلتشر يصيح سعيداً لأنه قتل حاجاً آخر.

ولحقت بنا مركبات كتيبة الاستطلاع الأولى بالجيش ونحن على مشارف بلدة الرفاعي، وأجبرونا على التوقف، وترجل العقيد آرنولد من مدرعته، وقال لنا بإن هناك إرهابيون في البلدة، وإنه يطلب منا التوقف لأنه سيطلب دعماً جوياً من الطائرات. حاول النقيب براد أن يثنيه عن فعله، وقال له إنه لا توجد أية معلومات عن وجود إرهابيين بتلك البلدة، وإن العقيد آرنولد لديه معلومات مغلوطة، مثل المعلومات المغلوطة التي كانت لديه بخصوص القرية التي أبادها منذ قليل، والتي لم يكن بها أية إرهابيين، وإنه يستخدم بروتوكولاً خاطئاً. وكنت أقف بجوار الملازم مايك، الذي همس لنا قائلاً إنه شاهد مثل هذا الأمر عدة مرات من قبل في أفغانستان، وإن بعض الضباط يتعمدون الاشتباك دون لزوم من أجل الحصول على الميداليات!

وفشلت كل جهود النقيب براد في ثني العقيد آرنولد عن مسعاه بتدمير البلدة، حتى أن العقيد آرنولد هدده بأنه سوف يسحب منه قيادة الفصيلة، ويعفيه من مهامه، لأنه أعلى منه رتبة. ورغم ذلك لم يكف النقيب براد عن الاعتراض إلا حين سمع العقيد آرنولد يعطي عبر اللاسلكي إحداثيات البلدة للقوات الجوية لتدميرها بالصواريخ، وعرف عندها أن العقيد آرنولد يعطي الإحداثيات الخطأ للقوات الجوية. عند ذلك انسحب النقيب براد، وهمس لنا: إن ما أنقذ سكان هذه البلدة من الإبادة هو عدم الكفاءة!

وتحركت مركباتنا بعيداً عن البلدة، وبعيداً عن كتيبة الاستطلاع الأولى بالجيش، والتي كانت في انتظار تنفيذ الضربة الجوية التي لم تحدث أبداً، لأن النقيب براد قد أبلغ القيادة في اللاسلكي، الذي عاد الاتصال به مجدداً، بما يريد العقيد آرنولد أن يفعله بالبلدة، وبما فعله من قبل بالقرية التي أبادها دون داع، وتأكد من وصول المعلومات بشأن ذلك إلى قيادة العمليات. وقال المراسل بابز: انظروا إلى مدى نسبية الأمور في هذا الموقف! من وجهة نظر العقيد آرنولد وكتيبة الاستطلاع الأولى بالجيش: العراق بلد خطير، في حين أنه من وجهة نظر فصيلتنا: العراق بلد آمن!

وعلمنا عبر الراديو أن القيادة سوف تجري تحقيقاً في الأمر، وأن التحقيق سوف يشمل أيضاً النقيب براد، وربما أدى إلى عزله عن قيادة الفصيل، لأنه حاول إيقاف العقيد آرنولد، هذا إذا ما ثبت أن البلدة كانت معادية فعلاً. وقلنا جميعاً إن الإنسان الوحيد الذي

لدينا به ثقة مطلقة في كل هذا الخراء في هذه البلاد المتناكة، هو النقيب براد، بينما يزداد، يوماً بعد يوم، افتقادنا للثقة في الخطة الاستراتيجية التي وضعتها القيادة. وضرب جيف مثلاً على ذلك بدخولنا مدينة الناصرية المعادية وضربنا بالنيران، ونحن فصيلة لا تملك إلا مركبات همفي مكشوفة، بينما كانت الدبابات تعسكر على بعد عدة أميال من المدينة! أليس من المفترض بديهياً أن يحدث العكس؟!

وتوقفنا في الطريق لما حل الليل علينا، وعسكرنا في الصحراء. وبينما نحن نتحقق من سلامة المركبات والأسلحة، انهمرت علينا نيران من الشمال، فاحتمينا جميعاً في المركبات، وراح النقيب براد يصرخ في اللاسلكي ويقول: إننا نتلقى نيراناً من الشمال، إنها نيران من جيشنا، إن إحدى الوحدات في جيشنا تطلق النار على موقعنا! وقال الرقيب هولسي: إنهم جنود الاحتياط المتناكين! كانت معجزة أن أحداً في الفصيلة لم يُقتل أو يصاب. وعندما رحنا نقيم الخسائر، وجدنا بعض المركبات قد أصيبت بالرصاص، وأننا قد فقدنا براميل الماء التي كانت بحوزتنا، فقد ثقبتها الرصاصات، وكنا مجبرين على السير وسط الصحراء بدون ماء متناك! وقال كرستوفر إنه يعتقد أنهم هناك في القيادة ما هم إلا مجرد شواذ متناكين!

وعندما تحركنا، وعلى بعد بضعة كيلومترات، وجدنا شاحنتين من شاحنات النقل في الجيش متعطلتين، وقد أصيبتا برصاص كتيبة الاحتياط المتناكة هما أيضاً. وعندما سألنا

السائقين عما بحوزتهما في الشاحنتين، قالا إنه: ماء، وطعام، وبنادق إم-16، وذخائر للبنادق، وصناديق من الألغام، و400 رطل من متفجرات السي فور، وخراء آخر من هذا القبيل. وجاءت الأوامر من القيادة بأن نأخذ السائقين معنا، وأن نترك الشاحنتين لتتولى كتيبة الاستطلاع الأولى، التي كانت خلفنا، مهمة تأمينهما.

وقبل أن نتحرك، أخذنا بعض البطاريات للنظارات الليلية من الشاحنتين، وبعض مواد التشحيم الأصلية، وبعض براميل الماء، وبعض الطعام، وكان ذلك أمراً رائعاً. وأكملنا سيرنا في الليل، لأنه جاءت التعليمات من القيادة بأن نستمر في التحرك ليلاً، وقالوا لنا إن الهدف القادم هو التوجه إلى مطار يبعد 60 كيلومتراً. وأثناء تحرك المركبات، صاح مات وهو واقف على المدفع: لقد سقطت مني خوذتي! فقلنا له: وماذا تريد منا أن نفعل؟! أن نقيم جنازة من أجلها!

ورحنا نغني في الظلام أثناء الطريق، وكان أمراً رائعاً! وقال ويل إنهم قد افتتحوا باراً للشواذ في بلدتهم في متشيجان، وإن الأهالي هناك يحطمونه في كل ليلة، وقال جيتس: إن فتح بارات للمثليين هي تجارة مربحة جداً الآن، لأن أعداد الشواذ في ازدياد كل يوم. وقال ترومبلي: عندما أعود إلى الوطن سوف أفتح باراً للشواذ، وسوف اسميه (الخرم الذهبي)، وسيكون على هيئة مبولة كبيرة جداً، وستكون هناك مباول فعلياً في أركان البار من الخارج، وستكون جدران البار كلها من الزجاج الشفاف، بحيث

يشعر الشاذ الذي يتناول مشروبه داخل البار بأن الناس في الخارج تتبول عليه فعلاً!

وعندما طلع النهار توقفنا قليلاً للراحة والنوم والأكل والتغوط. وراح ترومبلي يصور مؤخرات وأزبار الجميع بكاميرته وهم يتغوطون ويتبولون، فقلنا له إنه شاذ متناك. ثم تحركت عرباتنا، وقال لنا باتيستا في اللاسلكي إن الأب الروحي قد غيّر قواعد الاشتباك، وإن قواعد الاشتباك الجديدة هي: أطلقوا النار على أي عراقي يتواجد في محيط المطار، سواء أكان مسلحاً أم لا. فقال النقيب براد للملازم مايك: أنا لن أمرر هذا إلى أفراد الفصيلة، وسوف نظل على قواعد الاشتباك القديمة، لن نطلق النار إلا إذا كان العدو مسلحاً.

وحلقت فوقنا طائراتنا، في الاتجاه إلى طريق المطار، وخشينا للحظة أن تقوم هي الأخرى بقصفنا من الجو. ولما تلاشى صوت الطائرات، صاح دوج وهو واقف على الرشاش وقال إن رشاشه قد تعطل، ولم نستطع التوقف من أجل الكشف عليه ومحاولة إصلاحه، فأبلغنا القيادة باللاسلكي بأن المدفع الرشاش الأساسي مارك-19 للفصيلة قد تعطل.

ودخلت كتيبتنا المطار الذي كان خالياً إلا من بعض الشاحنات العسكرية العراقية القديمة التي كانت مركونة في الهناجر، وراح فلتشر يركض في المطار ويطلق النار على الشاحنات القديمة وهو يشير لنا بأن نتبعه، فقلنا له: أنت تطلق

النار على صفائح معدنية! هل تصدق أن هذا المتناك المتخلف عقلياً سوف يكون يوماً ما مسؤولاً عن جنود المارينز إذا عاش ما يكفي بحق المسيح!

وراح المراسل بابز يصور الموقع بكاميرته الفوتوغرافية ونحن نحتله بمركباتنا من أجل مقاله القادم في المجلة. ثم حضر الأب الروحي بنفسه في طائرة هليكوبتر، ونزل أرض المطار الذي احتلته الفصيلة، واتصل من هناك بالجنرال ماتيس، وقال له إن عدد الإصابات في صفوفنا صفر، فتلقى الشكر من الجنرال ماتيس، وكان فرحاً للغاية بذلك وهو يستقل من جديد الطائرة الهليكوبتر ويغادر أرض المطار.

استولت فصيلتنا على مطار للعدو، وكان ذلك رائعاً، بالرغم من أنه لم يقع اشتباك ولا قتال، ولكن كما يقول الشاعر العظيم: إذا لم يُضطر المارينز لاستعمال سلاحهم اليوم، فهذا أمر رائع!

وربما كانت قيادة العمليات تتوقع أن يسقط منا ضحايا، لأنهم أرسلوا بضعة أطباء إلى المطار، وهؤلاء راحوا يعالجون أقدامنا المتقرحة والمتورمة من طول ارتداء أحذيتنا العسكرية وعدم تهوية أصابع أقدامنا. كانت الأوامر في أول يوم وصلنا فيه إلى العراق هي وجوب ارتداء الأحذية على الدوام، حتى أثناء النوم، لأن المارينز يجب أن يكونوا مستعدين على الدوام.

وكانت الأخبار الجيدة التي وصلتنا هي أننا بعيدون عن كتيبة الاستطلاع الأولى بقيادة العقيد آرنولد وكل الخراء الذي يحمله

معه أينما ذهب، قالوا لنا إننا كنا بعيدين عن خرائه لمدة 24 ساعة على الأقل.

وحيث أننا لا نعرف تحديداً ما الذي يوجد حولنا، فقد أمرنا النقيب براد بتشديد المراقبة على محيط المطار، وبأن نتأكد من سلامة الاتصالات بيننا. وسألناه عن الأوامر بخصوص تدمير الشاحنات القديمة للعدو التي كانت في الهناجر، فقال إن القيادة لم ترسل بعد الأوامر بخصوص ذلك.

وجاءت معلومات بأن الشاحنتين اللتين تركناهما خلفنا في الصحراء قد اختفتا. سرقهما الحاج!

طبعاً أنا لم أكن متفاجئاً بخصوص ذلك، وأرهن أنهم في القيادة كانوا يفكرون بأن في وسعهم ترك شاحنتين ممتلئتين عن آخرهما بالإمدادات وسط الصحراء العراقية، تماماً كما هو الحال طبعاً في أمريكا كما تعلم، فنحن نترك سياراتنا المتناكة مفتوحة في بالتيمور، ونذهب للتسوق والاسترخاء وعمل المساج وتنظيف البشرة في مراكز التجميل، ثم نعود وتكون السيارة المفتوحة في نفس مكانها بالضبط، سليمة ولم يسرقها أحد، صحيح؟!

بحق المسيح يا وطن، لماذا يسرق أخوتنا العراقيون 400 رطل من السي فور، وصناديق ألغام، وبنادق إم-16 بذخائرها، إن هذا أمر غير منطقي، صح؟! آه، صحيح، ربما احتاجوا استخدام متفجرات السي فور تلك وهم يحتفلون بعيد الرابع من يونيو مثلاً، أليس كذلك!

ثم أتى الرقيب هولسي المتناك وسأل مات: ماذا عن ذلك الموضوع الخاص بفقدانك لخوذتك؟! فقال مات: لقد سقطت عن رأسي ليلة أمس يا رقيب، لقد كنت ممسكاً بالرشاش على عربة الهمفي وهي تصعد تلاً، فوقع عن رأسي يا رقيب! فصاح في وجهه الرقيب هولسي وهو يقذف الرذاذ والبصاق المتناك من فمه: هذه الخوذة ملك لقوات مشاة البحرية بالولايات المتحدة الأمريكية، إنها ملك لكل فرد من أفراد المارينز، ملك للجميع، وأنت بفقدانك لها قد عرضت كل مشاة البحرية الأمريكية هنا للخطر، هذا ما يحدث عندما تتهاونون في معيار الاستعداد والتهيؤ ويبدأ الرجال في التساهل في كل شيء، فتسقط باقي المعايير واحداً تلو الآخر، هذا الكلب الملعون توقف بالأمس عن استخدام ماكينة حلاقة الذقن، مما أدى إلى تطاير خوذته عن رأسه، مما أضعف موقفنا الدفاعي وعرضنا جميعاً للخطر! وبعد أن مشى الرقيب هولسي، قال مات للنقيب براد: لست أنا ذلك المتخلف المتناك الذي تسبب في إضاعة شاحنتين مليئتين بالإمدادات يا نقيب!

ورأينا بدواً من الرجال والنساء يهرولون ناحية المطار وهم يجرون بطاطين عليها جرحى، معظمهم من الأطفال، فأسرعنا إليهم، وحاول الأطباء الذين معنا إسعافهم ومعالجة الجرحى. وقال الدكتور إرفن إن نوعية الإصابات، والرصاصات التي تلقاها هؤلاء الأطفال، تشير إلى أن من أطلق النار عليهم هي كتيبة الاستطلاع الأولى، لأن هناك الكثير من ذخيرة الـ 556 التي تستعملها تلك الكتيبة في بنادق الإم-16، وصاح: حمقى وأغبياء،

يفرحون بالضغط على الزناد أولاد الشرموطة!

وسألنا الأطباء إذا كانوا يحتاجون إلى أي شيء؟ فقالوا إنهم في حاجة إلى جراحين من الفرقة لإنقاذ هؤلاء المصابين، فاتصلنا بباتيستا عبر اللاسلكي وطلبنا من القيادة إرسال جراحين إلى موقع المطار. الغريب في الأمر أن أهالي هؤلاء الأطفال لم يكونوا غاضبين منا، بالرغم من أنهم كلهم كانوا ينهمرون بالبكاء على أولادهم. ثم جاء النقيب براد ليتفقد الوضع، وقال لنا إن الأب الروحي رفض إرسال جراحين لأنقاذ الأطفال العراقيين. فقال له الدكتور إرفن: ولكننا في حاجة إلى الجراحين، وإلا فإن هؤلاء الأطفال سوف يموتون! فرد النقيب براد وقال: سوف أعيد طلب الجراحين مرة أخرى من القيادة. وجاءت الأوامر من الأب الروحي تؤكد مرة أخرى بأنه لن يرسل أي جراحين، وإن علينا أن نضع الجرحى تحت رعايتنا إلى أن يلقوا حتفهم.

ونقلنا المصابين إلى أحد الهناجر الخالية بالمطار، وعيّن النقيب براد حراسة عليهم وعلى أهاليهم، بينما كان الأطباء يحاولون وقف النزيف، ومداوة الجروح، وخياطة الأجساد، ومعالجة الحمى، آملين أن ينجوا بعضهم من الموت.

وحاول النقيب براد، للمرة الثالثة، إقناع الأب الروحي عبر الراديو بأن يرسل ولو جراحاً واحداً إلينا، ورد عليه الأب الروحي قائلاً: ربما تظنون أنه من واجبنا منح المدنيين العراقيين نفس مستوى الرعاية الطبية التي نمنحها لأنفسنا، ولكن هذا ليس

صحيحاً، إن ما نحن ملتزمون به تجاههم هو أن نمنحهم نفس مستوى الرعاية الطبية المحلية الموجودة لديهم هنا، والرعاية الطبية المحلية الموجودة لديهم هنا هي: صفر، إنه وضع خرائي بالنسبة لهم، لكن أحداً لم يجبرهم على تعريض حياتهم وحياة أبنائهم للخطر! وأضاف عبر اللاسلكي وهو منفعل، وبصوته المبحوح من سرطان الحنجرة: إنني يا سادة أشم رائحة عدوى تسري بينكم مثل خميرة فاسدة، في كل مرة أصدر فيها أمراً لفصيلكم أجد شخصاً ما يأخذ في التشكيك بأوامري، في كل مرة أرى فيها حالة من الانشقاق الغير مسموح به بينكم، هناك تدهور تدريجي في عموم أخلاقياتكم، لا يمكنني قبول أن يبدأ الناس في التشكيك بأوامري، أنتم مطالبون بالالتزام بأوامر ضباطكم الأعلى رتبة، وإذا كان لديكم شكوى بخصوص أي شيء، فيجب أن تمر من خلال القنوات المشروعة، أما أن يدور بينكم أحاديث محبطة أو مشككة في الخطة الاستراتيجية فأمر غير مقبول بالمرة يا سادة، أنا أعرف أن بينكم أشخاصاً غير سعداء بخصوص ما قامت به كتيبة الاستطلاع الأولى، وأنا أعترف بأنه كان في تلك التصرفات بعض الطيش والاندفاع، ولكن الجنرال ماتيس قد أصدر أوامره بحتمية اتباع الخطة الاستراتيجية التي وضعتها القيادة وتحقيق المهام المطلوبة في التوقيتات المحددة، إن هذه الحرب لا تجري لصالحنا حتى الآن بالمرة، المقاومة في المدن أكبر مما كنا نتوقع، والجنرال ماتيس يظن بأننا متخلفون عن تحقيق المهمة، لذلك فسوف نرجع إلى تلك المدن العاصية ونجبرها على الخضوع مهما كلف الأمر، ومهما كانت عدد

المرات التي نرجع فيها إلى تلك المدن، سوف نقتلع جذور الأشرار منها، إن العراقيين ينظرون إلينا الآن، وسوف يراهنون علينا في النهاية، بشرط أن يقتنعوا بأننا نحن الحصان الرابح الذي بإمكانه الفوز. سأله النقيب براد: سيدي، وهل هناك أي توقعات بخصوص تزويد الفصيلة بما ينقصها من معدات؟! فرد الأب الروحي: زيرو، اعملوا بما لديكم الآن فقط.

ومات جميع مصابي الحاج تباعاً في الليل، وأخذهم أهاليهم إلى ديارهم ليدفنوهم، وأعطيناهم بعض الألواح الخشبية حتى يحملوا عليها الجثث. وجمعنا النقيب براد، وقال لنا: لقد وقع اليوم خطأ خارج عن السيطرة، ولم نتسبب نحن فيه، لا فردياً ولا جماعياً، ويجب علينا الآن أن نتجاوز هذا الأمر، لا يجب أن نجلس ونفكر بما حدث لهؤلاء الأطفال، لأن لدينا مهام قتالية أمامنا، وأي خطأ من أحدنا نتيجة التشتت، قد يكلفه حياته وحياة زملائه في الفصيلة أيضاً، فانسوا الأمر، وابقوا مرفوعي الرؤوس.

ورحت لأتغوط في أحد الحمامات القذرة بالمطار، وكان ترومبلي هو أيضاً يريد التغوط، وقلت له عبر الباب الفاصل بيننا ونحن نتغوط: لا أريد أن أدافع عما فعله أولاد الشرموطة من كتيبة الاستطلاع الأولى، ولكنني لا أفهم كيف أن أحداً لا يتذكر أنهم في القيادة قد غيروا قواعد الاشتباك وقالوا لنا بأن نعتبر الجميع هنا أعداء، ألم يخبروننا بأن نطلق النار على أي شخص كان، سواء أكان يحمل سلاحاً أم لا؟! يا للخراء!

وفي الصباح انهمكنا في إصلاح العربات، والتأكد من كفاءة الأسلحة، ونصب خيام الخداع فوق مركباتنا. وكان جيف الشيوعي ينظف سلاحه ويقول: إن كل الجيل الجديد المتناك عنيف، وإن سبب ذلك هم مغنيو الراب المتناكون وفيديوهاتهم، وألعاب الفيديو التي جعلت شباب اليوم تواقين إلى العنف! ثم أطلق لقب (كابتن أمريكا) على العقيد آرنولد المتناك قائد كتيبة الاستطلاع الأولى بالجيش، وقال: هل نظر أحدكم إلى عينيه ورأي كم الفزع فيهما؟! إنه كمن يخشى أنه لو تبرز فإن الحاج سوف يزحف بسلاحه خارجاً من خرم طيزه! إننا محظوظون لأنه لدينا أفضل قائد فصيلة في الفرقة كلها. ورد رودي الخول وقال: وسوف يطعنونه في مؤخرته الآن لأنه فعل الصواب ووقف ضد كابتن أمريكا قبل أن يبيد سكان تلك البلدة! إن الحجاج لن يقتلوننا يا رجل، بل أولئك المتناكين من أمثال كابتن أمريكا هم من يجب أن نحذر منهم!

ثم جمعنا النقيب براد، وقال: لقد مررتم بالكثير خلال الأيام القليلة الماضية، وأنا أعرف أن لدى بعضكم مشاعر قوية ومتضاربة بخصوص ذلك، ولا أريد أن تعتبروني مجرد قائد قوي وعدواني، بل قائد يهتم بأمركم جميعاً قبل أي شيء آخر، وأريد الآن أن أتعرف على مخاوفكم والأسئلة التي تدور في أذهانكم، ما أريده منكم هو أن تتحدثوا بحرية وأن تنسوا لبرهة الحواجز التي بيننا، بوك، هل هناك شيء يشغل بالك؟! فقال بوك: سيدي، هل صحيح أننا قد فقدنا شاحنات الإمدادات التي كنا نحتاجها لصالح العدو بسبب أوامر الأب الروحي بأن نتخلى عنها

في الصحراء؟! فرد النقيب براد: بالرغم من أنه من الصعب عليّ بأن أعترف بذلك، ولكن للأسف هذا ما حدث بالفعل، وكان باستطاعتنا في الفصيلة حماية تلك الشاحنات، لكن ما حدث هو مسؤولية تقع على أكتاف الأب الروحي وحده وليس الفصيلة، مات، كيف حالك؟! فرد مات: أنا جيد يا سيدي.

ثم سأل النقيب براد الدكتور إرفن: دكتور، ما الأخبار؟! فقال الدكتور إرفن: جيد يا نقيب. فقال له النقيب براد: إسمع، نحن جميعاً نعلم كم كان إنقاذ تلك الضحايا من المدنيين أمراً مهماً بالنسبة إليك، وهذه هي فرصتك الآن لكي تعبر عن رأيك بخصوص الموضوع وتزيحه عن صدرك. فسأله الدكتور إرفن: هل تطلب مني أن أتحدث بصراحة يا سيدي؟! فقال له النقيب براد: نعم. فرد الدكتور إرفن وقال: حسناً يا سيدي، الأمر هو أنني أعتقد بأنك لست مؤهلاً للقيادة يا سيدي! رد عليه النقيب براد: أنا أفعل كل ما بوسعي فعله! فقال الدكتور إرفن: سيدي، ما تفعله ليس جيداً بما يكفي! فمشى النقيب براد دون أن يرد عليه، وكان واضحاً أن مستاء.

وكان ويل يعمل بالمطرقة في إصلاح صندوق التروس أسفل إحدى مركبات الهمفي، وصاح قائلاً: كيف يتوقعون منا أن نخوض حرباً بهذه الخردة المتناكة المعاد تدويرها؟! إن هذا يتعدى حدودي على الفهم!

وفي الظهر مرت كتيبة الاحتياط بالمطار، ولم تمكث كثيراً

لأنه كانت لديهم مهمة في مكان آخر، فقط توقفوا في المطار لساعتين من أجل الراحة والأكل والتغوط وإصلاح المركبات وتشحيم الأسلحة. ورأينا جميعاً النقيب براد وهو يطلب الانفراد بقائدهم؛ الرائد سافينو، ثم يقول له: سيدي، بخصوص إطلاق النار من رشاشاتكم على ما تظنون أنه العدو يا سيدي، لقد عرضتمونا للخطر يا سيدي، فأنتم لم تقوموا بتحديد أهدافكم على نحو صحيح ورحتم تطلقون النار علينا يا سيدي، فمع كامل احترامي لك يا سيدي، إن قمتم بإطلاق نيرانكم علينا مرة أخرى يا سيدي، فسوف أنيكك بنفسي يا سيدي، شكراً يا سيدي! وتركه مذهولاً وانصرف. وقررنا إطلاق لقب(آيسمان) على النقيب براد.

وفي الليل وصلت كتيبة الاستطلاع الأولى بالجيش لأرض المطار، لحقوا بنا أولاد الزانيات أسرع مما كنا نتصور! وكان أول شيء فعلوه بعد أن استلموا منا المطار، أن نشروا جنودهم حول محيط المطار كله للمراقبة. وبعد قليل صاح أحدهم وهو يحدق في منظاره الليلي: هناك أضواء سيارات للعدو تقترب بانتظام من المطار! ورحنا ننظر في نظاراتنا في الاتجاه الذي أشار إليه، ورأينا أضواءً فعلاً، ولكننا لم نستطع أن نرى بدقة إن كانت لسيارات أم لشيء آخر. وسأله العقيد آرنولد: كم تبعد تلك السيارات عنا؟! فقال الفتي: 15 كيلومتراً يا سيدي. فراح كابتن أمريكا وتكلم عبر اللاسلكي، وطلب من القيادة دعماً جوياً لقصف موقع السيارات قبل أن تصل إلى المطار، وقال لهم إنها سيارات إرهابيين وعلى بعد 15 كيلومتراً بإحداثيات كذا وكذا، وإنهم يريدون أن يشتبكوا معنا ويستولوا على المطار.

وأخذ النقيب براد إحدى النظارات الليلية ونظر عبرها لكي يتأكد من دقة المسافة التي حددها كابتن أمريكا للقوات الجوية، ثم صاح: إنها ليست سيارات معادية، إنها أضواء بنايات لقرية هناك، وتبعد من 30 إلى 40 كيلومتراً! ولكن الوقت كان قد فات، وبدأت طائراتنا تضرب بصواريخها الموقع الذي حدده كابتن أمريكا لها، والذي كان لحسن الحظ يبعد حوالي 20 كيلومتراً عن بيوت القرية. إن كابتن أمريكا مليء بالخراء!

ورحنا لنتفقد موقع القصف عندما طلع النهار، وكان مشهداً رائعاً بحق، كانت قواتنا الجوية قد قامت بعمل فني رهيب، كانت هناك تلك الحفر الضخمة التي تخلفت من جراء إلقاء آلاف الأرطال من المتفجرات عليها، ربما 15 أو 20 ألف رطل من المتفجرات، وكان الواحد منا يستطيع أن يتجول لمدة خمس دقائق كاملة جيئة وذهاباً في كل حفرة منها! لم نجد هناك أي شيء يستحق القصف، لا شيء على الإطلاق، لا شيء سوى الكثير من الرمال، لقد قتلنا ليلة أمس الكثير من الرمال الشريرة يا رجل، ألقينا 20 ألف رطل من القنابل ولم نصب إلا رمال الصحراء المتناكة، ولكن على الأقل حمداً لله أننا لم نبد سكان تلك القرية أيضاً! وبعد أن تفقدنا الموقع، عدنا لإبلاغ كابتن أمريكا بأننا لم نجد أي حجاج، ولا أي سيارات للإرهابيين، ولا أي مخلوق، ولا حتى أية حشرة هناك، وهكذا راحت عليه ميدالية من الميداليات التي كان يتوق إلى تعليقها على صدره المتناك!

لكن كابتن أمريكا ابن الشرموطة لم يهدئ، وقرر أن يحاصر

القرية، وأن يقوم باستجواب كل سكانها، بحثاً عن أي إرهابي هناك يستطيع أن يقدمه للقيادة لكي يحصل على ميداليته المتناكة، وتركونا لحراسة المطار، وراحت كتيبته كلها إلى هناك، واستجوبوا جميع الناس، ولم يحصلوا في النهاية على أي شيء مفيد، ثم رجعوا إلينا ومعهم ماعز وخرفان أخذوها من السكان، وقالوا إن الأهالي كانوا خائفين من أن تقوم قواتنا الجوية بضرب قريتهم، ولذلك أعطوهم الحيوانات كرشوة لكي تبتعد عنهم طائراتنا. ثم راحوا يذبحون تلك الحيوانات المتناكة، وأقاموا حفلاً كبيراً للشواء، وكانت الرياح تحمل رائحة اللحم المشوي في اتجاه قرية الحاج البائسة، وأعطونا جزءًا من الشواء، وقال راي: سنأكل الآن لحم الحاج، بعد أن حرمنا من شاحنات الإمدادات التي كان يوجد بها طعامنا، إذن نحن الآن متعادلون!

وبعد أن أكل الجميع، جاءنا ملازم أسود من عندهم اسمه جونسون، وقال إنه سيقيم قداساً للصلاة، وراح يسأل الجميع عمن يريد منا أن يحضر معه القداس، فرحنا نسخر منه ومن قداسه ونقول له: إن فلان هذا لن يحضر قداسك لأنه عبري متناك يقتل المسيحيين المؤمنين! وفلان ذاك شيوعي متناك ملحد ويعتقد أن كل متدين هو شاذ وخنزير! ولكن مع ذلك ذهب معه فلتشر للصلاة، وقال إنه مسيحي ويؤمن بالمسيح ويريد أن يحضر معه القداس المتناك.

وراح بوك يتحدث عن نظريته تلك في تطوير الأحلام المبلولة، تلك الأحلام الجنسية التي تستيقظ منها فتجد نفسك مبتلاً

بالمني، وقال إن هناك قوة جبارة في تلك الأحلام تجعل المرء يعيش التجربة الجنسية فعلاً، فيأتي، دون حتى أن يستعمل يده، وإنه يجري تجارباً لتطويع تلك القوة الجبارة لكي يستخدمها في اليقظة، حتى يعيش المتعة التي يخبرها المرء في الأحلام، المتعة الحقيقية، التي يصل إليها الفتى دون أن يستخدم يده، وقال إن تجاربه تحقق تقدماً في هذا المجال، وإنه قريباً، وبمزيد من التركيز والتأمل، سوف يكون قادراً على مضاجعة أية فتاة يتمناها في عقله، وفي اليقظة لا في الحلم، وسوف يأتي عليها بدون أن يستعمل يده، وحين ذاك سيكون قد حصل على المضاجعة المثالية!

وغيّر ويل الموضوع وقال: إن كتيبة الاستطلاع الأولى قد عثرت على جهاز تلفزيون وفيديو في أحد الهناجر، وإنهم سيعرضون بعد قليل فيلم (بوكاهانتس)، وقال إنه يحب (بوكاهانتس) من أجل موسيقاه الجميلة. فقال له بوك: لا يا ويل، لا يمكنك أن تقول إنك تحب (بوكاهانتس)، هل تحولت الإبادة الجماعية لقومي إلى كرتون موسيقي! فكر بهذا يا رجل، إن قصة (بوكاهانتس) هي عن مجموعة من الشبان البيض الذين يأتون إلى أرضي ويقومون برشوة زعيم قبيلة هندية فاسد، لكي يقتلوا كل المحاربين، ويضاجعوا تلك الأميرة الهندية! هل يحب الرجل الأبيض أن أصنع فيلماً عن معسكر أوشفيتز؟! وأن أجعل القصة حول السجين الذي يقع في حب السجان؟! ثم يأخذان في الغناء معاً والرقص حول الصليب المعقوف؟! فقال له ويل: إن جدي الأكبر قد قتل الهنود الحمر قديماً هناك في أعالي متشيجان من

أجل المال. فصاح فيه بوك: أنت أول رجل أبيض ابن شرموطة يقول لي هذا الكلام في وجهي! وعندها سأل فكتور بوك: بوك، هلا سمحت وقلت لنا ما هو أصلك بالضبط على أية حال؟! إن زوجتك نصف هندية-نصف بيضاء، وأنت تتحدث وتتعامل وكأنك أسود، في حين أن كل أصدقاءك من البيض، وفي بعض الأحيان، وحين يروق لك، تتحول إلى هندي أحمر! فاخبرنا بحق المسيح لأي عرق متناك تنتمي الآن في هذه اللحظة؟! فرد عليه بوك وهو يضحك: لديك وجهة نظر يا فكتور، لكنني على الأقل لا أتسكع من المكسيكيين المتناكين من أمثالك!

وقبل أن نتحرك ونغادر المطار، رأينا كابتن أمريكا وقد جمع كل أفراد كتيبة الاستطلاع الأولى، وراح يصيح فيهم في خطبة بلهاء ويقول: أنا أعلم أنكم غاضبون بسبب الشاحنات التي استولى عليها العدو وحرمكم من طعامكم وحرمكم من الإمدادات، ولكنني أقول لكن إن المتسبب في ذلك ليس نحن، ولكنه العدو، العدو هو من سرقكم، العدو هو من حرمكم، وأنا أريد أن أذكركم هنا بمن هو العدو: إنه العدو، العدو! والعدو هو من يجب أن تغضبوا حقاً منه، إنصراف! عندها علق النقيب براد وهو يبتسم: واو، يا لها من خطبة، لقد اقشعر شعر أذنيّ، يا للرهبة، يا للبلاغة!

وتحركنا بمركباتنا على الطريق الأسفلتي في اتجاه بغداد، وكانت الأوامر الجديدة هي مسح واستطلاع الطريق حتى بغداد. وسرت بيننا إشاعة عن جندية أمريكية قاموا بقتلها ثم صلبها في وسط بغداد. وقال جيف الشيوعي: ربما يكون ذلك كذب، مثل

الكذب الذي يقول بإنهم قد قتلوا ألفاً من المارينز في الناصرية، هذا كذب مثل الكذب الذي أطلقوه على جينيفر لوبيز وقالوا عنها إنها ماتت، إنها حية لم تمت، على الأقل أعتقد ذلك! ولكن باتيستا أكد لنا المعلومة عبر اللاسلكي بعد قليل، وقال إن الأمر قد تأكد لدى القيادة بالفعل، لأن صورتها وهي مصلوبة قد ظهرت في قناة الجزيرة، فساد جو من الغضب والإحباط بيننا ونحن نقترب من بغداد.

ورحنا نضحك بعد قليل عندما حكى لنا الملازم مايك أن شاذاً معتوهاً في الكتيبة الأولى للاستطلاع، وهو المسؤول عن الخرائط لديهم، راح يشطب أسماء الشوارع الرئيسية في خريطة بغداد، ويكتب مكانها أسماء ملاهي التعري التي يرتادها في الوطن: هذا شارع (الحصان الهائج)، وهذا شارع (رعشة الفهود)، وهذا شارع (وحيد القرن)، والشارع الذي يؤدي إلى الجامع الكبير في بغداد: شارع (النهود العارية).

وجاءت الأوامر عبر اللاسلكي بأن نعتبر بغداد بأكملها مدينة عدوانية، وقال الأب الروحي بإن قواعد الاشتباك في المنطقة الواقعة بين شارعي (وحيد القرن) و(النهود العارية) هي قواعد اشتباك مفتوحة، وأي شيء ترغب الفصيلة في تنفيذه أياً كان فلنا الحرية الكاملة في أن نقوم به. وكنا في غاية الحماس لأن ندخل بغداد وأن نقضي على الخراء الموجود هناك، وكان أكثرنا سعادة هو فلتشر الذي كان يتوق لإطلاق النار على الجميع هناك، وقال إنها ستكون فرصة مثالية لإطلاق النار، وإنه سوف يجعل رائحة

الموت تعم في كل أرجاء بغداد. وكانت طائرات الكوبرا تحلق فوقنا وتمشط المدينة عندما وصلنا إلى مشارف بغداد.

وتوقفت مركباتنا قبل أن ندخل المدينة، وأمرنا آيسمان بأن نترجل على دفعات، وأن نتغوط وأن نتبول، وقال إن اليوم سيكون طويلاً. ذلك أن قواعد التغوط والتبول بالنسبة للمارينز هي أن نحتاط وألا نترك جميعاً مركباتنا خالية في نفس الوقت. ورحنا نغني ونحن نتغوط، لأنه يساعد في إخراج البراز يا رجل! وكانت طائرات الكوبرا تقذف بعض أحياء المدينة بالصواريخ لكي تمهد لنا الطريق بينما نحن نتبرز على حدود المدينة. كان شيئاً رائعاً فعلاً!

وقال جيتس وهو يتغوط: إن المدينة تبدو رائعة من هنا، وباستثناء الكلاشنكوف والهاون الذي يقذفنا به الحاج من حين لآخر، فإن هذه البلاد رائعة!

ودخلنا إلى ذلك الحي الفقير الأشبه بالقرية على حدود المدينة. وترجلنا، وأجبرنا جميع الأهالي من الرجال والنساء والأطفال على الخروج من بيوتهم والانبطاح أرضاً. ورحنا نفتش منازلهم ونقلبها رأساً على عقب. وأقول لك إن النساء كن الأكثر غضباً وعنفاً ونحن نفعل ذلك. وذكرني ذلك بالعاهرات السود المتناكات في شرق بالتيمور اللاتي لا توقفهن المسدسات ولا أي شيء آخر عن الصراخ في وجهك وركل خصيتيك دفاعاً عن أنفسهن! ربما كان ذلك يرجع إلى كونهن نساءً، فهن يعتقدن أنهن

لكونهم نساءً فهن محميات بسبب خجل الرجال من ضربهن وكل ذلك الخراء!

وعثرنا في أحد المنازل على بعض بنادق الكلاشنكوف والمسدسات وكمية رهيبة من المخدرات المخبأة. وأمرنا آيسمان بأن نصادر الأسلحة فقط وأن نترك لهم المخدرات لأننا لسنا هنا لكي ننيك طريقتهم في الحياة ونقطع سبل رزقهم.

وعندما تقدمنا قليلاً في الجانب الشمالي الشرقي من المدينة، أطلق بعضهم النار علينا من أحد شرفات المنازل، فتركنا مركباتنا وقفزنا في إحدى الحفر الكبيرة التي خلفها قصف طائرات الكوبرا، واحتمى بعضنا خلف مركبات الهمفي، وصعد دوج فوق إحدى المركبات ببطولة وراح يطلق النيران من المدفع الرشاش نحوهم حتى قتل عدداً منهم. وكنا قد اتصلنا بالقيادة باللاسلكي وحددنا إحداثيات المهاجمين، فأتت طائرات الكوبرا وأطلقت عدة صواريخ على الموقع حتى أبادتهم جميعاً.

وكان فلتشر يبتسم في هدوء شديد أثناء ذلك، وشككنا في أنه قد تعاطى من مخدرات الحاج. وقال لنا إنه كان يتمنى أن يتلقى رصاصة من رصاصات الحاج حتى يجرب الشعور بذلك، وقال إنه يصبح أكثر توتراً بكثير وهو يشاهد مباريات البيسبول في التلفزيون من توتره نتيجة وجوده هنا وسط إطلاق النار علينا، فتأكدنا حينها من أن خرم الطيز ذاك قد تعاطى من مخدرات الحاج.

وبدأنا نرى صواريخ التوما هوك وهي تسقط على الحي الذي كانوا يطلقون منه النار علينا. وقال كرستوفر إن ثمن الصاروخ الواحد مليوناً ونصف المليون من الدولارات! فقال رودي الخول إنه كان بإمكاننا أن نشتري العراق كلها بمن عليها من أولاد الشرموطة بهذا السعر. فقال فلتشر: إدفعوا لي نصف ذلك وسوف أفجر كل خراء العراقيين المتناكين بالسي فور!

ووقفنا نهلل ونصيح ونطلق رشاشاتنا في الهواء كلما ضرب صاروخ توما هوك المدينة. وجاءتنا الأخبار من باتيستا في اللاسلكي بأن من تبقى من الإرهابيين قد انسحبوا خارج الحي، فدخلنا بمركباتنا، ورأينا أعداداً كبيرة من غوغاء الحاج وهم ينهبون المحلات والبيوت ويحملون مقتنياتها عبر الشوارع وهم يجرون، تماماً كما يحدث عندنا في بالتيمور عندما يقوم السود المتناكون بنهب المحلات عندما ينقطع التيار الكهربائي عن حي من أحياء المدينة. ثم بدأوا يأتون بشاحنات لكي ينقلوا عدداً أكبر من الأشياء المنهوبة على نحو أسرع، فصوب عليهم جارزا بندقيته يريد أن يطلق النار، فقال له آيسمان: لن نطلق النار على أحد إلا إذا تصرف تجاهنا على نحو عدواني! فقال جارزا: هؤلاء لصوص أشرار، هل سنتركهم ينهبون ويمضون في حال سبيلهم؟! فلم يرد عليه آيسمان. ورحنا نتفرج على استفحال الأمر. لقد نزعوا حتى الأبواب والشبابيك والمراحيض وراحوا يجرون بها في الشوارع. كان سيركاً متناكاً حقاً!

وأتتنا الأوامر بأن نعبر إلى الجزء الغربي للمدينة، وقالوا لنا

إننا سنمر عبر العديد من المنعطفات والإلتواءات وبعض الكباري حتى نصل إلى هناك، وإن فصيلنا سوف يُكلف بالسيطرة على الحي الغربي للمدينة وحمايته. وتحركنا بحذر في الشوارع ونحن مستعدون لإطلاق النار إذا ما هاجمنا أحد. وكان هناك قتلى من الحاج في الشوارع، وسيارات متفحمة، وبيوت محترقة. وكان الأحياء الذين نقابلهم ينبطحون أرضاً وأيديهم فوق رؤوسهم وهم يرتعشون عندما يرون عرباتنا وأسلحتنا المصوبة نحوهم.

وعندما وصلنا إلى الموقع رحنا نقيم الحواجز على الطريق الأسفلتي الرئيسي بالحي، وننصب الأسلاك الشائكة، حتى حل الليل علينا ونحن نعمل. وجاءت شاحنة للحاج وحاولت عبور الطريق الذي كنا نسيطر عليه، فأمرنا آيسمان بإطلاق بعض الأعيرة التحذيرية أولاً، ولما لم تتوقف الشاحنة، فتحنا عليها نيران رشاشاتنا، فانقلبت على جانب الطريق، وراح فكتور يقنص ببندقيته الإم-40 من حاول الهرب منهم.

وعندما رحنا لنتفقد الشاحنة المقلوبة، وجدناها شاحنة لنقل المواد الغذائية للحاج، وصاح المراسل بابز: هل فهموا معنى الأعيرة التحذيرية التي أطلقناها؟! لا يبدو ذلك! فرد عليه آيسمان: نحن الآن بمفردنا وفي أرض عدائية، وقواعد الاشتباك هي أن نطلق النار على أي شيء نشك فيه. فقال له المراسل بابز: وأين هو المترجم؟! كان يمكنه أن ينقذ هؤلاء الفتيان إذا كان موجوداً هنا ويقوم بعمله! فقال له الملازم مايك: ابن الشرموطة نائم هناك في مكان ما!

ورأينا عدة شاحنات أخرى للحاج وهي ترجع على أعقابها عندما رأوا ما حل بشاحنة زملائهم المقلوبة، وجثث رفاقهم على الطريق، وقلنا إنهم غالباً ما ينقلون المواد الغذائية في الليل إلى بعض المتاجر في المدينة.

وذهب مات لإيقاظ ابن الشرموطة المترجم من نومه. وصاح رودي الخول وهو يتفقد كابينة القيادة بالشاحنة، فهرعنا إليه، ورأينا فتاة صغيرة بفستان أحمر على كنبة الكابينة وهي ميتة وغارقة في دمائها. وكان هناك شخص آخر على قيد الحياة ويختبئ من النيران أسفل الكنبة ولم تصبه أية رصاصة. وجاء المترجم وسأله: لماذا لم تتوقفوا عندما رأيتم الطلقات التحذيرية؟! فقال له الحاج: أنا آسف، هل يمكنني أن آخذ ابنتي معي لكي أدفنها؟! واندهشنا لأنه قال: أنا آسف، وابنته قد ُقتلت أمام عينيه! فقال المترجم: العرب لا يتعاملون مع الحزن بنفس الطريقة التي يتعامل بها الأمريكيون. وحمل الرجل ابنته الميتة الغارقة في دمائها بين يديه، وأعطانا ظهره ومشى بها على الطريق الأسفلتي حتى اختفى عن الأنظار دون أن يبكي ولو دمعة واحدة.

وراح فكتور يتفقد من قنصهم ببندقيته، وقال: إصابات ممتازة، بين العينين مباشرة، هكذا يجب أن يكون القنص! فقال له جيف الشيوعي: إنني أشعر بالبرد في أوصالي من هذا المنظر!

ورأينا طائرات الكوبرا وهي تقصف أحد الأحياء وتنظفه من الإرهابيين، وكان شكل النيران في ذلك الظلام رائعاً.

وفي الصباح جاءت فصيل المارينز زولو-1400 لكي تتسلم الموقع منا. وسألناهم: كيف كان الحال عندكم في الجانب الشرقي؟! فقالوا: لن ترغبوا في سماع ما قمنا به من خراء في الليلة السابقة!

وتحركنا في اتجاه أحد الأحياء الجنوبية لبغداد، وفقاً للأوامر التي جاءتنا من الأب الروحي. وراح البعض منا يغني في الطريق.

ورأينا قرية فقيرة أمامنا على حدود المدينة، وجاءتنا التعليمات عبر اللاسلكي بأن نحاذر ونأخذ الحيطة لأن هناك معلومات من جواسيس محليين بأن بعض الإرهابيين يختبئون في الأشجار التي حول القرية. فتوقفنا قبل أن ندخل إلى هناك، وترجلنا عن مركباتنا، وأخذنا وضع الاستعداد للقتال، وراح آيسمان يستطلع الموقف بالنظارات المكبرة، مع الملازم مايك والرقيب هولسي، وقالوا إنه لا يوجد سوى بضعة أطفال يلعبون أمام البيوت، وبضعة نسوة يغسلن الثياب أمام الدور. وأبلغ آيسمان القيادة بأنه لا يرى أي إرهابيين للحاج في القرية، وردت القيادة وقالت إنهم يختبئون في الأشجار المحيطة بالقرية، كما أفاد بذلك الجواسيس العراقيون. ورد آيسمان على القيادة وقال: هذا مستحيل، لأننا نسمع أصوات عصافير كثيرة في الأشجار، ولو كان هناك أي شخص في هذه الأشجار لما سمعنا صوت أي عصفور!

وبينما هو يتكلم، فوجئنا بانفجار ضخم يصيب بيوت القرية، ثم سمعنا صوت طائرة كوبرا، وراحت تطلق صواريخها على الموقع.

وتحركنا بمركباتنا وغادرنا المكان. ووصلنا إلى مشارف قرية أخرى تشبه القرية الأولى. ورأينا حاجاً عجوزاً يشير لنا بالتوقف على مشارف القرية، وكان يتكلم كثيراً وبسرعة ولم نفهم منه أي شيء، فأحضرنا له المترجم، الذي ترجم لنا ما يقوله: هناك رجال كثيرون ومعهم أسلحة كثيرة، وهم غرباء ليسوا من قريتنا، وهم يريدون قتلكم ويريدون ذبحكم. فأعطاه آيسمان خريطة للمكان، وطلب منه أن يشير إلى مكان الأشرار، فأشار الرجل إلى مكان كوبري خارج القرية، وقال للمترجم: إنهم يتربصون بكم هناك، وقد نصبوا كميناً لكي يهاجموكم عندما تعبرون الكوبري.

ورأى الملازم مايك فتاتان صغيرتان واقفتان أمام أحد المنازل وتنظران ناحيتنا، فأشار إليهم لكي تأتيا، وقال لهما بالعربية: السلام عليكم! ثم ناول بوك بعض قطع الحلوى وبعض أكياس الطعام التي كانت معنا، وأخذه وذهبا إلى الطفلتين، وقال له أن يعطى البنات الطعام والحلوى، فابتسمت الطفلتان في سعادة، ثم ركضتا نحو أمهن وهن يضحكن. قال الملازم مايك لبوك: أليس هذا مؤثراً يا بوك! فرد عليه بوك قائلاً: اللعنة يا ملازم! هل تظن حقاً أن إعطاءهم بعض الأرز والشوكولاتة سوف يُصلح الأمور بالنسبة لهم؟! وراح بوك يتأمل الفتاتين

وأمهما وهن يضحكن في سعادة لبعض الوقت.

وسأل الملازم مايك آيسمان: سيدي، أتوقع الآن أن خطة الأب الروحي لنا هي أن تندفع الفصيلة كلها عبر فخ الحاج، أليس كذلك؟! فضحك النقيب براد وقال: يسعدني أن أحبطك هذه المرة، لأن الأب الروحي قد أصدر أوامره بالفعل بأن نتمركز هنا مؤقتاً، بينما ستندفع فصيلة من الدبابات لتتعامل مع كمين العدو وتزيله. فقال الملازم مايك: هكذا يجب أن يكون عمل المارينز حقاً، نأتي نحن بالمعلومات المفيدة، ثم ترسل القيادة مؤخرات نتنة لكي تتولى هي الأمر وتتباهى بالانتصار! ولكن يا سيدي، ألم تفكر في اتخاذ قرار ذكي عن طريق الخطأ؟! أعني أنه كان بإمكانك ألا تبلغ القيادة عن المعلومة، ونتولى نحن تنظيف الكوبري بأنفسنا! فرد عليه آيسمان: حسناً، نحن الآن أصبحنا في موقف العمل كجلساء أطفال لفصيلة الدبابات، ولا يوجد ما نفعله لتغيير هذا الأمر!

وجلسنا على الأرض في ساحة القرية تحت ظلال بعض أشجار النخيل الرائعة، ورحنا ندردش قليلاً. قال راي إنه سمع أنهم سوف يضمون إلى فرقة المارينز مجموعة من المعالجين النفسيين. فقال بوك: أتتخيل ما قد يجدونه من أمراض نفسية في شخص مثل ويل؟! وقلت أنا: إنه قناص جيد للغاية بالمناسبة، وطالما أنك ستبقيه بعيداً عن أطفالك الصغار، وبعيداً عن ماشيتك الصغيرة، حتى لا ينكح أياً منها، فإن كل شيء سيكون على ما يرام!

قال فكتور: الرجل الذي يقبل أن يفحص رجل متناك آخر عقله، لا يستحق أن يكون ضمن أفضل كتائب المارينز في العالم! إننا أفضل مارينز في العالم يا رجل، انظر كم انفق علينا العم سام: مدرسة للقفز بالمظلات، مدرسة للغطس، مدرسة لتسلق الجبال، ومدرسة للصاعقة، حوالي مليون دولار تقريباً من أجل تدريب كل واحد منا، إننا مصممون بطريقة مثالية لكي نعمل في آلة ضخمة للتدمير والإبادة!

قال دوج: وبعد كل ذلك يعطوننا في النهاية عربات همفي متناكة، ويجعلون متخلفاً عقلياً مثل الأب الروحي هو الذي يصدر لنا الأوامر! لو كان أي منا هو من يدير الأمور هنا، لما دمرنا تلك القرية التي قالوا إن الحاج يختبئ في أشجارها المليئة بالعصافير المتناكة!

وأحظر لنا رودي الشاذ إبريق قهوة سبريسو صنعها بنفسه، وقال إن كل ما نحتاجه الآن هو بضع أغنيات لنورا جونز! وقلت أنا: وبضعة فتيات من تلميذات المدارس الثانوية بمؤخراتهن السمينة من كثرة شرب القهوة بالحليب!

ورحنا نشرب القهوة وننعم ببعض الهدوء والراحة، حتى قال كرستوفر: هل يتذكر أي منكم أياً من المشاهير الذين خدموا في المارينز؟! فقال بوك: هناك ذلك الرجل الذي ُقطع زبه أثناء القتال هنا، ثم أعادوا تثبيته له فيما بعد! فصاح المراسل بابز: نعم، اسمه جون واين بوبيت! هو من المارينز فعلاً! فسأل كرستوفر: وهل

هناك غيره من المشاهير؟! فرد جيف الشيوعي: هناك لي هارفي أوزولد! وقال جيتس: وهناك ذلك الذي يقدم برنامج الأطفال (كابتن كانجارو)، كان واحداً منا هو أيضاً! وقال فلتشر: وذلك الرجل الذي تسلق برج الساعة في جامعة تكساس وأطلق النار على الناس وقتل 16 شخصاً، إنه أيضاً من المارينز! وقال المراسل بابز: أنا قابلت جون واين بوبيت مرة، نعم حقاً! لقد كان يحاول أن يدخل مجال الأفلام الإباحية ويصبح نجماً إباحياً، بل لقد مثل مرة بالفعل في فيلم إباحي جعلوه فيه يضاجع فتاة قزمة! فقال فكتور وهو يضحك: جندي المارينز يمكنه مضاجعة أي شي! وسأل كرستوفر: والرؤوساء، ألم يلتحق أي رئيس بالمارينز؟! فرد جيف الشيوعي: أقرب شيء إلى الرؤوساء التحق بالمارينز كان لي هارفي أوزولد!

وأثناء ذلك رحنا نحلق ذقوننا وشواربنا بماكينات الحلاقة على وجوهنا الجافة بلا أية معاجين، ونحن نحتسي القهوة، حتى لا نتعرض لتوبيخ من الرقيب هولسي خرم الطيز. وبينما نحن نفعل ذلك ونضحك، رأينا دبابتين وهما تسرعان عائدتين، وكان على سطحهما بعض الجنود المصابين، وزملاء لهم يحاولون إسعافهم. غالباً أصيبوا في كمين الحاج هناك على الكوبري.

وشرعنا في تنظيف أسلحتنا والتأكد من سلامتها. وعندما قام المراسل بابز بعيداً ليتبول، قال جارزا: أظن أننا جميعاً في هذه المرحلة نستطيع القول بأننا قد رأينا فتاته، أليس كذلك؟! فقال راي: أقسم إن الجيش المتناك كله قد رآها! فقال جارزا: لقد

استطعت استعادة الصورة من فصيل زولو-1400 في الصباح، ولكننا وقبل أن نتحرك قايضتها معهم مرة أخرى ببعض البطاريات!

وحاول البعض منا أن ينام قليلاً، بالرغم من أن صوت الانفجارات كان متواصلاً ويصم الآذان. ولما حل الليل، كنا نرى أضواء الانفجارات قوية. ولم ينجح الكثيرون منا في النوم في تلك الليلة. وأيقظت مات لكي ينضم إليّ في الحراسة، فنهض بصعوبة، ونظر في ساعته وقال: 56 دقيقة، 56 دقيقة فقط من النوم، ولم أحصل إلا على حلم واحد! فقلت له إن حلماً واحداً لهو أمر جيد. فقال: لقد حلمت بالعراقيين المتناكين!

وصاح آيسمان في الجميع ليستيقظوا ويستعدوا للتحرك، وقال إن الأوامر قد جاءت بالتحرك باتجاه جنوب مدينة الكوت، والتمركز هناك حول الضفة الشرقية من نهر دجلة، لأنه يوجد هناك جسر يتحكم في الطريق ومطلوب منا السيطرة عليه، وقال إن الأخبار السيئة هي أن أحداً لن يتمكن من النوم في هذه الليلة، ولكن الأخبار الجيدة هي أنه سيكون باستطاعتنا قتل بعض الأشرار!

وتحركت مركباتنا على الطريق، وكنا نشعر بالتوتر لأننا نعلم أن الجيش لم يقم بأي استطلاع في المنطقة التي نسير فيها، وأنه بإمكان الحاج أن ينصب لنا شراكاً طوال الطريق إلى نهر دجلة. ولم يكن مع الفصيل أية أسلحة حرارية، تلك الأسلحة التي

تحسم المعارك الليلية، كما لم تكن مركبات الهمفي المتناكة قادرة على مواجهة أية كمائن في الطريق.

وراح ترومبلي يغني بعض أغاني الريف، فأسكته دوج وقال له إن الوقت غير مناسب الآن للغناء. لكن بوك قال لترومبلي أن يواصل الغناء، وقال إن حظنا حتى الآن كان جيداً بالرغم من كل الصعوبات التي مررنا بها، وإذا ما توقفنا عن الغناء على الطريق فقد يتغير حظنا وينقلب علينا القدر، ولذلك لابد لأحدنا على الأقل أن يواصل الغناء. فواصل ترومبلي الغناء وحده.

وأثناء سيرنا راح ويل يصرخ ويقول: هناك خنادق للحاج أمامنا! ولما دققنا النظر في مناظيرنا الليلية، اتضح أنها مجرد بقايا جدران لبعض المباني المتهدمة. كانت مناظيرنا الليلية قديمة ومتخلفة في تقنيتها، ولا تستطيع التفرقة بين الجدران المتهدمة وبين الخنادق، بل وكنا نرى من خلالها أكياس القمامة الملقاة على الطريق وكأنها إرهابيين منبطحين أرضاً ويصوبنا سلاحهم نحونا!

وحلقت طائرة من طائراتنا فوقنا، وأطلقت بضعة صواريخ على الأشجار عن يميننا وعن يسارنا. فاتصل آيسمان بالقيادة وسألهم: هل لديكم فكرة عن أي شيء بالضبط تطلق صواريخها هذه الطائرة؟! فقال باتيستا عبر اللاسلكي: لا، إن الاتصال مقطوع منذ برهة مع تلك الطائرة! وسأل آيسمان: طيب هل نتوقف الآن؟! لأنها تضرب بصواريخها عشوائياً في كل مكان!

وقد يصيبنا صاروخ منهم! فرد باتيستا بعد قليل وقال: لا، الأوامر هي أن تستمروا في السير المستقيم في طريقكم، وأن تحافظوا على نفس السرعة. وفي تلك اللحظة ضرب صاروخ شجرة كنا نمر من جوارها، فتطايرت أجزاء الشجرة علينا، وتطايرت الأجزاء المعدنية من غلاف الصاروخ وسقط علينا، ففتحنا نيران رشاشاتنا ومدافعنا عشوائياً في كل اتجاه من حولنا، ولم نفق من هذه الحالة العصبية إلا لم سمعنا صراخ النقيب براد والملازم مايك أن نتوقف عن إطلاق النار وأن نتمالك أعصابنا!

وبعد قليل رأينا الجسر الذي يصل إلى مدينة الكوت، ولكننا اضطررنا للتوقف قبل بلوغه، لأنه كان هناك مصرف للمياه قد حُفر في بداية الجسر، وكان من المستحيل عبوره بالمركبات. ولما تكلم آيسمان مع القيادة في اللاسلكي، طلبوا منه أن يستدير حول مصرف المياه لكي يجد طريقاً سالكاً إلى المدينة. وصاح جارزا وهو يرتدي النظارات الليلية: إرهابيون هناك، عراقيون مسلحون! فارتدينا جميعاً نظاراتنا الليلية، ورحنا نطلق النار على من نراه منهم، وكانت أعدادهم كثيرة، وبعضهم يختبئ خلف متاريس أقاموها على بداية الجسر، وآخرون ينتشرون بين الأشجار الكثيرة التي كانت حولنا في كل مكان. وراح الرصاص ينهمر علينا، بالرغم من أننا فتحنا رشاشاتنا بغزارة على كل من رأيناه، بل وراحوا يطلقون علينا آر بي جي آيضاً!

كان وضعنا سيئاً للغاية، وسمعنا باتيستا المتناك وهو يقول: إلى جميع الوحدات، هل يمكنكم أن تتراجعوا؟! هل يمكن لأحد أن

يفسر هذه الجملة: هل يمكنكم أن تتراجعوا! نتراجع إلى أين ونحن محاطون من كل اتجاه بالإرهابيين الذين يمطروننا بالرصاص وبالآر بي جي؟! لعنة الله عليك يا باتيستا! ما رأيك لو تنضم إلى القوات البرازيلية المتناكة بإنجليزيتك هذه! واستمر باتيستا خرم الطيز في القول: هلا تراجعتم من فضلكم! فصاح آيسمان في الراديو: ليس هناك طريق مفتوح لكي نتراجع منه! هل هناك بالمصادفة السعيدة أي أمل في أن نتلقى دعماً من أية وحدة بالجوار؟! وبعد أن غاب قليلاً، عاد باتيستا ليقول: كتيبة الاحتياط في الطريق إليكم، حاولوا أن تصمدوا!

واستمر إطلاق النار والآر بي جي علينا من كل اتجاه، ولم تفلح نيراننا في وقف الهجوم، بالرغم من أننا كنا نردي الكثيرين من الحجاج قتلى في كل مكان، لكن كان غيرهم يظهرون، وبأعداد أكبر في كل مرة. ثم سمعنا من خلفنا طلقات نار كثيفة، ورأينا مدرعات كتيبة الاحتياط وهي تتقدم من خلفنا وتحاول فتح الطريق لنا. وقام النقيب براد بعملية انتحارية بنفسه، حيث راح يجري من مركبة همفي إلى مركبة همفي أخرى، لكي يخبر الجميع في الفصيلة بالأوامر بالانسحاب إلى الخلف، لأن أصوات الرصاص والانفجارات لم تكن تسمح بأن يسمع أحد منا أي شيء آخر. وشرعنا في الانسحاب بسرعة قبل أن يغلق الفدائيون الطريق علينا مرة أخرى، واستمر انهمار الرصاص علينا ونحن ننسحب أيضاً بحق المسيح!

وقال فلنتشر: هل تعلمون أن الرجال يرتجفون عندما يفيض

عندهم الأدرينالين! لقد انتصب زبي وأنا أطلق النار على الزنوج المتناكين!

وعلمنا أن اثنين من جنود كتيبة الاحتياط قد أصيبا أثناء الاشتباك مع الحاج، إصابات غير قاتلة، وأخلوهما إلى المستشفى الميداني بعربة جيب، وشعرنا بالأسف تجاههما. ولم يصب منا إلا المراسل بابز بشظية في ساقه، أخرجناها له، وضمدنا الجرح ببعض الأربطة، وأصبح على ما يرام، بالرغم من أن كان يعرج بعض الشيء.

ومرت بنا فصيلة من الدبابات في طريقها إلى مكان الاشتباك مع الفدائيين، وكانت الدبابات تطلق مدفعيتها وهي تسير، وقبل حتى أن تصل إلى هناك. وتساءل بوك: لماذا لم يرسلوا الدبابات منذ البداية؟! فرد الملازم مايك: لا يعلمون إن كان الجسر سيتحمل وزنها أم لا، وربما كان الجسر ملغماً حتى! وعلق جيف الشيوعي قائلاً: بحق المسيح يا رجل! أنت لا تريد أن تخسر دبابات قيمة الواحدة منها 5 مليون دولار، ولذلك ترسل مركبات الهمفي الخردة بدلا منها إلى هناك!

قال آيسمان إن الأوامر الآن هي أن نقبع هنا في مكاننا في انتظار أن تنتهي الدبابات من مهمتها في تطهير الجسر. وقاطعه الرقيب هولسي وقال: ربما لن يتبقى أي جسر بعد أن تنتهي الدبابات من إطلاق كل خرائها! وأكمل النقيب براد دون أن يعير تعليق الرقيب هولسي أي اهتمام: عندما تنتهي الدبابات من

مهمتها سوف ننطلق ونلحق بهم، ولكن أريد الحفاظ على مسافة مئة متر بين آخر دبابة وبين أول همفي لنا.

وبدأ القصف الجوي للموقع. ثم عبرنا الجسر خلف الدبابات، ودخلنا المدينة التي كانت النيران تشتعل فيها في كل مكان، في المباني، وفي السيارات، وحتى في أسفلت الشوارع نفسه. وتلقى دوج رصاصة في صدره وهو واقف على مدفعه من أحد الفدائيين الذي كان يطلق النار علينا من أحد المباني المشتعلة، وصوب عليه فكتور ببندقيته وأرداه قتيلاً في الحال. وأخلينا دوج إلى المستشفى الميداني بسرعة. وراح ترومبلي يصور الخراب، والحرائق، والإرهابيين القتلى في الشوارع، وأولئك الذين قمنا بأسرهم وطرحناهم أرضاً.

وفي الصباح انضم إلينا الأب الروحي بنفسه، ورحنا نتفقد معه جثث قتلى الحاج الملقاة في الشوارع، ونفتش جيوبهم، وكان معظمهم يبدون مثل طلبة الجامعات. ووجدنا مع بعضهم جوازات سفر سورية، ونقوداً سورية، وعرفنا أنهم قد دخلوا العراق منذ ثلاثة أيام فقط. وراح الأب الروحي يسبهم ويقول: هذا ما تحصلون عليه يا أولاد الشرموطة عندما تحاولون نصب الكمائن للمارينز! ثم التفت لنا وقال: بسبب ابن الشرموطة هذا ورفاقة تأخرنا 8 ساعات عن موعد دخولنا للمدينة! وها أنتم ترون الآن الإرهابيين السوريين وقد أتوا إلى هنا لقتالنا، إن هذا ما كان يتحدث عنه الرئيس بوش، هذه هي الحرب على الإرهاب التي طالما تحدث عنها الرئيس في خطاباته، ولهذا السبب فنحن

موجودون هنا!

ورأيت المترجم ابن الشرموطة وهو يخلع ساعات الإرهابيين الموتى ويدسها في جيبه، ويأخذ النقود من محافظهم أيضاً، بل ووجد مع جثة أحدهم بعض الحشيش فأخذه أيضاً، لكننا لم نكن نبالي بالأمر.

وقال المترجم وهو يتفحص أوراق أحدهم: دخل العراق منذ ثلاثة أيام، وأقام في بغداد في فندق (فلسطين)، إن المطعم هناك حقير، لكنك تستطيع أن تحصل على خدمة ممتازة في الغرفة، ويمكنهم أن يأتوا لك بفتيات صغيرات أيضاً، إن ذهبتم إلى هناك فقولوا لهم فقط إنكم أصدقاء عاشور وسوف يأتون لكم بأجمل الفتيات!

وحل التعب علينا لأن معظمنا لم يكن قد نام لفترة طويلة. ورأينا بوك وهو يشوي حيواناً مسلوخاً غريب الشكل لم نعرف ما هو بالضبط، على نار قد أوقدها على الأسفلت مباشرة. فذهبنا إلى عنده، وأعطانا بعض اللحم المشوي، وكان طعمه جيداً. وقال ويل: إنه كلب ميت! فقلت أنا: إن ذلك يجعلك تقدر الأشياء العادية التي تكون بين يديك كل يوم مثل شرائح اللحم البقري التقليدية أو شرائح الخنزير المقددة! وقال بوك: نحن جنود المارينز مدربون على تجاهل الطقس، وتجاهل الألم، ونحن قادرون على أكل أي شيء له فراء وأربعة قوائم! وصاح جارزا: نحن نعيش على زبدة الفول السوداني منذ 10 أيام، وأنا عندي حساسية من زبدة الفول

السوداني المتناكة! متى سنحصل على وجبات لحوم محترمة مع فلفل الهالبينو والجبن؟! فقال كرستوفر: على أن تكون التحلية هي بضعة ساعات من النوم الجميل!

قال فكتور وهو يأكل لحم الكلب الميت: هل تعلمون ما هو الشيء الغريب! بالأمس قتلت سبعة أو ثمانية من الحاج، ورغم ذلك فأنا لا أشعر بأي شيء! فقال مات: ولا أنا يا فكتور! من ضمن الذين قتلتهم كان متناكاً أطلقت على رأسه الرصاص ورأيت رأسه تنفجر أمامي، ولم أشعر بأي شيء! هل هذا هو شعور المحارب الحقيقي؟! هل وصلنا إلى تلك المرحلة من الاحتراف! فرد عليه جيف قائلاً: لا تخدع نفسك! نحن لسنا محاربين أشداء هنا، إنهم يستخدموننا كمجرد مشغلين لمعدات القتل! وهذا بالمناسبة لا يتطلب منا إلا مهارة متوسطة على أحسن الأحوال! ما نحن إلا حفنة من الهواة ليس إلا!

وأتى آيسمان وقال لنا إن دوج على ما يرام، وإن الجيش سوف يخليه عما قريب إلى مستشفى القوات البحرية في إسبانيا. ثم قال: أنتم جميعاً تعلمون كيف يكون الأمر عندما يحاول أحدكم أن يداعب كلباً وهو يحترق! لقد داعبنا بالأمس كلباً وهو يحترق، ولقد قمنا بالأمر على نحو جيد، أنا أعلم ذلك، وأنتم أيضاً تعلمون ذلك. ثم طلب منا الاستعداد للتحرك خلال 30 دقيقة، وقال إننا سنذهب إلى بلدة اسمها موفقية.

وأثناء الاستعداد للتحرك قال جيف الشيوعي: داعبنا بالأمس

كلباً وهو يحترق! حقاً! ولكن أليس هذا هو عكس ما أخبرونا به بشأن مهمتنا هنا في العراق؟! هذا الفتى كان مذكوراً في جواز سفره أنه كان طالباً منذ أسبوعين فقط في سوريا! لم يصبح جهادياً إلا بسبب أننا هنا في العراق!

ثم خرجنا من المدينة عبر طريق ترابي مليء بالحصى، وفي الأثناء، قال جارزا: لماذا لم ندخل البلدة بالأمس من هذا الطريق الآمن؟! كنا سنتجنب كمين الحاج! فرددت عليه: هذا ليس تفكيراً عسكرياً، إن تجاوز الكمين هو بالضبط ما كان سيفكر فيه العدو! فقال المراسل بابز: إذا كانوا يتوقعون أن نتجنب كمينهم، فلماذا نصبوه في مكانه بالذات؟! فرددت عليه: لأنهم ليسوا عسكريين محترفين! فقال جارزا: إن هذه العبارة تنطبق علينا نحن أيضاً، لأننا دخلنا إلى كمينهم ولم نفكر في أنهم ليسوا عسكريين محترفين حتى يتجبنوا وضع الكمين على الجسر المكشوف لنا، أليس كذلك!

ومررنا بمجموعة من شبان الحاج في العشرين من عمرهم يرتدون ملابس فاقعة الألوان وشعورهم طويلة، وكانوا يلوحون لنا، فقلنا إنهم ربما كانوا من الجهاديين الذين أطلقوا النار علينا بالأمس وفروا من المدينة. وطلب آيسمان من القيادة السماح لنا باحتجازهم. وعاد باتيستا بعد قليل ليقول: طلب الاحتجاز قد رُفض، حافظوا على اتجاه سيركم وسرعتكم، انتهى. وبينما باتيستا يقول ذلك، رأينا كمية ضخمة من العتاد والرشاشات ملقاة على الأرض على جانب الطريق، وكان هناك أيضاً حجاجاً من

الشباب حولها، وتكلم آيسمان في اللاسلكي مجدداً طالباً الإذن باعتقال هؤلاء لأن الموقع يبدو كما لو كان مركزاً للإرهابيين، لكن القيادة رفضت، وطالبتنا بالحفاظ على اتجاهنا وسرعتنا.

ودخلنا مدينة الموفقية، وكان كل شيء مهدماً ومحترقاً، والكثير من جثث الحاج ملقاة على الأرض. وطلبت منا القيادة أن نعبر البلدة حتى نصل إلى الجزء الشمالي الشرقي منها، ثم نتمركز هناك على طرف البلدة، وأن نقيم حاجزاً على الطريق الرئيسي. ورأينا بعض العراقيين وهم ينبشون حطام المنازل في محاولة لكي يعثروا على أي شيء مفيد، وكان بعضهم بالبيجامات الملطخة بالدماء، وكان ترومبلي يصور كل ذلك بكاميرته التي كنا نعتقد أنها قد ُفقدت بالأمس أثناء الاشتباكات العنيفة مع الإرهابيين.

ووصلنا إلى الموقع، وترجلنا عن مركباتنا، وأقمنا حاجزاً على الطريق الرئيسي. واقترب منا بعض الأطفال وهم يحملون كرة، فنادى الملازم مايك ألا يطلق أحد منا النار على الأطفال. وظل الأطفال واقفين هناك يراقبوننا في صمت. وكنا متمركزين بجوار مدرسة، فذهب الرقيب هولسي لتفتيش تلك المدرسة الشاغرة مع راي وجيتس وأنا. وعثرنا على عتاد وأسلحة كلاشنكوف ومدافع هاون مخزنة في أحد الفصول التي كانت مليئة برسومات للأطفال على الجدران، فأبلغنا القيادة بذلك.

وأثناء حراستنا للطريق، رأينا أعداداً كبيرة من المدنيين

يهرولون هنا وهناك في الشوارع وهم يحملون بعض الأمتعة الخفيفة. وقال جيف: إنهم يهربون من المدينة! فذهب الملازم مايك ومعه المترجم واستجوب بعضهم، ثم عاد وقال: إن الجهاديين يخططون لمهاجمتنا بعدد من الانتحاريين! فأبلغنا القيادة، وأمرنا الأب الروحي بالإجلاء عن المدينة، والتوجه شمالاً.

وقبل أن نتحرك قال لنا باتيستا عبر الراديو: سيكون عندكم الآن انفجار قيد التحكم. ثم بدأ في العد التنازلي: 10، 9، 8، 7، 6، 5، 4، 3، 2، 1، ثم رأينا صاروخاً يصيب المدرسة ويدمرها تماماً في لحظة. وقال الملازم مايك لآيسمان: لماذا تركنا كل هذه الأسلحة والعتاد ولم نأخذها! فرد النقيب براد: وفوق ذلك فجرنا المدرسة الوحيدة بالحي!

واقتربت منا سيارة مدنية بيضاء ببطء، فأطلق فلتشر رشاشه عليها، فأصاب ركابها الثلاثة جميعاً إصابات قاتلة، وصاح فيه آيسمان: لماذا لم تطلق أولاً طلقات تحذيرية! هناك أولاً طلقات تحذيرية يجب أطلاقها في مثل هذه الحالات يا ابن الشرموطة! فرد فلتشر ببرود: تلك كانت طلقاتي التحذيرية يا سيدي! وتفقدنا الموتى في السيارة، وكانوا ثلاثة رجال في الأربعينيات بملابس أنيقة ومعهم حقائب ورقية جلدية، كانوا يبدون مثل محاضرين في طريقهم لإلقاء محاضراتهم في الجامعة، وكانت إصاباتهم في الأعين وفي الأعناق. وصاح ويل: يا للخراء المقدس! إنهم يبدون مثل الزومبي بعد إطلاق النار عليهم! زومبي الحاج! تصويب

ممتاز يا فلتشر! فرد فلتشر وهو يبتسم بفخر: لقد أديت واجبي فقط!

وقال آيسمان إن الأوامر قد صدرت بإخلاء الموفقية فوراً والعودة إلى مدينة الكوت، فصعدنا لمركباتنا، وتحركنا.

وتوقفنا عند مشارف الكوت. وكانت هناك شاحنة إمدادات، ووزعوا علينا وجبات جاهزة جديدة، وكانت جيدة، وتضمنت لحماً وحليباً مخفوقاً بالفراولة وكعكة بالفانيليا. وبعد الأكل أمرنا آيسمان بأن نتغوط ونتبول وقال إن اليوم سيكون طويلاً. وأثناء التغوط اكتشف نصف الرجال أنهم مصابون بالإسهال، بينما راح النصف الباقي يتقيأ، فشككنا في أن الطعام كان مسموماً. وبرغم ذلك رحنا نتفقد مركباتنا وأسلحتنا ونصلح ما يحتاج إلى إصلاح. وملئنا براميل المياه الناقصة لدينا من خزان ماء كان موجوداً في شاحنة الإمدادات.

وقال الملازم مايك لفلتشر: حين ندخل إلى الكوت، لا يمكنك أن تطلق النار على المدنيين كما فعلت في موفقية! فرد عليه فلتشر: سيدي، نحن قوات هجومية، وهؤلاء الحجاج يحاولون قتلنا! فصاح فيه الملازم مايك: اللعنة يا رجل! ألم تسمع ما قلته لك للتو! لقد ركلناهم في مؤخراتهم بالفعل! لا تطلق النار على المدنيين إلا إذا قال لك النقيب براد إن بإمكانك ذلك، مفهوم!

وسمعت المراسل بابز وهو يقول: إن العراقيين لا يبدون جيدين في القتال، ورغم ذلك فهم لا يستسلمون أبداً!

وتحركنا بالمركبات ودخلنا المدينة، هذه المرة من الطريق الترابي الآمن المليء بالحصى. ومررنا على أربعة رجال عراقيين عرايا تماماً، ولما رأونا ركعوا على الأرض ورفعوا أيديهم عالياً، فتوقفنا، وراح المترجم يستجوبهم، وطلب منهم أوراق الهويات، فقالوا له إن الجهاديين قد سرقوا ملابسهم ونقودهم وهوياتهم! فقال الرقيب هولسي: قد يكونون من الإرهابيين وتخلصوا من أوراقهم وملابسهم حتى لا نكشفهم! وصاح جارزا، فذهبنا إليه، ووجدنا ثلاث جثث للحاج، وكانوا عرايا تماماً، تم إعدامهم بالرصاص فيما يبدو بإطلاق النار على مؤخرة رؤوسهم، وألقوهم وسط زراعات الذرة. وجاء المترجم وقال إنه لا يعتقد بإن الرجال العرايا يكذبون، وإنهم جميعاً إخوة يعملون بالزراعة في حقل قريب ملك لهم. وكان أحدهم يتحدث الإنجليزية بطريقة فظيعة أفظع حتى من باتيستا، وفهمنا منه أنه يقول: أنتم الأمريكيون قد تغلبتم على جيش صدام، وتغلبتم على الإرهابيين، والآن الإرهابيون يضربوننا نحن، فماذا أنتم فاعلون؟! لقد أحرقوا بيوتنا، وسرقونا، وضربونا، وقتلوا أخوتنا، لأننا رفضنا الانضمام إليهم، فماذا أنتم فاعلوان؟! فرد عليه جيتس وقال: أنظر، هذه مسألة يجب أن ترفعوها إلى الأمم المتحدة! المهم أن تبقوا بعيداً عن الطرقات التي نسلكها، ولا تظهروا لنا عرايا بعد الآن، اتفقنا! ثم رمى إليهم ببقايا زجاجة مياه كان يشرب منها.

وعثر مات على خوذة من خوذات الجيش العراقي بين زراعات الذرة بجوار جثث قتلى الحاج، فارتداها على رأسه

وقال: كيف أبدو؟! فقال له فكتور: تبدو مثل هدف عراقي متناك! فقال مات: إنها أحسن من لا شيء، أنتم تذكرون أنني قد فقدت خوذتي! وظل يرتديها على رأسه.

وحين حل الظلام عسكرنا خارج المدينة في الليل، لأن سيارات الهمفي غير مهيئة لإقامة مركز محصن وسط مدينة معادية. وراح مات ينقش نقشة المارينز على خوذته العراقية. وتفاقمت حالة الإسهال والقيء في الفصيلة، وكانت حالتنا سيئة لدرجة أننا كنا نعجز عن مجرد السير، بالرغم من أننا رفضنا تناول الوجبات الجاهزة على العشاء ورحنا نأكل من زبدة الفول السوداني التي كانت معنا من قبل. وطلب آيسمان من القيادة أن ترسل لنا طبيباً، وأدوية للقيء والإسهال. وصاح ويل فجأة قائلاً: اللعنة، لقد تغوطت في سروالي! ولم يستطع أي منا النوم في تلك الليلة بسبب القيء والإسهال المستمرين. وما زاد الأمر سوءًا، أننا شعرنا بالحساسية فجأة ورحنا جميعاً نهرش بعنف في أجسادنا حتى الصباح.

وأتى الطبيب تويج في الصباح بسيارة جيب، وأعطانا أدوية للتسمم والإسهال والقيء. وكان معه في السيارة وجبات جاهزة جديدة.

ورأينا أعداداً كبيرة من المدنيين يفرون من المدينة على أقدامهم، فأسرعنا بنصب حاجز على الطريق الرئيسي بمركباتنا، وتأكدنا عبر المناظير المكبرة من أن أحداً منهم لا يحمل سلاحاً.

وقال آيسمان إن الأوامر قد صدرت بأن نرافقهم إلى أقرب حاجز جنوبي لنا على الطريق، وأن نسلمهم إلى الفصيل الذي هناك. وسأله الرقيب هولسي: لماذا لا نجبرهم فقط على العودة إلى المدينة؟! فرد آيسمان: هؤلاء ليسوا من الكوت، إنهم من بغداد، وقد أتوا للكوت سيراً على الأقدام، ويريدون الآن العودة مرة أخرى إلى بغداد. فصاح الملازم مايك: مشوا 160 كيلو متراً على أقدامهم! ويريدون الآن العودة والسير 160 كيلومتراً أخرى! وقال الرقيب هولسي: نحن لا نعرف هوية أي شخص منهم، وقد يكون هناك انتحاريون بينهم، يجب أن نبقى متيقظين! فقال النقيب براد: حافظوا على سرعة بطيئة للمركبات، ولكن إبقوا على مسافة من هؤلاء الأشخاص، هذا مهم!

وسمحنا لهم بالعبور من الحاجز. وقال الملازم مايك: إحرصوا على بقاء أفراد العائلات معاً، ومرروا مجموعات من 35 أو 40 شخصاً من الحاجز في المرة الواحدة، تعاملوا معهم بهدوء، ولكن بصرامة أيضاً! وقال الرقيب هولسي: كونوا متيقظين وراقبوا أيديهم، قد يكون مع البعض منهم سلاح! وقال آيسمان: لا تصوبوا أسلحتكم عليهم، ولكن أبقوا على السلاح جاهزاً، فلتنشر، لا تصوب سلاحك عليهم!

وعندما كانوا يمرون من الحاجز، كان جيف الشيوعي والملازم مايك يقولان لكل من يمر من أمامهما: السلام عليكم، السلام عليكم! وعرض حاج علينا بعضاً من طعامه وهو يمر من الحاجز، لكننا رفضنا أخذه.

ورافقناهم بالمركبات الهمفي ببطء على الطريق. وكان أغلبهم من النساء والأطفال والعجائز والمعاقين. ونادى الملازم مايك على ترومبلي وقال له أن يعطي ماء للأطفال ليشربوا، ولكن ليس من الماء القذر الخاص بالمركبات، بل من ماء الشرب الخاص بنا. وراح راي ومات وجيف وكرستوفر يأخذون بعض المتاع الذي كانت السيدات يحملنه على ظهورهن، ليحملوه بدلاً منهن وهم يسيرون على الطريق معهن. وأعطينا النساء المزيد من زجاجات المياه، وراح الملازم مايك يعطيهم بعضاً من وجباتنا الجاهزة.

وكانت ضمن الفتيات اللاتي أخذن زجاجات المياه منا، تلك الفتاة التي كانت تجيد الإنجليزية إجادة ممتازة، والتي قالت للملازم مايك: شكراً لك يا سيدي لأنك سمحت لي بالمرور من طريقي في بلادي! فسألها الملازم مايك: عفواً يا سيدتي، ماذا؟! فقالت له: لماذا أنتم هنا يا أمريكيون؟! فقال لها: نحن نريد أن نساعدكم يا سيدتي! فقالت له: أنا أتيت من بغداد سيراً على الأقدام، وعائدة الآن إلى بغداد سيراً على الأقدام، إن بغداد مدينة رائعة يا سيدي، والكوت مدينة رائعة يا سيدي، لكنكم حولتم مدننا الجميلة إلى جحيم! هل يُفترض بي أن أصدق دعاويكم بأنكم هنا من أجل أن تجعلوا حياتي أفضل؟! فصاح الرقيب هولسي: اللعنة، ملازم مايك، ليس عليك أن تتحمل هذا الخراء من الشرموطات الغير ممتنات! لكن الفتاة تجاهلته، وواصلت كلامها للملازم مايك: هل تعلم، إن بلدي العراق هو بلد رائع جداً يا سيدي، ولكن كان عندنا رئيس غبي جداً، وقد ذهب الآن إلى غير عودة، ولا أدري

لماذا أنتم هنا الآن؟! ربما أنتم هنا من أجل تحريرنا، لا أدري! ولكن الذي أعرفه أنه بسبب أن بلادي بها الكثير من النفط فإن حربكم هنا قد تحولت إلى حرب عدوانية تجاهنا! فقال لها الملازم مايك: سيدتي، أعتقد أنه لديكِ وجهة نظر هنا! أنا حقاً أحترم وجهة نظرك هذه! ولكن الفتاة كانت قد أعطته ظهرها ومشت بعيداً.

قال ويل لبوك وهو ينظر للفتاة وهي تبتعد: من أجل مؤخرة كهذه أنا على استعداد لكي أبيع أختك وأمك لعدي وقصي! هل رأيت مؤخرتها! إنني لم أر طيزاً بهذا الجمال منذ فترة طويلة!

وجاءت امرأة عراقية وأصرت على أن تعطي طفلها الصغير للملازم مايك لكي يحمله. وفي النهاية وضعنا أمتعتهم على مركباتنا. بل وسمحنا لهم بالصعود لسياراتنا والجلوس في الهمفي، حتى امتلئت مركباتنا بهم ولم تعد تتسع للمزيد، واضطررنا نحن للمشي بجوار العربات على الطريق. لقد حولنا رحلتهم إلى رحلة استجمامية متناكة يا رجل!

وعندما وصلنا إلى حاجز فصيل الاحتياط دلتا، سلمنا لهم المدنيين. وقال لنا الطبيب تويج الذي رافق فصيلنا: لا يهم ماذا نفعل بالنسبة لهم، إن نصف هؤلاء الأطفال الذين معهم سوف يموتون قبل أن يصلوا إلى بغداد!

وقال آيسمان: هذا العمل الإنساني الذي قمنا به، لو تعمقنا فيه أكثر، فسوف لن نعود فعالين في القتال بعد ذلك! ثم أتاه اتصال

من الأب الروحي، وصدرت الأوامر بأن نتوجه إلى مخيم تابع لنا وقريب من موقعنا لكي نعسكر فيه.

ورأينا في طريقنا دبابة إم1-إى1 محترقة، واستغربنا كيف يمكن للحاج أن يدمر دبابة إم1-إى1! ورأينا جثثاً للحاج على الطريق، ورأينا رؤوساً مقطوعة وملقاة وحدها دون باقي الجسد. وقال الملازم مايك: إنهم الإرهابيون يقطعون رؤوس من يرفض الانضمام إليهم!

وعسكرنا في المخيم طيلة الليل. وكان جيتس يقول: حتى الآن، لم نقم في العراق بمهمة واحدة من مهمات المارينز التي تدربنا عليها، نحن إما نقوم بواجبات الحراسة المتناكة، أو نعمل كسائقين لعربات الهمفي، في حين أننا تدربنا لكي نكون صيادين وقناصين، نحن لسنا سائقي شاحنات! إن وضعنا هنا هو بمثابة إهانة للمارينز! فرد عليه جيف الشيوعي: هل تدرك أنه هناك في العالم المتمدن لو قمنا بما قمنا به هنا من خراء وقتل للناس الذين قتلناهم بلا سبب، لزجوا بنا في السجون! فقال له ويل: أنت تفكر مثل مكسيكي متناك! فكر مثل رجل أبيض سيستمتع بالميداليات التي سيحصل عليها من جراء ما قمنا به هنا!

واستطاع معظمنا النوم في تلك الليلة بعد أكثر من 36 ساعة من عدم النوم. وجاءتنا الأخبار من الراديو بأن كتيبة الاستطلاع الأولى والعقيد آرنولد قد حظوا بالثناء من الجنرال ماتيس، الذي منح ميداليات لكابتن أمريكا وباقي قواد الكتيبة! أما بخصوصنا،

فقد أخبرنا الأب الروحي بأن فصيلة الدبابات سوف تقود الطريق إلى بغداد، لكنه سيتسنى لنا أن نشارك نحن أيضاً في اللعبة، لأن الأوامر قد صدرت بأن تتجه الفصيلة إلى بغداد مرة أخرى في الصباح.

وفي الصباح، وقبل أن نتحرك في الطريق إلى بغداد، أتت شاحنة إمدادات لتزويدنا بما نحتاجه في الطريق من ماء ووجبات جاهزة وذخيرة وبطاريات وأشياء أخرى. وكان ضمن أفراد الشاحنة جندية ليست جميلة على الإطلاق، ولكن الرجال راحوا يصيحون فيها ويطالبونها بأن تكشف عن ثدييها. وصاح فكتور: لدي 15 دولار، هيا عاشريني! وارتدي ويل قناع الغازات وأخرج زبه وراح يستمني عليها وهي واقفة تحمل في يديها الرشاش وتحاول أن تنظر بعيداً عنا. واستخدم جارزا نظارته المكبرة في النظر إليها وقال: إنها غزيرة الشعر مثل الغوريلا! سيكون شعر عانتها كثيفاً للغاية، أريد أن أقوم باستطلاع في تلك المنطقة! فقال له راي: إنها تملك أسلحة صدام حسين للدمار الشامل بين ساقيها! إنها تحتاج إلى ضربة قوية من طائرات الكوبرا حتى تخلصها من تلك الأسلحة! وصاح فلتشر في ويل الذي كان يستمني عليها وهو يرتدي قناع الغازات: نكها يا ويل!

وفي النهاية جاء الرقيب هولسي وصاح فينا: استعيدوا رباط جأشكم يا جنود المارينز! أحسنوا التصرف يا شراميط! أنا لا أرى أمامي سوى مجموعة من المهتاجين المتناكين! جندي ويل! إنك تسيء استعمال قناع الترشيح الكيميائي بمحاولتك أن ترتكب

فعل الزنا وأنت ترتديه! بحق المسيح، هل عليّ أن أذكرك بألا تدنس قناعك بأفعالك الشاذة!

وعندما ذهب الرقيب هولسي، قال ترومبلي: تباً للمنافقين! حالما نتوقف عن التعرض لإطلاق النار علينا، يخرج لنا ابن الشرموطة هذا ليعظنا بجهله المتناك المتخلف! لماذا لم نسمع صوته أثناء ما كنا في الكوت نتعرض للقتل هناك!

وأخذ ترومبلي يصور مات وقد خلع سترته حتى أصبح صدره عارياً وراح يجري في الساحة رافعاً ساعديه جانباً كأنه يحاول الطيران. فذهبت إلى المراسل بابز وسألته: ماذا أعطيت له، هل أعطيت له من مخدرات الرولنج ستون خاصتك؟! فقال: لا، مجرد سألته فقط عما يود أن يكونه إن لم يكن جندياً في المارينز! فصاح فكتور: يا للخراء المقدس، حلمه هو أن يصبح راقصة باليه متناكة!

وارتدى مات سترته، وذهب إلى عربة الهمفي التي يستقلها، وجاء ومعه حقيبته وقال: لقد كنت أخفي عنكم بعض الأشياء يا أولاد الشرموطة، فلم أكن أظن أننا سنعيش حتى هذه اللحظة لنتشارك في هذه الأشياء، ولكن ما دمنا قد نجونا حتى الآن، فسأشارككم في ما كنت أخفيه عنكم! وأخرج من الحقيبة عدداً كبيراً من معلبات (شيف بوياردي)، فصحنا فرحاً لما رأيناها. وقال مات: وسأشارككم في شيء آخر! ثم أخرج من الحقيبة عدداً جديداً من مجلة (جاجز) الإباحية، فرحنا نتعارك على من

سيحظى بها أولاً ويتضاجع مع جازمين، وجينا، وكاي، وتريسي، وكرستي، وجنجر، وإيفا، وغيرهن. وقال المراسل بابز: بالمناسبة، أحدكم ما يزال يحتفظ بصورة فتاتي! فقال له جارزا: أكره أن أقول لك هذا يا صديقي، ولكن يبدو أن فتاتك شرموطة نوعاً ما، آخر مرة رأيتها كانت تضاجع أفراد فصيل زولو-1400! فقلت لبابز: إنسها يا رجل، إنها لا تستحقك!

ولوّح مات بعلبة طعام لبوك، وقال له: ألا تريد وجبة بيفروني؟! فرد بوك: آخر مرة أعطى فيها الرجل الأبيض شيئاً لشعبي كانت بطانيات مليئة بمرض التيفود! لكنه أخذ منه العلبة وفتحها وراح يأكل منها بالرغم من ذلك.

وحضر الأب الروحي بنفسه إلى المخيم بطائرته الهليكوبتر، وقال لنا: لعلكم تفكرون في أن دخول بغداد ومواجهة إرهابيين متمترسين في الشرفات وخلف المباني ليس باللعبة المناسبة للمارينز، خصوصاً وأنتم تقودون سيارات همفي مكشوفة، حسناً يا سادة، استمعوا إليّ، إن الحل كان أمام ناظريّ طوال الوقت وقد تحدثت فيه مع الجنرال ماتيس شخصياً، إن هناك مدينة في شمال بغداد اسمها بعقوبة، وتبعد عن بغداد 50 كيلومتراً، وفيها عدد كبير من المشتبه بكونهم جهاديين، لأن سكانها من السنة وهناك عدد كبير منهم من البعثيين! سوف تتوجه الفصيلة إلى هناك، وسوف تتحركون في غضون 30 دقيقة من الآن، فكونوا مستعدين، وهناك أمر آخر أيها السادة، سوف تنضم إليكم فصيلة دلتا للمساندة!

وعندما سمعنا ذلك قال بعضنا همساً: اللعنة، فصيلة دلتا من جنود الاحتياط! وقال الملازم مايك: على الأقل سيكون معهم آليات جيدة بدلاً من عربات الهمفي المتناكة التي نقودها، وسوف نحتاجهم، صدقوني سوف تكونون ممتنين لهم عندما نشتبك مع العدو، إنهم يرسلوننا إلى مسقط رأس مؤيدي صدام! هذه منطقة أشرار!

ورأيت جيف الشيوعي يكتب في دفتر، فسألته، فقال إنه يكتب يومياته عن الحرب: الدخول إلى المدن، وتدمير القرى المدنية، واحتلال مطار شاغر هجره العدو، وكل شيء! ونظرت بسرعة في الدفتر قبل أن يزيحه بعيداً عن ناظريّ، فرأيت أنه قد وصف فلتشر بـ "سايكو"، فقلت له إنه وصف موفق، ولكن ربما كان على المرء أن يصبح مجنوناً هنا لكي يبقى على قيد الحياة!

وانضمت إلينا فصيلة دلتا في المخيم بآلياتها الأفضل من عربات الهمفي، وكانوا يعلقون قرون ثيران على مقدمة مدرعاتهم المتناكة. وكان الملازم مايك يعرف منهم الملازم سام منذ أن خدما معاً في أفغانستان. وراح الملازم سام يضحك ويقول إن الوضع في الفصيلة كان جنونياً منذ اليوم الأول، برغم أن القيادة لم تكلف الفصيلة إلا بمهمات من قبيل حراسة شاحنات الإمدادات، وتوصيل الطعام إلى باقي الكتائب، وحراسة بعض المواقع والطرق التي استولى الجيش عليها، وأشياء كهذه، ورغم ذلك فإن فصيلة دلتا قد دخلت قرية عراقية بالأمس، وراح الجنود يوزعون على أطفال القرية مجلات إباحية على اعتبار أن ذلك

مضحك وظريف، وأن هذا الأمر قد أغضب الرجال في القرية، الذين راحوا يقولون إننا نفسد أخلاقيات الأطفال وكل ذلك، فحدثت مشاداة بين بعضهم وبعض جنود الفصيلة، فأطلقت الفصيلة نيرانها الكثيفة من مدافع مارك-19 الرشاشة فقضوا على القرية كلها، وإن تعطشهم للدماء قد زاد منذ ذلك الحين ويريدون إطلاق النار على أي شيء! ولما أبدى الملازم مايك استغرابه، أكد له الملازم سام الأمر، وقال له إن الجندي أوليفر في الفصيلة قد صور كل شيء بالتفصيل بالكاميرا لأنه يريد أن يبيع الشريط لقناة فوكس.

قال جيف الشيوعي الذي كان يستمع للحديث: إنهم يشبهون رجال الشرطة في لوس آنجلوس ولويزيانا في تعطشهم للدماء!

وسأل الملازم مايك الملازم سام: هل يعرف الأب الروحي بما حدث في القرية؟! فقال الملازم سام: إنه يعرف كل شيء وبالتفصيل، وقد قال إن على فصيلة دلتا أن تنضم إليكم حتى تتعلم منكم بعض الانضباط وكل ذلك الخراء!

وجاءت شاحنة إمدادات بملابس جديدة لنا، وقالوا لنا أن نبدل ملابسنا، وأن نخلع بدلاتنا الواقية من أسلحة الدمار الشامل، وأن نرتدي البدلات القتالية العادية الجديدة. وكانت البدلات جديدة فعلاً، ونظيفة، ورائحتها جيدة. ورحنا نبدل ملابسنا. وقال ويل: ما داموا قد أمرونا بخلع البدلات الواقية من أسلحة الدمار الشامل، فهذا يعني أنه ما من أسلحة دمار شامل هنا! فقال جيف: وإن لم

يكن هناك أسلحة دمار شامل فلماذا نحن هنا في العراق أصلاً؟! فقال ويل: كنت أعرف أنك شيوعي متناك يا جيف! فرد عليه جيف: أليس هذا هو سبب غزونا للعراق، أليس هذا هو الهدف من وجودنا هنا؟! فقال له ويل: الهدف هو أن نقتل أكبر عدد ممكن منهم يا خرم الطيز! فقال له جيف: وقد كدنا أن ننتهي من تحقيق هذا الهدف بالفعل يا ويل! فصاح آيسمان فيهما: لدينا مهمة، حافظا على تركيزكما!

وركبنا عرباتنا، وتحركنا في الطريق إلى بعقوبة. وقلت ونحن نتحرك: إنني أشم رائحة خصيتيّ يا بابز، وهما تشبهان رائحة فمك تماما!! فقال بابز: وكيف عرفت رائحة فمي يا خرم الطيز؟! فقلت له: لأن خصيتيّ كانتا في فمك المتناك!

وأثناء الطريق كنا نرى الكثير من عائلات الحاج التي تحمل كل منها متاعها على عربات جر يدوية وتفر من القرى والبلدات التي نمر بها.

وحل الليل علينا ونحن نتحرك على الطريق. وكنا نشغل الراديو على محطة البي بي سي التي كانت تقول إن جنودنا يتعرضون لكمائن وتفجيرات انتحارية في بغداد، فأمر الملازم مايك بإغلاق الراديو. وفجأة بدأت المدافع الرشاشة لفصيلة دلتا في إطلاق النار بكثافة على بيوت قرية في الطريق، فأطلقنا نحن أيضاً نيراننا عليها ونحن مستمرون في السير بالمركبات. وصاح آيسمان وقال: لا يوجد إطلاق نار من بيوت القرية، أوقفوا النار!

فارتدينا نظارات الرؤية الليلية ولم نشاهد فعلاً أية نيران من ناحية القرية. وصاح آيسمان مطالباً الجميع بالكف عن إطلاق النار، ولكن إطلاق النار استمر على بيوت القرية من قبل فصيلة دلتا، الذين كانوا في حالة هياج عصبي، ويصيحون بأن الحاج يطلق علينا غازات سامة من خلف منازل القرية! فأمرنا آيسمان بالتوقف، ونزل من مركبته، وراح يصيح في جنود فصيلة دلتا المتناكين ليتوقفوا عن إطلاق النار على القرية!

ثم استأنفنا السير ببطء حتى الصباح. وتوقفنا من أجل معاينة جثة للحاج خارج المدينة، وراح آيسمان والملازم مايك والرقيب هولسي يتفحصون الجثة، عندما فتح أحد جنود فصيلة دلتا نيران مدفعه الرشاش عليهم، فهرعنا إليه ليتوقف عن إطلاق النار، فقال إنه قد تلقى الأوامر بفتح النار على أي شيء يتحرك على جانبي الطريق، فقلنا له: أنت تطلق النار على المارينز يا خرم الطيز يا متناك! ولم يصب أحداً بأذى لأن النقيب براد ومن معه انبطحوا أرضاً فوراً بجوار جثة الحاج العراقي عندما فتح الجندي الغبي النار عليهم.

واتجه آيسمان إلى اللاسلكي، وأخبر القيادة بما حصل الآن، وبما حصل ليلة أمس عندما فتحوا النار على القرية المدنية، وطلب من الأب الروحي أن يسحب فصيلة دلتا إلى أي مكان آخر، وقال له: لا أريد هؤلاء الحمقى معنا! لكن الأوامر جاءت بأن تبقى فصيلة دلتا معنا كما هي، فقال آيسمان لباتيستا عبر الراديو: هذه فكرة سخيفة جداً، وستؤدي إلى الكثير من المشاكل!

وتحركنا بالمركبات على الطريق حتى دخلنا مدينة بعقوبة، وكان الأهالي يرفعون أيديهم فوق رؤوسهم عندما يروننا ويقولون: نو صدام، نو صدام! ونزعنا الأعلام العراقية التي رأيناها في مداخل البنايات الحكومية. وأطلق فلتشر النار على أحدهم فأرداه قتيلاً، وقال إنه رأى معه سلاحاً. وعندما ذهبنا لتفقد جثة الحاج لم نجد أية أسلحة. وكانت المدينة هادئة للغاية، وأغلب السكان لزموا منازلهم، ولم تصادفنا أية متاعب كما توقعنا. وجاءت الأوامر من الأب الروحي بأن المحطة التالية ستكون بغداد، وأن علينا التحرك إلى هناك فوراً. وخرجنا من المدينة، وسرنا عبر الطريق الأسفلتي المؤدي إلى بغداد ونحن نغني.

وفي الطريق إلى بغداد، طلب مني المراسل بابز أن أدلي بحديث إلى مجلته، وقال إنه سوف ينشر كل ما أريد قوله لقراء مجلته، فقلت له:

"أنا لا أكترث بما يقرؤه قراء مجلتك لأنه خراء إعلامي على أية حال! إنهم يعتقدون أن جنود المارينز مختلون عقلياً وعنصريون، أليس كذلك؟! ولكن لا يمكن لشخص من الخارج أن يفهم من نحن حقيقة يا بابز! إننا جميعاً إخوة هنا، وفي نفس الوقت لا نكف عن اختبار بعضنا البعض باستمرار وبلا توقف! إن كل ذلك التدريب الذي خضعنا له، والفنون القتالية، واستخدام الأسلحة، وباقي كل الخراء، هو مجرد تمرين فقط من أجل القتال الحقيقي في الميدان، والذي سنسيطر فيه على الملاعين أولاد الشرموطة! إننا نطبق هنا نفس قوانين السجن، نبحث عن أية

نقطة ضعف يمكن استغلالها، كل شيء يمكن أن تستخدمه ضد عدوك ابن الشرموطة!

الانتماء للمارينز لا يكون بالكلام يا بابز، وإنما بالأفعال. عندكم في العالم المدني، قد يضع بعض قراء مجلتك شعار حماية الكوكب على سيارته، فيصبح في لحظة ضليعاً في مسألة حماية البيئة ومن المدافعين عنها، بالرغم من أنه لا يزال يقود تلك السيارة، ويشغل حاسوبه، ويلعب ألعاب الفيديو، ويشحن هاتفه في كل ليلة بالكهرباء، ويستفيد من استخدام الطاقة النووية، والفحم، وزيوت الفقمات، ولكنه ما دام لديه ذلك الملصق المتناك للدولفين على زجاج سيارته، فسيعتبرونه من المنقذين للكوكب!

أما في عالم المارينز فلا يهم ما يقوله ابن الشرموطة منا، لأن كل ما يهم يا صاحبي هو الأفعال، أن تقوم بتنظيف وتلقيم رشاشك حين يطلب منك القائد المتناك ذلك، وحين لا يطلب أيضاً. صحيح أن جنود المارينز مشهورون بالتذمر من كل شيء: الطعام القذر، والقادة الاغبياء، وعدم وجود الوقت الكافي للاستمناء، لكنك لن تسمع أبداً أي جندي في المارينز يتذمر من أنه سوف يموت في أية لحظة! إن هذا ما انخرطنا في المارينز من أجله يا رجل!

لا يهمني إن ظن طالب مخنث من قرائك الذين يشربون القهوة بالحليب بأنني مختل عقلياً وعنصري ومن دعاة التمييز العرقي، لا يهمني هذا! لأنني سوف أضحي بحياتي في أية لحظة

من أجل أخ لي في الفصيلة من عرق مختلف. أنا أعلم أنني سأفعل ذلك، ولكن هل أولئك المخنثون من دعاة المساواة العرقية على استعداد لفعل نفس الشيء؟!

أنا أحب كل مشاة البحرية، كل المارينز إخوتي. وأحب حتى الأغبياء والعنصريين والمتناكين منهم.

لقد التحقت بالمارينز بعد 10 أيام من تخرجي من المدرسة الثانوية. كانت أمي فقيرة وتعمل في غسل الصحون. وكنت أنا أيضاً أعمل في الصيف. كنت أغسل الصحون في مطعم (دي آنجلو) للبيتزا في بالتيمور، وكنت أكد في العمل. التحقت بالمارينز وأنا في الـ 19 من عمري. إنه مكان صارم، أنا أعرف ذلك، وجميع المارينز يعلمون ذلك، ولكنك لن تجد مكاناً أفضل منه للرجال على الكوكب. لماذا تنظر إلى خصيتيّ؟! لقد حلقت شعر خصيتيّ يا بابز، إنهما ناعمتان جداً الآن، هل تريد أن تلمسهما؟!"

وتوقفنا على مشارف بغداد، وترجلنا عن مركباتنا، وقال الملازم سام من فصيلة دلتا: سمعت عبر اللاسلكي أن الفدائيين ما زالو يقنصون الوحدات الأمريكية هناك!

وقال آيسمان إن الأوامر قد صدرت بأن نتوجه إلى ذلك الحي، وأشار إلى موضعه على الخريطة. وقال المترجم: يجب أن نأخذ حذرنا لأن هذا الحي يسميه الشيعة في المدينة (حي صدام) لأنه مليء بالمؤيدين لصدام!

وأصدر آيسمان أوامره بأن نتبرز وأن نتبول لأننا توقعنا أن اليوم سيكون طويلاً. وكتب راي (يو إس أى) ببوله على الرمال، فصاح فيه الرقيب هولسي: توقف عن العبث وتبول جيداً!

ثم صعدنا لمركباتنا، وتحركنا، ودخلنا المدينة ونحن متيقظون. وعبرنا من طريق جيد تحفه الأشجار المزهرة من كلا الجانبين. وكانت حركة السكان طبيعية، وكان هناك الكثير من الزحام فيما بدا أنه سوق للطعام. وكان كل من مررنا بهم من الحجاج لا يعبأون بنا وكأننا غير موجودين. وراح البعض منا ينشد أغنية (كنج أوف ذى رود) في العربات الخلفية.

ودخلنا من بوابة أحد المصانع التي حولها الجيش بالأمس إلى معسكر. وكان على بوابة المصنع عدد كبير من الفتيات والفتيان الذين يمدون أيديهم ويشحذون.

واكتشفنا أننا في مصنع للسجائر. ورحنا نفتش عن أعواد ثقاب. وكانت سجائر الحاج جيدة. وقال ويل: ها قد تذوقنا سجائر الحاج، والخطوة الثانية الآن هي أن نتذوق فروج حريمه! أما بالنسبة لك أنت يا رودي، فيكفيك أن تتذوق زبه في طيزك! وقال جيتس: لو كان هذا المصنع لسجائر مارلبورو لاستطعنا أن نصبح جميعاً أغنياء!

وكان كل شيء بالمصنع مدمراً ومحترقاً، باستثناء بضعة صناديق كرتونية معبأة بالسجائر. وعلمنا أن كتيبة الاستطلاع الأولى بالجيش هي التي اقتحمت المصنع بالأمس وقامت بتأمينه.

وسألنا عن نتيجة التحقيق الذي قالوا إن القيادة تجريه بشأن جرائم الحرب التي قام بها العقيد آرنولد، فعلمنا أن التحقيق انتهى بإصدار لوم لكابتن أمريكا على تدميره لقرية المدنيين دون داع، وأعفوه أيضاً من منصبه لمدة 20 دقيقة، ثم أعادوه لمنصبه في قيادة الكتيبة مرة أخرى بعد انتهاء العشرين دقيقة.

واضطجعنا في ساحة المصنع، واسترحنا ورحنا ندخن، وشغل أحدهم أسطوانة لموسيقى الراب. وقال فكتور: إنهم يدفعون لنا من أجل أن نقتل، أليس كذلك! فقال له جيف: ولكن كابتن أمريكا يقتل الأشخاص الخطأ! فقال له فكتور: لدي عم جنرال بثمانية نجوم في القيادة المركزية، سوف أتصل به لكي يفصل العقيد آرنولد من الخدمة، ما رأيك! فقال ويل: وأنا لدي عم محامي، سوف أوكله للدفاع عن كابتن أمريكا! فصاح فيهم جيف الشيوعي: أنتم جميعاً متناكون!

وأتى كرستوفر وقال إنه علم منذ قليل بأن اثنين من جنود كتيبة الاستطلاع الأولى قد رفضا تنفيذ أوامر لكابتن أمريكا بإطلاق النار على بعض المدنيين في أحد أحياء بغداد هذا الصباح، وإنهما قد أحيلا إلى التحقيق وسوف يواجهان الكثير من المتاعب!

ثم جمعنا آيسمان في أحد عنابر المصنع وقال لنا: جاءتنا الأوامر الآن بأن مهمتنا هنا في بغداد هي تنفيذ دوريات استطلاع في بعض أحياء المدينة من أجل تحقيق عدة أمور: أن نأكد

الوجود الأمريكي هنا، وأن نعيد الشعور بالأمان لدى الأهالي، وأن نحاول أن يستعيدوا نشاطهم وحياتهم اليومية، وأن نوقف أي عمليات نهب نراها في طريقنا من التي تقوم بها العصابات المحلية، وسوف نمر على بعض المرافق الأساسية في تلك المناطق مثل المستشفيات والمدارس، وهناك مجهود يبذل الآن مع المتعاونين المحليين من أجل جمع المعلومات الاستخباراتية عن الفدائيين والموالين لحزب البعث الذين ما زالوا طلقاء، سوف نمنع الفوضى هنا، وسوف ننزع سلاح أي أحد نراه أثناء الدوريات، وسوف نعيد الأمن، ونعيد الثقة المتبادلة بيننا وبين سكان المدينة، يجب أن نُظهر لهذا الشعب السبب الحقيقي لمجيئنا إلى هنا، أبقوا أسلحتكم جاهزة طوال الوقت لأنه ربما يكون هناك بعض القناصة من الجهاديين في الطوابق العليا للبنايات التي سنمر بها، وقد تكون هناك سيارات مفخخة في طريقنا، إن المعلومات المتوفرة الآن لدى القيادة هي أن وحداتنا تتعرض لإطلاق النار في المدينة مرة كل 40 دقيقة تقريباً، ولكن بخلاف ذلك فالمدينة آمنة بالمقارنة بما مررنا به في الأماكن الأخرى التي كنا بها، استريحوا هذه الليلة وسنبدأ العمل في صباح الغد. وهمس جارزا: هذه المدينة بالتأكيد أأمن من أي مكان آخر تكون فيه وتكون وراءك فصيلة دلتا المتناكة التي تطلق عليك النار!

وعندما عدنا إلى ساحة المصنع رأينا طائرات الهليكوبتر تحلق في سماء المدينة. وعندما حل الليل نمنا بجوار مركباتنا في الساحة، وكان بعضنا يحاول الاستمناء، وسمعنا الكثير من طلقات الرصاص وانفجارات القنابل بالخارج، وقال مات: ربما يتعلم

العراقيون الآن كيف يحبون الديمقراطية!

ولأول مرة ومنذ فترة طويلة وصلنا البريد أخيراً في تلك الليلة. تلقى بعض الناس رسائل من زوجاتهم، وتلقى فكتور بعض الفواتير المستحقة الدفع. وتلقى ويل رسالة تخبره بأنهم سوف يستعيدون ملكية سيارته لأنه لم يدفع الأقساط الأخيرة. فقال له الملازم مايك: ألا يعلمون أنك بطل الحرب هنا! وتلقى جيف رسالة من محامي زوجته يخبره بأنها سوف تأخذ الأولاد بعد الطلاق. فقال جيف إنه سيرسل مروحيات الكوبرا إلى محامي زوجته، وربما يحشر بعض قذائف الهاون أيضاً في مؤخرته! وتلقى بوك رسالة من زوجته تقول له فيها إنها مشتاقة له جداً، وإنها سوف تنضم إلى المارينز حتى تصبح قريبة منه. فسخر منه فكتور وقال له: إن انضمت زوجتك إلى المارينز فسوف يضاجعها ثلاثة زنوج معاً من فصيل زولو-1400، وسوف يقذفون في فمها ويجبرونها على شرب منيهم! أما جيتس فأخبرته زوجته بأنها قد التحقت بأحد صفوف دراسة الرقص وكل ذلك الخراء!

وقال آيسمان: يبدو أن البريد قد نقل إلينا كل الخراء الذي يحدث هناك في الوطن! فقال له الرقيب هولسي وهو يغمز بعينه: إذا شعرت بأن معنويات الرجال في هبوط يا سيدي فأخبرني وسوف أرفع لك معنوياتهم المتناكة فوراً!

ورأيت جيف يستأنف بعد قليل كتابة يومياته في دفتره، فقلت

له: يبدو أنك عازم على إصدار كتاب عن الحرب عندما ترجع إلى الوطن! فرفع رأسه وقال: وماذا عنك؟! أنت أيضاً يمكنك أن تكتب عن كل هذا الخراء!

وفي الصباح ازداد عدد المتسولين على بوابة المصنع، وكانوا الآن يتشكلون من مختلف الأعمار من النساء والرجال والصبية والفتيات.

وخرجنا في الصباح للقيام بأول دورية في المدينة. وفي أول مدرسة دخلناها، وجدنا عناصر من المارينز هناك تحتلها، وقال لنا قائدهم: أيها السادة، لقد احتلت الفصيلة الأولى من الفرقة الرابعة للمارينز هذا المبنى، وبكل الاحترام نطلب منكم أن تجدوا لمؤخراتكم المعفنة مكاناً آخر لتتناك فيه، يوماً سعيداً يا سادة!

فخرجنا من المدرسة ونحن نكاد أن ننفجر من الغيظ. وقال الرقيب هولسي: من يظنون أنفسهم! فقال له الملازم مايك: لقد احتلوا المبنى أولاً! وأمرنا آيسمان بالانتقام لشرف الفصيلة. فتسللت مع جيف وبوك وويل وتسلقنا أسوار المدرسة حتى وصلنا إلى السطح، ثم نزلنا إلى الداخل عبر فتحة للتهوية، وتسحبنا عبر الممرات، وتفقدنا بعض مكاتب الإدارة، حتى وصلنا إلى غرفة مدير المدرسة، فدخلنا وأغلقنا الباب خلفنا، وحطمنا كل شيء في الغرفة وأجهزة الكمبيوتر، والتلفزيون، والتليفون، والفازات، والتماثيل، واللوحات التي على الحائط، ثم تبولنا على الأريكة والكراسي والمكتب، وتغوط ويل على كرسي

مكتب المدير، ثم خرجنا من المدرسة كما دخلنا دون أن يشعر بنا الحمقى المتناكون من الفصيلة الأولى للفرقة الرابعة!

واستمرت دوريتنا عبر شوارع بغداد، وكان الشبان العراقيون يوقفوننا في بعض الأحيان ويقولون لنا: أمريكا جود، صدام نو جود! وطلب بعضهم العمل معنا. وكان أحدهم وسيم الطلعة ويرتدي ملابس نظيفة، قال لنا بإنجليزية سليمة: كل شيء هنا بالرشوة، لا يوجد شغل، لا نفعل شيئاً سوى الكلام ولعب الورق، صدام كان خرم طيز كبير، هل معكم سجائر؟! الحياة هنا صعبة، هل معكم فاليوم؟! إنني لا أستطيع النوم ليلاً، الطلقات لا تتوقف في الليل وهناك الكثير من الأبرياء يُقتلون، ليس من قبلكم، بل من قبل الميليشيات هنا، الدكان الوحيد الذي كان يبيع خموراً قد احترق حين دخلتم المدينة، هل معكم أية مخدرات ترفع المعنويات؟! في النهاية أعطيته علبة سجائر محلية كانت معي، ففتحها وناولني سيجارة، وأشعلها لي.

وتوقفنا في أحد الميادين، وأحضر لنا بعض الأهالي أكواباً من شاي الحاج، وبعض الموز. وقال بوك: انظروا إلى هذا، النساء هنا هن من يعملن، بينما رجال الحاج جالسون يثرثرون! فقلت: من حسن الحظ أننا لم نقاتل النساء هنا، وإلا فإنهن كن سوف يركلن مؤخراتنا! وجاء أحد الشبان وقال لجارزا: عيناك جميلتان، هل تحب الولاد أم البنات؟! فقال له جارزا: البنات. فتأفف الولد، وأشار بإصبعي السبابة المفرودين معاً، وقبل الهواء بشفتيه. فصاح جارزا لرودي الخول: رودي، ها هو شاذ مثلك

يريد التعارف!

ورجع آيسمان وراح يقرأ من مفكرته وهو يقول: لقد تحدثت مع بعض السكان وحصلت على لائحة بطلباتهم، هناك: إبطال مفعول الألغام الأرضية التي لم تنفجر بعد، وإصلاح التيار الكهربائي الذي ينقطع طوال الوقت، وإصلاح المياه الجارية لأنها لا تصل إلى البيوت، وإصلاح خطوط الهاتف المتضررة، والمستشفيات المنهوبة، والتصدي لقطاع الطرق الذين يخرجون ليلاً وينهبون المنازل، ويريدون أيضاً توفير أعمال للرجال لكي ينفقوا منها على عائلاتهم! فقال الملازم مايك: هذه لائحة طلبات طويلة! فرد آيسمان: وهذه مجرد طلبات اليوم فقط، من يعلم ماذا سوف يطلبون غداً أيضاً!

وقال جيف: كان علينا أن نمر بالدورية ليلاً لا نهاراً، حتى نوقف قطاع الطرق! فقال له آيسمان: بحسب معلومات القيادة، فإن التحرك ليلاً سوف يعرضنا للكثير من المخاطر والكمائن وإطلاق النار علينا! فقال له جيف الشيوعي: ولكن يا سيدي إننا هنا في بغداد لهذا السبب بالضبط، كما شرحت لنا بالأمس يا سيدي! فصاح فيه آيسمان: علينا أن ندع الأمور الآن تجري في مجاريها الطبيعية! فرد عليه جيف: مجاريها الطبيعية يا سيدي؟! فرد آيسمان وهو غاضب: قدرة القوى المعادية لنا في بغداد تتزايد يوماً بعد يوم، والأمور هنا معقدة جداً نظراً لتعصب السكان المحليين، وهناك معلومات الآن بوجود قوات شبه عسكرية تختبئ في الأحياء الشيعية، وقد أمرتنا القيادة اليوم بأن لا نخرج

ليلاً، هذه ليست مهمتنا يا جيف، قد تكون تلك الميليشيات تستهدف السنة والجهاديين بأكثر من استهدافها لنا، لأن هناك معلومات استخباراتية بأن الميليشيات الشيعية سوف تقوم بالعمل القذر بالنيابة عنا هنا، إن القيادة تريدنا أن نتراجع خطوة إلى الخلف لكي ندع أحدهما يقتل الآخر، هل فهمت، لن نخرج في الليل في هذه المدينة!

وتحركنا مبتعدين عن المكان، وكان الأطفال يضحكون وهم يجرون خلف مركباتنا ويلوحون لنا، كان ذلك أمراً لطيفاً حقاً. وعدنا إلى معسكرنا في مصنع السجائر لأن الظلام كان على وشك الهبوط على المدينة. واستمر صوت الرصاص والقذائف طوال الليل. كان أحدهما يقتل الآخر، كما قال النقيب براد، أو كلاهما يخلصان على بعضهما البعض كما كان الرقيب هولسي يتمنى.

وفي الصباح التالي قمنا بدورية في أحد أحياء المدينة الشمالية الذي كان يبدو أكثر فقراً بكثير. وتوقفنا في إحدى الساحات، وراح النقيب براد يسأل بعض الأهالي عما يحتاجونه. وترجم له المترجم قول أحد الرجال: نحن نحتاج إلى شيئين هنا: أولاً الماء النظيف، وثانياً سوف نقيم تمثالاً لجورج بوش من أموالنا الخاصة إن استطعتم تنظيف وتسليك مجارير الصرف الصحي الطافحة في شوارع الحي! وسأل آيسمان المترجم: هل يشربون مياه قذرة؟! فقال له المترجم: نعم. ثم قال المترجم إن الأهالي يشتكون من أن المسلحين المحليين يسيطرون في الليل

على الشوارع ويقتلون الناس وينهبون أموالهم، وإنهم قد استولوا على الأسلحة من مراكز الشرطة الشاغرة ومن مخازن الجيش العراقي، وإن أي شخص يستطيع الآن شراء بندقية بعلبتين من السجائر! بل وهناك الكثير من مدافع الهاون مع أولئك المسلحين أيضاً وهم يقذفون بها البيوت عشوائياً ويقتلون الأطفال!

وكان أحد العراقيين حليق الذقن ونظيف ويرتدي بدلة أنيقة، وقال لنا بإنجليزية ممتازة: لقد فككتم البلد، ولكنكم لن تعرفوا كيف تعيدوا تركيبه من جديد! والعنف الذي يحصل الآن ليلاً في الشوارع، والسماح للمجرمين بتكوين ميليشيات، وللصوص بالخروج عن السيطرة، لن يصحح كل ذلك أخطاء صدام، ولن يمكنكم من السيطرة على البلد، إن ما يحدث الآن هو قنبلة، وحين تنفجر ستكون أخطر من الحرب نفسها!

وفي ذلك الحي، ساعدنا في إقامة خيمة طبية، وتولى العمل بها طبيب من الجيش اسمه الكابتن متش. وقد حاول علاج جروح الأشخاص الذين تعرضوا لإطلاق النار عليهم من الميليشيات العراقية واللصوص. وكان هناك طابور طويل من النساء والرجال والأطفال المحتاجين للعلاج يصطفون خارج خيمة الطبيب.

وكنا نشم رائحة البارود في الهواء من طلقات الليلة البارحة. وقال جيف: هذا خراء، هل يفترض أن تطرد الميليشيات الشيعية السنة والجهاديين المؤيدين لصدام! أليس هذا ما يقولونه لنا؟! لقد

علمت أن هذا الحي هو من الشيعة مئة بالمئة، فمن الذي أطلق النار عليهم إذاً؟! إن هذا جنون! إن الأمور تخرج هنا عن السيطرة! وإذا أردنا أن نعرف من هو المسؤول عن كل تلك الإصابات التي لحقت بالمدنيين فعلينا أن نظل هنا حتى الليل، لكن القيادة تأمرنا بأن نقوم بدورياتنا في الصباح فقط وأن نعسكر في مصنع السجائر في الليل عندما يكون هؤلاء الناس في أشد الحاجة إلينا!

وكان كل الرجال المصابين الواقفين على باب الخيمة الطبية يطالبون بأقراص الفاليوم، ويقولون إنهم لم يناموا منذ عدة ليال. ورفض الكابتن متش إعطاءهم أقراص فاليوم. وحاول المترجم أن ينظم صفوفهم في الطوابير. ثم دخل للخيمة وأخبر الكابتن متش أن يتوقف عن إعطاء سكاكر للأطفال، لأنه حالما يخرج الأطفال من الخيمة، يستولي بعض الرجال الواقفين في الطابور على سكاكرهم لكي يبيعوها. فخرج الكابتن متش غاضباً من الخيمة، وراح يدفع بيديه الرجال الواقفين في الطابور في صدورهم. وذهب إليه آيسمان بهدوء وقال له: نقيب متش، هؤلاء الرجال على وشك اكتساح الخيمة بعد قليل، سوف ننسحب الآن بأسرع ما يمكن! فقال له الكابتن متش: نعم، أنا أيضاً أرى ذلك!

ففككنا الخيمة الطبية سريعاً، وحملنا كل ما فيها إلى مركباتنا، وتحركنا مغادرين للحي، وكان الرجال يتعلقون بعرباتنا ويحاولون الصعود إلينا، فزدنا من سرعتنا كثيراً حتى تخلصنا منهم.

وذهبنا إلى حي آخر، وكان حياً هادئاً. وعسكرنا بجوار جامع الحي. وأتى الأطفال الصغار ووقفوا معنا، فوزعنا عليهم بعض السكاكر. ولم يكن هناك ما يُفعل. واستأذن المراسل بابز من آيسمان، وأخذ معه المترجم ودخلا إلى الجامع، وطلب أن يقابل الإمام. وقال لنا بعد أن خرج من الجامع إن الإمام قال له إنه يرحب بالقوات الأمريكية على أرض العراق طالما أنها لا تشجع الناس على القيام بأمور الفساد الأخلاقي. وقال بابز إنه حكى للإمام عن مهاجمة الرجال العراقيين للخيمة الطبية التي أقمناها لهم منذ قليل، فقال له الإمام: في مثل تلك الحالات يجب عليكم أن تضربوا الناس بعنف، لأن الناس هنا معتادون على الاستبداد، ولن يحسنوا التصرف إلا إذا قمتم بضربهم! وسألت بابز: هل أنت متأكد من صحة الترجمة؟! أعني أنه ليس من الصواب تماماً أن نعتمد في الأمور الحيوية على خرم طيز واحد فقط يجيد اللغة العربية المتناكة ويترجم لنا، أليس كذلك؟!

ثم صدرت الأوامر، فتحركنا إلى حديقة كبيرة ليس بها الكثير من الأشجار ولا النباتات، ولكنهم هنا يسمونها حديقة. وقالت القيادة لنا إن هذه منطقة لانطلاق الفدائيين، وإن علينا أن نتمركز فيها حتى الليل، وأن نستخدم نظارات الرؤية الليلية لمراقبة ما يجري في الحديقة، على أن نمشطها كلها في الصباح بحثاً عن أية قوى معادية.

وعسكرنا في الحديقة. وقال لنا الملازم مايك: أخيراً كلفونا بمهمة ليلية يا سادة! وكنا من موقعنا نرى البنايات الأعلى في

المدينة من خلف الأشجار القليلة المتناثرة في الحديقة. ورأينا أضواء النيران التي تطلق في كل أحياء المدينة ليلاً، ورأينا أيضاً قذائف الهاون التي تسقط على البنايات، ولم يتوقف صوت الرشاشات الآلية طوال الليل. وقال الرقيب هولسي: القتال الآن محتدم، الميليشيات الشيعية تصفي الفدائيين وأتباع صدام!

وجاءنا صوت باتيستا عبر اللاسلكي وقال: الأب الروحي يأمركم بأن ُتظهروا عدوانيتكم الآن، وأن ترسلوا بعض المشاة إلى أقرب حي إليكم ليقوموا بتمشيطه. فرد عليه آيسمان: نظراً إلى مستوى الاضطراب في المدينة حالياً، ونظراً إلى افتقارنا إلى أية معلومات بشأن من يطلق النار على من، ونظراً إلى عدم وجود معدات التمشيط الليلي المناسبة معنا ولا أية أسلحة حرارية، سأطلب من رجالي أن يبقوا هنا حتى الفجر ولن يتحرك أحد من هذه الحديقة! فرد عليه باتيستا بعد قليل: سلبي، الأب الروحي يؤكد الأمر بتمشيط أقرب حي إليكم الآن ودون إبطاء، نفذوا فوراً! فرد عليه النقيب براد بغضب: سأبقي رجالي في وضعية دفاعية في الحديقة ولن نتحرك، هل تسمعني! فقال له باتيستا: سلبي، الأب الروحي يعيد تأكيد الأمر مرة أخرى بأن.... وأغلق آيسمان جهاز الراديو في وجه باتيستا، وقال: يريدوننا أن نكون أكثر عدوانية وأن نرسل رجالاً إلى هناك! لماذا؟! لكي نعود إلى الوطن برفقة 20 جثة! فقال له الرقيب هولسي: سيدي، صلاحيات قائد الفصيل الظرفية قد لا تساعدك حين ُتسأل بخصوص عدم انصياعك للأوامر يا سيدي! فرد عليه النقيب براد: لقد استخدمت صلاحياتي، لقد قمت بتقييم الموقف لكوني

الضابط القيادي في الميدان، والأب الروحي لم يكن حاضراً هنا في الميدان لكي يحكم بشكل صحيح! فقال له الملازم مايك: أنا أثق في حكمتك، وسوف أنفذ أوامرك في كل الظروف يا سيدي!

وتم استدعاء النقيب براد إلى مقر قيادة العمليات في بغداد في الصباح. وقالوا لنا إنه قد تلقى تأنيباً من الأب الروحي الذي وقع عليه عقوبة إدارية وإنذاراً بالفصل من المارينز، وقال له إن ما فعله سوف يظل عالقاً في سجل خدمته، وإن قوات مشاة البحرية لا تنسى، وإنه هو نفسه، أي الأب الروحي، لا ينسى.

وعندما عاد النقيب براد إلينا في الحديقة، رحنا وتفقدنا الحي المجاور الذي طلبوا منا بالأمس تمشيطه. ورأينا الأهالي واقفين خارج بيوتهم المهدمة بفعل قذائف الهاون التي أطلقتها عليهم الميليشيات الشيعية. وكان هناك ساحة صغيرة بالحي يطلق الأهالي عليها اسم "الحديقة"، ورأينا قذيفة هاون مدفونة لنصفها في التراب ولم تنفجر بعد. وذهب الملازم مايك إلى هناك وحاول تفكيك القذيفة وقال: الأولاد يلعبون في هذه الحديقة وقد تنفجر فيهم! فقال له الرقيب هولسي: أية حديقة؟! حتى نسمي الشيء حديقة يفترض أن تكون به نباتات على الأقل؟! كانت النباتات فعلاً قليلة جداً في تلك الحديقة ولم يكن بها أية أشجار سوى شجرة واحدة متيبسة، ولكن الحاج هنا كان يسمي أي مكان شاغر ومترب بـ "الحديقة". وقال له الرقيب هولسي: إحذر يا سيدي، سوف تفجر نفسك، وسوف تفجرنا جميعاً معك! لكن الملازم مايك طلب منه، ومنا جميعاً، أن نبتعد عن المكان وأن نخرج من

الحديقة. ثم سمعنا صوت انفجار شديد، ولما عدنا إلى الحديقة وجدنا أن الملازم مايك قد قام بتفجير قذيفة الهاون بدلاً من تفكيكها، فقال له النقيب براد: تفكير جيد يا ملازم! لقد نقصت القذائف الغير متفجرة في بغداد الآن واحدة!

وبينما نحن نخرج من الحديقة قال لنا المراسل بابز: هل استمع أحدكم إلى البي بي سي هذا الصباح؟! إنهم يقولون إن جنوداً لنا وصلوا بالأمس إلى بغداد قاموا بإطلاق النار على مجموعة من الأطفال العراقيين الذين كانوا يلعبون على دبابة إم1-إى1 محترقة بأحد الشوارع! فقال له ويل: إذا كانوا يلعبون على دبابة أمريكية، فإنه وفقاً لقواعد الاشتباك يُعتبرون في هذه الحالة مسلحين! واستأنف المراسل بابز حديثه: وقد أجروا مقابلة مع الجنرال ماتيس حول الأمر، وسمعته يتأسف حول ذلك! فقال جيف الشيوعي: إن هؤلاء الحمقى المتناكين يفسدون الأمر أكثر علينا، ألا يدركون أن العالم كله الآن يكرهنا!

وأتى المترجم مع أحد الأهالي وقال لنا إن هناك قذيفة لم تنفجر بعد في فناء منزله هو أيضاً، فتطوع فوراً الملازم مايك لحل المشكلة، وذهب معه جيتس وهو يقول له: سيدي الملازم، لا تعر الأمر انتباهك، صدقني، هل تعلم أنني قبل التحاقي بالمارينز كنت على وشك تأليف كتاب عن حياتي كسارق سيارات! أتعرف ماذا كنت سأسمي الكتاب؟! "لا تكترث"! لا تكترث يا سيدي، هذا صحيح، لا أحد يكترث! أتعرف ما هو أنسب مكان وأنسب وقت لسرقة السيارات؟! إنه موقف سيارات مزدحم عن آخره في

منتصف النهار! لأنه يمكنك أن تركب السيارة وتقودها ولن يكترث أحد بما تفعل، حتى ولو أخذ جهاز إنذار السيارة يصفر، لن ينظر ناحيتك أي شخص من أساسه! هل تعرف لماذا؟! لأنه لا أحد يكترث يا سيدي! في مجال عملي في سرقة السيارات، كانت تلك الحكمة هي مفتاح كل شيء!

فرد عليه الملازم مايك بهدوء: إن تواصل موت المدنيين هنا على هذا النحو سوف يُفسد ما قمنا به من انتصار متناك! هل تفهم؟! فقال له جيتس: أفهمك يا سيدي، ولكن في مجال عملي السابق في سرقة السيارات تعلمت أن أكثر شيء عليّ أن أقلق بشأنه هو فاعلو الخير، إنهم يفسدون الأمور دائماً يا سيدي! فرد عليه الملازم مايك: ومن حسن حظك أنه ليس هناك الكثير منهم هنا، أخرج من هنا!

وخرج جيتس من المنزل العراقي. وذهب آيسمان للداخل لتفقد الوضع، وقال للملازم مايك: يا ملازم، أنا لن أدعك تفجر نفسك، هذه قذيفة مارك-82، لن أضحي بك من أجل الحفاظ على عقار عراقي هنا، لقد انتهى عملنا هنا، أخرج يا ملازم! فانصاع الملازم مايك للأمر.

وأتت الأوامر بأن نعسكر هذه المرة في ملعب لكرة القدم. وقال هولسي: إنه الملعب الذي كان يحتجز فيه صدام فريق كرة القدم الخاص به، لقد كان يعذبهم إذا ما خسروا مبارة، بل ويقتل بعضهم أيضاً! فقال فكتور: يبدو أنهم لهذا السبب كانوا يحققون

نتائج جيدة للغاية! وجاء كرستوفر خفية بزجاجة من سائل شفاف وقال إن هناك حاجاً يريد أن يبيع لنا جن، الخمس زجاجات بخمسة دولارات. فتشممنا السائل، وتذوقناه، ووجدناه جيداً، فاشترينا منه. ثم علمنا أننا سننتقل إلى قاعدة مجهزة لنا في جنوب المدينة بعد الغد. وقال المراسل بابز إنه سيغادر العراق في مساء الغد لأنه ليس من المسموح له بأن ينضم لنا في القاعدة العسكرية في الجنوب.

ورحنا نحتسي الخمر بعيداً عن أعين آيسمان والملازم مايك والرقيب هولسي. وقال جارزا: أراهن أنهم في نشرة الأخبار في الديار يتحدثون عنا كأبطال الآن! وعندما نرجع إلى الوطن سوف يستقبلوننا وهم يلوحون بالأعلام ويقولون: أهلاً بعودتكم، وشكراً لكم لأنكم دافعتم عن حرياتنا، وحميتم بلدنا من الإرهابيين ومن الأعداء، وحافظتم على أسلوب حياتنا المتناك في العيش، وشراءنا لقهوتنا اليومية من متاجر ستاربكس المتناكة، والتي نشربها ونحن نقرأ يو إس ويكلي المتناكة، وبيبول المتناكة، شكراً لكم على كل التضحيات التي قمتم بها!

فقال له جيف: في الحقيقة، نحن الأولاد الذين يمنع الأهالي أولادهم من التسكع معنا في المدرسة! فقال له جيتس: لو كان معنا هنا حفنة من أولئك الأولاد المتناكين من الطبقة الوسطى لتسببوا في قتلنا جميعاً!

وراح ترومبلي يصور مات وقد علق سلاحه بسياج الملعب،

وراح يسحبه بقوة ليخلصه من شبكة السياج، حتى وقع على ظهره على الأرض، فضحكنا جميعاً، وصورنا ترومبلي ونحن نشرب ونضحك. وقلت لترومبلي: أضف هذا إلى فيلمك، يبدو أنه على وشك الانتهاء الآن! وقال فكتور: لقد سيطرنا على العراق المتناكة في أقل وقت ممكن! عليكم أن تشكروا الرجل الأبيض الآن! فرحنا نغني: "تعالوا وأبحروا معنا!"

وعندما حل الليل علينا في الملعب، راح جيتس يكتب رسالة إلى زوجته ويقول: إن زوجتي ذكية جداً، لقد أخطأتْ حين تزوجتني فأنا لست سوى قطعة خراء! أذكر أول مرة تقابلنا فيها وراحت تحدثني عن كل تلك الكتب التي قرأتها، أدركت وقتها أن عالماً بأكمله قد فاتني، قبل أن أقابلها كنت أعتقد بأنني ذكي وأتمتع بمهارات كثيرة، سرقة السيارات، وتفكيكها، ولحامها، وإعادة بيعها، كبرت وأنا لا أعرف إلا هذا، صحيح أن أمي قد حاولت معي، لكنها لم تفلح، كنت وقتها أظن أن من يقرأ كتاباً هو فرج! أبي كان من جنود المارينز المختلين الذين خدموا في فيتنام! فسأله المراسل بابز: ماذا تعني بقولك كان مختلاً؟! فأجابه جيتس: لقد حصل على نجمة برونزية لما فعله في فيتنام، هل تفهم ما أعني؟! ليتني أتمتع بمهاراته الحربية يا رجل! لكنه تركنا ورحل مع فتاته، وفتاته تلك أردته قتيلاً بعد ذلك لأنها كانت تغير من أمي ومن المنزل الذي كنا نعيش فيه، فأطلقت النار على طيز أبي المتناكة! ذات يوم حاول أبي أن يصلح الوضع معي قبل وفاته بقليل، فاصطحبني لصيد السمك معه، إلا أنه وفي طريقنا إلى البحيرة، عرجنا أولاً على متجر إباحي، ومارس أبي الاستمناء

في كابينة الفيديو وهو يتفرج على شريط لامرأة تتعرى، بينما تركني أنا في الخارج في موقف السيارات، حيث حاول رجل مسن شاذ أن يغتصبني هناك، ولم أتخلص منه إلا بعد أن قذفته بحجر شج رأسه! هذه كانت رحلتنا التصالحية الوحيدة كأب وابنه!

ثم قال: أنصتوا إلى هذا! وراح يقرأ بضع فقرات من رسالته إلى زوجته:

"لقد تعلمت هنا أن هناك نوعان من الأشخاص في العراق: العراقي المؤيد للغزو الأمريكي، والعراقي الميت!"

"إنني بخير، خسرت 20 رطلاً من وزني، وحلقت شعر رأسي، وبدأت في التدخين!"

"ننتقل هنا من حفرة خراء، إلى حفرة خراء أكبر منها، وقد تعفنت نصف قدمي اليسرى!"

"على المرء هنا ألا يكترث، لأننا نرى أطفالاً وأشخاصاً قتلى طوال الوقت وفي كل مكان، ونتصرف حيال الأمر بلا مبالاة."

"أفكر فيكِ أنتِ وابننا كل يوم، ثم أتركهما في مكان عميق من قلبي، وأغلق عليكما جيداً، حتى لا تريا ما أراه هنا!"

فصاح راي: هذا قاس يا رجل! أنت تفكر كثيراً في مثل تلك الأمور، تفكر فيها بإفراط!

وكلفونا في الليل بمهمة مرافقة 3 مهندسين مكلفين بتفكيك بعض الألغام في أحد الحقول المجاورة. وقال الملازم مايك: من هو الغبي الذي يأمر بتفكيك ألغام بعد الساعة 11 مساءً!

ووقفنا حول الحقل الواسع، بينما راح المهندسون يجوبونه بحثاً عن ألغام. وفجأة داس أحدهم على لغم وانفجر، فهرعنا إليهم وأخليناهم من الحقل. فقد أحدهم عينه، وآخر ساقه، نتيجة الانفجار. وأخليناهما بسرعة إلى المستشفى الميداني بالمدينة، بعد أن أعطينا لكل منهما بعض المورفين.

ورجعنا إلى معسكرنا في الملعب الرياضي. وجاءتنا الأوامر من الأب الروحي بأن هذه العملية قد صار اسمها الرسمي منذ الآن "عملية الحرية للعراق"، وقال إننا يجب علينا جميعاً الالتزام بهذا الاسم في أحاديثنا الرسمية وغير الرسمية وفي مراسلاتنا كذلك. وعلق جيف الشيوعي قائلاً: يبدو أنه أينما نذهب نحيل المكان إلى حفرة مليئة بالخراء!

وفي الصباح لعبنا مبارة كرة قدم مع كتيبة الاستطلاع الأولى التي جاءت في الصباح هي أيضاً وانضمت إلينا في الملعب. وكنا نحن نرتدي التيشرتات، بينما لعبوا في كتيبة الاستطلاع وهم عاريو الصدور. وأبدى رودي الخول مهارات عظيمة في اللعب جعلتنا نتفوق على كتيبة الاستطلاع المتناكة. وكنت أمزح مع رودي الخول أثناء اللعب وأقول له: هناك بقعة من المني على سروالك يا رودي، هناك في الخلف عند طيزك! بينما كان فكتور

يقول: لقد حلق رودي شعر صدره المتناك كله خصيصاً من أجل هذه المباراة!

وكان العقيد آرنولد يلعب معنا ضمن فريقه وهو عاري الصدر. ولما أحرز رودي هدفاً جديداً فيهم، شتمه كابتن أمريكا، فتوجه إليه آيسمان ولكمه بقبضته في وجهه، ثم ارتمى عليه على الأرض وراح يكيل له اللكمات. وأبعدناهما عن بعضهما البعض ونحن نقول لهما: إنها مجرد لعبة يا سيدي، إهدئ أرجوك يا سيدي! وكان وجه العقيد آرنولد كله دامياً.

وفي الظهر أتت مروحياتنا بعدد كبير من الجرحي، وأنزلتهم في أرضية الملعب. وساعدنا في إقامة مخيم طبي للجرحي الذين أصيبوا في تفجير سيارة في أحد أحياء بغداد.

ثم رحنا نلعب الورق ونثرثر ونشرب خمرة الحاج. وقال ويل إنهم سيسمحون لنا بزيارة بيت دعارة عراقي بعد أن ننتقل إلى قاعدتنا في جنوب بغداد. وقال جيف: هذا البلد كان متناكاً أيام صدام، وهو ما يزال متناكاً إلى الآن، ولن يجعلني أحد أصدق بأننا قد حررنا العراق! فقلت له: الزمن وحده سوف يحكم على ذلك. وقال جيتس: لقد أخبرني القس في الكنيسة بأنها ليست خطيئة إن قمت بقتل العدو، ما دمت لا أستمتع بعملية القتل! ولكن السؤال الذي يشغلني الآن: هل يعتبر عدم الاكتراث نوع من الاستمتاع؟! فقال له ويل: إذا وضعنا الأمور الدينية جانباً، فستظل الحقيقة الأبدية هي: أولئك الذين لا يحسنون القتل سوف يكونون

أهدافاً سهلة دائماً لأولئك الذين يحسنون القتل!

وجاء المراسل بابز لوداعنا، وكان معه لاب توب عليه بعض الفيديوهات التي صورها ترومبلي بكاميرته، وتحلقنا جميعاً حوله، ورحنا نصيح كلما رأينا قصفاً أو انفجاراً، أو أحدنا يقوم بعمل مضحك، وضحكنا كثيراً عندما رأينا أنفسنا متحلقين حول ذلك الخول العراقي ونقبله بالتتابع، ثم أصابتنا رؤية جثث الحاج والأطفال ببعض الكآبة، فأغلقنا اللاب توب في النهاية، ورحنا نشرب. شربنا كثيراً في ذلك المساء، وغض القادة البصر عن ذلك.

وغنينا ونحن نشرب من خمرة الحاج:

ولدتُ في حفرة قنبلة

وكانت أمي إم-16، وأبي الشيطان

أتناول الكونسرتيتا، وأتبول النابالم

ويمكنني أن أردي برغوثاً على بعد 300 متراً

أسافر حول العالم

وأوسع الأشخاص الذين ضد الأمريكيين

ضرباً حتى الموت

من أجل أمي، والشيفورليه،

من أجل البيسبول، وفطيرة التفاح

أنا الجندي

أنا الوغد القذر النتن المتعرق الوسيم

الذي يحمي الوطن منذ أكثرمن 200 عام

أنا من مارينز الولايات المتحدة الأمريكية

أشبه جنود الجيش، وأتحدث كالبحارة

وأتفوق عليهما كليهما

سرقنا النسر من سلاح الجو

والحبل من الجيش

والمرساة من البحرية

وفي اليوم السابع، حين أراد الرب

عبرنا محيطه

ونعبر محيطه منذ ذلك الحين

محاربون خلال الليل

عاشقون خلال النهار

وسكيرون إن أردنا

نحن مشاة بحرية الرب.

أبي العزيز، لقد فاجئني بابز بخبر رحيله، فلم أراجع ما كتبته إليك هنا. ستجد أنها ثرثرات، وملاحظات، أخذت في كتابتها في الأشهر الماضية، دون هدف واضح في البداية، ثم فكرت أخيراً بأنني قد أجني منها بعض المال.

إن جيف يقول إن النيويوك تايمز تدفع جيداً لمثل تلك المذكرات. وربما أستطيع بيعها إلى الواشنطن بوست أيضاً، أو حتى إلى بالتيمور صن. لكن حاول ألا تقع هذه الرسالة في الأيدي الخطأ، بالرغم من أنني لا أتصور أنهم كثيرون هناك عندك في تولوز، فربما قد يفصلونني من الخدمة، أو يوقعوا بي عقاباً آخر متناكاً إن وقعت الرسالة في أيديهم. بابز قال إنه يسافر إلى فرنسا من حين لآخر، فقلت له أن يسلمك الرسالة شخصياً لأنني أشك في خدمة البريد، فوافقني بابز على ذلك وقال إنهم ولابد سوف يراقبون بريده عقب عودته إلى الديار.

احتفظ بالرسالة عندك، فربما أمر عليك ذات يوم وأطلبها منك. وإن اضطررت لإعطائها لأحد أصدقائك لترجمتها، فأرجو

أن يقتصر الأمر على من تثق فيهم فقط. لماذا لم تتعلم الإنجليزية يا أبي؟! أمي قالت إنك ذكي جداً، وباستطاعتك التحدث بالإنجليزية كشكسبير إن أردت في غضون أشهر قليلة! ولكنها قالت أيضاً إنك تحتقر الثقافة الأمريكية ولذلك لا تريد أن تتعلم الإنجليزية. لماذا تحتقر الثقافة الأمريكية يا أبي؟! حسناً، سنترك هذا الأمر حتى نلتقي، وربما حينئذ سأكون أنا قد تعلمت الفرنسية.

أنا بخير حتى الآن، فور أن أنتهي من كتابة هذه السطور الأخيرة، وأسلم الرسالة إلى بابز، سوف نتحرك إلى قاعدتنا في جنوب العراق، وسيكون من الصعب هناك إرسال أية رسائل من هناك، لأن كل شيء هناك يخضع للتفتيش الدقيق والمراقبة والقراءة من قبل القيادة. لكنني بخير حتى الآن، وأتمنى أن أعود إلى الوطن سالماً، لا كما عاد هوبرت المسكين إلى وهو فاقد لكلتا ساقيه! قالوا إنهم قد ركبوا له أطرافاً صناعية بـ 80 ألف دولار! تخيل! أطرافاً صناعية بـ 80 ألف دولار! وماذا سيأكل، وكيف سيعمل، وماذا ستفعل له الأطراف الصناعية؟! أعني أن السليم البدن لا يجد فرصة اليوم للعمل، فما بالك بصاحب الأطراف الصناعية؟! لو كنت مكانه لقلت لهم أن يعطوني الـ 80 ألف دولار، ولا يركبوا لي أية سيقان صناعية، كان ذلك سيكون أفضل، أليس كذلك؟!

على العموم أنا لم أصب بعد، وحالي أفضل من حال هوبرت. ولكن إن وقعت الرسالة في الأيدي الخطأ فقد يصير حالي مثل حال سلفر! إنه من بالتيمور هو أيضاً، ولسوء حظه فقد

سرحوه من المارينز منذ عدة أشهر وقالوا إنه قد قام ببعض الأعمال الغير مشرفة هنا من التي تعد جرائم حرب وكل ذلك الخراء، هل تعلم إين هو الآن؟! علمت من أحد الفتية من بالتيمور أنه قد أدمن المخدرات، وأفلس تماماً، وهو ينام الآن مع المشردين تحت جسر بالتيمور! إلى هذا الحد يستطيعون أن ينيكوك إن أرادوا!

أراك بخير يا أبي.

دان

بغداد: 2005/9/28